

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

كلية أصول الدين و الشريعة و الحضارة
الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية - قسنطينة

قسم الدعوة و الإعلام و الاتصال

الرقم الترتيبي : / 2003 م
رقم التسجيل للطالب [ة] /

ابن الجوزي و منهجته الدعوية الإصلاحية

بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الدعوة و الإعلام و الاتصال
شعبة الدعوة

الباحث [ة] : نورالدين طوابة

الجامعة الأصلية	الرتبة	الاسم و اللقب	أعضاء اللجنة
جامعة الأمير عبد القادر	أستاذ محاضر	رابح دوب	1 - الرئيس
جامعة أدرار	أستاذ محاضر	محمد الطاهر شوشان	2 - المقرر
جامعة أدرار	أستاذ محاضر	محمد خالد اسطنبولي	3 - عضو
جامعة الأمير عبد القادر	أستاذ محاضر	مولود سعادة	4 - عضو
جامعة باتنة	أستاذ محاضر	محمد زرمان	5 - عضو

نوقش (ت) يوم 24 صفر 1424 هـ الموافق لـ : 26/أفريل 2003

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
	• الزناء
	• الشكر و العرفان
1	• المقدمة
1	• الباب الأول : ابن الجوزي و عصره
2	- الفصل الأول : عصر ابن الجوزي
3	تمهيد
1	- المبحث الأول : الحالة السياسية و أمنية
1	أهم الأحداث و الظواهر السياسية
	إسهامات ابن الجوزي في الحالة السياسية
9	- المبحث الثاني : الحالة الاجتماعية و الأخلاقية
10	طبقات المجتمع
12	أهم الظواهر التي ميزت الحالة الاجتماعية و الأخلاقية
14	إسهامات ابن الجوزي في الحالة الاجتماعية
15	- المبحث الثالث : الحالة الاقتصادية
15	مميزات الحالة الاقتصادية
17	إسهامات ابن الجوزي في الحالة الاقتصادية
18	- المبحث الرابع : الحالة العلمية و الثقافية
18	مميزات الحالة العلمية و الثقافية
22	إسهامات ابن الجوزي في الناحية العلمية
23	- الفصل الثاني : الدعوة في عصر ابن الجوزي
21	- المبحث الأول : حالة الدعوة و معوقاتنا في عصر ابن الجوزي
24	تمهيد عن حالة الدعوة
24	معوقات الدعوة في عصر ابن الجوزي
28	- المبحث الثاني : مراكز الدعوة في عصر ابن الجوزي

28	المساجد
30	المدارس
33	المكتبات
34	الرباطات
37	- المبحث الثالث : علماء الدعوة في عصر ابن الجوزي
37	بعض علماء الوعظ و جهوده في الدعوة
43	الفصل الثالث : حياة ابن الجوزي
44	- المبحث الأول : حياته الأسرية.
44	اسمه و نسبه
45	مولده
46	نشأته
47	أسرته
49	صفاته و عاداته
52	- المبحث الثاني : حياته العلمية
53	طلبه للعلم
55	رحلته في طلب العلم
57	أقوال العلماء في ابن الجوزي و تذاوهد عليه
59	- المبحث الثالث : شيوخه و تلاميذه
59	شيوخه
60	تلاميذه
71	- المبحث الرابع : مذهبه الفقهي و العقدي
71	مذهبه الفقهي
73	مذهبه العقدي
79	- المبحث الخامس : محلته و وفاته
79	محلته
81	وفاته
83	- الفصل الرابع : آثار ابن الجوزي

81	المبحث الأول : موجز عن سيرة ابن الجوزي
88	المبحث الثاني : مؤلفات ابن الجوزي
89	الوعظ و الدعوة و التربية
102	الكتب الفقهية
103	التفسير و علوم القرآن
104	كتب الحديث و رجاله
106	كتب في الثقافة العامة
107	كتب التاريخ و التراجم
111	الكتب المخطوطة
121	المبحث الثالث : ما أثر عنه من فتاوى وأقوال وأشعار و مواظ
122	نماذج من أقواله
125	نماذج من فتاواه
128	نماذج من أشعاره
130	نماذج من وعظه
133	المبحث الرابع : ما كتب عنه من دراسات وأبحاث
133	الدراسات و التحقيقات
136	البحوث و المقالات
139	• الباب الثاني : الدعوة عند ابن الجوزي
140	— الفصل الأول : الدعوة و الداعية عند ابن الجوزي
141	— المبحث الأول : تعريف الدعوة و حكمها و فضلها
141	تعريف الدعوة لغة و اصطلاحاً
145	حكم الدعوة إلى الله و فضلها
147	حكم الدعوة إلى الله عند ابن الجوزي
149	— المبحث الثاني : مصادر الدعوة عند ابن الجوزي
149	كتاب الله و سنة رسوله
152	تأثره بشيوخه
153	الحسن البصري

151	ابن عقيل
155	ابو حامد الغزالي
157	كتب التصوف و سير السلف
160	المبحث الثالث : تعريف الداعية و صفاته
160	تعريف الداعية
161	تعريف ابن الجوزي للداعية
163	صفات الداعية
175	- المبحث الرابع : مؤهلات الداعية و حظ ابن الجوزي منها
175	علو الهمة
177	الاهتمام بالمظهر
179	الزهد و الورع
181	استغلال الوقت
182	قوة الأسلوب و حضور البديهة
181	مخاطبة الناس على قدر عقولهم
187	ادراكه لنفسية الجماهير
188	التبحر في العلوم
192	- الفصل الثاني : أساليب الدعوة و وسائلها عند ابن الجوزي
193	- المبحث الأول : أساليب الدعوة عند ابن الجوزي
193	تعريف الأسلوب
195	أسلوب الحكمة
200	أسلوب المناظرة
203	أسلوب الموعظة
208	الترغيب و الترهيب
218	- المبحث الثاني : وسائل الدعوة عند ابن الجوزي
218	تعريف الوسائل
219	التصنيف
224	التعليم

225 جهود ابن الجوزي التعليمية
231 الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر
232 حكم الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر
235 آداب الأمر بالمعروف و خطواته
238 وجوه الإنكار و مراتبه
243 القدوة الحسنة
246 الفصل الثالث : منهج دعوة ابن الجوزي و خصائصه
247 - المبحث الأول : مناهج الدعوة و تطبيق ابن الجوزي لها
247 تعريف المناهج الدعوية
247 المنهج العاطفي
251 المنهج العقلي
256 المنهج الحسي
259 - المبحث الثاني : ما ركز عليه ابن الجوزي في منهجه
271 - المبحث الثالث : خصائص منهج ابن الجوزي
284 - الفصل الرابع : أصناف المدعوين عند ابن الجوزي
285 - المبحث الأول : المنعر حقوقه و الهدى من دعوته
285 تعريف المدعو و حقوقه
286 أصناف المدعوين
290 الهدف من دعوة المدعوين
293 - المبحث الثاني : ابن الجوزي و دعوة الخلفاء و الحكام
293 - مكانة ابن الجوزي عند الحكام و موقفه منهم
301 القواعد الأساسية في دعوة ابن الجوزي للخلفاء و الحكام
306 نماذج من وعظ ابن الجوزي للحكام
314 - المبحث الثالث : ابن الجوزي و دعوة العوام
314 نظرة ابن الجوزي للعوام
317 منهج ابن الجوزي، في دعوة العوام
322 أثر المواظبة على العوام

327	مجالسه الدعوية مع العواد
332	- المبحث الرابع : ابن الجوزي و دعوة أهل الكتاب
333	منهج ابن الجوزي في دعوة أهل الكتاب
338	الباب الثالث : محاور دعوة ابن الجوزي و تأثيره و ما اخذ عليه
339	الفصل الأول : محاور التربية و التعليم
341	- المبحث الأول : ابن الجوزي و تربية النفس و البدن
343	تمهيد
345	تعريف ابن الجوزي للنفس
347	صفات النفس عند ابن الجوزي
349	أنواع النفوس عند ابن الجوزي
352	منهج ابن الجوزي في تربية النفس
371	تربية البدن
374	منهج ابن الجوزي في تربية البدن
381	- المبحث الثاني : المرأة و الأولاد عند ابن الجوزي
381	المرأة عند ابن الجوزي
385	تربية الأولاد
390	قواعد تربية الأولاد عند ابن الجوزي
394	تعليم الأولاد عند ابن الجوزي
400	- المبحث الثالث : العلم و العلماء عند ابن الجوزي
400	آراء العلماء في العلم و التعليم
405	العلم و التعليم عند ابن الجوزي
410	آداب طلب العلم و آفاته
417	العلماء عند ابن الجوزي
420	موقف ابن الجوزي من علماء عصره
429	- الفصل الثاني : محاور الدعوة و الإصلاح
430	- المبحث الأول : نظرة ابن الجوزي للوقت و الدنيا و الموت
430	الوقت عند ابن الجوزي

132	سبب ضياع الأوقات
134	منهج ابن الجوزي في المحافظة على الأوقات
140	نظرة ابن الجوزي إلى الدنيا
142	منهج ابن الجوزي في التحذير من الدنيا
146	نظرة ابن الجوزي إلى الموت
147	منهج ابن الجوزي في التحذير من الموت
151	- المبحث الثاني : ابن الجوزي و الفصاض
151	موقف ابن الجوزي من الفصاض و ما أخذ عليه
158	منهج ابن الجوزي في نقد الفصاض
159	حكم رواية الإسراييليات و موقف ابن الجوزي منها
163	- المبحث الثالث : ابن الجوزي و الصوفية و الزهد
163	مفهوم التصوف و موقف ابن الجوزي منه
168	منهج ابن الجوزي في نقد الصوفية و ما أخذ عليهم
186	الزهد و التصوف في نظر ابن الجوزي
190	- المبحث الرابع : ابن الجوزي و أهل البدع
190	تعريف البدعة و تحذير ابن الجوزي منها
195	طوائف أهل البدع و منهج ابن الجوزي في التعامل معهم
201	- الفصل الثالث : تأثير ابن الجوزي و ما أخذ عليه
203	- المبحث الأول : تأثير ابن الجوزي في ميدان الدعوة
203	أثر ابن الجوزي في جماهير المدعوين
210	تأثير ابن الجوزي على العلماء في ميدان الدعوة و الوعظ
219	- المبحث الثاني : بين ابن الجوزي و الشيخ محمد الغزالي
239	- المبحث الثالث : تأثير ابن الجوزي في ميدان العلم
249	- المبحث الرابع : ما أخذ على ابن الجوزي
249	الترفع و الثناء على نفسه
251	نقل الأخبار المبالغ فيها دون تمحيص
253	ذكر مرويات غير معقولة عن الصحابة

554	الإغراق في استخدام منهج الإشارة
557	تخطيطه في جملة من القضايا
558	نظراته السوداوية للعوام
559	نظراته الدونية للمرأة
561	جراته في بعض القضايا
563	استدلاله بالموضوع و الضعيف في مواعظه
566	الغلط في التصنيف
567	شدته على العلماء
573	الخاتمة
576	الفهارس العامة
577	فهرس الآيات
588	فهرس الأحاديث
591	فهرس الأعلام
595	فهرس الأماكن و البلدان
598	فهرس الأجناس و الأمم
602	فهرس المصادر و المراجع
620	فهرس الموضوعات

المقدمة

الحمد لله حمدا كثيرا يليق بجلال وجهه و عظيم سلطانه ، و الصلاة و السلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد و على اله و صحبه و من سار على هديه و نهجه إلى يوم الدين .. و بعد :

فقد خاضت الدعوة الإسلامية منذ أيامها الأولى و إلى اليوم معارك ضارية مع مختلف القوى المعادية في ميادين القتال حينا و في ساحات الفكر حينا آخر ، فكان لابد لهذا الدين من يحمل لواءه من العلماء و ورثة الأنبياء على مر العصور حتى يحقق الخلود و الاستمرار ، و كان من نصيب الأمة الإسلامية أن أنجبت العديد من العلماء الأفاضل الذين كان لهم الدور البارز في تبليغ دعوتهم للناس ، و من أولئك العلماء الذين حملوا لواء الدعوة إلى الإسلام و تبليغه الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي - رحمه الله - (510 - 597هـ)

لقد كان الإمام شعلة متقدة في مجال الدعوة طيلة حياته فلم يعرف الهدوء و الاستقرار أبدا فلم يكن يرى إلا بين الكتب مؤلفا أو مطالعا أو بين جماهير المدعوين داعية و واعظا فكانت نتائج حياته الدعوية : مئات المصنفات و مثلها من مجالس الدعوة و العلم في مختلف أرجاء بغداد تارة فيها المذنبون و أسلم فيها أهل الكتاب و المشركون . و لم ينضب معين ابن الجوزي حيث لا تزال الكثير من آرائه في مجال الدعوة و الإصلاح و التربية و التعاليم صالحة إلى اليوم لتقويم المجتمع و تربية أفراده .

١ - جوهر البحث و أهميته :

لقد اشتهر ابن الجوزي رحمه الله و الموسوعة و الغزارة العلمية و العمق و الأصالة في كثير مما كتب و دعا إليه ، فكان فقيها الفقهاء و أدبيا شاعرا بين الأدباء و محدثا حافظا بين المحققين ، و مؤرخا بين المؤرخين ، و مفسرا بين المفسرين ، و صاحب دراسات متميزة و متنوعة لكونه تحدث في جل المواضيع التي تهم حياة المسلم ، فكتب عن ذم اليهود و عن النساء و الأذكياء و الحمقى و المغفلين ، و كتب في التاريخ و السير و المناقب و التفسير و الحديث .. الخ .

ومما تجدر الغشارى إليه أن منهج ابن الجوزي لم يكن مقتصرًا على أمور العقيدة و الأحاديث و التفسير بل امتد إلى سائر الاختصاصات و ميادين البحث الأخرى.

و ليس من مهمة هذا البحث تتبع فكر الرجل فقيها أو مفسرا أو مؤرخا فتلك مجالات أخرى أفردت وتفرد لها بحوث خاصة، إنما أردت التركيز على جانب واحد مهم من فكر ابن الجوزي و الذي تبين من خلال مطالعاتي أنه لم يعالج لحد الآن كما ينبغي و هو الجانب الدعوي الإصلاحى عند ابن الجوزي ، و ذلك نظرا لعدم وضوح هذا المنهج بسبب تفرق فكر الرجل في ثنايا كتبه الكثيرة و تكراره لكثرة مؤلفاته ، أضف إلى ذلك عدم وجود الكثير من هذه المؤلفات .

و قد ركزت على منهجه الدعوي الإصلاحى لعدة عوامل أهمها :

1 - أن كتاباته في المجال الوعظى الدعوي غير قليلة فلا يكاد يمر بنا مؤلف من مؤلفاته إلا و نجد ضمنه عدة فقرات أو صفحات تعالج قضية من قضايا الدعوة و الإصلاح و التربية .
2 - أن ابن الجوزي احترف عملية الوعظ و التأديب و التربية لأفراد المجتمع منذ نشأته، فقد وعظ منذ صغره و فاق أقرانه فيه ، فنشأت له في ذلك ملكة عجيبة و بديهية حاضرة ، فتأب على يده الآلاف و حضر مجالسه الحكام و الوزراء .

3 - أردت الكشف عن شخصية ابن الجوزي كداعية من الطراز القليل و النادر، و عن مدى تأثيره في عصره و بعد عصره، و عن مدى صلاحية فكره الدعوي الإصلاحى واستمراريته و فعاليتها في مجال الفكر و الدعوة و التربية في هذا العصر .

4 - كشف النقاب عن موسوعية هذه الشخصية التي كانت طرازا غريبا بين علماء الإسلام لانحساب أن نظراءه كثيرون ، فالكثير من العلماء في يوم المحدث و الفقيه و المفسر و الأديب أما ابن الجوزي فقد جمع كل هذه الألقاب في شخصه ؛ و لم يترك ميدانا من ميادين العلم إلا أدلى بدلوه فيه من تفسير و فقه و حديث و مناقب و سير و آداب و مواعظ و شعر و نثر و خطابة و طب ، فما من أديب إلا و كتبه من مناهل أدبه ، و ما من واعظ إلا و مآثره عدته و زاده ، و قس على ذلك المحدث و المؤرخ و غيرهم .

5 - تعريف طلاب العلم و الباحثين بمدى أهمية آراء ابن الجوزي في مجال الدعوة و الإصلاح ؛ فالرجل يكاد يكون مدرسة فريدة نتيجة ذرانه المستقلة و شدة و لعه بالوعظ و التربية و التحديث للناس و شدة حبه للعلم و التأليف . و قد طبق ابن الجوزي هذا الأمر فعلا في حياته فألف و وعظ حتى سارت بذكره الركبان .

الإسهام في إحياء جزء من الفكر الوعظى و الدعوي المبتوث في ثنايا التراث الإسلامى العريق و جمعه في رسالة علمية تسهل على طلبة العلم و الباحثين الرجوع إليها عند الحاجة

كما تسهم في إصلاح المجتمع و نشر الفضيلة ، و كذلك تزويد المكتبة الإسلامية عموما والجامعية على الخصوص ببحث قد يكون مرجعا مهما لبحوث أخرى في المستقبل .

7 - تبصير المنبهرين بالثقافة الغربية ممن قصر التربية و الإصلاح على الغربيين دون غيرهم ، رغم وجود أئمة كبار من علماء الإسلام في التربية و الإصلاح و الدعوة كالإمام الغزالي و القاسمي و ابن سحنون و ابن جماعة و ابن الأزرقي و ابن القيم و ابن تيمية و ابن الجوزي الذي أريد تقديمه للدارسين كعالم له إسهامات جادة في ميدان الدعوة و للتربية و الإصلاح الديني و الاجتماعي .

8 - تبين أن منهجية الإصلاح التربوي و الدعوي عند ابن الجوزي تندرج بشكل عام في إطار حركة الدعوة الإسلامية التي ظهرت بذورها في العالم الإسلامي منذ القرون الأولى على يد لفيف من العلماء في مختلف البقاع و الأصقاع ، و هذا البحث يلقي أضواء قد لا تكون كافية لكنها تزيل الغبار على جانب مهم من جوانب هذه الحركة التي تعدّ النواة الأولى للانطلاقة الجادة لحركة الدعوة الإصلاحية في القرون المتأخرة .

2 - إشكالية البحث و تساؤلاتها :

استمدت إشكالية هذا البحث من حياة ابن الجوزي كداعية و مصلح نهل من الثقافة الإسلامية و من ثقافات عصره المختلفة ، و لما كانت الدراسات السابقة تناولت جوانب محددة من فكره ، فإنها لم تتناوله من المنظور الدعوي الإصلاحى بشكل مدقق و شامل .

لذلك فقد كانت نقطة انطلاقي في هذا البحث نظرا لأن كتب تاريخ الدعوة و رجالها لم تعط الأهمية اللازمة لإسهامات ابن الجوزي في تاريخ الفكر الدعوي .

و لعل هذا للبحث سيكون بمثابة محاولة جادة للتعرف على أسلوب ابن الجوزي و منهجه الدعوي ، و الحلول التي اقترحتها لمواجهة مشكلات عصره و إعطاء الحلول الرشيدة لها باعتبار أن الدعوة حركة تغيير و إصلاح .

- أما عن تساؤلاتها : فإنني من خلال هذه الدراسة حاولت الإجابة عن التساؤلات الآتية

- 1 - كيف كانت حالة الدعوة في عصر ابن الجوزي؟
- 2 - ما موقف ابن الجوزي ومنهجه في معالجة قضايا عصره وخاصة فيما يتعلق بالدعوة والإصلاح والتربية؟.
- 3 - ما هي أهم مصادر فكره الدعوي الإصلاحى؟
- 4 - ما هي آراؤه في مجال التربية والتعليم والدعوة والإصلاح على وجه التحديد؟

٤ - ماذا يمكن أن يستفاد من فكر ابن الجوزي الدعوي الإصلاحى اليوم .

٥ - أهداف البحث :

ركزت في هذا البحث على جملة من الأهداف أهمها :

١ - الكشف عن الفكر الدعوي الإصلاحى لابن الجوزي و استنباط الأساليب و الوسائل التي استخدمها في تبليغ دعوته .

٢ - الكشف عن منهجه الدعوي و مدى استفادته من المنهج القرآني و النبوي في ذلك .

٣ - الكشف عن عملية التأثير و التأثير في مجال العلم و الدعوة التي استمرت بين علماء الإسلام قوية خصبة منذ قرون خلت ، و ذلك من خلال عدد من الأمثلة أبرزها تأثير الشيخ الغزالي - رحمه الله - بابن الجوزي و منهجه الدعوي .

٤ - شرح آراء ابن الجوزي و مقارنتها بآراء غيره من العلماء و تقويمها في ضوء كتاب الله - عز و جل - و سنة رسوله - صلى الله عليه و سلم - .

٥ - إبراز حاجة الدعوة و الدعاة في هذا العصر إلى تجارب إخوانهم من علماء و دعاة القرون الماضية الذين حملوا لواء الدعوة و التغيير في مجال العمل الإسلامى ، من أجل أن تستفيد من تجاربهم مدارس الدعوة و الإصلاح و التربية، و لا تبقى رهينة نظريات و تجارب الأمم الأخرى .

٦ - الإسهام فى وضع أبداً فى صرح الفكر الإسلامى عموماً و الدعوي الإصلاحى على وجه الخصوص مع تبيين ما ساهم به هذا الفكر فى الحركة الدعوية فى ربوع العالم الإسلامى قديماً و مدى الاستفادة منه حديثاً ، إذ لا مانع من هذه الاستفادة فى مجال الدعوة من آراء العلماء فى ضوء القرآن و السنة ، و فى حدود الهيكل العظام المتكامل للمسار الدعوي المشتق منهما بشكل موضوعي لا يتناقى مع روح هذا النظام و هدفه و أسسه التي بنى عليها ، حيث لا يخفى على النابهين دور مثل هذه الدراسات عن شخصيات مسن قيادة الفكر و الدعوة و التجديد دورهم فى دفع المشاريع الدعوية و الثقافية و تجسيدها على أرض الواقع .

- حدود البحث و مصادره :

لتحقيق هذه الأهداف اعتمدت فى بحثي هذا بشكل مبدئي على :

أولاً : مؤلفات ابن الجوزي المطبوعة بصفة عامة وخاصة التي لها علاقة بمجال الدعوة و الوعظ و التربية .

كما استعنت أيضا بكتابه الهام " المنتظم " في كتابة التراجع و توثيق الكثير من الحوادث التاريخية و ذلك لكون ابن الجوزي خير شاهد على عصره ، زد على ذلك فقد تصفحت كتب من جاء بعده من العلماء فوجدتهم ينقلون عنه كابين كثير في البداية و النهاية و ابن رجب في الذيل و ابن الأثير في الكامل و غيرهم ، لكنني لم أتجاهل طبعاً المراجع الأخرى في هذا الباب .

ثانياً : حاولت الإطلاع قدر الإمكان على ما استطعت الوصول إليه من تراث ابن الجوزي المخطوط و الاستفادة منه في مجال البحث .

5 - منهج البحث :

لا شك أن طبيعة الموضوع هي التي تفرض على الباحث المنهج المناسب الذي يخوض به غمار البحث ، لذلك فقد استخدم الباحث في تراسته هذه المناهج التالية :

1 - المنهج التاريخي و ذلك لكون ابن الجوزي متأثر بمن سبقه من علماء الإسلام كالغزالي و ابن عقيل و الحسن البصري و غيرهم .

2 - المنهج الوصفي التحليلي : و قد تم استخدامه عند تحليل النصوص الواردة في كتب ابن الجوزي أو كتب غيره من العلماء ، أو عند التعقيب على تلك النصوص لاستخلاص آراء ابن الجوزي في مجالات الدعوة و الإصلاح و التربية ، إلى غير ذلك مما يساعد على ضبط العلاقة بين الوصف والتشخيص و بين الأحكام و الاستنتاجات ، و مما لا شك فيه أن هذا المنهج يشتكى مواصفاته هو أحسن المناهج لإنجاز هذا البحث و أمثاله من البحوث .

3 - المنهج الاستنباطي : و هو المنهج الذي يبذل فيه الباحث جهده في دراسة النصوص و محاولة استنباطها لاستخراج ما كانت الشخصية المدروسة تريد الوصول إليه أو التعبير عنه سلباً أو إيجاباً ، و عن طريقه قام الباحث باستنباط جملة من الآراء و الأفكار من خلال تحليل أقوال ابن الجوزي و أفعاله .

ومن خلال استخدام هذه المناهج أثناء البحث تمكن الباحث من الكشف عن المسار العام لدعوة ابن الجوزي وما تميز به من خصائص واتفرد به من مميزات .

6- مصطلحات البحث ورموزه :

تكررت في بحثنا هذا جملة من المصطلحات ارتأى الباحث ضرورة تحديد مفهومها المراد منه أثناء البحث :

1- المهج: ويقصد به المضمون الذي قسم بطريقة من أجل الوصول إلى هدف معين.

2 - الدعوة : يقصد بها الدعوة إلى الإسلام ، أما عند ابن الجوزي فأقصد بها دعوته مختلف أصناف المدعويين بشتى الأساليب و الوسائل المتاحة في عصره .

3 - الإصلاح : المراد به الدعوة لأن الإصلاح جزء لا يتجزأ عن الدعوة و قد يكون هـ المقصد من الدعوة و هدفها .

4 - التربية : أقصد بالتربية التأديب في جميع جوانبه المادية و الروحية و هي تعدّ الرياضة في مصطلح ابن الجوزي

5 - الفكر الدعوي : ما أنتجه الدعاة من فكر يخص الدعوة و طرق و وسائل و أساليب تبليغها على مر العصور ، و هو بذلك مجموع الآراء التي تتعلق بالدعوة من جميع هذا الجوانب التي يسعى هذا الفكر من أجل بناء المسلم المتكامل عقيدة و سلوكا .

7 - الهوامش :

1 - في هامش المصادر و المراجع بدأت بكتابة المرجع أولاً ثم صاحبه ثم المعلومات الأخرى و ذلك لأن هذا أسهل و أوضح في نظري ، أما كتب ابن الجوزي في الهامش فقد كتبتها دون ذكر للمؤلف ، فكل كتاب لا أكتب مؤلفه فهو لابن الجوزي ، ما عدا المصنفات المشهورة فإنني لا أذكر أصحابها مرارا .

2 - في كل تراجم الذين ترجمت لهم في الهامش اقتصرنا على ترجمة مختصرة لأهم الأعلام أو الأماكن التي تتطلب التوقف عندها و التي لها علاقة بالدعوة عموماً .

3 - الكتب التي أحيل إليها القارئ لم أدخلها في قائمة المراجع .

4 - استعملت للضرورة بعض المراجع بطبعات مختلفة ، و ذلك لاستعمالي مراجع مكتب جامعة الأمير عبد القادر ، و مكتبة جامعة أدرار التي اشتغل بها و لا شك أن المراجع تختلف من طبعة لأخرى في كثير من الأحيان ، و قد أشرت إلى ذلك في الهامش و في فهرس المصادر و المراجع .

5 - أما الرموز فلا يوجد منها كثير فمثلاً :

د ت : دون تاريخ الطبع .

مج:مجلد

6-الآيات القرآنية :اعتمدت في تخريجها على قراءة حفص

7-الأحاديث النبوية: في تخريجها اعتمدت على كتب الصحيحين ثم كتب السنن ثم كتب الحديث المعتمدة الأخرى، ما عدا فتح البارفإذا ذكرته فالحديث مأخوذ من البخاري

منذ حصول الباحث على موافقة الهيئة العلمية المختصة من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية على موضوع الأطروحة بدأ بجمع المادة العلمية من مختلف الدراسات والمؤلفات سواء مما كتبه ابن الجوزي أو مما كتب عنه من أبحاث و دراسات و تحقيقات .

و استطاع الباحث - بعد رحلات إلى خارج الوطن - الحصول على العديد من البحوث العامة و المتخصصة منها القريب - نوعا ما - من الموضوع و منها ما هو بعيد لا يخدم صلب الموضوع .

و من باب الأمانة العامة سأورد في هذا الشخص مسدا عاما و مركزا للدراسات السابقة التي لها صلة مباشرة بالمجال الدعوي الإسلامي سواء التي نشرت أم لم تنشر و جوهرا الاختلاف و الاتفاق مع تراثي هذه ، و من هذه الدراسات .

1 - ابن الجوزي الواعظ و منهجه في الدعوة إلى الله و الموازنة بينه و بين منهج الإمام الغزالي : رسالة دكتوراه مخطوطة للباحث جامعة علي محمد الخولي ، نوقشت بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر .

و قد تضمنت هذه الرسالة عدة أبواب و فصول ، و من خلال عنوانها يظن أنها تتحدث عن الموازنة بين منهج ابن الجوزي و الغزالي في الدعوة إلى الله ، لكن حقيقة الأمر غير ذلك فبعد اطلاعي على الرسالة تبين لي أنها عبارة عن موازنة بين كتاب " إحياء علوم الدين " للغزالي و بين " منهاج القاصدين " لابن الجوزي ، و لم يتطرق الباحث لبيان منهج الدعوة إلى الله لا عند الغزالي و لا عند ابن الجوزي ، و لم أجد في الرسالة مما يتعلق بمنهج الدعوة عند ابن الجوزي إلا تسع صفحات من رسالة تعدت صفحاتها 500 صفحة سلمتها للأستاذ المشرف ايطلع على حقيقة الأمر و لابساته، و هذا الذي زاد من تصميمي و دفعني المضي في بحثي عن منهج ابن الجوزي في مجال الدعوة و الإصلاح ، و ذلك أن منهج الرجل لا تسعه رسائل بحالها فكيف ببضعة صفحات ، أضف إلى ذلك فإن الباحث لم يتحدث مطلقا لا عن الدعوة ولا عن الداعية وصفاته ولا عن أصناف المدعوين و لا عن أساليب الدعوة و وسائلها عند ابن الجوزي فكان البحث ترجمة لحياة ابن الجوزي و الغزالي أكثر من أي موضوع آخر .

2 - منهج ابن الجوزي في الدعوة إلى الله : رسالة دكتوراه مخطوطة للباحث عبد الرحيم ابن محمد المغدوي نوقشت بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة 1410هـ.

تحدث الباحث في رسالته هذه عن الدعوة إلى الله و حكمها و بعض صفات الداعية وأسلوب دعوة ابن الجوزي للعوام و الحكام ، كما تحدث أيضا عن المناهج الدعوية و مدى استفادة ابن الجوزي منها ، ثم ركز في الباب الأخير من الرسالة الذي استغرق أكثر من 100 صفحة عن تحذير ابن الجوزي من البدع و من تلبس إبليس على كثير من الطوائف .

و بعد اطلاعي على رسالة الباحث – و رغم ما فيها من جهد واضح – لاحظت أنها لا تختلف كثيرا عن موضوع بحثي من حيث العنوان و لكنها ابتعدت كثيرا عنه من ناحية الخطة و المضمون ، إذ لم يتعرض الباحث إلى مصادر الدعوة عند ابن الجوزي ، و لا إلى منهج ابن الجوزي و طريقة تأثيره على اصحابه المدعويين ، كما لم يتعرض إلى جميع المناهج التي استخدمها ابن الجوزي في دعوته و لم يتعرض لخصائص منهجه الدعوي وما انفرد به عن بقية الدعاة و لا إلى الموضوعات التي ركز عليها ابن الجوزي في دعوته مما عدا موضوع تحذير ابن الجوزي من البدع و أهلها و لا أظن أن هذا هو أهم ما عالجه ابن الجوزي في حياته الدعوية .

د – مواعظ ابن الجوزي دراسة تحليلية فنية : رسالة ماجستير مخطوطة في اللغة العربية و ادبها للباحث عرفة حنمي عباس ، نوقشت بكلية الآداب جامعة القاهرة سنة 1992 م . هذه الرسالة واضحة من عنوانها فهي تتحدث عن مواعظ ابن الجوزي و خطبه من الناحية الفنية و الأدبية ، حيث اعتنى بتحليلها من حيث الأسلوب و البلاغة ، و لم يرد على لسان الباحث أي شيء عن الدعوة و منهجها .

و بعد هذا العرض لمضمون الدراسات السابقة و وجه الخلاف بينها وبين هذه الرسالة، وجد الباحث أن دراسته تختلف عما كتبه الباحثون من قبل في كثير من الفصول و المباحث .

9 – خطة البحث :

حاولت من خلال معاشتي للموضوع طيلة هذه السنوات أن أحصره في خطة تكون شاملة قدر المستطاع و ذلك نظرا لاتساع الموضوع و تشعبه و تعدد صعوباته و قلة مادته العلمية في بعض المباحث و قد كانت الخطة التي سرت فيها مع البحث على هذا النحو :

تتكون الرسالة في إطارها العام من ثلاثة أبواب و كل باب جمع عدة فصول حسب أهميته .

الباب الأول: ابن الجوزي وعصره وحالة الدعوة فيه.

ويتكون من أربعة فصول وهي:

الفصل الأول: عصر ابن الجوزي

و بينت فيه طبيعة عصر ابن الجوزي من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والعلمية و ما تميزت به كل حالة . مع ذكر مختصر عن إسهام ابن الجوزي في كل ناحية من هذه النواحي .

الفصل الثاني : حالة الدعوة في عصر ابن الجوزي

تحدثت فيه بشيء من التفصيل عن حالة الدعوة و مسارها و المعوقات التي صادفتها في هذا العصر ، ثم عرّجت إلى ذكر أشهر مراكز الدعوة و علمائها .

الفصل الثالث : حياة ابن الجوزي

و فيه ترجمة وافية عن حياة ابن الجوزي الشخصية والعلمية والأسرية و شيوخه وتلاميذه ثم ذكرت في الأخير مذهبه الفقهي و العقدي ثم أنهيت الفصل بالحديث عن محنته و وفاته .

الفصل الرابع : آثار ابن الجوزي و ما كتب عنه من دراسات

تناولت فيه بالتلخيص كل ما توصلت إليه من مؤلفات ابن الجوزي ؛ المطبوعة والمخطوطة ثم ذكرت نماذج مما أثر عن ابن الجوزي من أقوال و فتاوى و أشعار و مواعظ ، لأخلص في الأخير الحديث عن ما توصلت إليه مما كتب عن ابن الجوزي من دراسات و أبحاث .

الباب الثاني : الدعوة عند ابن الجوزي

و يتكون من أربعة فصول هي :

الفصل الأول : الدعوة و الداعية عند ابن الجوزي

و فيه وضحت تعريف الدعوة إلى الله و حكمها و فضلها ، ثم انتقلت للحديث عن مصانير الدعوة عند ابن الجوزي لأتحدث بعدها عن الداعية و صفاتها و مؤهلاته و حظ ابن الجوزي منها .

الفصل الثاني : أساليب الدعوة و وسائلها في منهج ابن الجوزي

حاولت في هذا الفصل حصر أهم الأساليب التي استخدمها ابن الجوزي في تبليغ دعوته ومدى توفيقه في ذلك ، و التي كان من أهمها أسلوب الحكمة و المناظرة و الموعدة بمختلف طرقها كالقصة و الترغيب و التهيب ، مع تبيين ما كان لوعظ ابن الجوزي من أثر طيب على المدعوين ، كما تطرقت إلى أهم الوسائل التي كانت متاحة لتبليغ الدعوة وتذكير الناس ووعظهم في ذلك العصر وتوضيح مدى استغلال ابن الجوزي لهذه الوسائل و التي كان من أهمها التصنيف و التعليم و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ثم القدوة الحسنة.

الفصل الثالث: منهج دعوة ابن الجوزي و خصائصه

بدأت في هذا الفصل بتعريف المناهج الدعوية و هي : المنهج العاطفي ثم المنهج العقلي ثم المنهج الحسي، ثم تحدثت عن استعمال ابن الجوزي لهذه المناهج وما ركز عليه ، لأخلص في النهاية إلى خصائص هذا المنهج بصفة عامة .

الفصل الرابع: أصناف المدعوين في منهج ابن الجوزي

تناولت فيما أول الأمر تعريف الدعوة و حقوقه و النصف من دعوته ، فنطرق بعد ذلك للحديث عن أهم أصناف المدعوين في دعوة ابن الجوزي و خاصة شعراء و الحكام و غير المسلمين من أهل الكتاب ومدى تأثير دعوة ابن الجوزي في هؤلاء المدعوين و المنهج الذي سلكه في دعوته لكل صنف.

الباب الثالث : محاور دعوة ابن الجوزي و تأثيره و ما أخذ عليه

و يتضمن ثلاثة فصول وهي :

الفصل الأول: محاور التربية و التعليم

تناولت في هذا الفصل أهم ما تناوله ابن الجوزي من موضوعات أوليا تربية النفس و البنين عله ، فبينت نظراته لهذا الموضوع الهام و منهجه في التعامل معه مدى مدى تأثيره في هذا المجال ، ثم تطرقت إلى تربية المرأة و الأولاد عند ابن الجوزي و ما كان له من آراء في ذلك ، بعدها بينت وجهة نظر ابن الجوزي في مجال التربية و التعليم و نظراته للعلم و العلماء في عصره و ما أخذ عليه .

الفصل الثاني : محاور الدعوة و الإصلاح

ركزت في هذا الفصل على أهم الموضوعات التي تناولها ابن الجوزي في دعوته و التي اهتم فيها بصفة خاصة بالإصلاح في المجال الاجتماعي و الدعوي و العقدي ؛ ففي مجال الدعوة اتجه إلى القصاص و المذكرين و ذلك من خلال ما وجهه لهم من انتقادات لأنهم كانوا هم الذين يمثلون تيار الدعوة إلى الإسلام في ذلك الحين ، كما تناول في الشق الاجتماعي موضوع الزهاد و المنصوفة و ما كان لهم من تأثير على شرائح عريضة في المجتمع ، مبيّنا نظراته في ذلك، كما حاول ابن الجوزي تصحيح نظرة أفراد المجتمع لقضية الوقت و الدنيا و الموت مبررا منهجهم في ذلك أما في المجال العقدي فقد ركز ابن الجوزي على الخصوص على أهل البدع ، فحذر منهم و من فتنة الإبتداع و خطره على جمهور الأمة.

الفصل الثالث : تأثير ابن الجوزي و ما أخذ عليه

تناولت فيه بالشرح كيفية تأثير ابن الجوزي على المدعويين بصفة عامة و العوام على الخصوص و جمهور العلماء و الدعاة عموما و ذلك في مجال العلم و الدعوة بوجه خاص و كمثل على هذا التأثير تحدثت عن تأثير الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - بابن الجوزي في ميدان الدعوة ، لأبرز أن عملية التأثير و الأثر مستمرة بين أجيال الدعاة منذ القرون الأولى .

و لما كان كل إنسان يؤخذ من كلامه و يرد إلا المعصوم - صلى الله عليه و سلم - ؛ فقد تعرض ابن الجوزي - كغيره من العلماء - لجملة من الانتقادات و المآخذ أخذها عليه بعض العلماء في مجال العلم و الدعوة، و قد تعرضت بالتحليل و النقد لكثير من هذه المآخذ و بيّنت عدم تأثيرها بشكل عام على المسار العام لجهود ابن الجوزي في المجال الدعوي الإصلاحية .
خاتمة البحث و نتائجه :

و قد حصرت نتائج هذا البحث في جملة من النقاط :

- 1 - موسوعية ابن الجوزي و ندرة وجود طراز مثله بين العلماء .
- 2 - همته العالية في طلب العلم و تبليغ الدعوة .
- 3 - الكشف عن منهج ابن الجوزي الدعوي الإصلاحية و استخراج أهم خصائصه .
- 4 - تبيين مدى صلاحية الكثير من آراء ابن الجوزي في مجال الدعوة و الإصلاح .
- 5 - الكشف عن إمكانية استفادة الدعاة من فكر ابن الجوزي و منهجه في الدعوة و الإصلاح .
- 6 - الكشف عن تأثير ابن الجوزي في الدعاة و المدعويين على السواء بل و حتى على الخلفاء و الحكام و أهل الكتاب .
- 7 - بيان جراءة ابن الجوزي في تناوله للعديد من قضايا عصره و مجتمعه .
- 8 - بيان جملة ما أخذ على ابن الجوزي من مآخذ و تقييمها و الرد على كثير منها .

الباب الأول

ابن الجوزي و عصره

و يتضمن أربعة فصول

الفصل الأول : عصر ابن الجوزي

الفصل الثاني : الدعوة في عصر ابن الجوزي

الفصل الثالث : حياة ابن الجوزي

الفصل الرابع : آثار ابن الجوزي

الفصل الأول

عصر ابن الجوزي

و يتضمن أربعة مباحث

المبحث الأول : الحالة السياسية و الأمنية

المبحث الثاني : الحالة الاجتماعية و الأخلاقية

المبحث الثالث : الحالة الاقتصادية

المبحث الرابع : الحالة العلمية و الثقافية

تمهيد

من الصعب علينا أن نفهم فكر الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - دون إدراك و فهم العوامل التي ساعدت على تكوينه ، و المتغيرات التي عاش خلالها و التي حددت معالم شخصيته و ذلك أن المفكر لا يستطيع أن يحيا بمعزل عن عصره و مجتمعه الذي يعيش فيه بل لابد له أن يتأثر بمجتمعه و بمختلف التيارات و الاتجاهات السائدة في عصره .

فالداعية أو المفكر ابن بيته و ثقافته و عصره ، فهو مصنوع قبل أن يكون صانعا و متأثرا قبل أن يكون مؤثرا ، بل إنه في احيان كثيرة يكون هو اللسان البليغ المعبر عن أحوال عصره¹ ، فهو جزء منه ولبنة من لبناته التي تسيم في توجيه مسار التطورات السياسية و الاجتماعية، لأن معيار الأهمية التي يحظى بها أي داعية أو مفكر ما في تاريخ مجتمعه إنما يكون بالقدر الذي يجعله موصولا بقضايا مجتمعه و بإسهاماته الفعالة في حل ما يعترضه من معضلات² .

و على هذا الأساس صار من الواجب علينا ان نتعرض لأهم المؤثرات المختلفة التي أسهمت في تكوين فكر ابن الجوزي عموما و الدعوي الإصلاحية منه على الخصوص حتى نضعه في مكانه الصحيح من خلال نظرتنا الشاملة إلى ظروف العصر الذي عاش فيه و هو القرن السادس الهجري الذي عرض فيه فكره و مؤلفاته و وعظه و دعوته .

و تبدو لنا ضرورة معرفتنا لظروف هذا العصر من الناحية السياسية و الأمنية و الاجتماعية و الاقتصادية و العلمية و الثقافية ، و كذلك معرفتنا لمسار الدعوة و مراكزها ، عند ما ندرك إلى أي حد ساهمت هذه الظروف و تلك المتغيرات في تشكيل فكر ابن الجوزي الدعوي و منهجه ، و آثار دعوته في عصره و بعد عصره ، لكي نستطيع بعد ذلك أن نحكم على هذا الفكر و صاحبه من خلال إطاريه الزماني و المكاني .

¹ - دراسات تراثية في الفريفة الإسلامية : محمود فنيز ، دار الثقافة ، الدوحة، الطبعة الأولى 1407 هـ ، 1989 م ص 286 .

² - الفكر السياسي للإمام محمد عابد ، : محمد أحمد عبد العاطي، طبعة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ، 1978 م ص 21 .

المبحث الأول

الحالة السياسية والأمنية

أهم الأحداث والظواهر السياسية:

- 1 - لقد عاش ابن الجوزي جل القرن السادس الهجري ، حيث عاصر الخلافة العباسية التي أوشكت شمسها على المغيب .
- و لد - رحمه الله - في عهد الخليفة العباسي المستنصر¹ ، الذي بويع له بالخلافة سنة 487 هـ وامتدت حتى سنة 515 هـ .
- 2 - عاصر ابن الجوزي في حياته مدة حكم ستة من الخلفاء العباسيين و ذلك من عهد المسترشد حتى أوائل عهد الناصر ، وهؤلاء الخلفاء هم :
المسترشد : (530 / 612 هـ - 118 / 1135 م)² ، الراشد : (531 / 530 هـ - 1135 / 1136 م)³
المقتفي : (531 / 556 هـ - 1136 / 1160 م)⁴ ، المستنجد : (506 / 556 هـ - 1160 / 1170 م)⁵
المستضيء : (576 / 566 هـ - 1170 / 1180 م)⁶ ، والناصر : (576 / 622 هـ - 1180 / 1225 م)⁷ .
- 3 - الفترة التي عاش خلالها ابن الجوزي شهدت الكثير من الفتن والنزاعات و حروب التي أضعفت الدولة العباسية وأدت إلى انقسام العالم إلى ثلاث -ول : الدولة الفاطمية في مصر و الدولة الأموية في الأندلس ، و الدولة العباسية التي أصابها الضعف و الوهن . و تسلم مقاليد الحكم فيها الأتراك السلاجقة الذين أصبحوا الحكام الحقيقيين لدولة الخلافة ، بل و صارت لهم القدرة على خلع الخليفة و تولية أحد ذويه أو أقاربه ممن يروق لهم و يساعدهم على قضاء مصالحهم ، حتى أن بعضهم كان يوحي للأمرء بالتامر على أبيهم

¹ المستنصر : و اسمه أحمد بن المقدسي و مع والده ابن سينا عترة سادة كان كرم الأخلاق ، محبا للعلم والأدب ، متكررا للظلم ، انظر المنظم : ابن الجوزي ، أحسن محمد عبد القادر عفا ، وجامعة عدم زورور ، دار الكتب العلمية ، بيروت 2 1995 م ، 12 / 17 .

² المسترشد : و اسمه الفضل ، سمع الأحداث و كان ساجدا بعيد الخبة ، المنظم : 162 / 17 .

³ الراشد : و اسمه منصور و يكنى أبا جعفر ، عهد إليه أبو بكر أن يوليهم تولعه ، وكان يعدد حين قتل المسترشد ، المنظم 300 / 17 .

⁴ المقتفي : و اسمه المستنصر ثالث ، سمع الحديث ، و بويع بعد خلع الراشد . المنظم : 313 / 17 .

⁵ المستنجد : و اسمه يوسف بن المنذر ، بويع بعد موت أبيه المنذر ، بويع عهده أزال الحكوس و انصرفت ، المنظم 139 / 18 - 140 .

⁶ المستضيء : و اسمه الحسن بن يوسف ، بويع له يوم وفاة المستنجد ، أظهر العدل و الكرم ، و نوذرت برد المظالم ، المنظم 18 / 191 .

⁷ الناصر : و اسمه أبو العباس أحمد بن المستضيء ، كان فيج السيرة ، طالما للرعية ، توفي سنة 622 هـ و كانت محنة ابن الجوزي على يده سر أعلام النبلاء : شمس الدين الذهبي : مؤسسة الرسالة بيروت : 1981 م ، 22 / 201 .

و قتله ، و من ذلك ما رواه ابن الجوزي في حوادث سنة ٤١٣ هـ أنه عند وفاة الخليفة المستظهر بالله ؛ بايع الناس لابنه المسترشد بالله إلا أن أخاه أبا الحسن رفض البيعة له و مضى إلى واسط و دعا إلى نفسه واجتمع معه الرجال و الفرسان بالعدة و السلاح و ملكها و سوادها و هرب العمال^١ .

١ - هوان الخلفاء و ذهاب هيبته ، حيث سجل ابن الجوزي في حوادث عام ٤٢٥ هـ مشاهد معبرة عن هوان الخليفة المسترشد بالله بين يدي السلطان محمود " سلطان السلاجقة " الذي احتجزه أسيراً ثم وثب بعض الباطنية على أمير المؤمنين فضربوه بالسكاكين إلى أن قتلوه و قتلوا معه جماعة من أصحابه^٢ .

٢ - و نتيجة لهذا الجو المشحون بالتوتر و التمزق و الصراعات الداخلية ، تهباً المناخ الملائم لظهور حركات التمرد من جهة ، و تكالب الأعداء من جهة أخرى ، و تعاضم سلطان السلاجقة الأتراك حيث و صل بهد الأمر إلى التحكم في اختيار الخلفاء فكانوا يأخذون البيعة لمن يشاءون ثم ينقلبون عليه و يقتلونه و يبايعون ابن المقتول أو أخاه^٣ .

و ليت الأمر وقف عند حد تسلط السلاجقة على الخليفة مع بقاء و حدتهم و حفاظهم على كيان الدولة ، و لكن الموصف أنهم لم يثبتوا - بعد وفاة سلطانهم الأعظم ملكشاه : (١٥٧٥ - ١٥٥١) - أن تفرقوا فاقتل بنوه و حر ذلك على الخلافة العباسية الويلات فكان كل سلطان من سلاطين السلاجقة يضع يده على الخليفة الذي يتمكن من خلاله ضمان النفوذ و الشرعية للسلطان^٤ .

٥ - بالإضافة إلى اختلاف الحكام العباسيين مع بعضهم و ولاية العهد لأكثر من واحد و تولية الصغار أحيانا مما أدى إلى ضعف الخلفاء أنفسهم فتسلط عليهم غيرهم^٥ ، أضف إلى ذلك الزحف الصليبي على بلاد المسلمين و ما تلاه من غزو مغولي كان سبباً في القضاء على الخلافة العباسية و سقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ الذي كان علامة لنهاية الحكم العباسي .

١ - المنتظم : ابن الجوزي ، ١٧ / ١٧١ .

٢ - المصدر السابق : ١٧ / ٢٥٩ .

٣ - نفس المصدر : ١٧ / ١٧١ - ٢٥٨ - ٢٥٩ .

٤ - المصدر نفسه : ١٧ / ٢٥١ - ٢٥٢ إلى ٢٥٩ .

٥ - انظر : التاريخ الإسلامي ، محمود شاكر ، المكتب الإسلامي ، سورية ، ط ٥ : ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م ، ٦ / ٤١ .

٦ - المصدر السابق : ٦ / ٦ .

السيطرة العسكرية المطلقة على مقاليد الحكم و مركز الخلافة من قبل السلاطين السلاجقة فادى ذلك الى بروز قادة استقلوا في مناطقهم عن مركز الخلافة ونشوء دويلات كالدولة الأيوبية ، و دولة خوارزم ، ودولة الأتابكة . و لم يعد للخليفة من الأمر سوى الاعتراف بالواقع و اعتماد القائم بأمر الوزارة .

8 - اتساع رقعة الدولة الإسلامية عن طريق الفتوحات التي قام بها السلاجقة في آسيا الصغرى ، ولكن عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي الذي اتسم به هذا العصر ، حجب عن هذه الفتوحات أهميتها و أدى الى اتساع التيار الصوفي و انتشاره كحركة احتجاج سلبية على تجاوزات السلطة ، فكانت هذه التيارات الصوفية المنعزلة بمثابة رد فعل على تيارات الفساد والمجون¹ ، حتى ان ابن الجوزي نفسه و نتيجة لما كان يموج في عصره من اتجاهات مضطربة من كل جانب مال الى العزلة و اتخذها سبيلا للابتعاد عن المعاصي و الحفاظ على الطاعات . حيث قيل : " لا يصفو التمتع و التزهو و الإشتغال بالآخرة إلا بالانقطاع الكلي عن الخلق"² .

9 - تدهور الحالة الأمنية في عاصمة الخلافة و خراجها ؛ و مما يؤكد ذلك ما رواه ابن الجوزي و غيره من حوادث نال على اعداء الأمن ؛ فمثلا في سنة 418 هـ وردت الأخبار بأن الباطنية ظهروا بآمد³ و كثروا فنفر عليهم أهل البلد ، فقتلوا منهم سبعمئة رجل⁴ .

و في رمضان سنة 420 هـ ، أسر السلطان مسعود الخليفة المسترشد و نهبت الأموال و الحواصل و ما في معسكر الخليفة ، و في نفس السنة دبر السلاجقة من يقاتله و مثلوا بجثته⁵ . و في منتصف القرن السادس الهجري تمكن الخليفة العباسي المقتفي من القضاء على حكم السلاجقة في العراق .

10 - انتشار الفتن الطائفية خاصة بين الأشاعرة و الحنابلة⁶ حينا و بين الشيعة خاصة الروافض منهم - و بين السنة أحيانا أخرى ، و ما كانت تخلفه من نهب و سلب و إزهاق لمئات و عشرات الأرواح و تشريد أضعافها ، فلا يكاد ينتهي العام حتى تتكرر مثل

¹ بحر الدعوى: ابن الجوزي ، تحقيق و نشر دار الصحابة لشراب بطنا مصر : ط 1/1412/1، 1992م ، ص 5 .

² مسد خاطر : ابن الجوزي ، المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان ، د ت ، ص 308 .

³ آمد : بكسر الميم ، أعظم مدن ديار بكر و أيضا قديما و هو ذلك قديم حصن ، نسب إليها خلق كثير من أهل العلم فبخت

سنة 20 هـ ، انظر معجم البلدان : بيروت الجوزي ، تحقيق فريد عبد العزيز نخدي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط 1، 1990، 76/1 .

⁴ - المنتظم : ابن الجوزي ، 18/224 .

⁵ المصدر السابق : 17/295-299 .

⁶ البداية و النهاية : لأبي الفداء إسماعيل بن كثير ، مكتبة العارف بيروت ، لبنان ، 1408 هـ ، 1988م ، 12 / 115

هذه الفتن¹ ، و كان العلماء يحاولون بذل قصارى جهدهم لإخمادها لكن الفتنة كانت أقوى من أن يخمدوها علماء و ذلك لأن مثل هذه الفتن غالباً ما يسعها العوام و يكون أغلب الضحايا منهم .

بالإضافة إلى الفتن وانشغال الدولة عن هؤلاء عاث قطاع الطرق فساداً في الأرض فكانت بنوخفاجة تغير على قوافل الحجاج و تعمل فيهم القتل و النهب بل و امتد نشاطهم إلى المدن أيضاً ، فأغاروا على الكوفة فأعروا الرجال و النساء و عاثوا في الأرض فساداً² .

و لقد كان الجنود إذا تأخرت أرزاقهم في بعض الأحيان نتيجة لقلّة الموارد و تدهور الحالة الاقتصادية قاموا بالنهب و السلب و كان هذا الأمر في غالب الأحيان يدفع العوام إلى الانتقام³ فنتسع دائرة الاضطراب و عدم الاستقرار .

و خلاصة القول ؛ أن القرن السادس الهجري كان قرناً مضطرباً مليئاً بالقلق و نقص الأمن و كثرة الفتن ، كما أنه حصاد للقرون التي سبقته و مقدمة للقرون التي تلتها من حيث زوال هيبة الدولة و تعدد السلاطين و تناحروهم ، و تفشي الفرق الباطنية و انتشار الدعوة إلى التشيع مما جعل الخليفة الناصر يميل إليه و كان هذا سبباً في نكبة ابن الجوزي و محنته⁴ .

إسهامات ابن الجوزي في الحالة السياسية :

1- إن كثيراً من هذه الأحداث السياسية كانت لها أصدائها و آثارها في ابن الجوزي و فكره ، فمن خلال استقراءنا لبعض مؤلفاته لاحظنا ، أنه كان على علاقة طيبة ببعض حكام عصره و خاصة الخليفة المستضيء ، الذي أهداه ابن الجوزي كتابه " المصباح المضيء في خلافة المستضيء " و كتاب " النصر على مصر " الذي عرضه على الخليفة⁵ . كما ألف كتاب " الشفاء في مواعظ الملوك و الخلفاء " ضمنه العديد من النصائح و المواعظ و ما ينبغي أن يتأدب به السلطان⁶ .

¹ - البداية و النهاية : ابن كثير ، 12 / 31 ، 30 ، 54 ، 58 ، 62 ، 63 ، 64 ، 134 ، 135 ، 145 ، 147 ، 179 .

² - المنتظم : 31 / 17 .

³ - الكامل في التاريخ : ابن الأثير الجزري ، راجعه محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 3 ، 1998 ، 9 / 179 .

⁴ انظر ترجمة ابن الجوزي في الفصل الثالث من هذا الباب .

⁵ - المنتظم 196/18

- 2 - كان له إسهام في استقرار المجتمع داخليا عن طريق محاربته للبدع بواسطة التصنيف حيناً ، و بعقد المجالس الوعظية و الدعوية حيناً آخر¹ .
- 3 - عدم تفاعل ابن الجوزي مع بعض الأحداث السياسية الجسيمة في عصره ، و خاصة موقفه من الحروب الصليبية حيث استوقفنا هذا الأمر كما استوقف بعض الباحثين² .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

¹ - انظر تفصيل معارفة ابن الجوزي للبدع في فصل محاور الدعوة و الإصلاح عند ابن الجوزي .

² - انظر تفصيل هذه المسألة في الفصل الأخير من الرسالة .

المبحث الثاني الحالة الاجتماعية والأخلاقية

تمهيد:

لم تكن الحالة الاجتماعية و الأخلاقية بأحسن حال في عصر ابن الجوزي من الفواحي الأخرى فقد ساد الانحلال الخلفي في بيئة العراق عموماً و بغداد خصوصاً نظراً لضعف الحكم فتحللت الروابط الاجتماعية و تقطعت الأواصر و انتشرت الرشوة و شرب الخمر و شاع بين الناس الكذب و الرياء و النفاق ، و تبع هذا ظهور موجة من الفساد الخلفي . فكان هذا من الدواعي التي دفعت العديد من العلماء و الدعاة إلى محاربة ذلك كله و الوقوف في وجهه هذا التيار الجارف ، حيث يذكر ابن الجوزي محدثاً عن نفسه أنه تاب على يديه من العصاة في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف¹ .

كما انتشرت مجالس الغناء و اللهو و الطرب ، و كان العامة يحفلون بمثل هذه المجالس و يطربون لها ، و يصف لنا الرحالة الأندلسي ابن جبير ما شاع في هذا المجتمع من فساد عندما زار بغداد و اختلط بأهلها و عاشرهم ؛ فقد كانوا " كأهل روما في أواخر أيام الدولة الرومانية² ، فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع التواضع رياء ، كما يتصفون بالكبرياء و الغرور و يزدرون الغرباء ، و يظهرن الأنفة و الكبرياء لمن دونهم و يحتقرون أهل جميع البلاد كأنهم يظنون أن ليس لله بلادا و لا عبادا سواهم و يسحبون أنيالهم بطرا و لا يغيرون منكرأ و يتعاملون بالربا و يخسرون الميزان في البيع لغيرهم ، و يطففونه إذا اشتروا و لا يباليون في ذلك ، فالغريب فيهم لا رافة و لا رحمة له متضاعف الإنفاق ، لا يجد من أهلها إلا من يعامله بنفاق . و أما فقهاؤهم المحدثون و وعظهم فهم مداومون على الوعظ و التذكير و التنبيه و المثابرة على الإنذار المخوف و التحذير ، فلا يخلو يوم من أيام جمعاتهم من واعظ يتكلم فيه ، و لكن سرعان ما يذهب وعظهم و إرشادهم أدراج الرياح فلا تجد من يسمع أو يجيب³ .

1 - ميد الخاطر : ص 236

2 - رحلة ابن جبير : ابن جبير أبي الحسين محمد ابن جبير ، تقدم محمد مصطفى زيادة ، الشركة العالمية للكتاب ، د ت ص 12 ، و الكلام هنا لصاحب المقدمة .

3 - المصدر السابق : ص 157 ، 158 .

هكذا كانت الحالة الاجتماعية لا تسر صديقا ولا تحزن عدوا ، نظرا لما كان يسودها من اضطراب على جميع المستويات و بين أفراد مختلف الطبقات الاجتماعية .

طبقات المجتمع :

ذكر الإمام ابن الجوزي أن عامة طبقات المجتمع البغدادي كانوا يؤلفون خليطا من العرب و الفرس و الترك¹ و النبط² و الجركس³ و الأكراد⁴ و البربر⁵، و إن كان هؤلاء جميعا قد انصهروا في الجنس العربي عن طريق المصاهرة و الزواج .

أما عن التركيبة البشرية للمجتمع العراقي فقد كان يتألف من فئات عدة⁶ و هي :

1- الخاصة : وهم أصحاب الخليفة ويمثلهم في الطليعة : الوزراء ، و القادة و القضاة ، ثم العلماء ، والشعراء ، و الكتاب .

2- العامة : و هم السواد الأعظم من الناس و يقال لهم الرعاع ، و الدهماء و الغوغاء و هم أقل ثقافة من الخاصة و منهم في الغالب يكون : التجار ، و الحرفيون و الفلاحون ، و الجنود و هؤلاء يكونون خليطا من : العرب ، و الفرس ، و الترك و النبط و الأرمن ، و الجركس و الأكراد ، و البربر⁷، و قد سماوا جميعا بالعرب لغلبة العنصر العربي و سيادة اللغة العربية في العصر العباسي ، حيث كانت هي اللغة الرسمية في الدولة ، كما كانت لغة الشعر و الأدب و التخاطب بين أفراد المجتمع .

3- الرقيق : و يؤلفون الغالبية العظمى من الخدم و هم : الجواري و الخصيان وبعضهم من أسرى الحرب و معظمهم جلبوا في العصر السلجوقي من بلاد ما وراء النهر، و هم أنواع متعددة منهم ، الصقلي ، و الرومي و الزنجي ، و التركي ، و هم يقومون على خدمة الخليفة و حاشيته و يعملون في فلاحه الأرض و حراسة الدور. و لم ينظر

1- الترك : حيل من أحيال المغول كانت فيهم الخلافة الإسلامية ثم انحسرت دولتهم الآن في تركيا فقط ، انظر المعجم الوسيط

إبراهيم أنيس و عطية الصوالحي، عماد الجلم منتصر، ص 84 ، خلف الله ، دار الفكر ، دت ، 81 / 1 .

2- النبط : جمعه ألباط، شعب سامي ، كانت له دولة في شمال شبه الجزيرة العربية و عاصمتهم صنع و تعرف اليوم بالبراء

و استعمل أحيانا في أحلاط الناس من غير العرب ، انظر المعجم الوسيط : 2 / 898 .

3- الجركس : حيل من الناس يسكنون حوالى جبال القوقاز، و هم قبائل عديدة وقعت تحت يد السلاجقة ، و في انحصور

الأخيرة هاجر الكثير منهم إلى بلاد الترك، انظر دائره معارف القرن العشرين، محمد فريد و جدي دار الفكر دت ، 81/3 .

4- الأكراد : شعب يسكن هضبة فسيحة في آسيا الوسطى و بلادهم موزعة بين تركيا و إيران و العراق المعجم الوسيط 2/782 .

5- البربر : شعب أكثره لابل تسكن الجبال في شمال إفريقيا و المغرب العربي على الخصوص انظر المعجم الوسيط 1 / 46 .

6- انظر : تاريخ الإسلام السياسي و الثقافي و الاجتماعي، حس إبراهيم حسن، دار الحيل، بيروت ، ط 13 ، 1991 ، 4 / 586 .

7- المنتظم : 9 / 228 ، ولقد ذكر ابن الجوزي هؤلاء الأحناس في العديد من المواضيع من كتابه المنتظم .

الخلفاء إلى الرقيق نظرة امتهان لأن أمهات الكثيرين منهم من الرقيق¹. وانتشورت تجارة الرقيق في المجتمع العراقي انتشارا كبيرا في ذلك العصر ، حيث كثر النخاسون و ارتفع شأنهم بين التجار .

1 - أهل الذمة : وهم اليهود و النصارى و كانوا يعيشون في ظل التسامح الديني و كان الخلفاء يحضرون مواكبهم و يزورون أديرتهم في أعيادهم الدينية و يشاركونهم بالاحتفال معهم في كثير من المناسبات².

و قد كان هناك عدد كبير منهم يعيشون في كثير من الأقاليم الإسلامية و يمارسون شعائرهم الدينية في أديرتهم و كنائسهم المنتشرة في العالم الإسلامي .
و المتأمل في الحياة الاجتماعية العراقية في القرن السادس الهجري ؛ يلاحظ أنها كانت تسير على نهج الحياة السياسية المتسمة بالفوضى و الاضطراب نتيجة لما كان يسودها من حروب بين الخلفاء من بني العباس و السلاطين السلاجقة .

و قد تحدث ابن الجوزي عن العديد من الإنحرافات الاجتماعية المنتشرة في بغداد ، و قسم أفراد المجتمع من خلالها إلى قسمين : عالم و جاهل ، و مع وجود المؤمنين بلا شك بين أفراد المجتمع فهو يرى أن الجهل قد شمل أكثر طبقاته ، و من هؤلاء :

1 - السلاطين و عمالهم الذين تربوا على الجهل و لبس الحرير و شرب الخمر و ظلم الناس .
2 - التجار الذين همهم جمع المال ، كما أن هؤلاء يتعاملون بالربا و لا يؤدون الزكاة و منهم من يطفف المكيال ، و يخسر الميزان ، و يبخس الناس أشياءهم . و يقضي طول النهار في الأسواق ، و لا يقيم للصلاة في حياته و زنا ، و إذا صلى بعضهم نقرأها أو جمع بينها فهم كالبهائم .

3 - قطاع الطرق الذين يتطلعون إلى اللذات فلا يساعدهم عيشتهم فيخرجون للنهب و السلب .

4 - النساء اللواتي لا يرعين حق العشير و لا يحافظن على العفة و الشرف و يخن الأزواج و منهن من لا تصلي و لا تعرف شيئا من الدين ، فإذا سمعن موعظة لا تؤثر فيهن كأنهن مررن على حجر ، و إذا قرىء عندهن القرآن فكأنهن يسمعن السم .

5 - العلماء ذوا الذية الخبيثة الذين يقصدون بالعلم المباهاة ، و يميلون إلى الفسق و منهم

1 - تاريخ الإسلام السياسي : حسن إبراهيم حسن ، 4 / 587

2 - المصدر السابق : 4 / 588

من يخشى السلاطين و يسكت عن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر¹ .
« - الزهاد : و هم أهل الرياء و النفاق ، فمنهم من يلزم زاوية في المسجد و لا يزور
مريضا و لا صديقا ، مدعيا انشغاله بالعبادة حتى يشار إليه بالبنان ، و يحب الخطيب
بمولانا و هذا ليس من الإسلام ، فقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يعود المريض
و يواسي الفقير ويمشي بين الناس و جل الصحابة - رضى الله عنهم - كانت لهم أعمال
يقتاتون منها .

و منهم من يلزم المسجد و يصلي ليلا و نهارا ليراه الناس فيصلوا مثله و تطيب
نفسه بثناء الناس عليه ، و منهم من يظهر الصوم الدائم حتى يقال عنه ما يفطر أبدا
و فيهم من يصلي الفجر يوم الجمعة بالناس فيقرأ الموعظتين حتى يقال عنه أنه ختم القرآن
الكريم فهذه الأعمال تدل على النفاق و الرياء . و منهم من يأخذ الصدقات و هو غير
محتاج لها و يتقوت بخدمة الناس له و التسليم عليه² .

أهم الظواهر التي ميزت الحالة الإجتماعية والأخلاقية :

1 - ظهور العديد من الاضطرابات الإجتماعية الخطيرة و التي كان يتمثل معظمها في
تفاوت المستوى الاجتماعي بين الأفراد ، حيث وجدت طبقة من الأثرياء الذين يملكون
الأموال الطائلة ، بينما هناك من لا يجد قوت يومه و قد أدى هذا التميز الطبقي بين الأثرياء
الذين كوتوا ثرواتهم من طرق مشروعة و غير مشروعة ، إلى خلق جوّ من العداوة
و البغضاء نمت فيه عصابات العيارين و اللصوص الذين عاثوا في الأرض فسادا ، حيث
كانوا يتسوّرون الدور ، و يقتلون التجار ، و يحرقون الغلات ، و يسرقون الأموال³ .
و قويت شوكة هؤلاء حتى أعياوا أصحاب الأمر و النهي و أثاروا الخوف و الرعب
في الأوساط الشعبية ، بل وصل بهم الأمر إلى نهب دار الخلافة ، و معها دور أصحاب
السلطة و النفوذ و الوزراء⁴ .

و قد حفل " كتاب المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم " لابن الجوزي بكثير من أخبار هؤلاء .
2 - أن سوء الأحوال السياسية و انشغال الخلفاء و السلاطين بالفتن و الحروب أدى إلى
حالة من الفوضى العارمة و الاضطراب ، حيث ساءت معها كافة الأحوال الاجتماعية

¹ - صيد الخاطر : ص 341 ، 342 .

² - المصدر السابق : ص 386 ، 387 ، 371 .

³ - المنتظم : 18 / 30 - 31 .

⁴ - المصدر السابق : 17 / 185 .

و الأخلاقية مما انعكس بدوره على سائر الأحوال الأخرى .

و لعل هذا النص الذي ذكره ابن الجوزي يؤكد لنا هذه الفوضى و هذا الاضطراب

الذي كان أحد عوامل عدم الاستقرار التي عرفها ذلك العصر .

يقول ابن الجوزي في حوادث ٤٦١ هـ عن وزير السلطان محمود ؛ الذي قام بجمع المال من الناس بالقوة و القهر : " و قام صاحب المخزن من خاصه بعشرة آلاف دينار جيبت من الناس و تقدم السلطان بجباية العقار فلقى الناس من ذلك شدة ، و خرج رجل صالح يقال له ابن الكواز فلقى السلطان بالميدان ، و قال له : أنت المطالب بما يجري على الناس فما يكون جوابك فانظر بين يديك ، و لا تكن كمن إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فأسقط ذلك " ¹ .

و لما كان الأمر على هذه الحال كان من الطبيعي أن ينعكس على عامة الناس انعكاسا سينا حيث تفشى الفقر و انتشرت المجاعات في بغداد أكثر من مرة ، إلا أن هذا الأمر لم يسد في كل عصور الخلافة العباسية ، فقد تميزت عهود بعض الخلفاء بالاستقرار و الرخاء كعهد المستضيء الذي كان جوادا كثير الصدقات محبا للسنة و أهلها و كعهد الناصر لدين الله الذي تميز بالإقدام و الدهاء ، و قد طالبت أيامه و عمر البلاد وبسط الأرزاق و أغلق الملاهي و الخمرات و أعاد إلى بغداد عهدها القديم ² .

3 - انتشار الفساد و الفوضى بصورة واضحة نتيجة للاضطراب السياسي و الحروب التي كانت تنشب بين السلاطين فشاعت في هذا العصر الانحرافات الأخلاقية و ظهرت في صور شتى ، ذكر البعض منها ابن جبير في رحلته ، و ابن الجوزي في منتظمه و ابن الأثير في كامله ³ ، كانت انتشار الرشوة حتى بين القضاة ⁴ ، و شرب الخمر، و تفشى أعمال التخريب و السرقة و السلب و النهب و القتل التي كان يقوم بها اللصوص حينما و عسكر السلطان حينما آخر، بل حتى النساء كن يقمن بأعمال من هذا القبيل ⁵ ، مما جعل الخليفة المقتدي بالله يأمر بإخراج " المفسدات من الخواطي من بغداد ، و أمرهن أن ينادين على أنفسهن بالعار و الفضيحة ، و خرب الخمرات و دور الزواني و المغاني

¹ - المنتظم : 17 / 320 .

² - سير أعلام النبلاء : خمس الدين النهمي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت لبنان 1981 م ، 22 / 199 .

³ - انظر رحلة ابن جبير : ص 158 - المنتظم : 17 / 323,309 - الكامل في التاريخ : ابن الأثير 10 / 27 ، 50 ، 77 .

⁴ - المنتظم : 18 / 56 .

⁵ - العصر السنين : 17 / 323 .

و أسكنهن الجانب الغربي مع النزل و الصغار¹ . كما ظهرت مجالس الغناء و الطرب و كثرت آلات الغناء . و لعل من أهم الظواهر الاجتماعية في ذلك العصر ؛ ضخامة مواكب الأعياد و المواسم و الحفلات الرسمية التي كان يقيمها سلاطين السلاجقة في أفراسهم ، فكانت عاملا كبيرا من عوامل انتشار الفساد لإبتعادها عن روح الشرع .

و مما ذكره ابن الجوزي في هذا المقام ؛ ما حدث في زواج السلطان مسعود عندما أمر وزيره بأن تعلق بغداد سبعة أيام فنتج عن ذلك فساد كبير بضرب الطبول و الزمور و الحكايات و شرب الخمر جهارا ، و ما فعله عندما و لد له مولودا ذكرا حيث علقته بغداد و ظهرت المنكرات² .

و هذه الظواهر هي التي ميزت هذه الحالة و جعلت طبقات المجتمع تختلف باختلاف حياتهم الاجتماعية من حيث المأكل و المشرب و الملابس و السكن و المستوى المادي و الثقافي .

إسهامات ابن الجوزي في الحالة الاجتماعية :

لقد بذل الإمام ابن الجوزي قصارى جهده ، و حاول الإصلاح و إنقاذ ما يمكن إنقاذه من طبقات المجتمع و أفراد³ ، و ذلك بإبعادهم عن الشرور و الآثام بواسطة جهوده الدعوية و قيامه بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر بطرق مباشرة و غير مباشرة فقطع شعور رؤوس العديد من الشباب اللاهي ، و تاب على يديه الكثير من العصاة و المذنبين⁴ و قد حفلت كتبه الوعظية و الأخلاقية بذكر أصناف شتى من المفاسد الأخلاقية و الآفات الاجتماعية .

¹ - البداية والنهاية : ابن كثير ، 111 / 12 .

² - المنتظم : 328 / 17 ، و 27 - 3 / 18 .

³ - انظر تفصيل تأثر ابن الجوزي في المجتمع في فصل أساليب الدعوة و رسائلها ؛ و فصل أصناف المدعوين عند ابن الجوزي و كالمك الفصل الأخير من الرسالة .

⁴ - ذكر ذلك في العديد من كتبه ، خاصة لفة الكبد و تلبس إبليس و اشتظم و الفصاح و المذكورين و البصرة .

تمهيد :

لقد تأثرت الحالة الاقتصادية بما ساد الحياة السياسية من اضطراب و تمزق ، لأنه في مثل هذا الجو المشحون و الوضع المتدهور لا يمكن أن ينمو رأس مال و يزدهر اقتصاد و سيف الخوف مسلط على رقاب أصحاب الأموال . لأنه لا يمكن للتجار أن ينقلوا تجارتهم بين الأقاليم المختلفة ، و لا لأصحاب المحلات أن يحفظوا بضاعتهم في حوانيتهم ، كما لا يتيح الفرصة للصناع لتجويد إنتاجهم و لا للفلاحين أن يطمحوا لزيادة غلتهم ، بل إن هذا الوضع يدعو إلى اليأس و الكسل ، و الشعور باللامبالاة و الإحباط . ترتب على ذلك كله انتشار البطالة و الفقر بين أفراد المجتمع ، بينما كانت مظاهر الترف و الثراء تطل من قصور الخلفاء في الاحتفالات الرسمية و المناسبات ، و ما كان ينفقه الأغنياء لتشيد القصور و تزيينها ¹ .

و يلخص لنا ابن الأثير الحالة الاجتماعية المتردية في أحداث عام 543 هـ : " و في هذا العام غلت الأسعار بالعراق و تعمزت الأقوات بسبب العسكر الوارد و قنوم أهل السواد إلى بغداد منهزمين ، فقد أخذت أموالهم و هلكوا جوعا و عريا ، و قد عظم الأمر على أهل البلاد حتى أكل بعضهم بعضا ، و قصد أهل البوادي المدن من الجوع فأغلقها أهلها دونهم ، و تبعه و بء أدى إلى موت كثير من الخلق حتى خلت البلاد " ² .

مميزات الحالة الاقتصادية :

1 - من أهم ما ميز الحالة الاقتصادية و أدى إلى تدهورها ، سوء توزيع الثروة بين أفراد المجتمع ³ ، و كان لهذا أثره الشديد على تنعم بعض الطبقات بالأموال الطائلة و الثروات الضخمة و الإسراف الشديد و حرمان الآخرين مما أدى إلى انعدام التوازن بين مدا خيل الناس .

2 - إقبال كاهل الناس بالضرائب و التعسف عند جمعها منهم رغم سوء الأحوال الاقتصادية فقد كانت تفرض حيناً وتخفف أو تلغى حيناً آخر حسب ظروف واتجاه كل

1 - المتظم : 17 / 275 ، 283 ، 302 ، 18 / 125 ، 199 ، 200 ، 203 .

2 - الكامل في التاريخ : ابن الأثير ، 9 / 357 .

3 - انظر المبحث السابق من هذا الفصل .

خليفة¹، فمنهم من كان يرفض أخذ أموال الناس من غير وجه كالخليفة المقتفي الذي صرح للسلطان مسعود عندما تولى الحكم بقوله: "و ما بقي إلا أن نخرج من الدار و نسلمها فإنني عاهدت الله تعالى أن لا أخذ من المسلمين حبة واحدة ظلماً"²، و بعضهم كان متشدداً في فرض الضرائب، لدرجة أنه يقدم على إرسال أشخاص يطوفون "بلاكواح التي نقش عليها ترك المكس في الأسواق و ضربت بين يديها الدباب و البوقات"³.

3- انعدام الأمن الغذائي و تعطّل أرزاق الناس و أقواتهم حتى بلغ الأمر أن "تعذر على أهل بغداد الشوك و التبن و العلف فبيع الشوك كل باقة بحبة و رأس غنم بسبعة دنانير"⁴. و نتيجة لندرة الطعام حلت أمراض شديدة بالناس وخاصة الجدري في الصغار و الأمراض الحادة في الكبار، و غلّت الأسعار فبيعت الدجاجة بنصف دانق و التبن خمسة أرتال بحبة و تعذر اللحم⁵.

و نتيجة للحروب و الفتن كانت الأسعار ترتفع كل مرة حتى بلغ الكر ثلاث مائة دينار و لم يوجد، و لم يجد الناس ما يقتاتون به فماتوا جوعاً و أكلوا الكلاب و السنانير⁶.

4- و مما زاد الحالة الاقتصادية سوءاً كثرة الكوارث الطبيعية من أمطار و ثلوج و برد و زلازل و جراد، فيذكر ابن الجوزي بعض هذه الكوارث في حوادث سنين متفرقة، ففي أحداث سنة 520 هـ: "تواتر مجيء الأمطار ودام الرعد و البرق ثلاثة أيام و كادت الدور تغرق و انهدم بعضها"⁷. و في سنة 515 هـ وقعت أمطار عظيمة و ثلوج فأهلكت الغرس و الزرع⁸، و في عام 520 هـ أصابت بغداد عدة زلازل و قسا الموت في الناس بسبب الفتن و القتل⁹، و في سنة 511 هـ انتشر الجراد و لم يأت المطر إلا قطرات لا

¹ - المنتظم : 17 / 300 ، 320 ، 335 ، 18 / 140 ، 141 ، 191 - الكامل في التاريخ : من الأثر 9 / 122 ، 7 .

² - المصدر السابق : 17 / 320 .

³ - نفس المصدر : 50/18 المكس : الضريبة التي يأخذها الحاكم وأصله الخاية ، وهو درهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الحامية ، لسان العرب ، ابن منظور الإفريقي ، تحفيق عبد الله علي الكبير ، محمد أحمد ، حسب الله ، هاشم محمد الشافعي ، دار المعارف مصر ، د ت ، 6 / 4248 .

4- نفس المصدر: 113/18

5- نفس المصدر: 118/18

6- نفس المصدر: 156/17

7- نفس المصدر: 232/17

8- نفس المصدر: 196/17

9- نفس المصدر: 294/17 ، 296 - البداية و النهاية: ابن كثير، 207/12

تبل الأرض ، وأشرفت المواشي على الهلاك من قلة العشب ، و غارت المياه من الأنهار و الآبار .

و في سنة 554 هـ وقع برد عظيم فهلكت قرى و مداشر ، و يذكر ابن الجوزي أنه كان في بعض البرد ما وزنه خمسة أرطال فأهلك الغلات و الأعلاف¹ .

— مما زاد في تدهور الحالة الاقتصادية ؛ إهمال نظام الري حتى أن نصف أراضي العراق تحولت إلى خراب و مستنقعات بعد أن كانت أراضيها أساس الثروة . في الدولة العباسية² . كما كان فيضان نهر دجلة يؤدي إلى اختلال الأمن في كثير من الأحيان ؛ يصور ابن الجوزي هذا المشهد قائلاً : " امتلأ الماء من دجلة إلى صور دار القز ، و كان الناس ينزلون في السفن من شارع دار الرقيق ، و من الحربية ، و من درب الشعير ، و امتلأت مقبرة باب الشام ، و وقع المشهد الذي على باب النصرية و وصل الماء من الصراة إلى باب الكرخ ، و كان الناس قد وطئوا التلال العالية و هلكت قرى كثيرة و مزارع لا تحصى " ³ .

و هكذا فإن الدارس للأوضاع السياسية و الاجتماعية و الأخلاقية و الاقتصادية يلاحظ أن تدهورها و عدم استقرارها هو الذي أدى إلى ضعف الدولة العباسية و تمزق و حداثها الترابية مما جعلها تقع فريسة سهلة في أيدي أعدائها من مغول و صليبيين وغيرهم .
إسهامات ابن الجوزي في الحالة الاقتصادية :

لقد حاول ابن الجوزي — و هو داعية و الواعظ الشعبي — التخفيف من سوء الحالة الاقتصادية التي يعاني منها المجتمع⁴ ، فتحدث في العديد من مصنفاته عن نم البخل و الشح و التبذير⁵ ، و وجه دعوته إلى الأغنياء الذين كنزوا أموالهم و شحوا في إخراجها لمستحقها من الفقراء و المحتاجين ، و دعا إلى الزهد و القناعة و عدم الحرص على المال⁶ و الزهد في الدنيا و عدم التعلق بها⁷ .

¹ - المنتظم : 18 / 50 ، 135 .

² - تاريخ الإسلام السياسي : حسن إبراهيم حسن ، 4 / 129 .

³ - المنتظم : 18 / 206 .

⁴ - انظر تفصيل الموضوع في فصل أصناف المدعوين و أساليب الدعوة و وسائلها .

⁵ - الطب الروحاني : ابن الجوزي ، تحقيق حسام الدين القدسي ، مكتبة القدسي ، القاهرة ط 1 / 1995 م ، ص 19 ، 21 .

⁶ - اللطائف : ابن الجوزي ، تحقيق عبد الله بدران ، مكتبة دار الهبة ، دمشق ، دت ، ص 127 ، 130 .

— التذكرة في الوعظ : ابن الجوزي ، تحقيق ، أبو عبد الله الأنصاري ، دار القلم للتراث ، مطبعة العمرانية ، دت هـ ، 71 ، 219 .

⁷ - الواعظ والخالس : ابن الجوزي ، دراسة و تحقيق ، محمدي محمد الشهاوي ، مكتبة الإيمان المنصورة أمام جامعة الأزهر ص 101 - 153 .

المبحث الرابع الحالة العلمية والثقافية

تمهيد :

رغم اضطراب الأحوال السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية ، فإن ذلك لم يكن له تأثير واضح في الناحية العلمية في ذلك العصر ، بل على العكس من ذلك فقد انتشرت المعارف و ازدهرت العلوم الإسلامية في شتى الحواضر رغم ما أصاب العالم الإسلامي من تعزق و اضطراب ، و ما انتاب الخلافة العباسية من ضعف و هوان . ولقد كان لاستقلال كثير من الدول عن مركز الخلافة أثره الكبير في نشاط الحركة العلمية و انتشار الثقافة و رواجها ؛ إذ لم تعد بغداد هي المركز الوحيد للعلم و الحضارة بل ظهرت إلى جانبها مراكز أخرى مثل قرطبة و القاهرة و بخارى و غزنة و أصبهان¹ ازدهرت فيها أنواع شتى من العلوم و المعارف و الآداب ، و ذلك بفضل تشجيع الخلفاء و السلاطين و الأمراء و الوزراء و رجال العلم و الأدب و بفضل ازدهار الفكر الإسلامي و اتساع أفقه ، و كثرة مراكزه و تعددها .

يضاف إلى هذا ظهور العديد من الفرق التي اتخذت العلم و الجدل وسيلة لتحقيق مآربها السياسية و غير السياسية في سبيل الوصول إلى النصر و التغلب على الخصوم و من ثم بقيت لنا حتى اليوم جل المصنفات في مختلف العلوم .

كما أن أغلب أمهات كتب العلم بمختلف أنواعه و ضروبه قد ألفت في هذا العصر² ، ونحن الآن نفيد منها أعظم الفائدة فهي المراجع الأساسية لمختلف العلوم ؛ الإنسانية عموماً و الإسلامية على الخصوص .

مميزات الحالة العلمية والثقافية :

1 - أهم ما ميز الحالة العلمية و الثقافية في تلك الفترة ؛ كثرة العلماء و المفكرين لأن بغداد في ذلك العصر كانت محراباً للعلم و قبلة للعلماء و الطلبة ، حيث برع الكثير من العلماء في شتى فنون العلم كالفقه و الحديث و التفسير و التاريخ و الجغرافيا و الأدب

¹ - تاريخ الإسلام السياسي : حسن إبراهيم حسن ، 1 / 398 ، 399 .

² - ابن الجوزي ومقاماته الأدبية : علي جميل علي مها ، دكتوراه مطبوعة ، جامعة الأزهر ، كلية اللغة العربية ، ص 576 .

و الفلسفة ، كما ظهر العديد من الدعاة و الوعاظ¹ الذين كان لهم دور في توجيه الحيلة الثقافية و ترشيدها .

2 - إسداء الأمر السلاجقة أجل الخدمات للعلم و العلماء فعلى الرغم مما ارتكبه من أخطاء و تجاوزات في حق أنفسهم و حق الرعية و في حق حتى الخلفاء من بني العباس² إلا أنه يعزى لهم الفضل في إعادة مجد أهل السنة و تخليص العالم الإسلامي من النفوذ الشيعي و ما جره على الوطن الإسلامي من الفتن ؛ فقد كانوا يعتبرون أنفسهم حماة المذهب السني و المؤيدون للخلافة العباسية ، كما أن سياستهم القائمة على احترام العلم و العلماء و التقرب منهم قد شجعت العديد من الفقهاء و المحدثين على الإبداع و الابتكار كل في مجال تخصصه ، أضف إلى ذلك ما كانوا يصدقونه عليهم من الأموال و الهبات ، ولعل هذا يدخل ضمن الإطار العام لسياستهم في كسب واد العلماء لأنهم يعتبرونهم من أهم وسائل استقرار المجتمع و تثبيت أركان الحكم ، وعلى هذا الأساس صار بلاط السلاطين السلاجقة من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في ذلك العصر³.

3 - قوة صلة خلفاء تلك الفترة بالعلم حتى أن القادر بالله " كانت له مصنفات تقرأ على الناس"⁴ ، و قد عدّ من خيار الخلفاء و سادات العلماء في ذلك الزمان . كما كان " القائم بأمر الله⁵ عالما ، فصيحاً ، أديباً ، كاتباً بليغاً ، شاعراً"⁶ ، و كان المستنجد صاحب شعر و نثر . أما المستظهر⁷ فكان " حافظاً للقران ، فصيحاً ، بليغاً ، شاعراً منطيقاً "⁸ ، و زيادة على هذا فقد كانوا يتنافسون بينهم في تشجيع العلماء ، كالخليفة المستضيء ، و كان وزيراً لهم من العلماء ، فالوزير ابن يونس كان له العديد من المصنفات منها مصنفاً في " أوامير أبي الخطاب في الفرائض و متعلقاتها من الوصايا و المسائل " ، كما كان الوزير ابن هبيرة عالماً بالفقه و اللغة و الأديب و له مؤلفات قيمة منها : " الإيضاح و التبيين في اختلاف الأئمة المجتهدين " و كذلك " الإفصاح عن معاني الصحاح " و " المقتصد "

¹ - انظر تراجم بعض الدعاة و الوعاظ في فصل حائلة الدعوة في عصر ابن الحوزي .

² - تاريخ الإسلام السياسي : حسن إبراهيم حسن : 1 / 292 .

³ - انظر المصدر السابق : 1 / 399 ، و كذلك ما ذكره باقوت الحموي في معجم البلدان ، عند شرحه كلمة مرو .

⁴ - البداية و النهاية : ابن كثير ، 12 / 31 .

⁵ - القائم بأمر الله : اسمه أبو جعفر بوبع له بعد أبيه القادر بالله ، كان عادلاً كبير الإحسان ، انظر ترجمته البداية و النهاية 12 / 31 .

⁶ - البداية و النهاية : ابن كثير ، 12 / 110 .

⁷ - المستظهر : سبقت ترجمته .

⁸ - البداية و النهاية : 12 / 147 .

و "الإشراف على مذاهب الأشراف" و كتاب "العبادات الخمس" إلى غير ذلك¹ .
١ - ظهر في هذا العصر العديد من العلماء الذين يحسنون الجدل و يظهرون الغيرة على الدين و كان بعضهم من طلاب الجاه و المال على حد قول ابن الجوزي² .
٢ - كثرة المناظرات الفكرية و العقديّة بين أهل السنة و الشيعة ، و التي كانت تؤدي في بعض الأحيان إلى الخصومات و الصدامات الدموية كما كان الحنابلة آنذاك قوة يخشى بأسها³ .

٣ - بروز طائفة من علماء التصوف الذين جمعوا بين العلم والعمل كالإمام أبي حامد الغزالي و الحارث المحاسبي، بالإضافة إلى ظهور طائفة من غلاة الصوفية الذين خلطوا مسائل الكلام بالشعوذة و الخرافات و الأساطير⁴ فتحدثوا عن الاتحاد بين العبد و الرب ، و عن حلول الحق سبحانه في الخلق ، و عن وحدة الوجود و وحدة الشهود و عن الحب و العشق الإلهيين .

٤ - ظهور الكثير من الطرق الصوفية في ذلك العصر؛ منها الطريقة القادرية التي تنسب إلى عبد القادر الجيلاني (ت ٥٦١هـ) و الرفاعية نسبة إلى أحمد بن أبي الحسين الرفاعي (ت ٥70هـ) ... إلخ⁵ .

كما ظهرت طائفة من القصاص و الوعاظ نالوا إعجاب عوام الناس بما كانوا يلقون عليهم من مواعظ و قصص فيها الغث و السمين . و قد تصدى لهم ابن الجوزي في العديد من مؤلفاته الوعظية و الدعوية⁶ و كشف زيف باطلهم و تلاعبهم بعقول العوام .
٥ - و ثمة عامل آخر ساعد على ازدهار الحركة العلمية ؛ كثرة المدارس للمذاهب الفقهية الأربعة و غيرها و إقبال طلبة العلم من شتى أقاليم الدولة ينهلون من علومها و يتعلمون على شيوخها .

و بجوار المدارس قامت العديد من المساجد التي ساهمت في الحركة العلمية بشكل ملحوظ، و من أشهر تلك الجوامع، جامع المنصور و القصر و جامع السلطان و الرصافة⁷ .

١ - المنتظم : 18 / 166 - الكامل : 9 / 480 - البداية و النهاية : 12 / 250 .

٢ - انظر التفصيل في مبحث العلم و العلماء عند ابن الجوزي ، فصل التربية و التعليم عند ابن الجوزي .

٣ - تاريخ الإسلام السياسي : حسن إبراهيم حسن ، 4 / 587 .

٤ - المنتظم : 1 / 20 ، من مقدمة الحقن .

٥ - انظر ابن الجوزي و الصوفية في فصل مآثر الدعوة و الإصلاح عند ابن الجوزي .

٦ - من هذه المؤلفات : صيد الخاطر ، تليس إبليس ، المنتظم ، القصاص و المذكرين وغيرها .

٧ - ذكر ابن الجوزي هذه الجوامع بكثرة في الجزء 15 ، 16 ، 17 ، 18 من المنتظم .

١٠ - ظهور الموسوعات في هذا العصر كالكتاب الذي ألفه الشاعر المشهور: أبو المظفر الأبيوردي (ت 557 هـ) ¹ في طبقات العلوم حيث أفرد لكل علم طبقة، و ابن عقيل الحنبلي الذي ألف كتاب الفنون في أنواع العلوم في 170 مجلداً و الذي قال عنه الإمام الذهبي: " لم يصنف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب، حدثني من رأى منه المجلد الفلاني بعد الأربعمائة " ² و كذا الفخر الرازي (ت 600 هـ) ألف كتاب " حقائق الأنوار في حقائق الأسرار " شرح فيه نحو ستين علماً ³.

١١ - و مما ساعد في ازدهار الحركة العلمية الاتساع الكبير الذي عرفته صناعة الورق و انتشار مصانعه انتشاراً واسعاً في معظم بقاع الدولة الإسلامية فنشأت صناعة الوراقة و ظهر الوراقون الذين كانوا يقومون بنسخ الكتب و تصحيحها و تجليدها إلى غير ذلك مما يتعلق بالكتب ⁴، وقد نتج عن ذلك أن انتشرت المكتبات العامة و الخاصة انتشراً واسعاً شملت دور الخلفاء و الأمراء و الوزراء و العلماء بل و حتى عامة الناس .

إلا أن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو كيف يمكن أن تكون هناك نهضة علمية بهذا الشكل الذي أشرنا إليه في ضوء تلك الظروف المتدهورة في شتى الميادين و على مستوى كل الأصعدة ؟ و لكن ما يمكن قوله في هذا المجال هو : أن تلك النهضة لم تكن مفاجئة أو وليدة الساعة و الحين ، بل تضافرت على إيجادها عوامل عديدة ، و لعل أبرزها ما ذكرناه أنفاً أضف إلى ذلك عوامل أخرى أهمها : دخول العديد من الأمم الأعجمية من فارس و ترك و بربر في قائمة شعوب الدولة الإسلامية في ذلك العصر فكان منهم الكثير من جهابذة العلوم النقلية و العقلية - كما أشار إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته ⁵ مما كان له الأثر البالغ في الازدهار العلمي خصوصاً و الرقي الحضاري عموماً . و من هذه العوامل أيضاً كثرة العمران ؛ لأن انتشاره دلالة على الرقي و الرخاء و الاستقرار و بذلك تزدهر العلوم و المعارف و يتطور البحث العلمي و قد بين ذلك ابن خلدون في مقدمته بقوله : " واعتبر ما قررناه بحال بغداد و قرطبة و القيروان و البصرة

¹ - أبو المظفر الأبيوردي : عماد بن أبي العباس، الشاعر المشهور، كان رابعة نسبة فصيح الكلام توفي مسرماً سنة 557 هـ وفيات الأعيان و أبناء أبناء الزمان : خمس الدين أبو بكر بن خلكان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت لبنان ، دت ، 4 / 444 سير أعلام النبلاء : شمس الدين الذهبي ، 19 / 283 .

² - الذيل على طبقات الحنابلة : ابن رجب الحنبلي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، دت ، 1 / 156 .

³ - ظهر الإسلام : أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 5 ، دت ، مج 2 ، 4 / 195 ، 196 .

⁴ - ضحى الإسلام : أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 10 ، دت ، 2 / 24 .

⁵ - مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن ابن خلدون ، دار الفلم ، بيروت ، لبنان ، ط 7 ، 1409 هـ ، 1989 م ، ص 543 .

و الكوفة لما كثر عمرانها صدر الإسلام و استوت فيها الحضارة ، كيف زخرت فيها بحار العلم و تفننوا في اصطلاحات التعليم و أصناف العلوم و استنباط المسائل و الفنون حتى أربوا على المتقدمين و فاتوا المتأخرين " ¹ .

و هناك عامل آخر - وإن كان - يبدو سلبيا من الناحية السياسية . و هو انفصال تلك الدويلات الناشئة عن دولة الخلافة ، حيث أن هذا الانفصال قد ساعد على زيادة الثروات و انتشار العمران مما أدى إلى ازدهار الحياة العلمية بعد ذلك ² .

إسهامات ابن الجوزي في الناحية العلمية :

من أعظم النواحي التي كان فيها لابن الجوزي الدور الفعال في تغيير مسارها و تحريك ديناميكيتهما الناحية العلمية والثقافية في عصره ، حيث شارك فيها بأساليب مختلفة عن طريق حلقات الدرس و التعليم لطلبة العلم مرة ، و بمجالسه الوعظية و الدعوية - التي كان يحضرها الآلاف ³ - مرة أخرى ، و بمؤلفاته التي صنفها في شتى فنون العلم و التي زاد عددها عن الحد المعقول كما ذكر العلماء ⁴ و تلاميذه الذين أخذوا عنه العلم و انتشروا في مختلف الأصقاع ، و لن نكون مبالغين إذا قلنا أن إسهامات ابن الجوزي في الحياة العلمية في عصره لم يبلغها إلا القليل من العلماء و خاصة في ميدان التصنيف و هذا باعتراف العلماء أنفسهم سواء المعاصرين له أو الذين جاءوا من بعده .

1 - مقدمة ابن خلدون : ص 434 .

2 - تاريخ الإسلام السياسي : حسن إبراهيم حسن ، 4 / 398 .

3 - انظر ما قاله عن مجالسه في صيد الخاطر : ص 236 . لفنة الكبد : ص 21 . المنتظم : 18 / 200 ، 236 الخ ..

4 - انظر مبحث مؤلفات ابن الجوزي من فصل آثار ابن الجوزي .

الفصل الثاني

الدعوة في عصر ابن الجوزي

و يتضمن ثلاثة مباحث

المبحث الأول : حالة الدعوة و معوقاتهما في عصر

ابن الجوزي

المبحث الثاني : مراكز الدعوة في عصر

ابن الجوزي

المبحث الثالث : علماء الدعوة في عصر

ابن الجوزي

المبحث الأول

حالة الدعوة و معوقاتها في عصر ابن الجوزي

تمهيد عن حالة الدعوة :

رغم أن العصر العباسي كان عصر قلاقل و اضطرابات ، و خاصة من الناحية السياسية فقد كان من الناحية الدعوية أحسن حالاً مقارنة بالنواحي الأخرى و ذلك لوجود بعض المظاهر التي ساعدت على صمود الدعوة و استمراريتها في ذلك الحين أهمها :

- 1 - انتشار عملية التدوين بشكل واسع للعلوم الإنسانية عموماً ، و الإسلامية على وجه الخصوص مما أدى إلى ظهور العديد من أئمة الفقه ، و الوعظ و الدعوة ، فتقاطر عليهم الطلبة و التلاميذ من كل حذب و صوب ؛ ينهلون من علمهم فكان هذا الأمر نقلة نوعية و نهضة علمية سجلها التاريخ للسلاجقة¹.

- 2 - امتزاج الحالة الدعوية بالحالة العلمية و الفكرية ، حيث أن أغلب ما تميزت به الحالة العلمية كان له الأثر الطيب على الناحية الدعوية ، فزخم الحياة العلمية في عصر ابن الجوزي أنجب الأفاضل من العلماء الموسوعيين الذين انفتحت عقربتهم بتصنيف الموسوعات و الكتب الطوال ، كما زخرت مساجد بغداد و الكوفة و البصرة بكثير من العلماء و الوعاظ الذين كونوا جداراً صلباً لصد تيار المجون الجارف².

كل ذلك كان سبباً في تجدد الدعوة و تجدد حركيتها و استمراريتها رغم الفتن المتلاحقة و المكائد التي يتعرض لها الدعاة و العلماء . أضف إلى ذلك المعوقات التي كانت تقف حجر عثرة في طريق الدعوة في عصر ابن الجوزي .

معوقات الدعوة في عصر ابن الجوزي :

لما كان الابتلاء و الامتحان من أهم العقبات التي صادفتها دعوة التوحيد عبر العصور فلا غرابة أن تواجه الدعوة الإسلامية عبر مراحلها المتتالية شدائد و مصاعب جمة تحاول تحريف الدعوة و إبعادها عن مسارها المرسوم لها بتضييق الخناق على الدعاة حيناً و صد المدعوين عنها أحياناً أخرى .

و من هذا المنطلق اتضح لنا أن الدعوة في عصر ابن الجوزي صادفتها معوقات

¹ - انظر موسوعة التاريخ الإسلامي : أحمد خلي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة : ط 8 ، سنة 1985 م ، 3 / 354 .

² - المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتح البيانوني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 3 ، سنة 1995 م ، ص 102 .

كثيرة حاول ابن الجوزي بجهوده الدعوية و الوعظية و تصانيفه المحافظة على استمرارية الدعوة و ترشيدها بتذليل الصعوبات و تحجيم المعوقات التي تقيد الدعوة و تكبلها .

و يمكننا اختصار جملة هذه المعوقات في ما يلي :

1 - كثرة العلماء في تلك الفترة من الزمان ، ولكنهم في مجال العمل للدعوة لم يكن يميزهم عن العامة إلا علم امتلأت به عقولهم دون أن يحرك جوارحهم ، أو مناصب تقلدوها فعاقبتهم عن الحركة¹ ، و بقدر ما قربتهم من السلطان أبعدهم عن الناس و أسقطتهم من أعينهم فلم يكونوا أفضل من العوام في شيء .

2 - ظهور الكثير من أدعياء التصوف الذين استطاعوا أن يصرفوا "عددا من العلماء عن العمل للدعوة و بذل الجهد لتجميع الناس حولها"² . كما عطلوا حياة الجد و الكدح و اتخذوا من التصوف و الشعوذة حرفة للكسب و الارتزاق ، فكان الكثير منهم يقف كحجر عثرة في طريق الدعوة ، زد على ذلك أنهم فسحوا مجالا واسعا لانتشار الخرافات و البدع بين العامة³ و قد رد عليهم ابن الجوزي في كتابه التلبيس الذي كان بمثابة الحجرة الصماء أمام جدار المتصوفة المتهازي .

3 - كثرة الوعاظ و انتشارهم في أرجاء بغداد في هذا العصر؛ و قد تبدو هذه الظاهرة صحية في الظاهر و لكنها من حيث المردود الدعوي كان تأثيرها سلبيا ، وذلك نظرا لأن مهمة الوعظ صارت حرفة يقوم بها من يحسن الوعظ و من لا يحسنه ، وأكبر دليل على ذلك أن الناظر و المتصفح لكتاب المنتظم أو وفيات الأعيان يجد في الترجمة للعديد منهم فلان الواعظ أو الواعظ الفقيه أو الواعظ المحدث و هكذا⁴ .

4 - عدم استقرار المجتمع بسبب كثرة الفرق الباطنية و العيارين و اللصوص و متبري الشغب الذين أثروا على المجتمع سلبا فكثرت السرقة و شاع بين الناس الكذب والغش و الرياء و النفاق⁵ .

و لما كان لكل فعل رد فعل فقد ظهرت جماعة من العلماء المتشددين الذين قاوموا الفساد بفساد آخر ، فكان هذا الأسلوب التغييري حجة للخصوم حتى يلصقوا ما شاعوا من

1 - استمرارية الدعوة : محمد السيد الوكيل ، دار المجتمع للنشر ، حدة ، ط 1 ، 1994 م ص 80 .

2 - المصدر السابق : ص 80 .

3 - انظر مبحث الحالة العلمية في عصر ابن الجوزي من الفصل الأول من هذا الباب .

4 - انظر المنتظم بحامدة الجزء 17 ، و 18 ، و كتاب وفيات الأعيان : لابن حلكان ، الجزء 3 ، 4 .

5 - المنتظم : 18 / 117 ، 156 ، 160 - البيهية و النهاية : ابن كثير ، 12 / 67 .

التهم بالدعوة و الدعاة و قد صور ابن الأثير هذا المشهد أحسن تصوير فقال في حوادث 417 هـ : " في هذه السنة وقعت الفتنة بين الفقهاء الشافعية و الحنابلة ببغداد ، و تبعهم من العامة الجح الغفير ، و أنكروا الجهر بيسم الله الرحمن الرحيم و منعوا من الترجيع في الأذان و القنوت في الفجر ، و وصلوا إلى ديوان الخليفة ، و لم يفصل حال و أتى الحنابلة إلى مسجد باب الشعير فنهوا إمامه عن الجهر بالبسملة فأخرج مصحفا ، و قال : أزيلوها من المصحف حتى لا أتلوها " ¹ .

5 - انتشار التعصب المذهبي الذي أدى إلى ظهور العدا بين أصحاب المذاهب و قد ترك هذا التعصب آثاره السيئة على التدريس و على العلماء و على الدعوة و المدعوين عموما فمن ناحية التدريس فقد صار لا يدرس في المدارس إلا أرباب مذهب معين ، بينما يتعرض غيرهم للمضايقات حتى من طرف العوام ² .

أما آثاره على العلماء فقد أدى إلى ضعف تأثيرهم في السلطة و في المجتمع ، و لم تعد الدولة ترى فيهم جلال العلم و لا هيبة العلماء ³ فصارت تتدخل في تعيين الموظفين في المدارس و لم يعد أحد يستطيع الوعظ أو التحديث في المساجد أو المدارس إلا بإذن من الخليفة ⁴ فخسرت الدعوة الكثير من كوادرها قبل أن يخسرهم المجتمع عامة و طلبة العلم خاصة ، بل وصل الأمر إلى حد فقدان الثقة من هؤلاء العلماء و الشك في قدرتهم على تسيير المؤسسات الدعوية و العلمية فصار السلاطين يمارسون الرقابة المالية على المدارس و المساجد ⁵ . قال ابن الجوزي في حوادث 523 هـ : " تقدم السلطان بالختم على أموال مدرسة الإمام أبي حنيفة و مطالبة و كلائه بالحساب " ⁶ .

أما آثار التعصب فكانت وخيمة على المدعوين من العوام وصلت إلى حد الاقتال في كثير من الأحيان ، بين الحنابلة و الشافعية مرة و بين الحنابلة و الأشاعرة مرة أخرى ⁷ و كمثل على ذلك ما وقع سنة 417 هـ من فتنة بين الأشاعرة و الحنابلة عندما " قوى جانب الحنابلة قوة عظيمة ، بحيث أنه كان ليس لأحد من الأشاعرة أن يشهد الجمعة و لا

¹ - الكامل في التاريخ : ابن الأثير ، 8 / 329 .

² - كمثل على ذلك انظر المنتظم : 17 / 128 ، 210 ، 18 / 77 ، 147 .

³ - استمرارية الدعوة : محمد السيد الوكيل ، ص 80 .

⁴ - المنتظم : 18 / 77 ، 102 ، 111 ، 138 ، 191 .

⁵ - ما أشبه اليوم بالبارحة فما كان يحدث للدعوة و الدعاة بالأمس هو نفسه الذي يكرر اليوم .

⁶ - المنتظم : 17 / 252 .

⁷ - المصدر السابق : 17 / 245 ، 18 / 81 .

الجماعات " ¹ و بلغ التعصب عند الحنابلة مبلغه حتى أنه كان إذا مات أحد علمائهم" يصيحون على عادتهم هذا يوم سني حنبلي لا قشيري و لا أشعري " ² .
و إذا كان الأمر على هذه الغاية من الخطورة و الترددي فكيف يستقيم حال الدعوة ؟ و كلا من الداعية و المدعو يعاني خلالا في التوجيه و السلوك .

6 - ظهور الصراعات الطائفية و انتشارها بشكل حاد و مخيف و لبت هذا الصراع كلن بين المسلمين و غيرهم ؛ كالنصارى من أهل الذمة أو اليهود ، إنما كان هذا الصراع المرير بين الشيعة و السنة ، و أما عن نتائجه فكانت خسائر عظيمة في الأرواح و الممتلكات كالنزاع الذي حدث سنة 660 هـ بين الطائفتين و كانت نتيجته قتلى و جرحى و سلب و نهب ³ .
و لم يستطع ابن الجوزي - وهو الداعية الحنيف - تجنب هذا الصراع خاصة عندما كان بعض أدعياء التشيع يبالبون في إظهار بعض معتقداتهم ، فمثلا لما حاول الشيعة رفع رؤوسهم في سنة 571 هـ ، أطلق الخليفة المستنضي يد ابن الجوزي في إزالة البدع ، فقام على المنبر وطلب من الحضور أن يخبروه بمن ينتقص الصحابة - رضي الله عنهم - من الناس حتى ينقض عليه داره ، و يخلده في الحبس فكف الشيعة عما يقولونه في حق الصحابة ⁴ ، إلا أنه كانت بين الفينة و الفينة تظهر في صفوفهم حركات ردة و عودة إلى ما ألفوه قديما من سب الصحابة مما يضطر السلطة - و المتمثلة في الخلافة - إلى التدخل في بعض الأحيان لمعاقبة الجناة ⁵ .

1 - البداية و النهاية : ابن كثير ، 12 / 66 .

2 - المنتظم : 17 / 245 .

3 - المصدر السابق : 18 / 208 .

4 - نفس المصدر : 18 / 222 .

5 - انظر المصدر نفسه : 18 / 251 .

المبحث الثاني

مراكز الدعوة في عصر ابن الجوزي

لا شك أن الدعوة لا يمكنها أن تنطلق من الفراغ ، فلا بد أن يكون لها مكان تجمع فيه قواها لتنتطلق منه ، حتى يستطيع القائمون عليها تأدية الرسالة الدعوية على الوجه المطلوب .
و في عصر ابن الجوزي كانت الدعوة الإسلامية مراكز عدة انطلقت منها و لعل أهم هذه المراكز على الإطلاق هي :

1 - المساجد :

مما لا شك فيه أن المساجد هي المعاهد الأولى للدعوة و التعليم في العصر الإسلامي الأول فلم تكن للعبادة فقط ، بل كانت معاهد لتعلم القرآن و تعليمه ، و فهم آياته و أحكامه ، و دراسة الأحاديث النبوية و التفقه فيها¹ ، بل و صارت بعد ذلك جامعة شعبية تعلم شتى العلوم و المعارف لكافة أفراد المجتمع² ، و لولا تلك المساجد و ما كان يدور فيها من مناظرات فكرية لما وصلتنا اليوم هذه التركة الهائلة من المخطوطات و الكتب في شتى فنون العلم و التي تمتلئ بها مختلف مكتبات العالم اليوم .

و في العصر السلجوقي استمرت المساجد في أداء وظيفتها الدعوية بالإضافة إلى وظيفتها التعليمية ، يجسد لنا ابن الجوزي هذا الدور عندما تحدث عن نفسه و هو تلميذ لم يعقل بعد فقال : " إني كنت ولي سبع سنين أو نحوها أحضر رحبة الجامع . فأطلب المحدث يتحدث بالسير فأحفظ جميع ما أسمعه و أذهب إلى البيت و أكتبه " ³.

ويذكر ابن الجوزي كيف أن بغداد كانت تشتمل في عهده على كثير من المساجد التي كان لها أكبر الأثر سواء من الجانب العلمي أو الدعوي فمما ذكره :
جامع الرصافة⁴ وجامع المحزم وهو المسمى بجامع السلطان⁵ والذي تمت عمارته سنة 524هـ

¹ - رسالة المسجد قديما و حديثا : محمد الخنوب ، مجلة البحوث الإسلامية ، رابططة العالم الإسلامي ، مكة المكرمة ، مج 1 ، ع 2 ص 494 .

² - مكانة المسجد و رساله : منصور الرفاعي عبيد ، مطبعة العاصفة ، القاهرة ، ط 1 ، 1978 م ، ص 6 .

³ - لفنة الكبد : ص 19 .

⁴ - المنتظم : 18 / 231 .

⁵ - المصدر السابق : 18 / 206 ، 193 .

و جامع المنصور الذي كان يعظ به ابن الجوزي¹ و جامع القصر² و مسجد المأمون³ ثم مسجد التوتة الذي صار جامعاً ، و ابن لصلاة الجمعة فيه في شهر رمضان من سنة 509 هـ⁴ و مسجد شارع الدقيق الذي أقيمت فيه الجمعة في شهر ذي القعدة من سنة 522 هـ⁵ ، و مسجد الحظائر الذي شيده أم الخليفة الناصر⁶ ، و مسجد ابن جرادة الذي شيده أبو عبد الله ابن جرادة⁷ شرق بغداد و الذي ختم فيه القرآن أنوف من الخلق⁸ .

و لقد كانت هذه المساح و غيرها في مختلف البقاع في ذلك العصر مراكز إشعاع العلم و الدعوة عن طريق التربية و التعاليم ، فغصت المجالس العلمية و الدعوية بالدعاة و المرابطين إضافة إلى الطلبة و المرابدين ، و من هذه المجالس مجلس الإمام المقنسي في المسجد الجامع بالقاهرة ، الذي كان يعقد وقت صلاة العشاء و قد أمضى فيه مائة و عشوة مجالس من مجالس العلم . و مجالس الإمام ابن الجوزي الدعوية التي كان يعقدها في جامع المنصور ببغداد ، و هو أقدم مسجد جامع بها و أشهر مركز للتربية و التعليم في الرقعة الإسلامية⁹ ، و قد ألقى فيه أبو عمرو الزاهد كتابه الباقيات ارتجالاً و لما أتمه استعاد قراءته في¹⁰ و زاد عليه¹⁰ .

كما جلس الإمام محمد بن جرير الطبري في جامع عمرو بن العاص بدمشق شعره إلى ما ح على أبي الحسن علي بن سراج المصري الذي أعجب بعلمه و فضله¹¹ .
و ثبت دروس مختلفة في الجامع الطولوني . شملت التفسير و الحديث و الفقه على

1 لسطه : 202 / 18

2 لسطه السابق : 244 / 18

3 من المصدر : 228 / 18

4 من المصدر : 200 / 18

5 صدر نفسه : 231 / 18

6 في التعريف به .

7 أبو عبد الله أصله من عسكر دخل بغداد و تزوج ، و كان و وسع على ، و هو الذي بنى المسجد المعروف به ، انظر المنظم : 232 / 16

8 المنظم : 233 / 16 .

9 الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : آدم متر ، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ط 1 ، 1405 هـ / 1986 م ، 4 / 296

10 الفهرست : محمد بن إسحاق أبو الفرج بن النديم ، المطبعة الرعانية عصر . لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف دت ، ص 113 .

11 معجم الأدياء (أرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) : باقوت بن عبد الله الحموي ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ط 1

المذاهب الأربعة ، و علم القراءات ، و الطب و غيرها من العلوم كما روى السيوطي
 كما كانت تعقد للخطيب البغدادي في جامع دمشق حلقة كبيرة ، و كان الناس يجتمعون إليه
 في بكرة كل يوم فيقرأ لهم و كان إذا قرأ لهم الحديث سمع صوته في آخر الجامع² ، فصار
 جامع دمشق هذا مركزاً مهماً من مراكز الثقافة في العالم الإسلامي³ .
 و يحدثنا ابن جبير عن هذا الجامع أنه كانت لا تخلو منه قراءة صباحاً و لا مساءً ، " و فيه
 حلقات للتدريس للطلبة ، و للمدرسين فيها إجراء واسع و للمالكية زاوية للتدريس في الجانب
 الغربي يجتمع فيها طلبة المغاربة " ⁴ ، إلى غير ذلك من التفاصيل التي ذكرها الرحالة في
 كتابه .

2 - المدارس :

لم تنشأ المدارس في البلاد الإسلامية زمن الصحابة و التابعين - رضي الله عنهم -
 بل لم يعرف هذا الطراز من المؤسسات التعليمية قبل القرن الرابع للهجرة و لعل أول
 مدرسة ظهرت بهذا المعنى هي المدرسة البيهقية في نيسابور⁵ ، و التي قال المقرئزي
 عنها : أن أول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور ، فبنيت بها المدرسة
 البيهقية للإمام البيهقي المتوفى سنة 451 هـ⁶ . و السبب في ذلك يرجع إلى أن المساجد - كما
 أسلفت الذكر - كانت هي المهيمنة على النشاط العلمي و الدعوي خلال قرون مضت
 سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي ، و لكنه و بمرور الزمن بدأت تظهر المدارس
 و يحدثنا المقرئزي عن تاريخ نشأة المدارس فيقول : " و المدارس مما حدث في الإسلام
 و لم تكن تعرف زمن الصحابة و لا التابعين ، و إنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنئ
 الهجرة . و في بغداد محل إقامة ابن الجوزي شرع في بناء أول مدرسة بها سنة 459 هـ⁷ .

¹ - حسن المحاضرة : حلال الدين السيوطي ، وضع حواشيه خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1997 م ، 2 / 220 .

² - معجم الأدياء : ياقوت الحموي ، 1 / 507 .

³ - التربية و التعليم في الفكر الإسلامي : أحمد سنئي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط 8 ، 1987 م ، ص 112 .

⁴ - رحلة ابن جبير : ص 191 .

⁵ - نيسابور : مدينة عظيمة فتحها المسلمون أيام عثمان صلحاً سنة 31 هـ ، و قيل أيام عمر ، خرج منها من أئمة العلم من لا يحصى انظر معجم البلدان ، بالهوت الحموي ، 5 / 382 .

⁶ - الواعظ و الاعتبار بذكر الخطوط و الآثار : نقي الدين المقرئزي ، المكتبة الثقافية النديبة ، القاهرة ، ط 2 ، 1987 م ، 2 / 363 .

⁷ المصدر السابق : 2 / 363 .

و التي شيدها نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ملكشاه¹ ، و قام بالتدريس فيها العلماء الأعلام كأبي إسحاق الشيرازي و الإمام الغزالي² .

و بالإضافة إلى مهمة التدريس فقد كانت للمدارس مهمة أخرى و هي إيجاد طائفة من الأساتذة و الدعاة المؤهلين للتدريس و نشر الدعوة في الأقاليم المختلفة .

و لقد كانت هذه المدارس تتوفر على جل الإمكانيات التي تساعد العلماء على التدريس و الطلبة على تلقي العلم و الاجتهاد في تحصيله ، فيذكر ابن الجوزي أن نظام الملك وقف على مدرسته ببغداد ضياعا و أملاكا ، و سوفا بنيت على بابها ، و أنه فوض لكل مدرس و عامل بها قسطا من الوقف ، و أجرى للمتفهمة (الطلبة) أربعة أرطال خبز يوميا لكل واحد منهم³ .

بالإضافة إلى ذلك كان رجال الدولة يحضرون دروس العلم فيها ليرغبوا الناس في العلم كما صرح بذلك ابن الجوزي⁴ .

و يصف لنا ابن جببر أحد هذه الدروس التي حضرها في نظامية بغداد حين زارها في عام 580 هـ فيذكر أن الشيخ رضي الدين القزويني رئيس الشافعية ، و فقيه النظامية سعد منبر المدرسة المذكورة بعد صلاة الجمعة و ابتدأ القراءة أمامه بقراءة القرآن " ثم اندفع الشيخ فخطب خطبة سكون و وقار و تصرف في أفانين من العلوم : من تفسير كتاب الله عز و جل و إيراد حديث رسول الله - صلى الله عليه و سلم - ، و التكلم على معانيه ، ثم رشقته شاييب المسائل من كل جانب ، فأجاب و ما قصر ، و دفعت إليه عدة رقايع فجمعها جملة في يده و جعل يجاوب على كل واحدة إلى أن فرغ منها . و حان المساء فنزل و افترق الجمع و كان مجلسه مجلس علم و وعظ " و وصلت آثاره " إلى النفوس حتى أطارتها خشوعا و فجرتها دموعا و بادر الثائبون إليه سقوطا على يده و وقوعا " ⁵ .

و هكذا استمر تدفق الدعاة و الوعاظ على نظامية بغداد و كان البعض منهم يجد إقبالا منقطع النظير . ففي سنة 486 هـ قدم أردشير بن منصور أبو الحسين العبادي⁶ فوعظ

¹ نظام الملك : الحسن بن علي بن إسحاق ، تولى الوزارة تسعا و عشرين سنة : كان عالي الهمة صالحا ، يحضر مجلسه الفناء و العلماء قبل سنة 485 هـ ، انظر ترجمته في المنتظم : 16 / 302 - البداية و النهاية 12 / 140 .

² المواعظ و الاعتبار : المصيري : 2 / 263 .

³ - المنتظم : 16 / 304 - وانظر البداية و النهاية : 12 / 140 ، 141 .

⁴ - المنتظم : 17 / 92 ، 120 .

⁵ - رحلة ابن جببر : ص 158 .

⁶ أبو الحسين العبادي : و اعظ بامر أئمة بعض حوامع بغداد ضرب بر وعظه أشل إلا أنه كان قبل التدريس سر أعلام البلاء 20/232 .

بالنظامية و وجد قبولا عظيما، حيث حضر مجلسه أبو حامد الغزالي وكبار مشايخ الصوفية وتدفق الناس لسماعه حتى غص بهم صحن المدرسة وأروققتها و غرفها و سطوحها و قدر عددهم بما يقرب من ثلاثين ألفا بينهم عدد كبير من النساء، فتاب التائبون و حلق أكثر الصبيان شعورهم و التحقوا بالجوامع و حضروا الجماعات و أربقت الخمر و المسكرات و كسرت آلات العزف و الغناء¹ .

و في تلك الفترة اشتهر عدد غير قليل من المنارس والتي كان لها دور فعال في ميدان العلم و الدعوة إضافة إلى المدرسة النظامية التي ذكرنا أنفا و من هذه المدارس :

1 - المدرسة الكمالية و التي أنشئت سنة 569 هـ ، و درس فيها أبو الحسن بن الخل و حضر عنده الأعيان² .

2 - المدرسة التي بنيت بباب الأرح سنة 510 هـ³ .

3 - المدرسة التي بنيت في المأمونية سنة 556 هـ و التي درس فيها أبو حكيم النهرواني⁴ و من بعده ابن الجوزي⁵ .

4 - المدرسة التي بناها أبو الفتوح الحاجب⁶ بجانب داره سنة 556 هـ .

5 - المدرسة التي بناها الوزير ابن هبيرة بباب البصرة سنة 557 هـ و رتب فيها فقهاء و مدرسين و أجرى لهم المعاشات و الأرزاق⁷ .

6 - المدرسة التي سلمت لابن الجوزي سنة 570 هـ والتي أوقفت على أصحاب أحمد بن حنبل⁸ .

7 - المدرسة التي بناها ابن الجوزي و التي افتتحها سنة 570 هـ و ألقى فيها يومئذ دروسا⁹ كثيرة في الأصول و الفروع .

8 - المدرسة الميمونة التي كتب على بابها اسم ابن الجوزي و لقبه " ناصر السنة

¹ - المنتظم : 3 / 17 .

² - المصدر السابق : 10 / 18 - البداية و النهاية : ابن كثير ، 12 : 217 .

³ - المنتظم : 14 / 18 .

⁴ - انظر ترجمه في مسند شوخ ابن الجوزي .

⁵ - المنتظم : 17 / 18 .

⁶ - أبو الفتوح و اسمه حمزة بن علي بن طلحة ، كان حصيدا عند المشرشد و المنفى ، بنى تلك المدرسة ، ثم حج و رجع متزهدا ، البداية و النهاية : 245 / 12 .

⁷ - المنتظم : 153 / 18 - البداية و النهاية : 245 / 12 .

⁸ - المنتظم : 214 / 18 .

⁹ - المصدر السابق : 214 / 18 - الذيل على الطبقات : 1 / 405 .

أبو الفرج¹ ، كما كانت هناك العديد من المدارس للحنابلة و الشافعية و المالكية والأحناف في بلاد الشام² و غيرها ، قامت بدورها الريادي في مجال العلم و الدعوة و التربية .

و - المكتبات :

لما نشطت حركة الترجمة و التأليف في العصر العباسي ، و بتقديم صناعة الورق ، و ما تبعها من انتشار الوراقين الذين كانوا يقومون بنسخ الكتب ، اتخذ العلماء و الأدباء لأنفسهم أماكن يجتمعون فيها للتزود من العلم ، فكثر عدد المكتبات الزاخرة بالكتب في شتى أنواع العلوم النقلية و العقلية و صارت بذلك من أهم مراكز الثقافة التي ساعدت على نشر الدعوة الإسلامية و استمرارياتها في ذلك العصر و التي شهد التاريخ بفضلها على المسلمين و على غيرهم من الأمم الأخرى ، فكان في كل جامع كبير مكتبة عامرة ، لأنه من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على الجوامع ، و كان الملوك يفاخرون بجمع الكتب ، حتى كان لكل ملك من ملوك الإسلام في مصر و قرطبة و بغداد في أواخر القرن الرابع الهجري ولع شديد بالكتب³

و تعتبر مكتبات المساجد هي أول نوع من المكتبات العامة الذي عرفه المسلمون⁴ منذ العصور القديمة ، حيث نجد فيها بالإضافة إلى كتب العلماء ، العديد من الكتب الدينية و العلمية النافعة ، التي يودعها الناس كوقف لفائدة طلاب العلم⁵ ، و لا تزال هذه السنة الحميدة قائمة إلى الآن في جميع أقطار العالم الإسلامي تقريبا . و لا بأس أن نذكر البعض من هذه المكتبات العامرة على سبيل المثال : أول هذه المكتبات العامة التي أرسيت قواعدها في بغداد هي بيت الحكمة المشهورة و التي بنيت في عهد المأمون ، و المكتبة التي بناها الوزير سابور بن أردشير سنة 381 هـ في الكرخ غربي بغداد ، و سماها دار العلم و كانت تحتوي على أكثر من عشرة آلاف مجلد ، و قد وقف عليها الأوقاف و الهبات و ظلت مرجعا للعلماء و طلبة العلم إلى أن احترقت سنة 450 هـ .⁶

¹ - المنتظم : 18 / 220 .

² - النارس في تاريخ المدارس : عبد القادر بن محمد الفصلي ، أعد فيهارسه إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1990 م ، 2 / 23 ، 50 .

³ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : آدم متر ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، 1 / 288 .

⁴ - مجلة الأمة : حولة في المكتبة السلطانية في أستانبول ، استطلاع للمجلة ، ع 54 ، السنة 5 ، حمادى الآخرة 1405 هـ ، مارس 1985 م ، ص 34 .

⁵ - المصدر السابق : ص 34 .

⁶ - المكامل في التاريخ : ابن الأثير ، 8 / 350 - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : آدم متر 1 / 294 .

كذلك المكتبة التي أنشأها أبو الحسن الصابي الملقب بفرس النعمة¹ و وقف فيها أكثر من أربعمائة مجلد في مختلف العلوم .

و مكتبة الوزير أبو منصور بن فثة و التي جمع فيها تسع عشرة ألف مجلد وقفها على طلبة العلم ، و الكتب التابعة للمكتبة النظامية و التي كانت تحتوي على ستة آلاف مجلد² و كذلك خزانة الكتب التي كانت بمرو ، و التي استفاد منها ياقوت الحموي³ حيث ذكر أنه وجد بها من كتب العلوم و الآداب ، و صحائف أولى الأفهام و الألباب ، ما شغله عن الأهل و الوطن ، فجعل يرتع في حدائقها و يقتبس من فوائدها⁴.

4 - الرباطات :

كانت الرباطات في بداية نشأتها تستعمل من أجل المجاهدين يرابطون فيها لحراسة الثغور و حدود الدولة الإسلامية مع الدول الأخرى و خاصة المعادية ، ثم بعد ذلك صارت المكان المفضل للعلماء و الشعراء الذين كانوا يلجأون لهذه الثغور من أجل الراحة و التفرغ للبحث العلمي⁵. لكنه و بمرور الزمن انتقلت هذه الرباطات إلى داخل الدولة الإسلامية حيث صارت أهميتها لا تقل عن أهمية المسجد⁶، فأصبحت أماكن للتأليف و التثقيف و الإقراء و إلقاء المحاضرات و بذلك تكون الرباطات قد أدت خدمات جليلة في الميدان العلمي و الدعوي عن طريق مكنتاتها العامرة التي كان يرتادها الزهاد و المتصوفة المقيمون بالرباط و كذا من يتردد على الرباط من طلبة العلم و المريدين من أجل مدارس العلم و التحصيل .

وأقدم رباط في بغداد كان ، هو رباط الزوزني⁷ و كان مقابلاً لجامع المنصور⁸.

- 1 - أبو الحسن الصابي : كان لقب بفرس النعمة ، جمع من أمه و ذيل علي بن أبي طالب ، كان له مدقة و معروف ، توفي سنة 480 هـ . المنتظم 16 / 275 .
- 2 - صيد الخاطر : ص 440 .
- 3 - ياقوت الحموي : أبو عبد الله ، الرومي الحنسي ، الحموي المولى البغدادي الدار ، له مؤلفات عديدة منها معجم البلدان و معجم الأدياء ، و كتاب المبدأ و المال في التاريخ ، انظر وفیات الأعيان لابن خلكان 6 / 127 .
- 4 - وفیات الأعيان : ابن خلكان ، 0 / 134 .
- 5 - تاريخ الإسلام السياسي : حسن إبراهيم حسن ، 4 / 414 .
- 6 - المصدر السابق : 4 / 413 .
- 7 - أبو الحسن الزوزني : و اسمه علي بن محمود و ولد سنة 366 هـ روى عن أبي عبد الرحمن السلمي ، و صار شيخ الصوفية ، نسب الرباط إليه توفي سنة 451 هـ ، المنتظم : 16 / 59 .
- 8 - المنتظم : 16 / 59 .

وقد انتشرت الأربطة في القرن السادس حيث كان بعض الأثرياء ينشئ هذه الأربطة و يوقفها على الصوفية أو أهل الحديث و يوفر لهم الكتب اللازمة ، كما فعل عبد الله بن أحمد البزاز¹ عندما " سافر إلى غزنة سنة 530 هـ و أقام بها مدة واشترى كتباً كثيرة و رجع إلى مرو وبنى خزانة الكتب في رباط بناه باسم أصحاب الحديث وطلابه من خاصة ماله و وقف كتبه فيه " ² .

و قد ذكر ابن الجوزي³ أنه تلقى الحديث على يد شيخ الرباط أبي نصر أحمد ابن منصور الهمذاني المتوفى سنة 570 هـ⁴ .
و لأهمية هذه الأربطة فقد أصبحت أمكنة صالحة للقراءة و التعلم و ذلك لوجود الكتب و العلماء و توفر الهدوء و الجو العلمي الذي يساعد على البحث و الإطلاع .

و قد تحدث ابن الجوزي عن الكثير من العلماء الأعلام الذين بنوا لأنفسهم أربطة للتعلم و العبادة فيذكر عن عبد القادر الجيلاني⁵ أنه كان يجلس مستنداً إلى رباطه للوعظ و الدعوة و يتوب عنده في المجلس خلق كثير⁶ .

و في ترجمته لعبد القاهر السهروردي⁷ يقول : " تفقه و درّس بالنظامية ، و بنى لنفسه مدرسة و رباطاً و وعظ " ⁸ .

و مما قاله في ترجمته لهبة الله أبي علي⁹ : أنه تقدّم في رباط " بدر زيجان " على جماعة من الصوفية و كان من أهل الدين¹⁰ .

1 - أبو المعالي البزاز : من أهل مرو ، سمع بغداداً من الشيوخ ، كان له صوم و عبادة ، توفي سنة 539 هـ ، المنتظم : 18 / 40 .

2 - المنتظم : 18 / 40 .

3 - المصدر السابق : 18 / 22 .

4 - أبو نصر الهمداني : كان يعل إلى أهل الحديث ، كثير التهجيد و تلاوة القرآن توفي سنة 536 هـ ، المنتظم : 18 / 22 ، 23 .

5 - انظر ترجمته في بحث علماء الدعوة من هنا الفصل .

6 - المنتظم : 18 / 173 .

7 - السهروردي : هو أبو النجيب عبد القاهر السهروردي ، نسبة إلى سهرورد الصوفى القدوة ، الرعاظ العارف الفقيه الشافعي ، أحد الأعلام قدم بغداد و سمع لها كان إمام الشافعية و علماً تصوفية ، لقب مفتي العراقيين قال عنه النحوي لم يخلف بعده مثله انظر ترجمته البداية و النهاية : 12 / 254 ، الشذرات : مج 2 ، 4 / 208 ، سير أعلام النبلاء : 22 / 373 .

8 - المنتظم : 18 / 180 .

9 - هو الفقيه الصوفى الحنبلي ، سمع من القاضي أبي بكر بن عبد الباقي ، و تقدم على جماعة من المتصوفة ، و كان من أهل الدين

توفي سنة 563 هـ انظر الشذرات : مج 2 ، 4 / 210 .

10 - المنتظم : 18 / 180 .

و هناك خلق كثير من العلماء ممن كانت لهم علاقة وطيدة بهذه الأربطة سواء بالإقامة فيها أو الخلوة من أجل العبادة أو التأليف .

و تبعا لكل هذا ظهرت في الرباط التأليف و التصانيف المهمة فقد انقطع الكثير من المرابطين إلى المطالعة و الدرس ، فكان أبو بكر الحازمي¹ يقيم في رباط ، و كان يدخل حجرته في كل ليلة يطالع و يكتب إلى الفجر، و مما صنفه في ذلك الرباط كتاب " الناسخ و المنسوخ " و كتاب "عجالة المبتدئ" في الأنساب و كتاب " المؤلف و المختلف " في أسماء البلدان و كان زاهدا ورعا ملازما للخلوة و التصنيف و بث العلم².

و من التأليف المهمة و الشهيرة التي ألقت في الربط البغدادية كتاب " عوارف المعارف" للسهر وردي³.

و هكذا كانت الرباطات في هذا العصر منازل العلماء الرحالين من بلد إلى بلد و من قطر إلى قطر في طلب العلم أو نشره ، و قد ساهمت في تطوير و ازدهار الحركة العلمية و الثقافية التي كانت بمثابة الحجر الصلب التي مكن للدعوة من ترسيخ بناء صرحها في بغداد .

و رغم هذا الدور الذي قامت به الرباطات ، فإن هناك بعض السلبيات التي دفعت ابن الجوزي إلى رفضها ، كارتباطها بالكسل و البطالة و تلبس الصوفية بما يجلب لهم المدح و الإعجاب كما أن بناء الأربطة ليس بشيء عنده لأنها عبارة عن " دكاكين كريهة يقعد فيها الكسالى عن الكسب مع القدرة عليه ... و قد أراحوا أنفسهم من إعادة العلم " ⁴ كما تحدث عن تلبس إبليس عليهم بالانقطاع في هذه الرباطات ففاتهم السعي إلى الجمع و الجماعات⁵. هذه أهم مراكز العلم و الدعوة التي أسهمت بشكل مباشر في تربية المجتمع و تقويم أفراده في ذلك العصر ، و لقد كان لابن الجوزي - رحمه الله - دوره البارز الذي لعبه من خلال هذه المراكز الهامة ، و خاصة منها المساجد و المدارس⁶.

¹ - أبو بكر الحازمي : الإمام الحافظ البارح النسابة ولد سنة 518 هـ ، له عدة مصنفات في الحديث مات سنة 584 هـ ، تذكرة الحفاظ : النحوي ، 4 / 1363 .

² - تذكرة الحفاظ : 4 / 1304 انظر دراسات الكتاب ص 44

³ - السهر وردي : نقلت ترجمته أشهر مؤلفاته عوارف المعارف الذي تحدث فيه كثيرا عن الأربطة وما تحتوي عليه من شباب و شيوخ و أرباب خلوة، انظر عوارف المعارف دار الكتاب العربي، بيروت لبنان ط2، 1983 م، ص 108، 109، 111، إلى 117 ، 107 .

⁴ صيد الخاطر : ص 338 .

⁵ - تلبس إبليس : ابن الجوزي ، دار الخليل ، بيروت ، د ت ، ص 367 ، وأنظر مبحث ابن الجوزي و الصوفية .

⁶ - انظر تفصيل هنا الدور عند الحديث عن الدعوة عند ابن الجوزي في الباب الثاني من الرسالة .

المبحث الثالث

علماء الدعوة في عصر ابن الجوزي

بعد تبيان مراكز الدعوة يجدر بنا الحديث عن أعمدة هذه الدعوة الذين ساهموا في نشرها و تشيبت أركانها وأقصد بهم العلماء العاملون في شتى مجالات علوم الإسلام إذ لم يكن هناك علماء مختصون في الدعوة كعلم من العلوم يطلق عليهم اسم الدعاة ، بل كلن القائمون بأمر الدعوة متبحرون في علوم كثيرة بالإضافة إلى قيامهم بوظيفة الوعظ والدعوة وذلك لأن الدعوة في نشأتها الأولى كانت حركة علمية و عملية¹ أي أنها كانت شاملة تجمع بين العلم و العمل .

و في هذا المجال سأحاول التركيز على جملة من أبرز هؤلاء الأعلام الذين أسهموا بشكل أو بآخر في مجال الدعوة و التربية و الإصلاح الديني و الاجتماعي في تلك الفترة .

بعض علماء الوعظ وجهودهم في الدعوة :

1 - عبد الله بن محمد بن أبي بكر الشاشي :

ولد سنة إحدى وثمانين و أربعمائة ، تفقه على يد أبيه ، ناظر و أفتى ، و كان فاضلا ظريف الشمائل مليح المحاوراة ، حسن العبارة ، و حضر ابن الجوزي مجلس وعظه و أثنى عليه² . و مما قاله في أحد مجالس وعظه : " أين القنود العالية و الخنود الوردية ، امتلأت بها العالية و الوردية - وهذا اسم مقبرتين في نهر معلى ببغداد - " و حضر يوما آخر النهار في التاجية³ للوعظ و كان في السماء غيم ، فارتجل في الطريق أبياتا و أنشدها في آخر المجلس :

قضية أعجب بها قضية جلوسنا الليلة في التاجية

و الجو في حلتة الفضية صقا لها قعقة رعدية

توفي ثاني محرم سنة 528 هـ و صلى عليه بجامع القصر و دفن عند قبر أبيه⁴ .

2 - محمد بن يحيى بن علي بن مسلم أبو عبد الله الزبيدي :

¹ - المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتح البانوني ، ص 4 .

² - المنتظم : 17 / 286 - الكامل : 9 / 277 - البداية والنهاية : 12 / 207 .

³ - التاجية : اسم مدرسة بغداد منسوبة إلى تاج الملك أبي الغنائم المرزبان بن خسرو ، معجم البلدان : 2 / 6 .

⁴ - انظر ترجمته : الكامل ، 9 / 277 - البداية والنهاية : 12 / 207 .

من أهل زبيد باليمن ولد - على التقريب - سنة 180 هـ ، قدم بغداد سنة 509 هـ و وعظ
و كان له معرفة بالنحو و الأدب و كان صبورا على الفقر لا يشكو حاله ، يأمر بالمعروف
و ينهى عن المنكر . و مما روي لابن الجوزي من أحد جلسائه أنه قال : " جلست مع
الزبيدي من بكرة إلى قريب الظهر ، و هو يلوك شيئا في فمه فسألته فقال : لم يكن لي شيء
فأخذت نواة أتحلل بها " ، كان - رحمه الله - و قافا عند كتاب الله ، يقول الحق و لو كان
مرا ، و لا يراقب أحدا و لا تأخذه في الله لومة لأثم .

توفي الزبيدي في ربيع الأول من سنة 555 هـ و دفن قريبا من باب الشام الغربي من بغداد¹ .
3 - محمد بن الفضل ، أبو عبد الله الصاعدي الفراوي² :

من أهل نيسابور ، و أبوه من أهل نجر فرأوه ، سكن نيسابور فوك محمد بها على
سبيل التقدير في سنة 411 هـ سمع صحيح مسلم ، و سمع من علماء نيسابور و منهم أبو القاسم
القشيري و أبو المعالي الجويني و غيرهم ، و ورد بغداد حاجا فسمع بالمدينة و غيرها من
البلدان ، و كان فقيها ، مفتيا ، مناظرا ، محدثا ، واعظا ظريفا ، حسن المعاشرة ، طلق
الوجه ، كثير التبسم ، جوادا يخدم الغرباء بنفسه مع كبر سنه ، أملى أكثر من ألف مجلس
و ما ترك الإملاء إلى حين وفاته . قال عنه عبد الرشيد بن علي الطبري : " الفراوي ألف
راوي " . توفي في شوال من سنة 530 هـ .

4 - يحيى بن إدريس أبو البركات الأباري³ :

قرأ القرآن على جماعة من العلماء ، و سمع الحديث على عبد الوهاب الأنماطي⁴
و وعظ الناس ، و كان يبكي من حين صعوده المنبر إلى حين نزوله .
تعبد في زاويته نحو خمسين سنة ، و كان ورعا تقيا لا يدخل بطنه شيء فيه شبهة ، و قد
روي أنه عطش مرة فجيء له بماء من بعض دور الحكام فلم يشرب ، و كان لا يفعل شيئا
الآبنية ، و كان من أهل السنة الجياد .

رزقه الله أولادا صالحين فسماهم بأسماء الخلفاء الأربعة أبا بكر و عمر و عثمان و علي
تيمنا بهم ، و كان أمارا بالمعروف ناهيا عن المنكر مستجاب الدعوة ، له كرامات و منامات
صالحة رأى في بعضها رسول الله - صلى الله عليه و سلم - و في بعضها أحمد بن حنبل

¹ - انظر ترجمته في الكامل : ابن الأثير ، 9 / 413 - البداية و النهاية : ابن كثير ، 12 / 243 .

² - انظر ترجمته في الكامل : 9 / 295 - البداية و النهاية : 12 / 211 .

³ - انظر ترجمته في البداية و النهاية : 12 / 237 .

⁴ - انظر ترجمته في مسند شيخ ابن الجوزي .

و كان هو وزوجته أم أولاده يصومان النهار و يقومان الليل و يحييان بين العشائين و لا يفطران إلا بعد العشاء، و ختم أولادهما القرآن، و أقرأ خلقا من الرجال و النساء، توفي يوم الاثنين رابع ذي القعدة من سنة ٤٤٢ هـ ، فقالت زوجته اللهم لا تحييني بعده ، فماتت بعده بخمسة عشر يوما و كانت سالحة .

٤ - الشيخ عبد القادر الجبلاني :

ولد سنة 470 هـ ، كان واعظا شعبيا لا يشق له غبار ، و له شخصية روحية عظيمة الأثر ، كان أكثر اتصالا بالشعب و طبقات الجماهير ، و على يده تأسست الطريقة القادرية التي كان لها فضل كبير في نشر الإسلام في غرب إفريقيا .
و مع أن الملوك و أصحاب الثراء كانوا يرادفون له هداياهم فقد كان كرمه البالغ يجعله دائما في فقر . نفقه الشيخ على أبي سعد المخرمي و كان أبو سعد قد بنى مدرسة بباب الأزج ففوضت إليه ، و أقام في المدرسة يدرس و يعظ حتى ظهر صيته ، و قد كان صالحا ورعا فيه تزهد كثير و له أحوال و مكاشفات ، و غالى فيه أتباعه بالكثير من المقالات و بالجملة فقد كان من سادات المشايخ كما قال ابن كثير¹ . و لما ضاقت مدرسته بالناس من ازدحامهم على مجلسه ، وسعت المدرسة بما أضيف إليها من المنازل و الأمكنة التي حولها وصارت منسوبة إليه ، و تصدر بها للفتوى و التدريس و الوعظ إلى أن توفي سنة ٤٦١ هـ² . و قد رد عليه ابن الجوزي في الكثير من المسائل و أنكر عليه ، و ذلك نظرا لموقف ابن الجوزي المعادي للصوفية ، و من ردوده على الشيخ عبد القادر كتابه الذي سماه " ذم عبد القادر " ³ .

٥ - أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزالي - أخو أبي حامد - :

كان من الوعاظ المحبوبين من أهل بغداد ، التف حوله العوام للانتفاع بوعظه ، كان متصوفا يطوف بالبلاد ، و يخدم الصوفية ، و قد ذكر غير واحد أنه صاحب المشايخ و اختار الخلوة حتى انفتح له الكلام على طريقة القوم ، و أنه خرج إلى العراق و مالته إليه القلوب ثم دخل بغداد ، و عقد مجلس الوعظ فظهر له القبول و ازدحم الناس على حضور مجلسه .
و مما أثار عنه أن قارنا قرأ يوما بين يديه : (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا

¹ - انظر ترجمته الرافية في البداية و النهاية : ابن كثير ، 12 / 252 ، الذيل على طبقات الحنابلة : ابن رجب ، 1 / 291 - سير أعلام النبلاء : الذهبي 20 / 439 .

² - انظر ترجمته : المنتظم : 18 / 173 - مرآة الحنان : اليافعي ، 3 / 366 .

³ - الذيل على طبقات الحنابلة : 1 / 420 .

تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) ¹ فقال : شرفهم بيباء الإضافة إلى نفسه بقوله : يا عبادي . قال عنه ابن خلكان : " كان واعظا مليح الوعظ صاحب كرامات وإشارات و كان من الفقهاء ، غير أنه مال إلى الوعظ فغلب عليه ، و درس بالنظامية نيابة عن أخيه أبي حامد لما ترك التدريس زهادة فيه . و اختصر كتاب أخيه المسمى " إحياء علوم الدين " في كتاب أسماه " لباب الإحياء " .

أخذ عليه ابن الجوزي في المنتظم جملة من المأخذ أهمها التخليط في الوعظ و ذلك لروايته الأحاديث الموضوعة و الحكايات التالفة و المعاني الفاسدة ، لكن ابن الأثير دافع عنه و انتصر له ، توفي سنة 520 هـ ² .

7 - أبو عبد الله محمد بن عمر الطبرستاني الرازي :

الملقب بفخر الدين ولد سنة 411 هـ أخذ العلم عن والده ضياء الدين و عن الكمال السمعاني ، كان من أجل علماء عصره و متكلمي زمانه ، جمع كثيرا من العلوم و نبغ فيها فكان إماما في التفسير و العلوم العقلية و له فوق شهرته العلمية شهرة كبيرة في الوعظ و التذكير شغل بها العوام و الخواص ، حيث كان يحضر مجالس وعظه الملوك و الوزراء و العلماء ، و الأمراء ، و الفقراء و العامة ³ .

خلف مجموعة كبيرة من التصانيف من أهمها : تفسيره الموسوعي الضخم الموسوم مفاتيح الغيب ، و له في علم الكلام " المطالب العالية " و كتاب " البيان في الرد على أهلي الزيغ والطغيان " ، و له في أصول الفقه " المحصول " . توفي الرازي رحمه الله سنة 606 هـ ⁴

8 - الإمام الواعظ ناصح الدين أبو الفرج بن نجم بن أبي البركات بن علي الأنصاري :

ولد الشيخ سنة 551 هـ ، تفقه و برع في الوعظ ، و ارتحل و سمع من الشيوخ و حدث عنه الكثير من العلماء و التلاميذ ، درس ، و أفتى ، و صنف الكتب الحسنة ، و كان رئيس الحنابلة في وقته بدمشق ، حدث و وعظ بمصر و بدمشق و بغداد ، و حصل له القبول الزائد ، و درس بعدة مدارس منها مدرسة جده له خطب و عظية و مقامات أدبية ، اتصف بالعديد من صفات الدعاة فقد كان صارما ، مهيبا ، شهما ، كبير القدر ، من أشهر مؤلفاته

¹ - الزمر : 53 .

² - المنتظم : 17 / 237 - الكامل في التاريخ : ابن الأثير ، 9 / 240 - البداية و النهاية : ابن كثير ، 12 / 196 .

³ - البداية و النهاية : 13 / 55 .

⁴ - وفات الأعيان : لابن خلكان ، 4 / 249 إلى 252 .

في ميدان الدعوة " تاريخ الوعاظ " أطال الله عمره حتى صار من شيوخ الدعوة ، توفي رحمه الله - و له ثمانون سنة - ، في محرم عام 634 هـ .¹
9 - علي بن الحسين الغزنوي :

من وعاظ ذلك العصر الذين عرفهم العوام ، و استفادوا من وعظهم ، قدم بغداد و سمع من مشايخها ، أمرت زوجة الخليفة المستظهر بالله العباسي بأن يبني له رباط بباب الأزج ، و وقفت عليه الوقوف ، و صار له جاه عظيم و كثر مريدوه ، و غصت مجالسه و اسأثر على قلوب الكثير من العلماء و جمهور المدعوين بعطائه و كرمه .

قال عنه ابن الجوزي " كان محفوظه قليلا ، فكان يريد ما يحفظه ، و حدثني جماعة من القراء أنه كان يعين لهم ما يقرؤون بين يديه و يتحفظ الكلام عليه " .²

و مما أثر عنه في وعظه ما قاله في أحد مجالسه : " الحكمة في المعراج لرسول الله - صلى الله عليه و سلم - أنه رأى ما في الجنة و النار ليكون يوم القيامة على سكون لا نزاع فيه فلا يزعه ما يرى لتقدم الرؤية ، و لهذا المعنى قلبت العصا حية يوم التكليم لنلا ينزعج موسى عند إلقائها بين يدي فرعون " و من أقواله أيضا : " حزمة حزن خير من أعدل أعمال " .³ توفي الغزنوي سنة 661 هـ .⁴

10 - أبو طاهر بن البرني الواعظ :

تعلم الوعظ من الشيخ أبي الحسن الزاغوني أستاذ ابن الجوزي في الوعظ⁵ ، و سمع الحديث ثم اشتغل بالتذكير و الوعظ ، توفي سنة 566 هـ .⁶

11 - أحمد بن عمر أبو العباس القطيعي :

كانت بداية مشواره العلمي بسماع الحديث ، ثم طلب الفقه على يد الشيوخ ، ثم انتقل إلى المناظرة و الوعظ ، توفي في رمضان سنة 563 هـ .⁷

¹ - هادي سير أعلام النبلاء : شمس الدين الذهبي ، هديه أحمد فايز الحمصي ، أشرف على تحقيقه شعب الأرتوروط ، مؤسسة

الرسالة ، بيروت لبنان ، ط 2 ، 1413 هـ ، 1992 م ، 3 / 237 - الدارس في تاريخ المدارس : للنجمي ، 1 / 55 .

² - المنتظم : 18 / 208 .

³ - المصدر السابق : 18 / 109 .

⁴ - للمزيد انظر ترجمته في الكامل : 9 / 411 ، البداية و النهاية : ابن كثير ، 12 / 334 .

⁵ - تقدمت ترجمته في مبحث شيوخ ابن الجوزي .

⁶ - المنتظم : 18 / 194 .

⁷ - المصدر السابق : 18 / 177 .

12 - محمد بن محمد أبو المظفر البروي¹ :

اشتغل بالفقه ثم انتقل للمناظرة و الوعظ ، رحل إلى بغداد و شرع في الوعظ أيام خلافة المستضيء ، و لما كان على مذهب الأشعري فإنه لم يكن على وفاق مع الحنابلة توفي في رمضان سنة 567 هـ .

13 - رستم بن شريك أبو القاسم الواعظ :

بدأ حياته العلمية بدراسة الحديث ثم انتقل إلى تعلم الوعظ على شيخه أبي الحسن الزاغوني أستاذ الوعظ في عصره ، و لما تمكن منه بدأ في الوعظ بجامع بهليقا، توفي سنة 569 هـ عن عمر يناهز الستين عاما².

الأخير عبد القادر للعلوم الإسلامية

¹ - نفس المصدر : 18 / 198 - البداية و النهاية : 12 / 269 .

² - المنتظم : 18 / 209 .

الفصل الثالث

حياة ابن الجوزي

ويتضمن خمسة مباحث

المبحث الأول: حياته الأسرية

المبحث الثاني: حياته العلمية

المبحث الثالث: شيوخه و تلاميذه

المبحث الرابع: مذهبه الفقهي و العقدي

المبحث الخامس: محنته و وفاته

المبحث الأول

حياته الأسرية

اسمه ونسبه¹ :

قبل الحديث عن طفولة ابن الجوزي و نشأته يجدر بنا أن نتطرق إلى معرفة اسمه الكامل ونسبه وأشهر لقب وكنية كان شيخنا الجليل يكنى بها .

أما اسمه فهو : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي ابن عبيد الله بن عبد الله بن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم ابن النضر بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، القرشي التيمي البكري البغدادي الحنبلي² .

و اختلف العلماء في سبب نسبه الجوزي و قيلت آراء كثيرة أهمها ما يلي ؛ يقول ابن خلكان : " و الجوزي بفتح الجيم و سكون الواو بعدها زاي ، هذه النسبة إلى فرضة الجوز ، و هو موضع مشهور ... أن جده كان من مشرعة الجوز إحدى محال بغداد بالجانب الغربي " ³ .

أما الذهبي فيقول : " و جعفر الذي هو جده التاسع ، قال ابن دحية : جعفر هو الجوزي نسب إلى فرضة من فرض البصرة يقال لها جوزة ، و قيل كان في داره جوزة لم يكن بواسطة جوزة سواها ، و فرضة النهر ثلمته ، و فرضة البحر محط السفن " ⁴ .

¹ - انظر ترجمة ابن الجوزي : وفيات الأعيان و أثناء أثناء الزمان ، لابن خلكان ، 3 / 140 - الذيل على الروضتين : لأبي شامة المقدسي ، صححه محمد زاهد بن الحسن الكوثري ، دار الحل ، بيروت ، ط 2 ، 1974 م ، ص 21 - البداية والنهاية : 13 / 28 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن عماد الحنبلي ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، د ت ، 4 / 329 - سير أعلام النبلاء : الذهبي ، 21 / 715 - تذكرة المفاد : شمس الدين الذهبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د ت ، 4 / 1342 - الذيل على طبقات الختابة 1/399 - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : جمال الدين يوسف بن نفري بردي ، تحقيق إبراهيم علي طرتمان طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة ، المؤسسة المصرية العامة لتأليف و النشر 6 / 174 - مرآة الختان و عبرة البقطان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان : عبد الله بن علي بن سليمان اليافعي ، 3 / 489

2 - الذيل على الروضتين : ص 21 - تذكرة الحفاظ : الذهبي 4 / 1342 - الذيل على طبقات الختابة : ابن رجب الحنبلي، 1/399 .

3 - وفيات الأعيان و أثناء أثناء الزمان : ابن خلكان 3 / 142 .

4 - سير أعلام النبلاء : 21/372 .

و من خلال هذه الآراء يمكننا ترجيح الرأي الأول، لما نقله ابن العماد الحنبلي¹ و ابن خلكان و ابن رجب² ، أن ابن الجوزي منسوب إلى محلة بالبصرة تسمى محلة الجوز وأن جده كان من مشرعة الجوز إحدى محال بغداد . أما من حيث شجرة النسب ؛ فإن نسبه ينتهي إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه . و كان ابن الجوزي يعتد بنسبه هذا ويندد بكل من يحاول أن يعض من حقه في الخلافة بعد النبي - صلى الله عليه و سلم - كما حداه هذا النسب الشريف أن يتبوأ المكانة السامية في ميدان العلم و المعرفة .

يقول لابنه مذكرا إياه بهذا النسب قائلا : " يا بني ، و اعلم أننا من أولاد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - و أبونا القاسم محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن أبي بكر - رضي الله عنه - و أخباره موثقة في كتاب " صفوة الصفوة " ³ مولده : اختلف علماء السير و المؤرخون في السنة التي ولد فيها ابن الجوزي ، كما اختلفوا في نسبه فقيل : سنة ثمان و خمسمائة ، و قيل : سنة تسع ، و قيل سنة عشر و وجد بخطه : لا أحقق مولدي ، غير أنه مات و الذي في سنة أربع عشر ، وقالت الوالدة : كان لك من العمر نحو ثلاث سنين . فعلى هذا يكون مولده سنة إحدى عشرة أو اثنتي عشرة⁴ . و قال القطيعي : سألته عن مولده ؟ فقال : ما أحقق الوقت ، أنني أعلم أنني احتلمت في سنة وفاة شيخنا ابن الزاغوني ، و كان توفي سنة سبع و عشرين ، و هذا يؤذن أن مولده بعد العشرة . و وجد بخطه تصديف له في الوعظ ذكر أنه صنف سنة ثمان و عشرين و خمسمائة و قال : و لي من العمر سبعة عشرة سنة . و يقول الديبشي في تاريخه : و سألته عن مولده غير مرة ؟ يقول تقريبا في سنة عشر و سألت أخاه عمر فقال : إنه سنة ثمان و خمسمائة تقريبا⁵ .

و يرجح كل من ابن خلكان و ابن العماد⁶ أن ولادة ابن الجوزي كانت سنة 510هـ كما ذهب إلى ذلك سبطه - و هو أقرب الناس إليه - قائلا : " ولد جدي ببغداد بدرب حبيب

¹ - شذرات الذهب : ابن عماد الحنبلي ، 1 / 329 .

² - الذيل على الروضتين : لأبي شامة المقداسي ، ص 21 .

³ - الذيل على طبقات الخنابلة : ابن رجب ، 1 / 400 .

⁴ - لفنة الكبد إلى نصيحة الولد : ابن الجوزي ، تحقيق المشحات أحمد الطحان دار الكلمة للنشر ، المنصورة ، مصر ط 1421هـ 2001م ص 16 .

⁵ - الذيل على طبقات الخنابلة : 1 / 400 .

⁶ - سير أعلام النبلاء : الذهبي ، 365/21 وما بعدها .

⁷ - انظر : وفيات الأعيان : ابن خلكان ، 3 / 142 ، - شذرات الذهب : 329/4 .

في سنة عشر وخمسمائة¹ ، أضيف إلى ذلك أن الكثير من المؤرخين ذكروا هذا التاريخ كما أنه نقل عن ابن الجوزي نفسه .

كنيته :

يكنى الإمام ابن الجوزي بأبي الفرج ، و يقب بالإمام العلامة ، الحافظ ، عالم العراق و واعظ الآفاق ، الواعظ المفسر ، صاحب التصانيف السائرة في فنون العلم ، الفقيه الأديب شيخ وقته و إمام عصره ، ولا يكاد يترجم له مؤرخ إلا و يذكر له جملة من هذه الألقاب التي تدل على جلالته قدره و سمو منزلته² .

نشأته :

لم يذكر الرواة إلا أخبارا قليلة عن نشأة ابن الجوزي و طفولته ، و لكن الذي عرف عنه أن أباه توفي و له من العمر ثلاث سنوات ، و كان موسرا خلف له من الأموال الشيء الكثير³ ، و لم تلتفت أمه إلى تربيته و توجيهه و انصرفت عنه⁴ فربته عمته و اعتنت به . و كان لحسن تربيتها أثره الكبير في حياته العلمية فيما بعد ؛ فقد كانت عمته هذه على درجة من العلم و الفقه ، سمعت الحديث على بعض شيوخ عصرها ، و من ثم اهتمت بإسماعه الحديث ، فحملته إلى الحافظ أبي الفضل بن ناصر⁵ فاعتنى به ، قال سبطه : و كانت له عمة سالحة ، و كان أهله تجارا في النحاس ، و لهذا رأيت في بعض سماعاته (وكتب عبد الرحمن الصفار) . فلما ترعرع حملته عمته إلى مسجد أبي الفضل بن ناصر فاعتنى به ، و أسمعه الحديث⁶ .

و قد انفق من ترجم له على أنه لم يكن في صغره - كبقية أقرانه - يألف الصبيان أو يلعب معهم ، و أنه نشأ على العفاف و الصلاح ، و قد حدثنا - رحمه الله - عن نفسه في تلك الفترة و مما قاله في رسالته إلى ابنه : "فإني أذكر نفسي و لي همة عالية ، و أنا في المكتب و لي نحو من ست سنين ، و أنا قرين الصبيان ، ثم رزقت عقلا في الصغر يزيد على الأشياخ فما أذكر أنني لعبت في طريق مع صبي ، و لا ضحكت ضحكا خارجا ، حتى

1 - الدليل على الروضتين : لأبي شامة القدسي ، ص 21 .

2 - انظر الدليل على الروضتين لأبي شامة ، ص 21 - الدليل على طبقات الحنابلة : 1 / 399 ، - تذكرة الحفاظ للنهي 1342/4 .

3 - رسالة إلى ولدي : ابن الجوزي ، تحقيق عمرو عبد المنعم ، دار السلام للطباعة والنشر ، ط 1 ، 1412هـ ، 1991م ص 35 .

4 - حيد الخاطر : ص 236 .

5 - الدليل على طبقات الحنابلة : 1 / 401 ، انظر ترجمة ابن ناصر في مبحث شيوخه .

6 - الدليل على الروضتين : لأبي شامة ، ص 21 .

إني كنت و لي سبع سنين أو نحوها أحضر رغبة الجامع، و لا أتخير حلقة مشعبذ¹، بل أطلب المحدث فيتحدث بالسمر الطويل، فأرجع إلى البيت فأكتبه².

و مما قصه على ابنه من تجارب الصبا ما كان يتصف به من الورع و الزهد و الصبر يقول له: " و لقد كان الصبيان ينزلون دجلة، و يتفرجون على الجسر، و أنا في زمن الصغر أخذ جزءا، و أقعد حجرة من الناس إلى جانب الرقة، فأشغل بالعلم، ثم ألهمت الزهد، فسردت الصوم، و تشاغللت بالنقل، و أحببت السهر"³.
هكذا تبدو اهتمامات ابن الجوزي التي عرضها علينا في صورة مشرقة تنم عن عقلية ناضجة التفكير كما أبانت لنا الخطوط العامة لحياته، و أوضحت معالم شخصيته و نبوغه الفكري الذي سبق به أقرانه.

أسرته:

كان ابن الجوزي من الذين يقدرون الحياة الأسرية، فطلب من الله أن يرزقه الكثير من الأولاد، و أن يهبه الذرية الصالحة التي تعبد الله من بعده فحقق الله أمنيته يقول في ذلك: " فإني لما عرفت شرف النكاح و طلب الأولاد، ختمت ختمة، و سألت الله تعالى أن يرزقني عشرة أولاد، فرزقنيهم"⁴.

و من خلال البحث في سيرة ابن الجوزي - رحمه الله - توصلنا إلى معرفة اسم زوجته و هي " خاتون"⁵ و أنه كان محبا لها، حتى أنه كان يلقبها بنسيم الصبا، و لقد توفيت بعده بيوم و ليلة و ذلك لتأثرها بوفاة زوجها و تعلقها به، قال سبط ابن الجوزي: " و من العجائب أننا كنا جلوسا عند قبره بعد انقضاء العزاء، و إذا بخالي محي الدين يوسف قد صعد من الشط و خلفه تابوت، فعجبنا و قلنا: ترى من مات في الدار؟ و إذا بها خاتون أم ولد جدي، و الدة محي الدين، و عهدي بها في ليلة الجمعة التي مات فيها جدي في عافية، قائمة ليس بها مرض، فكان بين موتها و موته يوم و ليلة، و عد الناس ذلك من كراماته؛ لأنه كان مغري بها في حال حياته"⁶.

¹ - مشعبذ: الهازي، كالمشعوذ، لسان العرب، 4 / 2272 طبعة دار المعارف.

² - رسالة إلى ولدي: ص 25.

³ - المصادر السابق: ص 26.

⁴ - لفظة الكبد. إلى نصيحة الولد: ص 13.

⁵ - خاتون: المرأة الشريفة، المعجم الوسيط، 1 / 213.

⁶ - الذئيل على الروضتين: لأبي شامة، ص 25 - الذئيل على طبقات الخنابلة: ابن رجب 1 / 430.

أما عن أولاده فقد وهبه الله ذرية كثيرة بلغت أحد عشر ولدا ، ستة ذكور و خمس إناث مات من الذكور أربعة ، و لم يبق سوى اثنان هما ، أبو القاسم علي الذي ألف له كتاب " لفتة الكبد إلى نصيحة الولد " و محي الدين يوسف و هو أصغر أولاده .

قال في مقدمة لفتة الكبد بعد أن حمد الله وأثنى عليه : " و أحسن تربيته في الصبا و حفظني في الشباب ، و رزقني ذرية " إلى أن يقول : " و سألت الله تعالى أن يرزقني عشرة أولاد فرزقنيهم ، فكانوا خمسة ذكور و خمس إناث ، فمات من الإناث اثنان و من الذكور أربعة فلم يبق من الذكور سوى ولدي أبي القاسم ، فسألت الله تعالى أن يجعل فيه الخلف الصالح " ¹ .

و المدقق في سيرة ابن الجوزي يلاحظ أنه قال هذا الكلام قبل أن يرزقه الله بولده الصغير محي الدين يوسف ، الذي استشهد بعد وفاة أبيه بأكثر من خمسين عاما و ذلك سنة 656 هـ و لا يمكن فهم قوله "للم يبق من الذكور سوى ولدي أبي القاسم" إلا على هذا الأساس و ذلك أن ولده هذا هو الذي ساعده أيام محنته و أخرجه منها² . و أما أبو القاسم الذي قال عنه ابن الجوزي بأنه لم يبق من أبنائه سواه فقد كان أبا عليه أيام محنته . و يمكننا أن نذكر سيرة أولاد ابن الجوزي بشيء من التفصيل و هم :

- 1 - عبد العزيز : و يكنى أبا بكر ، و هو أكبر أولاده وأولهم ، تفقه على مذهب الإمام أحمد و سمع العلم في صغره من ابن ناصر³ و جماعة من مشايخ والده ، و سافر إلى الموصل و وعظ بها و حصل له القبول التام ، و مات هناك شابا في حياة أبيه سنة 554 هـ ⁴ .
- 2 - علي وكنيته أبو القاسم : وهو أوسط أولاده الذكور ، و هو الذي ألف له رسالة " لفتة الكبد إلى نصيحة الولد " و رجا منه في هذه الرسالة أن ينبغ في العلم و أن يخلفه ، فلم يرد الله ذلك حيث كان عاقا له ، و كان مع خصومه أيام المحنة ، فعندما أخذ والده إلى واسط تسلط على كتبه وغل منها ما أراد⁵ . ثم باعها ولا بثمن المداد⁶ ، وكان قد هجره أبوه بسبب عقوقه ، توفي سنة 630 هـ و له من العمر ثمانون سنة .

1 - لفتة الكبد إلى نصيحة الولد : ص 13 .

2 - انظر تفصيل ذلك في بحث : محنته و وفاته من هنا الفصل .

3 - انظر ترجمة الشيخ ابن ناصر في بحث شيوخ ابن الجوزي .

4 - الذيل على الروضتين : لأبي شامة ، ص 26 .

5 - مذهب سير أعلام النبلاء : شمس الدين الذهبي ، هذبه أحمد فايز الحمصي ، أشرف على تحقيقه شعب الأرووط ، 228/3 .

6 - الذيل على الروضتين : لأبي شامة ، ص 26 .

3 - يوسف ولقبه محي الدين : و هو أصغر أولاده الذكور وأنجبهم ، و لد سنة 580 هـ ، قرأ القرآن بالقراءات العشر و سمع الحديث من أبيه ، اشتغل بالفقه و الأصول فبرع في ذلك و وعظ بعد أبيه فزادت شهرته ، و كتب و أتقن حتى ساد أقرانه ، و كان هو السبب في خلاص أبيه من سجنه بواسطة كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله .

و باشر حسبة بغداد و تولى التدريس بالمدرسة المستنصرية ، و صار أستاذ دار الخلافة¹ و رسول الخلفاء إلى الأمراء بأطراف البلاد ، و هو الذي بنى المدرسة الجوزية بدمشق و التي إليها ينسب الإمام ابن قيم الجوزية .

توفي والده وعمره إذ ذاك سبع عشرة سنة ، فكفلته أم الخليفة الناصر و قامت على أمره و تقدمت له بالجلوس للوعظ على عادة أبيه عند تربتها بعد أن خلعت عليه ، فتكلم بما أبهر به الحاضرين ، حتى شهد له الملك الكامل بقوله : " كل أحد يعزوه عقل إلا محي الدين ابن الجوزي فإنه يعوزه نقص عقل "² . و مما حكي عنه أنه كان يناظر و لا يحرك له جارحة و كانت خاتمة سعادته الشهادة³ ، حيث قتل مع الخليفة المستعصم عند دخول التتار إلى بغداد سنة 656 هـ .

و أما من مات من أولاده المذكور بعد ذلك فلم نجد عنهم معلومات مهمة ، إذ يبدو أنهم ماتوا صغاراً .

أما بناته فهن خمس يقول عنهن سبطه أبو المظفر : " كان لجدي عدة بنات والدتي رابعة و زينب و جوهرة و ست العلماء الكبرى ، و ست العلماء الصغرى ، و كلهن سمعن الحديث من جدي و غيره "⁴ . و مما تجدر الإشارة إليه أن كتب التراجم قد اكتفت بذكر بنات ابن الجوزي - رحمه الله - دون ترجمة لهن .

صفاته و عاداته :

شب ابن الجوزي منذ طفولته على الزهد و الورع ، فلقد ذكر كل من أرخ له أنه كان زاهداً في الدنيا متقللاً منها .

و الزهد لا ينافي حق الإنسان في زينة الحياة الدنيا : (قل من حرم زينة الله التي أخرج

¹ - وفيات الأعيان : ابن خلكان ، 3 / 112 .

² - الذيل على طبقات الخنابلة : 2 / 258 .

³ - المصدر السابق : 2 / 258 .

⁴ - الذيل على الروضتين : لأبي شامة ، ص 26 ، 27 .

لعباده و الطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ¹ .
يقول ابن الجوزي : " كنت في بداية الصبوة قد ألهمت سلوك طريق الزهاد بإدامة الصوم
و الصلاة ؛ وحبب إلي الخلوة فكنت أجد قلبا طيبا . وكانت عين بصيرتي قوية الحدة تتأسف
على لحظة تمضي في غير طاعة الله " ² . و لقد كان لنشأته المترفة المنعمة ، وهمته العالية
المبكرة و كرم نسبه الذي يرجع — كما ذكرنا انفا — إلى أبي بكر الصديق ³ — رضي الله
عنه — عظيم الأثر في اعتداده بنفسه ، و هو لا يرى لأحد فضلا عليه ، بل الفضل كله لله
و حده فهو الذي هداه و حفظه من الضلال منذ الصغر ، و ألهمه طلب العلم ، و أنعم عليه
بالرزق من غير تعب منه و لا نصب ، و صد عنه من يعاديه ، و أودع له في القلوب
المهابة و القبول ⁴ .

وكانت له عزيمة ماضية تتأبى على الفتور و الكلال ، فلم يقنع في فنون العلم بفن
واحد بل أراد استقصاءها جميعا ⁵ ، فقرأ الكثير و حفظ الكثير و صنف الكثير ، و لقد كان
يرى أن علو الهمة بلاء عظيم على المرء ، و يفسر هذا بقوله : " أن من علت همته يختار
المعالي و ربما لا يساعد الزمان ، قد تضعف الآلة فيبقى في عذاب " ⁶ و ذلك بسبب أن
العمر أقصر و أنفس من أن يفرط منه في نفس " ⁷ .

لم يكن ابن الجوزي مغاليا في شيء من أموره و عاداته ⁸ ، بل كان في أغلب شؤونه
متفقا مع روح الشريعة التي تدعو إلى الوسطية و الاعتدال ، فكان وسطا في طعامه يسذم
النقل منه إلى حد النقشف .

كما يبغض الترف و التمتع فيه إلى درجة الإسراف ⁹ .

و من عاداته أنه " كان يختم القرآن الكريم في كل سبعة أيام ، و لا يخرج من
بيته إلا إلى الجامع للجمعة ، و للمجلس ، و ما مازح أحدا قط و لا لعب مع صبي و لا أكل

1 - الأعراف : 32

2 - صيد الخاطر : ص 78

3 - انظر حديثه عن نرفه و هسه و نسبه في لفظة الكبد من 17 ، 36 ، 46

4 - لفظة الكبد : ص 20 ، 21 .

5 - صيد الخاطر : ص 239 .

6 - المصدر السابق : ص 238

7 - نفس المصدر : ص 206

8 - انظر تفصيل صفات ابن الجوزي و أخلاقه في فصل مؤهلات الداعية و مصادر الدعوة في منهج ابن الجوزي .

9 - صيد الخاطر : ص 81 ، 82

من جهة لا يتيقن حلها . و ما زال على ذلك الأسلوب حتى توفاه الله تعالى " ¹ .

و من عاداته ما تحدث به عن نفسه من إظهار التجلل حيث كان شديد العناية بمظهره و سمته يقول في ذلك : " و قبيح بالعاقل إهمال نفسه ، و قد نبه الشرع على الكل بالبعض فأمر بقص الأظافر ، و نتف الإبط ، و حلق العانة ، و نهى عن أكل الثوم و البصل النيء لأجل الرائحة ، و قد كان النبي - صلى الله عليه و سلم - يعرف مجيئه بريح الطيب فكان الغاية في النظافة و النزاهة ² . و مما أثر عنه رحمه الله أنه كان لا يخرج إلى الناس و لا يراه أحد إلا متعمما لابسا ثيابه ، و ما رآه أحد أكل أو شرب حيث يراه الناس و كان يرى أن في هذا صيانة للعلم و احتراماً لأهله . يقول في ذلك : " و لا تسمع من جاهل يرى مثل هذه الأشياء رياء ، إنما هذه صيانة للعلم . و بيان هذا أنه لو خرج العالم إلى الناس مكشوف الرأس أو في يده كسرة يأكلها قل عندهم و إن كان مباحاً فيصير بمثابة تخليط الطيب الأمر بالحمية . فلا ينبغي للعالم أن ينبسط عند العوام حفظاً له ، و متى أراد مباحاً فليستتر به عنهم " ³ . و يعلل رأيه هذا بقوله : " إذ رأى العوام أحد العلماء مترخصاً في أمر مباح هان عندهم " ⁴ ، و لذلك يجب - حسب رأيه - مراعاة الناس و يستدل على ذلك بقول النبي - صلى الله عليه و سلم - لعائشة : " لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس إبراهيم - عليه السلام - " ⁵ ، كما يستدل على ما ذهب إليه من أن الإمام مالك ابن أنس كان يغتسل و يقعد للحديث .

و من عاداته إيثار السكون ، و قلة الحركة و مداراة الناس . قال في لفظة الكبد مخاطباً ابنه : " و ما ذل أبوك في طلب العلم ، و لا خرج يطوف في البلدان كغيره من الوعاظ " ⁶ كما كان محباً للعزلة ، امرأ العلماء بها كقوله : " إن أردت اللذة و الراحة فعليك أيها العالم بقعر بيتك ... ، وليكن لك مكان في بيتك تخلو فيه ، و تحدث سطور كتبك و احترس من لقاء الخلق خصوصاً العوام " ⁷ .

¹ - الذيل على طبقات الخاتبة : لاس رجب ، 1 / 410

² - صيد الخاطر : ص 159

³ - المصدر السابق : ص 233 .

⁴ نفس المصدر : ص 232 .

⁵ - فتح الباري شرح صحيح البخاري : ابن حجر العسقلاني ، دار المعرفة بيروت لبنان ، ط 3 / 439 ، كتاب الحج باب فضل مكة و بنائها رقم : 1585 ، و كذلك انظر فتح الباري : 8 / 170 ، كتاب التفسير رقم : 4484 .

⁶ - لفظة الكبد : ص 36 .

⁷ - صيد الخاطر : ص 233 ، 234 .

من أجل ذلك كان ابن الجوزي يؤثر السكون و قلة الحركة حتى أنه لم يسافر و لم يخرج من بغداد إلا إلى الحج ، و ربما كانت كراهيته للسفر و الترحال راجعة إلى شيء أعمق من ذلك و هو الميل إلى العزلة و البعد عن الناس .

و من أوضح مظاهر ميله إلى العزلة و الإعتاد عن الخلق قوله في نصح ولده أبا القاسم :
" و عليك بالعزلة فهي أصل كل خير و احذر من الجليس السوء " ¹ .

كما عرف عن ابن الجوزي أنه كان لذيذ المفاكحة كثير الدعابة له مجون لطيف و مداعبات حلوة و جواب حاضر ² .

و قد رويت عنه في هذا المجال أقوال ممتعة ³ نذكر طرفاً منها :

" سأله رجل يوماً : أيما أفضل ، أسبح أم أستغفر ؟ فقال الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون من البخور ، و قال يوماً و قد طرب أهل مجلسه : فهتم ؟ فهتم ؟ و قام إليه سائل فقال : كيف أصادق من ذا وقته ؟ فقال ماذا وقته ، و سأله سائل : أيجوز أن أفسح لنفسي في مباح الملاهي ؟ فقال عند نفسك من الغفلة ما يكفيها فلا تشغلها بالملاهي ملاهي " ⁴ .

إن مثل هذه الطرائف و الأقوال المأثورة لا تصدر إلا عن داعية خفيف الروح أليفاً مألوفاً يحب الناس و هم يحبونه ، و هكذا كانت لابن الجوزي مداعبات خفيفة ، و فكاهات لطيفة ، يدعم بها مواضعه و مجالسه الدعوية ، و يروح بها عن نفوس جلسائه ، بل و نجده يعقد فصلاً كاملاً في كتابه صيد الخاطر عن الترويح عن النفس ⁵ ، كما نجد له العديد من المؤلفات ⁶ التي جمع فيها الشيء الكثير من نوابز الطراف و طرائف الأذكاء و الحمقى و المغفلين .

1 - لفة الكيد : ص 31 .

2 - الذيل على طبقات الخنازلة : لابن رجب 1 / 412 .

3 - انظر بالتفصيل مبحث ما أثر عن ابن الجوزي .

4 - الذيل على طبقات الخنازلة : 1 / 421 ، 422 .

5 - صيد الخاطر : ص 158 ، 240 .

6 - من هذه المؤلفات : كتاب الأذكاء ، أحبار الحمقى والمغفلين ، و كتاب الطراف و المتماحين .

المبحث الثاني

حياته العلمية

طلبه للعلم :

بدأ الإمام ابن الجوزي حياته العلمية في سن مبكرة ، وقد تحدث بإسهاب في مؤلفاته عن هذه المرحلة من حياته . و ليس هناك أصدق حديثاً من حديث الرجل عن نفسه و خاصة إذا كان هذا الحديث يتوافر على الكثير من الصدق و الموضوعية ؛ و لا شك أنهما متوفرين في ابن الجوزي إلى حد بعيد .

يبين لنا رحمه الله حاله بعد فقدانه لو الده فيذكر بأن أباه مات وهو لا يعقل ، و لكن أمه لم تلتفت إليه¹ ، حيث انصرفت عنه و أهملته و تركته في رعاية عمته التي كانت على جانب كبير من التقوى و الصلاح ، ولما بلغ سن التمييز أخذته إلى الشيخ أبي الفضل محمد ابن ناصر ، و كان ذا علم و فقه حمل أمانة تعليم ابن الجوزي فبدأ بحفظ القرآن و الحديث² ، ثم دفع به إلى أهل الاختصاص في شتى فروع العلم و المعرفة ، يقول ابن الجوزي في ذلك : " و لقد وفق لي شيخنا أبو الفضل بن ناصر رحمه الله ، و كان يحملني إلى الشيوخ فأسمعني المسند و غيره من الكتب الكبار ، و أنا لا أعلم ما يراد مني . و ضبط لي مسموعاتي إلى أن بلغت فناولني ثبتها و لازمته إلى أن توفي رحمه الله ، فنلت به معرفة الحديث و النقل "³ .

ومن أهم ما ساعد الشيخ على أداء دوره على أحسن وجه ؛ عظمة همة ابن الجوزي و شدة إقباله و حرصه على طلب العلم ، حيث كان يجد حلاوة في طلب العلم و لذة لا توصف في تحصيله يقول في ذلك : " و لقد كنت في حلاوة طلب العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل لأجل ما أطلب و أرجو . كنت في زمان الصبا أخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث ، و أقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء فكلما أكلت لقمة شربت عليها ، و عين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم ... و أثمر ذلك عندي من المعاملة ما لا يدرك بالعلم ، حتى أنني أذكر في زمان الصبوة و وقت الغلظة والعزبة قدرتي على أشياء كانت النفس تتوق إليها توقان العطشان إلى الماء

¹ - سيد الخاطر : ص 236 .

² - الذيل على الروضتين : لأبي شامة ص 21 - الذيل على طبقات الحنابلة : ابن رجب 1/401 .

³ - لفتة الكبد : ص 19 ، 20 .

الزلال ، و لم يمنعني عنها إلا ما أثمر عندي العلم من خوف الله عز و جل " ¹
هكذا رغم كل هذه الشدائد و المتاعب إلا أنها عند ابن الجوزي أطلت من العسل
ما دامت في سبيل العلم و التحصيل ، و لقد كان يبلغ به التعب و العنت إلى درجة لا يمكن
وصفها ، خاصة عندما كان يدور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نفسه من العدو لئلا
يسبق ، بسل و كان يصبح و يمسي و ليس لديه ما يأكله ² . و رغم ذلك فإنه لم يذل نفسه
لمخلوق قط حيث أنه أنفق كل ماله (عشرين ديناراً و دارين) في طلب العلم ³ .

و في حياته العلمية صاحب ابن الجوزي الشيخ أبا الحسن بن الزاغوني ⁴ و لازمه
و أخذ عنه الفقه و الوعظ ، و كانت لهذه المصاحبة أثرها الكبير فيه .
يقول ابن الجوزي عن أستاذه ابن الزاغوني : " و صحبته زماناً ، فسمعت منه الحديث
و عقلت عنه من الفقه و الوعظ " ⁵ ، و كانت لابن الزاغوني حلقة بجامع المنصور يناظر
فيها يوم الجمعة قبل الصلاة ثم يعظ فيها بعد الصلاة و يجلس يوم السبت أيضاً ، فلما
توفي سنة 527 هـ كان ابن الجوزي قد احتلم في ذلك العام ، و طلب حلقة أستاذه في الوعظ
فلم يعطها لصغر سنه و قد حضر ابن الجوزي بين يدي الوزير ابن هبيرة و أورد فصلاً
من المواعظ فأذن له بالجلوس في جامع المنصور ⁶ .

وتعلم ابن الجوزي الفقه و الخلاف و الجدل و الأصول على أبي بكر الدينوري المتوفى
عام 522 هـ ، و القاضي أبي يعلى الصغير ⁷ المتوفى عام 527 هـ ، و تتبع ابن الجوزي قمة مشايخ
الحديث في عصره و أثبت في مشيخته : " لما فهمت الطلب كنت ألزم من الشيوخ أعلمهم
و أوثق من أرباب النقل أفهمهم ، فكانت همتي تجويد العدد لا تكثير العدد . و لما رأيت
من أصحابي من يؤثر الإطلاع على كبار مشايخي ذكرت عن كل واحد منهم حديثاً " ⁸ .
كما تأثر بأبي منصور الجواليقي ⁹ - المتوفى سنة 540 هـ - في أخلاقه و أخذ عنه اللغة

¹ - صيد الخاطر : ص 235 .

² - لغته الكبد : ص 21

³ - المصدر السابق : ص 36

⁴ - انظر ترجمته في مبحث شيوخه في الفصل الثالث من الباب الأول من الرسالة

⁵ - المنظم : 279/17

⁶ - الذيل على طبقات الخنابلة : 1 / 402 .

⁷ - انظر ترجمة هؤلاء في مبحث شيوخ ابن الجوزي في الفصل الثالث من هذا الباب .

⁸ - الذيل على طبقات الخنابلة : 1 / 401 .

⁹ - انظر ترجمته في مبحث شيوخه في الفصل الثالث من هذا الباب .

و الأدب ، و ذكر عنه العديد من الصفات الحميدة : أنه كان : كثير الصوم ، كثير الصمت شديد التحري فيما يقول ، متقنا محققا انتهى إليه علم اللغة ، كما كان من أهل السنة وسمع منه الحديث ، و غريب الحديث و قرأ عليه كتابه المعرب و غيره من تصانيفه¹ . و لم يقتصر ابن الجوزي على فن واحد من فنون العلم بل أراد تحصيل جميعها يقول في ذلك : " و لم أقنع بفن من العلوم بل كنت أسمع الفقه و الوعظ و الحديث ، و أتبع الزهاد ثم قرأت اللغة ، و لم أترك أحدا ممن يروي و يعظ ، و لا غريبا يقدم إلا و أحضره " ² . و منذ ذلك الوقت اشتهر أمر الإمام أبو الفرج ابن الجوزي و أخذ في الجمع والتصنيف حتى ذاع صيته بين علماء عصره .

رحلته في طلب العلم :

على الرغم من شغف ابن الجوزي بالعلم ، و اتساع ثقافته إلا أنه لم يكن كباقي العلماء محبا للسفر و الرحلات عكس ما ذهب إليه بعض الباحثين مدعيا أن ابن الجوزي طاف ببلاد عديدة في طلب العلم³ ، فقد تميزت حياته بحب الاستقرار و كراهية السفر و الترحال ، حتى أنه لم يغادر بغداد طيلة حياته إلا لأداء فريضة الحج أو عند ما نفي في عهد الخليفة الناصر إلى واسط . و قد أرجع بعض الباحثين⁴ سبب ذلك إلى ثلاثة عوامل و هي :

- 1 - أن بغداد كانت تزخر بالعلم و تفخر بالعلماء ، لذا فإن المقام فيها يغني عن غيرها .
- 2 - وفود العلماء بكثرة إليها ، لنشر العلم و المذاكرة للشيوخ .
- 3 - اضطراب أحوال المسلمين السياسية و الأمنية ، و افتقار الأمان في الطريق - على ما أشار إليه ابن الجوزي في رحلته إلى الحج - كان من بين الأسباب التي حببت إليه المكوث في بغداد⁵ ، أضف إلى ذلك أن ابن الجوزي لم يكن من الذين يسعون وراء الدنيا

¹ - المنتظم : 18 / 47 - صيد الخاطر : ص 143 ، 144 .

² - لفنة الكبد : ص 20 ، - صيد الخاطر : 37 .

³ - معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر : بسري عبد الغني عبد الله ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 1411 هـ / 1991 م ، ص 66 .

⁴ - منهج ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير : عبد الرحيم بن أحمد طحان ، رسالة دكتوراه مخطوطة ، كلية أصول الدين جامعة الأزهر ، ص 65 - كتاب المنتظم : دراسة في منهجه وموارده وأهميته : حسن عيسى علي الحكيم ، عالم الكتب ، بيروت ، ص 46 ، 47 .

⁵ - انظر حديث ابن الجوزي عن رحلته إلى الحج وسوقهم من سطوة العرب، المنتظم : 18/51، 126 - صيد الخاطر : ص 154 .

وحطامها ولم يخرج للطواف في البلدان كغيره من الوعاظ على عهد¹، لأن " صناعة العلم شغلته عن كل صناعة " ² .

كما اشتهر ابن الجوزي بكثرة المطالعة للتصانيف ، فإذا رأى كتابا لم يطالعه من قبل فكأنما وقع على كنز³، و قد طالع جل الكتب الموقوفة في مكتبة المدرسة النظامية والتي كانت تحتوي على ستة آلاف مجلدا ، و على ثبت كتب أبي حنيفة و كتب الحميدي⁴، و كتب شيخه عبد الوهاب ابن ناصر ، و كتب أبي محمد الخشاب⁵ - و كانت أحمالا - و غير ذلك من كل كتاب يقدر عليه إلى أن يقول : " و لو قلت إنني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر و أنا بعد في الطلب . فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم و قدر همهم و حفظهم و عباداتهم و غرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع " ⁶ .

و يحدثنا ابن كثير عن مطالعات ابن الجوزي بأنها لم تكن محصورة في كتب ذات اتجاه معين ككتب العلوم الشرعية و كتب التاريخ و التراجم على ما يفهم من كلامه السابق عند النظرة العجلى ، بل كانت له اليد الطولى في مختلف العلوم حيث كان يطالع كل شيء : كتب المقالات و الفرق و الفلسفة و الفلك و الطب ، و الحساب و الفقه و غير ذلك من اللغة و النحو ، من مكتبة المدرسة النظامية التي كانت زاخرة بالكتب في مختلف العلوم و مؤلفات ابن الجوزي تشهد بجزارة اطلاعه ⁷ .

كما نجده يبحث طلبه العلم على المطالعة لأنها لا تخلو من فائدة وتذكر قارئها بسيرة العلماء و الصالحين يقول في ذلك : " فسيبيل طالب الكمال في طلب العلم الإطلاع على الكتب التي قد تخلفت من المصنفات ، فليكثر من المطالعة فإنه يرى من علوم القوم و علومهم

¹ - لفنة الكيد : ص 36 .

² - صيد الخاطر : ص 38 .

³ - المصدر السابق : ص 110 .

⁴ - الحميدي : أبو عبد الله ، من أهل المغرب ، تلميذ ابن حزم ، إمام فدية و حافظ ، لا يسأل عن مثله ، سمع ببلده ومكة

و الشام ثم بغداد ، صنف الأثر و وقف كنه على الفطنة توفي سنة 488 هـ ، المنتظم : 17 / 29 ، سير أعلام النبلاء : 19 / 120 .

⁵ - هو عبد الله ابن أحمد ، أبو محمد الخشاب ، قرأ القرآن وسمع الحديث ، انتهى إليه معرفة النحو واللغة " ت 567 هـ ، المنتظم

18 / 198 .

⁶ - صيد الخاطر : ص 410 ، 411 .

⁷ - انظر بالتفصيل البداية والنهاية : 13 / 28 .

ما يشحن خاطره ويحرك عزمته للجد ، وما يخلو كتاب من فائدة " ¹ .

أقوال العلماء في ابن الجوزي و ثناؤهم عليه :

نقد كان لجهود ابن الجوزي التي بذلها في طلب العلم ، ثمارها الطيبة حيث أوصلته هذه الجهود إلى مصاف العلماء العظام ، و يبدو من شدة اهتمامه بالدراسة و التحصيل من الشيوخ و العلماء ، أنه لم يكن يقتصر على القراءة و السماع منهم بل كان يحصل على إجازاتهم أيضا ، و كانت إجازاتهم له مباشرة ، و هذا مما يدل على أن في إجازات الإمام من شيوخه أهمية كبرى في إبراز مكانته العلمية من جهة ، و بيان مكانة الشيوخ و منزلة العلماء الذين كانوا يمنحون الإجازات لطلبة العلم من جهة أخرى و يبدو أن معظم إجازاته كانت مطلقة و كتبت له من طرف شيوخه مباشرة ، و قد تحصل على أكثرها منذ الصغر ، و كانت أول إجازة له من الشيخ أبي القاسم علي بن يعلى العلوي الهروي ² سنة (520 هـ) .

يقول ابن الجوزي في ذلك : " و في هذه السنة حملت إلى أبي القاسم علي بن يعلى العلوي و أنا صغير السن فلقنتي كلمات من الوعظ ، و ألبسني قميصا من القوط ، ثم جلس لوداع أهل بغداد عند السور مستندا إلى الرباط الذي في آخر الحلبة و رقاني إلى المنبر فأوردت الكلمات و حرز الجمع يومئذ فكانوا نحو خمسين ألفا ... و سمعت منه الحديث و أجاز لي جميع مسموعاته و مجموعاته " ³ .

لاشك أن الذي له مكانة علمية كابن الجوزي جدير بأن ينال إعجاب العلماء و ثناءهم عليه ، و لقد نال ابن الجوزي قسطا كبيرا من هذا الثناء والمدح ⁴ .

يقول الإمام الذهبي في ترجمته له : " ... كان بحرا في التفسير ، علامة في السير و التاريخ موصوفا بحسن الحديث ، و معرفة فنونه ، فقيها عليما بالإجماع و الاختلاف جيد المشاركة في الطب ، ذا تقنن و فهم و ذكاء ، و حفظ و استحضار ، و إكباب على الجمع و التصنيف ، مع التصون و التجمل و حسن الشارة ، و رشاقة العبارة ، و لطف الشرائع ، و الأوصاف الحميدة و الحرمة الوافرة عند الخاص و العام ، ما عرفت أحدا صنف

¹ - صيد الخاطر : من 140 .

² - انظر ترجمته في مبحث شيوخ ابن الجوزي من هنا الفصل .

³ - المنتظم : 17 / 236 ، 237 .

⁴ - انظر تفصيل مرثله و تأثيره في العلماء و الدعاة في الفصل الأخير من الرسالة .

ما صنف " 1 .

و يقول عنه في تذكرة الحفاظ : " الواعظ المفسر صاحب التصانيف السائرة في فنون العلم " 2 . و قد أثنى عليه العديد من العلماء ، فذكره أبو عبد الله محمد ابن الديلمي 3 بقوله : " شيخنا الإمام جمال الدين ابن الجوزي صاحب التصانيف في فنون العلم من التفسير و الفقه و الحديث ، و التواريخ و غير ذلك ، و إليه انتهت معرفة الحديث و علومه و الوقوف على صحيحه من سقيمه " 4 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 - سير أعلام النبلاء : الذهبي ، 21 / 367 .

2 - تذكرة الحفاظ : الذهبي ، 4 / 1342 .

3 - الديلمي : هو محمد بن أبي المعالي ، حجة المحدثين الواسطي الشافعي المعدل ، صاحب التصانيف ، له معرفة بالحديث و الأدب و الشعر ، ولد سنة 558 هـ و توفي سنة 637 هـ ، انظر ترجمته سير أعلام النبلاء : 23 / 68 .

4 - اللؤلؤ على الروضتين : لأبي شامة ، ص 21 .

المبحث الثالث شيوخه و تلاميذه

شيوخه :

تلقى ابن الجوزي العلم منذ صباه ، وتتلذذ على يد الكثير من العلماء ؛ و من الطبيعي أن الذين تتلمذ عليهم ابن الجوزي لم يكونوا في مستوى واحد من العلم ، فهناك من جمع إلى جانب العلم ، الزهد و الورع فكان تأثيرهم العلمي والخلقي متفاوتا¹ .
و إذا أردنا استقصاء خبر كل شيوخه منذ جلوسه للاستماع لضاق بنا المقام ، و ذلك لتلّمذه على يد علماء كثيرين بلغ عددهم سبعة و ثمانون شيخا و ثلاث نسوة ، ذكر هذا غير واحد من العلماء² ، و سنتعرض لترجمة موجزة لشيوخه الأكثر تأثيرا فيه و ذلك حسب ما يقتضيه المقام .

1 - أبو منصور الجواليقي¹ :

ولد سنة 465 هـ سمع الكثير من الحديث وانتهى إليه علم اللغة ، درس في المدرسة النظامية و لما ولي الخليفة المقتفي اختصاصه بإمامته ، كان الجواليقي غزير العلم كامل العقل له مؤلفات عديدة ، منها : المعرب فيما تكلمت به العرب من الكلام الأعجمي ، شرح أدب الكاتب و العروض قال فيه ابن الجوزي : " و كان من أهل السنة و سمعت منه كثيرا من الحديث و غريب الحديث و قرأت عليه كتابه المعرب و غيره " توفي سنة 540 هـ

2 - عبد الوهاب الأنماطي⁴ :

ولد سنة 462 هـ كان ثقة له دين و ورع ، كان واسع الرواية ، نصب نفسه لتسميع الحديث طول النهار ، قال عنه ابن الجوزي : " و كنت أقرأ عليه الحديث وهو يبكي فاستفدت من بكانه أكثر من استفادتي بروايته ، وكان على طريقة السلف ، و انتفعت به ما لم أنتفع بغيره " توفي سنة 638 هـ .

3 - محمد بن ناصر السلامي البغدادي :

¹ - صيد الخاطر : ص 143 .

² - انظر الذيل على طبقات الخنابلة : 1 / 401 - شذرات الذهب : 4 / 328 - سير أعلام النبلاء : الذهبي ، 21 / 365 .

³ - انظر ترجمته : المنتظم ، 18 / 46 ، 47 - الذيل على طبقات الخنابلة ، 1 / 204 - سير أعلام النبلاء ، 20 / 89 - هذيب سير أعلام النبلاء ، 2 / 556 .

⁴ - انظر ترجمته : المنتظم ، 18 / 33 - مشيخة ابن الجوزي : لابن الجوزي تحقيق محمد محفوظ دار الغرب الإسلامي آتينا ، اليونان ، ط 2 ، 1400 هـ ، 1980 م ، ص 85 - البداية والنهاية ، 12 / 219 - سير أعلام النبلاء ، 20 / 134 .

ولد سنة 467 هـ كان حافظاً ضابطاً إلا مغمز فيه ، سمع منه ابن الجوزي الحديث كلن كثير الذكر سريع الدمعة . و كان ابن ناصر فقيها شافعيًا ثم مال إلى مذهب الحنابلة و اشتغل بالحديث حتى برع فيه ، فصار شيخ المحدثين في عصره ، توفي سنة 550 هـ .
1 - أبو الحسن بن الزاغوني² :

ولد سنة 450 هـ ، قرأ القرآن بالروايات و سمع الحديث الكثير و درس الفقه و برز في الخطابة و الوعظ ، و صنف في الأصول و الفروع ، و كان من بحور العلم كانت له حلقة في جامع المنصور يناظر فيها قبل الصلاة ثم يعظ بعدها ، و كان له دين و تقوى و زهد و عبادة توفي سنة 527 هـ .
5 - أبو القاسم هبة الله بن الحصين الشيباني³ :

ولد سنة 432 هـ طلب العلم منذ الصغر حتى صار سيد أهل عصره فرحل إليه طلبة العلم و ازدحموا عليه سمع منه ابن الجوزي مسند الإمام أحمد ، و أملى بجامع القصر مجالس كثيرة حضر ابن الجوزي إملاءها و كتبها عنه توفي سنة 525 هـ .
6 - أبو القاسم هبة الله بن أحمد بن عمر الحريري ويعرف بابن الطبر⁴ :

ولد سنة 435 هـ قرأ القرآن بالقراءات و سمع الحديث ، كان كثير الذكر دائم التلاوة سمع عنه ابن الجوزي الحديث و قرأ عليه متعه الله بسمعه و بصره و جوارحه إلى أن توفي سنة 531 هـ .
7 - إبراهيم بن دينار ، أبو حكيم النهرواني⁵ :

ولد سنة 480 هـ سمع الكثير من الحديث ، كان عالماً بالمذاهب و الخلاف والفرائض زاهدا ورعا ، قرأ عليه خلق كثير و اشتغل ابن الجوزي معيدا في مدرسته ، ثم مدرسا بعده روى عنه ابن الجوزي و خلق كثير ، عاش خمسا و سبعين سنة ، توفي سنة 556 هـ .
8 - محمد بن عبد الله ، المعروف بابن الجنادة⁶ :

1 - انظر : المنتظم ، 18 / 103 - المشيخة : ص 126 - البداية والنهاية ، 12 / 233 - سير أعلام النبلاء ، 20 / 265 .
2 - انظر ترجمته : المنتظم ، 17 / 278 - المشيخة : 79 - البداية والنهاية ، 12 / 205 - سير أعلام النبلاء ، 19 / 605 .
3 - انظر : المنتظم ، 17 / 268 - البداية والنهاية 12 / 203 - سير أعلام النبلاء ، 19 / 536 .
4 - انظر : المنتظم ، 17 / 326 - البداية والنهاية ، 12 / 212 - سير أعلام النبلاء ، 19 / 593 .
5 - انظر : المنتظم ، 18 / 140 - المشيخة : ص 184 - شذرات الذهب : 4 / 176 - سير أعلام النبلاء : 20 / 396 .
6 - المنتظم : 18 / 317 - البداية والنهاية : 12 / 211 .

كان يتكلم على طريقة التصوف من غير تكلف الوعاظ تلقى عنه ابن الجوزي الكثير من الحديث و التفسير و كان له نعم المؤدب لإخلاصه و حسن سريرته ، توفي سنة 530 هـ .

٥ — محمد بن عبد الملك بن خيرون أبو منصور المقرئ¹ :

ولد في رجب سنة 4٤١ هـ ، قرأ القرآن بالقراءات و صنف فيها كتباً ، و أقرأ الطلبة و حدث و كان ثقة صحيح السماع ، سمع و قرأ عليه ابن الجوزي الكثير توفي سنة 530 هـ .

10 — محمد بن محمد بن أبي الفضل البغدادي² :

أصله من بغداد ، ولد ونشأ بأصبهان سنة 4٥3 هـ ، كان صحيح العقيدة على طريقة السلف الصالح ، سمع وحدث بالكثير ، كان يراعي السنة قدر ما يستطيع ، و يصوم في الحر حج إحدى عشر حجة ، و أملى العلم بمكة و المدينة ، سمع منه ابن الجوزي الكثير توفي سنة 540 هـ .

11 — المبارك بن أبو الكرم الهاشمي :

توفي سنة ٤١8 هـ ، قال فيه ابن الجوزي : " و هو أول من لقنني القرآن وأنا طفل " ³ كانت له معرفة بالحديث و الفقه ، وكان يعظ و يتكلم على طريقة أهل التصوف من غير تكلف .

12 — علي بن عبد الواحد ، أبو الحسن الدينوري :

قال ابن الجوزي : " سمعت عليه الحديث " ⁴ توفي في جمادى الآخرة سنة 521 هـ ⁵

13 — أحمد بن أحمد بن عبد الواحد بن أحمد العباسي المتوكلي⁶ :

قال ابن الجوزي : " و كان سماعه صحيحاً و سمعت منه الحديث ، و كتب لي إجازة

¹ - المنتظم : 18 / 42 - المشيخة : 81 — تهذيب سير النبلاء : 2 / 557

² - المنتظم : 18 / 45 — البداية و النهاية : 12 / 220

³ - انظر ترجمته في المصدر السابق : 17 / 227 .

⁴ - نفس المصدر : 17 / 246 .

⁵ - انظر ترجمته : المصدر السابق ، نفس الصفحة — المشيخة : ص 63 — شذرات الذهب : 4 / 64 — سير أعلام النبلاء

525 / 19 — تهذيب سير أعلام النبلاء 2 / 521

⁶ - انظر ترجمته : المنتظم ، 17 / 246 — سير أعلام النبلاء ، 19 / 498 — شذرات الذهب ، 4 / 64 — تهذيب سير أعلام

النبلاء 2 / 514 .

بخطه "1. توفي سنة 521 هـ .

- 14 - عبد الجبار بن إبراهيم بن عبد الوهاب ، الأصبهاني² :
- سمع منه ابن الجوزي الحديث سنة 520 هـ وتوفي في هذه السنة .
- 15 - الحسين بن محمد بن عبد الوهاب المعروف بالبارع³ المتوفى سنة 524 هـ .
- 16 - أبو غالب محمد الماوردي⁴ ، توفي سنة 525 هـ .
- 17 - أبو السعود أحمد بن علي بن المحطي البزاز⁵ ، توفي سنة 525 هـ .
- 18 - أبو نصر أحمد بن محمد الطوسي⁶ ، توفي سنة 525 هـ .
- 19 - أبو عبد الله الحسين بن خسرو البلخي⁷ ، توفي سنة 526 هـ .
- 20 - أبو بكر محمد بن الحسن المزرفي⁸ ، المتوفى سنة 527 هـ .
- 21 - أبو غالب أحمد بن الحسن بن البناء⁹ ، توفي سنة 527 هـ .
- 22 - أبو القاسم علي بن يعلى الهروي¹⁰ ، توفي سنة 527 هـ .
- 23 - ثابت بن منصور بن المبارك الكيلي¹¹ ، توفي سنة 529 هـ .
- 24 - أبو الفضل أحمد بن الحسن الإسكافي ابن العالمة¹² ، توفي سنة 530 هـ .
- 25 - أبو القاسم هبة الله ابن الطبر¹³ ، توفي سنة 531 هـ .
- 26 - أبو القاسم نصر بن الحسين بن الحسن المقرئ¹⁴ ، توفي سنة 531 هـ .

1 - المنتظم ، 17 / 246 .

2 - المصدر السابق : 17 / 246 .

3 - انظر ترجمته : المنتظم ، 17 / 259 - المشيخة : ص 73 - البداية والنهاية 12 / 201 - سير أعلام النبلاء : 19 / 533

4 - المنتظم ، 17 / 267 - المشيخة : ص 77 - سير أعلام النبلاء ، 19 / 589 .

5 - المنتظم : 17 / 265 - شذرات الذهب ، 4 / 73 .

6 - المنتظم : 17 / 265 .

7 - سير أعلام النبلاء : 19 / 592 - لمذهب سير أعلام النبلاء : 2 / 532 .

8 - المنتظم ، 17 / 280 - الذيل على الطبقات ، 1 / 178 .

9 - المنتظم ، 17 / 277 - المشيخة : ص 69 - سير أعلام النبلاء ، 19 / 603 .

10 - المنتظم 17 / 279 - المشيخة : ص 114 - البداية والنهاية ، 12 / 205 .

11 - المنتظم : 17 / 302 - شذرات الذهب : 4 / 93 .

12 - المنتظم : 17 / 315 - المشيخة : ص 107 .

13 - المنتظم ، 17 / 326 - البداية والنهاية ، 12 / 211 .

14 - المنتظم : 17 / 325 .

- 27 — أبو عبد الله يحيى بن أحمد بن البناء البغدادي¹ ، توفي سنة 531 هـ .
- 28 — أبو النجم بدر بن عبد الله الشيشي² ، توفي سنة 532 هـ .
- 29 — عبد المنعم بن عبد الكريم أبو المظفر القشيري³ ، توفي سنة 532 هـ .
- 30 — أبو سعد إسماعيل بن عبد الملك النيسابوري⁴ ، توفي سنة 532 هـ .
- 31 — أبو بكر أحمد بن محمد بن أبي الفتح الدينوري⁵ ، توفي سنة 532 هـ .
- 32 — أبو بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري⁶ ، توفي سنة 535 هـ .
- 33 — أبو منصور عبد الرحمن بن عبد الواحد القرزازي⁷ ، توفي سنة 535 هـ .
- 34 — أبو القاسم إسماعيل السمرقندي⁸ ، توفي سنة 536 هـ .
- 35 — أبو سعد أحمد بن محمد الزوزني⁹ ، توفي سنة 536 هـ .
- 36 — أبو محمد يحيى بن علي بن الطراح المدير¹⁰ ، توفي سنة 536 هـ .
- 37 — أبو نصر أحمد بن منصور الهمذاني¹¹ ، توفي سنة 536 هـ .
- 38 — القاضي أبو الفتح عبد الله بن محمد البيضاوي¹² ، توفي سنة 537 هـ .
- 39 — الحسين بن علي بن أحمد الخياط المقرئ¹³ ، توفي سنة 537 هـ .
- 40 — أبو المعالي عبد الخالق الشيباني¹⁴ ، توفي سنة 538 هـ .
- 41 — أبو الحسن محمد بن أحمد الدقاق ابن صرما¹⁵ ، توفي سنة 538 هـ .

- 1 - سر أعلام النبلاء : 20 / 6 — الذيل على طبقات الحنابلة : 1 / 189 — تهذيب سير أعلام النبلاء : 2 / 541 .
- 2 - المنتظم ، 17 / 330 .
- 3 - المصدر السابق : 17 / 330 — البداية والنهاية : 12 / 213 .
- 4 - المنتظم : 17 / 330 — المشيخة : ص 109 — شذرات الذهب ، 4 / 99 .
- 5 - المصدر السابق : 17 / 328 — شذرات الذهب : 4 / 98 — البداية والنهاية : 12 / 213 .
- 6 - المنتظم : 18 / 13 — البداية والنهاية : 12 / 217 — الذيل على الطبقات : 1 / 230 — تهذيب سير أعلام النبلاء : 2 / 544 .
- 7 - المنتظم : 18 / 11 — المشيخة : ص 116 — تهذيب سير أعلام النبلاء : 2 / 553 .
- 8 - المنتظم ، 18 / 20 — البداية والنهاية ، 12 / 218 .
- 9 - المنتظم ، 18 / 20 — المشيخة : ص 92 — شذرات الذهب ، 4 / 112 — تهذيب سير أعلام النبلاء : 2 / 551 .
- 10 - المنتظم : 18 / 24 — البداية والنهاية ، 12 / 218 .
- 11 - المنتظم : 18 / 22 .
- 12 - المصدر السابق : 18 / 29 — شذرات الذهب ، 4 / 115 — تهذيب سير أعلام النبلاء : 3 / 10 .
- 13 - المنتظم : 18 / 28 — المشيخة : ص 104 — شذرات الذهب : 4 / 114 .
- 14 - انظر المنتظم : 18 / 34 — شذرات الذهب : 4 / 116 .
- 15 - المنتظم : 18 / 35 .

- 42 — أبو سعد أحمد بن محمد بن أبي الفضل البغدادي¹ ، توفي سنة 540 هـ .
- 43 — أبو عبد الله محمد السلال الوراق² ، توفي سنة 541 هـ .
- 44 — عبد الله بن علي بن أحمد أبو محمد المقرئ³ ، توفي سنة 541 هـ .
- 45 — أبو الحسن سعد الخير الأنصاري المغربي الأندلسي⁴ ، توفي سنة 541 هـ .
- 46 — أبو شجاع عمر بن أبي الحسن البسطامي⁵ ، توفي سنة 542 هـ .
- 47 — أبو السعود المبارك بن خيرون بن عبد الملك بن خيرون⁶ ، توفي سنة 542 هـ .
- 48 — أبو القاسم علي بن الحسين بن علي الزيني⁷ ، توفي سنة 543 هـ .
- 49 — أبو الحسن صافي بن عبد الله الجمالي⁸ ، توفي سنة 545 هـ .
- 50 — أبو المعالي أحمد بن محمد المذاري⁹ ، توفي سنة 546 هـ .
- 51 — الفضل بن محمد بن عمر الأرموي¹⁰ ، توفي سنة 547 هـ .
- 52 — أبو الفتح عبد الملك بن أبي سهل الكروخي¹¹ ، توفي سنة 548 هـ .
- 53 — أبو الفرج عبد الخالق بن أحمد بن يوسف¹² ، توفي سنة 548 هـ .
- 54 — أبو المعمر المبارك بن أحمد الخزرجي الأنصاري¹³ ، توفي سنة 549 هـ .
- 55 — أبو الحسن علي بن محمد البزاز ، ثم الدباس¹⁴ ، توفي سنة 549 هـ .
- 56 — أبو القاسم سعد بن أحمد بن البناء¹⁵ ، توفي سنة 550 هـ .

- 1 - المنتظم ، 18 / 45 — البداية والنهاية ، 12 / 220 .
- 2 - المنتظم ، 18 / 53 — المشيخة : ص 88 — تهذيب سير أعلام النبلاء : 2 / 554 .
- 3 - المنتظم ، 18 / 51 — البداية والنهاية ، 12 / 222 — تهذيب سير أعلام النبلاء : 2 / 564 .
- 4 - المنتظم : 18 / 51 — المشيخة : ص 150 — البداية و النهاية : 12 / 221
- 5 - المنتظم : 18 / 60
- 6 - المصدر السابق : 18 / 61 .
- 7 - المنتظم : 18 / 68 — البداية والنهاية : 12 / 225 .
- 8 - المنتظم : 18 / 79
- 9 - نفس المصدر : 18 / 81 — المشيخة : ص 113 .
- 10 - المنتظم : 18 / 86 — المشيخة : ص 106 — شذرات الذهب ، 4 / 145 .
- 11 - المنتظم ، 18 / 92 — المشيخة : ص 87 — شذرات الذهب ، 4 / 148 .
- 12 - نفس المصدر : 18 / 92 — شذرات الذهب : 4 / 184 .
- 13 - المنتظم : 18 / 100 .
- 14 - المصدر السابق : 18 / 99 — المشيخة : ص 137 .
- 15 - المنتظم : 18 / 103 .

- 57 — أبو علي الحسن بن أحمد القزاز¹ ، توفي سنة 550 هـ .
- 58 — أبو زكريا يحيى بن إبراهيم السلماسي² ، توفي سنة 550 هـ .
- 59 — أبو محمد سلمان بن مسعود القصاب³ ، توفي سنة 551 هـ .
- 60 — علي بن الحسين ، أبو الحسن الغزنوي⁴ ، توفي سنة 551 هـ .
- 61 — أبو بكر محمد بن عبد الله ابن الزاغوني⁵ ، توفي سنة 552 هـ .
- 62 — أبو الوقت عبد الأول الهروي⁶ ، توفي سنة 553 هـ .
- 63 — أحمد بن معالي ، ابن بركة الحربي⁷ ، توفي سنة 554 هـ .
- 64 — أبو زيد جعفر بن زيد الشامي الحموي⁸ ، توفي سنة 554 هـ .
- 65 — أبو البركات سعد الله بن علي بن أحمد⁹ ، توفي سنة 557 هـ .
- 66 — أبو عبد الله محمد بن عبد الله البيضاوي القاضي¹⁰ ، توفي سنة 558 هـ .
- 67 — أبو بكر بن محمد بن المقرب الكرخي¹¹ ، توفي سنة 563 هـ .
- 68 — أبو أحمد معمر بن عبد الواحد الأصفهاني¹² ، توفي سنة 564 هـ .
- 69 — أبو الفتح محمد بن عبد الباقي بن البطي¹³ ، توفي سنة 564 هـ .
- ولم يكتف ابن الجوزي في تلقيه العلم عن الرجال فقط ، بل أخذ كذلك عن شيخات عصره وعالماته وهنّ :

1 - المنتظم : 102 / 18 .

2 - المصدر السابق : 105 / 18 .

3 - نفس المصدر : 108 / 18 .

4 - المصدر نفسه : 108 / 18 — البداية والنهاية : 12 / 334 — سير أعلام النبلاء : 20 / 324

5 - المنتظم ، 18 / 122 — المشيخة : ص 132 — شذرات الذهب ، 4 / 164 .

6 - المنتظم : 18 / 127 — المشيخة : ص 67 — البداية والنهاية ، 12 / 238 — سير أعلام النبلاء ، 20 / 303 — تهذيب سير أعلام النبلاء ، 3 / 35 ، 36 .

7 - المنتظم : 18 / 136

8 - المنتظم : 18 / 136 — شذرات الذهب : 4 / 171 — تهذيب سير أعلام النبلاء : 3 / 42 .

9 - انظر المنتظم : 18 / 153 .

10 - المصدر السابق : 18 / 157 .

11 - المنتظم : 18 / 177 — تهذيب سير أعلام النبلاء : 3 / 63 .

12 - المنتظم : 18 / 186 — شذرات الذهب : 4 / 214 — البداية والنهاية : 12 / 260 .

13 - المصدر السابق : 18 / 185 — البداية والنهاية : 12 / 260 .

1 - فاطمة بنت محمد بن الحسين الرازي¹ :

قال عنها ابن الجوزي : " كانت شيختنا فاطمة واعظة متعبدة لها رباط تجتمع فيه للزاهدات " تلقى عنها الوعظ و الرقائق بوضع الكتب ومسند الشافعي ، توفيت سنة 521 هـ .

2 - فاطمة بنت أبي حكيم عبد الله بن إبراهيم الخيري² :

سمع منها ابن الجوزي الحديث، واستفاد من صلاحها ، و هي خالة شيخه ابن ناصر و كانت خيرة ، توفيت سنة 534 هـ .

3 - شهدة بنت أحمد بن عمر الأبري³ :

و تلقب بفخر النساء سمعت الكثير حتى صارت أسند أهل زمانها وعرفت بالكتابة لجودة خطها وكان برة خيرة ذات معروف، عمرت حتى قاربت المائة، توفيت سنة 574 هـ .
تلاميذه :

لا شك أن الذي تبوأ المنزلة العلمية الرفيعة واكتسب العلم الغزير كابن الجوزي ؛ أن يكون له تلاميذ و أنصار و مریدون يأخذون عنه علمه و يكتسبون منه صفاته و أخلاقه وعلى هذا الأساس فقد ترك ابن الجوزي عددا كبيرا من التلاميذ يضيق المقام لمعرفة جميعا سنتعرض لبعضهم على سبيل المثال لا الحصر .

1 - هبة الله ابن عبد الله السامري البغدادي⁴ :

تفقه و أفتى على مذهب الإمام أحمد ، و كان يقيم بمدرسة أبي حكيم النهرواني ، لازم ابن الجوزي و أخذ عنه الحديث و الوعظ ، توفي سنة 598 هـ .

2 - طلحة بن المظفر العثلي⁵ :

الفقيه ، المحقق ، المفسر ، درس على شيوخ بغداد و لازم ابن الجوزي و أخذ عنه الفقه و سمع منه العديد من تصانيفه و انتفع به الناس كثيرا ، و في آخر حياته انقطع للعبادة و التعليم حتى توفي سنة 593 هـ .

3 - محمد بن عثمان بن عبد الله بن عبد الباقي العكبري⁶ :

1 - المشيخة : ص 198 - المنتظم : 17 / 247 .

2 - المنتظم : 18 / 7 - المشيخة : 199 .

3 - المنتظم : 18 / 254 - المشيخة : 201 .

4 - الدليل على طبقات الخنايلة : ابن رجب ، 1 / 433 .

5 - المصدر السابق : 1 / 390 .

6 - نفس المصدر : 1 / 435 .

الفقيه الواعظ ، سمع من علماء بغداد ، صحب ابن الجوزي و قرأ عليه بعض مصنفاة كان يجلس للوعظ كل جمعة ثم انقطع في بيته لا يخرج إلا إلى الجمعة والجماعة توفي سنة 509 هـ .

4 - محمد بن عبد الله بن أبي السعادات الدياس¹ :

أحد أعيان فقهاء بغداد و فضلانهم ، اشتغل بالعلم و سماع الحديث و الأصول و الجدل و سمع ابن الجوزي و اجتمع به ، توفي سنة 648 هـ .

5 - شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزغلي² :

سبط ابن الجوزي كاتب و مؤرخ و واعظ انتقل إلى دمشق و استوطنها حتى وفاته له العديد من المؤلفات أشهرها " مرآة الزمان في تاريخ الأعيان " كان له قبول عظيم عند العامة توفي سنة 651 هـ .

6 - عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن جعفر المقدسي³ :

سمع بدمشق ثم رحل إلى بغداد ، و سمع الحديث من كبار الشيوخ كابن الجوزي و كان كثير المذاكرة معه حتى أن له بالتقدم في علم الرجال ، توفي الحافظ بمصر سنة 600 هـ .

7 - محمد بن سعيد بن يحيى بن الديبئي⁴ :

مؤرخ من حفاظ الحديث من أهل واسط ، فقيه و شاعر تفقه على يد ابن الجوزي و سار على نهجه في التصنيف ، له كتاب " الذيل على تاريخ السمعاني " و له " تاريخ واسط " توفي سنة 637 هـ .

8 - حامد بن محمد الصفار الأصبهاني⁵ ، قدم بغداد وقرأ على ابن الجوزي

9 - عبد المنعم بن علي بن هبة الله النميري⁶ ، توفي سنة 601 هـ .

10 - عبد الحلیم بن محمد بن الخضر ابن تيمية⁷ ، توفي سنة 603 هـ .

11 - عبد الرحمن بن عيسى على بن الحسين البزوري⁸ ، توفي سنة 604 هـ .

¹ - الذيل على طبقات الختابة : ابر رحب ، 2 / 245 .

² - تهذيب سير أعلام النبلاء : الذهبي ، 3 / 301 .

³ - الذيل على طبقات الختابة : 2 / 34 .

⁴ - تهذيب سير أعلام النبلاء : 3 / 251 .

⁵ - الذيل على طبقات الختابة : 1 / 384 .

⁶ - انظر المصدر السابق : 2 / 36 .

⁷ - انظر ترجمته في نفس المصدر : 2 / 40 .

⁸ - المصدر السابق : 2 / 41 - 42 .

- 12 - علي بن نصر بن الببل التوري ، توفي سنة 611 هـ .
- 13 - عبد العزيز بن محمود بن المبارك البرازي² ، توفي سنة 611 هـ .
- 14 - عبد المحسن بن يعيش بن إبراهيم الحراني³ ، توفي سنة 611 هـ .
- 15 - محمد بن عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي⁴ ، توفي سنة 613 هـ .
- 16 - عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري⁵ ، توفي سنة 616 هـ .
- 17 - أبو عبد الله محمد بن أبي المكارم اليعقوبي⁶ ، توفي سنة 617 هـ .
- 18 - عبد الرحمن أبو سليمان بن الحافظ⁷ ، توفي سنة 643 هـ .
- 19 - أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري⁸ ، توفي سنة 616 هـ .
- 20 - موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المقدسي الجماعي⁹ ، توفي سنة 620 هـ .
- 21 - أبو إسحاق إبراهيم بن المظفر البغدادي الحربي¹⁰ ، توفي سنة 622 هـ .
- 22 - أبو عبد الله محمد بن الخضر ابن تيمية الحراني¹¹ ، توفي سنة 622 هـ .
- 23 - أبو نصر محمد بن علي بن مكي بن علي البغدادي¹² ، توفي سنة 622 هـ .
- 24 - أبو العباس أحمد بن عبد الواحد المقدسي¹³ ، توفي سنة 623 هـ .
- 25 - أبو الفضل عبد الرحمن بن علي بن أحمد البغدادي¹⁴ ، توفي سنة 626 هـ .
- 26 - أبو موسى عبد الله بن عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي¹⁵ ، توفي سنة 626 هـ .

1 - الذيل على طبقات الخنابلة : 2 / 71 .

2 - المصدر السابق : 2 / 70 .

3 - انظر ترجمته المصدر السابق : 2 / 82 .

4 - نفس المصدر : 2 / 90 .

5 - انظر ترجمته : المصدر السابق : 2 / 110 هذيب سير أعلام النبلاء : 2 / 184 .

6 - الذيل على طبقات الخنابلة : 2 / 123 .

7 - المصدر السابق : 3 / 160 .

8 - نفس المصدر : 3 / 184 .

9 - نفس المصدر : 3 / 199 - الذيل على طبقات الخنابلة : 2 / 133 .

10 - الذيل على طبقات الخنابلة : 2 / 149 .

11 - المصدر السابق : 2 / 151 .

12 - نفس المصدر : 2 / 163 .

13 - المصدر السابق : 2 / 168 - هذيب سير أعلام النبلاء : 3 / 207 .

14 - الذيل على طبقات الخنابلة : 2 / 173 .

15 - المصدر السابق : 2 / 185 .

- 27 - عمر بن بدر بن سعيد أبو حفص الكردي الموصلية¹ ، توفي سنة 633 هـ .
- 28 - ناصح الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن نجم² ، توفي سنة 631 هـ .
- 29 - أبو الحسن محمد بن أحمد بن عمر البغدادي³ ، توفي سنة 634 هـ .
- 30 - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن بركة الحراني⁴ ، توفي سنة 634 هـ .
- 31 - أبو الفرج عبد القادر بن عبد القاهر بن سلامة الحراني⁵ ، توفي سنة 634 هـ .
- 32 - أبو عبد الله محمد بن أبي المعالي الديلمي⁶ ، توفي سنة 637 هـ .
- 33 - أبو بكر أحمد بن محمد بن طلحة بن حسان البصري البغدادي⁷ ، توفي سنة 638 هـ .
- 34 - أبو الطاهر إسماعيل بن ظفر النابلسي⁸ ، توفي سنة 639 هـ .
- 35 - محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن بن منصور⁹ ، توفي سنة 643 هـ .
- 36 - أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي¹⁰ ، توفي سنة 643 هـ .
- 37 - أبو عبد الله محمد بن محمود بن حسن البغدادي بن النجار¹¹ ، توفي سنة 643 هـ .
- 38 - أبو بكر يحيى بن علي الغنوي البغدادي¹² ، توفي سنة 643 هـ .
- 39 - ضياء الدين أبو محمد عبد الخالق بن الأجنب النشتبري¹³ ، توفي سنة 649 هـ .
- 40 - محي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي¹⁴ ، توفي سنة 656 هـ .
- 41 - أبو العباس أحمد بن عبد الدائم المقدسي¹⁵ ، توفي سنة 668 هـ .

1 - تهذيب سير أعلام النبلاء : 3 / 213 .

2 - المصدر السابق : 3 / 237 .

3 - نفس المصدر ، 3 / 237 - الذيل على طبقات الختابة : 2 / 212 .

4 - الذيل على طبقات الختابة : 2 / 201 .

5 - المصدر السابق : 2 / 202 .

6 - تهذيب سير أعلام النبلاء : 3 / 251 .

7 - الذيل على طبقات الختابة : 2 / 220 .

8 - المصدر السابق : 2 / 224 .

9 - الذيل على طبقات الختابة : 2 / 236 - تهذيب سير أعلام النبلاء : 3 / 264 .

10 - الذيل على طبقات الختابة : 2 / 231 .

11 - المصدر السابق : 3 / 264 .

12 - نفس المصدر : 2 / 242 .

13 - المصدر السابق : 3 / 287 .

14 - نفس المصدر : 2 / 258 ، 3 / 318 .

15 - المصدر السابق : 2 / 278 .

- 42 - عبد الصمد بن أحمد بن عبد الله البغدادي القطفتي¹ ، توفي سنة 682 هـ .
43 - أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن قدامة المقدسي² ، توفي سنة 682 هـ .
44 - علي بن أحمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي³ ، توفي سنة 690 هـ .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

¹ - الذيل على طبقات الخنازلة : ابن رجب ، 2 / 290 .
² - المصدر السابق : 2 / 304 .
³ - نفس المصدر : 2 / 325 .

المبحث الرابع مذهبه الفقهي والعقدي

مذهبه الفقهي :

كان ابن الجوزي حنبلياً في مذهبه الفقهي ، إلا أن بعض الدارسين¹ رموه بالتعصب للمذهب الحنبلي ، مستدلين ببعض أقواله المتناثرة في ثنايا كتبه، و التي نقلها عنه العلماء سواء المعاصرين له أو من جاءوا بعده ؛ و التي حملت عنه محمل التعصب .
و مما استدلوا به على تعصبه؛ أنه استطاع أن يجعل الخليفة المستضيء² يميل إلى المذهب الحنبلي ، و مما نقله عنه ابن رجب - و ذلك عندما بني لأحد شيوخ المذهب الحنبلي دكة في موضع جلوسه في الجامع - قوله : " فتأثر أهل المذاهب من ذلك و جعل الناس يقولون لي (أي لابن الجوزي) : هذا بسببك ، فإنه ما ارتفع هذا المذهب عند السلطان حتى مال إلى الحنابلة إلا بسماع كلامك فشكرت الله تعالى على ذلك " ³ . كما أنه أودى في سبيل تعصبه لمذهبه و ناله من الشدة و العنت في سبيل ذلك ما ناله ، فقد قال له مرة أحد المستمعين : ما فيك عيب إلا أنك حنبلي ، فأنشد ابن الجوزي هذه الأبيات ضمنها افتخاره بانتسابه إلى هذا المذهب قائلاً :

و غيرني الواشون أني أحبها و تلك شكاة ظاهر عنك عراها

ثم قال : أهذا عيبي ، و لا عيب في وجه نقط صحفه بالخال ؟ و أنشد :

و لا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قزاع الكتائب⁴

و لكن ما يمكن لنا قوله في هذا المجال ، أن هذه الأقوال التي نقلت عنه تدل على أنه حنبلي وليس بالضرورة أن يكون متعصباً ؛ صحيح أنه قد يكون متشداً في بعض القضايا أو مع بعض العلماء⁵ ، و لكن غالباً ما يحدث هذا في قضايا لا علاقة لها بالمذهب

¹ - انظر : القصاص والماكرس : ابن الجوزي ، تحقق محمد لطفي الصباغ المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1988 م ص 20 - الإمام ابن الجوزي و كتابه الموضوعات : محمود أحمد القسبية الدوي ، شركة أبو ضني للطباعة والنشر ، 1403 هـ ، 1983 م ص 138 .

² - سبق التعريف هذا الخليفة في الفصل الأول من هذا الباب .

³ - الفيل على طبقات الحنابلة : لابن رجب ، 1 / 409 .

⁴ - المصدر السابق : 1 / 104 .

⁵ - انظر ذلك بالتفصيل في فصل تأثر ابن الجوزي و ما أخذ عليه في الفصل الأخير من الرسالة .

الحنبلي . و على هذا الأساس فإن الرأي الذي نميل إليه و نؤيده من باب إحقاق الحق و وضع كل إنسان في موضعه الذي يليق به ، هو أن الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - كان حنبلي المذهب ، شديد التمسك به ، مع خروجه عن مذهب إمامه في بعض فتاواه¹ ، و مع ذلك فقد كان كثير الثناء على الإمام أحمد . و مما يؤكد انتماءه لهذا المذهب ما نقل عنه من أنه كان يظهر في مجالسه مدح السنة و الإمام أحمد حتى وصف بأن " لمذهب أحمد منه ما لصخرة بيت المقدس من المقدس " ² .

يحدثنا ابن الجوزي عن سبب اختياره للمذهب الحنبلي عن غيره من المذاهب الفقهية الأخرى فيقول : " و اعلم أنا نظرنا في أدلة الشرع و أصول الفقه ، و سبرنا أحوال الأعلام المجتهدين ، فرأينا هذا الرجل أوفرهم حظاً من تلك العلوم ، فإنه كان من الحافظين لكتاب الله عز و جل ، و كان - رضي الله عنه - من المصنفين في علوم القرآن من التفسير و التاريخ ، و المنسوخ ، و المقدم و المؤخر إلى غير ذلك ... إلى أن يقول : أنه ضم إلى العلوم ما عجز عنه القوم من الزهد في الدنيا ، و قوة الورع ، و لم ينقل عن أحد من الأئمة أنه امتنع من إرفاق السلطان و هدايا الإخوان كامتناعه ، و لولا خدش وجوه فضائلهم - رضي الله عنهم - لذكرنا عنهم ما قبلوه ، و ترخصوا بأخذه ، ثم أنه ضم إلى ذلك الصبر على الامتحان و بذل المهجة في نصرته الحق و لم يكن ذلك لغيره " ³ .

و في وصيته لابنه يبين له من حظي بالكمال من العلماء عنده فيقول : " و اعلم أنني قد تصفحت التابعين و من بعدهم فما رأيت أحظى بالكمال من أربعة أنفس : سعيد بن المسيب و الحسن البصري و سفيان الثوري و أحمد بن حنبل و قد كانوا رجالاً " ⁴ .

و رغم هذا المدح و الإطراء على الإمام أحمد و حبه لمذهبه فإن هذا التقدير و الاحترام لم يكن ليفقد ابن الجوزي شخصيته المتميزة و منهجه الفقهي الأصيل و الذي لا يخضع فيه للتقليد في كثير من الأحيان فنجد في مسألة التداوي على سبيل المثال يقول⁵ : " أرى أن التداوي مندوب إليه ، و قد ذهب صاحب مذهبي - أي الإمام أحمد - إلى أن ترك التداوي أفضل ، و منعني الدليل من اتباعه في هذا ، فإن الحديث الصحيح أن النبي صلى

¹ - انظر نماذج من فتاواه في الفصل الأخير من هذا الباب .

² - الدليل على طبقات الخنابلة : لابن رجب ، 1 / 409

³ - مناقب الإمام أحمد : ابن الجوزي ، طبع و توزيع مكتبة الخانجي بمصر ، دت ، ص 496 .

⁴ - لفظة الكبد : ص 40

⁵ - صيد الخاطر : ص 87

الله عليه وسلم - قال : ما أنزل الله داء إلا و له دواء فتداؤوا " ¹.

و هناك فتاوى كثيرة اجتهد فيها و له رأيه الخاص الذي انفرد به في كثير من المسائل و هذا ما يدل على أنه و إن تمسك بالمذهب الحنبلي و دافع عنه و عن إمامه فليس من باب أن الصواب كله في المذهب الحنبلي و لاحق عند غيره من المذاهب الأخرى ، و من خلال تتبعنا لمختلف الأقوال التي عبر فيها عن تمسكه بالمذهب الحنبلي ، لم نلاحظ منه أية عبارة يشتم منها انتقاصه للمذاهب الأخرى سواء كان ذلك تلميحاً أو تصريحاً و هذا مما يوهن قول من شنع عليه و رماه بالتعصب للمذهب الحنبلي و بعض رجاله و ذلك " أن ابن الجوزي كانت له شخصية مستقلة ، فلم يكن الرجل ظلاً لأحد و لا ذيلاً لإنسان " ² ، و على الرغم من تأثره بالمذهب الحنبلي و آراء بعض رجاله - كابن عقيل - و اعترافه بفضله عليه ³ ، إلا أنه اختلف مع إمام مذهبه و أتباعه في بعض الآراء و المسائل فكان له رأيه الحر و فكره المستقل الذي جلب له العديد من المتاعب حتى مع الحنابلة أنفسهم ⁴.

مذهبه العقدي :

يعتبر ابن الجوزي - في الأصل - من علماء الحنابلة ، أما مذهبه العقدي فهو مذهب أهل السنة و الجماعة و إن كان الأشاعرة هم أقرب الفرق الكلامية تمثيلاً لرأيه ⁵ ولكنه خالفهم كما خالف الحنابلة في بعض المباحث ، و هذه من الميزات التي تدل على سلامة العقيدة ، و حتى يتجلى لنا عرض الموضوع بشكل واضح سنتعرض لأهم ما قاله ابن الجوزي في هذا الموضوع و ما رد به العلماء عليه .

و من خلال تتبعنا لأقوال ابن الجوزي في العديد من مصنفاته استخلصنا ؛ أن جل آرائه العقدية كانت سليمة موافقة لما جاء في الكتاب و السنة و أقوال من سبقه من العلماء إلا في بعض القضايا و لعل أهمها مسألة الصفات الخبرية ، حيث كان ابن الجوزي متردداً

¹ - فتح الباري : 10 / 134 ، كتاب الطب ، رقم : 5678 ، و لفظه : ما أنزل الله داء إلا له شفاء ، و قاله ابن حجر : و في

رواية ابن مسعود : إن الله لم يزل داء إلا أنزل له شفاء فتداؤوا ، أخرجه النسائي و صححه ابن حبان و الحاكم ، الفتح 10/135.

² - مراعات ابن الجوزي ، دراسة فية تحليلية : عرفة حلمي عباس ، رسالة ماجستير مخطوطة ، بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، نولشت سنة 1992 .

³ - انظر : المنتظم : 17 / 181 .

⁴ - وذلك حيث أنه عرج على مذهب الحنابلة فأول بعض الصفات و وصف بعضهم بالنشيه لكثرة تمسكهم بالنصوص .

⁵ - ابن الجوزي و منهجه في التفسير : عبد العزيز ثابت ، رسالة ماجستير مخطوطة في التفسير ، نولشت سنة 1994 م جامعة الأمير

عبد القادر قسنطينة ص 142 .

فيها بين التأويل مرة و التفويض مرة أخرى .

و لتوضيح المسألة لا بد من التعرض لبعض النصوص التي نحي فيها ابن الجوزي

منحى التفويض وبعض النصوص الأخرى التي نحي منحى التأويل .

1 - نصوص التفويض :

جاء في مؤلفات ابن الجوزي حديث كثير عن التفويض نذكر البعض منها ، يقول في

آيات الصفات مذكرا الواعظ بما يجب أن يقوله للعوام : " على الواعظ أن يتكلم الكلام الذي يفيد العوام ، كأن يقول القرآن كلام الله غير مخلوق . و أخبار الصفات تمر كما جاءت ومهما خطر على البال من صفات الحق عز و جل أنه كذلك فهو بخلافه لأنه ليس كمثله شيء " ¹ .

و مما جاء في كتاب " صيد الخاطر " حول هذا المسألة قوله : " عجبت من أقوام

يذعنون العلم ، و يميلون إلى التشبيه بحملهم الأحاديث على ظواهرها فلو أنهم أمروها كما جاءت سلموا ، لأن من أمر ما جاء و مرّ من غير اعتراض ، فما قال شيئا لاله و لا عليه ... فإنه من قرأ الآيات و الأحاديث ولم يزد ، لم ألمه ، و هذه طريقة السلف " ² .

و مما قاله في نصحه للعوام بالابتعاد عن التأويل و الالتزام بالتفويض : " وأصلح

ما نقول للعوام أمرّوا هذه الأتسياء كما جاءت ، و لا تتعرضوا لتأويلها ، و كل ذلك يقصد به حفظ الإثبات ، و هذا الذي قصده السلف " ³ .

و لما اشتكى إليه أهل السنة في بغداد مما يلقونه من أهل البدع الأعاجم من أصحاب

التأويل و التعطيل فرد عليهم قائلا : " إن الشرع قنع منا بالإيمان جملة ، و بتعظيم الظواهر ونهى عن الخوض فيما يثير غبار شبهة و لا تقوى على قطع طريقه أقدام الفهم . و إذا كان قد نهى عن الخوض في القدر فكيف يجوز الخوض في المقدر ؟ " ⁴ .

و مما ذكره في التلييس في نصرة مذهب السلف و تبين أنه ما كان عليه النبي

— صلى الله عليه وسلم — و الصحابة والتابعين من إثبات صفات الله تعالى كما أثبتتها لنفسه

قوله : " فإن قال قائل قد عبت طريق المقلدين في الأصول و طريق المتكلمين فما الطريق

السليم من تلييس إبليس ؟ فالجواب أنه ما كان عليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

¹ - القصاص والمذكرين : ص 367

² - صيد الخاطر : ص 83 ، 84 .

³ - المصدر السابق : ص 102 .

⁴ - نفس المصدر : ص 183 ، 184 .

وأصحابه ، و تابعوهم بإحسان من إثبات صفاته على ما وردت به الآيات والأخبار من غير تفسير و لا بحث مما ليس في قوة البشر إدراكه " ¹ .
من هذه الأقوال يتبين أن ابن الجوزي سني سلفي ، ينهى عن التأويل و يكتفي بتمرير الصفات كما وردت بها الآيات دون بحث و لا تفسير ² .

2 - نصوص التأويل :

و في هذه النصوص يبدو لنا ابن الجوزي متحمسا في دعوته إلى التأويل ، بل و نجده يشنع على بعض علماء الحسابلة الذين حملوا الأخبار على ظواهرها مما يوهم وقوعهم في التشبيه يقول في ذلك " حتى العلماء يتفاوتون التفاوت الكثير في الأصول و الفروع . فنرى أقواما يسمعون أخبار الصفات فيحملونها على ما يقتضيه الحس كقول قائلهم : ينزل بذاته إلى السماء و ينتقل و هذا فهم رديء " ³ .

و في كتابه " التلبس " نجده يحمل على المشبهة جملة و يظهر بوضوح ميله إلى التأويل يقول : " و من الواقفين على الحس أقوام قالوا هو على العرش بذاته على وجه المماسه فإذا نزل انتقل و تحرك و جعلوا لذاته نهاية و هؤلاء قد أوجبوا عليه المساحة و المقدار و استدلوا على أنه على العرش بذاته بقول النبي - صلى الله عليه وسلم - ينزل الله إلى سماء الدنيا قالوا و لا ينزل إلا من هو فوق . و هؤلاء حملوا نزوله على الأمر الحسي الذي توصف به الأجسام " ⁴ .

و مرة أخرى نجد ابن الجوزي يجنح إلى التأويل صراحة و يعبر عنه في قوله : " و من الناس من يقول لله وجه هو صفة زائدة على صفة ذاته لقوله عز وجل : (و يبقى وجه ربك) ⁵ و له يد وله أصبع ... و هذا كله إنما استخرجوه من مفهوم الحس ، و ما يؤمن هؤلاء أن يكون المراد بالوجه الذات لا أنه صفة زائدة . و على هذا فسر الآية المحققون فقالوا و يبقى ربك و قالوا في قوله : (يريدون وجهه) ⁶ يريدونه ، و ما يؤمنهم

¹ - تلبس إبليس : ابن الجوزي ، دار الخيل ، بيروت ، د ت ، ص 125 .

² - انظر نصوص التفسير في صيد الخاطر : ص 101 ، 185 ، من 114 إلى 117 ، 272 ، 324 ، 419 ، و في التلبس : ص 119 إلى 127 .

³ - صيد الخاطر : ص 476

⁴ - تلبس إبليس : 124 - صيد الخاطر : 116 انظر مجمع الزوائد و منبع الفوائد : لأبي بكر الهيثمي 8 / 65 باب ما جاء في

الشحناء و قال رواه البزار و فيه عبد الملك بن عبد الملك ذكره ابن أبي حاتم في المحرر و التعديل و لم يضعفه و بقية رجاله ثقات .

⁵ - الرحمن : 27

⁶ - الكهف : 28

أن يكون أراد بقوله قلوب العباد بين أصبعين أن الأصبع لما كانت هي المقابلة للشيء وأن ما بين الأصبعين يتصرف فيه صاحبهما كيف شاء نكر ذلك ، لا أن ثمة صفة زائدة " ¹ .

و نجده - رحمه الله - يجنح إلى التأويل في تفسيره للعديد من آيات الصفات و من الأمثلة على ذلك ما قاله في صفة الوجه و اليد و العين في قوله تعالى : (فثم وجه الله) ² " و فيه قولان : أحدهما ؛ فثم وجه الله ، قبله الله ، قاله عكرمة و مجاهد " ³ ، و قال في قوله : (كل شيء هالك إلا وجهه) ⁴ " و فيه قولان : أحدهما ؛ ما أريد به وجهه رواه عطاء عن ابن عباس ، و الثاني ؛ إلا هو ، قاله الضحاك و أبو عبيدة " ⁵ . و قال في صفة اليد عند تفسيره قوله تعالى : (بل يده مبسوطتان) ⁶ ، " و المراد بقوله بل يده مبسوطتان : أنه جواد يتفق كيف يشاء " ⁷ .

و نجده يؤكد توجهه هذا مرة أخرى عند ما يتحدث عن صفات الله قائلا : " و ذكر من صفاته اليد و السمع و البصر و العين ، و ينزل إلى السماء الدنيا ، و يضحك و كل هذا لتأنس النفوس بالعبادات " ⁸ .

كما تعرض لصفة المجيء في قوله تعالى : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك) ⁹ و ذهب فيها مذهب التأويل حيث قال في تفسيرها : " قال الحسن : أو يأتي أمر ربك ، و قال الزجاج : أو يأتي إهلاكه و انتقامه إما بعذاب عاجل أو بالقيامة " ¹⁰ .

و حاصل هذه الأقوال أن الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - أراد الجمع بين كلا المنهجين

¹ - نليس إبليس : ص 124 - 125

² - البقرة : 115 .

³ - زاد المسير في علم التفسير : ابن الجوزي ، تحقيق محمد عبد الرحمن عبد الله ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط 3 ، 1983م ، 1 / 135 .

⁴ - القصص : 88 .

⁵ - زاد المسير : 6 / 252 .

⁶ - المائدة : 64 .

⁷ - زاد المسير : 2 / 393 .

⁸ - صيد الخاطر : ص 272 .

⁹ - الأنعام : 158 .

¹⁰ - زاد المسير : 3 / 156 .

لذلك وجدناه مرة ينهج نهج السلف الصالح في الصفات مخذرا من التأويل وضاربا على أيدي المشبهة و المجسمة و المعطلة مؤكدا نصرته للإمام أحمد ، و تارة أخرى نراه يسلك مسلك التأويل ، و ينسب ما قاله إلى المحققين و هم الذين سفّه قولهم و ندد برأيهم وهذا ما حدا ببعض الباحثين من وصفه بالتردد و عدم الاستقرار في مسألة الصفات و ذلك لانتصاره للتفويض حيناً و للتأويل حيناً آخر¹، كما أن هناك من العلماء من دافع عنه و ردّ هذه المقولة عنه².

و لعل هذا كان من أسباب نقمة بعض علماء الحنابلة عليه³ فاعتبروه مخالفا للإمام أحمد ابن حنبل - رضي الله عنه - الذي كان يقول بالتفويض مطلقا و يذم التأويل . و برغم ما قيل عن الإمام ابن الجوزي في هذا المجال فإن هذا الأمر لا ينقص من قيمة الرجل العلمية و التربوية في مجال الدعوة و الإصلاح ، أضف إلى ذلك أن هناك من الباحثين من ناصر الإمام و دافع عنه في هذا المجال و اعتبر أن كل ما ذهب إليه رد فعل على الغلاة من الحنابلة الذين أمعنوا في التعبير عن الإثبات حتى مزجوه بالتشبيه⁴ . كما أن ما ذهب إليه يكشف بصدق نسبه لأهل السنة و الجماعة حيث دافع عن كتاب الله و سنة رسوله بعقله الواعي و فكره المستنير⁵، و الدليل على ذلك أنه لم يكن يلجأ إلى التأويل إلا عند الضرورة ، و لم يفعل ذلك إلا بعد أن ينبه أن مذهب السلف أسلم و أنجا من الوقوع في مخاطر التأويل ، زيادة على ذلك فإنه عندما كان يؤوّل في بعض المواطن - كالتي ذكرنا أنفاً - " فإنه لا يذهب إلا إلى ما يكون التأويل فيه قريبا مستعملا في كلام العرب غير بعيد ولا مهجور ، فلم نجد له تأويلا متعسفا فيه كما هو شأن الذين أقرطوا في التأويل ولم يتبعوا منهج السلف " ⁶.

و خلاصة القول يمكننا أن نقول أن ابن الجوزي لم تكن فيه نزعة سلفية مطلقة حيث أنه

- 1 - انظر : أبو الفرج ابن الجوزي وآراؤه الكلامية : رمضان عبد الباسط سالم الرفاعي ، مخطوطة ماجستير ، كلية الدراسات الإسلامية جامعة الأزهر ، سنة 1996 م ص 243 - أبو الفرج ابن الجوزي آراؤه الكلامية والأخلاقية : آمنة محمد نصير ، دار الشروق ، القاهرة ، ط 1 / 1987 م ص 146 ، 147 - ابن الجوزي بين التأويل والتفويض : أحمد عطية الزهران ، مخطوطة ماجستير كلية الشريعة ، جامعة الملك عبد العزيز ، السعودية ، سنة 1396 هـ ، ص 154
- 2 - انظر مبحث بين الغزالي و ابن الجوزي في الفصل الأخير من الرسالة .
- 3 - انظر مبحث مأخذ العلماء على ابن الجوزي ، الفصل الأخير من الرسالة .
- 4 - أبو الفرج ابن الجوزي آراؤه الكلامية والأخلاقية : آمنة محمد نصير ، ص 149 .
- 5 - أبو الفرج ابن الجوزي و آراؤه الكلامية : رمضان عبد الباسط سالم الرفاعي ص 244 .
- 6 - ابن الجوزي المحدث ومنهجه في الموضوعات : أبو العلا علي أبو العلا ، مخطوطة دكتوراه ، كلية أصول الدين جامعة الأزهر ص 302 .

كان كثيراً ما يتأني في الأخذ بظواهر النصوص¹ في مسألة الصفات ، و ذلك لكونه
تبنى المنهجين و أراد الجمع بينهما في مخاطبة جماهير المدعوين و تربيتهم ، خاصة في
الجانب العقدي ، أما أهل العلم فباستطاعتهم فهم الأدلة على وجوها و استنباط حقائقها .
لذلك فهو لم يرض للعوام سوى أن تمرر أخبار الصفات كما جاءت خوفاً عليهم من الوقوع
في التشبيه² .

و لعل أحسن ما يمثل مذهب ابن الجوزي العقدي هي عبارته البليغة التي تنل
على عجز العقل الإنساني أن يحيط بالخالق علماً في ذاته أو صفاته فهو — سبحانه وتعالى —
" جل عن المثال و الأمثال و الحدود و الجهات و الأقطار تقديس عن أن يحصره فكر أو
يحدّه أين أو يدركه و هم و شرف عن الكنه و المقدار ، فعجن طين الخلائق بالعجز عن
إدراك كيفية ذاته جل الواحد القهار ... يعلم هجس الهاجس في الخاطر و ما تخفي العيون
استوى على العرش و هو معكم تعالى عن الحركة و السكون " ³ و هذا تفسير سليم لقوله
تعالى : (ليس كمثله شيء و هو السميع البصير) ⁴ .

¹ - صيد الخاطر : ابن الجوزي ، تحقيق ، الشيخ محمد الغزالي ، نشر مؤسسة رحاب للنشر و التوزيع ، د ت ، ص 6 ، و الكلام
هنا للمحقق — أبو الفرج ابن الجوزي و آراؤه الكلامية : رمضان عيد الباسط الرفاعي ، ص 48 .
² - صيد الخاطر : 101 ، 102 .
³ - روح الأرواح : ابن الجوزي ، دار القلم للنرات ، الهرم ، مصر ، د ت ، ص 6 .
⁴ - الشورى : 11 .

المبحث الخامس محنته ووفاته

محنته :

علا شأن الإمام ابن الجوزي ، و بلغت مكانته الذروة ، و دان الناس له بالطاعة و الولاء ، فعظمت محبته في قلوبهم ، و هكذا و بعد حياة حافلة بالعطاء العلمي و الفكري في مجالات الدعوة ، و الإصلاح ، و الوعظ ، و التدريس ، و التصنيف يكون جزاء الشيخ - رحمه الله - الحبس و التشريد بعيدا عن الأهل و الوطن فكانت " محنته التي زاحم بها الأنبياء والعلماء ، و الفضلاء ، و الأولياء " ¹

تبدأ قصة محنة ابن الجوزي عندما عقد ابن يونس الحنبلي ²، وزير الخليفة الناصر مجلسا ضم العلماء والمحدثين للنظر في الكتب التي ألفها الركن عبد السلام ابن عبد القادر الجيلي ³ و التي ملأها بالزندقة و الدعوة لعبادة النجوم ، و بث فيها كثيرا من علوم الأوائل و الآراء المنحرفة مثل قوله في بعضها : أيها الكوكب الفرد أنت تدبر الأملاك و تحيي و تميت و أنت إلهنا ، و في حق المريخ من هذا الجنس ⁴.

لم يستطع ابن الجوزي السكوت على ما في تلك الكتب من دعاوى و أباطيل تخالف الكتاب و السنة ، فأصدر المجلس قرارا بحرق كتب الركن ، و خلعه من التدريس بمدرسة جده الشيخ عبد القادر الجيلاني و تفويض أمرها إلى ابن الجوزي ⁵.

و بعد أن تولى الوزارة ابن القصاب - و كان رافضيا خبيثا - فإن أول عمل قام به هو تتبع أصحاب ابن يونس و على رأسهم ابن الجوزي الذي لم يكن الخليفة الناصر يستريح إليه . و لعل أحسن من روى نكبة ابن الجوزي ، ابن رجب الحنبلي و مما قاله في هذه المحنة : "... قال الركن عبد السلام لابن القصاب : أين أنت من ابن الجوزي فإنه

¹ - الذيل على الروضتين : لأي شامة ص 21 .

² - سبق ذكره في الحالة العلمية في عصر ابن الجوزي .

³ - كان الركن هذا على جانب سيئ من الأخلاق ، سبى العفيفة ، بشرب الخمر و بمخالط المردان ، و من العجيب أنه كان

مصاحبا لأي القاسم ابن الإمام ابن الجوزي الذي كان إلبا على أبيه أيام محنته . أنظر ترجمته في البداية والنهاية : 13 / 68 - الذيل

على طبقات الحنابلة : لابن رجب 2 / 71 .

⁴ - الذيل على الروضتين : ص 56 .

⁵ - الذيل على طبقات الحنابلة : 1 / 426 .

ناصر، و من أولاد أبي بكر ، فهو من أكبر أصحاب ابن يونس ، و أعطاه مدرسة جدي و أحرق كتبي بمشورته ؟ فكتب ابن القصاب إلى الخليفة الناصر، و كان الناصر له ميل إلى الشيعة .

و لم يكن له ميل إلى الشيخ أبي الفرج ، بل قد قيل : إنه كان يقصد إزاه ، و قيل : إن الشيخ ربما كان يعرض في مجالسه بدم الناصر¹ ، فأمر بتسليمه إلى الركن عبد السلام فجاء إلى دار الشيخ و شتمه ، و أغلظ عليه و ختم على كتبه و داره ، و شنت عياله . فلما كان في أول الليل حمل في سفينة و ليس معه إلا عدوه الركن² ... و بقي الشيخ محبوساً بواسطة³ في دار ، مدة خمس سنوات حددت إقامته فيها ، و جعل على بابها الحراس حتى لا يغادرها فكان الشيخ طيلة هذه السنين يخدم نفسه بنفسه ، ليس له من يقوم بشؤونه ؛ - و هو شيخ قد تجاوز الثمانين من عمره - يغسل ثوبه و يقوم بطهي طعامه ، و يسقي الماء من البئر⁴ .

و بقي الإمام ابن الجوزي على ذلك ، من سنة 590 هـ إلى سنة 595 هـ لا يغادر داره بل و لا يتمكن حتى من الخروج إلى الحمام ، و في هذه السنوات خلا الشيخ بنفسه حيث انقطع للتأليف و قراءة القرآن ، ما عدا بعض الناس كانوا يدخلون عليه ليسمعوا منه بعض مصنفاً فكان يرسل معهم الكثير من أشعاره إلى بغداد⁵ يذكر فيها حنينه و شوقه إلى الوطن و الأهل و الخلان .

إلا أن الشيخ مالت نفسه إلى تعلم القراءات فأخذها عن شيوخها بواسطة و هو في تلك السن⁶ ، و لعل هذا من أعظم الأدلة على علو همة ابن الجوزي ، رغم ما كان يعانيه من قيد السجن و ألم البعد و كبر السن، إلى أن جاء يوم الفرج فأفرج فيه عن أبي الفرج و كان السبب في خلاصه ؛ أن ابنه يوسف نشأ و اشتغل و عمل في الوعظ و توصل ، فشغفت أم الخليفة في الشيخ فأفرج عنه ، و ظلت بغداد تترقب عودة الشيخ و خروج خلق لا يحصون لتلقيه يوم دخوله ، و فرح الناس به فرحاً شديداً و نودي له بالجلوس

¹ - حيث أن ابن الجوزي عاب على هذا الخليفة بعض الأشياء و ألف كتاباً فيه سماه " ذم الناصر " انظر مبحث ابن الجوزي والحكام ، فصل أصناف المدعوب عند ابن الجوزي .

² - الذيل على طبقات الحنابلة : 1 / 426 .

³ - واسط : سميت كذلك لأنها متوسطة بين البصرة و الكوفة ، و هي التي بناها الحاج بن يوسف معجم البلدان : 5 / 400 .

⁴ - الذيل على طبقات الحنابلة : 1 / 426 .

⁵ - المصدر السابق : 1 / 426 .

⁶ - نفس المصدر : 1 / 401 .

للعظ عند تربة أم الخليفة ، فصلى الناس الجمعة و عبروا الفرات مبكرين ليأخذوا مكانا لهم في المجلس فأفرش المكان بالجص و الحصى ، و جاء الشيخ صبيحة يوم السبت و حضر مجلسه جمع غفير من العلماء و أرباب المدارس و أهل التصوف و غصص المكان بالناس فلم يستطع الشيخ أن يبلغ بصوته إلى آخر الحاضرين¹ ، و مع ذلك بكى الحاضرون و قاب المذنبون العابثون .

وما زال الشيخ على طريقته في الوعظ و الدعوة صابرا محتسبا ، لم يغير منهجه إلى أن توفاه الله إليه .

وفاته :

لم يكن تاريخ وفاة ابن الجوزي محل خلاف بين المؤرخين ، شأنه في ذلك شأن كثير من العظماء الذين لم يحفل الناس بتاريخ ميلادهم - و خاصة في ذلك العصر - و لكن لما دنت نهايته كان ملئ السمع و البصر حيث اعتنى الناس بكل تفاصيل وفاته² .

و كانت قصة وفاة الشيخ ابن الجوزي على النحو التالي : في ليلة السابع من شهر رمضان سنة 597 هـ ، جلس الشيخ على عادته يعظ الناس و يدعوهم إلى الله تعالى بالقرب من تربة أم الخليفة المجاورة لقبر معروف الكرخي ، و فجأة و كأنه أحس بدنو أجله ، فأنشد هذه الأبيات قطع بها المجلس :

الله له أسأل أن يطوّل مدّتي و أنال بالإنعام ما في نيتي
لي همّة في العلم ما من مثلها وهي التي جنت النحول هي التي
خلقت من العلق العظيم إلى المنى دعيت إلى نيل الكمال فلبت
كم كان لي من مجلس لو شبتت حالته لتشبتت بالجنة
أشواقه لما مضت أيامه عطلا و تعذر ناقة أن حنت
ياهل لليلات تقضت عودة أمهل إلى واد من نظرة ؟
قدكان أحلى من تصاريف الصبى ومن الحمام مغنيا في الأيكة
فيه البيدهات التي ما نالها خلق بغير تصبر و مييت

¹ - الذيل على طبقات الحنابلة : ابن رجب / 1 / 427

² - انظر ترجمته و وفاته في مختلف كتب التراجم منها : وفيات الأعيان : 142/3 - تذكرة الحفاظ : 1342/4 - البداية و النهاية : 28 / 13 - النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة : جمال الدين ابن تغري بردي الأنايكي ، 6 / 174 - مرآة الجنان و عبرة البقطان في معرفة ما يعتر من حوادث الزمان : عبد الله بن أسعد بن سليمان اليافعي ، 3 / 489 .

قال سبطه أبو المظفر : " ثم نزل عن المنبر فمرض خمسة أيام و توفي ليلة الجمعة بين العشائين بداره في بغداد و حضر غسله الشيخان ضياء الدين بن سكينه ، و ضياء الدين ابن الجبير وقت السحر ، و اجتمع أهل بغداد و غلقت الأسواق " ¹ ، و حمل جثمانه فوق رؤوس الناس ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور فصلوا عليه و ضاق المكان بالمشيعين و كان يوما مشهودا ، من أيام رمضان ، فأفطر خلق كثير ممن حضر جنازته ، و رموا بأنفسهم إلى الماء من شدة الحر و كثرة الزحام ، و لم يصل من كفنه إلى الحفرة إلا قليل ، و أنزل في حفرته عند أذان الجمعة ، " و كانت جنازته مشهودة ، و كثر أسف الناس عليه ، و لم يخلف بعده مثله " ² .

و على ما يبدو أن الجنازات كانت علامة واضحة و فاصلة بين أهل السنة و أهل البدعة ³ ، فتشيع أهل بغداد لجنازة الإمام ابن الجوزي بذلك العدد الذي بلغ مئات الألوف و هم متلبسون بالصيام في أكثر شهور السنة حرارة كل هذا يدل دلالة واضحة على المنزلة الطيبة الرفيعة التي احتلها ابن الجوزي في قلوب أهل بلده خاصة و المسلمين عامة .

¹ - الذيل على الرضون : لأبي شامة ص 25 - الذيل على طبقات الحنابلة : 1 / 428 - .

² - الحجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة : جمال الدين ابن تغري بردى الأتابكي ، 6 / 175 .

³ - منهج ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير : عبد الرحيم بن أحمد طحان ، ص ، 6 .

الفصل الرابع

آثار ابن الجوزي

و يتضمن أربعة مباحث

المبحث الأول : موجز عن سيرة ابن الجوزي

المبحث الثاني : مؤلفات ابن الجوزي

المبحث الثالث : ما أثر عنه من فتاوى وأقوال

وأشعار ومواعظ

المبحث الرابع : ما كتب عنه من دراسات وأبحاث

المبحث الأول

موجز عن سيرة ابن الجوزي

ميلاده : ولد ابن الجوزي في بغداد ما بين 508هـ - 512هـ على أرجح الأقوال .
فقدانه لأبيه : في عام 511هـ / 1120م فقد ابن الجوزي أباه واسمه أبو الحسن علي ابن محمد وهو لم يتجاوز الثالثة من عمره فكفنته عمته .
بداية الدراسة : في أواخر عام 515هـ / 1121م أو 510هـ / 1122م دخل ابن الجوزي الكتاب ليتعلم القراءة و الكتابة ، و بعد أن أمضى عاما في الكتاب تولى الشيخ ابن ناصر رعايته .
و بدأ في تلك السن حضور دروس القرآن و الحديث¹ ، على يد جمع غفير من الأساتذة والشيوخ بلغ عددهم أكثر من سبعة و ثمانين شيخا² .
بداية الدعوة والوعظ : في عام 520هـ / 1126م أي عندما بلغ ابن الجوزي سن العاشرة أو الحادية عشر ألقى أول موعظة له امام حشد كبير من الحضور قدر بمائة ألف ، كان قد لقنه إياها شيخه أبو القاسم الهروي³ .
دراسته للفقاه : و في عام 521هـ / 1129م ينقل عنه في هذه السنة بدأ في دراسة الفقه و الوعظ وكان في الثالثة عشر من عمره على يد ابن الزاغوني أحد أشهر علماء عصره⁵ .
احترافه للوعظ : في عام 527هـ / 1132م تولى ابن الزاغوني ، وبذلك يكون ابن الجوزي قد فقد أكبر شخصية كانت سنداً له في فن الوعظ . ثم عين في هذا العام واعظاً في المنابر التي شغرت بعد موت استاده وبذلك دخل ابن الجوزي مرحلة هامة من حياته الدعوية باحترافه الوعظ والتذكير .
فترة وعظ مستفزة : و في الفترة الممتدة من سنة 527هـ / 1132 إلى 544هـ / 1149م كانت فترة استقرار في حياة ابن الجوزي ، حدث كثير وعظ في المساجد التي عين لها بعد موت شيخه ابن الزاغوني ، كما انه بدأ التأليف في هذه المرحلة .

1 - الذيل على طبقات الحنابلة : ابن رجب 400/1 .

2 - المصدر السابق : 1 / 401 .

3 - المنتظم : 17 / 236 .

4 - أنظر ترجمته في مبحث شرح ابن الجوزي وتلاميذه

5 - أنظر ترجمته في مبحث شرح ابن الجوزي وتلاميذه

6 - الذيل على طبقات الحنابلة 100/1

رحلته إلى الحج : في سنة 541 هـ / 1149 م قاد برحلته الزاوي إلى مكة المكرمة و المدينة المنورة لأداء فريضة الحج و الزيارة¹ ، و هذه هي الرحلة الأولى في حياة ابن الجوزي .
ظهور ابن الجوزي على مسرح الأحداث : في سنة 511 هـ / 1149 م عين ابن هبيرة² وزيراً للمقتفي بالله³ و كانت لابن الجوزي منزلة خاصة عنده ، و في هذه الفترة لعب ابن الجوزي دوراً بارزاً في الحياة السياسية .

حجه مرة أخرى : وفي سنة 553 هـ / 1158 م قاد برحلة ثانية إلى البقاع المقدسة للحج و الزيارة و في هذه المرحلة كانت شهرته قد ذاعت ، فألقي موعظة في المسجد الحرام و أخرى في الحرم النبوي⁴ .

ضباع كتبه : و في عام 554 هـ / 1159 م حدثت فيضانات كبيرة غرقت بسببها مقبرة الإمام أحمد و انهدمت الكثير من الدور و منبأ منزل ابن الجوزي الذي لم يتعرف عليه إلا بمنارة المسجد ، كما غرقت كتبه و لم يسلح له منها - كما قال - إلا مجلد فيه ورقتان بخط أحمد ابن حنبل⁵ .

صراعه مع الروافض : وفي سنة 555 هـ / 1160 م و بصفته واعظاً شعبياً فإنه بدأ في خوض صراع عنيف مع المعارضين و أوليهم الروافض و أهل البدع و لكن الله نصره عليهم⁶ .
بداية التدريس : و في سنة 556 هـ / 1161 م و بالإضافة إلى الوعظ ثبت ابن الجوزي كمدرس للفقهاء ، حيث تولى التدريس في مدرسته شيخه النهرواني إثر وفاته و بقي على ذلك إلى غاية 560 هـ / 1164 م .

الهدوء و الاستقرار : في عام 560 هـ / 1164 م كانت وفاة الوزير ابن هبيرة ، و بسبب توتر الساحة السياسية و محاصرة رجال الخليفة لإحدى مدارسهم ، و منع القصاص كلهم من التذكير⁸؛ ابتعد ابن الجوزي عن الأقطار و بقي على هذا الوضع حتى نهاية سنة 560 هـ .
و يبدو أن ابن الجوزي في هذه الفترة كان منشغلاً بالتصنيف .

1 - المنظم : 18 / 50 .

2 - المصدر السابق : 18 / 71 .

3 - المنظم : 18 / 71 .

4 - المصدر السابق : 18 / 126 .

5 - نفس المصدر : 18 / 135 - الأدب الشرعي و المنع المرعية : ابن منيع الحلي ، دار النعم فتجميع ، بيروت لبنان ، 1972 ، 2 / 161 .

6 - المنظم : 18 / 141 .

7 - المصدر السابق : 18 / 149 .

8 - نفس المصدر : 18 / 172 .

العودة للدعوة والوعظ : بعد وفاة المسندج و تسند الخليفة المستنصر، زمام الحكم من 566 - 575 هـ / 1170 - 1179 م عادت لابن الجوزي مكانته العلمية والدعوية بين طلبة العلم و في أوساط الجماهير التي كان قد افتقدها في العهد السابق ، و بلغ ابن الجوزي في عهد المستنصر منزلة لم يضاهيه فيها أحد ، حيث صار مسموع الكلمة ، فكثرت حساده و خصومه من العلماء و الروافض و غيرهم ، و في هذه المرحلة أنهى ابن الجوزي تفسيره للقرآن الكريم¹ وذلك سنة 570 هـ / 1171 م و شرع في تأليف أجل كتبه وهو المنتظم والذي فرغ من تأليفه سنة 571 هـ / 1178 م و هذه السنة آخر ما دونه ابن الجوزي في منتظمه . حملته على المبتدعة و الرافضة : خاض ابن الجوزي صراعا مريرا مع أهل البدع و الروافض منذ اعتلائه منبر الدعوة و الوعظ إلا أنه في عام 571 هـ / 1175 م تمكن من الحصول على إذن من الخليفة المستنصر² و الذي بمقتضاه استطاع أن يضيق الخناق عليهم و يهددهم بالسجن فانكفوا عن ذلك . و بقي ابن الجوزي يؤدي رسالته العلمية و الدعوية حتى وفاة الخليفة المستنصر و بداية عهد الناصر فتغيرت الأحوال مرة أخرى . و في هذه المرحلة قام ابن الجوزي بتزويج ابنته رابعة من ابن رشيد الطبري ، و زفت في حفل عظيم ، كما تزوج ابنته أبو القاسم دائنة الوزير ابن هبيرة³ . و في سنة 572 هـ / 1176 م زفت ابنته رابعة - بعد وفاة زوجها الأول - إلى مملوك للوزير ابن هبيرة⁴ فأنجبت منه سبط ابن الجوزي ، و الذي كان أشبه الناس بجده ابن الجوزي⁵ . **محنة ابن الجوزي :** في عام 570 هـ / 1193 م و بعد أن تولى ابن القصاب الشيعي الوزارة للخليفة الناصر و بايعاز من الخصوم - خاصة عبد السلام الجيني - نفى ابن الجوزي إلى واسط حيث مكث بها خمس سنوات و حثا لا يروى أحد . **عودته إلى بغداد :** في سنة 595 هـ / 1198 م فرج عن الشيخ الجليل فعاد إلى بغداد بعد أن توسطت له أم الخليفة الناصر ، ففرح به أهل بغداد و استقبلوه بحفاوة بالغة ، و نودي له للوعظ يوم السبت من ذلك الأسبوع و حضر المكان بالناس . **وفاة ابن الجوزي⁶ :** في يوم السبت ، السابع من شهر رمضان لسنة 597 هـ / 1200 م جلس

1 - المنتظم : 213 / 18 .

2 - المصدر السابق : 222 / 18 .

3 - نفس المصدر : 219 / 18 .

4 - المصدر نفسه : 226 / 18 .

5 - انظر ترجمته في مبعث شيوخ ابن الجوزي و تلاميذه و الفصل الثاني من هذا الباب .

6 - انظر الذيل على ملقات الحنابلة : ابن رجب ، 1 / 128 .

ابن الجوزي للوعظ للمرة الأخيرة ، و كان ذلك تحت تربة أم الخليفة ، و أثناء وعظه كأنه أحس بدنس و أجله فأنشد أبياتا قطع بها المجلس ثم عاد إلى البيت ، و توفي بعد ذلك بخمسة أيام .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني

مؤلفات ابن الجوزي

يعد ابن الجوزي من أكبر المؤلفين المكثرين من المصنفات ، حتى زعموا أن مؤلفاته قسمت على أيام حياته فخص كل يوم تسعة كراريس¹ .
وقد اتفق المؤرخون و المترجمون له على أنه كان كثير الكتابة فعلا طويل الباع في العلوم المختلفة من تفسير و حديث و فقه و تاريخ و أدب و لغة و طب إلا أن الخلاف وقع بينهم في عدد المصنفات حيث أن الرجل ألف المئات من الكتب منها المطبوع ومنها الخطوط ومنها المفقود و قد سئل في أحد المرات عن عدد مصنفاته فذكر بأنها تزيد عن ثلاثمائة وأربعين مصنفا فيها ما يبلغ حجمه عشرون مجلدا² .

لقد كان ابن الجوزي لا يضيع من زمانه شيئا يكتب في اليوم أربعة كراريس و ترتفع له كل سنة ما بين خمسين مجلد إلى ستين وله في كل عام مشاركة ، و قد صنف في مختلف العلوم تصانيف حسنة لاقت القبول والاستحسان لدى العلماء³ . و قد أثر عنه أنه أوصى بجمع براية أقلامه ليسخن بها ماء غسله بعد موته فكفت و زيادة⁴ .

و يرى بعض الباحثين أنه لا غرابة في كثرة مؤلفات ابن الجوزي و ذلك أن الرجل قضى حياته كلها في التأليف و التدريس و الوعظ⁵ ، أضف إلى ذلك أنه بدأ التصنيف فسي سن مبكرة حيث كان له من العمر نحو ثلاث عشرة سنة⁶ .

و لعل من بين الأسباب التي دفعت العلماء إلى الاختلاف في عدد مصنفاته أنهم كانوا يعدّون الأجزاء من الكتاب الواحد كتبا متعددة ، أو يعتبرون الكتاب الواحد كتابين أو أكثر بل و يسمّون الكتاب الصغير المكوّن من عشر ورقات مجلدا⁷ .
و لقد تعرضت مؤلفات ابن الجوزي للضياع نتيجة لعوامل عديدة أهمها ثلاثة :

- 1 - وفات الأعدان : (ابن خلكان) ، 6 / 111 ولكر ابن خلكان : قال بأن هذا مجال ولا يكاد يفعله عقل ورأيه صحيح إلى حد ما .
- 2 - الذيل على طبقات الخنابلة : ابن رجب ، 1 / 115 .
- 3 - المصدر السابق : 1 / 114 .
- 4 - وفات الأعدان : ابن خلكان ، 3 / 141 .
- 5 - الضعفاء والمتروكين : ابن الجوزي ، عبد القادر عطا محمد سليمان ، مخطوطة رسالة دكتوراه ، كلية أصول الدين جامعة الأزهر ص 18 - الباقية في الوعظ : ابن الجوزي ، تحقيق أحمد عبد التواب عزمي ، دار الفضيلة للنشر والتوزيع القاهرة دت ص 22 .
- 6 - الذيل على طبقات الخنابلة : 1 / 116 .
- 7 - كما جاء ذلك في ذيل طبقات الخنابلة : 1 / 117 .

- 1 - تعرض بغداد للغرق بسبب الأمطار و الفيضانات وذلك سنة ١٩٤١ هـ و أدى ذلك إلى غرق كتبه و مما قاله في ذلك : " و غرقت كتبى فسلم لي مجد فيه ورقتان بخط الإمام أحمد " ¹ .
- 2 - تعرض ابن الجوزي لمحنة الاعتقال في اخر حياته ، فأحرقت بعض كتبه في تلك الفترة كما أن ابنه أبا القاسم غل بعض كتبه أثناء غيابه وباعها بثمن المداد ² .
- 3 - دخول التتار إلى بغداد و ما أحدثوه في المدينة من خراب و دمار حيث أعمالوا في رقاب أهلها السيف و أحرقوا مكنتاتها و كان مما ضاع في هذه الحوادث المؤلمة جزء من كتب ابن الجوزي ، و رغم ذلك فقد حفلت كتب التراجم بذكر أسماء مؤلفات ابن الجوزي و التي سنعطى تلخيصا عن كل كتاب تحصانا عليه سواء كان مطبوعا أو مخطوطا و نذكر أسماء الكتب الأخرى على سبيل الإشارة .

1 - الكتب المطبوعة :

الوعظ والدعوة و التربية :

1 - اللآلئ ³ :

الكتاب يقع في ثمانية وثمانين صفحة ، يحتوي على جملة من المواعظ من جيد ما خلف ابن الجوزي في فن الوعظ ، كما تمثل نموذجا لفن الوعظ الإسلامي ، و قد غلب على الكتاب السجع الوعظي ، و هو سجع مواعظ لزمانه ملائم لموضوعه ليس متكلفا في عمومه بل هو نابغ عن قدرة بياضية فذة .

و يتضمن الكتاب خطبا بدأتها مرتبة على الحروف الهجائية من الألف إلى الياء قلل المؤلف في مقدمة مصنفه : " هذه خطب أنشأتها منتقاة مما كنت أرتجله و تكتب عنى في مجالس و عظى على آيات تقرأ بين يدي في الحال جمعتها من الملتقطين لها و ألفتها على حروف المعجم " ⁴ .

ومما قاله في كتابه هذا مقترحا بوعظه ⁵ : " كلامي للأمراض يشفي وللأعداء يشقي فمن أعجبه عرفني فليثرد ، ما يربح حسادي فإني في الوادي الذي لا أزرع أحصد " ⁶

2 - المواعظ و المجالس :

¹ - الآداب الشرعية والنح المرعبة : ابن مفتح الحنبلي ، 2 / 10 .

² - انظر بحث منته ووفاته من الفصل السابق .

³ - اللآلئ : ابن الجوزي ، نفس هلال ناصي ، دار الغرب الإسلامي ، ط 1 ، 1994 م .

⁴ - المصدر السابق : ص 25 .

⁵ - نفس المصدر : ص 45 .

يقع الكتاب في 237 صفحة من الحجم المتوسط ، دراسة و تحقيق و تعليق مجدي محمد الشهاوي ، توزيع مكتبة الايمان للنشر و التوزيع المنصورة أمام جامعة الأزهر .
و هو بمثابة درة ثمينة في مجال الوعظ و التربية و الأخلاق كالكثير من مؤلفات ابن الجوزي - رحمه الله - يتكون من ثلاثة و ثلاثين فصلا أغلبها في الإصلاح و التوجيه و التربية تحدث ابن الجوزي في بعضها عن عدد تضييع الوقت و محاسبة النفس و تربيتها و معاتبها و الاهتمام بالأخرة و العمل لها و الاعتناظ بالموت و الاعتبار و عدد تضييع العمر ، و الكتاب عموما يتميز بأنا دعوة و تربية و توجيه للعوام منبوعه كتاب الله و سنة رسوله و سيرة السلف الصالح .

3 - تحفة الواعظ ونزهة الملاحظ :

هذا الكتاب من أبرز ما ترك ابن الجوزي في مجال الدعوة و الوعظ ، حيث أصبح هذا الفن فنا مستقلا على يد ابن الجوزي له ملامح و سمات في الأسلوب و التعبير و الصياغة و التصوير و رغم أن " تحفة الواعظ " كتاب خالص في الوعظ إلا أن فيه مادة أدبية دسمة يجسدها الشعر الوعظي الذي استشهد به المصنف في فصول الكتاب و هذا الشعر الذي تدور معانيه حول الزهد و التأمل و الاعتناظ لا وجود لأكثره في المجموعات الشعرية المطبوعة ، و لا في دواوين الشعراء المعروفة كما أكد ذلك بعض الباحثين¹ .
و من هنا تبرز لنا أهم ميزة لهذا الكتاب وهي كونه يشكل بأشعاره إضافة قيمة لشعر الزهد في الأدب الإسلامي وإذا كان السجع الوعظي قد غلب على فصول الكتاب فهو سجع ملائم لذلك العصر . و الكتاب في مجمله يمثل نموذجا رفيعا لفن الوعظ في القرن السادس الهجري و هو يصلح في مجمله الدعوة العامة .

4 - ذم الهوى :

الكتاب عبارة عن مجلد يتكون من خمسمائة صفحة ، تحدث ابن الجوزي عن سبب تأليفه لهذا الكتاب فقال : " شكنا إلى بعض من أثرت شكواه إثارة هممتي في جمع هذا الكتاب من بلاء ابغى به ، و هوى هوى فيه ، و سألني المبالغة في وصف دواء دانه ، فأهديت له نصيحة و ديد لأدواته ، و قد أتيت بها على أبلغ ترتيب ، و ما توفيقى إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب... ثم يقول له : " فأما إن كنت تمضي في تخليطك و لا تصبر على مضض

¹ - لجنة الراعظ ونزهة الملاحظ : ابن الجوزي ، تحقيق هلال ناجي ، مجلة المورد ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، م 3 ، ع 3

ما يوصف لك ، فإنك تتعبنى وتتعب ... إلى أن يقول له : " فليكن هذا الكتاب سميرك و استعمال ما امرك به فيه شغلك والله ولى صلاحك فإنه لاعاصم إلا من رحم ¹ ".
 وقد ضمنه المؤلف خمسين بابا تحدث فيه عن العقل و فضله ، و ذم الهوى و الشهوات و مجاهدة النفس ، و مدح الصبر و الحث عليه ، و الحديث عن القلب و شواغله ، ثم الكلام عن الفواحش و التوبة منها ، كما تحدث عن النكاح و العشق ، ثم أنهى المؤلف الكتاب بمجموعة من المواعظ والزواجر . و الكتاب فيه لمحات في الدعوة و الإصلاح و التربية كحديثه عن العقل و النفس و كيفية دفع الهوى ، و انحطاط من يوافق هواه . كما تحدث عن مجاهدة النفس و كيفية معالجة المعاصي و الكتاب الغرض منه - كما أشار المؤلف في المقدمة - إصلاح الفرد و دفعه ذلابتعاد عن الهوى ، و بالرغم من أنه يتناول موضوعا رئيسيا إلا أنه ملئ بالروايات و القصص المعبرة دعم بها المؤلف كتابه زيادة في الترهيب من الفواحش و المنكرات ، و الكتاب نشر بتحقيق أحمد عبد السلام عطا و نشرته دار الكتب العلمية ببيروت .

5 - التذكرة في الوعظ :

لما كان من أدب بعض علماء هذه الأمة أن لا يكفنى بالأثر الوقتي للوعظ فقد سجل ابن الجوزي و عظه و مجالسه في كتاب ليفيد منها من يأتي بعده من هذه الأمة .
 و هذا الكتاب أفرده مؤلفه ، سرده سردا جميلا يرفق فيه القلوب و يلينها بذكر الله و يدفعها إلى فعل ما ينفعها في آخرتها ، و قد سماه بالتذكرة في الوعظ يذكر فيه قارئه بالفضائل و ثوابها و ما أعد لفاعلها من رياض و جنات .
 و الكتاب حافل بالمأثورات التي تركها لنا السلف الصالح من كلامهم الطيب ، شعره ونثره . و هو في الجملة عبارة عن مجالس و عظ سهلة الأسلوب شيقة المعنى تعبر بوضوح عن قدرة ابن الجوزي الأدبية و براعته في مجال الوعظ .
 و الكتاب موجه لدعوة العوام على الخصوص ، ملأه ابن الجوزي بالكثير من التوجيهات التربوية من أجل إصلاح المجتمع بمختلف طبقاته ، كما تحدث فيه عن فضل العلم والعلماء و عن قيمة الوقت و عن الدنيا و غرورها و كيفية التخلص منها ، بأسلوب أدبي رفيع و يحتوي على أربعة و عشرين مجلسا ختمها المؤلف بمواعظ .

¹ - ذم الهوى : ابن الجوزي ، مسجحه وخطبه : أحمد عبد السلام عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1413 .

6 - لفظة الكبد :

عبارة عن مؤلف صغير الحجم لا يتعدى بضعة صفحات¹، و لكنه عظيم الفائدة و النفع نصح به ابن الجوزي ابنه أبا القاسم²، حثه فيه على التقوى و حفظ الأوقات، كما حثه على الانتباه بعد الغفلة ثم أوصاه بمنهج تربوي فريد في اليوم و الليلة . و أوصاه بطلب العلم و العفة عما في أيدي الناس، و بين له أن العلم و العمل متلازمان، كما أرشده إلى تصانيفه المفيدة في شتى علوم الشرع من تفسير و حديث و وعظ تغنيه عما ألفه الغير و الكتاب يتميز عن غيره من مؤلفات ابن الجوزي فهو الوحيد في بابيه ضمن مصنفات الإمام .

و هذا الكتاب نفسه نشر باسم " رسالة إلى ولدي " رسالة في الحث على طلب العلم والحركة على سلوك طريقه في كسب العلم وأدلتها³ .

7- صبا نجد :

الكتاب يحتوي في مجمله على مواعظ و رقائق و أشعار في الزهد، بين فيه ابن الجوزي بعض ملامح منهجه في الوعظ، كما أشار إلى بعض صفات الدعاة و أهمية التوبة في مستقبل العمر و بين أن الموعظة تؤثر بقدر تقبل الإنسان و استعداده لها و نجد ابن الجوزي يتعجب في مصنفه هذا من حسن مواعظه لكنه يرى أن الإقبال عليها ضعيف في نظره⁴، ثم يتحدث عن أثر الدعوة و الموعظة في المدعوين .

و الكتاب مليء بأشعار الزهد و الرقائق و النداءات و الصيحات للعصاة حتى يعودوا إلى الطريق المستقيم، إلا أنه مختصر و مادته العلمية و الوعظية تفوق مستوى جمهور العوام، و هو من الحجم المتوسط، يحتوي على مائة و أربع و أربعين صفحة نشرته دار الصحابة للتراث بمصر بتحقيق أم عبد الرحمن بنت حامد عاشور .

8 - رؤوس القوارير :

¹ - أمانة الكبد إلى صاحبة الولد : ابن الجوزي، تحقيق أبو العزائم أشرف بن عبد المنصور بن عبد الرحيم، نشر دار الشهاب، بانه، الجزائر، سنة 1990، كما نشرت الرسالة دار التكنمة بمصر بتحقيق الشعبة الطحان وقد سبق ذكرها في المباحث السابقة من الرسالة .

² - سبق التعرف به في مسحت حياه ابن الجوزي الأسرية و أفضل الناس .

³ - سبق ذكر الكتاب في مباحث سابقة من الرسالة .

⁴ - مباحث في المواعظ و الرقائق و أشعار الزهد : ابن الجوزي، تحقيق أم عبد الرحمن بنت حامد عاشور، دار الصحابة للتراث، مصر، ط 1 1991 م، ص 98 .

حوى هذا الكتاب بين دفتيه نماذج من المواعظ و الخطب ، تدل في مجملها على فصاحة ابن الجوزي وحسن بيانه على مدار الكتاب كله . و تناول الكتاب الحديث عن العلوم النقلية المختلفة ، فتكلم المؤلف عن اللغة و علم الحديث و عن التاريخ و الجغرافيا و الفقه و التفسير و العقيدة و عن الخطب و الطرف و الفكاهات و العجائب الكونية ، كما ضمنه الحديث عن قصص الأنبياء و السابقين و نتفنا من سيرة الرسول عليه الصلاة و السلام و ختم الكتاب بعدة مواعظ رقيقة غاية في الجمال و الدقة و الإقناع ، اعتمد فيها المؤلف على القصص و الآيات الكونية داعيا العصاة للتوبة قبل فوات الأوان مبينا عاقبة المخالفة و العصيان . و المصنف كتاب و عظ و دعوة حسن الأسلوب و العبارة يصل تأثيره إلى القلب قبل الأذن و هو يتفق مع الكتاب السابق في مستوى مادته العلمية مع اختلافه عنه في كثير من المضامين . و هو يتألف من مائة و ثلاث و ستين صفحة نشرته دار الصحابة للتراث بطنطا بمصر سنة 1990 م بإشراف محمد نبيل سنبل .

9 - الحث على حفظ العلم و ذكر كبار الحفاظ :

الكتاب من الحجم الصغير قال المؤلف في سبب تأليفه¹ و لقد تأملت المتفقه أنهم يعيدون الدرس مرتين أو ثلاثا فاذا مر على أحدهم يومان نسي ذلك ، فذهب زمان الأول يانعا و يحتاج أن يبتدىء الحفظ لما تعب فيه أولا ، و السبب أنه لم يحكمه ، و لما رأيت الكسل مستوليا على المتشاكسين بالعلم ، و ضعت هذا الكتاب محرضا لهم على الاجتهاد و مؤخلا على الكسل " و الكتاب يحتوي على سبعة أبواب كلها تدور حول العلم و طريقة الحفظ و أشهر الحفاظ من الصحابة و العلماء و الكتاب و تحدث المؤلف كذلك عن عدم تضييع العمر في حفظ علم واحد لأن العلم عزيز و العمر عزيز ، و الكتاب ليس كتابا خاصا في الوعظ لكن المؤلف يشير من خلاله إلى أهمية القدوة في الدعوة عموما و طلب العلم خصوصا حيث يقول بأن ما ذكره هو " حث للمجتهد و توبيخ للمتكاسل " ² .

10 - اللطائف :

يعتبر هذا الكتاب من أجود ما ألف ابن الجوزي في ميدان الإصلاح و التربية و تزكية نفس الإنسان و توجيبه نحو الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر .

¹ الحث على حفظ العلم و ذكر كبار الحفاظ : ابن الجوزي ، تحقيق فؤاد عبد المنعم ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية 2 ط 1412 هـ 1993 م ص 32 .
المصدر السابق : ص 51 .

و الناظر في هذا الكتاب يجد نفسه أمام عالم متبحر في خفايا النفس وشؤونها يدخل إلى أعماق النفس البشرية فيستخرج خباياها ، و لا يكتفى ابن الجوزي بالعرض و الشرح بل يضع الأسلوب الناجع للتخلص من أمراضها و يشرح الطريقة المثلى للتخلص من شرورها. و يبين المنهج الكامل الذي يجب أن تسير عليه النفس لتتأهل التربية الإيمانية الحقّة ، و نراه يتركز على بعض القصص و الأشخاص و يعيدها بأشكال مختلفة مستنبطاً منها النتائج المدهشة من كل قصة ، و مما قاله متحدثاً عن كتابه هذا : " هذا الكتاب رفقت عبارته و دقت إشارته نثرته عند الإملاء نثراً من فنون فيو نصيب أكف لا تلتقط الدون جعلته طرازاً على ثوب الوعظ و عطا لختم اللفظ يعمل في القلب قبل السمع و إلى الله الرغبة في النفع " ¹.

و قد اشتمل الكتاب على اثنين و خمسين فصلاً كلها تدور حول إصلاح النفس ، و ذم الدنيا و عدم الغفلة و طلب العلم و القناعة ، و حسن استغلال العلم و عدم تضييع الوقت. و الدعوة إلى الحزم مع التفكير في الرحيل و قد نهج المؤلف في كتابه هذا منهج الإشارة في بعض نصوصه .

و الكتاب يقع في مائة و سبعين صفحة من الحجم العادي نشر مكتبة دار المحبة ، دمشق .

11 - القصص والمذكرين :

الكتاب من أكثر الكتب أصالة التي ألفها ابن الجوزي لأنه تحدث عن موضوع كلن يعانيه ويحياه ، و كان هذا الكتاب دفاعاً عن القصص السليم و هجوماً على الدجالين و نصحا للدعاة بالتزام بعض القواعد الأساسية في الدعوة إلى الله ².

و في الكتاب مجموعة من أقوال القصاص تعد بحق من جوامع الكلم و روائع البيان، و قد ذكر المؤلف في كتابه عدداً كبيراً من الدعاة إلى الله و المرابين و العديد من أقوالهم النيرة ، و فيه أيضاً حديث عن أشهر المذكرين في عهد الصحابة و التابعين ، كما تحدث عن صفات القصاص و حذر من فريق منهم . و هو في مجمله نافع في توجيه الناس و إرشادهم و إصلاح المجتمع ، و ذلك عن طريق الإرشاد و الوعظ و الإصلاح و التربية .

و في الكتاب تفريق بين نوعين من القصاص و الدعاة فهناك الصالحون - و إن كانوا قلة - و السيئون ليسوا على درجة واحدة في السوء ، كما انتقد الكاتب المخرفين منهم الذين يأتون بالغث و السمين في مواعظهم ، و أرشد القصاص إلى الكيفية الناجحة للوعظ

¹ - اللطائف : ص 21 .

² سبق ذكر الكتاب في المباحث السابقة النظر مقدمه تحقيق .

و الدعوة و التربية ، و الكتاب بفهارسه أربعمائة و ثمانية عشر صفحة ، قسمه المؤلف على اثني عشر بابا ، يعد معينا لا ينضب لحملة لواء الدعوة و التربية على مر العصور .

12 - التبصرة ¹ :

كتاب من أجمع ما تركه ابن الجوزي في الدعوة ، و علم الوعظ الذي اشتهر به و لهذا أراد صاحبه أن يجعله مرجعا في هذا العلم يغني عن النظر فيما سواه ، جمع فيه مواد كثيرة من الثقافة الإسلامية و نظمها في تسلسل محكم .

و الكتاب - كما يقول محققه - يمثل تطور صناعة الوعظ كفن مستقل له خصائصه الأسلوبية و ملامحه البديعية ، و لكن لا يمكن اعتباره كتابا خالصا في الوعظ مثل بعض الكتب التي سبق ذكرها ، رغم ما فيه من هذه المادة ، بل فيه مواد كثيرة من الثقافة العربية الإسلامية بالإضافة إلى غايته التربوية الإصلاحية و الخلقية ، ففيه مادة كثيرة من التفسير و القراءات ، وفيه المادة اللغوية و البيان و الشعر كوسيلة للتأثير و الإيحاء ، و مادة الوعظ في الكتاب غزيرة و مسجوعة في الغالب . و قد حاول ابن الجوزي التزام الصحة فيما يذكره من روايات و أخبار رغم وجود بعض الأحاديث الموضوعية .

و الكتاب - كما قال مؤلفه - جعله في تسع طبقات ، غير أنني وجدته ينتهي عند الطبقة الرابعة التي تشتمل على فضل العلم ، و المعاملات ، و الطبقات التي بعدها غير موجودة - و هي مهمة جدا في موضوع رسالتنا هذه لو وجدت و تشمل المواد التالية :

ذكر ذم المعاصي و المكروهات ، ذكر الموت و القبر و القيامة و النار و الجنات ، و وعظ أرباب الولايات ، و التعازي عن الأموات ، و مواعظ و مختصرات .

و الكتاب يقع في جزأين و العجيب أن المحقق لم يشر إلى نقص الكتاب الذي لو كان مكتملا لأفاد إفادة عظيمة .

13 - الطب الروحاني :

كتاب صغير الحجم عظيم المنفعة يقع في ثلاثين بابا تحدث المؤلف في مقدمته عن سبب تأليفه : " فقال لما جمعت كتابا في طب الأبدان وسميته " لقط المنافع " أثرت أن أشفعه بكتاب في طب النفوس أسميته " الطب الروحاني " فان طب الأبدان إصلاح الأبدان و طب النفوس إصلاح المعاني و هي أشرف و إلى الله - سبحانه - الرغبة

¹ للمزيد انظر التبصرة : ابن الجوزي ، لعنق مصطفى عبد الواحد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1413 .

في النفع العاجل و الأجر الأجل¹ ، و قد تضمن الكتاب الحديث عن العقل و الهوى و العشق و الشره و دفع البخل و النهي عن التبذير و مقدار الأنفاق ، و ذم الكذب و دفع الحسد و الحقد و الغضب والكبر و علاج العجب و الرياء ، و دفع فضول الفكر و علاج الحزن و الخوف و الحذر من الموت و كيفية معايشة الناس و مداراتهم. و الكتاب غاية في السهولة و الوضوح ، مع بعد نظرة صاحبه و علو باعه في مجال الدعوة و التربية .

14 - تلبيس إبليس :

هذا الكتاب من أوائل الكتب التي برزت فيها شخصية ابن الجوزي بجلاء ، و هو أكثر مؤلفاته شهرة و أعظمها نفعا ، وضعه ابن الجوزي ليحذر من مكائد إبليس و فتنه و ذلك لأنه في تعريف البشر تحذير من الوقوع فيه ، و قد جعله المؤلف في ثلاثة عشر بابا و مما جاء فيه : الأمر يلزوم السنة و الجماعة ، ذم البدع و المبتدعة ، ثم ذكر المؤلف تلبيس إبليس على العديد من أصناف البشر من سلاطين و عبك و صوفية و علماء و عوام و على العموم هو كتاب نقد و إصلاح للمجتمع بمختلف طبقاته بل إنه يمثل قمة الفكر الإصلاحية عند ابن الجوزي .

و المدقق فيه يلاحظ أن مؤلفه أوتي القدرة على التحليل و التأويل و رجاحة العقل و قوة المنطق² يقع الكتاب في 100 صفحة، و له اسم آخر وهو " كتاب نقد العلم و العلماء " . و هو من أحسن ما ألف في بابيه و أكثر كتب ابن الجوزي جرأة في المنهج و الأسلوب ، و قد أحدث ضجة بين العلماء في عصره و بعد عصره³ ، فمنهم من ناصر المؤلف و أيده فيما ذهب إليه من آراء و أفكار و منهم من هاجم المؤلف و ردّ عليه .

15 - بحر الدموع :

الكتاب عبارة عن مقدمة و اثنين و ثلاثين فصلا ، تحدث فيه المؤلف عن قدرة الله و الحذر من اقتراف الذنوب و المسارعة إلى التوبة ، و دعا إلى الابتاه من الغفلة و بيّن عاقبة التسويف و الإصرار على الخطايا مثل الغيبة و النميمة و غيرها ، و عاقبة حب الدنيا مع قلة الزاد و بعد السفر ، و بيّن أن العمر أمانة يجب المحافظة عليه ، و أن الشيب نذير باقتراب الأجل و تحدث أيضا عن حسن الظن بالله .

¹ - الطب الروحاني : ابن الجوزي ، ص 7 .

² - بستان الواعظين ورياض السامعين : ابن الجوزي ، راجعه و قدم له السيد الجملي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 1 ، 1984 .

ص 16 .

³ انظر مبحث تأثير ابن الجوزي في العلماء والدعاة في المستقبل الأخير من الرسالة

و الكتاب اسم على مسمى أكثر فيه ابن الجوزي من الحديث عن البكاء و البكائين مع إيراده العديد من الغرائب و الحكايات العجبية و هو مما ألفه ابن الجوزي في دعوة العوام و الكتاب نشر بتحقيق دار الصحابة بطنطا سنة 1992 م .

16 - روح الأرواح¹ :

كتاب كله و عظم و رفائق ذكر فيه المؤلف حكايات و قصص عن أشهر الزهاد و المتصوفة من السلف و الخلف ، كما ضمنه العديد من أشعار الزهد . و كلام ابن الجوزي في هذا المصنف فيه تعبير عن شفافية الروح و صفاء النفس و مدى ارتباطها بغيرها يحتوي الكتاب على ثمانية عشر فصل كلها في الوعظ و التربية ولكنه يغلب عليها العمق إلى حد الغموض في بعض الأحيان ، و هذا يدل على ثقافة ابن الجوزي الدعوية و غزارة حصيلته العلمية و الكتاب يقع في 100 صفحة طبع بدار القلم ، الهرم ، مصر للتراث .

17 - أخبار الحمقى والمغفلين :

هذا الكتاب ، كتاب جديد من تراثنا القيم يأخذ مكانه بين الكتب القديمة التي تركها السلف الصالح التاريخية و الدينية ، و الكتاب يعتبر مرجعا حسنا في موضوعه ، لا سيما فلن المؤلف - رحمه الله - قد جمع فيه أطرف ما قالت العرب بمختلف طبقاتهم العلمية و الاجتماعية من ملح و فكاهات في البواني و المدن ، و في قصور الخلفاء و الأمراء و في المدارس و المساجد و الأسواق و غيرها .

فالكتاب يعتبر الأول من نوعه في موضوعه في تاريخ المكتبة العربية منذ صدر الإسلام حتى مطلع المائة السابعة للهجرة ؛ كما تبدو على الكتاب مسحة تربوية عن طريق ما أورده المؤلف من أخبار .

و الكتاب يتكون من أربعة و عشرين بابا تحدث فيها عن معنى الحماسة ، و نكرو أصنافا من الحمقى و المغفلين ؛ من القراء و المحدثين و القضاة و الأمراء و الكتاب و المؤذنين و القصاص و المتزهدين و المعلمين و غيرهم .

يقع الكتاب في مائة و ثمانية و تسعين صفحة ، من الحجم المتوسط نشر بتحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة بيروت سنة 1408 هـ / 1988 م .

18 - صيد الخاطر :

تحدث ابن الجوزي في هذا الكتاب عن العديد من المواضيع الاجتماعية و التربوية

سبق ذكره في الهوامش السابقة .

التوجيهية و النقدية الإصلاحية ، فتحدث فيه عن العلم و أقسامه و منافعه و مضار الجهل
وعن العلماء و طلب العلم و أوقات المطالعة ، و الزهد و الزهاد و الصوفية و بدع هؤلاء
و أولئك ، و تحدث عن العقل و العقلاء ، و عن سياسة النفس و عن قيمة الوقت و تقسيم
الأزاق ، و عن العزلة و الاختلاط بالناس و الترويج عن النفوس ، و تعليم الصبيان
و التحذير من بعض العلوم و منها علم الكلام الذي أفسد العامة .

كما تحدث فيه — رحمه الله — عن اختيار الأصحاب و أقسام النساء ، بالإضافة إلى
الحديث عن بعض الفصول من حياته و علو همته و محاسبته لنفسه إلى غير ذلك من
المواضيع .

و الكتاب تربوي توجيهي من الدرجة الأولى تظهر فيه براعة الرجل كمرابي و موجه للفرد
و المجتمع مع ما يمتاز به من سلامة العبارة و سلامة الفكرة و فصاحة الأسلوب .
و هو جيد رغم ما فيه من بعض الأحكام التي تميل إلى القسوة أحيانا على بعض العلماء
الأفاضل كابن عبد البر و الجويني و الغزالي و غيرهم غفر الله لهما و لهم .

و قد طبع الكتاب عشرات المرات و هو من أشهر مؤلفات ابن الجوزي و أكثرها
رواجا بين الباحثين ، و هو مجلد يحتوي على أربع مائة و خمس و تسعين صفحة .
19 — بستان الواعظين ورياض السامعين :

تناول المؤلف في هذا الكتاب مسائل في غاية الأهمية في الوعظ و الإرشاد و الترغيب
في الجنة و الترهيب من النار ، و حدث الناس على العمل الصالح و البعد عن المنكرات
و توقع الموت في كل لحظة و الاستعداد له ، و الكتاب مقسم إلى سبعة عشر مجلس تتضمن
التفسير و الوعظ، و هو في جملته سهل الأسلوب سخي المادة الوعظية و الأدبية مع ما فيه
من قصص غريبة ، و قد صدقه ابن الجوزي لدعوة العوام و تربيتهم و يتألف من 359
صفحة و نشر عدة مرات .

20 — الثبات عند الممات :

يشتمل الكتاب على خمسة أبواب تحدث فيه المؤلف عن المصائب و المحن و أعظمها
الموت ثم ذكر أخبار من ثبت عند الموت و لم يجزع .

و الكتاب مفيد في بابه و هو يقع في 200 صفحات من الحجم المتوسط نشرته مؤسسة الكتاب
الثقافية ببירות سنة 1980 م كما نشر بتحقيق عبد اللطيف عاشور عن مكتبة القرآن بالقاهرة .

21 — تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر :

الكتاب من مصنفات ابن الجوزي التربوية التي تعنى بمراحل العمر المختلفة ، و ما يجب أن يتحلى به المرء من أخلاق في مواسم حياته لينال سعادة الدنيا و الآخرة .
و قد جعل المؤلف كتابه في خمسة فصول حسب مواسم عمر الإنسان ، و فصول الكتاب تحمل خبرته الطويلة في مجال الدعوة و الوعظ و الإرشاد ، و الكتاب يقع في 140 صفحة من الحجم العادي نشر بتحقيق عرفة حلمي عباس بدار الحديث بالقاهرة سنة 1002 م .
22 - كتاب الحقائق في علم الحديث و الزهديات :

جمع فيه ابن الجوزي العديد من المواضيع في الوعظ و الحديث و الفقه و العقيدة و الأخلاق و السير و الزهد ، و الكتاب في الجملة موسوعة فقهية أخلاقية و عظيمة ، نافع لطلبة العلم كما يمكن استعماله في دعوة العوام و تعاليمهم ، و الكتاب يقع في ثلاثة أجزاء نشرت في دار الكتب العلمية ببيروت بتحقيق مصطفى السبكي .
23 - اليواقيت الجوزية :

جاء فيه ابن الجوزي بخطب و مواعظ في مواضيع مختلفة ، رتبها على حروف المعجم و لعل الهدف منه إبراز مقدراته الأدبية إضافة إلى الوعظ و الإرشاد .
و الكتاب نشر ضمن سلسلة مجموعة رسائل ابن الجوزي عن دار ابن الجوزي للنشر بالسعودية بتحقيق وليد حسن و هلال ناجي ، كما طبع الكتاب بمكتبة السنة سنة 1988 م بتحقيق السيد عبد المقصود .
24 - ملقط الحكايات ¹ :

و يتضمن ست وخمسون حكاية ، فيها عبر و مواعظ و فوائد في مواجهة المحن و المصائب مما وقع للصالحين ، و في هذه الحكايات شيء من المخالفات الشرعية و المبالغات ، كما في الحكاية الرابعة عشر و السابعة عشر و الأربعين و غيرها و إن كانت لا تخلو من فائدة و عبرة فيروي في الحكاية الرابعة عشر أن رابعة العدوية كانت تصلي في كل يوم ستمائة ركعة أو مائة هذا موجود في كثير من مصنفات ابن الجوزي و آيته - رحمه الله - ذكر مصادر هذه الحكايات أو نسبها إلى قائلها .
25 - عجيب الخطب :

¹ هذا الكتاب صغير الحجم لا يصل إلى مائة صفحة ولكن ابن رجب في الذيل على الطبقات يقول أنه ثلاثة عشر جزءاً ، وهذا خاطئ حسب المعنى كيف ينقل ابن رجب كلام مثل هذا دون فهمه .

² - مجموعة رسائل ابن الجوزي : ابن الجوزي ، نشر دار ابن الجوزي ، تحقيق وليد حسن و هلال ناجي ، المكتبة العربية

السعودية ، ص 264 .

يتألف الكتاب من حوالي أربعين صفحة كلها خطب وعظية ، قال ابن الجوزي في سبب تأليفها : " لما تفاوضت أنا و بعض الأصدقاء عن حروف الهجاء فادعى أنه لا يصح الكلام إلا بها ، فانتهضت القوة إلى إنشاء خطب حذفتم من كل خطبة منها حرفاً من حروف الهجاء و ختمتها بخطبة ليس فيها نقطة ، فصارت ثلاثون خطبة و قد سميتها بعجيب الخطب " 1 .

26 - كتاب البر و الصلة :

الكتاب أغلب ما فيه من السنة و الحديث و لكن موضوعه عن البر و صلة الرحم قسمه المؤلف إلى أربعة و خمسين باباً ، ذكر فيه صلة الرحم و عقوق الوالدين و كفالة اليتيم . و الكتاب حققه عادل عبد المقصود و على معوض و نشرته مكتبة السنة بالقاهرة سنة 1003 م و يقع في اثنتين و تسعين صفحة .

27 - المدهش :

الكتاب أغلبه مواعظ و توجيهات تربوية و رقائق ذات معاني سامية مذكر فيه المؤلف الكثير من القصص و عبود التاريخ و علوم القرآن و الحديث و عن سبب تأليفه يقول : " فإني قمت بحمد الله في علم الوعظ بأصحه و أمله ، و أثرت أن أنتقي في هذا الكتاب من ملحه و الله الموفق " 2 ، و الكتاب يقع في خمسائة و تسع و ستين صفحة .

28 - مواعظ ابن الجوزي المسمى " الياقوتة " :

قال المصنف في مقدمة هذا الكتاب " هذه فصول من المواعظ كالأنموذج للواعظ ينسج على منوالها " فقد جعله المؤلف الدعاة و المذكورين أرسلعينا به ، و ينسجوا على منواله تحدث فيه ابن الجوزي عن الكثير من الأضاياء العظيمة الدعوية ، كترهيب النفس و الندم على الذنوب و ذكر الموت و المسارعة إلى الجنة و التحذير من النار ، وهو منسج و واضح متسلسل في كتابات ابن الجوزي الوعظية .

يتكون الكتاب من حوالي مائة و ثلاثين صفحة نشر بتحقيق أحمد عبد التواب عوض عن دار الفضيلة للنشر و التوزيع بالقاهرة .

29 - المعلق :

الكتاب جمع فيه المؤلف الأحاديث المخوفة و المحذرة من السيئات و الحكايات

1 - مجموعة رسائل ابن الجوزي : ابن الجوزي ، ص 69 .

2 - المدهش : ابن الجوزي ، دار الخيل ، بيروت ، لبنان ، ص 1 من المقدمة .

المزعجة التي تقلق المطمنين و تقلق الساكنين ، و من خلال هذا الكتاب نلمح منهج ابن الجوزي في الدعوة و التربية ، و قد دعم حديثه عن قلق المؤمن في الدنيا بقلق الصحابة و التابعين و العلماء من السلف و ختم الكتاب بجسلة من الرقائق . و الكتاب نافع في دعوة العوام و تثقيفهم . و يقع في مائة و ثلاثين صفحة حققه و علق عليه مجدي فتحى السيد و نشرته دار الصحابة بطنطا بمصر سنة 1991 م .

30 - المصباح المضيء في خلافة المستضيء :

الكتاب ألف أيام خلافة المستضيء و قد أهده المؤلف لهذا الخليفة ، و الكتاب يحتوي على معومات هامة في باب الخلافة و الولاية كما يشتمل على مواعظ للخلفاء و هو يكاد يشبه كتاب الشفاء الذي سألنا عنه لاحقا ، و الكتاب نشر بتحقيق الأستاذة ناجية عبد الله إبراهيم و نشرته مطبعة الأفاق ببغداد .

31 - الشفاء في مواعظ الملوك و الخلفاء :

تضمن الكتاب ما يجب أن يتأدب به الحكام ، و حدث فيه على الجواد كواجب على أهل الحل و العقد و ما يجب أن يفعلنه الحكام مع الرعية ، ويعتمد ابن الجوزي في بيان ذلك على القرآن و السنة و يبين أن ذلك ممكن إذا رجعنا إلى أصول هذا الدين و ثوابته . كما حدث في عهد عمر بن عبد العزيز ، و الكتاب يقع في 190 صفحة بتحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد و نشر دار الدعوة بالإسكندرية سنة 1986 م .

32 - سلوة الأحزان بما روي عن ذوي العرفان :

الكتاب ذكر فيه المؤلف طرائف و قصص شتى تسلي قلوب المحزونين ، و أخبارا تفرج الكرب عن المكروبين ، و ذكر فيه بعض محاسن الأولياء و الزهاد و نتفا من كلامهم في تخفيف أثر المصائب و الشدائد عن المصابين ، و الكتاب نافع في دعوة العوام و تذكيرهم و هو من الحجم العادي ، طبع بمطبعة منشأة المعارف سنة 1970 م .

33 - الأريخ في المواعظ و التواريخ :

الكتاب ضمته المؤلف جملة من المواعظ اختارها ذات أريخ فواح كأنها الزهر في البستان، كما عثر عن ذلك من خلال عنوان الكتاب و هو لا يختلف كثيرا عن كتبه الوعظية الأخرى ؛ زيادة على هذا فقد ضمته شيئا من التواريخ الخاصة بمواعظ معينة و الكتاب طبع بتحقيق أيمن عبد الجابر البحيري ، بشار البيان العربي الطبعة الأولى سنة 2002 م و هو يقع في 168 صفحة .

الكتب الفقهية :

1 - تحفة الإخوان بوداع شهر رمضان :

تحدث المؤلف في هذا الكتاب عن هلال شهر رمضان و فضائل هذا الشهر و فرضيته و الوقائع التاريخية الحاسمة التي حدثت فيه ، و عظيم أجر الصائمين و كيفية استقبال و توديع هذا الشهر كما اشتمل الكتاب على جملة من الآداب ، و هو من الحجم العادي نشرته دار الصحابة للتراث بمصر سنة 1992 م .

2 - أحكام النساء :

يتكون الكتاب من عدة أبواب تحدث فيها المؤلف عن تعليم المرأة وما يجب عليها في ذلك من عبادات و أحكام المعاملات في الأسرة ، و المعاشرة الزوجية و أحكام الحجاب كما ذكر فيه نبذة من سيرة نساء السلف ، و الكتاب نشرته في الجزائر دار الشهاب بياتنة ، كما أنه محقق في رسائل علمية¹ ، منها رسالة ماجستير للباحث على محمد يوسف المحمدي التي نوقشت سنة 1980 م بكلية الشريعة بجامعة الأزهر ، و كذلك رسالة دكتوراه للباحث نديم أو رخان التي نوقشت سنة 1980 م بمعهد العلوم الاجتماعية بجامعة مرمره بإسطنبول .

3 - التحقيق في مسائل الخلاف :

و هو كتاب فقهي مطول تطرق فيه ابن الجوزي لمختلف أبواب الفقه ، ثم تعرض للمسائل الفقهية التي اختلف فيها العلماء ، مرتبة على الأبواب التي تطرق لها في الكتاب . و الكتاب ضخيم الحجم يقع في اثني عشر مجلد طبع بتحقيق عبد المعطي أمين قلنجي بدار الوعي بحلب في سورية ، و بالقاهرة في مصر سنة 1998 م .

4 - مثير الغرام الساكن إلى أشرف المساكن :

قال المؤلف عن سبب تأليفه لهذا الكتاب " فلما رأيت الزمان لا يواتي على المطلوب أخذت في التعلل بذكر المحبوب ... و هأنذا أذكر من أخبار تلك الطريق و فضائل البيت العتيق و إن كان الذكر سببا للتشويق "² .

تحدث ابن الجوزي فيه عن مناسك الحج و فرائضه و ما كان يجري للعرب في عكاظ³ ثم ذكر كبار الحجاج و ساداتهم ، و حج الخلفاء و الكتاب يقع في ثلاثمائة صفحة نشر

1 - أنظر مبحث الدراسات عن ابن الجوزي من هذا الفصل

2 - مثير الغرام الساكن : ابن الجوزي ، تحقيق حسن محمد حسن إسماعيل : دار الكتب العلمية . بيروت : 1997م ، ص 14 .

3 - عكاظ : اسم سوق من أسواق العرب في الحاميه و كانت قبائل العرب تجتمع ها كل سنة و يفاخرون ، يحضرها الشعراء

4 - وكانوا يقيمون فيه شهرا وعكاظ كان بينه وبين الطائف ليلة معجم البلدان ياقوت الحموي 160/4

بتحقيق حسن محمد حسن إسماعيل بدار الكتب العلمية بيروت سنة 1997 م .

التفسير وعلوم القرآن :

1 - زاد المسير في علم التفسير :

كما اشتهر ابن الجوزي بالوعظ اشتهر بالتفسير فكان من مشاهير المفسرين، وقد اثنى عليه الكثير من العلماء كمفسر، وهذا الكتاب فيه مادة علمية غزيرة في شتى علوم الشريعة وهو من التفسير بالمأثور، لأن معول مؤلفه على ما أثر عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعن الصحابة والتابعين كما ألم فيه بمشهور انقراءات وأطراف من شواذها والكتاب مشهور ومطبوع عدة مرات في ثمانية أجزاء .

2 - تذكرة الأريب في تفسير الغريب :

وهو كتاب يعنى بتوضيح بعض مفردات القرآن الكريم، ومعانيه وأساليبه وأحكامه وقراءاته وهو كتاب مختصر في التفسير لم يتعرض لتلغاط القرآن الكريم كلها . وقد اختار المؤلف أكثر ما رآه غامضاً من المفردات وشرحها، ووضحها كما اعتنى فيه بالمسائل النحوية والقراءات القرآنية حيث فسر معاني الآيات على كل قراءة كما اهتم بأسباب النزول والأحكام الفقهية والنسخ والمنسوخ، والكتاب يقع في جزأين وقد نشر بتحقيق علي حسين البواب وطبع مكتبة المعارف بالرياض سنة 1986 م .

وقام الباحث عبد القادر منصور منصور بتحقيقه في رسالة ماجستير نوقشت سنة 1400 هـ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

3 - فنون الألفان في عجائب القرآن :

يتضمن الكتاب خلاصة أقوال المتقدمين، وصفوة آراء المحققين حول جوانب من علوم القرآن وتحدث فيه المؤلف عن فضائل القرآن، ونزوله على سبعة أحرف وعدد سورته وآياته، والمكي والمدني والكتاب نشر بتحقيق محمد إبراهيم سليم بمكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع بالقاهرة، وحقق كذلك في رسالة دكتوراه للباحث حسن ضياء الدين عتر طبعت سنة 1997 م عن دار البشائر الإسلامية ببيروت .

4 - ناسخ القرآن ومنسوخه : نواسخ القرآن :

الكتاب من أهم الكتب التي وصلتنا في هذا الباب وقد جعله المؤلف في ثمانية أبواب تحدث فيها عن جواز النسخ، وأن في القرآن ما هو منسوخ ثم بيان حقيقة النسخ وشروطه

واختلاف العلماء في ذلك و أفساد المنسوخ و فضيحة هذا العلد ، و الكتاب نشر بتحقيق حسين سليم أسد الداراني بدار الثقافة العربية ببيروت سنة 1980 م .
كما قام الباحث محمد أشرف علي بتحقيقه في رسالة ماجستير نوقشت سنة 1401 هـ
بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

٥ - نزهة الأعين النواظر في علم الوجود و النظائر :

ألف ابن الجوزي هذا الكتاب لما أحس بحاجة الناس إلى فهم معاني القرآن الكريم و الكتاب هو معجم يعرض لألفاظ الواحد بالشرح ، وهو تفسير شامل لمفردات الألفاظ القرآنية و هو مرتب على حروف المعجم ، و هو مقسم على تسعة و عشرين كتاباً لكل حرف كتاب و الكتاب نشر في مجلة بتحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي و طبع بمؤسسة الرسالة ببيروت سنة 1980 م .

كتب الحديث و رجاله :

1 - كتاب الموضوعات ¹ :

إن كتاب الموضوعات يعد المرجع الأول في جملة مراجع الأحاديث الموضوعية لذلك فقد أثار ضجة كبيرة خلال مئات السنين التي تلت عصر تأليفه ² ، و قد عقب عليه العديد من العلماء كالسيوطي بكتاب أسماه " اللآلئ المصنوعة في الأخبار الموضوعية " ³ و الإمام ابن عراق بكتابه " تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشيعية الموضوعية " ⁴ .
و كتاب الموضوعات مقسم على أبواب أربعة كتب فيها المؤلف عن الكذب و الكذابين كما اشتمل على الأحاديث الموضوعية ، و التي هي الموضوع الأساسي للكتاب .

2 - كشف النقاب عن الأسماء و الألقاب :

بدأه المؤلف بمقدمة قيمة ذكر فيها الفوائد المتعلقة بالألقاب و أحكامها ثم بدأ بالألقاب على حروف المعجم ، فذكر ألقاب المحدثين و ألقاب غيرهم ممن اشتهر بلقب ثم يذكر اللقب و اسم الملقب و اسم أبيه و جده و يذكر لأصحاب الألقاب شيخاً و تلميذاً و سبب تلقيبهم بذلك و الكتاب نشر بتحقيق عبد العزيز بن راجي الصاعدي بدار السلام بالرياض 1993 م .

¹ - كتاب الموضوعات : ابن الجوزي ، مسطوط و تقديم و تحقيق ، عبد الرحمن محمد عثمان ، دار الفكر للطباعة و النشر ، ط 2

1403 هـ ، 1983 م .

² - انظر فصل تأثير ابن الجوزي في العلماء في الفصل الأخير من الرسالة

³ اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعية : حلال الناس السيوطي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1975 م .

⁴ انظر تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشيعية الموضوعية : لأبي الحسن بن عراق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1979 م .

3 - التحقيق في أحاديث الخلاف :

الكتاب مادته العلمية حديثة كلها إلا أن المؤلف بونه توريثاً فقيهاً، حيث جاء بالأحاديث المختلف فيها في مواضيع فقهية عديدة كالطهارة والنجاسة والصلاة والزكاة والحج والمعاملات . والكتاب يقع في مجلدين نشر بتحقيق مسعد عبد الحميد محمد السعدي وتعليق محمد فارس وطبع بدار الكتب العلمية ببيروت .

4 - غريب الحديث :

الكتاب تأليف المؤلف ع. الذي حرره المعجم شرح فيه غريب حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، و جاء شاملاً لأن موافقه كان حافظاً محدثاً ما لم يعرفه شاملة للأحاديث وفي الكتاب زيادات مهمة ليست موجودة في كتب من سبقه ، والكتاب مطبوع في مجلدين .

5 - الضعفاء والمتروكين :

قصد المؤلف بهذا الكتاب إبراز الضعفاء والمتروكين من رجال الحديث ، و قد حوى على أكثر من أربعمائة ترجمة . و الكتاب معروف عند علماء الحديث و قد ذكره في مؤلفاتهم ، و مما أخذ على ابن الجوزي فيه تشدده في جرح الرجال و الكتاب نشر بتحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي بدار الكتب العلمية ببيروت سنة 1986 م .

6 - إخبار أهل الرسوخ في الفقه والتحديث بمقدار المنسوخ من الحديث :

الكتاب صغير الحجم عظيم الفائدة ، و الكتاب كما هو واضح من عنوانه موضوعه الناسخ والمنسوخ من الحديث الشريف ، و قد جاء فيه بأحاديث أثبت نسخها بأحاديث أخرى والكتاب نشر بتحقيق أبي عبد الرحمن محمود الجزائري وتقديم الشيخ محمد الغزالي وطبعته مكتبة الهدى ببومرداس ، الجزائر سنة 1990 هـ .

7 - العطل المتناهية في الأحاديث الواهية :

الكتاب يشبه في موضوعه كتاب الموضوعات حيث جاء فيه المؤلف بالعديد من الأحاديث الموضوعية والمعلولة وبيّن سبب حكمه عليها بالضعف والوضع ، والكتاب يقع في جزأين قدم له وضبطه الشيخ خليل الميس ، ونشرته دار الكتب العلمية ببيروت سنة 1983 م .

8 - أحاديث التعليق :

حقق هذا الكتاب في رسالة دكتوراه تقدم بها الباحث إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحمن اللاحم لكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة 1408هـ و لكن

¹ غريب الحديث: ابن الجوزي، تحقيق عبد المعطي أمين فلجمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1985 م ص 19 .

الباحث اقتصر في تحقيقه من أول الكتاب إلى نهاية موضوع الأوقاف من كتاب الصلاة.
» - كشف مشكل الصحيحين :

الكتاب حققه في رسالة ماجستير الباحث محمد أحمد عبد الرحمن الخريعي ، ونوقشت
سنة 1415 هـ بكلية الحديث بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

10 - (إعلام العالم بعد رسوخه بحقائق ناسخ الحديث ومنسوخه :

حقق الكتاب في رسالة ماجستير تقدم بها الباحث أحمد بن عبد الله العماري الزهراني
لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى سنة 1398 هـ .

كتب في الثقافة العامة :

1 - أخبار النساء :

كتاب محتواه عدة مواضع عن المرأة ، تحدث فيه المؤلف عن وفاء النساء وغدرهن
والعشق والغيرة والزنا ، وفيه فصول أخرى من هذا القبيل ، والكتاب في الكثير من طبعاته
نسب إلى ابن القيم ولكنه في أغلب الظن لابن الجوزي¹ ، لأنه موافق في موضوعه
وأسلوبه منهج ابن الجوزي في التأليف .

2 - الأذكاء :

الكتاب جمعاه المؤلف في ثلاثة و ثلاثين باباً تحدث فيه عن فضل العقل و الذكاء ثم
ذكر ذكاء الأنبياء والصحابة ، والخلفاء والوزراء و العلماء و النساء و ذكر فيه أمور تربوية
خاصة بالذكاء و الفطنة و حفة الروح ، و الكتاب يقع في 271 صفحة نشر بتحقيق محمد عبد
الرحمن عوض و توزيع دار الكتاب العربي ، لبنان سنة 1988 م .

3 - أخبار الظراف والمماديس

يحتوي الكتاب على بابين ؛ تحدث فيه عن معنى الظرف والمجون وما روي في ذلك
عن الأنبياء والصحابة والعلماء والحكماء والعمام و الصبيان ، و يستشف من الكتاب تنوع
أسلوب الدعوة عند ابن الجوزي بين الجد حيناً والفاكهة حيناً آخر ، كما يكشف لنا من خلاله
عن أسلوب الدعوة بأخذ العبرة² ، و الكتاب رغم قيمته التربوية والدعوية فإنه لم يخل من
بعض القصص الغريبة و السافطة أوردها المؤلف في كتابه دون تعليق عليها ، و الكتاب
نشرته مكتبة القدس بمصر سنة 1983 م .

¹ - من الدارسين الذين نسوه لابن الجوزي ؛ أحمد بن علي ، طبعه دار المنار ، بالقاهرة ، وكذلك بركات يوسف هود ، طبعة
المكتبة العميرية ببروت .

2 - أنظر أساليب الدعوة و وسائلها عند ابن الجوزي في الباب الثاني من الرسالة .

4 - تنوير الغبش في فضل السودان والحبش :

ألفه ابن الجوزي اعترافاً بفضل هذا الجنس من الناس ووفاء لأهل الفضل منهم و هذا دليل على أن الإسلام لا يفرق بين الأجناس و الألوان إلا بالتقوى، و موضوع الكتاب طريف و مبتكر يعالج أزمة عصرية و هي العنصرية .

وإن كان المؤلف قد أفلح في طرق الموضوع لكنه بالغ في بعض الأحيان فأورد أخباراً تالفة و أشعاراً مخالفة ، و خاصة في باب الرابع و العشرين .

و الكتاب يقع في 107 صفحة نشر بتحقيق مرزوق علي إبراهيم بدار الشريف بالرياض سنة 1998 م ، كما حقه الباحث عبد الرحمن العبيد عبد الماجد في رسالة ماجستير نوقشت سنة 1976 م بكلية الآداب جامعة القاهرة .

5 - المجتبي من المجتبي :

استهواه ابن الجوزي بما إجتباه من فوائد علوم القرآن ثم أنتقل للحديث عن النبي - صلى الله عليه و سلم - و سيرته و أهله و الخلفاء من بعده ، و من اشتهر من الصحابة و الصحابييات و من شهد بدراً و من حفظ القرآن ، و من كان يفتي على عيده - عليه الصلاة و السلام - و ختم كتابه بالأوليات و هو فصل في أول كل شيء .

و الكتاب يقع في 157 صفحة من الحجم الكبير ، نشر الكتاب بدار الأفاق العربية بالقاهرة سنة 1999 م بتحقيق أيمن عبد الجبار الجيزي .

6 - مختصر لقط المنافع :

الكتاب يتحدث فيه المؤلف عن كيفية المحافظة على البدن ، كما توجد فيه وصفات لبعض الأمراض ، و ذكر الأمراض النفسانية ، ثم تحدث عن الطبخ و المطبوعات و المياه و الأشربة و الفواكه و الرياحين و الأذهان و أضرار كثرة الجماع ، و النوم و اليقظة و حسن تدبير الزمان . و الكتاب يقع في 119 صفحة ، و نشر بتحقيق أحمد يوسف الدقاق و طبع بدار المأمون للتراث سنة 1987 م .

كتب التاريخ والتراجم :

1 - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم :

و هو كتاب مطول في التاريخ و التراجم ، يذكر السنة و ما وقع فيها من حوادث ثم يعرج على أشهر من مات فيها من الأعيان . و قد بدأ ابن الجوزي كتابه من بداية الخلق إلى

سقت الإشارة إلى هذا الكتاب في الهوامش السابقة .

غاية سنة 1991 م و الكتاب طبع حديثاً في ثمانية عشر جزءاً دار الكتب العلمية ببيروت سنة 1992 م و حقق في رسائل علمية منها رسالة دكتوراه للباحث محمد الشيخ عبد الوهاب فضل و نوقشت سنة 1970 م بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، و حقق كذلك في رسالة دكتوراه أخرى للباحث عوض بن بكر السميري و نوقشت سنة 1400 هـ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالمملكة العربية السعودية .

2 - الوفا بأحوال المصطفى :

الكتاب من أحسن ما ألف في بابيه من حيث التصنيف و التويب تناول فيه المؤلف السيرة العطرة الرسول - صلى الله عليه و سلم - بكل تفاصيلها و الكتاب يحتوي على 537 باباً ويقع في 810 صفحة ونشر بتحقيق مصطفى عبد القادر عطا بدار الكتب العلمية ببيروت سنة 1988 م .

3 - تلقح فهوم الأثر في عيون التاريخ و السير :

قال فيه المؤلف : " هذا كتاب ذكرت فيه من السير فنونا و من علوم الحديث عيوناً ليكون للمبتدي تبصرة و للمنتهي تذكرة " ، وقد بدأه بالكلام عن أول المخلوقات ثم تحدث عن الأنبياء حسب ترتيبهم الزمني ثم انتقل إلى الحديث عن السيرة النبوية ثم سيرة الصحابة و الحفاظ منهم و رواة الحديث ، ثم ذكر الأحاديث التي تور عليها أبواب الفقه و عدد الأحاديث المروية عن الرسول - صلى الله عليه و سلم - يقع الكتاب في 712 صفحة طبعته مكتبة الآداب لصاحبها علي حسن بالقاهرة .

4 - صفة الصفوة :

الكتاب جليل القدر قيم الفائدة قصد المؤلف من وضعه ذكر صفوة الخلق وأولهم سيد الخلق - عليه الصلاة و السلام - ثم جملة من الصحابة و الصحابييات ، و غيرهم ممن اشتهر بالزهد و التعبد و الكتاب بالإضافة إلى التراجم ضمنه المؤلف العديد من الإشارات ذات البعد الإصلاحى التربوي خاصة فيما يتعلق بالعلم و العلماء و التصوف و البدع بالإضافة إلى موضوعه الأصلي و هو التعريف بخيار هذه الأمة .

و الكتاب يقع في مجلدين قدم له محمد بن عباس الخطيب ونشر بدار الجيل ببيروت سنة 1992 م .

5 - سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز :

تناول الكتاب ترجمة واقفية لحياة الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز و كل ما يتصل

بأخلاقه، وعاداته وخلافته ومواعظه وخطبه وزهده وورعه ومرضه ووفاته و الكتاب يقع في 230 صفحة نشرته دار المنار بالقاهرة سنة 2001 م .

6 - تاريخ عمر بن الخطاب :

جمع المؤلف في كتابه العديد من فضائل عمر و أفعاله وسيرته من مولده إلى إسلامه و هجرته وتولييه الخلافة، ثم زهده و ورعه و ذكر مقتله و وصاياه و ثناء الناس عليه وجعله ابن الجوزي في ثمانين بابا ، و هو يقع في 230 صفحة نشرته دار الرائد العربي ببيروت سنة 1985 م ، و الكتاب معروف ومشهور .

7 - مناقب الإمام أحمد بن حنبل :

الكتاب من أحسن ما ألف في سيرة الإمام أحمد، وهو واضح من عنوانه فهو في سيرة الرجل وترجمة حياته، وقد جعله المؤلف في مائة باب تحدث فيها عن ميلاد الإمام و أسرته و حياته و طلبه للعلم و نبوغه فيه ، وكذلك زهده و ورعه و مناقبه و الكتاب من أجود ما صنف في سبب الدعوة بالقوة و التأسى بسيرة السلف الصالح ، و الكتاب نشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة كما نشرته دار الآفاق الجديدة سنة 1987 م .

8 - الحسن البصري :

الكتاب سار المؤلف فيه على نسق الكتب السابقة ، حيث تحدث عن منشأ الحسن و صفاته و أحواله و ما روي عنه من الإداب و المكارم و الحكم و المواعظ ، و ما روي عنه من ذم الدنيا و تلاوته للقران و دعائه و مكاتباته للخلفاء ، و قد نشر بتقديم حسن السندي و توزيع مكتبة الخانجي ، القاهرة ، سنة 1399 هـ ، 1978 م .

9 - مشيخة ابن الجوزي :

الكتاب عبارة عن تراجم جعله المؤلف لشيوخه الذين أخذ عنهم العلم بالرواية أو الإجازة ؛ حيث بدأ بذكر اسم الشيخ و نسبه و متى سمع منه و تاريخ وفاته و قال في آخر المشيخة " وهذا آخر المشايخ الأكابر و قد سمعت من جماعة غيرهم ولي إجازات من خلق يطول ذكرهم " 1 ، و قد تعرض المؤلف كذلك لترجمة شيوخه في كتابه المنتظم .

10 - مناقب معروف الكرخي وأخباره 2 :

تحدث المؤلف في هذا الكتاب عن سيرة معروف الكرخي وإسلامه واعتقاده و ثناء

1 - مشيخة ابن الجوزي : ص 108 .

2 - انظر مجلة المورد ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، جلد 9 ، العدد 4 ، سنة 1980 م .

العلماء عليه وزهده وتعبده وكرمه وكراماته ، و غير ذلك مما روي عنه و الكتاب
نشر في مجلة المورد بتحقيق صادق محمود الجميلي و الكتاب صغير الحجم ¹.

11 - أعمار الأعيان :

الكتاب يدور حول وفيات الأعيان في مختلف مواقعهم ، فيذكر المؤلف على رأس
العقد من السنين من توفي من هؤلاء الأعيان ، فيؤلاه توفوا في الأربعين من عمرهم وهؤلاء
في الخمسين و هكذا ، و قد بدأ المؤلف بمن توفوا في سن العاشرة و هذا منهج جديد في
الترجمة كما ذكر محقق الكتاب .

و الكتاب يقع في 200 صفحة، نشر بتحقيق محمود محمد الطناحي و نشر مكتبة الخانجي
بالقاهرة سنة 1994 م .

12 - تاريخ بيت المقدس :

تحدث فيه المؤلف عن بناء بيت المقدس وفضل شد الرحال إليه ، و أجر الصلاة فيه
و فضل قبة الصخرة و أنها من الجنة ، وفضل الصدقة و الصيام في بيت المقدس ، نشر
الكتاب بتحقيق محمد زينهم عزب بمكتبة الثقافة الدينية ببور سعيد بمصر و يقع الكتاب في 84
صفحة .

و الكتاب نشر بعنوان فضائل القدس بتحقيق جبرائيل سليمان جبور دار الأفاق الجديدة
ببيروت سنة 1970 م ، ولعل هذا من بين الأسباب التي أدت إلى زيادة عدد مؤلفات ابن الجوزي
و تشابه عناوينها .

13 - مناقب بغداد :

هو كتاب صغير الحجم ذكر فيه ابن الجوزي فضل بغداد ، و مساجدها و أسواقها
و حماماتها و عمارتها و مقابرها و جسورها و أنهارها ، و حدود العراق و سبب تسمية بغداد
لنشر الكتاب بتحقيق محمد عزب ، و طبع بدار غريب للطباعة و النشر بالقاهرة سنة 1998 م
و يقع في 78 صفحة .

14 - القرامطة :

كتاب تحدث فيه المؤلف عن الفرق و افتراق الأمة إلى فرق ، ثم خص الكتاب بفرقة
القرامطة ، فتحدث عن نسبتها و منشئها و المبادئ الضالة التي قامت عليها و ما ارتكبه

¹ - ولكن ابن رجب يقول عنه بأنه جزء ولا شك أن هذا لا يعطي صورة حقيقية عن مؤلفات ابن الجوزي نظر الدليل 417/1

اتباعها من جرائم ضد المسلمين و اعتراضهم طريق الحجاج ، و الكتاب صغير الحجم طبعه المكتب الإسلامي بدمشق .

15 - دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه :

و هو كتاب في أصول الدين و العقيدة ردّ به على الذين بالغوا في إثبات الصفات حتى كادوا يقعون في التشبيه من الحنابلة ، و بين منهجه في ذلك . و الكتاب صغير الحجم نشر بتحقيق محمد زاهد الكوثري و طبع مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة سنة 1971 م .

16 - تقويم اللسان :

و هو كتاب في اللغة و قواعدها و قد أيد المؤلف كلامه بالقران و الحديث و ما اشتهر على ألسنة العرب من أقوال و أشعار ، و الكتاب يقع في مجلد ، طبع بتحقيق عبد العزيز مطر و نشرته دار المعرفة بالقاهرة .

17 - المقامات :

يحتوي الكتاب على خمسين مقامة¹ يدور مضمونها حول الزهد و ذم الدنيا و المتهاالكين عليها و ذم الهوى و البخل ، و الحديث عن العزلة و عن وعظ السلطان ، و هدف ابن الجوزي من هذا الكتاب هو المساهمة في إحياء التراث اللغوي ، مع إثبات التفوق العلمي لنفسه في كثير من العلوم² . و هذه المقامات حققها الباحث علي جميل على مهنا في رسالة علمية³ زيادة على هذا فقد نشر هذا الكتاب بتحقيق الدكتور محمد نعش بدار فوزي للطباعة بالقاهرة سنة 1400 هـ - 1980 م .

الكتب المخطوطة⁴ :

1 - مختصر المقعد و المقيم :

و مضمون الكتاب في التفسير ، و ذكرت الباحثة أمّة محمد نصير⁵ أن منه نسخة مخطوطة في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، و نسخة بدار الكتب المصرية برقم 206 تفسير .

¹ - المقامة : هي قصة قصيرة مسجوعة تشتمل على عظة أو ملحمة ، كان الأدباء يظهرون فيها براعتهم ، اشتهر منها خاصة مقامات الهمنان و الحريري ، المعجم الوسيط : 2 / 768 .

² - ابن الجوزي و مقاماته الأدبية : علي جميل على مهنا ، ص 579 .

³ - ذكر هذا المرجع في الهوامش السابقة .

⁴ - كثير من الكتب المخطوطة توصل الباحث إليها و التي لم يتوصل إليها ذكر أماكن نواحيها من المراجع التي تعرضت لها .

⁵ - انظر أبو الفرج ابن الجوزي ، آراؤه الكلامية و الأخلاقية : أمّة محمد نصير ، ص 68 .

2 - المجالس في المتشابه من الآيات :

توجد نسخة من هذا المخطوط بدار الكتب المصرية رقمها 1523 (علم الكلام)¹ .

3 - البواقيت في المواعظ² :

و هو غير كتاب الياقوتة المطبوع ، و ابن الجوزي فيه يستخرج عبرا من مواقف الحيوانات و الطيور يسوقها في نصائحه حكما و مواعظ أو كما يقول : " أقمت الحيوان و النبات في هذا الكتاب كالواعظ " و هو يقع في واحد و عشرين فصلا ، و توجد منه نسخة بدار الكتب المصرية .

4 - اللطف في الوعظ³ :

جمع ابن الجوزي في هذا الكتاب واحدا و خمسين فصلا في المواعظ ، و يبدو على أسلوبه التكلف و الصنعة اللفظية ، و رقمه بدار الكتب 2000 / تصوف و أخلاق .

5 - المنتخب في النوب :

مخطوط قيم في الوعظ، يشتمل على مائة باب تقع في ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير على رأس كل باب آية قرآنية هي موضوع حديثه ، و كل آية في مناسبة خاصة تختلف عن أختها . و في مقدمة الكتاب يتكلم عن أهمية الوعظ و أنه مندوب إليه كتابا و سنة ، و هذا الكتاب من أواخر كتبه تأييفا ، و رقمه 1611 بدار الكتب المصرية (تصوف و أخلاق) .

6 - منتخب المنتخب :

و هو عبارة عن أبواب و فصول منتقاة من الكتاب السابق ، و هذه كانت عادته في كتبه يؤلف الكتاب ثم يلخصه في كتاب آخر كما في " المدهش ورؤوس القوارير " و غيره و المخطوط رقمه 320 ص 131 بدار الكتب .

7 - شذور العقود في تاريخ اليهود :

و هو كتاب اختصر فيه ابن الجوزي كتابه " المنتظم " ، و قد ذكره ابن رجب في الذيل و له نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم : 901 (تاريخ)⁴ .

8 - المنطق المفهوم من أهل الصمت المعلوم :

1 - أبو الفرج ابن الجوزي آراؤه الكلامية و الأخلاقية : آمنة محمد نصر ، ص 75

2 - أنظر : ابن الجوزي الواعظ و منهجه في الدعوة و الموازنة بينه وبين منهج الإمام الغزالي : جمعة علي محمد الحولي رسالة دكتوراه مخطوطة توفقت سنة 1973 م بكلية أصول الدين جامعة الأزهر ص : 261

3 - المصدر السابق : ص 261

4 - أبو الفرج ابن الجوزي ، آراؤه الكلامية و الأخلاقية : آمنة محمد نصر ، ص : 79 و قد ذكره ابن رجب في الذيل : 814/1

هذا المخطوط يقع في تسعة وثمانين صفحة بخط رفيع جدا ، وهذا الكتاب و رغم ما فيه من حكايات عجيبة ، توجد فيه بعض الأخبار الصحيحة والمواعظ المؤثرة كمنطق الثلاثة الذين تكلموا في المهدي ، ونطق الضب والضبي ، وتسبيح الحصى ، وحنين الجذع للنبي - صلى الله عليه وسلم - إلا أن الكتاب يحتوي على قصص عجيبة لا مجال لتصديقها، ورقمه بدار الكتب 242 تصوف و أخلاق .

9 - المورد العذب :

كتاب يقع في ثمانية و أربعين صفحة من القطع الكبير بخط مغربي يصعب قراءته يذكر ابن الجوزي فيه ؛ أن فن الوعظ هو الغاية عنده، رتبته على خمسة وعشرين فصلا كل فصل منها يحوي ثلاث خطب لثلاث آيات من القرآن و رقمه 2574 بدار الكتب .

10 - الرد على المتعصب العنيد المانع من نم يزيد :

ذكره ابن رجب في الذيل ، و توجد منه نسخة في مكتبة بزلين برقم 9708 ، و في مكتبة الأوقاف ببغداد برقم 186 / 1223² .

11 - رسالة بر الوالدين وصلة الرحم :

رسالة صغيرة في هذا المعنى تقع في ثلاثة عشر صفحة من القطع المتوسط بخط صغير جدا رقمها 1 / 118 بدار الكتب³ .

12 - الحدائق لأهل الحقائق :

ذكره ابن رجب في الذيل ، و توجد منه نسخة بدار الكتب تحت رقم : 1 / 110⁴ .

13 - منهاج الوصول إلى علم الأصول :

ذكره ابن رجب في الذيل ، و توجد منه نسخة مخطوطة في خزانة أحمد عبد الوهاب الليازي ببغداد بخط فارسي يرجع تاريخها إلى 1004 هـ⁵ .

14 - منهاج القاصدين :

¹ - أنظر دلال النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: لأبي بكر البيهقي تعليق عبد المعطي فلمجى دار الكتب العلمية بيروت ط 1 1985 م ، 6 / 18 ، 36 ، 59 ، 64 ، 66 .

² - أبو الفرج ابن الجوزي ، آراؤه الكلامية والأخلاقية : آمنة محمد نصير ، ص 82 ، و قد ذكره ابن رجب في الذيل : 417/1 .

³ - ابن الجوزي الواعظ و منهجه في الدعوة إلى الله و الموازنة بينه و بين منهج الإمام الغزالي : جمعة علي محمد الخولي : ص 261 ولكنه لم يذكر رقم المخطوط ، و قد أشارت الباحثة آمنة محمد نصير إلى رقمه انظر : أبو الفرج ابن الجوزي آراؤه الكلامية والأخلاقية : ص 78 .

⁴ - أبو الفرج ابن الجوزي ، آراؤه الكلامية والأخلاقية : آمنة محمد نصير ص 73 والكتاب ذكره ابن رجب في الذيل : 1 / 417 .

⁵ - المصدر السابق : ص 75 ، و الكتاب ذكره ابن رجب في الذيل على طبقات الختابة : 1 / 417 .

و هو الكتاب الذي قام فيه بتأليف احياء علوم الدين للغزالي ، ومنه نسخة مخطوطة في مكتبة بلدية الاسكندرية برقم 13 ، تصوف ، برقم 10 / مواظ 1 .

15 - صولة العقل على الهوى :

رسالة صغيرة ضمنها ابن الجوزي بعض النصائح والمواظ مرتبة على عدة فصول ² .

16 - البازي الأشهب المنقض على مخالف المذهب :

ذكره ابن رجب في الذيل ³ ، و توجد منه نسخة مخطوطة في جامعة الدول العربية ⁴ .

17 - رسالة في كيد الشيطان لنفسه قبل كيد لآدم ⁵ :

مخطوطة برقم 11/170 فنون

18 - لطف المواظ :

مخطوطة برقم 2/30 مواظ .

19 - الزهر الفائح فيمن تنزد عن الذنوب والقبائح :

تقع المخطوطة في 78 ورقة ، وهي برقم 1/39 مواظ .

20 - النور في فضائل الأيام والشهور :

ذكره ابن رجب في الذيل ⁶ و منه مخطوطة برقم 40 مواظ .

21 - اللطائف الكبرى :

مخطوطة برقم 11 مواظ .

وقد قسم الباحثون ⁷ كتب ابن الجوزي حسب موضوعاتها وفنونها وخاصة الباحثة ناجية عبد

الله إبراهيم ⁸ التي صنفت مؤلفات ابن الجوزي حسب الموضوعات الأدبية :

¹ - انظر ابن الجوزي الواعظ و صحفه في الدعوة إلى الله و الموائمة له و بين الإمامة لغيره : جمعية نشر محمد الخولي ، ص 261 .

² - انظر المصدر السابق : ص 265 .

³ - الذيل على طبقات الحنابلة : ابن رجب : 1 / 120 .

⁴ - أبو الفرج ابن الجوزي ، آراؤه الكلامية و الأخلاقية : أمية محمد نصير : ص 72 .

⁵ - هنا المخطوط و المخطوطات التي ذكرنا بعد من مخطوطات مكتبة الإسكندرية ، و قد رجعت في ترتيبها إلى مخطوطة رسالة الدكتوراه ابن الجوزي الواعظ : جمعة على محمد الحزلي ، ص 265 .

⁶ - الذيل على طبقات الحنابلة : ابن رجب ، 1 / 420 .

⁷ - انظر مؤلفات ابن الجوزي ، عبد الحميد العلوجي ، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق : الكويت ، ط 1 ، 1992 .

م حيث ذكر لابن الجوزي 671 كتاب - المستدرك على مؤلفات ابن الجوزي : محمد باقر علوان . مجلة المورد ، وزارة الإعلام مع

1 ع 1 و 2 ، سنة 1971 م ص 181 .

⁸ - المصباح المنقى في خلاصة المستنقى ، ادراسة وتحقيق ، ناجية عبد الله إبراهيم ، مطبعة الأوقاف بغداد سنة 1976 هـ / 1 / 29 .

- 1 - 27 كتابا في التفسير وعلوم القرآن .
- 2 - 42 كتابا في الحديث ورجاله وعلومه .
- 3 - 54 كتابا في المذاهب والأصول والفقه والعقائد .
- 4 - 143 كتابا في الوعظ والأخلاق والرياضات .
- 5 - 10 كتب في الطب .
- 6 - 16 كتابا في الشعر واللغة .
- 7 - 22 كتابا في التاريخ والجغرافية والسير والحكايات .

وعلى هذا الأساس يكون مجموع ما صنّفه الباحث ثلاث مائة وأربعة وثمانين كتابا، وسأذكر في هذا المقام بقية كتب ابن الجوزي التي لم تطبع، وهي مذكورة في كتب السير والتراجم¹ ويرجح أن الكثير منها قد فقد².

في التفسير وعلوم القرآن :

- 1 - الإشارة إلى القراءة المختارة ويقع في أربعة أجزاء .
- 2 - تيسير البيان في تفسير القرآن ويقع في مجلد .
- 3 - ثبت التصانيف المتعلقة بالقرآن وعلومه .
- 4 - المغني في التفسير ويقع في واحد وثمانين جزءا .
- 5 - الوجوه النواظر في الوجوه والنواظر ويقع في مجلد .

الحديث وعلومه :

- 1 - الأحاديث الرائعة .
- 2 - أخير الذخائر ، ويقع في ثلاثة أجزاء .
- 3 - أفة أصحاب الحديث .
- 4 - التحقيق في أحاديث التعليق ، ويقع في مجلدين .
- 5 - تنوير مدلهم الشرف في المؤلف والمختلف ، ويقع في جزء .
- 6 - تحفة الطلاب ، ويقع في ثلاثة أجزاء .

¹ انظر لست قائمة المؤلفات، ابن الجوزي، 9: نسخة الكتاب، ص 43 - وفات الأعيان، 3 / 140 - الذيل على طبقات الحنابلة 1 / 416 وما بعدها - البداية والنهاية، 13 / 28 - كشف الظنون عن أسامي أفنون: حاشي خليفة دار الفكر، 1402، 1982م 14/67، 71، 76، 128، 182، 215، 244، 277، 339، 376، 437، 480، 501، 829، 839، 915، 947، 957، 1080، 1128، 1160، 1186، 1388، 14

13، 1440، 1495، 1534، 1750، 1836، 1866، 1940، 2001، 2017، 2053، 2054 .

² ابن الجوزي الواعظ ومنهجه في الدعوة إلى الله والموازنة بينه وبين الإمام الغزالي : جمعة على محمد الخولي ، ص 267 .

- ثبت التصانيف في علم الحديث و الزهديات .
- جامع المسانيد بالخص الأسانيد .
- الجوهر .
- 1 — الخطأ والصواب من أحاديث الشهاب ، و يقع في ستة عشر جزءا .
- 1 — مناقب أصحاب الحديث ، و يقع في مجلد .
- 1 — روضة الناقل ، و يقع في جزء .
- 1 — علم الحديث المنقول في أن أبا بكر أم الرسول — صلى الله عليه و سلم — ، و يقع في جلد .
- 14 — عمدة الدلائل في مشهور المسائل .
- 15 — العوائد المنقاة .
- 16 — غرر الأثر ، و يقع في ثلاثين جزء .
- 17 — غريب الغريب .
- 18 — المسائل المفردة ، و يقع في جزء .
- 19 — الفوائد عن الثبوت ، و يقع في ستين جزء .
- 20 — المسلسلات ، و يقع في مجلد .
- 21 — منظومة في الحديث .
- 22 — النزهة ، و يقع في جزأين .
- 23 — نفي النقل و هو خمسة أجزاء .
- 24 — السهم المصيب ، و يقع في جزأين .
- 25 — المحتسب في النسب .
- 2 — كتب الفقه والأصول :
- 1 — الإنصاف في مسائل الخلاف .
- 2 — أسباب الهداية لأرباب البداية ، و يقع في مجلد .
- 3 — تحريم المحل المكروه و هو جزء .
- 4 — البلغة في الفروع .
- 5 — جنة النظر و جنة النظر ، و هو التعليقة الوسطى .
- 6 — ثبت المصنفات في الفقه .

- 7 - رد اللوم و الضيم في صوم يوم الغيم ، و هو جزء .
- 8 - الشيب و الخضاب ، و يقع في مجلد .
- 9 - العبادات الخمس ، و هو جزء .
- 10 - السر المصون .
- 11 - موت الخضر ، و يقع في مجلد .
- 12 - عمدة الدلائل في مشتهر المسائل ، و هي التعليقة الصغرى .
- 13 - القاطع لمجال اللجاج بمجال الحجاج ، و يقع في جزء .
- 14 - عجالة المنتظر في شرح حال الخضر ، و هو جزء .
- 15 - قيام الليل و يقع في ثلاثة أجزاء .
- 16 - لغة الفقه و هو في جزأين .
- 17 - ما يلحق فيه العامة .
- 18 - المذهب في المذهب ، و يقع في مجلد .
- 19 - مسبوك الذهب و هو مجلد أيضا .
- 20 - المنفعة في المذاهب الأربعة ، و يقع في مجلدين .
- 21 - معتصر المختصر في مسائل النظر ، و هو دون التعليقة الوسطى .
- 3 - كتب الدعوة والوعظ والزهد والقصص :
- 1 - إرشاد المريدين في حكايات السلف الصالحين ، و يقع في مجلد .
- 2 - الأنس والمحبة .
- 3 - أنس الفريد و بغية المرید .
- 4 - أحكام الأحكام و يقع في مجلد .
- 5 - المختار من أخبار الأخيار و هو مجلد .
- 6 - الأريج في الموعظة و يقع في مجلد ، وقد ذكر محقق كتاب المواظ و المجالس بأن له نسخة مصورة عنده من هذا المخطوط¹ .
- 7 - إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء .
- 8 - إيقاظ الوسنان من الرقعات بأحوال الحيوان و النباتات ، و يقع في جزأين .
- 9 - التعازي الملوكية و يقع في جزء .

¹ - المواظ و المجالس : تحقيق عمادى محمد الشهاري ، ص 136 و لكن الكتاب طبع و ذكرته ضمن كتب ابن الجوزي للطبعة.

- 10 - كتاب العزلة .
- 11 - عيون الحكايات و يقع في مجلد .
- 12 - الفصول الوعظية على حروف المعجم .
- 13 - كنز المذكرين و يقع في مجلد .
- 14 - كنز الملوك في كيفية السلوك .
- 15 - كنوز الرموز و يقع في مجلد .
- 16 - المجالس اليوسفرة في الوعظ .
- 17 - مدارج السالكين .
- 18 - المديح .
- 19 - موافق المرافق و يقع في مجلد .
- 20 - المترجل في الوعظ .
- 21 - المعشوق في الوعظ .
- 22 - المقتضب في الخطب .
- 23 - ملح الأحاديث .
- 24 - المنشور .
- 25 - المنهل العذب .
- 26 - المستدرك الثاني .
- 27 - أسباب الهداية .
- 28 - إغاثة اللهفان في مسائل الشيطان .
- 29 - الحث على طلب الأولاد .
- 30 - حسن الخطاب في الشيب والشباب .
- 31 - ترياق الذنوب وكشف الران على القلوب .
- 32 - دواء ذوي الغفلات .
- 33 - رسالة في علم الوعظ .
- 34 - الزجر المخوف .
- 35 - المواظ السلجوقية .
- 36 - ما لا يسع الإنسان جهله .

- 37 - زاهر الجواهر في الوعظ ، و يقع في أربعة أجزاء .
- 38 - الزند الوري في الوعظ الناصري و يقع في جزئين .
- 39 - شرف الإسلام .
- 40 - كنز المذكرين .
- 41 - الملح في الموعدة .
- 42 - المطرب الملبب .
- 43 - منتخب الزير عن رؤوس القوارير في المواعظ و التنكير .
- 44 - مواعظ الملوك .
- 45 - نرجس القلوب الدال على طريق المحبوب .
- 46 - تحريم الخمر .
- 47 - نسيم الرياض و يقع في مجلد .
- 48 - نسيم السحر .
- 49 - الوعظ المعنوي .
- 50 - الوعظ المقبري و يقع في جزء .
- 51 - الوعظ النفيس .
- 52 - تذكرة أولى البصائر .
- 53 - فضائل ليلة الجمعة .
- 54 - موعدة مختصرة .
- 55 - بشارات التحقيق .
- 56 - اللباب في قصص الأنبياء .
- 57 - المطرب للمذنب .
- 58 - الدر الفائق في المجالس و الأحاديث و الرقائق .
- 59 - ذخيرة الواعظ .
- 60 - زين القصص .
- 61 - شرف المصطفى .
- 62 - فتوح الفتوح و يقع في مجلد .
- 63 - عيون الحكايات في سيرة سيد البريات .

64 - لقط في حكايات الصالحين .

4 - كتب المناقب :

1 - مناقب الأولياء .

2 - مناقب إبراهيم بن أدهم ، و يقع في ستة أجزاء .

3 - مناقب أبي بكر الصديق ، و يقع في مجلد .

4 - مناقب أصحاب الحديث ، و يقع في مجلد .

5 - مناقب الإمام الشافعي ، و هو كتاب .

6 - مناقب بشر الحافي ، و يقع في سبعة أجزاء .

7 - تقريب الطريق الأبعد في فضائل مقبرة أحمد ، و يقع في كتاب .

8 - مناقب رابعة العدوية ، و يقع في جزء .

9 - مناقب السنن الرفيع ، و يقع في جزء .

10 - فضائل سعيد بن المسيب ، و يقع في مجلد .

11 - مناقب سفيان الثوري ، و يقع في مجلد .

12 - سيرة العمرين .

13 - الفاخر في أيام الإمام الناصر ، و يقع في مجلد .

14 - فضائل العرب ، و يقع في مجلد .

15 - مناقب الفضيل بن عياض ، و يقع في أربعة أجزاء .

16 - مناقب علي رضي الله عنه ، و يقع في مجلد .

17 - منهاج أهل الإصابة في محبة الصحابة .

5 - المثالب :

1 - ذم عبد القادر .

2 - عقد الخناصر في ذم الخليفة الناصر .

6 - كتب اللغة :

1 - الأريب في تفسير الغريب .

2 - معاني المعاني .

7 - كتب الشعر :

1 - ما قلته من أشعار و يقع في جزء .

ختار من الأشعار و يقع في عشرة مجلدات .

ب الطب :

افع و يقع في مجلدين¹ .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

¹ - وقد نشر مختصره بتحقيق أحمد و سيف الدقاف وقد سبق الإشارة إليه

المبحث الثالث

ما أثر عنه من أقوال و فتاوى

و أشعار و مواعظ

كما اشتهر ابن الجوزي بكثرة المصنفات في شتى فروع العلم اشتهر أيضا بالعديد من الأشعار و الفتاوى و المواعظ؛ أضف إلى ذلك جملة من الأقوال التي أثرت عنه و تناقلها العامة من الناس و الخاصة من العلماء و طلبة العلم، حتى صارت كأمثال تعرف به وتنسب إليه و ذلك بصفته داعية الجماهير التي تتلقف كل ما يصدر عنه من قول أو فعل أو تأليف سواء بالرد حيناً أو بالقبول في أحيان كثيرة ، وهذا هو الشأن غالباً فرضاهم غاية لا تدرك . و سأعرض في هذا المجال لذكر طائفة من هذه الأشعار و الفتاوى و المواعظ ، و الأقال على سبيل التمثيل دون الشرح و التحليل لأن المقام لا يقتضى ذلك .

١ - نماذج من أقواله :

— سنل مرة عن الغناء فأجاب ثم قال معقبا : " ما عزّ يوسف إلا بترك ما ذلّ به ماعز " ¹ .
— و عندما وقع النزاع مرة بين أهل السنة و الشيعة ، فاحتكموا إليه و هو على كرسيه في مجلس الوعظ فسألوه : من أفضل البشر بعد نبينا محمد — صلى الله عليه و سلم — أبو بكر أم علي ؟ فقال : " من كانت ابنته تحته " ، و نزل في الحال حتى لا يرجع ، و قد ظن كل من المتخاصمين أنه قد حكم له ² ، و قد عد بعض العلماء هذا القول من أحسن الأجوبة و خاصة أن ابن الجوزي قاله ارتجالا ³ .

— و قال — رحمه الله — في فضل عائشة و رد المطاعن عنها : " قال جبريل للرسول — صلى الله عليه و سلم — : سلم على عائشة ، و لم يواجهها بالخطاب احتراماً لزوجها . وجهه لمريم لأنه ما كان لها زوج ، فمن يحترمها جبريل كيف يجوز في حقها لأباطيل ؟ " ⁴

— و قال في من يتنعم في الدنيا و لا يؤدي شكرها : " الدنيا دار الإله ، و المتصرف بالدار

— الدليل على طبقات الخنازلة : ابن رجب ، 1 / 422 .

— تذكرة الحفاظ : الذهبي ، 4 / 1345 .

— وفيات الأعيان : ابن خلكان ، 3 / 142 .

— الدليل على الروضتين : لأبي شامة ، ص 23 .

بغير أمر صاحبها لص " 1 .

- و من أحسن كلامه قوله : " من قنع طاب عيشه ، و من طمع طال طيشه " 2 .
- و عقب على ما قاله فرعون مقتخرا بملكه : (وهذه الأنهار تجري من تحتي) 3 " ويحه أيفتخر بنهر ما أجراه ، ما أجراه " 4 .
- و قال في قصة الذين عبدوا العجل من بني إسرائيل : " لو أن الله خارلهم ما خارلهم " 5
- و قال في غفلة الناس و ذهولهم في هذه الدنيا : " الرواحل في طي المراحل ، و الأنام نيام مراكب الأجل تجري ، و الركاب في الحديث " 6 .
- و قيل له : إن فلاناً أوصى عند الموت فقال : " طين سطوحه في كانون " 7 .
- و قال في قوله — صلى الله عليه و سلم — " أعماراً متي ما بين الستين إلى السبعين " 8
- " إنما طالت أعمار القدماء لطول البادية ، فلما شارف الركب بلد الإقامة قيل حثوا الخطي " 9 .
- و سئل بإيعاز من الروافض عن قوله — صلى الله عليه و سلم — : " لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله " 10 " فأعطاها علياً فأين كان أبو بكر؟ فقال : لما كان يوم بدر قام أبو بكر ليقاتل فقال له رسول الله — صلى الله عليه و سلم — : " متعنا بنفسك " 11 ، و لما كان يوم خيبر سلم الراية إلى علي ، فقال له : " أخرج " " فقعود من قعد بالأمر كخروج من خرج بالأمر و لكن في قوله متعنا بنفسك فضيلة " .
- و سئل لم لم ينص النبي — صلى الله عليه و سلم — على خلافة أبي بكر ؟ فأجاب : أنه

1 - الذيل على طبقات الخنابلة : ابن رجب ، 1 / 422 .

2 - المصدر السابق : 1 / 421 .

3 - الزحرف : 51 .

4 - الذيل على الروضتين : لأبي شامة ، ص 22 .

5 - المصدر السابق : نفس الصحة .

6 - انظر نواسخ القرآن : ابن الحوزي ، تحقيق حسين سليم أحمد الناراني ، دار الثقافة العربية ، دمشق ، ط 1 ، 1990 ، ص 56

7 - الذيل على الروضتين : ص 22 — الذيل على طبقات الخنابلة : 1 / 422 .

8 - الجامع الصحيح ، سنن الترمذي : لأبي عيسى الترمذي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، 517/5

كتاب الدعوات ، باب 102 في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم رقم : 3550 و قال : حديث حسن غريب .

9 - الذيل على الروضتين : ص 22 — الذيل على الطبقات : 1 / 421 .

10 - فتح الباري : ابن حجر العسقلاني ، 7 / 476 ، كتاب المغازي ، رقم : 4210 .

11 - المستدرک علی الصحیحین : لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، ص 3 / 474 ، كتاب

معرفة الصحابة ، ذكر مناقب عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق — رضي الله عنه .

قد جرت أشياء تجرى مجرى النص منها قوله : " مروا أبا بكر فليصل بالناس ¹ " و " اقتدوا بالذين من بعدي ² " فهذه أحاديث تجرى مجرى النص فهمها الخصوص غير أن الرفضة في إخفائها كاللصوص ³ .

لكن السائل لا يريد من سؤاله الاقتناع ؛ إنما أراد أن يوغر صدر ابن الجوزي عليه فقال له لما قال أقبيلوني : ما سمعنا مثل جواب علي ، و الله لا أقلناك ، فقال ابن الجوزي : " لما غاب علي عن البيعة في الأول أخلف ما فات بالمدح في المستقبل ، ليعلم السامع و الرائي أن بيعة أبي بكر و إن كانت من ورائي فهي رأي ، و مثل ذلك الصدر لا يراني ، و ما أحسن استدلاله حين قال رضيك رسول الله - صلى الله عليه و سلم - لدينا أفلا نرضاك لدينا " ⁴ .

و سأله سائل مرة : ما الذي وقر في صدر أبي بكر ؟ فقال : " قوله ليلة المعراج إن كان قال فقد صدق فله سبق " ⁵ .

وقال في قوله تعالى : (و نزعنا ما في قلوبهم من غل) ⁶ " قال علي : " و الله إنني لأرجو أن أكون أنا و عثمان و طلحة و الزبير منهم " . فقال أبو الفرج : " إذا اصطلح الخصوم فما بال النظارة " ⁷ .

- وقال مرة معبرا عن صموده أمام المبتدعة : " أقدام إيماننا سليمة و في أرجل المبتدعين عرج ، و يكفي في قلع أصولهم أبوا الفرج " ⁸ .

- وقال في تخويف المدعوين بالموت و ظلمة القبر : " ابك على نفسك قبل أن يبكي عليك و تفكر في سهم قد صوب إليك ، و إذا رأيت جنازة فأحسبها أنت ، و إذا عاينت قبراً فتوقمه

الباري : 2 / 151 ، كتاب الأذان باب المرض أن ينهد الجماعة ، رقم : 664 - الجامع الصحيح سنن الترمذي :

، كتاب المناقب ، باب 16 مناقب أبي بكر رقم : 3672 .

مع الصحيح ، سنن الترمذي : 5 / 569 ، كتاب المناقب ، باب 16 مناقب أبي بكر و عمر رقم : 2612 و قال حديث

سنن ابن ماجة : لأبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث خلف الأزهر القاهرة

37 / المقدمة ، باب فضائل الصحابة ، فضل أبي بكر ، رقم : 97 .

على الروضتين : لأبي شامة ، ص 23 .

السابق : ص 23 .

لمصدر و الصفحة ، انظر لمول أبي بكر في حادثة الإسراء في المستدرك للحاكم : 3 / 62 ، 77 ، كتاب معرفة الصحابة

ز ، قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه .

ص : 43 .

على الروضتين : ص 23 .

ابن الجوزي ص 41 .

قبرك وعد باقي الحياة ربها".¹

— وقال محذراً من الاغترار بالدنيا : " يامن أيام عمره معدودة ، وجسمه بعد مماته مع دودة " .²

— وقال في الغفلة عن الآخرة : " أنت في الشر أجرى من جواد ، و في الخير أبطأ من عرج معاصيك أشهر من الشمس ، و توبتك أخفى من السها ، الزكاة عندك أثقل من أحد الصلاة عليك كثقل صخر على صدر ، طريق المسجد في حسابك كفسخ في دير كعب صدرك عند حديث الدنيا أوسع من البحر ، و وقت العبادة أضيق من عقد التسعين " .³

— وقال في اغتنام العمر : " اسمع يا من أنفاسه محفوظة ، و أعماله ملحوظة أتنفق العمر النفيس في مثل الهوى الخسيس " .⁴

2 — نماذج من فتاواه :

1 — العبادات :

— و مما أفتى به ابن الجوزي في باب الاستنجاء أنه كان ينهي عند الإستبراء عقب قضاء الحاجة عن القيام و المشي و التتنحج حيث قال : " و منهم من يقوم فيمشي و يتتنحج و يرفع قدما و يحط أخرى و عنده أنه يستقي بهذا و كلما زك في هذا نزل البول ... الخ " .⁵

و هذا النهي منه هو بخلاف ما عليه الفتوى في مذهب الإمام أحمد في أن من اعتاد في الإستبراء شيئاً لتنظيف المحل فليفعله سواء مشى أو ركض برجله أو تتنحج أو غير ذلك .⁶

— و في مبحث النية في الوضوء يذهب الحنابلة إلى أن النية يعبر عنها باللفظ سرا⁷ بينما يرى ابن الجوزي إضمار النية لأن النية بالقلب لا باللفظ .⁸

— المدمش : ص 367 .

— المصدر السابق : ص 363 .

— اللطائف : ص 60 ، 61 .

— المواعظ و المجالس : ص 222 .

— تلبس إبليس : ص 131 .

— انظر المدد شرح المقنع : لابن مفلح الحنبلي ، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت

1 ، م 1997 ، 1 / 66 . — الفقه الإسلامي و أدلته : و هبة الزحيلي ، دار الملكية للنشر و التوزيع الحراش ، الجزائر ، ط 1 ،

1 ، م 194 / 1 .

انظر المدد شرح المقنع : 1 / 96 — تقريب المنفعة إلى فقه المذاهب الأربعة : عبد السلام علوش ، دار المعرفة ، بيروت ،

ط 1 ، م 1999 ، ص 41 .

تلبس إبليس : ص 131 .

أما إسراف الماء في الوضوء فيرى الحنابلة في شأن المضمضة و الاستنشاق المبالغة فيها لغير الصائم¹، بينما يرى ابن الجوزي أن من تلبس إبليس الإسراف في استعمال الماء في الوضوء على أي وجه كان².

— وكان يرى كراهية دخول الحمام قريبا من الغروب، و بين العشائين، فإنه وقت انتشار الشياطين أما بالنسبة للمرأة فيرى أنه يجوز لها دخوله إذا اعتادته و شق عليها ترك دخوله إلا لعذر³.

— و عن استلقاء الرجل في المسجد و وضع إحدى الرجلين على الأخرى يرى ابن الجوزي أنه لا بأس به إذا كان له سراويل⁴.

2 - المعاملات :

من أهم فتاوى ابن الجوزي في هذا المجال :

— ما ذكره في قوله تعالى : (لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - عليم حكيم)⁵ قال ابن الجوزي : " أكثر المفسرين على أن هذه الآية محكمة وأنه أصح من قال هي منسوخة بقوله تعالى : (و إذا بلغ الأطفال ~~السن~~ منكم الحلم فليستأذنوا)⁶ لأن البالغ يستأذن في كل وقت و الطفل و المملوك يستأذن في العورات الثلاث ."

و قال أيضا : " لا يجوز أن تدخل بيت غيرك إلا بالاستأذان لهذه الآية " يعني (لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها)⁷ كما ذكر أن على المستأذن ألا يقف على الباب ويلزمه⁸.

— و في باب السلام على النساء يرى بأنه إذا خرجت المرأة لا تسلم على الرجل و لا يسلم عليها مطلقا و استدلل على ذلك بقوله — صلى الله عليه و سلم — : " ليس للنساء سلام و لا

¹ - انظر المحرر في الفقه على مذهب الإمام أحمد : محمد النديس أبي البركات ، تحقيق محمد حامد الفقي ، دار الكتاب العربي ، ص 11 / 1 — تقريب المنفعة إلى فقه المذاهب الأربعة : عبد السلام علوش ، ص 51 .

² - تلبس إبليس : ص 132 .

³ - الآداب الشرعية : ابن مفلح الحنبلي ، 3 / 339 ، 337 .

⁴ - المصدر السابق : 3 / 425 .

⁵ - النور : 58 .

⁶ - النور : 59 .

⁷ - النور : 27 .

⁸ - الآداب الشرعية : 1 / 441 ، 445 .

عليهن سلام " ¹ .

— و مما قاله لما سئل عن الغناء : " أقسم بالله لهو لهو " ² .

— و كان يرى أنه لا بأس من الخضاب بالسواد ، و قد صنف فيه كتابا سماه الشيب والخضاب ³ .

— و مما جاء عنه في مسألة المفاضلة بين الغني و الفقير كلام كثير قال فيه : " فظاهر النقل يدل على تفضيل الفقير و لكن لا بد من تفصيل ، فنقول إنما يتصور الشك والخلاف في فقير صابر ليس بحريص بالإضافة إلى غني شاعر ينفق ماله في الخيرات ، أو فقير حريص مع غني حريص ، فلا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص ، فإن كان الغني متمتعاً بالمال في المباحات فالفقير القنوع أفضل منه . . . و الدنيا ليست محذورة لعينها بل لكونها عاتقة عن الوصول إلى الله تعالى ، و الفقر ليس مطلوباً لعينه لكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى و عدم التشاغل عنه ، و كم من غني لا يشغله الغنى عن الله تعالى كسليمان — عليه السلام — و كذلك عثمان و عبد الرحمن بن عوف — رضي الله عنهما — و كم من فقير شغله فقره عن المقصود و صرفه عن حب الله تعالى و الأنس به ، و إنما الشاغل له حب الدنيا إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى ، فإن المحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله ، بل قد يكون شغله في فراقه أكثر و الدنيا معشوقة الغافلين فالمحروم منها مشغول بطلبها ، و القادر عليها مشغول بحفظها و التمتع بها ، و إن أخذت الأمر باعتبار الأكثر ، فالفقير عن الخطر أبعد ، لأن فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ، و من العصمة أن لا تجد ، و لما كان ذلك في طبع الأدميين إلا القليل منهم جاء الشرع بنم الغنى و فضل الفقر " ⁴ .

— و من جملة فتاواه الجريئة أنه صرح بأن تقبيل يد الظالم معصية ، إلا أن يكون عند خوف و لكنه أباحه إذا حصل من طالب العلم للعالم ، و كان على سبيل التواضع ⁵ .

¹ - الآداب الشرعية : ابن مفلح الحنبلي ، 1 / 371 ، 375 و الحديث جاء في حلية الأولياء و طبقات الأصفياء : لأبي نعيم أحمد ابن عبد الله الأصبهاني ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1418 ، 1997م ، 8 / 62 ، و قد رواه عن عطاء الخراساني مرفوعاً .

² - الذيل على طبقات الحنابلة : ابن رجب ، 1 / 422 .

³ - المصدر السابق : 1 / 419 .

⁴ - الآداب الشرعية : 3 / 498 ، 499 .

⁵ - المصدر السابق : 2 / 272 .

— و مما ذكره من فتاوى في هذا الباب تصريحه بعدم جواز ثقب أذن البنت لأنه جرح مؤلم
و في المخانق و الأسورة كفاية عن ذلك¹. و لقد عجبت لرأي ابن الجوزي في هذه المسألة
فحبذا لو ذكر لنا أدلة ما ذهب إليه .

— بل إننا نرى أن ابن الجوزي يجيب سائله الذي سأل : هل في مسند الإمام أحمد ما ليس
بصحيح ؟ بقوله : " نعم " رغم أن هذا مما يعظم في نفوس أتباع المذهب² .

— كذلك نجد ابن الجوزي يخالف فتوى ابن حنبل الذي يقول بترك انتدائي و ذلك أن
ابن الجوزي قال بوجوبه³ .

3 - نماذج من أشعاره :

نظم ابن الجوزي الكثير من الأشعار حتى بلغت حد المصنفات وسنذكر هنا بعض النماذج
التي تدل على نبوغه في هذا الفن و مما قاله :

يا صاحبي إن كنت لي أو معي فمج على وادي الحمى نرتع
وسل عن الوادي و سكانه وأنشد فوادي في ربي المجمع
حتى كذب الرمل رمل الحمى وقف وسلم لي على لعلع
واسمع حديثا قد روته الصبا تسنده عن بانه الأجرع
وابك فما في العين من فضلة ونب فلتك النفس عن مدعي⁴

و قال أيضا :

في شغل من الرقاد شاغل من هاجه البرق يسفح عاقل
يا صاحبي هذي ديار ربعهم قد أخبرت شمائل الشمائل
واطربي إذا رأيت أرضهم هذا وفيها رميت مقانلي
ما للصبيا مولعة بذى الصبي أو صبي فوق الغرام القائل⁵

و أنشد :

تملكوا واحتكموا وصار قلبي لهم

¹ - أحكام النساء : ابن الجوزي ، دار الشهاب ، باتنة الجزائر د ت ، ص 15 - الآداب الشرعية : لابن مفلح 3 / 356 ولكن
هذا الرأي ينو غربيا و غير موافق من ابن الجوزي وكان بإمكان المؤلف أن يذكر لنا أدلة ابن الجوزي على ما ذهب إليه .

² - صيد الخاطر : 416 .

³ - انظر مبحث ابن الجوزي ومذهبه الفقهي والعقدي من فصل حياة ابن الجوزي .

⁴ - للذيل على الروضتين : لأي شامة ، ص 24 .

⁵ - المصدر السابق ، نفس الصفحة .

تصرفوا في ملكهم
إن وصلوا محبهم
اصبر على ما شاءوا
يا أرض سلع خبري
فلا يقال ظلموا
أو قطعوا فهم هم
شاء الذي قد حكموا
و حدثيني عنهم¹

و مما أنشده قوله :

ولما رأيت ديار الصفا
سعيت إلى سد باب الوداد
و مما قاله أيضا :

سلام على الدار التي لا تزورها
إذا ما ذكرنا طيب أيامنا بها
رحلنا و في سر الفؤاد ضمائر
أتنسى رياض الروض بعد فراقها
ألا أيها الركب العراقي بلغوا
و مما أنشد من شعره :

إذا جزت بالفور عرج يمينا
و سلم على بانه الواديين
و صح في مغانيهم أين هم ؟
لمن تعذلين أما تعذرين
إذا غلب الحب ضاع العتاب
و مما قلته :

نراع إذا الجنائز قابلتنا
كروعة ثلة لظهر ذئب
و مما قاله أيضا :

تقاسموا يوم الوداع كبدي
فليس لي منذ تولوا كبدي

1 - الدليل على الروضتين : لأبي شامة ، ص 24 .

2 - الدليل على طبقات الخنابلة : لابن رجب ، 1 / 423 .

3 - للمصدر السابق : 1 / 424 .

4 - للمدحني : ص 541 .

على الجفون رحلوا و في الحشى
 هم الحياة أعرقوا أم أشأموا
 هم تولوا بالفؤاد والكرى
 لولا الضنى جددت وجدي بهم
 تقيلوا ، وماء عيني وردوا
 أم أتهموا أم أنجدوا
 فأين صبري بعدهم و الجلد
 لكن ججودي بالغرام يشهد¹
 ٤ - نماذج من وعظه :

لابن الجوزي مواعظ كثيرة لا يمكن حصرها في هذا المقام ، و لهذا سأكتفي بذكر بعض المقتطفات كنماذج - على سبيل الذكر لا الحصر - من هذه المواعظ².

١ - عظة نفسية :

عباد الله ما مضى من مضى إلى القبور الحالية من الأمم الخالية لتبقيوا بعدهم إلا النزر اليسير الذي بقي من أعماركم ثم تنتهبون إلى القبور ، و تخرجون من سعة القصور و الدور . و الحمد لله يا معشر المؤمنين و جماعة إخواني المسلمين ، جتوا و اجتهدوا و بالعمل الصالح فاستعدوا ، و قدموا لأنفسكم ما تجدوه في المقابر ، و ابكوا عليها قبل حلولها في الحفائر و أنشدوا :

لكل أناس مقبر بفنائهم
 وفي محشر الموتى أمام قبورهم
 فهم في انتقاص و القبور تزيد
 فما منهم من للحياة يعود

تذكر أيها المغرور أباك و إخوانك ، و تذكر أهلك و جيرانك ، و تذكر أحبابك و أذنانك أين الذين كانوا لك في الدنيا أحبابا ، و في أيام حياتك أصحابا ؟ صحبتهم و صحبتوك و ذهبوا عنك و تركوك ، و أوحشوا الأهل و الأحباب ، و فارقوا القرابة و الأصحاب ، قد ضمت أجسادهم المقابر ، و غيرت أبقارهم الحفائر ، و بقيت أرواحهم تنتظر يوما تبلى فيه السرائر فمنهم من يجازى بنعيم و خلود ، و منهم من يرد النار و بنس للورد المورود ، أين لقمان بن عاد ، أين ثمود و شداد ، أين فرعون ذي الأوتاد ، و أين من طغى في البلاد و أظهر فيها الفساد ... تذكر أيها الغافل أين الملوك الأكابر ، و أين الطغاة الجبابر ، و أين الذين جمعوا الأموال و الذخائر ، و قادوا الجيوش و العساكر ، و كانت الخطباء تذكرهم على المنابر حولتهم و الله النوائب إلى الحفائر ، و بقوا مرتينين بأعمالهم في ظلمات المقابر ، و نزلوا على ما قدموا من ذخائر الأعمال قد قطعت الديدان أوصالهم

¹ - صاعد : ص 61 .

² - للتفصيل في الوعظ و المواعظ ر دررما النظر حصل أساليب الدعوة ابن الجوزي .

و غير البلاء أحوالهم .

قد سالت العيون منهم على الخدود ، و صارت لحومهم قوتا للهوام و الدود ، قسمت
من بعد دفنهم في التراب أموالهم ، و نكحت من عدوهم عيالهم ¹ .

2 - الخوف من الجليل :

يا أخي : عصفت رياح الزفرات من القلب المشوق ، فأججت نار الأسف
على فراق المعشوق ، فلو رأيت كيف شؤونهم على اختلاف شجونهم ، لرأيت أمرا مهولا
و لرأيت دمعا همولا ، هذا يعاتب نفسه على التقصير ، و هذا يتفكر في أهوال المصير
و هذا يخاف من ناقد بصير ، منازل تعبدهم متناوحة ، و في كل بيت لهم نائحة ، التائب
يقول : أنا المقر على نفسي بالجناية ² .

د - سارع إلى الجنة :

إخواني : لقد خاب من باع باقيا بقان ، و خطر في ثوبي متوان ، و تغافل عن أمر
قريب كان ، و ضيع يوما موجودا في تأميل ثان ، أما الجنة تشوقت لطالبيها ، و تزينت
لمريديها و نطقت آيات القرآن بوصف ما فيها ، و ملأت أسماع العباد أصوات واصفيها
كانكم بالجنة و قد فتحت أبوابها ، و تقسمها يوم القيامة أصحابها ، و غدت ألسن الأمانى
قريب قبابها ³ .

هـ - أهل الإيمان و أهل اليقين :

أيها العبد المقهور المضيم ، استعذ بالله السميع العليم ، و لا تنس في ابتداء كل أمر :
(باسم الله الرحمن الرحيم) ، فإن أنت لم تجد لبركة اسم الله أثرا ظاهرا في جميع
الأمر فاعلم أنك مقصر عند التسمية في الإخلاص و الحضور .

ذكر اسم الله في ابتداء الأقوال و الأفعال ، أنسة من الوحشة و هداية من الضلال
و حمده تعالى فرض لازم لكل أحد على كل حال ، لأنه أهل أن يحمد إن ابتلى و إن عافى
و إن منع و إن أنال ، عم بفضله النساء و الرجال و الكهول و الأطفال ، و لطف في قدره
و قضائه بأهل أرضه و سمائه ، فلم يخل من لطفه سافل و لا عال .

من خرج من دار الكفر إلى حظيرة الإيمان ، فقد أخرج من الظلمات إلى النور ؛ لأن
الكافر جاحد كاند ، و المؤمن معترف شكور ، و الشاكر بالمزيد موعور ، و الكاند على الباب

انظر بستان الواعظين : ص 235 ، 236 .

للواعظ و المجالس : ص 74 .

البارقة : ص 79 .

المبحث الرابع

ما كتب عنه من دراسات و أبحاث

إن رجلا كسابن الجوزي كتب الكثير ، فمن غير شك أنه كتب و سيكتب عنه الكثير و ذلك لأنه كلما كتب باحث في جانب من جوانب هذه الشخصية المعطاءة إلا و ظهرت له آفاق متسعة اتساع ثقافة الرجل ، و وفرة عطائه الفكري في جميع الفنون و مؤلفاته التي ذكرناها تدل على ذلك .

و في هذا المقام سأحاول ذكر ما استطعت الوقوف عليه من الأبحاث و الدراسات التي صنفت حول جوانب شخصية ابن الجوزي المتعددة ، و لا نزعم أنه لا توجد دراسات أخرى في أماكن أخرى من العالم وذلك لأن شخصية ابن الجوزي هي محل دراسة و عناية من شتى الباحثين سواء المسلمين أو غيرهم¹ .

— الدراسات و التحقيقات :

1 — الحديث و علومه :

1 — ابن الجوزي محدثا و منهجه في كتاب الموضوعات: للباحث قسم الله بن علي بن محمد ابن مريود ، رسالة ماجستير نوقشت سنة 1403 هـ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
2 — عبد الرحمن ابن الجوزي المحدث : للباحث أبو العلا علي أبو العلا ، رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين جامعة الأزهر .

3 — الموضوعات لابن الجوزي ، دراسة في المنهج و المصادر : للباحث أحمد عطا إبراهيم حسن ، رسالة ماجستير نوقشت سنة 1991 م بقسم اللغة العربية و أدائها بجامعة القاهرة .

4 — أبو الفرج ابن الجوزي و منهجه في الحديث : للباحث نور الدين بوياجيلار رسالة دكتوراه نوقشت سنة 1978 م بكلية الإلهيات بجامعة أنقرة بتركيا .

5 — الإمام ابن الجوزي و كتابه الموضوعات : للباحث محمود أحمد القيسية الندوي رسالة دكتوراه نوقشت بجامعة البنجاب بلاهور باكستان .

6 — مقاييس ابن الجوزي في نقد متون السنة من خلال كتاب الموضوعات : للباحث مسفر

¹ - انظر تاريخ الأدب العربي : كارل بروكلمان ، ترجمة عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة 1977 م كما حقق له مار لون سوارتز كتاب القصص و المذكرين ونشرته دار المشرق بيروت سنة 1971 م و أنجز رسالته التي نال بها شهادة الدكتوراه عن ابن الجوزي ، كما حقق له حبرائيل سليمان حور كتاب فضائل الفلاس ونشرته دار الآفاق الجديدة بيروت سنة 1979 م .

غرم الله الدميني ، دار المدني بجدة الطبعة الأولى سنة 1984 م .

2- التفسير وعلوم القرآن :

1- منهج ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير : للباحث عبد الرحيم بن أحمد طحان ، رسالة دكتوراه نوقشت سنة 1981 م بكلية أصول الدين جامعة الأزهر .

2- ابن الجوزي و منهجه في التفسير : للباحث عبد العزيز ثابت ، رسالة ماجستير نوقشت سنة 1995 م بكلية أصول الدين بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة الجزائر .

3- ابن الجوزي و منهجه في التفسير : للباحث علي محمد الزبيري ، دار التعليم للطباعة والنشر دمشق الطبعة الأولى 1987 م .

4- موازنة بين تفسير المحرر الوجيز و زاد المسير لابن الجوزي : للباحث منصور كافي رسالة دكتوراه نوقشت سنة 1999 م بكلية أصول الدين بجامعة الأمير عبد القادر ، قسنطينة .

3- العقيدة والأخلاق والتصوف :

1- ابن الجوزي بين التأويل و التفويض : للباحث أحمد عطية عبد الرحمن الزهراني رسالة ماجستير نوقشت سنة 1397 هـ بكلية الشريعة و الدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى .

2- ابن الجوزي و آراؤه الكلامية والأخلاقية : للباحثة أمينة محمد نصير ، رسالة ماجستير نوقشت سنة 1971 م بكلية البنات ، جامعة عين شمس ، القاهرة و نشرتها دار الشروق .

3- موقف ابن الجوزي من التصوف : للباحث علي بن صالح القوشي ، رسالة ماجستير نوقشت سنة 1414 هـ بكلية الدعوة و أصول الدين بجامعة أم القرى .

4- الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي و آراؤه الكلامية : للباحث نصر الله محمد عبد الحميد البراجة رسالة ماجستير نوقشت سنة 1985 م بقسم الفلسفة ، جامعة الإسكندرية .

5- ابن الجوزي و عقائده : للباحث أحمد عطية الغامدي ، رسالة ماجستير نوقشت بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

6- أبو الفرج ابن الجوزي و آراؤه الكلامية : للباحث رمضان عبد الباسط سالم الرفاعي رسالة ماجستير نوقشت سنة 1994 م بكلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر .

7- الآراء الأخلاقية عند ابن الجوزي : للباحث عبد العزيز سيد هاشم ، رسالة ماجستير نوقشت سنة 1998 م بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة و الرسالة نشرها الباحث بعنوان

ابن الجوزي الإمام العربي ، والواعظ البليغ والعالم المتفتن سنة 2000 م بدار للقلم بدمشق .

٤ - الدعوة والوعظ :

١ - ابن الجوزي الواعظ و منهجه في الدعوة إلى الله و الموازنة بينه و بين منهج الإمام الغزالي : للباحث جمعة على محمد الخولي ، رسالة دكتوراه نوقشت سنة 1973 م بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر .

٢ - منهج ابن الجوزي في الدعوة إلى الله : للباحث عبد الرحيم محمد المغذوي ، رسالة دكتوراه نوقشت سنة 1410 هـ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

٣ - دراسة عن حياة و أعمال ابن الجوزي كواعظ : للباحث مارلين لوري ، رسالة دكتوراه باللغة الإنجليزية نوقشت سنة 1967 م بجامعة هارفارد

٥ - اللغة والأدب :

١ - ابن الجوزي و مقاماته الأدبية : للباحث علي جميل علي مهنا ، رسالة ماجستير نوقشت سنة 1976 م بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر .

٢ - أدب ابن الجوزي : للباحث أول خير عمر عيسى سراج ، رسالة ماجستير نوقشت سنة 1409 هـ بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى .

٣ - دراسة اللغة في كتاب زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي : للباحثة ابتسام محمد نور غباشي ، رسالة دكتوراه نوقشت سنة 1411 هـ بكلية اللغة العربية وآدابها بجامعة أم لقرى .

٤ - مواعظ ابن الجوزي ، دراسة تحليلية فنية : للباحث عرفة حلمي عباس أحمد . رسالة ماجستير نوقشت سنة 1991 م بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

٥ - مخطوطات التصويب اللغوي للزبيدي و ابن مكي و ابن الجوزي : دراسة للباحث عبد العزيز السيد رشوان مطر ، رسالة دكتوراه نوقشت سنة 1964 م بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة .

٦ - التاريخ :

المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم : رسالة دكتوراه في التاريخ ، للباحث عوض السميري نوقشت بكلية العلوم الاجتماعية ، بجامعة محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة 1406 هـ

٧ - التربية الإسلامية :

١ - الفكر التربوي عند الإمام أبي الفرج ابن الجوزي : للباحث صالح المغاوري المغازي رسالة ماجستير نوقشت سنة 1988 م بكلية التربية بجامعة طنطا بمصر .

2 - آراء ابن الجوزي التربوية ، دراسة و تحليل و مقارنة : للباحثة ليلى عبد الرشيد عطار رسالة دكتوراه نوقشت سنة 1413 هـ بكلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، و طبعت سنة 1998 م بدار منشورات أمانة للنشر ، ميرلاند ، الولايات المتحدة .

3 - التربية العقلية عند ابن الجوزي : للباحثة حليلة علي مصطفى أبو رزق ، رسالة ماجستير نوقشت سنة 1407 هـ بكلية التربية بجامعة أم القرى .

4 - التربية و التعليم عند ابن الجوزي : للباحث عبد البديع عبد العزيز الخولي ، عالم الكتب القاهرة سنة 1991 م .

5 - وصايا و نصائح لطالب العلم : لابن الجوزي ، انتقاها و علق عليها و حققها محمد ابن إبراهيم الشيباني ، منشورات مركز التراث و الوثائق الكويت ، ط 1 ، 1415 هـ ، 1994 م .

6 - ابن الجوزي و تربية العقل : عبد الرحمن صالح عبد الله ، شركة مكة للطباعة و النشر الطبعة الأولى سنة 1986 م .

7 - أعلام التربية في تاريخ الإسلام "ابن الجوزي": للأستاذ الباحث عبد الرحمن النحلاوي¹

1 - البحوث و المقالات :

- 1 - الطبيعة الإنسانية في فكر ابن الجوزي : بحث للدكتور حسين عبد العال ، المؤتمر الخامس للتربية الإسلامية - القاهرة - 1987 .
- 2 - المفاهيم العقلية عند أبي الفرج بن الجوزي : للباحث محروس سيد مرسي ، و أحمد الرفاعي غنيم المؤتمر الخامس للتربية الإسلامية بالقاهرة سنة 1987 الجزء الثاني من الصفحة 703 إلى 717 .
- 3 - الفكر التربوي عند الإمام أبي الفرج ابن الجوزي : بحث للدكتور حسن إبراهيم عبد العال ، نشر في كتاب : من أعلام التربية العربية الإسلامية الجزء الثاني الصفحة من 97 إلى 143 نشر مكتبة التربية لدول الخليج العربي ، سنة 1988 م .
- 4 - مع ابن الجوزي في كتابه " تقويم اللسان " مقال للدكتور خليل بن بيان الحسون نشره في مجلة " دراسات عربية و إسلامية " بالعراق العدد الثاني السنة الثانية 1982 م الصفحة 143 .
- 5 - المستدرك على مؤلفات ابن الجوزي : محمد باقر علوان ، مجلة المورد ، العراق العدد الأول و الثاني ، سنة 1971 م الصفحة 181 .

¹ - رغم هذه البحوث و الدراسات التربوية حول ابن الجوزي إلا أن الباحثين في ميدان التربية لم يدروا ابن الجوزي في مؤلفاتهم ضمن قائمة المرين المسلمين . و كمثل على ذلك انظر أصول التربية و تطورها في البلاد العربية ، محمد جابر مرسي و كتاب أئمة الفكر التربوي لرامة ثابته ، محمد حواد رضا .

- 6 — ابن الجوزي : مقال للباحث محمد علي النجار ، نشره بمجلة الهداية الإسلامية بالقاهرة في عددها الرابع لشهر نوفمبر سنة 1939 م الصفحة 131 .
- 7 — ابن الجوزي و مقاماته المخطوطة : مقال للباحث علي جميل علي مهنا ، نشره في مجلة " معهد المخطوطات العربية " بالكويت في المجلد الثامن و العشرين ، الجزء الأول لسنة 1984 م الصفحة 257 .
- 8 — نقد ابن الجوزي للعلم و العلماء : للباحث سعيد إسماعيل علي نشره بمجلة " دراسات تربوية " المجلد الرابع الجزء العشرون ، سبتمبر سنة 1989 م الصفحة 13 .
- 9 — من تراثنا " الشفاء في مواضع الملوك و الخلفاء " مقال للأستاذ محمد عبد الله السمان نشر " بمجلة التضامن الإسلامي " لسنة السادسة و الثلاثين في جزئها التاسع السنة 1982 الصفحة 77 .
- 10 — الذكاء عند ابن الجوزي : للباحث محمد خلف الله أحمد ، مجلة " دراسات تربوية " المجلد الثاني الجزء السابع سنة 1987 م الصفحة 29 .
- 11 — أبو الفرج ابن الجوزي و قدراته العقلية : مقال للدكتور سيد صبحي ، الأهرام السنة السادسة عشر بعد المائة العدد 38463 الصادر يوم الأحد 25 رمضان 1412 هـ ، 29 مارس 1992 .
- 12 — ابن الجوزي فاعلا و منفعلا في حياة بغداد السياسية في القرن السادس الهجري : بحث للدكتورة مؤمنة عوف مجلة الباحث السنة 11 ، العدد 56 ، كانون الأول سنة 1992 م .
- 13 — تربية الأبناء عند ابن الجوزي : للباحث طييب الحمود مجلة " التربية الإسلامية " العراق ، العدد السابع السنة الرابعة و الثلاثون نيسان 1999 م .
- 14 — أمور تربوية مع كتاب " الطب الروحاني " لابن الجوزي ، مجلة الخفجي المجلد الثامن عشر العدد العاشر ، جانفي سنة 1989 م الصفحة 30 .
- 15 — ابن الجوزي علمه و دعوته : للباحث خالد راشد الغانم بحث تكميلي ، قدمه الباحث سنة 1407 هـ بكلية الدعوة و الإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
- 16 — من الإمام ابن الجوزي إلى الشباب : مقال للباحث عبد الجواد محمد الخضري مجلة " الوعي الإسلامي " السنة الثامنة عشر العدد 216 ، أكتوبر سنة 1982 م الصفحة 118 .
- 17 — ابن الجوزي عالم فقيه و واضع بليغ : للباحث عبد الله بدران ، مجلة النور ، الكويت العدد 116 ، يوليو سنة 1994 م .

18 - أبو الفرج بن الجوزي مفكرا تربويا : للباحث سيد ربيع ، مجلة " منار الإسلام " الصفحات من 102 إلى 105 .

19 - الأصول النفسية للتربية عند الإمام أبي الفرج بن الجوزي : للدكتور حسن عبد العال مجلة البحوث النفسية والتربوية ، كلية التربية ، جامعة المنوفية بمصر ، العدد الثاني ، السنة الثامنة ، يوليو 1992 م .

20 - ابن الجوزي و الغوص في كل العلوم : إعداد أحمد تمام ، هذا المقال نشره الباحث المذكور عبر شبكة الإنترنت في موقع " إسلام أون لاين " في ركن " في رحاب رمضان " سنة 2002 م .

الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباب الثاني

الدعوة عند ابن الجوزي

ويتضمن أربعة فصول

الفصل الأول : الدعوة والداعية عند ابن الجوزي

الفصل الثاني : أساليب الدعوة ووسائلها عند

ابن الجوزي

الفصل الثالث : منهج دعوة ابن الجوزي

وخصائصه

الفصل الرابع : أصناف المدعوين عند ابن الجوزي

الفصل الأول

الدعوة والداعية عند

ابن الجوزي

ويتضمن أربعة مباحث

المبحث الأول : تعريف الدعوة وحكمها وفضلها

المبحث الثاني : مصادر الدعوة عند ابن الجوزي

المبحث الثالث : تعريف الداعية وصفاته

المبحث الرابع : مؤهلات الداعية وحظ

ابن الجوزي منها

المبحث الأول

تعريف الدعوة و حكمها و فضلها

١ - تعريف الدعوة لغة و اصطلاحاً :

أ - الدعوة في اللغة :

جاء في معجم الصحاح أن الدعوة هي : الصباح و النداء و الطلب، تقول مثلاً دعوت فلاناً أي صحت به و استدعيته ... و منه دعاه إلى القتال ، و دعاه إلى الصلاة ، و دعاه إلى الدين و إلى المذهب : حثه على اعتقاده ¹ .

و عرفها الزمخشري بقوله : " دعوت فلاناً : ناديته ، و النبي داعي الله ، وهم دعاة الحق و دعاة الباطل ، و دعاة الضلالة " ² .

وقال صاحب المصباح : " دعوت الله أدعوه دعاء ، ابتهلت إليه بالسؤال ، و رغبت فيما عنده من الخير ، و دعوت زيدا ناديته و طلبت أقباله ، و دعا المؤمن الناس إلى الصلاة فهو داعي الله ، و الجمع دعاة و دعوات ، و النبي - صلى الله عليه و سلم - داعي الخلق إلى التوحيد " ³ .

و ورد في جمهرة اللغة أن : " الدعوة في النسب بالكسر لا غير ، و الدعوة إلى الطعام بالفتح و هي المدعاة أيضا ، و استجاب الله دعاءه و دعوته " ⁴ .

و من جملة ما جاء في لسان العرب هذه المعاني : دعا الرجل دعوا و دعاء : ناداه و الاسم الدعوة ... و دعوة الحق هي شهادة أن لا إله إلا الله ... و الدعاة قوم يدعون إلى هدى أو ضلالة ، و رجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى دين ⁵ .

من خلال هذه التعاريف اتضح لنا أن كلمة الدعوة في اللغة لها معاني متعددة منها

¹ - الصحاح : اسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور العطار در العلم للملايين ، بيروت ، ط 2 ، 1404 • 1984 م 2737 / 6 .

² - أساس البلاغة : الزمخشري ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 131 .

³ - المصباح المنير : القاسمي ، المكتبة العنبرية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 194 .

⁴ - جمهرة اللغة : لأبي بكر صمد بن محمد بن درويش الأزدي ، تحقيق رمزي منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 1 ، 1987 م 2 / 666 .

⁵ - لسان اللسان ، تهذيب لسان العرب : ابن منظور الإفريقي ، هذب بإشراف عبد الله علي مهنا ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط 1 ، 1403 • 1993 م 1 / 107 .

الصياح النداء ، و الطلب ، و الحث ، و الرغبة . و الإبتغال ، و الاستمالة ، و الإجتماع و الدعاء ، شهادة التوحيد ، و لم ترد في كتب اللغة أكثر من هذه المعاني و الاستعمالات لكلمة دعوة ¹ . و قد وردت كلمة دعوة و ما في معناها من مشتقات الفعل دعا في القرآن الكريم حوالي 20² مرات ³ ، و أفادت معاني كثيرة ، فمنها أنها جاءت فعلا ماضيا في قوله عز وجل : (هـنالك دعا زكريا ربه) ⁴ ، و في قوله - تعالى - : (و من أحسن قولا ممن دعا إلى الله) ⁵ .

وجاءت فعلا مضارعا في قوله - تعالى - : (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا و من اتبعني) ⁶ .

وجاءت فعل أمر في قوله - تعالى - : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة و جادلهم بالتي هي أحسن) ⁷ .

و جاءت اسم فاعل في قوله - تعالى - : (يا قومنا أجيئوا داعي الله) ⁸ .
و جاءت مصدرا في قوله - سبحانه و تعالى - : (له دعوة الحق) ⁹ .

ومن خلال تأملنا في الآيات السابقة اتضح لنا أن كلمة الدعوة فيها تشير إلى معاني

متعددة وهي : الاستغاثة ، و الرجاء ، و السؤال ، و العبادة ، كما أفادت بأنها دين الله الذي (له دعوة الحق) و قد ذكر الأمام ابن الجوزي عند تفسيره لهذه الآية أن فيها قولان : " أحدهما أنها كلمة التوحيد و هي : لا إله إلا الله ، قاله علي و ابن عباس و الجمهور فالمعنى : له من خلقه الدعوة الحق ، فأضيفت الدعوة إلى الحق لاختلاف النظمين و الثاني : أن الله عز و جل هو الحق ، فمن دعا دعاه الحق ، قاله الحسن " ⁹ ، كما أفادت الآيات أيضا توجيه الناس إلى تبليغ دين الله - عز و جل - و الدعوة إليه .

¹ - انظر في المعاجم السابقة و غيرها تحديدا لا يخرج عن اللسان نحو ذكرنا .

² انظر : مفردات القرآن تفسير و بيان : محمد حسن الحصري - دار الرضيد ، دمشق : بيروت ، دة ، مادة دعو ، ص 82

من الفهرس .

³ - آل عمران : 38 .

⁴ - فصلت : 33 .

⁵ - آل عمران : 108 .

⁶ - النحل : 125 .

⁷ - الأحقاف : 31 .

⁸ - الرعد : 14 .

⁹ - زاد المسير في علم التفسير : 4 / 317 .

أما في السنة الشريفة فقد كانت الدعوة ممارسة عمليا من قبل النبي - صلى الله عليه وسلم - أكثر منها نظريا ، حيث كان - صلى الله عليه وسلم - في بداية الدعوة يدعو الناس إلى الإسلام الأقرب فالأقرب ، حتى نزل قوله - عز و جل - : (فاصدع بما تؤمر و أعرض عن المشركين)¹ عندها دخلت الدعوة الإسلامية مرحلة جديدة ؛ فبدأ الرسول - صلى الله عليه وسلم - حينها بالدعوة جهرا و قام بأعبائها أحسن قيام فبلغ الرسالة و أدى الأمانة و صبر على ذلك كما صبر أولوا العزم من الرسل حتى أكمل للناس دينهم و أتم عليهم نعمته كما ذكر ذلك سبحانه في قوله : (اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام ديناً)² و قد بين - صلى الله عليه وسلم - فضلها فقال : " من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا و من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا"³ . و بذلك سار موكب الدعوة إلا أن تم التبليغ و إقامة النواة الإسلامية في المدينة المنورة لتستمر بعد وفاته عليه الصلاة و السلام حركة الدعوة و التبليغ، في عصر الخلفاء الراشدين تبليغا و تعليما لأحكام الإسلام و تطبيقا لها في حياة المسلمين⁴ .

ب - الدعوة اصطلاحا :

كلمة الدعوة من الناحية الاصطلاحية هي من الألفاظ المشتركة التي تطلق على الإسلام أو الرسالة ، وعلى عملية تبليغ و نشر بين الناس ، و السياق هو الذي يحدد معناها و على هذا الأساس فإن التعريف الاصطلاحى للدعوة بمعناها الأول يختلف عن معنى الدعوة في تعريفها الثاني ، و لهذا يجدر بنا أن نتعرض للتعريف الاصطلاحى لكلا المعنيين من خلال أقوال العلماء المتعددة في الموضوع ، دون أن ننسى الإشارة إلى أنه لا يوجد في كتب العلماء المتقدمين - و خاصة كتب ابن الجوزي - تعريف لمصطلح الدعوة على نحو التعاريف التي دونها المتأخرون ، و السبب في ذلك - كما رجحه بعض الباحثين - يرجع إلى أنهم كانوا يمارسون الدعوة ، و يعيشونها في كل نواحي حياتهم الاجتماعية و العملية⁵ لأجل ذلك لم يكن لهم اهتمام بالجانب النظري .

¹ الحج : 4 .

² المائدة : 3 .

³ رواه مسلم ، 4 / 2059 ، كتاب العلم ، باب من سن سنة حسنة أو سيئة رقم 1017 .

⁴ المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتح البيانوني ، مؤسسة الرسالة ، ط 3 ، 1416هـ ، 1995م ، ص 90 .

⁵ - مدخل إلى علم الدعوة : عبد الرب بن نواب المين ، دار العاصمة السعودية بالرياض ، ط 1 ، 1413 هـ ، ص 13 .

1 - الدعوة بمعنى الإسلام :

ذكر العلماء المشتغلون بالدعوة الإسلامية عدة تعاريف للدعوة بهذا المعنى منها : أن الدعوة هي دين الله الذي ارتضاه للعالمين . تمكيننا لخلافتهم ... و رعاية لشؤونهم ، و حماية لوحدتهم ... و إشاعة للحق و العدل فيما بينهم ¹ .
كما عرفت بأنها : الخضوع لله ، و الانقياد لتعاليمه ، و هي الدين الذي ارتضاه الله للعالمين و أنزل تعاليمه على رسوله ، و هي النظام العام الشامل لأمر الحياة ، و مناهج السلوك التي جاء بها النبي - صلى الله عليه و سلم - من ربه ليبلغها إلى الناس ² .

2 - الدعوة بمعنى التبليغ :

عرفت الدعوة بهذا المعنى بتعاريف متعددة لا تخرج عنها ، من ذلك أن الدعوة تعني : " نقل الناس من محيط إلى محيط ثم عقب صاحب هذا التعريف بقوله : " و من ظننا غير ذلك فقد جهل نفسه و رسالته " ³ .
و هناك من استخلص تعريفا للدعوة فقال : " هي الطلب بشدة و حث على الدخول في دين الإسلام اعتقاد و قولاً و عملاً ، ظاهراً و باطناً " ⁴ .
و عرفت الدعوة بأنها : " طلب الناس و سوقهم إلى الإسلام ، و حثهم على الأخذ به " و هي كذلك " تبليغ الإسلام للناس ، و تعليمه إياهم ، و تطبيقه في واقع الحياة " ⁵ .
و قيل أنها : " قيام العلماء المستنيرين في الدين بتعليم الجمهور من العامة ما يبصرهم بأمور دينهم و دنياهم على قدر الطاقة " ⁶ .
و من الباحثين من رأى أن الدعوة هي الكشف عما اشتملت عليه من عقيدة صحيحة و ما دعت إليه من سلوك قويم ، و ما شرعنا من أخلاق و قيم تحتاج إليها الإنسانية في حياتها الدنيوية ⁷ .

¹ - الدعوة الإسلامية دعوة عالمية : محمد الراوي . مكتبة الرشد للنشر و التوزيع : ط 1 ، الرياض - 1991 م ، ص 4 .

² - الدعوة الإسلامية أصولها و رسالتها : أحمد أحمد غلوش ، دار الكتاب العربي ، القاهرة : ط 2 ، 1987 م ، ص 13 .

³ - تذكرة الدعوة : البيه الخولي ، مكتبة الخديف ، دت ، ص 27 .

⁴ - فقه الدعوة و أساليبها : محمود محمد حمودة ، محمد مطلق عثمان ، مؤسسة الوراق للنشر و التوزيع ، عمان : الأردن ، سنة

2000 م ، ص 11 .

⁵ - المدخل إلى علم الدعوة : أبو التوح البياون ، ص 16 ، 17 ، وكلا التعريفين له .

⁶ - الدعوة الإصلاحية علماً و عملاً : إبراهيم الدسوقي مرعي ، سلسلة رسالة الإمام ، وزارة الأوقاف المصرية ، ع 18 ، سنة

1987 م ، ص 5 .

⁷ - مسار الدعوة في العهد الملكي : محمد إبراهيم الجوشي ، دار الطباعة المحمدية ، رب الأتراك بالأزهر ، ط 2 ، 1986 م ، ص 65 .

و عرفت الدعوة كذلك، بأنها: "القيام بالنشر الإسلام و جذب الناس إليه بالوسيلة المناسبة" ¹ .
وهناك الكثير من التعاريف التي ذكرها علماء الاختصاص في مؤلفاتهم المتعددة ² ، و لكن
المجال هنا لا يتسع لذكرها جميعا .

و من خلال التمعن في هذه الأقوال ظهر لنا أنه لا يوجد أي تناقض أو تناقض بين هذه
التعاريف رغم تعددها، إنما هي من باب اختلاف النوع لا من باب اختلاف التصلب ، إذ أن
كل تعريف للدعوة من التعاريف السابقة الذكر ركز على جانب من جوانب الدعوة ، ولعل
أهم تعريف و أشمله لهذا المصطلح ، التعريف القائل بأن الدعوة هي : " تبليغ الإسلام للناس
و تعليمه إياهم ، و تطبيقه في واقع الحياة " ³ ، فهذا التعريف يبدو لي أنه أحاط بمختلف
معاني الكلمة و أبرز المعنى الذي نقصده من الدعوة في هذا البحث و هو النشر و التبليغ
و ذلك أن لفظ الدعوة إذا أطلق فهو ينصرف بدهاءة إلى المعنى الذي أشرنا إليه سابقا ؛ و هو
الدعوة إلى الإسلام و نشره لأن هذا المعنى له شواهد كثيرة من الآيات و الأحاديث تؤيده .
2 - **حكم الدعوة إلى الله وفضلها :**

جاء في القرآن الكريم جملة من الآيات تتحدث عن الدعوة ، و ضرورة القيام بها ، و الأجر
الجزيل للقائمين بها ، منها قوله تعالى لنبيه - عليه الصلاة و السلام - : (ادع إلى سبيل
ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة) ⁴ . و قوله - تعالى - : (و لتكون منكم أمة يدعون
إلى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و أولئك هم المفلحون) ⁵ ، و من
الأحاديث الواردة عن النبي - صلى الله عليه و سلم - في هذا المجال قوله : " الذين
النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال : لله و لكتابه و لرسوله و لأئمة المسلمين و عامتهم " ⁶ ، و قوله

1 - أساليب دعاء الدعوة الإسلامية في العهد الحديث - عبد الله بن محمود آل موسى ، عالم الكتب ، الرياض ، ط 1 : 1405 هـ .

1089 م ، ص 27 .

2 - انظر في ذلك هذه المؤلفات : مع الله دراسات في الدعوة و الدعاة للشيخ الجزائري : الدعوة إلى الإصلاح - محمد الأخضر حسين ،
مرشد الدعاة محمد عمر الخطيب : الإسلام فكرة و حركة و انقلاب لفتحي بكر ، عالمية الدعوة الإسلامية لعبد الحليم محمود ،
أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان وغيرها .

3 - المدخل إلى علم الدعوة : البيانوف ص 17 ، 409 .

4 - النحل : 125 .

5 - آل عمران : 104 .

6 - فتح الباري : 1 / 137 . كتاب الإيمان ، باب قول النبي " من " الدين النصيحة رقم 12 - صحيح مسلم : مسلم بر الحجاج
اليسابري ، تحقيق عماد فزاد عبد الباقى ، 1 / 74 : كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة رقم 35 .

— صلى الله عليه و سلم — : " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه و ذلك أضعف الإيمان " ¹ .

مما ورد في الأدلة السابقة تبين لنا وجوب الدعوة إلى الله سبحانه و تعالى ، لكن العلماء اختلفوا في نوعية هذا الوجوب هل هو على التعيين ، أم على الكفاية ² .
استدل العلماء الذين قالوا بالوجوب العيني بأدلة منها قوله تعالى : (و لتكون منكم أمة يدعون إلى الخير و يأمرون بالمعروف و أولئك هم المفلحون) ³ و شاهدتهم في الآية أن " من " في الآية للتبيين و ليست للتبويض و ذلك بقرينة الأدلة الأخرى التالية ، فتفيد هذه الآية عندهم توجيه الخطاب بالدعوة إلى جميع المكلفين ، فتكون الدعوة واجبة على كل مسلم بقدر استطاعته ⁴ .

و استدلل هذا الفريق كذلك بعموم قوله — صلى الله عليه و سلم — : " ليبليغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه " ⁵ .
أما القائلون بالوجوب الكفائي في تبليغ الدعوة فاستدلوا بالآية السابقة ، و مما جاء عن الوازي بعد تفسيره للآية (و لتكون منكم أمة ...) قوله : " أنا جمعنا على أن ذلك واجب على سبيل الكفاية بمعنى أنه متى قام به البعض سقط عن الباقيين " ⁶ .
و قال ابن كثير — رحمه الله — عند تفسيره لهذه الآية أيضا : " و المقصود من هذه الآية الكريمة أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن و إن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه " ⁷ .

و مما ورد عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله : " فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه — أي الرسول صلى الله عليه و سلم — و هم أمته يدعون إلى الله كما دعا إلى الله ...

¹ - صحيح مسلم : 1 / 69 ، كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان رقم 49 .

² - المدخل إلى علم الدعوة : البيانون ، ص 31 .

³ - آل عمران : 104 .

⁴ - انظر معنى الآية من سورة آل عمران في تفسير ابن كثير و الرازي و القرطبي و غيرها من التفاسير .

⁵ - فتح الباري : 1 / 157 ، كتاب العلم ، باب قول النبي — صلى الله عليه و سلم — رب يبلغ أوعى من سامع ، رقم 67 .

⁶ - مفاتيح الغيب : فخر الدين الرازي ، دار الفكر ، ط 3 ، 1985 م ، مج 4 ، 8 / 182 .

⁷ - تفسير القرآن العظيم : لأبي العلاء إسماعيل بن كثير ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1972 م ، 2 / 86 .

فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك و لكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقيين " ¹ .

و لما كانت الدعوة إلى الله " تكليف شرعي و أمر رباني " ² ، فهي واجبة بهذه الكيفية و هذا الرأي هو الأقرب للمنطق و الصواب ، و هو ما ذهب إليه و أكدته جمع من الباحثين ³ في ميدان الدعوة ، إلا أن هذا لا يعفي أي أحد من مسؤولية القيام بالدعوة و تبليغها بل " يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره ، فما قام به غيره سقط عنه و ما عجز لم يطالب به ، و أما ما لم يقم به غيره و هو قادر عليه فعليه أن يقوم به و لهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على هذا " ⁴ .

كما أنه يندب جميع المسلمين إلى القيام بالدعوة عملاً بقوله تعالى : (و من أحسن قولاً ممن دعا إلى الله و عمل صالحاً و قال إني من المسلمين) ⁵ أضف إلى ذلك أن النصيحة ضرورية و مطلوبة من جميع المسلمين ، كما أن نجاة المسلم في الحياة مشروطة بالتواصي بالحق و التواصي بالصبر كما نبه على ذلك القرآن الكريم .

حكم الدعوة إلى الله عند ابن الجوزي :

من خلال استقرائنا لما قاله ابن الجوزي في تفسيره للآيات التي وردت في شأن الدعوة توصلنا إلى أنه كان يميل إلى القول بالوجوب الكفائي في تبليغ الدعوة لذلك ورد عنه عدد تفسيره لقوله تعالى : (و لتكون منكم أمة يدعون إلى الخير ...) ⁶ قوله : و يدل على أن الكل أمروا بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ... و يجوز أن يكون أمر منهم فرقة لأن الدعوة ينبغي أن يكونوا علماء بما يدعون إليه و ليس الخلق كلهم علماء ، و العلم ينوب

¹ - مجموع فتاوى ابن تيمية : لشيخ الإسلام أحمد ابن تيمية ، جمع و ترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، مكتبة المعارف الرباط المغرب د ت ، 15 / 165 .

² - دور المنهج الرباني في الدعوة الإسلامية : عدنان رضا النحوي ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، ط 5 ، 1406 ، 1986 ، ص 83 .

³ - انظر فقه الدعوة و أساليبها : محمود حمودة ، محمد مطلق عساف ، ص 12 وما بعدها — الابتلاء و المحن في الدعوات : محمد عبد القادر أبو فارس ، دار الشهاب ، باتنة ، ط 2 ، 1408 ، 1988 م ، ص 203 — نصوص دعوية من أحاديث غير البرية : جليل بن أحمد الصافي ، دار القلم ، دمشق ، ط 1 ، 1420 ، 2000 م ، ص 6 .

⁴ - مجموع فتاوى ابن تيمية : 15 / 166 .

⁵ - فصلت : 33 .

⁶ - آل عمران : 104 .

بعض الناس فيه عن بعض كالجهد¹ . و لذلك وجدناه بـشـترط فيمن يتصدون للقيام
بواجب الدعوة شروطا معينة إذا أرادوا أن يكونوا أهلا للدعوة فعلا² .

إن فحاصل القول أن الدعوة عند ابن الجوزي لها رجالها المختصون الذين يتلقون
تكويننا خاصا و يتحلون باداب معينة ، و بذلك فهو يتفق مع المرجحين للرأي الثاني القائل
بأن الدعوة واجب كفائي و ليس عيني، و لا شك أن ابن الجوزي انتصر لهذا الرأي حتى لا
يتصدى لها من شاء من الناس فهي علم و فن و منهج يقوم به العلماء الأكفاء ، و كما أن
لكل علم رجاله فالدعوة كذلك لها رجالها الذين يقومون بها على الوجه المطلوب ، من أجل
هذا وغيره من الأسباب كانت حملة ابن الجوزي عنيفة على القصاص و الوعاظ في عصره
الذين لم يحسنوا هذه الصناعة و لم يتقنوا هذا الفن .

و مع تسليمنا بهذا الرأي الذي رجحه ابن الجوزي و غيره من العلماء في هذا المجال
إلا أننا نقول : أن الدعوة لازمة للوجوب و خاصة في هذا الزمان³ ، لأن الله - سبحانه
و تعالى - أوجب على اتباع هذا الدين أن يكونوا في كل الأحوال دعاة إلى الحق الذي
يؤمنون به فليس من باب المروءة و الإنسانية أن يكون الإنسان المسلم مهتديا و غيره
ضالاً³ ، ثم لا يسعى إلى تغيير ذلك الضلال و دعوة أهله إلى الحق ، كما أنه لو سكت أهل
الحق فسيتقوى أهل الباطل حتما، لهذا تعتبر الدعوة اليوم بحق شكل من أشكال الجهاد لدفع
الباطل و الدفاع عن الحق الذي ننشده .

¹ - زاد المسير من علم الفسر : 1 / 474 ، 475 .

² - انظر لفنة الكبا : 42 ، 44 - ... سماء الخاطر : 43 .

³ - التربية الإسلامية و المشكلات المعاصرة : عبد الرحمن نولوي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط 2 ، 1408 هـ ، 1988 م ، ص

المباح (فإما منا بعد و إما فداء)¹ ، و النفس عدو مباطن ، و من أدب الجهاد (قاتلوا الذين يلونكم)² إن مالت إلى الشهوات فأكبحها بلجام التقوى ... ولولا إيثار يوسف (السجن أحب إلي)³ ما خرج إلى راحة (وكذلك كنا)⁴ ... لما قوم المؤمنون أنفسهم بالرياضة وقع عقد (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة)⁵ ... هيهات أن يخشع طرف ما قومه محتسب (بغضوا)⁶ ، و أن يحضر قلب ما أزعجه تخويف (يعلم السر و أخفى)⁷ .

و مما قاله في أسرار القرآن : " في القرآن آيتان كل واحدة تحوي حروف المعجم في آل عمران : (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة ناعسا)⁸ ، و في الفتح : (محمد رسول الله)⁹ و إن قيل لك أين في القرآن سورة ليس فيها اسم الله الذي هو الله فقل : سورة القمر و سورة الرحمن و سورة الواقعة ، فأما المجادلة فما فيها آية إلا و فيها اسم الله تعالى " ¹⁰ .

و مما قاله في موعظته " الظلم ظلمات " : " مازال الظلمة في الظلمة ، يمشون في جمع الحطام ، و يمشون على فراش الآثام (فما ربحت تجارتهم)¹¹ ، أتراهم نسوا طي الليالي سالف الجبارين ؟ (و ما بلغوا مضار ما آتيناهم)¹² فما هذا الاغترار (وقد خلت من قبلهم المثالات)¹³ . (فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم)¹⁴ ، كم دارت بهم نعم النعم ، فدارت عليها دوائر النقم (فجبطنها حصيدا كأن لم تغن

¹ - محمد : 4 .

² - التوبة : 123 .

³ - يوسف : 33 .

⁴ - يوسف : 21 .

⁵ - التوبة : 111 .

⁶ - إشارة إلى قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبنصارهم) النور : 30 .

⁷ - طه : 7 ، للمزيد انظر اللطائف : ص 46 ، 47 .

⁸ - آل عمران : 154 .

⁹ - الفتح : 29 .

¹⁰ - رؤوس القوارير : ابن الجوزي ، تحقيق محمد نيل سنبل ، دار الصحابة للنشر بططا ، مصر ، ط 1 ، 1410 هـ ، 1990 م ،

ص 69 .

¹ - البقرة : 16 .

¹ - سبأ : 45 .

¹ - الرعد : 6 .

¹ - يونس : 102 .

بالأمس) ¹ لقد ودوا لو ردوا فيعملون ، و لكن (حيل بينهم و بين ما يشتهون) ² . و مثل هذا كثير في مواضع ابن الجوزي و لكن المقام لا يسمح بأكثر من هذه الشواهد . هذا عن تأثير ابن الجوزي بالقران الكريم ، أما تأثيره بالحديث الشريف فهو ظاهر و واضح أشد الوضوح في إنتاج ابن الجوزي ، الوعظي و الدعوي بمختلف أنواعه و الدليل على ذلك كثرة مصنفاته في الحديث و علوم السنة ³ ، أما في مؤلفاته الدعوية فإننا لاحظنا أنه وضع أحاديث رسول الله - صلى الله عليه و سلم - نصب عينيه كلما أراد التعبير عن معنى مشابه لها ، أو التأكيد على معنى من المعاني ، أو الإلحاح على فكرة من الأفكار ، أو قيمة من القيم ⁴ .

و قد تجلّى لنا هذا التأثير بالحديث الشريف في صور عدة، بالافتباس مرة و التضمين مرة أخرى ، و من الأمثلة على ذلك كتابه المعلق ⁵ الذي أفرده المؤلف بأحاديث وعظيمة جمعت بين الترغيب و الترهيب ، و مما قاله في الشيب ⁶ : " أبتوهم المسوّف بالتوبة أن لمرحلة الهوى آخر ؟ كلا ؛ إن الذي يقطعه عن الإجابة اليوم معه في غد ، و ما يزيده مرور الأيام إلا رسوخاً بدليل : " يشيب ابن آدم و تشيب معه خصلتان " ⁷ ، و في موعظة التفكير في يوم القيامة يقول ⁸ : " ... و ما بينك و بين هذا إلا أن يقال : فلان مات ، و تقول رب أرجعوني فيقال فاتت " ⁹ ، روى البخاري و مسلم عن النبي - صلى الله عليه و سلم - أنه قال : " يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً و يلجمهم حتى يبلغ أذانهم " ¹⁰ .

¹ - بونس : 21 .

² - سأ : 51 أنظر المواضع والمجالس : ابن الجوزي ، ص 154

³ - انظر : فصل آثار ابن الجوزي ، في الفصل الرابع من الباب الأول من الرسالة

⁴ - مواضع ابن الجوزي ، دراسة تحليلية فيية : عرفة حلمي عباس ، ص 466

⁵ - انظر فصل آثار ابن الجوزي .

⁶ - اللطائف : ص 137 .

⁷ - فتح الباري : 11 / 270 ، مات من بلغ سنين سنة ففقد أعماه كتاب ترفيق : مات من بلغ سنين سنة فقد أعماه ، رقم 6421

و قد رواه بلفظ : يكبر ابن آدم ويكبر معه إثنان: حب نزال وطول العمر

⁸ - الجاويقة : ص 53

⁹ - إظارة إل قوله تعال (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب أرحمني) المؤمنون : 99 .

¹⁰ - فتح الباري : 11 / 392 كتاب الرقاق باب قوله تعال إلا ينظر أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، رقم 6532 .

و مما قاله في ذم الدنيا ¹ : " أيها العبد : تفكر في دنياك كم قتلت ، و تذكر ما صنعت بأقرانك و ما فعلت ... و إيساك أن تساكنها فإنها إن حلت رحلت ، روي أن رسول الله - صلى الله عليه و سلم - مرّ بشاة ميتة قد ألقاها أهلها ، فقال : " و الذي نفسي بيده إن الدنيا أهون على الله من هذه على أهلها ² ، ثم نجاه - رحمه الله - يعقد فصولاً كاملة للوعظ بالحديث في كتابه التذكرة ³ و في العديد من صفحات بستان الواعظين ⁴ ، و على العموم فكتب ابن الجوزي كلها لا تخلو من الاستشهادات الحديثية في مختلف المواضيع الدعوية .

2 - تأثيره بشيوخه :

تأثر ابن الجوزي في عسوته بشيوخه الذين تلقى عنهم العلم ، و لا سيما الشيوخ العاملون منهم ، و قد تحدث عن تلقيه عن الشيوخ فقال : " حملني شيخنا ابن ناصر إلى الأشياخ في الصخر و أسهم أمير العوالي ، و قد أثبتت سماعاتي كلها بخطه ، و أخذ لي إجازات منهم " ⁵ .

و رغم كثرة شيوخه إلا أنه تأثر بعد قليل منهم ، خاصة شيخه عبد الوهاب الأنماطي ⁶ الذي تلقى عنه الفقه و الحديث قال عنه في المشيخة : " نصب نفسه لتسميع الحديث طول النهار ، و كنت أقرأ الحديث عليه و هو يبكي فاستفدت بيكاته أكثر من استفادتي بروايته " ⁷ .

و ممن تأثر بهم شيخه أبو منصور الجواليقي الذي أخذ عنه اللغة و الأدب ، قال عنه : " كان كثير الصمت ، شديد التحري فيما يقول ، متقناً محققاً ، و ربما سئل المسألة الظاهرة التي يبادر بجوابها بعض غلمانه فيتوقف فيها حتى يتيقن . و كان كثير الصوم

¹ - الباقونة : ص 67 .

² سنن ابن ماجه : 2 / 177 . كتاب الزهد ، باب مثل الدنيا رقم 1111 - مجمع الزوائد و منبع الفوائد : لأن بكر الهيثمي دار الكتب العلمية بيروت لبنان 10 / 287 . باب هوان الدنيا ، و قال رواه أحمد و أبو يعلى و البزار و فيه محمد بن مصعب و قد رثقه على ضعفه و بقية رجالهم رجال الصحيح .

³ - انظر التذكرة في الوعظ : ص 63 ، 121 ، 143 .

⁴ - انظر بستان الواعظين : ص 93 . و بما بعدها إلى غاية نهاية المجلس

⁵ - مشيخة ابن الجوزي : ص 93 .

⁶ - انظر ترجمته في فصل حياة ابن الجوزي .

⁷ - مشيخة ابن الجوزي : ص 86 .

و الصمت ¹ .

و ممن اخذ بيد ابن الجوزي و أثر فيه شيخه ابن ناصر ، الذي تلقى على يديه علوم القرآن و الحديث و ابن الزاغوني الذي لقنه الوعظ و علمه الأصول ² . و إلى جانب هؤلاء هناك عشرات و عشرات من المشايخ الذين ذكرهم ابن الجوزي و عرفنا بهم و هذا مما يبين لنا كيف أن ابن الجوزي كان عقلا طويلا يلمس المعرفة في كل كتاب و في كل مجلس علم و من أي عالم أتاحت له الفرصة ليجلس بين يديه و ينهل من علمه سواء كان من علماء بغداد أو من العلماء الزائرين لها .

لكنه ورغم هذا التأثير بالشيوخ إلا أن ابن الجوزي لم يكن يأبه بكثرة عددهم ، قدر اهتمامه بالمنتجين منهم لأنه كان يسعى - كما قال - إلى تجويد العدد لا إلى تكثيره ³ . كما أن علاقته بهم كانت علاقة ممتدة ، جمعت بين العلم و السلوك معا ، و إن كانت عنايته بالسلوك أقوى ، لذلك فقد رفض المشايخ الذين اهتموا بالعلم و سقطوا في ميدان العمل ⁴ لأنه كان يرى أن القدوة لها دور كبير في الدعوة ، بل إنها تعد من أهم الوسائل الدعوية في منهجه ⁵ .

د - الحسن البصري :

و ممن تأثر بهم ابن الجوزي في دعوته التابعي الجليل الحسن البصري - رحمه الله - الذي كان كثير الإطلاع ، واسع العلم ، غزير المعرفة ، خطيبا مقوها ، ورعا تقيا بالإضافة إلى جرأته في الحق . كان الحسن من أحسن الدعاة إلى الله - عز و جل - وقد اتخذ التنكير و التخويف وسيلة لتبليغ دعوته فكانت مواعظه رغم قسوتها تنساب إلى قلوب المؤمنين فتحيي مواتها ⁷ كما يحيي الماء البقل .

لقد كان تأثر ابن الجوزي بالحسن البصري واضحا ، فهناك العديد من القواسم المشتقة

1 - سيد الخاطر : 113 ، 114 .

2 - انظر ترجمته في فصل حياة ابن الجوزي .

3 - مشيخة ابن الجوزي : ص 93 .

4 - سيد الخاطر : ص 113 .

5 - انظر فصل أساليب الدعوة و وسائلها عند ابن الجوزي .

6 - انظر ترجمته : البداية و النهاية : 266 / 9 .

7 - تقنين الدعوة : محمد السيد الوكيل ، دار النور للدراسات و النشر ، جدة : ط 1 ، 1414 هـ ، 1994 م ، ص 221 ، 222 .

بينهما فكلاهما واعظ بليغ ، بلغ درجة عالية في الدعوة و الوعظ ، كما كان لكل واحد منهما مكانة اجتماعية مرموقة بين أفراد المجتمع .

و إذا كان كلام الحسن - رضي الله عنه - في حكمه و مواعظه و ترغيبه و ترهيبه أكثره مستوحى من معانى القرآن الكريم و من أحاديث الرسول - صلى الله عليه و سلم - و من أقوال الصحابة - رضي الله عنهم - و خاصة الإمام علي - كرم الله وجهه - فذلك كان الإمام ابن الجوزي ينهل من نفس المورد الذي نهل منه الحسن البصري .

و نتيجة لتأثره بالحسن في طريقته و وعظه¹ ، فقد جاءت الكثير من آرائه الدعوية صدى لما قاله الحسن البصري و دعا إليه ، و كدليل على ذلك نجد ابن الجوزي يعبر عن إعجابيه بالحسن فيؤلف كتابا شيقا في مناقبه² قال في مقدمته : " وقفت - أدام الله عزك و تأييدك و توفيقك و تسديداك --- ما التمسناه و رغبت فيه و حرصت عليه من جمع ما هو مفترق في الكتب من آداب الحسن بن أبي الحسن البصري - رحمه الله - و زهده و مواعظه فأجبتك إلى ذلك و جمعت ما تيسر لي جمعه و اثبت ما انتهت القدرة إليه حرصا على بلوغ مرادك ، و قضاء الواجب حقا ، و بالله أستعين " ، هكذا بدأ لنا جليا تأثر ابن الجوزي بالحسن البصري في أسلوبه الوعظي و نهجه الدعوي .

4 - ابن عقيل³ :

من أهم العلماء الذين تأثر بهم ابن الجوزي في عصره و كانوا أحد أهم مصادر الدعوة عنده الإمام أبو الوفاء بن عقيل ، و ذلك رغم أنه لم يلتق به و لم يجالسه ؛ حيث توفي ابن عقيل سنة 413 هـ و كان ابن الجوزي صبيا آنذاك .
و من أهم مظاهر تأثر ابن الجوزي بابن عقيل أنه كثيرا ما كان يستدل برأيه و ينقل عنه العديد من النصوص نجد ذلك في أهم مؤلفاته مثل " تلبيس إبليس " و " صيد الخاطر " ⁵

¹ - مواعظ ابن الجوزي دراسة فنية تحليلية : عرفة حسني عباس ، ص 171 .

² - وقد أتى العلماء على مؤلفات ابن الجوزي في المناقب و عبورها من أحسن تصانيفه ، التذيل على طبقات الخبابة : 1 / 416

³ - مناقب الحسن البصري : ابن الجوزي ، تقديم حسن السندي ، نشر مكتبة الخائمي ، القاهرة ، 1355 هـ ، 1931 م ، ص 13 .
انظر مخنوي الكتاب في فصل آثار ابن الجوزي ، و ترجمه و صفة النصفه لابن الجوزي ، 2 / 130 دار الخيل بيروت ط 1 1992 م .

⁴ - هو أبو الوفاء بن عقيل شيخ الخبابة ببغداد ، صاحب كتاب الفروع ، ساد أهل زمانه في فنون كثيرة كما اشتغل بالوعظ فترة تولى ولفد عايز النعمان سنة 913 هـ ، انظر المدارة و النهاية : 12 / 181 - المنتظم : 17 / 179 - الكامل : 9 / 190 .

⁵ - سمنا استشهد بابن عقيل أكثر من عشرين مرة في التلبيس و أكثر من عشر مرات في صيد الخاطر ، و عشرات المرات في

و كتبه الوعظية الأخرى ، أضف إلى ذلك كثرة ثنائه عليه¹ ، و قد تتلمذ عليه ابن الجوزي من خلال قراءة مؤلفاته و ما تركه من تراث ، حيث نلمح في آثاره سعة الأفق و استنارة البصيرة و التبحر في العلوم² .

و لقد كان يبدو بين الرجلين توافق كبير في كثير من الآراء وهذا ما جر على ابن الجوزي الكثير من العناء و العداة من طرف ثلة من علماء الحنابلة³ . و قد تأثر ابن الجوزي بابن عقيل في طلاقة الفكر و حرية الرأي ، فعاش معظماً لقره و شأنه ، ولم يكن تعظيمه له من باب التعصب أو الجمود إذ أن ابن عقيل كما يروي عنه ابن الجوزي في تصانيفه رجل طليق الفكر ناضج الرأي و لعل إعجاب ابن الجوزي به كان من باب اتفاق المشارب و التلاؤم في الأذواق⁴ .

و مما قاله ابن الجوزي عن ابن عقيل في مقام المتأثر المعترف بفضل من سبقه عليه قوله : " و إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة و مناظرة و بصري عن مطالعة ، أعمل فكري في حال راحتي و أنا مستطرح فلا أنهض إلا و قد خطر لي ما أسطره ، و إني لأجد من حرصي على العلم و أنا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجده و أنا ابن عشرين⁵ " ، و من خلال هذا القول يتضح لنا مدى تأثر ابن الجوزي بابن عقيل في همته أثناء طلبه للعلم ، و في تقديره للوقت و أهميته⁶ ، و كذلك في إحساسه بشموخ العالم و انفته عند الجهر بالحق .

من أجل ذلك عاش ابن الجوزي مقتدياً بابن عقيل في الفكر و المنهج و السلوك فكلن فكر ابن عقيل و مؤلفاته و خاصة كتابه الفنون من أهم القواعد الخلفية في حياة ابن الجوزي العلمية و الدعوية .

5 - أبو حامد الغزالي :

يبدو لنا تأثر ابن الجوزي بالإمام الغزالي واضحاً - رغم وفاة هذا الأخير قبل ميلاد

¹ - انظر المنتظم : 17 / 181 و ما بعدها .

² - الآراء الأخلاقية عند ابن الجوزي : عبد العزيز سيد عاشم نخزواني ، ماجستير مخطوط ، نوقشت سنة 1998 م ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ص 68 .

³ - انظر النمل على طبقات الحنابلة 414/1

⁴ - البصيرة : صفحة "و" من المقدمة المحقق مصطفى عبد الواحد

⁵ - التنظيم : 17 / 181 .

⁶ - انظر هذا الموضوع في عاود الدعوة عند ابن الجوزي

ابن الجوزي بخمسة أعوام - و ذلك بقراءته لمختلف مؤلفات الغزالي سواء التي انتقدتها
ككتاب الإحياء أو الكتب التي امتدحها ككتب الأصول و غيرها يقول عن الغزالي :
" و صنف الكتب الحسان في الأصول و الفروع التي انفرد بحسن وضعها و ترتيبها
و تحقيق الكلام فيها حتى إنه صنف في حياة أستاذه إمام الحرمين الجويني ... كتابه
المسمى " المنحول " فقال له : دفنتني و أنا حي هلا صبرت حتى أموت ؟ و أراد أن كتابك
قد غطى على كتابي " ¹ كما جراه في التأليف فألف على طريقته كتابه " لفتة الكبد إلى
نصيحة الولد " و الذي نسجه على منوال كتاب " أيها الولد المحب " للغزالي كما أن كتابه "
تلبس إبليس " هو صدى لكتاب كان الإمام الغزالي ينوي تأليفه لولا أن المنية عاجته حيث
أنه صرح بقوله : " و لعننا إن أمهل الزمان صنفنا فيه كتابا على الخصوص نسميه " تلبس
إبليس " ، فإنه قد انتشر الآن تلبسه في البلاد و العباد لاسيما في المذاهب و الاعتقادات حتى
لم يبق من الخيرات إلا رسمها " .

و لما ألف الإمام الغزالي كتابه " التبر المسبوك في نصائح الملوك " قام ابن الجوزي
بتأليف " الشفاء في مواعظ الملوك و الخلفاء " و كما ألف الغزالي كتابه " فضائح الباطنية "
ألف ابن الجوزي كتاب " القرامطة " ، أضف إلى ذلك أن هناك من القضايا التي تناولها
الغزالي تحدث عنها ابن الجوزي بعد أن اطلع عليها و هضم مضمونها كترية النفس
و تربية الأولاد و معاشرة الزوجة .

ومع ذلك فإن ابن الجوزي لم يتفق في كثير من القضايا مع الغزالي بل تعرض بالنقد
الشديد للعديد من آرائه و كتبه و مما قاله في هذا الموضوع : " و جاء أبو حامد الغزالي
فصنف لهم كتاب الإحياء على طريقة القوم و ملأه بالأحاديث الباطلة و هو لا يعلم بطلانها
و تكلم في علم المكاشفة و خرج عن قانون الفقه " ³ و يقول عنه في المنتظم : " ... و أخذ
في تصنيف كتاب الإحياء في القدس ، ثم أتمه بدمشق إلا أنه وضعه على مذهب الصوفية
و ترك فيه قانون الفقه ؛ ... و ذكر أن رجلا اشترى لحما ، فرأى نفسه تستحي من حمله
إلى البيت فعلقه في عنقه ومشى ، وهذا في غاية القبح ، و مثله كثير ليس هذا موضعه وقد
جمعت أغلاط الكتاب و سميته " إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء " و أشرت إلى بعض ذلك في
كتابي المسمى " تلبس إبليس " ... و كان بعض الناس شغف بكتاب الإحياء ، فأعلمته بعيوبه

¹ - المنتظم : 17 / 129 .

² - إحياء علوم الدين : أبو حامد الغزالي ، دار الفكر ، بيروت ط 1395 هـ 1975 م مج 3 ، 8 / 53

³ - تلبس إبليس : ص 228

ثم كتبه له فأسقطت ما يصلح إسقاطه ، و زدت ما يصلح أن يزداد¹ .
و من أهم قضايا التصوف التي انتقده فيها العزلة² والغناء³ و التجرد من الأموال⁴
و التوكل و ترك الأسباب⁵ ثم رد عليه بأدلة من الكتاب و السنة .

و مع ذلك نجده في مقام آخر يؤيده و يستدل برأيه عندما يتحدث عن عدم مخالفة
الحقيقة للشريعة بقوله : "وقد نبه الإمام أبو حامد الغزالي في كتاب الإحياء فقال : من
قال أن الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن يخالف الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى
الإيمان"⁶ .

و كخلاصة لما ذكرناه اتضح لنا تأثير ابن الجوزي بالغزالي ، و بدأ لنا ذلك التأثير
واضحا من خلال نقد ابن الجوزي للغزالي وكذلك التشابه بينهما في بعض المؤلفات ، و في
بعض القضايا التي تناولها كل منهما ، إلا أنهما يختلفان في المنهج الدعوي سواء من حيث
الأسلوب أو الوسائل .

« - كتب التصوف و سير السلف :

لقد كان ارتباط ابن الجوزي بكتب التراث عموما و التصوف - بوجه خاص -
ارتباطا وثيقا ، فكان شغفه بالكتب و حبه للإطلاع و سيلته في الاتصال بهذا التراث الضخم
و من شدة نهمة في القراءة ، كان إذا وقعت يده على كتاب لم يره من قبل كأنه وقع
على كنز ثمين ، و مما تكرر عن نفسه أنه طالع عشرين ألف مجلد و هو ما يزال بعد في
مرحلة الطلب⁷ .

كما اتخذ من سيرة السلف الصالح ، و مطالعة تصانيفهم و أخبارهم قدوة ، و من
أقوالهم و أسلوب كتاباتهم مؤثرا من المؤثرات الأساسية في منهجه الدعوي ، و في تبريره
الإقتداء بالسلف يقول : " فسيبيل طالب الكمال في طلب العلم الإطلاع على الكتب التي قد
تخلقت من المصنفات ، فليكثر من المطالعة فإنه يرى من علوم القوم و علومهم ما يشهد

¹ - المنظم : 17 / 125 ، 126 .

² - تليس إبليس : ص 367 .

³ - المصدر السابق : ص 317 .

⁴ - نفس المصدر : ص 240 .

⁵ - نفس المصدر : ص 455 .

⁶ - المصدر نفسه : 412 .

⁷ - صبا الخاطر : ص 441 .

خاطره و يحرك عزمته للجد ، و ما يخلو كتاب من فائدة ... فانه الله عليكم بملاحظة سير السلف و مطالعة تصانيفهم و أخبارهم فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم ... فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم و قدر همهم و حفظهم و عباداتهم و غرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع ¹ .

فلا مندوحة إذن من الرجوع لأحوال الصحابة - عليهم رضوان الله - ، و سير الصالحين و علمهم ، خاصة إذا لم يوجد من هو جد ير بالافتداء به وقد صرح بذلك ابن الجوزي نفسه فقال : " و أعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم ، لا نرى فيهم ذا همة عالية فيقتدى بها ... و لأصحاب ورع فيستفيد منه الزاهد " ² ، هذا عن التراث و أهله من العلماء و الصالحين .

أما ما يمكن قوله عن كتب التصوف و أهله ، فإن القارئ لتراث ابن الجوزي يلمح بوضوح الروح الصوفية لديه ، و ذلك من خلال الكتب التي ألفها في المناقب و السير و التراجم ³ و كتبه الوعظية و الدعوية التي حشد فيها كما كبيرا من أقوال الزهاد و الصوفية ⁴ أضف إلى ذلك مطالعته لكتب التصوف و رده عليها ردا عنيفا في بعض الأحيان ⁵ .

و من هذه الكتب التي ذكرها مرارا في مصنفاته كتب المحاسبي و أبي عبد الله الترمذي و قوت القلوب لأبي طالب المكي ، و كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي ⁶ و كتاب صفوة التصوف لمحمد بن طاهر المقدسي ⁷ ، الذي ذكر فيه أشياء يستحي العاقل من ذكرها على حد تعبير ابن الجوزي ⁸ .

¹ - صد الخاطر : ص 440 ، 441 .

² - المصدر السابق : ص 440 .

³ - انظر فصل آثار ابن الجوزي في التراث السابق .

⁴ - من هذه الكتب على سبيل المثال : الأطناف : الأمانة في الوعظ : رؤوس القوارير ، التذكرة في الوعظ : بستان الواعظين ، تحفة الواعظ و نزعة الملاحظ

⁵ - انظر فصل محاور الدعوة عند ابن الجوزي ، مبحث ابن الجوزي و الصوفية .

⁶ - مصد الخاطر : 470 .

⁷ - محمد بن طاهر المقدسي : من مشايخ الشام و قدمائهم كان عالما ، محبا ، ذا لون و أعلام التمسك بالشام ، سماه الشبلي حبر أهل الشام له العديد من الأفعال ، انظر ترجمته ، طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي تحقيق نورالدين شريعة نشر مكتبة

الخامسي القاهرة ط 1406 + 1986 م ص 275 .

⁸ - تلبيس إبليس : 227 .

و كتاب الرسالة لعبد الكريم القشيري¹ التي ذكر فيها العجائب من الكلام و اصطلاحات الصوفية² و كتاب "رياضة النفوس" لمحمد بن علي الترمذي³ و بعد ذكر جملة هذه التصانيف يعلق ابن الجوزي عليها بقوله : " و جمهور هذه التصانيف التي صنفت لهم لا تستند إلى أصل ، و إنما هي واقعات تلقفها بعضهم عن بعض و دونوها و قد سموها بالعلم الباطن "⁴ .

و هكذا يبدو لنا جليا اطلاع ابن الجوزي على التراث الصوفي و أهم كتبه و تفاعله معه بالقراءة و التلخيص حيناً ، ثم بالنقد و التمهيع حيناً آخر .
و قد ترك كل هذا أثره فيه ، فكانت بعض هذه المصنفات عنصراً رئيساً في تشكل مخزونه الفكري و تبلور منهجه الدعوي ، أضف إلى هذا التأثير فإن الرجل كانت له ممارسات تعبدية و أدواق صحيحة و رياضات نفسية⁵ ، إلى جانب ورعه و خوفه من الله سبحانه و تعالى .

و رغم هذه المصادر الدعوية فإن ابن الجوزي لم يفقد شخصيته المتميزة و خاصة في هذا الميدان بالذات ، فالداعية في كل الأحوال هو ابن وقته و بيئته يؤثر و يتأثر و لا يمكنه أن ينطلق من فراغ .

¹ - عبد الكريم القشيري : كان زاهداً فديراً حسن الرعظ : ماهراً في الكلم على منعب الأشعري توفي 469 هـ حيدر أعلام النبلاء 227 / 18 - وفيات الأعيان : 3 / 205 .

² - تليس إيليس : 227 .

³ محمد بن علي الترمذي : ركني أبا عبد الله من كبار مشايخ خراسان له تصانيف مشهورة ، أثرت عنه العديد من الأقران ، كان يرد على المخالفين ، انظر ترجمته حلة الأبرار : عماد الدين الأصبهاني دار الكتاب العربي بيروت لبنان ط 3 ، 1400 • 1980 م ، مع 9 ، 10 / 239 ، و كذلك صفة الصفوة 2 / 353 .

⁴ تليس إيليس : 228 .

⁵ - الذليل على طبقات الحنابلة ، ابن رجب الحنبلي ، 314/1

المبحث الثالث

تعريف الداعية و صفاته

١ - تعريف الداعية :

أصل الكلمة من الفعل الثلاثي ، دعا يدعو ، و هي اسم فاعل جاءت الياء في آخرها للمبالغة فيقال لمن عرف بالدعوة " داعية " و هو الذي يدعو إلى دين أو فكرة ¹ .

و قد وردت هذه الكلمة بهذا المعنى في آيات القرآن الكريم ، كقوله تعالى : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً و مبشراً و نذيراً ، و داعياً إلى الله بإذنه ، و سراجاً منيراً) ² ، و قوله تعالى : (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة) ³ ، و قد أطلق لفظ الداعية في هذه الآية على كل مسلم دون تمييز .

وقال سبحانه : (يا قومنا أجيئوا داعي الله و آمنوا به) ⁴ ، و قد عرف العلماء الداعية بتعاريف متعددة نذكر البعض منها .

قيل أن الداعية هو : " من يمارس الدعوة إلى الله " ⁵ ، و يبدو أن هذا التعريف عام إذ لم يحدد أي إطار للداعية ، فيدخل تحت كل من دعا إلى الله من أي صنف من الناس و بأية وسيلة كانت ، و عرفه صاحب أصول الدعوة بأنه : " المكلف شرعاً بالدعوة إلى الله " ⁶ و يبدو أن هذا التعريف قد حدد نطاق الداعية في كونه من كلف بها شرعاً ، أي من اكتسب آيات تبليغ الدعوة ، كما عرف الدعاة بأنهم : " الذين يقومون بنشر الدعوة و شرحها و عرضها على الناس للدخول فيها " ⁷ و هذا التعريف أيضاً يبدو أنه ركز على دور الداعية أكثر من تركيزه على تعريف الداعية نفسه ، و هو يتفق إلى حد ما مع من قال بأن الداعية هو من يحمل رسالة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و دعوة الناس إلى دين الله ⁸ .

¹ - المعجم الوسيط : إبراهيم أنس ، عدلة القبولطي : عبد الحليم منصور محمد خلف الله ، دار الفكر ، ديت ، 1 / 286 ، 287 .

² - الأحزاب : 46 ، 45 .

³ - يوسف : 108 .

⁴ - الأحزاب : 31 .

⁵ أسباب نجاح الدعوة الإسلامية و تأهول الداعي : عبد الله بن محمود الموسوي ، ص 33 .

⁶ أصول الدعوة : عبد الكريم زيدان ، دار الوفاء ، المنصورة ، مصر : ط 3 ، 1406 هـ ، 1987 م ، ص 305 .

⁷ نفس الدعوة : محمد السيد الوكيل ، ص 212 .

⁸ لغة الدعوة و أساليبها : محمود محمد حمودة ، محمد مطاى عساف ، ص 111 .

و هناك من وضع دور الداعية أكثر فاعتبره من يقوم بدعوة الناس إلى الإيمان بعقائد الإسلام ؛ إذا كان المدعوون من غير المسلمين ، كما أطلقه على من يدعو المسلمين إلى التمسك بهدي الإسلام و شرعه ¹ .

و المتأمل في ما ذكرناه من تعاريف يجد أنه لا اختلاف فيما بينها ، إنما هي توضح بعضها بعضاً ، لذلك نستطيع الجمع بين هذه التعاريف في تعريف أكثر شمولية فنقول : " أن الداعية هو المسلم المبلغ للإسلام قولاً و عملاً بالأساليب و الوسائل المشروعة " و هذا التعريف بدأ لنا شاملاً لكل من يقوم بواجب الدعوة عامة ، أو من يقوم بعمل من أعمالها الجزئية ، و السبب في ذلك هو أن المسلم قد يقوم بواجب الدعوة و قد يقصر فيها ، أو قد لا يكون داعية مطلقاً ² .

2 - تعريف ابن الجوزي للداعية :

من خلال قراءتنا لمختلف مصنفات ابن الجوزي و خاصة الوعظية منها لم نقف له على استعمال واضح أو تعريف صريح لمصطلح " الداعية " مما ألجأنا إلى الرجوع إلى تفسيره " زاد المسير " من خلال الآيات الخاصة بهذا الشأن .

ومما قاله في تفسير قوله تعالى : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً و مبشراً و نذيراً و داعياً إلى الله بإذنه و سراجاً منيراً) ³ ، أي شاهداً على أمتك بالبلاغ و (مبشراً) بالجنة لمن صدقك و (نذيراً) أي : منذراً بالنار لمن كذبك و (داعياً إلى الله) أي : إلى توحيده و طاعته ⁴ .

و قال في تفسيره قوله تعالى : (يا قومنا أجيئوا داعي الله و آمنوا به) ⁵ داعي الله يعنون محمداً - صلى الله عليه و سلم - و هذا يدل على أنه أرسل إلى الجن و الإنس ⁶ و من خلال تفسيره لهذه الآيات نرى ابن الجوزي قصر معنى (داعي الله) على النبي - صلى الله عليه و سلم - و لكنه في كتاب " القصاص و المذكرين " يورد بعض الألفاظ التي ترادف كلمة الداعية في عصره و هي : القاص و المذكر و الواعظ و قد عرّف لنا كل

¹ - مسار الدعوة في العهد المكي : محمد إبراهيم الخيوشي ، ص 11 .

² - المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفوح السانوي ، ص 41 .

³ - الأحزاب : 45 ، 46 .

⁴ - زاد المسير في علم التفسير : 6 / 400 .

⁵ - الأحقاف : 31 .

⁶ - زاد المسير : 7 / 390 .

كلمة منها على حدة .
فقال في تعريف الوعظ : " هو تخويف يرق له القلب " و هو وظيفة الواعظ ، أما القاص فهو : " الذي يتبع القصة الماضية بالحكاية عنها و الشرح لها و ذلك في القصص " ، و أما التذكير فهو : " تعريف الخلق نعم الله - عز وجل - عليهم و حثهم على شكره و تحذيرهم من مخالفته " ¹ و هو وظيفة من يتصدى لتذكير الناس بدين الله سبحانه و تعالى .

و إذا كانت هذه الألفاظ تدل على مسمى واحد و هو الداعية في عصر ابن الجوزي فإنه في عصرنا هذا بدا واضحا أن هناك فرق بين الداعية و الواعظ ، و ذلك أن الداعية له مجال واسع في عمله ، فهو يتصدى لعرض قضية الإيمان بالدين على من يجهلها أو يدفع شبهات المنحرفين و المعارضين ، أما الواعظ فدائرة عمله بين المؤمنين .
و على هذا الأساس فالدعوة بهذا المعنى أوسع دائرة من الوعظ، كما أن ميدان عمل الداعية أفسح من ميدان عمل الواعظ ² .

و مع ذلك فإننا لا نلوم ابن الجوزي - رحمه الله - ولا نحمله مسؤولية التقصير في ما ذهب إليه ، و ذلك لسبب واحد هو أن هذا الفرق الذي أشرنا إليه لم يكن موجودا في عصر ابن الجوزي، إذ لم يكن الدعوة الإسلامية في الصدر الأول من تاريخها تنظيم خاص و لادعاء اختصاصا في هذا المجال ، و لا صفات خاصة يجب أن تتوفر في الداعية ، لأن الدعوة كانت منذ عصر الرسالة تمارس على سبيل الاختيار ، و يمارسها من أمكنه أن يتفرغ لها. خاصة من كانوا يرون في أنفسهم ميلا خاصا إلى نشر العلم و الدعوة إلى الخير و الصلاح .

و جرى الأمر على هذا النحو في عهد الخلفاء الراشدين ، فلم يثبت عنهم أنهم وضعوا نظاما خاصا للدعوة و لا خصصوا لها دعاة معينين .
إلا أنه وبحلول العهد الأموي و لما كثر عدد الناس ، و اتسعت رقعة الدولة الإسلامية و ظهر الابتداع في الدين ، و تضاربت الآراء و الأقوال ، ارتأى قوم من أجلة العلماء و الحفاظ و رواة السير و المغازي أن يوجهوا جهودهم للوعظ و الإرشاد مبتغين بذلك وجه الله ³ عز و جل ، و هذا هو ما نسميه اليوم بالدعوة إلى الله - عز و جل - .

¹ - انظر : الفهرامس و المصادر لابن الجوزي تحقيق محمد السعيد زعنون ، ط 1 دار الكتب العلمية بيروت 1406 هـ ص 9 .

² - المصدر السابق : نفس المحقق ، ص 10 ، 11 .

³ - مسار الدعوة إلى العهد المكي : محمد إبراهيم الجوشى ، ص 11 .

⁴ - الدعوة الإسلامية علما وعملا : إبراهيم الدسوقي مرعي ، ص 57

لا شك أن أفراد المجتمع الإسلامي في حاجة إلى دعاة ذوي فقه و خبرة و صبر يحيون لهم الإسلام و يذيقونهم طعم الإيمان ، و يبغضون لهم المعصية ، و يبرزون لهم مخاطر سبل الشيطان بتذكيرهم بدورهم الفعال ورسالتهم في المجتمع .

و هؤلاء المتصدون للعمل في سبيل الله يطلب منهم دوماً ما لا يطلب من سائر الناس ، و هم مؤخذون على الصغيرة و الكبيرة عند التقصير¹ ، و نظراً لهذه المنزلة التي تبوعوها أصبح من اللازم عليهم الاتصاف بجملة من الصفات لخصها الإمام الغزالي في العلم و الورع و حسن الخلق² ، و جمعها الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - في عدة صفات منها : أن يكون الداعية قوي الصلة بالله و بكتابه ، و صالحاً في نفسه مصلحاً لغيره ، فاهماً لأمر دينه و ما يلزمه من أمور دنياه ، متحلياً بالشجاعة و الإخلاص لدعوته³ و لخصها غيره في صفات هامة، ولكنها لا تخرج في مجملها عن الصفات التي اتصف بها الإمام ابن الجوزي كداعية و واعظ أو التي ركز عليها في دعوته⁴ ، و ذلك أنه - رحمه الله - صب جل اهتمامه على أهم الصفات التي كان يرى ضرورة توفرها في الداعية أو الواعظ بتعبير ذلك العصر ، حتى يتمكن من أداء رسالته الدعوية على أحسن وجه ، و ذلك تأسياً برسول الله - صلى الله عليه و سلم - في أساليب الدعوة و طرائقها و فقه مراحلها و مقاصدها⁵ و معرفة أحوال الدعاة و صفاتهم و تقدير ظروفهم الزمانية و المكانية .

ومن أهم صفات الداعية التي أمكن لنا استنباطها من مؤلفات ابن الجوزي و سيرته ما يلي :

1 - الصبر :

يعد الصبر على الابتلاء في الدعوة من أهم الصفات اللازمة للداعية حتى يؤدي مهمته الصعبة و الثقيلة على أحسن وجه ، فهو من عزائم الأمور " لأن الصبر على عنق المدعويين و استكبار الجاحدين و كيدهم و صدودهم و كيد المناوئين ، ملاذ لكل دعوة

¹ - معالم هادية على طريق الدعوة إلى الإسلام : الطيب برغوث ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، د ت ، ص 37 .

² - إحياء علوم الدين : أبو حامد الغزالي ، مع 3 ، 7 / 52 .

³ مع الله : محمد الغزالي ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ط 3 ، 1385 : ص 187 .

⁴ انظر : أسس الدعوة إلى الله ، د. وال. و. القرآن الكريم : عمر يوسف حمزة ، أندلس المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط 1 ، 1414 .

1404 م ، ص 231 - الدعوة إلى الله ، علي ، عميرة : عبد النعم محمد حسنين ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ط 1 ، 1404 .

1984 م ، ص 66 - أصول الدعوة : عبد الكريم زيدان ، ص 346 - المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتح البياتوني

ص 155 .

⁵ صفات الدعاة: عبدالربيب بن نواب الدين، دار العاصمة، السعودية، ط1، 1413 هـ، ص77

إصلاح " 1. كما أن طريق الدعوة محفوف بالمخاطر و المزالق ، و الموفق من ثبته الله على الحق و الصواب .

و إذا أراد الداعية التغيير و الإصلاح فلا ريب أنه سيصادف الكثير من العقبات التي تحاول صده عن بلوغ هدفه المراد ، من أجل ذلك بات من اللازم للداعية أن يتسلح بـ سلاح الصبر فهو أهم صفات الدعاة على الإطلاق 2.

و يعرف لنا ابن الجوزي - رحمه الله - الصبر بقوله : " الصبر في اللغة الحبس و كل من حبس شيئاً فقد صبره و منه المصبورة التي نهي عنها ، وهي الدجاجة و نحوها تتخذ غرضاً و ترمى حتى تقتل ، و سمي رمضان شهر الصبر ، لأنه شهر تحبس فيه النفس عما تنازع إليه من المطعم و المشرب و المنكح ، و الصابر حابس لنفسه عما تنازع إليه من المشتبه أو شكوى ألم ، و سمي الصابر في المصيبة صابراً لأنه حبس نفسه عن الجزع 3 .

و في منظور ابن الجوزي - رحمه الله - لا يوجد شيء أصعب من الصبر فيقول : " ليس في الوجود شيء أصعب من الصبر " 4 ، لذلك أولاه مكانة خاصة عنده .

و نجده يقسم الصبر إلى قسمين فيقول : " واعلم أن الصبر ينقسم إلى قسمين : صبر عن المحبوب و صبر عن المكروه " 5 .

و قال : " فالطاعة مفتقرة إلى الصبر عليها و المعصية مفتقرة إلى الصبر عنها ، و لما كانت النفس مجبولة على حب الهوى فكانت بالطبع تسعى في طلبه ، افتقرت إلى حبسها عما تؤذي عاقبتها ، و لا يقدر على استعمال الصبر إلا من عرف عيب الهوى و تلمح عقبي الصبر فحينئذ يهون عليه ما صبر عليه و عنه " 6 و لقد ابتلى ابن الجوزي في آخر حياته بمحنة انتهت بنفيه إلى واسط ، و ظل بها مدة خمس سنوات و هو شيخ كبير ، فلم يفرغ أو يجنوع بل صبر و احتسب كما هو شأن الدعاة إلى الله تعالى 7 . كما ابتلى في أحد أبنائه الذي كان إلباً عليه زمن محنته ، و ربما غل من كتبه و باعها و لا بثمن المتاد 8 .

1 - صفات الدعاة : عبد الرب بن نواب الدين ، ص 117 .

2 - أسس الدعوة إلى الله تعالى في القرآن الكريم : عمر يوسف حمزة : ص 237 .

3 - ذم الهوى : ابن الجوزي ، ص 52 .

4 - مبدأ المخاطر : ص 196 .

5 - ذم الهوى : ص 52 .

6 - الصبر السابق : نفس الصفحة .

7 - انظر : حنة ابن الجوزي في أصل حياة ابن الجوزي .

8 - الدرر على الرواسين : ص 26 - الذليل على الخطيئات : 1 / 431 - هذيب سر أعلام النبلاء : 3 / 228 .

ولما كان الابتلاء هو الذي يكشف عن صدق الصادقين و حقيقة انتسابهم للإيمان¹ فإن ابن الجوزي صبر ولم يجزع وكتب لابنه تلك النصيحة الغالية الموسومة بـ: " لفتة الكبد إلى نصيحة الولد " ، لعله يتوب و يرجع .

وفي موضع آخر ينبه ابن الجوزي إلى جزاء الصابرين و عظيم أجرهم عند الله - عز و جل - مستدلا على ذلك بالعديد من الأحاديث² .

و تحدث عن أهمية الصبر عن الرذائل فقال : " فالصبر عن الرذائل فضيلة للنفس ، بها يحتل الإنسان الخير و الشر ، فمن قلَّ صبره فحكم هواه على عقله ، فقد صبر المتبوع تابعا ، و المأموم إماما " ³ .

كذلك يرى بأنه لا بد للمؤمن من الصبر على ما يلحقه من ضرر في دار الابتلاء فيقول : " فيحتاج المؤمن إلى الصبر على ما يلقي من الضرر في الدنيا " ⁴ .

و يقول حول ما جاء في قوله تعالى : (إني جزيتهم اليوم بما صبروا) ⁵ فيقول :

" لما علم الصالحون أن الدنيا دار رحلة دافعوا زمان البلاء و أد لجوا في ليل الصبر علما منهم بقربهم فجر الأجر ، فما كانت الأرقدة صبحوا منزل السلامة ... " ⁶ . و قال أيضا :

" يا قليل الصبر إنما هي مراحل ، فصابر لجة ⁷ البلاء ، فالموت ساحل تأمل تحت سجن ⁸ ليل الصبر صبح الأجر ، و احبس لسانك عن الشكوى في سجن الصبر ، و أقطع نهار اللأواء ⁹ بحديث الفكر و أوقف في دياجى الألام مصباح الشكر ... و من تفكر في سر (إن الله مع الصابرين) ¹⁰ أنس بجليسه ، و من تذكر (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) ¹¹

¹ - قواعد الدعوة إلى الله : حماد عبد الرحيم سعيد ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، المتصورة ، مصر ، ط 5 ، 1419 .
1990 م ، ص 41 .

² - المعاني : ابن الجوزي ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، دار الصحابة للتراث بطنطا ، مصر ط 1 : 111 : 1001 م ، ص 96 و ما بعدها
البيات عند الممات : ابن الجوزي ، تعقب عبد المطلب عاشور ، مكتبة القرآن للطبع والنشر (التوزيع) : القاهرة ، ص 32 ، 33 .

³ - الطب الروحاني : ص 10 .

⁴ - سيد الخاطر : ص 92 .

⁵ - المؤمنون : 111 .

⁶ - البصرة : 1 / 201 .

⁷ - لجة الأمر : معظمه ، منار الفصاح محمد بن أبي بكر الترازى ، ربه محمود خاطر دار الحديث حوار إدارة الأزهر ذت ص 592 .

⁸ - صحف الليل : ستره ، القاموس المحيط ، محم. للدين القبرور أبدي ، دار الفكر بيروت ، 1403 هـ . 3 / 150 .

⁹ - الأواء : السنة ، و الإبطاء و الاحساس ، القاموس المحيط ، 4 / 384 .

¹⁰ - البقرة : 153 .

¹¹ - الزمر : 10 .

فرح بامتلاء كيسه " 1

وفى الأخير يحذر ابن الجوزي العلماء و الدعاة من عدم الصبر على حياتهم المادية لأن هذا من أكبر العوائق فى طريق الدعوة 2 فيقول : " من الإبتلاء العظيم إقامة الرجل فى غير مقامه مثل أن يحوج الرجل الصالح إلى مداراة الظالم و إلى مخالطة من لا يصلح ... أو يحتاج إلى شيء من الدنيا و قد منع حقه فيحتاج إلى مداراة من تصعب مداراته ، بل نشئت همه لتلك الضرورات " 3 .

و هكذا يقع الداعية فى المحذور ، فيسقط من أعين المدعوين ، و حتى يهدى من روعه راح ابن الجوزي بوصيه بأن ينظر إلى سيرة الرسول - صلى الله عليه و سلم - و صبره و تجلده لأنه - عليه الصلاة و السلام - كان يعلم أن الدنيا دار ابتلاء 4 . و هذا ما كان ابن الجوزي يريده للدعاة حتى يتصفوا به .

2 - القناعة و التواضع :

و هما من الصفات التى يرى ابن الجوزي ضرورة توفرها فى الداعية ويشدد على هذا الأمر، إذ يرى فيه أنه من أكبر العوائق التى تؤثر على الداعية و مردوده الدعوي فيقول عن الداعية : " و أحب له أن يكون له كسب و قناعة بما يملك ، و متى طمع فى أموال الناس لم يؤمن عليه النفاق و الرياء ثم لا يقع و عظه منهم موقعا " 5 .
و يأمر ابن الجوزي الداعية بأن يقنع بالقليل فلا ينظر إلى ما عند الناس حتى لا يتشتت قلبه فيقول : " و ليقنع بالقليل ، فإنه متى سمت همته إلى فضول المال وقع المحذور من التشتت ... فيذهب العمر على البارد " 6 ، فابن الجوزي يرى أن عدم القناعة يؤدي إلى تشتت نفس الداعية و عدم اطمئنانها ، فنجده يوصي بحفظ المال فيقول : " فأسعد الناس من له قوت دار بقدر الكفاية لا من منن الناس و صدقاتهم... و ينبغى للعاقل إذا رزق قوتا أو كان له مولد أن يحفظها ليجتمع همه، و لا ينبغى أن يبذر فى ذلك فإنه يحتاج فينشتت همه " 7 .

1 - البصرة : ابن الجوزي 1 / 201 : 205 .

2 - قوارب الحياة فى حياة الدعاة : فتحي يكن ، مؤسسة الرسالة ، دار الإيمان للطباعة و النشر ، دت : ص 54 ، 55 ، 111 ،

112 .

3 - صيد الخاطر : ص 201 ، 201 .

4 - المصدر السابق : ص 201 .

5 - الفصاح و المذكرى : ص 110 .

6 - صيد الخاطر : ص 303

7 - المصدر السابق : 303

و يبين أن شرف الإنسان يكون في صيانة عرضه عن الخلق و خاصة إذا كان هذا الإنسان واعظا و داعية إلى الله تعالى ، فعند ذلك تكون " القناعة بما يكفي و ترك التشوف إلى الفضول أصل من الأصول " ¹ و يضرب لنا - رحمه الله - مثلا للقناعة عند الدعاة بالإمام أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - فيقول عنه : " و لما آيس الإمام أحمد ابن حنبل نفسه من قبول الهدايا و الصلوات اجتمع همه و حسن ذكره " ² .

من أجل ذلك صار من الضرورة بمكان أن تتوفر هذه الصفة في الدعاة حتى لا ينلوا أنفسهم لذوي المال و السلطان أو يطمع فيهم غيرهم بشراء ذممهم " فالعزّ ألد من كل لذة و الخروج عن ربة المنن و لو بسف التراب أفضل " ³ .

أما عن صفة التواضع فالداعية من أحوج الخلق إلى هذا الخلق ، لأنه من طبيعة الناس أنهم لا يقبلون قول من يتناول عليهم أو يحتقرهم ، حتى ولو كان ما يقوله حقا و صدقا ⁴ . و من هذا المنطلق اعتبر التواضع صفة لازمة للدعاة ، فلا بد للداعية أن يخفض جناحه لمن يلقاه ، و أن لا يتعالى على الناس ، تأسيا في ذلك بما أثار عن رسول الله - صلى الله عليه و سلم - الذي كان يخدم أهله في بيته، و يخصف نعله، و يرقع ثوبه و يحلب شاته لأهله ⁵ . و بالتواضع يكسب الداعية رضى ربه و ثقة المدعوين ، فكم من داعية لم يقبل من كلامه شيء لما يرى الناس فيه من كبر و انتفاخ ⁶ ، و مثله لا يكاد يختلف عن من تواضع لغير الله من المخلوقين رجاء كسب ودهم و رضاهم ، و قد رد ابن الجوزي على أمثال هؤلاء بقوله : " فمتى تواضع لغير الله أخل بمركز الأدب و استبدل الخزي بالذهب " ⁷ . و في مقابل حثه على التواضع نجد ابن الجوزي ينهى عن الكبر لأنه أساس الشرور ، فهو أول صفة اتصف بها إبليس ، عندما تكبر و رفض السجود لأكم و قال : (أنا خير منه، خلقتني من نار و خلقتك من طين) ⁸ ، و حتى يكون ابن الجوزي عمليا أكثر عد

1 - صيد الخاطر : ص 304 .

2 - المصدر السابق : ص 304 .

3 - نفس المصدر : ص 304 .

4 - أصول الدعوة : عبد الكريم زيدان ، 363 .

5 - انظر الشفا جعفر بن حنون المصطفى : للفاضل عياض المحقق علي محمد البجاوي دار الكتاب العربي بيروت 1984 / 1 / 171 .

6 - منهج ابن القيم في الدعوة إلى الله تعالى : أحمد بن عبد العزيز الخلف ، مكتبة أضواء السلف ، الرياض ، ط 1 ، 1419 هـ ،

1998 م / 1 / 272 .

7 - التذكرة في الرغبت : ص 82 .

8 - الأثر : 11 .

إلى وضع طريقتين لعلاج الكبر - سواء للدعاة أو غيرهم - واحدة علمية و الأخرى عملية .
و الطريقة العملية تكون بتزويد النفس بالأدلة السمعية و العقلية الدالة على قبح الكبر و الآيات
و الأحاديث تفيض في هذا المقام بالوعيد و العذاب الأليم للمتكبرين كقوله - صلى الله عليه
و سلم - : " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر " فقال الرجل: إن الرجل
يحب أن يكون ثوبه حسنا و نعله حسنة قال : " إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق
و غص الناس " ¹ .

أما الطريقة العملية فلها جانبان : أولهما : صحبة المتواضعين و سماع أخبارهم
و الثانية النظر إلى رذائل النفس و ما يتكبر به ، فإن كان ما لا فهو مأخوذ منه عن قريب
و الفضل إنما يكون في الغنى عن الشيء لا به ، لأن الغنى بالشيء فقير إليه ، و إن كلن
علما فقد سبقه خلق كثير أعلم منه، كذلك إن كان عملا فرؤيته للعمل بعين التمام نقيصة ² .
و بهذا يكون ابن الجوزي قد أفصح في اقتلاع صفة الكبر و غرس مكانه التواضع في قلوب
الدعاة و الوعاظ .

د - الجمع بين العلم و العمل :

إن العلم وحده لا يكفي في حق الداعية، و ذلك أن الداعية الناجح لابد أن يقترن علمه
بعمله ، و من لم يقترن علمه بعمله كان كمن يرشد الناس إلى النور و هو جالس في الظلام
الدامس . و قد حرص ابن الجوزي على أن تتوفر هذه الصفة في الداعية أو الواعظ
و المذكر على حد تعبيره ، كما كان يحرص أن تتوفر هذه الصفة فيه قبل أن يخاطب بها
غيره حتى لا يكون من الذين يقولون ما لا يفعلون .

و على هذا الأساس فقد كان - رحمه الله - عالما عاملا ، و جعل من منهجه أن يجمع بين
العلم و العمل كل من له صلة بالعلم و الوعظ و التذكير ، أو له دور في توجيه المجتمع
و تربيته .

و مما قاله في بيان فضل العلم و ضرورة الربط بينه و بين العمل : " وليس العلم
بمجرد صورته هو النافع بل معناه ، و إنما ينال معناه من تعلمه للعمل به " ³ .
و لشدة حرصه على هذه الصفة نجده يوصي ابنه ليتمسك بها فقال له ناصحا : " و إياك أن

¹ - الطب الروحاني: ص 31 ، والحديث رواه الترمذي : 317 / 1 كتاب البر و الصلة : باب ما جاء في الكبر ، رقم 1999

و قال حسن صحيح عرب ، والغصم الإحتقار و غمصه استصغره و لم يره شيئا

² - المصدر السابق : ص 11

³ - سيد الخاطر: 157

تقف مع صورة العلم دون العمل به . فإن الداخلين على الأمراء و المقبلين على أهل الدنيا قد أعرضوا عن العمل بالعلم فمنعوا البركة و النفع " ¹ ، فمن خلال هذا القول نرى أن ابن الجوزي قد سوى بين من لم يعمل بعلمه و بين أهل الدنيا و المتنافسين على حطامها ممن لم يهذبهم دين ولم تردعهم أخلاق .

ثم يبين لنا ابن الجوزي منهجه بكل صراحة و وضوح في هذه المسألة ، حيث رأى أن هذه الصفة هي أم الصفات ، فيها يتحدد مسار الداعية و دوره و تأثيره في المجتمع و غيرها فكأنه لا شيء يقول : " و متى لم يعمل الواعظ بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل الماء عن الحجر " ² ، و لقد كان ابن الجوزي شديد التحرز مخافة الوقوع في هذا الخطأ المشين ، لذلك كثر دعاؤه لله تعالى بأن يطيل عمره في طلب العلم النافع و أن يجمع له بين العلم و العمل ³ ، و لكن العمل للدعوة دون علم غير كاف عند ابن الجوزي ، فلا بد من وجود هذا الأخير حتى ينسجم دور الداعية و تستقيم دعوته ، و يعلل ذلك بأن السلف - رضي الله عنهم - كانوا ينكرون على من يقوم بالتنكير و الدعوة دون علم و يروي لنا في ذلك ، كيف أن الإمام علي - رضي الله عنه - مر بقاص فقال : " أتعرف الناسخ و المنسوخ ؟ ، قال : لا ، قال : هلكت و أهلكت " ⁴ ، و مرة أخرى وجد قاصا يقص فطرح عليه نفس السؤال بقوله : " أتعرف الناسخ و المنسوخ ؟ قال : نعم ، قال له : قص " ⁵ .

و لم يكتف ابن الجوزي من الداعية بعلم واحد بل أراد له أن يكون محيطا بأنواع شتى من العلوم و المعارف فقال : " لا ينبغي أن يقص على الناس إلا العالم المتقن فنون العلوم لأنه يسأل عن كل فن ، فإن الفقيه إذا تصدر لم يكذب يسأل عن الحديث ، و المحدث لا يكذب يسأل عن الفقه ، و الواعظ يسأل عن كل علم ، فينبغي له أن يكون كاملا " ⁶

و لا شك أن ابن الجوزي - رحمه الله - قد نبه إلى هذا الأمر و هو في غاية الأهمية و مع ذلك فقد ركز على العمل و الاقتداء بالعلماء و الصالحين من سلف الأمة و لن يتأتى ذلك للداعية إلا إذا قصد بعمله هذا ، التعبد لله تعالى و نشر الخير في المجتمع

1 - لفظة الكيد : ص 41 .

2 - المصدر السابق : ص 42 .

3 - سيد الخاطر ، ص 108 ، 109 .

4 - الفصاح و التذكري : ص 181 .

5 - المصدر السابق : ص 349 .

6 - نفس المصدر : ص 181 .

و يضرب لنا ابن الجوزي أمثلة عن الذين تخلوا عن هذا المنهج فلم ينالوا الحظوة ، ولم يكتب لهم القبول عند جمهور المدعوين ، فقال : " وجدت جمهور المحدثين همة أحدهم في الحديث العالى و تكثير الأجزاء ، و جمهور الفقهاء فى علوم الجدل و ما يغالب به الخصم و كيف يرق القلب مع هذه الأشياء ؛ و قد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته ، و هديه لا لاقتباس علمه ، فافهم هذا و امزج طلب الحديث بمطالعة سير السلف و الزهاد فى الدنيا ليكون سببا لرقة قلبك " 1 .

و لم يكن ابن الجوزي من الذين يحفلون بالقول بعيدا عن ميدان العمل ، فقد كان - رحمه الله - يمارس الدعوة بشكل عملى و ذلك واضح فى منهجه من خلال ممارسته للوعظ و الإرشاد و التربية و التعليم فكان بذلك قدوة فى صفاته و منهجه للدعاة و المربين منذ قرون خلت و إلى اليوم .
4 - الصدق و الإخلاص :

الصدق من أهم صفات الدعاة و العاملين فى الحقل الإسلامى ، و هو طريق النصر و التمكين الذى حث الله المؤمنين على أن يسلكوه فقال : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) 2 .

قال الامام ابن كثير - رحمه الله - : " أى اصدقوا و الزموا الصدق تكونوا من أهله و تنجوا من المهالك و يجعل لكم فرجا من أموركم و مخرجا " 3 ، و من المعلوم لدى الدعاة أن أهم صفة اشتهر بها النبي - صلى الله عليه و سلم - بين قوميه قبل البعثة هي صفة الصدق من أجل ذلك صار الصدق ضرورة لا مندوحة عنها ، لأن ما يقوله الداعية ليس رأيا شخصيا و لا اجتهادا ذاتيا و إنما هو مبلغ دعوة الله كما جاءت و كل هذا يحتاج منه إلى الصدق فى التبليغ و الدقة فى النقل لأنه يعرف قدسية الجية التي ينقل عنها 4 .

و لقد حث ابن الجوزي الدعاة و الوعاظ على الصدق و الإخلاص فى الدعوة و حذرهم من الرياء و السمعة و طلب رضى الناس ، لأنه ما أفسد على الدعاة أعمالهم إلا الرياء و مدح السامعين ، فأنحرفوا عن إطار الدعوة و هدفها المرسوم لها إلى قضايا هامشية ليست من أصول الدعوة فى شىء ، كتحمسين أسلوب الموعظة إلى حد التقعر فى الكلام ، أو

1 - مبدل الخاطر : ص 216 .

2 - التوبة : 119 ،

3 - تفسير ابن كثير : 3 / 471 .

4 - دعوة الإسلامية أصولها ووسائلها : محمد أحمد غلوش : ص 450

القدح في المخالفين بدعوى النصح و التقويم ، و هذا من أكبر ما أصاب الدعوة من عوائق على مر العصور .

و كآني بالدعاة لم يعوا الثروس جيدا فراح ابن الجوزي يؤنبهم و يقرعهم قائلا : " فهذا يرعى درسه فيفرح بكثرة من يسمعه و يفرح في كلام من يخالفه ... و عينه إلى التصدر و الارتفاع في المجالس " ¹ . بل و هناك منهم من لا يكتفي بهذا القدر من الانحراف فتراه يلهث وراء تميم الألفاظ و تشويق الكلام ناسيا بذلك جوهر و أساس دعوته يقول ابن الجوزي فيهم : " و الواعظ همته ما يزوق به كلامه ، و يكثر جمعه و يجلب به قلوب الناس إلى تعظيمه ، فإن كان له نظير في شغله أخذ يطعن فيه " ² . و لاشك أن هذا من الأمراض العويصة التي تنخر جسد الدعوة ، و تشغل الدعاة عن إيجاد الدواء لها بمعارك خارجة عن حلبة الدعوة ، كما أنها دلالة على غفلة قلوب هؤلاء الدعاة عن الله - عز و جل - " فلو كانت لها به معرفة لأشتغلت به " ³ ، و متى غفلت القلوب عن الله تعالى فلا شك أنها ستمتلي بغيره و هذا حق لأنه " متى فرغ القلب من معرفة الحق امتلأ بالخلق فصار يعمل لهم و من أجلهم و يهلك بالرياء و لا يعلم " ⁴ .

و هكذا هو الحال دائما إذا ابتعد الداعية عن الإخلاص صار الرياء قائدا له ، فبدت منه سلوكيات سمجة جرفته بعيدا عن طريق الدعاة و العلماء و الصالحين فصار فردا واحدا بعد أن كان أمة في واحد قال ابن الجوزي : " و قد رأينا من يرأى و لا يدرى فيمتنع من المشي في السوق ، و من زيارة الإخوان و من أن يشتري شيئا بنفسه " ⁵ . و في هذه الحال يقع الداعية في المحذور لأنه عمل من أجل المخلوقين و نسي الخالق الذي عاهده بالدعوة له و لدينه لا لبعض خلقه و عبده " لأنه متى نظر العامل إلى التفات القلوب إليه فقد زاحم الشرك نيته لأنه ينبغي أن يقنع بنظر من يعمل له " ⁶ لا غير و هذا من تمام الإخلاص ، و هو طريق الخلاص الذي لا يمكن سلوكه إلا بمعرفة الله حق المعرفة فمن لم يعرف الله وقع في الرياء و وقع بثناء الناس و حمدهم و يجلي لنا ابن الجوزي

¹ مسد الخاطر : ص 111 .

² المصدر السابق : نفس الصفحة

³ نفس المصدر : الصفحة .

⁴ المصدر السابق : ص 270 .

⁵ نفس المصدر : ص 280

⁶ المصدر نفسه : ص 303

هذا الموقف بقوله : " من عرف الله تعالى حق معرفته أخلاص له عمله و إنما يقع الرياء من قلة المعرفة له ، و تعظيم قدر الخلق و إثارة النفس مدحهم و حمدهم " ¹ .

5 - التقوى وحسن الصلة بالله :

إذا كان الداعية مرشداً إلى الخير و الصلاح و كل همه هو أن يعرف الناس بربه ليفوزوا بسعادة الدارين ؛ الدنيا و الآخرة و جب عليه أن يمتن صلته بالله تعالى ² ، و يجعل إيمانه مرتكزاً على التفريغ لخالقه لتكون الدعوة بذلك متجلية في قوله و فعله .
و من جملة وصايا ابن الجوزي للدعاة تأكيده على تقوية الصلة بالله فيقول : " إن الغافل يقول سبحان الله عادة ، و المتيقظ لا يزال فكره في عجائب المخلوقات أو في عظمة الخلق فيحركه الفكر في ذلك فيقول سبحان الله " ³ .

و من خلال ما ذكره ابن الجوزي يتبين لنا أن قوة الصلة بالله تجعل الداعية يشعر بمعية الحق - سبحانه و تعالى - ر القرآن الكريم لم يترك الداعية وحده يبحث عن الدليل الذي يدفعه إلى الإيمان ، بل وجه فكره و نظره إلى آثار الخالق في مخلوقاته ليكتمل إيمانه و يشعر بالطمأنينة تسري في كيانه ⁴ . و يوصي ابن الجوزي الداعية بملازمة باب مولاه على أي حال كان ، و أن يتعلق بذيل فضله سواء عصى أو أطاع ، و ليكن له نعم الأنيس في خلوته به ، فإذا وقعت و حشة فعليه أن يجتهد في رفع الموحش ⁵ ، و لم يكن ابن الجوزي يوصي الدعاة بضرورة التحلي بهذه الصفة و ينسى نفسه ، فهذا ليس من شيم الدعاة الصادقين ، فقد كان ذا صلة وثيقة بخالقه " - سبحانه و تعالى - مجتهداً في العبادة ، يسرد الصوم و له مجاهدات و أوراك رحمه الله .

أما عن صفة التقوى فابن الجوزي يرى أنها من الصفات الضرورية التي تلازم المؤمن في كل أحواله و لا يمكنه التخلي عنها سواء في وقت الشدة أو زمن العيش الرغيد لأنه من " ضرورة هذه الحال ملازمة التقوى فإنه لا يصلح الأئس إلا بها " ⁷ ، و أهل التقوى من المؤمنين هم الذين يجأرون إلى الله بالدعاء و السؤال ، يقول عنهم : " فقد كان أرباب

¹ - الطب الروحاني : ص 34 .

² - الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها : محمد أحمد غلوش - ص 141

³ - صد الخاطر : ص 347 .

⁴ - الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها : محمد أحمد غلوش : ص 442 .

⁵ - صد الخاطر : ص 129 .

⁶ - النظر النليل على الروضتين : للأبي شامة ، ص 21 - التأمل على طبقات المناجاة : ابن رجب الحنبلي ، 1 / 413 .

⁷ - صد الخاطر : ص 126

التقوى يتشاغلون عن كل شيء إلا عن اللجأ والسؤال¹ ، و ذلك لأن التقوى عند الداعية هي السلاح الأقوى ، و هي السبب للمخرج من كل غم .

لهذا وجب على المؤمن المتقئ لله " أن يعلم أن الله - عز و جل - كافيه فلا يعلق قلبه بالأسباب " ² ، لأنه كلما توجه الداعية لغير الله بالطلب كلما نقص شيء من تقواه ، لأن التقوى هي مفتاح كل عمل صالح ، يقول ابن الجوزي في ذلك " فكل كرامة لا تؤسس على التقوى ليس لها ثبات و لا جدوى " ³ ، و من أحسن ما قاله في هذا المقام : " من أحب تصفية الأحوال فأيجتبه في تصفية الأعمال ، قال عز و جل (و أن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) ⁴ و قال النبي - صلى الله عليه و سلم - فيما يرويه عن ربه - عز و جل - : " لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل ، و أطلعت عليهم الشمس بالنهار ، و لم أسمعهم صوت الرعد " ⁵ ... و كان شيخ يدور في المجالس و يقول : من سره أن تدوم له العافية فليثق الله عز و جل " ⁶ .

و إذا انصف الدعاة بهذه الصفات تحققت الهداية و النصر لهم تحقيقا لوعده الله القائل : (فمن اتبع هداي فلا يضل و لا يشقى) ⁸ .

و لابن الجوزي كلامه كثير حول التقوى و مراتبها و علاماتها و أقسامها و أحكامها و لأهميته أوردناه موجزا على هذا النحو :

* - ففي مراتبها يقول : " للمتقين في تقاهم أربع مراتب يلزمها أربع نتائج :

- المرتبة الأولى : تقوى الكفر و نتيجتها تحريم الخلود في النار .

- المرتبة الثانية : تقوى المعاصي و نتيجتها الخلاص من العقاب .

- المرتبة الثالثة : تقوى فضول الدنيا و نتيجتها خفة الحساب .

¹ - صيد الخاطر : ص 120 .

² - المصدر السابق : ص 191 .

³ - نفس المصدر و الصفحة .

⁴ - التذكرة في الوعظ : ص 230 .

⁵ - الجن : 16 .

⁶ - العلل المتناهية في الأحاديث الواهية : ابن الجوزي تحقيق و تعليق إرشاد الحق الأثري ، الناشر إدارة ترجمان السنة لاهور

2 / 306 ، و الحديث أخرجه سنخه إلى الدارقطني عن أبي سعيد و قال الدارقطني الحديث غير ثابت أخرجه أحمد عن أبي هريرة . مطبولا 559/2 ، و قال حقق العلل إسماعيل أحمد حسن .

⁷ - صيد الخاطر : ص 18 .

⁸ - طه : 123 .

— المرتبة الرابعة : تقوى كل شاغل يشغل عن الله، و نتيجتها وفور النصيب من النظر إلى

الله عز و جل .

• — و أما علامات التقوى : فاجتناب المحرمات و المكروهات و المسارعة إلى الواجبات و المستحبات .

• — و أما أقسامها فنثلاثة : تقوى الموجبات للعقاب ، و تقوى الموفقات للحساب، و تقوى المانعات للثواب . أما الموجبات للعقاب فهي : الأمور الشيطانية ، و هي الكفر و البدعة و المعصية . و الموفقات للحساب هي : الأمور النفسانية و هي : مذابحة الهوى في نيل المشتهى من فضول حظوظ الدنيا .

و موانع الثواب : إما تشييط الشيطان ، أو كسل النفس ، أو فساد الرأي أو قلة العلم .

• — أما أحكام التقوى فحكمان : وجوب استحباب التقوى ، و أداء الفرائض ، و التقوى المستحبة هي التنزيه عن المكروه ، و التطوع المسنون . و أما نتائجها العادلة ؛ فالسلامة من شر الشيطان و النفس ، و أما أمورها الأجلة : فالنجاة من العذاب ، و الحلال من الحساب ، و الفوز بالجنة و الوصول إلى الحضرة .

أما غايتها : فاستقرار النخول في الصالحين ، و أما الجزاء الذي ينفرد به الله تعالى : فالنظر إلى رب العالمين¹ .

تلكم هي أهم الصفات التي ألح ابن الجوزي على ضرورة توفرها في الدعاة و التي بوجودها يمكن لموكب الدعوة أن يواصل شق طريقه حتى تبلغ قوارب الدعاة ساحل النجاة أما إذا ما نقصت صفة منها فسيختل توازن الداعية و يضعف تأثير دعوتها في المدعوبين و ذلك لأنه كلما لمس الناس أثرها في حياتهم كلما كان ذلك دليلا على صدق الداعية و اتصافه بهذه الصفات الجامعة التي لا يمكن الاستعاضة عنها بغيرها .

¹ التذكرة في الوعظ نص، 231، 232، 233

المبحث الرابع

مؤهلات الداعية و حظ ابن الجوزي منها

إذا كان لابد لكل مسافر من زاد يتزود به من أجل أن يتغلب على وعناء السفر و مشقته فكذلك لابد لكل داعية من زاد ، و زاد الداعية هذا هو ما يؤهله من عدة مادية و معنوية أثناء خوضه غمار تبليغ الدعوة و نشرها بين الناس ، و مواجهة ما يصادفه من عقبات ، و التي قد تكون هينة حيناً و شديدة قاسية في كثير من الأحيان ، لذلك بات من اللازم للداعية أن يتزود بهذه المؤهلات ، و التي هي بمثابة السلاح الذي يشد به عضده و يمكن به لدعوته ، و هذه المؤهلات تختلف في مضمونها و مسمياتها - لدى الباحثين في مجال الدعوة - من داعية لأخر ، و كلما زاد عندها إلا و عظم ثقل الداعية المعنوي و مردوده الدعوي ، و قد كثرت هذه المؤهلات عند ابن الجوزي ، بينما قلت عند غيره من دعاة عصره و وعاضه . و من هذه المؤهلات الدعوية التي توفرت في ابن الجوزي و نال حظاً كافياً منها :

١ - علو الهمة :

و هذه من أهم المؤهلات و التي قلما توفرت في الدعاة إلا إذا كانوا على مستوى عال من التجرد كما بن الجوزي ، الذي كان على الهمة طموحاً في طلب المعالي منذ صغره و رغم ما لحقه من شدائد و محن فقد تلقى ذلك كله بالقناعة و الصبر ، و من مظاهر علو همته أنه كان يخرج لطلب العلم أيام الصبا و معه أرغفة يابسنة فيقعد على نهر عيسى يقرأ و يحفظ و كلما أحس بالجوع أكل رقمة ثم أتبعها بالماء و لم يكن همه إلا تحصيل العلم² . و علو الهمة ابتلاء و لكن ابن الجوزي يقابله بالرضا و التسليم قائلاً : " ما ابتلي الإنسان قط أعظم من علو همته ، فإن من علت همته يختار المعالي ... و إني أعطيت من علو الهمة طرفاً ، فأنا به في عذاب ... و لقد رأيت أقواماً يصفون علو هممهم ، فتأملتها فإذا بها في فن واحد و لا يباليون بالنقص فيما هو أهم " ³ .

¹ - انظر أصول الدعوة : عبد الكريم زيدان ، ص 325 - حيث عبر عن المؤهلات بعدة الداعي - اندخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتوح الليثوني ، ص 168 و عبر عن المؤهلات بإعدادة الداعية .

2 - صيد الخاطر: 235

3 - المصدر السابق: 238

و قد نعجب من علو همته التي تدفعه إلى محاولة تحصيل كل العلوم و التعمق فيها
فعبّر عن ذلك بقوله : " و نظرت إلى علو همتي فرأيت عجباً و ذلك أنني أروم من العلم
ما أتيقن أنني لا أصل إليه ... ثم إنني أروم نهاية العمل بالعلم ، فأتوق إلى ورع بشر وزهادة
معروف و هذا مع مطالعة التصانيف و إفادة الخلق و معاشرتهم " ¹ .

و هكذا أخذ ابن الجوزي نفسه بالعزيمة و تطلع إلى بلوغ الدرجات ، فلقى العنت
و العذاب ، لكنه استعذبه حفاظاً على علو همته التي كانت تتطلع إلى أرفع الغايات ، فجعلته
يطلب من خالقه - بعد أن بلغ الستين - تطويل عمره ، و تقوية بدنه ، ليبلغ أماله كلها
فقال : " خلقت لي همة عالية ، تطلب الغايات ، بلغت الستين و ما بلغت ما أملت ، فأخذت
أسأل الله تطويل العمر ، و تقوية البدن ، و بلوغ الآمال " ² ، و من جملة ما كان يدعو به
- رحمه الله - قوله : " دعوت يوماً فقلت : اللهم بلغني أمالي من العلم و العمل ، و أطل
عمرى لأبلغ ما أحب من ذلك ... فإني لبيتنى قدرت على عمر نوح ، فإن العلم كثير و كلما
حصل منه حاصل رفع و نفع " ³ .

و هذه الهمة العالية كانت مركوزة في ابن الجوزي منذ صغره ، حيث كان له عقل
راجح يضاهي عقول الشيوخ ، و هذا العقل الأثير صرفه عن اللعب مع الصبيان و مضاحكتهم
أو مشاركتهم حتى في لهوهم البريء ⁴ .

و بلغت ابن الجوزي انبهاء العلماء و الدعاة إلى أن هذه الصفة كانت من أخص صفات
الأسلاف ، فيقول : " و من نظر في أخبار السابق رأى عموم الفقهاء و العلماء و أكثر
المشار إليهم بذلك من الموالى و من الضعفاء و أهل الحرف الدنية ، إلا أن الهمم أثرت
فأثارت ... و ما يناله أرباب النعب من الراحة في تعظيم الخلق لهم و ارتفاع قدرهم في الدنيا
قبل الآخرة ينسى مرارة كل نصب فكأنه ما تعب من استراح و لا استراح من تعب " ⁵ .
هكذا نجد ابن الجوزي يرى أن كل شيء يهون أمام الهمة العالية فهو يستسهل كل صعيب
و لا يأبه بأي مكروه يصيبه ما دام ذلك في سبيل الله .

و كذا يجب أن تكون همم الدعاة و المصلحين ، لا يثنيهم تعب و لا نصب في سبيل الوصول

¹ - صيد الخاطر : ص 230 .

² - المصدر السابق : ص 291 .

³ - نفس المصدر : ص 108 ، 109 .

⁴ - لفحة الكبد : ص 19 .

⁵ - الطب الروحاني : ص 50 .

إلى تحقيق أهداف الدعوة على أيديهم .

2 - الاهتمام بالمظهر :

لا شك أن المظهر الخارجي للداعية هو جزء هام من شخصيته ، يدل على ذلك الواقع الإنساني المعيش ، فكثير من الناس لا يصدرون أحكامهم على غيرهم إلا من خلال هندامه و مشييته و جلوسه و حركاته و سكناته .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى : (وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من الملك ، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في الجسم والعلم ، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم)¹ .

فالذي يتصدى لدعوة الناس و توجيههم ، لابد أن يكون حسن المظهر و الصورة نظيف البدن طيب الرائحة خفيف شعر الرأس ، معنيا بسنن الفطرة و أدائها ، حسن الملابس و النعل ، فلا يلبس ما يخل بالمروضة ، أو يثير الناس بل يعتدل في ذلك ، مع مراقبته لنظره و فمه و يده فلا يصدر منه ما يؤخذ عليه ، و أن يبتعد عن مواطن الشبهات حتى لا يتخذ هدفا يرمى فتنته من خلاله حرمة الدعوة و الدين . وبالجملة فالداعية لابد أن يكون حسن المظهر إضافة إلى صفاء السريرة و المخبر .

و لقد كان الأسلاف العظام من علمائنا الأجلاء يتحلون بهذا المؤهل ، و يرون فيه المزية التي يتميزون بها عن غيرهم من صنوف الناس ، و أحسن مثل نذكره في هذا المقلم الرسالة التي بعث بها يحيى بن يزيد النوفلي³ للإمام مالك - رضي الله عنه - ورده عليه . و نصها : " بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على رسوله محمد في الأولين و الآخرين من يحيى بن يزيد بن عبد الملك ، إلى مالك بن أنس ، أما بعد : فقد بلغني أنك تلبس الدقاق و تأكل الرقاق و تجلس على الوطىء ، و تجعل على بابك حاجبا ، و قد جلست مجلس العلم

¹ - البقرة : 217 .

² - القدوة الإسلامية قرصتها ، ضرورتها : السبل إليها : الطب برفوف ، دار الشهاب للطباعة و النشر ، باني ، ط 1 ، 1404 ، 1984 م ، ص 44 ، 45 .

³ - النوفلي : من عباد أهل المدينة روى عن أبيه و روى عنه أحمد بن حنبل و غيره قال أبو حاتم منكر الحديث ، و قال ابن عدي ضعيف و قال أحمد لا بأس به انظر المخرج و التعديل : محمد بن إدريس الرازي مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بميدان أباد الدكن للطباعة ، 1983 م ، 9 / 198 - لسان الميزان : ابن حجر العسقلاني تحقيق عادل أحمد عبد الموجود ، الشيخ علي محمد

و قد ضربت إليك المطي ، و ارتحل إليك الناس ، و اتخذوك إماما ، و رضوا بقولك ، فاتق الله تعالى يا مالك ، و عليك بالتواضع ، كتبت إليك بالنصيحة مني كتابا ما اطلع عليه غير الله - سبحانه و تعالى - و السلام " .

فكتب إليه الإمام مالك : " بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على محمد و آله و صحبه و سلم ، من مالك بن أنس إلى يحيى بن يزيد سلام الله عليك ، أما بعد : فقد وصل إلي كتابك فوقع مني موقع النصيحة و الشفقة و الأدب ، أمتك الله بالتقوى و جزاك بالنصيحة خيرا و أسأل الله تعالى التوفيق و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فأما ما ذكرت لي أني أكل الرقاق و ألبس الدقاق و أحتجب و أجلس على الوطىء ، فنحن نفعل ذلك و نستغفر الله تعالى فقد قال الله تعالى : (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق)¹ . و إنى لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، و لا تدعنا من كتابك فأسنا ندعك من كتابنا و السلام " .² و يعلق صاحب تفسير المنار على هذه الحادثة بقوله : " إذا صحت هذه الحكاية فمراد الإمام مالك أن ترك مجموع ذلك خير لمن صار يقتدى به مثله ، أو قاله تواضعا ، و لذلك لم يتركه و لم يكن النوفلي من طبقة مالك في علم و لا في عمل . و قد كان تقشف بعض السلف عن قلة ، و تقشف بعضهم لأجل القدوة و إنما الزهد في القلب فلا ينافيه الاعتدال في الزينة و طيبات الأكل و الشرب و لا كثرة المال " .³

و اقتداءا بهؤلاء الأئمة الأعلام كان الإمام ابن الجوزي شديد الاهتمام بمظهره و هيئته ، لأنه في اعتقاده أن الداعية لا بد أن يكون حسن المظهر و المخبر ، مهتما بهيئته التي تنم عما يدعو إليه و لم يكن يعتبر ذلك ضربا من ضروب النفاق المزري ، أو الرياء المطغي ، بل كان يعتبره من سنن الإسلام⁴ .

و من مظاهر اهتمام ابن الجوزي بهندامه ، أنه كان يلبس أفضل اللباس و يختار أحسنه ، و خاصة الأبيض الناعم المطيب⁵ ، و يتحدث عن لباسه عند صعوده المنبر للوعظ فيقول : " و كنت إذا تكلمت بباب بدر أصعد المنبر فإذا جلست رفعت الطرحة فوضعتها إلى

¹ - الأعراف : 32 .

² - إحياء علوم الدين : أبو حامد الغزالي ، مع (1 ، 114 ، 115) .

³ - تفسير المنار : السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 8 / 392 ، 393 .

⁴ - استمراية الدعوة : محمد السيد الركيل ، ص 161

⁵ - الذيل على طبقات الحنابلة : ابن رجب الحنبلي ، 1 / 412 .

جانبي فإذا فرغ المجلس أعتدتها

و زيادة على هذا كان ابن الجوزي يؤمن بأن حرمان النفس من الطيبات ليس من مناهج الإسلام في تزكية النفس ، لأنه يستحب شرعا تناول الأطعمة المفيدة للجسم . و إذا كان البدن مركب الروح فليس من الحكمة إهمال المركب و عدم العناية به و عدم تقويته يقول رحمه الله - في ذلك :¹ و معلوم أن البدن مطية الأدمي ، ومتى لم يرفق بالمطية لم تبلغ² . و يرى بأن الخير كل الخير في اتباع الشرع ، و ما شرعه من آداب في الملبس و المأكل و المشرب³ ، ثم يؤكد لنا ذلك بما روي عن النبي - صلى الله عليه و سلم - في هجرته من أنه تزود طعاما و شرابا ، و أن أبا بكر - رضي الله عنه - فرش له في ظل صخرة و حلب له لبنا في قدح ثم صب ماما على القدح حتى برد أسفله⁴ ، و كل ما ذكرناه أنفا استدلل به ابن الجوزي ليؤكد ما ذهب إليه من ضرورة العناية بالمظير و الجسم و الرفق بالنفس .

د - الزهد و الورع :

لقد كان ابن الجوزي على جانب كبير من الزهد و الورع ، كثير التعبد و الصلاة يختم القرآن كل أسبوع ، و ينتقل من الدنيا و يتحرى الحلال في مطعمه ، حيث لم يأكل من جهة لم يتيقن حلها قط إلى غاية وفاته⁵ ، و هذا يبين لنا مدى ورعه و زهده و إحاطة العناية الإلهية به منذ نعومة أظفاره .

و مما يدل على شغفه بالزهد و الزهاد أقواله التي رصع بها كتبه ، و كذلك مصنفاته العديدة التي صنفها في مذاقب الزهاد و أحوالهم⁶ ، كما ذكر عددا كبيرا من هؤلاء في مواضع كثيرة من مقاماته⁷ ، و مما أثر عنه من أقوال قوله في مناجاة الحق - سبحانه و تعالى - قوله : " إلهي لا تعذب لسانا يخبر عنك ، و لا عينا تنظر إلى علون تدل عليك

¹ - المنتظم : 18 / 220 .

² - تلبس إبليس : ص 206 .

³ - المصدر السابق : 207 .

⁴ - نفس المصدر : ص 211 ، و كل هذه الأحاديث التي ذكرها ابن الجوزي هنا ، موثقة في كتب السيرة في أحداث الهجرة

انظر كذلك فتح الباري : 8 / 7 ، كتاب فضائل الصحابة ، فضائل أبي بكر رقم 3652 .

⁵ - الدليل على الروضتين : لأر. شامعة ، ص 21 .

⁶ - انظر مؤلفاته في الزهد و المذاهب في فصول آثار ابن الجوزي .

⁷ - ابن الجوزي و مقاماته الأدبية : على جميل علي مهنا ، ص 50 .

و لا قدما تمشي إلى خدمتك ، و لا يدا تكتب حديث رسولك ، فبعزتك لا تدخلني النار؛ فقد علم أهلها أني كنت أذب عن دينك " ¹ .

و نجده - رحمه الله - يشكو بثه و حزنه إلى الله تعالى ، فيها هو ذا يوضح ركونه و اعتماده على ربه فيقول : " تفكرت في نفسي فرأيتني مفلسا من كل شيء ، إن اعتمدت على الزوجة لم تكن كما أريد . إن حسنت صورتها لم تكمل أخلاقها و إن تمت أخلاقها كانت مربدة لغرضها لا لي . و نعلها تنتظر رحيلي . و إن اعتمدت على الولد فكذلك و الخادم و المرید لي كذلك ، فإن لم يكن لهما مني فائدة لم يريداني . و أما الصديق فليس ثم ... و معارف يفتقدون أهل الخير و يعتقدون فيهم قد عموا و بقيت وحدي ، و عدت إلى نفسي ، و هي لا تصفو الي أيضا ، و لا تقم على حالة سليمة ، فلم يبق إلا الخالق سبحانه " ² .

و قد نتج عن هذا الزهد و الخشية لله تعالى أن تتابعته نعم الله عليه ، رغم تقصيره عن شكر تلك النعم فراح يحاسب نفسه قائلا : " تفكرت في نفسي يوما تفكر محقق فحاسبته قبل أن تحاسب . فرأيت اللطف الرباني ، من بدأ الطفولة و إلى الآن أرى لطفًا بعد لطف ، و سترا على قبيح ، و عفوا عما يوجب عقوبة ، و ما أرى لذلك شكرا إلا باللسان ... ثم أنا أتقاضى منه مراداتي و لا أتقاضى نفسي بصبر على مكروه و لا بشكر على نعمة . فأخذت أنوح على تقصيري في شكر المنعم ، وكوني أتأخذ بإبرك العلم من غير تحقيق عمل به . و قد كنت أرجو مقامات الكبار . فذهب العمر و ما حصل المقصود " ³ . و يتأمل أثر نعمة الخالق عليه من خلال الآف المدعوين المحتشدين حوله فيزيده ذلك خشية و خضوعا لله تعالى فيعبر عن هذا الشعور بقوله : " و لقد جلست يوما فرأيت حولي أكثر من عشرة الآف مافيهم إلا من رق قلبه ، أو دمعت عينه ، فقلت لنفسي : كيف بك إن نجوا و هلكت ، فصحت بلسان و جدي : إلهي و سيدي إن قضيت علي العذاب غدا فلا تعلمهم بعذابي صيانة لكرمك لا لأجلي ، لتلا يقولوا عذب من دل عليه " ⁴ .

و هذا مما يدل على مدى خشية ابن الجوزي لله - سبحانه و تعالى - و زهده و ورعه و معرفته لخالقه حق المعرفة ، كل ذلك أوقع له في القلوب الهيبة و القبول بين جموع

¹ - الأهل على طبقات، الحواشي : ابن رجب الحنبلي ، 1 / 422 .

² - مسد الخاطر : ص 370 .

³ - المصدر السابق : ص 162 .

⁴ - نفس المصدر : ص 230 .

المسلمين منذ ذلك الحين إلى اليوم .

١ - استغلال الوقت :

ليس هناك شيء أضمن من الوقت في حياة الداعية الحق و هو أكبر مؤهل يتميز به الدعاة الربانيون الذين يعيشون كافة وقتهم للعلم و الدعوة و لن نكون مبالغين إذا قلنا أن ابن الجوزي كان منهم ، فقد كان - رحمه الله - يؤمن بأن المعين الأول له هو الله - عز وجل - وأن ما دونه إنما هي أسباب ظاهرة يسخرها الله لمن يشاء من عباده ، و أن العون و النصر في الحقيقة منه - سبحانه و تعالى - ، فراح يعمل في ميدان الدعوة في صمت و تودة و دون أن يضيع وقتا ، أو ينتظر معيناً ، فهو يعلم أن الوقت هو الحياة و أن كل لحظة تمر منه دون عمل فهي خسارة لا يمكن تعويضها، لأن ما مضى من الحياة لا يمكن استرجاعه بأي ثمن¹ .

لقد كان الشيخ يحسن استغلال أوقاته أعظم استغلال ، فلم يثبت عنه أنه ضيع شيئاً منها بلا فائدة أبداً ، حيث أنه كان يبتعد كل الابتعاد عن صحبة البطالين ، والعاطلين عن العمل ، و لم يكن شغوفاً بما اعتاده الناس من كثرة الزيارات و تضييع الأوقات في أحاديث لا طائل من ورائها ، مع ما يتخللها من غيبة و نسيمة ، لذلك وجدناه يعبر عن منهجه في المحافظة على الوقت بصراحته المعهودة قائلاً : " فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء و الواجب انتهاؤه بفعل الخير كرهت ذلك و بقيت منهم بين أمرين ، إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المؤلف ، و إن تقبلته منهم ضاع الزمان . فصرت أدافع اللقاء جهدي فإذا غلب قصرت في الكلام لأنجل الفراق . ثم أعدت أعمالاً - لا تمنع من المحادثة - لأوقات لقائهم لنلا يمضي الزمان فارغاً ، فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد و بري الأقلام ، و حزم الدفاتر . فإن هذه الأشياء لأبد منها ، و لا تحتاج إلى فكر و حضور قلب فأرصدتها لأوقات زيارتهم لنلا يضيع شيء من وقتي "² .

إن الناظر و المتفحص لهذا الكلام يدرك عمق كلام الرجل ، وما يرمى إليه من معاني و التي قد لا يتفطن إليها إلا من حذق من الدعاة ، وذلك لأنه من علامات الرسالية لدى الدعاة الشعور بقيمة الأوقات و عدم استنزافها ، لأن من استرخص زمانه و أضاعه فهو للدعوة أضييع .

¹ - أنظر قيمة الوقت عند ابن الجوزي في فصل محاور الدعوة عند ابن الجوزي

² - صيد الخاطر:ص 227 ، 228

و هاهو - رحمه الله - يزيد منهجه وضوحا في رسالته التي كتبها لابنه يحثه فيها على طلب العلم و يحركه على سلوك طريقه و عدم تضييعه لزمانه فيقول له : " و اعلم يا بني أن الأيام تبسط ساعات ، و الساعات تبسط أنفاسا ، و كل نفس خزانة ، فاحذر أن يذهب نفس بغير شيء ، فترى في القيامة خزانة فارغة فتندم " ¹ .

وليس أدل على اغتنامه للوقت من تلك المؤلفات الكثيرة ، التي جادت بها قريحته ، إذ لا شك أن تأليف مثل هذا الكم الهائل من المصنفات يحتاج صاحبه إلى جهد مضم و وقت كاف ، حتى يتفرغ إلى هذا العمل و الذي لا يحسنه إلا قليل .

5 - قوة الأسلوب و حضور البديهة :

من أهم المؤهلات التي يجب أن يتوفر عليها الداعية إلى الله : اللغة الفصيحة و الأسلوب القوي و القدرة على التأثير في المدعوين ، و إيصال دعوته إليهم على أحسن وجه . و لعل هذا من أهم الأسباب التي جعلت موسى - عليه السلام - يقول داعيا ربه : (و احل عقدة من لساني بفقهوا قولي) ² و يذكر الحق سبحانه ما قاله موسى عندما طلب أن يستعين بأخيه في تبليغ دعوته فقال تعالى حكاية عنه : (و أخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردا بصدقني إني أخاف أن يكذبون) ³ .

و كتصديق لهذه الآيات ، فإن كثيرا من الدعاة ابتعد الناس عن سماع دعوتهم و مواعظهم بسبب انعدام الذوق الأدبي لديهم و لحنهم و تشدقهم في الكلام إلى الحد الممجوح على رغم أن " الأدب بشعره و نثره و أمثاله و حكمه و وصاياه و خطبه مهم للداعية يتقف به لسانه و يجود أسلوبه و يرهف حسه و يقفه على أبواب من العبارات الراقية و الأساليب الفائقة و الصور المعبرة و الأمثال السائرة و الحكم البالغة ، يفتح له نافذة على الروائع و الشوامخ ، و يضع يده على مفات بل ألوف من الشواهد البليغة التي يستخدمها الداعية في محلها فتقع من القلوب أحسن موقع و أبلغه " ⁴ .

إذن فصاحة اللغة و سلامتها من لوازم الداعية لما لها من تأثير في النفس البشرية كما أن العناية بالأدب و التضلع فيه و ترديد فرائده و الاستفادة منها عند الحاجة أمر لازم للداعية

¹ - لغة الكيد : ص 23 .

² - طه : 27 ، 28 .

³ - القصص : 31 .

⁴ -

و مما لا شك فيه أن ابن الجوزي يستحق هذه الصفة - أي صفة الداعية الناجح - لإحرازه على هذا المؤهل عن جدارة و استحقاق ، و ذلك بامتلاكه زمام اللغة و ناصية البيان²، بشهادة من حضروا مجالسه الدعوية كابن جبير الذي وصفه بقوله : " إمام الجماعة و فارس حلبة هذه الصناعة و المشهود له بالسبق الكريم في البلاغة و البراعة مالك أزمة الكلام في النظم و النثر " ³ و لكننا لا نجد ابن الجوزي يسير على نمط واحد من البيان ففي بعض كتبه نجده قد بلغ القمة في رقة العبارة و جزالة الأسلوب مبتعدا عن التكلف و الصناعة اللفظية⁴، أما في كتب أخرى فإنه كان ينحى منحى الإشارة بالإغراق في البيان و البديع إلى حد التكلف ، و مثال ذلك قوله : " إخواني ، اخرجوا إلى صحراء المبارزة مع الشجعان ، فإلى كم في الخيم مع الخوائف ؟ لما حمى الوطيس في الحرب ميز المحبون بين قطع الأوصال و قطع الوصال ، فنادى منادي الشرع : (ما عندكم ينقد) ⁵ فضربوا على صفقة التسليم ، تلمحوا رضا الحبيب في حمل البلاء ، فحلا لهم المر لما عاينوا المبتلى بقلوبهم " ⁶.

و مما قاله في باب الغفلة عن الله : " يا هذا ، إذا أقفر القلب من ساكن " و يسعني⁷ فتحت النفوس بابه لعناكب الغفلة ، فنسجت في زواياه من لعاب الآمال طاقات المنى ⁸ . وهكذا نجد ابن الجوزي يجنح إلى السليقة حيناً و إلى التكلف و الإشارة حيناً آخر و لعل سبب ذلك يرجع إلى طبيعة العصر الذي عاش فيه ، حيث انتشرت ظاهرة الصناعة اللفظية

¹ - ثقافة الداعية : يوسف القرضاوي ص 117 .

² - انظر ذلك في الساذج الوعظية في فصل آثار ابن الجوزي في الباب الأول و كذلك في فصل أساليب الدعوة و وسائلها في

منهج ابن الجوزي من الباب الثاني .

³ - رحلة ابن حجر : ص 190 .

⁴ - من هذه الكتب على سبيل المثال : حيد الخاطر ، انصهرة ، تلبس إبليس ، التذكرة في الوعظ ، لغة الكبد ، القصص

و المذكرين .

⁵ - النحل : 96 .

⁶ - صبا محمد : ص 56 .

⁷ - إشارة إلى الحديث القاسي : و يسعى قلب عدى المؤمن ، ذكره الغزالي في الإحياء و قال العراقي في تخرجه : لم أر له أصلا

الإحياء : مج 3 ، 8 / 26 .

⁸ - الواعظ و المجالس : ص 152 .

⁹ - منهج ابن الجوزي في الدعوة إلى الله : عبد الرحيم بن محمد الربيع المغنوي ، رسالة دكتوراه مخطوطة ، نولشت سنة 1410 هـ

و صارت السمة البارزة في ذلك العصر .

ولما كان التحلي بالذكاء و سرعة البديهة من أهم ما يختص به الدعاة¹ ، فقد كان ابن الجوزي على جانب كبير من الذكاء و الفطنة مع اتقاد الذهن و استنارته² ، و المتتبع لسيرته يدرك ما كان يتميز به الرجل من حضور الذهن ، يتجلى ذلك خاصة في الأجوبة النادرة³ ، و سرعة البديهة مع كثرة الحفظ و الرواية ، و من الأمثلة على ذلك⁴ : أنه سئل مرة من أين دخلت هذه الغفلة ؟ فقال : من باب المخالفة ، فإذا رأيت اليقظة تمكنها أعرضت من تزوج حرة لها أنفة ، فأقبلت إلى الدار فرأت مملوكة رجعت من الباب .⁵

و قرىء بين يديه (إن المتقين في جنات و نهر)⁶ فقال : " مسكن طيب ففي أي المحال هو ؟ قيل : (في مقعد صدق)⁷ ، فقال من الجار ؟ ، قيل : (عند ملك مقتدر)⁸ قال الآن تمت الأمانى " .

و خير ما قاله في مخاطبة جماهير المدعوين : " الأولياء يستعملون العزائم لأنهم حضور ، و أنتم مع الرخص لأنكم مسافرون عن الحضر " .¹⁰

ولابن الجوزي من جنس هذا الكلام شيء كثير بثه في العديد من كتبه الوعظية و الدعوية .

6 - مخاطبة الناس على قدر عقولهم :

من مؤهلات الداعية في دعوته أن يخاطب الناس على قدر عقولهم ، وذلك أنه ليس للدعوة أسلوب معين يجب اتباعه عند التبليغ بل لكل بيئة ما يناسبها ، و لكل عقلية خطاب ، و لكل مقام مقال ، و من أجل ذلك قال الإمام على - كرم الله وجهه - : " حدثوا الناس بما يعرفون ؛ أتحبون أن يكذب الله و رسوله ؟ " .¹¹ و الداعية في هذه الحال لابد عليه أن يتناول

1 - الدعوة الفردية ، فقها و نطقا : يسري محمد هاني ، ص 79 .

2 - الدليل على طغيات الخنابلة : ابن رجب ، 1 / 412 .

3 - زاد المسير : المقدمة ، 1 / 24 .

4 - انظر ما ذكرناه من نماذج من أقواله في فصل آثار ابن الجوزي .

5 - رؤوس القوارير : ص 111 .

6 - القمر : 94 .

7 - القمر : 95 .

8 - القمر : 99 .

9 - رؤوس القوارير : ص 111 ، 112 .

10 - المصدر السابق : ص 112 .

11 - فتح الباري 2 / 225 ، كتاب العلم ، باب من حصر بالعلم فرما دون فرم كراهية أن لا يعلموا ، ولم 49 .

مواضيعه الدعوية بالطريقة التي تناسب عصره في الشكل و المضمون .
و من الحكمة في الدعوة أن لا يقول الداعية كل ما يعرف لكل من يعرف ، لأنه لا بد أن
يوافق خطابه العقول التي يخاطبها و لا يحملها فوق ما تطيق ¹ .

ولعل هذا القول يمثله أحسن تمثيل ما قاله الإمام البخاري في قوله تعالى : (ولكن كونوا
ربانيين) ² ، عندما قال : " و يقال الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره " ³ ولا
شك أن في قول البخاري هذا من فقه الدعوة ما فيه ، و ذلك لأن البدء بصغار العلم سببه
هو مراعاة عقول المدعوين حتى لا تنفر من الدعوة ، و قد زاد هذا المعنى إيضاحاً ما قاله
ابن حجر العسقلاني - رحمه الله - معقبا عليه بقوله : " والمراد بصغار العلم ما وضح من
مسائله ، و بكباره ما دق منها " ⁴ .

و هكذا فالناس مختلفون في أحوالهم و تفاوت فهمهم ، من فرد لآخر و من جماعة
لأخرى و من مكان لآخر و من زمان لآخر ، و هو ما نبه إليه الرسول - عليه الصلاة
و السلام - و التزمه في دعوته و تربيته للمسلمين ، ثم التزمه الصحابة من بعده ، و دعاة
الإسلام على مر العصور ⁵ .

و من الخطأ الجسيم محاولة الداعية إفهام غيره بغير اللغة التي يفهما ، بل المطلوب
منه هو اجتناب ما يصعب فهمه من طرف المدعوين ، و ذلك باستعمال الألفاظ المشروعة
المستعملة في القرآن و السنة ، و التي استعملها علماء الإسلام لكونها محددة المعنى واضحة
المفهوم ، تبتعد عن أي معنى باطل قد يرسخ في ذهن المدعو فيتأثر به ⁶ .

و الإمام ابن الجوزي و هو الداعية الحصيف كان يرى أنه لا بد على الداعية أن
يخاطب كل فئة بما تفهمه و تعيه حتى يبلغ غرضه و يصل بالدعوة إلى هدفها المنشود
فيقول : " لا ينبغي أن يكلم كل قوم إلا بما يفهمون " ⁷ ، و قال منددا بالوعاظ الذين لا يهتمون

¹ - قواعد الدعوة إلى الله : همام عبد الرحيم سعيد ، ص 10 .

² - آل عمران : 79 .

³ - فتح الباري : 1 / 160 ، كتاب العلم رقم 10 .

⁴ - المصدر السابق : 1 / 162 .

⁵ - القدوة الإسلامية : فطيم برغوث ، ص 79 .

⁶ - أصول الدعوة : عبد الكريم زيدان ، ص 471 .

⁷ - أخبار الحنفين و الحنابلة : ابن الجوزي ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط 5 ، 1403 .

بعقول المخاطبين و قدرتهم على الاستيعاب : " فانه الله أن تحدث مخلوقا من العوام بما لا يحتمله دون احتيال و تلتطف " ¹ .

و يؤكد رأيه هذا مستدلا بقول أحد شيوخ ابن عقيل ² عندما قال : " إياكم و النحو بين العامة فإنه كاللحن بين الخاصة " ³ ، و من خلال هذا القول يرى ابن الجوزي أن التحدث بالنحو أمام الذين لا يفهمونه جهل ، بل هو مضیعة للوقت و ضرب من ضروب التغفيل و من الصواب أن يتحدث الفرد مع الناس بما يعقلونه و يذكر لنا ابن الجوزي في هذا المقام ما يؤيد به وجهة نظره بما يرويه عن الزجاج ⁴ عندما جاءه أحد النحاة فقال له : " بكم هاتان القنيتان اللتان فيهما نكتتان خضراوتان ؟ فقال الزجاج ⁵ : (مدهامتان ، فبأي آاء ربكما تكذبان) ⁶ .

و الملاحظ هنا كيف أن هذا النحوي خاطب الزجاج و هو من أئمة النحو ، بلغة عربية فصحة ظنها الزجاج من القرآن الكريم، فرد عليه من القرآن الكريم دون أن يفهم ما أراد منه ذلك النحوي .

و لقد كان ابن الجوزي يحدث سامعيه بما يفهمون و ينكر على وعاظ زمانه و قصاصه ؛ الذين لم يكونوا يراعون مقتضى حال السامعين ، فيرسلون الكلام على عواهنه دون اكترات بما يترتب عليه من نتائج غير محمودة في أوساط المدعويين ، فيقول لهم بنبرة ملؤها السخط و التبرم : " و ما رأيت أحقق من جمهور قصاص زماننا ، فإنه يحضر عندهم العوام الغشم فلا ينهونهم عن خمر و زنا و غيبة ، و لا يعلمونهم أركان الصلاة و وظائف التعبد ، بل يملنون الزمان بذكر الاستواء و تأويل الصفات " ⁷ .

ومن خلال هذا ندرك أن ابن الجوزي كان مؤمنا أشد الإيمان بأهمية الدعوة و التبليغ لهذا الدين في حياة الناس يلبس لكل حالة لبوسها، و يحسن عرض بضاعته على الناس حتى

¹ - صيد الخاطر : ص 420 .

² - تقدمت ترجمته .

³ - أخبار الحمقى و المغفلين : ص 129 .

⁴ - الزجاج : إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج ، عالم بالنحو و اللغة ، من أهل الفضل و العلم مع حسن الاعتقاد

ولد و مات ببغداد له العديد من المؤلفات انظر ترجمته المنظم : 13 / 223 - الأعلام : خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين

بيروت لبنان ، ط 14 ، فبراير 1999 م ، 1 / 40 .

⁵ - أخبار الحمقى و المغفلين : ص 126 .

⁶ - الرحمن : 61 ، 63 .

⁷ - صيد الخاطر : ص 349 .

تقال إعجابهم¹ ، وهذا من أقوى الأسباب التي جعلت أسلوبه يسمو أحيانا فيكون فيه المعجب و المطرب و أحيانا يكون سهلا كأنه يحدث أحد جالسيه و هذا في حقيقة الأمر ليس له من سبب إلا مراعاة عقول السامعين ، الذين ندب حياته من أجل تربيتهم و إصلاحهم .

7 - إدراكه لنفسية الجماهير :

إن يكون الداعية ناجحا إذا كان لا يعرف كيف يدخل إلى قلوب الجماهير ليؤثر فيها التأثير الإيجابي المطلوب ، فالناس منذ سالف العصور و إلى اليوم في حاجة إلى دعاء يحسنون عرض الإسلام بأسلوب شيق جذاب يجذبون به إلى الناس و لا ينفرون منه² و يسوقون الحق الإلهي و الهدي النبوي بما يقود العوج الإنساني بذكاء و فقه ، و يرسلون من العظات ما يكون نواء ناجعا لما يحسه الناس في أنفسهم من حيرة و اضطراب . و لقد كان ابن الجوزي مستجما لكل ما ذكرناه انفا ، و ذلك لما له من خبرة و دربة واسعة في مجال التبصر بنفوس الجماهير ، لكونه قضى جل عمره في الدعوة و الوعظ بين الخاصة و العامة .

و إذا كان الداعية كالطبيب يرقب عوارض المرض و تطوره و مراحلها ، ثم يشخص أسبابه و بواعثه عن دراية و معرفة ، فإن ابن الجوزي كان ينظر إلى النصوص نظرة الطبيب إلى الأدوية يستعملها و نصب عينيه التماس الشفاء بها للمرضى و المعلولين³ الذين اشتغل بعلاجهم طول عمره شخصا ما تراءى له من علل نفسية و اجتماعية ، فهو من النفر الذين عرفتهم ساحة الدعوة الإسلامية بما يمتلكونه من القدرة على التحليق مع الفلاسفة و الإرباء عليهم و يملكون في نفس الوقت النزول إلى مستوى العامة ، و مخالطتهم في مختلف شؤونهم دون أن يفقدوا شيئا من سموهم و سنائمهم ، فهو على حد تعبير الشيخ الغزالي - رحمه الله - : " كالطير الذي استوطن الجو ، يهوي بين الحين و الحين إلى الثرى ، و لا يفقد قدرته على صفّ جناحيه و التسامى من حيث جاء"⁴ .

و لن نكون مبالغين إذا قلنا أن ابن الجوزي قد رزق في دعوته و وعظه ما لم يرزق غيره من شدة التأثير على الناس ، و معرفته الجيدة بنفوس الجماهير و ما يسيطر عليهم من أفكار و رغبات مع خبرته الواعية في ميدان الدعوة و قواعد الاجتماع، كل هذا ساعد على نجاح

¹ - ابن الجوزي الراعظ و منهجه في الدعوة إلى الله ، و الموازنة بينه وبين منهج الإمام الغزالي : جمعة علي محمد الخولي ، ص 216 .

² - مشكلات الدعوة والداعية: فحى يكن: دار الشهاب، باتنة، الجزائر، د ت، ص 118

³ - مواعظ ابن الجوزي، دراسة فنية تحليلية: عرفة حميد عباس، ص 85

⁴ - صيد الخاطر لأبن الجوزي، تحقيق محمد الغزالي، نشر مكتبة رحاب، الجزائر، د ت، ص 4 من مقدمة الشيخ الغزالي.

دعوته و ذبوع شهرته و الدليل على ذلك كتبه الوعظية و الدعوية و ما فيها من كلام ينم على معرفته بخبايا النفس الإنسانية فكانت له خواطر نفسية غاص فيها إلى أعماق النفس الإنسانية محاولاً استكشاف أسرارها و التعرف على بواطنها و دوافعها و يضرب لنا مثلاً على ذلك بالرجل الذي يسمع الموعظة فيرق لها قلبه و يخشع فؤاده و تستجيب لها جوارحه ، ثم إذا انفصل عن المجلس عادت القسوة و الغفلة ، ثم يواصل في سرد أسباب ذلك وفي نهاية الأمر يقرر بأن هناك "أقوام لا يؤثر فيهم الأيمقار سماعه ، كمااء نخرجته على صفوان" ¹ .
نجده يلفت انتباهنا إلى شيء عجيب في حياة الإنسان حيث أنه إذا عرضت له جواذب الدنيا بملاذاتها المحرمة إنقاد إليها بسهولة تامة دون أن يجد أدنى مشقة أو تعب في ذلك ، أما إذا عرضت له جواذب الآخرة بتكاليفها و حدودها فلا يستطيع الإنقياد إليها إلا بالمشقة البالغة و العنت الشديد ² و هذا ما يثبت في نظره ميل النفس الإنسانية إلى اتباع الهوى و استحسانه .
وعلى هذا الأساس فقد كانت لابن الجوزي أبحاث نفسية و مباحث تحليلية أبرز من خلالها مدى اهتمامه بدوافع النفس و أسباب قسوتها حيناً و عففتها حيناً آخر وطرق انجذابها و التأثير فيها و أسباب نفورها و إغراضها و متى تعسر قيادتها و متى تلين ³ ، كما أكد ذلك جمع من الباحثين المختصين في مجال علم النفس و علم الاجتماع ⁴ بعد تحليلهم لجملة من كتبه . كل هذا يبين لنا سبل ابن الجوزي التي سلكها من أجل الدخول إلى قلوب الجماهير و قيادتهم إلى الله - سبحانه و تعالى - باستعماله الأساليب الدعوية المختلفة .

٨ - التبحر في العلوم :

لقد رزق الله - سبحانه - ابن الجوزي ذهنًا وقادراً و ذاكرة قوية مما ساعده على تحصيل العلم و حفظه ، فبعد حفظه للقران الكريم حفظ كثيراً من كتب السنة و المسانيد كالصحيحين و مسند الإمام أحمد و غيره .

و قد كانت قوة ذاكرته و حفظه الجيد خير معين له في خطبه و مواظبه ، فكل من يرتجل الحديث الطويل دون رجوع إلى كتاب أو إعداد مسبق ⁵ ، لأنه كان صاحب عقل

¹ - صياح الخاطر : ص 12 .

² - المصدر السابق : نفس الصفحة .

³ - ابن الجوزي الواعظ : ص 1417 ، ص 1413 .

⁴ - انظر علم النفس في التراث الإسلامي : إشراف و تقديم : محمد عثمان محاف ، عبد الحليم محمود السيد ، المعهد العالمي للفكر

الإسلامي ، القاهرة ، ط 1 ، 1417 هـ ، 1996 م : 2 / 281 ، 286 ، 293 ، 307 ، 311 ، 319 ، 323 ، 328 ، 3 ، 337 .

⁵ انظر في ذلك وصف ابن حجر لمخاضة الدعوة ، و تراجم من وعظه في فصل أساليب الدعوة و وسائلها عند ابن الجوزي .

موسوعي متبحرا في شتى أنواع العلوم ، مواكبا لمختلف فروع الثقافة و العلم في عصره
بدءا بعلم التاريخ و علوم القرآن و الحديث و الوعظ و الفقه و اللغة و الشعر و انتهاء بعلم
الطب و الأعضاء الداخلية و النبات و الطير¹ ، فقد كان نهما لا يشبع من مطالعة أبدا
فجل وقته كان في ملاحظة سير العلماء من السلف و قدر همهم و عبادتهم ، فأحسن شيء
يؤنس العالم هو علمه و كتبه² .

إن فباالإضافة إلى نبوغ ابن الجوزي في علم الوعظ و رسوخ قدمه في ميدان الدعوة
و الإصلاح و التربية - الذي هو موضوع بحثنا - فقد برز في علوم أخرى حتى صار
فارس الميدان و حافظ زمانه . ومن هذه العلوم التي تبحر فيها علمنا نذكر ما يلي : علوم
القران و الحديث ، علم الفقه و التاريخ ثم الشعر و الأدب .

و قد بدأ اهتمام ابن الجوزي - رحمه الله - بكتاب الله منذ الصغر حيث بانر إلى
حفظه في سن مبكرة³ على جماعة من القراء بالروايات⁴ . و كان يختم قراءته للقران
في كل سبعة أيام⁵ ، و بعد هذا أكب شيخنا على دراسة القران تمحيصا و شرحا ثم توغل
في علومه ، فدرس القراءات و ألف في أسباب النزول و النسخ و المنسوخ و غريب القران
و ألف في التفسير كتاب المغنى - و هو مفقود - و زاد المسير ، هذا بالإضافة إلى تفسيره
للقران الكريم كاملا في مجالس الوعظ على المنبر⁶ ، و قد امتدح العلماء طريقته في التفسير
فقال ابن رجب عنه : " و كان في التفسير من الأعيان " ، و رغم ذلك فلم يخل تفسير
ابن الجوزي من الاستشهاد ببعض الأحاديث التي لا تصح ، كما أورد طائفة من
الإسرائيليات دون أن ينبه عليها⁷ و مع ذلك فالكتاب لا يخلو من فائدة جمة و هو مهم في
بابه .

1 - رؤوس الفوارس : من ص 80 إلى 82 .

2 - صيد الخاطر : ص 263 .

3 - الذيل على طبقات الختابة : ابن رجب ، 1 / 110 .

4 - تذكرة الحفاظ : الذهبي ، 4 / 1311 .

5 - المتقلم : 18 / 213 .

6 - الذيل على طبقات الختابة : 1 / 412 .

7 - انظر موقف ابن الجوزي من الإسرائيليات في : مقدمه زاد المسير 1 / 30 ، 9 - ابن الجوزي و منهجه في التفسير : عبد العزيز

ثابت ، ص 183 ، 181 - موازنة من تفسير الخضر الوجيه لابن عطية و زاد المسير لابن الجوزي : منصور كافي ، رسالة

دكتوراه مخطوطة ، توثقت بجامعة الأزهر عن القائم للعلوم الإسلامية بقسنطينة ، الجزائر ، سنة 1420 هـ ، 1999 م ، ص 269 إلى

275 و ما بعدها .

كما اهتم ابن الجوزي بالحديث فكان محدثا طويل الباع ، متعمقا في هذا العلم حتى شهد له علماء عصره و من بعدهم بذلك ، و قد صنف في الحديث كتبا كثيرة¹ و لكن العلماء أخذوا عليه في ذلك جملة من المآخذ² و مع ذلك لا يمكننا أن نفى عن ابن الجوزي جهوده في تنقيح الحديث و نصره السنة .

أضف إلى ذلك فقد كان فقيها مجتهدا ألف العشرات من كتب الفقه و له العديد من الفتاوى التي استقل بها عن إمام مذهبه³ ، كما نجده يعقد الفصول الطويلة للحديث عن أخلاق الفقهاء و ما ينبغي أن يتحلوا به من صفات كالعفة و النزاهة و يحذرهم من مخالطة السلاطين حتى لا تحرس ألسنتهم عن الدعوة إلى الخير و النهي عن المنكر⁴ ، أما منهجه الفقهي فهو الوصول إلى الحق دون الخوض في الجدل و المراء و الباطل ، لأن طريق الجدل تنطمس فيه الحقائق البينة ، و يضيق فيه الصدر عندما يظهر الحق مع الخصوم⁵ .

أما في علم التاريخ ، فقد قطع فيه ابن الجوزي شوطا بعيدا ، و كتبه في التراجم و السير و المناقب لا تكاد تعد⁶ و أولها كتابه المنتظم ، وهو أهم مرجع لدى المؤرخين كما اعتنى بسير الرجال و مواقف العديد من الأبطال و خاصة العلماء و الدعاة و الزهاد و الصلحاء عبر التاريخ ، فقد كان له و لعل شديد بالكتابة عن هؤلاء ، قال فيه ابن كثير :

" و لم يزل يؤرخ أخبار العالم حتى صار تاريخا"⁷ .

أما من حيث الشعر و الأدب فرغم أن ابن الجوزي عاش في القرن السادس الهجري إلا أنه لم يتأثر في أسلوبه الأدبي بما أصاب الأدب في عصره من انحدار و ضعف ، بل ظل محتفظا بإشراق العبارة و بهاء الأسلوب ، فتأنق في كلماته و تفنن في توشيح عباراته في أصالة و تمكن ، فكان بذلك أديبا رائق العبارة ، مقتدرا على الإتيان بالتعبيرات النادرة و التصوير الدقيق ، أضف إلى ذلك فصاحته و بلاغته و قد ظهرت جلية في مجالسه الدعوية فلم يلحق شأوه " في فصاحته و بلاغته و عذوبته و حلوة ترصيعه"⁸ ، و الدليل على ذلك

¹ - انظر مصنفاته في الحديث في فصل آثار ابن الجوزي .

² - انظر فصل : ما أخذ على ابن الجوزي في ميدان العلم و الدعوة في الفصل الأخير من الرسالة .

³ - انظر نماذج من فتاواه في فصل آثار ابن الجوزي .

⁴ - تلبس لبس : ص 118 .

⁵ - المصدر السابق : 117 .

⁶ - انظر قائمة كتبه في التاريخ في فصل آثار ابن الجوزي في كتاب الأول من الرسالة .

⁷ - البداية و النهاية : ابن كثير ، 28 / 13 .

⁸ - المصدر السابق : 28 / 13 .

ما يوجد في كتبه من أدب رصين منبعث عن ذوق رفيع¹ .
و للشعر كذلك مكانة خاصة عند ابن الجوزي حيث كانت له مشاركة فيه فقد كان
محباً له² ، و لا يكاد يخلو كتاب له من عشرات الأبيات من الشعر ، حتى قيل أن أشعاره
بلغت عشر مجلدات³ ، و هي أشعار حسنة على حد تعبير ابن رجب⁴ .
و بالإضافة إلى نبوغه في هذه العلوم التي ذكرنا ، فقد كانت له مشاركة في أنواع
أخرى من فنون العلم كفن الطب ، و قد ظهر أثر ذلك من خلال الكتب التي ألفها كصيد
الخاطر و الطب الروحاني و كتاب نقط المنافع في الطب و قد اطلع الباحث على نسخة من
مختصره فوجده حسن التأليف في بابه⁵ ، و إن كنا لا نجزم بصحة ما ذكره ابن الجوزي
في هذا المجال إلا أننا نرى أن ما قاله يدل على عقليته الفذة و مطالعته الواسعة .
إن كان ابن الجوزي حسب المصنفات التي تركها جامعاً لعلوم شتى و هذا كله
راجع لعظمة همته أولاً ولثقافته الموسوعية ثانياً ، و لعل أبرز تلك الجوانب في ثقافته
الموسوعية هذه هو ملكته في فن الوعظ و النفنن في فنون القول و الترسل و هذه الملكة هي
التي كانت تدفعه إلى تسجيل كل ما يمر بخاطره من تأملات أو يمر بحياته من أحداث⁶ .
و خلاصة القول فإن هذه المؤهلات مجتمعة هي التي أهلت ابن الجوزي ليكون داعية
عصره ، الذي استطاع حمل لواء الدعوة و الإصلاح و التغيير طيلة حياته التي كانت حافلة
بالأحداث و عصره المليء بالمفاجات و التقلبات .

¹ - انظر ذلك في العديد من صفحات سمد الخاطر ، و كذلك رؤوس القوارير ص : 55 ، 56 ، 59 ، 60 .
² ابن الجوزي و مقاماته الأدبية : علي جميل علي مهنا ، ص 43 .
³ - الذيل على الروضتين : الأبي شامة ، ص 24 .
⁴ - الذيل على طبقات الخبالة : ابن رجب الحنبلي ، 1 / 423 انظر الأمتة من أشعاره في فصل آثار ابن الجوزي من الباب
الأول من الرسالة .
⁵ - انظر ملخص الكتاب في فصل آثار ابن الجوزي في الباب الأول من الرسالة .
⁶ - مراعاة ابن الجوزي ، دراسة فنية تحليلية : عرفة حلمي عباس ، ص 175 .

الفصل الثاني

أساليب الدعوة ووسائلها عند

ابن الجوزي

و يتضمن مبحثين

المبحث الأول : أساليب الدعوة عند ابن الجوزي

المبحث الثاني : وسائل الدعوة عند ابن الجوزي

المبحث الأول

أساليب الدعوة

تعريف الأسلوب :

الأسلوب في اللغة هو الطريق و الوجه و المذهب و الفن ، يقال أخذ فلان في أسلوب من القول أي أفانين منه ، و إن أفه لفي أسلوب إذا كان متكبيرا ، و الأسلوبية : لعبة للأعراب أو فعلة يفعلونها بينهم ¹ .

و الأساليب جمعها أسلوب و هو الطريق و أسلوب الكاتب و الأدب في الكتابة أي طريقته ² أما في الاصطلاح فيعرف الأسلوب في الدعوة بأنه : الطريقة التي يسلكها الداعي لتبليغ دعوته و أساليب الدعوة هي طرقها ³ .

و إذا كانت قافلة الدعوة مستمرة إلى يوم الدين ، فإن أساليبها متغيرة و متجددة ، لأن الدعاة قد لا يتفقون في أساليب الدعوة و طرق تبليغها ، و ذلك لأن الظروف و الملابسات هي التي تملئ عليهم هذه الأساليب التي يجب عليهم اتباعها ، و الوسائل التي يبلغونها بها ⁴ ، لذلك فإنه يصعب حصر أساليب الدعوة نظر لتنوعها و كثرتها .

و قد صنفت أساليب الدعوة حسب تأثيرها ؛ فالتى تحرك الشعور و الوجدان كانت من أساليب المنهج العاطفي ، و التي تدعو للتأمل و التفكير و الاعتبار تمثل المنهج العقلي و التي تعتمد على تجارب الإنسان و قدراته يمثلها المنهج الحسي التطبيقي ⁵ .

و على هذا الأساس اعتبر الأسلوب الحسن من العوامل الأساسية التي توفر على الداعية الوقت و الجهد ، و توصله إلى هدفه من أقرب طريق و بأيسر التكاليف .

لذلك وجدنا الداعية الواحد قد يستعمل أساليب دعوية مختلفة لتبليغ دعوته ، و هذا تأسيا بمنهج القرآن الكريم و ما استخدمه من أساليب متعددة مع مدعويين مختلفين ، و ذلك لكون أساليب الدعوة تختلف باختلاف المدعويين ؛ فالدعوة باللين تكون مع ذوي الحكم و الرياسة

¹ - لسان العرب : 1 / 471 ، 471 .

² - المعجم الرسيط : 1 / 413 .

³ - الداعل لا ، علم الدعوة : محمد أم الذويج الشاذلي : ص 17 .

⁴ - استمرار الدعوة : محمد السيد الركيل ، ص 485 .

⁵ - الداعل إلى علم الدعوة : ص 242 .

كما أمر الله - عز و جل - بذلك موسى و هارون - عليهما السلام - عند دعوتيهما لفرعون : (اذهبوا الي فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى)¹ و تكون بالحجة و البراهين الثابتة و القطعية مع العلماء و أهل الفطنة و النباهة، و إن كانوا عواما فأنسب أسلوب لدعوتهم هو الموعظة، أما أهل الكتاب فدعوتهم تكون بتبيين محاسن الإسلام و المقاصد العامة لدعوته . و هو الطريق نفسه الذي سار عليه ابن الجوزي - رحمه الله - في تبليغ دعوته ، حيث انضح لنا من خلال تتبعنا لمؤلفاته الوعظية و الدعوية أنه استخدم أساليب مختلفة نظرا لاختلاف المدعويين .

و إذا كان حسن استخدام الداعية للأساليب و الوسائل الدعوية يعتبر من أهم مقومات نجاحه في تبليغ الدعوة ؛ فما ذلك إلا لكونها تؤثر تأثيرا مباشرا على مردوده الدعوي في كسب أنصار و مدعويين جدد يؤازرون بهم دعوته، و بالتالي و جب عليه أن يهتم بهذه الأساليب الاهتمام البالغ .

من أجل ذلك فقد أحسن ابن الجوزي استخدام الأساليب و الوسائل الدعوية المناسبة التي كانت مزاجية الدعاة و الوعاظ في عصره و سنتعرض بالتفصيل لأهم هذه الأساليب و الوسائل التي اعتمدها من خلال المباحث التالية .

¹ طه: 43،44

² أنظر تفصيل ذلك فصل أصناف المدعويين عند ابن الجوزي من هذا الباب.

أسلوب الحكمة

وردت لفظة الحكمة بمعانٍ متعددة في القرآن الكريم ، حيث أمر الله - سبحانه و تعالى - بها نبيه محمد - عليه الصلاة و السلام - ، و من ورائه أمته ، كما وصف سبحانه الأنبياء بأنه أتاهم الحكمة و الحكم بالإضافة إلى الكتاب .

و الحكمة في اللغة : مصدر من الفعل حكّم . و أحكمت الشيء فاستحكمت أي صار محكماً و الرجل الحكيم العالم المتقن للأمور ، الذي أحكمته التجارب .¹

أما في الاصطلاح فقد عرفها العلماء بتعاريف مختلفة استنبطت جميعها من التعريف اللغوي فقيل أنها : " العلم و العمل به ، و لا يكون الرجل حكيماً حتى يجمعهما ، و هي أيضاً إصابة مواقع الفعل " ، و عرفت بأنها " مصدر من الإحكام و هو الإتيان في قول أو فعل ، فكتاب الله حكمة و سنة نبيه حكمة ، و كل ما ذكر من التفصيل فهو حكمة ، و أصل الحكمة ما يمتنع به من السفه ؛ فقيل للعلم : حكمة لأنه يمتنع به " ² و مما ذكره ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره لكلمة (الحكيم) قوله : " الحكيم في أفعاله و أقواله ، فيضع الأشياء في محالها لعلمه و حكمته و عدله " ³ .

إن فمن خلال هذه التعاريف بدا لنا أن المعنى الشرعي للحكمة لا يكاد يخرج في معناه العام عن كونه : الإصابة في القول و العمل معاً ، أو هو وضع الشيء في موضعه أو الإتيان في القول و العمل .

و لقد كانت الحكمة إحدى الأساليب الدعوية التي اعتمد عليها ابن الجوزي في منهجه الدعوي ، و هذا راجع لإدراكه مدى أهميتها في مجال تبليغ الدعوة ، حيث اعتنى بهذا الأسلوب و أولاه عناية بالغة ، يدل على ذلك كتابه الشهير " لفتة الكبد " الذي ألفه من أجل إصلاح ابنه و تأديبه ، و من أهم الأمثلة في استعماله الحكمة كأسلوب في الدعوة قوله :

¹ - لسان اللسان ، مهذب لسان العرب : لابن منظور هذب بإشراف عبد الله علي منها 1 / 280 - الصحاح : للجريري 1901 ، 1902 .

² - البحر المحيط : لأن جاز التوحيدى ، دار الفكر بيروت ط 2 ، 1403 هـ 1983 م : 1 / 393 .

³ - الجامع لأحكام القرآن : لأن عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الكتاب العربي ، بيروت دت مع 2 ، 3 / 330 .

⁴ - تفسير ابن كثير : لابن كثير ، 325/1

" و اعلم يا بني وفقك الله أن الأيام تبسط ساعات ، و الساعات تبسط أنفاسا ، و كل نفس خزائنة ، فاحذر أن يذهب نفس بغير شيء " ¹ .

و مبالغة من ابن الجوزي في استخدام أسلوب الحكمة مع ابنه يعمد إلى تقديم نماذج للسلوك الطيب ، القصد منها ترغيب هذا الابن في جملة من الخصال الحسنة ، فنصحته باغتنام الأوقات و عرض عليه نماذج حياة بلغت الذروة في ميدان احترام الوقت فقال له : " و قد كان جماعة من السلف ، يبادرون اللحظات ، فنقل عن عامر بن عبد قيس ² أن رجلا قال له : كلمني ، فقال له أمسك الشمس . و دخلوا على بعض السلف عند موته ، و هو يصلي فقيل له : قد جنتاك نعوذك أو ما تجالسنا فقال : الآن تطوى صحيفتي " ³ .

و من أمثلة استعماله لأسلوب الحكمة و تطبيقه في الواقع ما قاله لابنه حاثا له على ضرورة الجمع بين العلم و العمل من جهة ، و حسن استخدام العلم في نصرة الدين و العمل للأخرة من جهة أخرى ، ثم نهيه إياه في حكمة و لطف عن عدم التعبد دون المعرفة النافعة التي تصحح القصد في السلوك و النية في العمل مقدما له الدليل المقنع بالأمثلة الدامغة التي أكد بها سداد رأيه و صحة قوله فقال له : " و إياك أن تقف مع صورة العلم دون العمل به . فإن الداخلين على الأمراء و المقبلين على أهل الدنيا قد أعرضوا عن العمل بالعلم فمنعوا البركة و النفع به . و إياك أن تتشاغل بالتعبد من غير علم ، فإن خلقا كثيرا من المتزهدين و المتصوفة ضلوا طريق الهدى إذ عملوا بغير علم " ⁴ ، فعندما ينظر الباحث بعين العقل لهذه الأمثلة يرى كيف حاول ابن الجوزي تبرير ما ذهب إليه من أجل إقناع ابنه بأسلوب فيه من الحكمة الشيء الكثير .

ثم نجده يبيّن للمدعوين في حكمة و هدوء أن الخير كل الخير فيما كان عليه السلف فيقول : " و من نظر في سير السلف و امن بالجزاء بان له ما ذكرته " ⁵ .

ويبدو أن أسلوب الحكمة عند ابن الجوزي بدأ واضحا خاصة في دعوة الشباب فقد كان دائم النصح و التوجيه لهم و لذلك كثرت أقواله فيهم و من جملتها قوله : " من سار مع

¹ - لفظة الكبد : من 23 .

² عامر بن قيس : هو الزاهد القدير أبو عبد الله العمري النصري ، كان ثقة من عباد التابعين ، توفي في زمن معاوية ، و قبره بيت المقدس ، أنظر ترجمته في سر أعلام النبلاء : 15 / 4 .

³ - مسد الخاطر : من 20 - لفظة الكبد : من 21 .

⁴ - لفظة الكبد : من 41 ، 42 .

⁵ - صيد الخاطر : من 480 .

العقل و خالف طريق الهوى و نظر إلى العواقب أمكنه أن يتمتع من الدنيا أضعاف ما تمتع من استعمال الشهوات ، و من تقاعد به الكسل عن العلم أو الهوى عن تحقيق الزهد لم يحصل له إلا على اليسير من مراده " ¹

و مما يدل على أن الحكمة أسلوب دعوي ناجح عند ابن الجوزي تأكيده على وجوب استعمال الواعظ و الداعية لهذا الأسلوب عند مواجهة المدعويين حيث يقول : " و معلوم أن الواعظ طبيب لأمرض الذنوب ، و مصلح لأمزجة القلوب ، فإذا رأى يائسا مناه ، أو أمنا خوفه ، فهو يقاوم الأمراض بأضدادها " ² .

و زيادة على هذا فابن الجوزي يؤكد في العديد من أقواله على أن الداعية و الطبيب هما في منزلة واحدة ، و لما كانت الحكمة من أهم صفات الطبيب سمي بالحكيم و لذلك وصف الداعية بالحكمة لهذا السبب أيضا ، لأنه يربي كل شخص بالأسلوب الذي يطيقه و يراه مناسبا له ، و هذا من أهم مظاهر الحكمة لدى الداعية الناجح يقول ابن الجوزي : " و اعلم أن الطبيب ينظر إلى سن المعالج و مكانه و زمانه ثم يصف فكذلك ينبغي أن تكون رياضة كل شخص على قدر حاله " ³ .

و مما يزيد أسلوب الحكمة جلاء عند ابن الجوزي دعوته الإنسان أن يتأمل في الدنيا ليرى مقدار عيشه فيها و يقارنه بما قدمه للأخرة فيقول له مجليا هذه الفكرة بأسلوب واضح و صريح : " من تأمل بعين الفكر دوام البقاء في الجنة في صفاء بلا كدر ، و لذات بلا انقطاع ، و بلوغ كل مطلوب للنفس ، و الزيادة مما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر من غير تغيير و لا زوال ، إذ لا يقال ألف ألف سنة ، و لا مائة ألف ألف ، بل و لو أن الإنسان عدّ الألف ألف السنين لا ينقضي عدده و لا كان له نهاية فبقاء الأخرة لانفاد له . و ما مقدار عمر غايته مائة سنة منها خمسة عشر صبوة و جهل و ثلاثون بعد السبعين - إن حصلت - ضعف و عجز . و التوسط نصفه نوم ، و بعضه زمان أكل و شرب و كسب ، و المنتحل منه للعبادات يسير . أفلا يشتري ذلك الدائم بهذا القليل ؟ " ⁴ .

و بأسلوب الحكمة و العقل وجدناه يتكلم عن السعادة و الشقاء ، حيث أدرك أن طريق السعادة

¹ - صد الخاطر : من 450 ، 451 .

² - المفلح : من 28 .

³ - الطب الروحاني : من 94 .

⁴ - صيد الخاطر ص 343

هو الرضا والتسليم للخالق " و إنما العبد حقا من يرضى ما يفعله الخالق ، فإن سأل فأجيب رأى ذلك فضلا . وإن منع رأى تصرف مالك ، فلم يجلب في قلبه اعتراض بحال " ¹ .

كما أدرك ابن الجوزي أن سبب ما يعانيه الإنسان من هموم هو نتيجة الإعراض عن الله و الابتعاد عن نهجه القويم فقال : " رأيت سبب الهموم و الغموم الإعراض عن الله - عز و جل - و الإقبال على الدنيا و كلما فات منها شيء وقع الغم لفواته . فأما من رزق معرفة الله تعالى استراح لأنه يستغنى بالرضا بالقضاء فمهما قدر له رضي " ² .

و من تطبيقات أسلوب الحكمة عند ابن الجوزي مخاطبته للمدعوين بالأسلوب الذي يفهمونه ³ ، فعرف بذلك كيف يؤثر عليهم و يجذبهم إليه ، و يلقي إليهم مواعظه حسب ما يناسب حالهم و يشبع نهمهم ، فلاقى النجاح و صلافة القبول في قلوبهم حتى غصت مجالسه بالثائنين و المذنبين و النائحين الباكين على تقريظهم .

و نجده يشرح هذا الأسلوب و يبين مدى حاجة الداعية و الواعظ إليه حتى ينجح في أداء مهمته الدعوية و يستقطب عقول المدعوين و قلوبهم قبل آذانهم ، حيث كان يرى أن هذا الأمر من صميم فقه الدعوة مع المدعوين فيقول : " إن الواعظ مأمور بأن لا يتعدى الصواب ، و لا يتعرض لما يفسدهم ، بل يجذبهم إلى ما يصلح بألطف وجه ، و هذا يحتاج إلى صناعة فإن من العوام من يعجبه حسن اللفظ ، و منهم من تعجبه الإشارة ، و منهم من ينقاد بببيت من الشعر " ⁴ .

ثم يعود فيؤكد أن أحسن ما ينفع العامي " مجلس الوعظ ، يردّه عن ذنب ، و يحركه إلى توبة " ⁵ .

و هكذا فإن الدعاة الحقيقيين في منهج ابن الجوزي هم الذين يدركون بحسّهم الإيماني ما يكون للناس في حاجة إليه من العلم و الموعدة فحينئذ يبذلونها لكي تصادف قلوبا واعية و أذانا صاغية ⁶ ، من أجل ذلك وجدناه قد حمل بقوة على وعاظ عصره الذين لم يكونوا يراعون مستوى الجماهير ، فكانوا يلقون خطبهم و مواعظهم على عواهنها دون مراعاة

¹ - صيد الخاطر : ص 313 .

² - المصدر السابق : ص 324 .

³ - سنو و أشرفنا إلى هذه الفقرة في مرجعنا مؤملات الداعية و حظ ابن الجوزي منها في فصل الدعوة و الناعية عند ابن الجوزي .

⁴ - صيد الخاطر : ص 100 .

⁵ - نفس المصدر و الصفحة

⁶ - تقنين الدعوة : محمد السيد الوكيل ، ص 219

لمقتضى حال المدعويين ولا معرفة لما تتطلبه أرواحهم و عقولهم فيقعون في الفساد من حيث
أردوا الإصلاح .

و ابن الجوزي موفق فيما ذهب إليه من رأي ، و ذلك لأن طب الأرواح كطب
الأبدان فإذا كان الثاني علم و فن فإن الأول فقه و دعوة و هو يحتاج إلى خبرة و ابرة
و نربة حاضرة . و على هذا الأساس رأى ابن الجوزي أنه ليس من أسلوب الحكمة في
الدعوة تعليم الوعاظ لجمهور العوام شيئا من علم الكلام لما فيه من ضرر على عقولهم
و عقائدهم¹ و كذلك التقعر في الكلام فهو ليس مستحسنا مع العوام بل هو ضرب من
التغفيل حتى و أو كان صوابا لأنه لا ينبغي أن يكلم كل قوم إلا بما يفهمون و يستشيد على
ذلك بقول الإمام علي - رضي الله عنه - : " حدثوا الناس بما يعقلون . أتحتبون أن يكذب
اسم و رسوله ."

كما وجدناه قد عاب علي وعاظ عصره و قصاصه ابتعادهم عن أسلوب الحكمة في
الدعوة حيث ادخلوا في الدين ما يفر الناس منه ، و اتبعوا أساليب أوقعت العوام في
تصورات بعيدة عن روح الدين و صفاته و قد صور لنا هذا المشهد بقوله : " و أكثر أدلة
هذه الطريق القصاص ، فإن العامي إذا دخل إلى مجلسهم و هو لا يحسن الوضوء كأموه
بدقائق الجنيد ، و إشارات الشبلي ، فرأى ذلك العامي أن الطريق الواضح لزوم زاوية
و ترك الكسب للعائلة و مناجاة الحق في خلوة على زعمه مع كونه لا يعرف أركان الصلاة
و لا أدبه العلم ، و لا قوم أخلاقه شيء من مخالطة العلماء . فلا يستفيد من خلوته إلا كما
يستفيد الحمار من الإسطبل " ³ .

و مما لا شك فيه هو أن معرفة أساليب الدعوة و حسن اختيارها كان السبب الأول
الذي جعل ابن الجوزي يغوص في خبايا نفوس أفراد مجتمعه حتى يعرف مواطن التأثير
فيهم فيوجههم بحكمته لما فيه خيرهم و صلاحهم .

¹ مسد الخاطر : ص 101 ، 181 ، ما بعدها .

² أعمار الحمقى و العقلاء : ص 179 ، و هو من قول علي رضي الله عنه انظر و هو في فتح الباري بلفظ : " حدثوا الناس بما
يعرفون ، أنهمون أن يكذب الله و رسوله " 225 / 1 ، كتاب العلم باب من خص بالعلم لوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا ولم

ثانيا

أسلوب المناظرة

يعتبر عن المناظرة بالجدل وقد عرفت المجادلة بأنها : " المناظرة و المخاصمة " ¹ و المناظرة و المجادلة من الأساليب الدعوية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، فنكرت مرة مقرونة بالحسنى و مرة مقرونة بالباطل ففي الأولى قال سبحانه : (و جادلهم بالتى هي أحسن) ² ، و فى الثانية قال تعالى : (و جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) ³ . و على هذا الأساس كانت المناظرة و المجادلة بالتى هي أحسن أسلوبا من أساليب الدعوة إلى الله - عز و جل - ، و هي محمودة إذا كان يقصد بها إظهار الحق ⁴ . و لما كانت المناظرة و التناظر و التهاور من الأمور الفطرية المركوزة داخل الإنسان جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى : (و كان الإنسان أكثر شيء جدلا) ⁵ ، و من ثم أمر الله - سبحانه - باستخدام هذا الأسلوب الدعوي فقال : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة ، و جادلهم بالتى هي أحسن) ⁶ .

أضف إلى ذلك أنه من الأساليب الدعوية الشائعة الاستخدام عند الأنبياء - عليهم الصلاة و السلام - فقد قال سبحانه على لسان قوم نوح - عليه السلام - : (قالوا : يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) ⁷ ، و قال سبحانه عن محاوراة إبراهيم - عليه السلام - مع الذى حاجه فى ربه : (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن أتاه الله الملك) ⁸ . و ابن الجوزي و إن لم يستعمل هذا الأسلوب الدعوي بصفة عامة ، إلا أنه استعمله فى نطاق معين ، لأنه كان يدرك أن هذا الأسلوب ليس من الأساليب الدعوية التى تستخدم

¹ لسان العرب : ابن منظور ، 1 / 571 ، طبعته دار المعارف .

² التحل : 125 .

³ غافر : 5 .

⁴ المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفوح السانوي ، ص 264 .

⁵ - الأكهف : 94 .

⁶ - التحل : 129 .

⁷ هود : 32 .

⁸ البقرة : 258 .

في دعوة عوام الناس ، و ذلك لكونه يعتمد على العلم و المعرفة و لا يصح من دونهما
و العوام ليسوا أهل علم ، و لا هم مؤهلون للحوار و المناظرة أصلاً .
و مع ذلك فقد أشار ابن الجوزي إلى أهمية المناظرة و جدواها في ميدان الدعوة من
خلال ثنائه على الإمام أبي الوفاء بن عقيل² بقوله : " و أفتى ابن عقيل و درس و ناظر
الفتوح [إلى أن قال] ... حتى أنني رأيت بخطه : أنني لا يحل لي أن أضيع ساعة من
عمرى حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة و مناظرة و بصري عن مطالعة أعمل فكري
في حال راحتي "³ .

و مما ذكره ابن الجوزي في حق أستاذه أبي بكر الدينوري⁴ أنه برع في المناظرة
حتى قيل فيه : " ما اعترض أبو بكر الدينوري على دليل أحد إلا ثلم منه ثلثة "⁵ .
و قد تحدث ابن الجوزي عن المناظرات التي كانت تعقد في مجلسه ، و يحضرها
ال خليفة و العلماء و الفقهاء زيادة على العوام الذين كان يؤذن بالدخول في بعض الأحيان فقال
: " و في يوم الاثنين خامس و عشرين رمضان تقدم بجلوسى في دار صاحب المخزن
فجلست و حضر أمير المؤمنين و أذن للعوام في الدخول فتكلمت بعد العصر إلى المغرب
و بقنا في الدار تلك الليلة مع جماعة من الفقهاء فجرت مناظرات إلى نصف الليل "⁶ .
و الذي يمكننا استخلاصه من هذا القول و إن لم يذكر ابن الجوزي محتوى تلك
المناظرات التي كانت تعقد ، إلا أنها في الغالب كانت في مسائل علمية و فقهية فوق مستوى
العوام ، و الدليل على ذلك ما ذكره في حوادث سنة 521 هـ بقوله : " و في يوم الجمعة تاسع
رجب استدعانا صاحب المخزن للمناظرة فحضر فقهاء بغداد و لم يتخلف إلا النادر ، و دل
أبو الخير القزويني في مسألة زكاة الحلي و اعترضت عليه "⁷ .
كما جرت له مناظرة مع أحد أهل الكتاب من اليهود حول جملة من الشبهات التي كان
يعتقها⁸ .

¹ - المدخل إلى علم الدعوة : السانوي ، ص 266 .

² - تقدمت ترجمته .

³ - المنظم : 17 / 181 .

⁴ - تقدمت ترجمته .

⁵ - المنظم : 17 / 328 .

⁶ - المصدر السابق : 18 / 231 .

⁷ - نفس المصدر : 18 / 220 .

⁸ - أنظر صيد الخاطر ص 141 ، و فصل "مناف المدعوين من هنا الباب ، مهت أهل النعمة .

إن فابن الجوزي استخدم هذا الأسلوب الدعوي مع طائفة العلماء و المختصين من باب المذاكرة خصوصا و من باب الدعوة عموما ، لأن تلك المجالس كان يحضرها عامة الناس بما فيهم أهل الكتاب فيسلم الكثير منهم .

كما يمكننا أن نستخلص من كلامه السابق أن المناظرات كانت تعقد دائما بين علماء بغداد ، و كان الجميع يحرص على حضورها ، و كانت تتم تحت الرعاية الرسمية للسلطة و يحضر بعض رجال الدولة و ولاة الأمر في ذلك الزمان .

و خلاصة القول في هذا الأمر هو أن المناظرة و رغم كونها وسيلة دعوية ناجحة ، إلا أنها محدودة المكان و الزمان و لها صنف معين من المدعويين ، لهذا قل استعمالها عند ابن الجوزي ، و ذلك لكونه داعية الجماهير بوجه خاص ، و إن كان هذا لا ينفني وجود مجالس دعوية مخصصة لأصناف آخرين من المدعويين ، و ذلك لأن الداعية الناجح هو الذي يغير الأسلوب بتغير جمهور المدعويين و كلما دعت الضرورة لذلك .

ثالثاً

أسلوب الموعظة

جاءت الموعظة في اللغة بمعنى النصيح و التذكير بالعواقب ، و معنى وعظه أمره بالطاعة و وصاه بها ¹ .

أما في الاصطلاح الدعوي فهي تترادف النصيحة ² و عرفها بعضهم بقوله : " الوعظ هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب " ³ .

و في القرآن الكريم جاءت كلمة الموعظة في تسع مواضع منه ، كما ذكر الوعظ في صيغ مختلفة فجاء فعلاً ماضياً و حاضراً و استنهماً و أمراً ⁴ .

كما استخدمه العديد من أنبياء الله و رسله - عليهم الصلاة و السلام - حيث ذكر الله عن نبيه نوح - عليه السلام - أنه قال : (أبلغكم رسالات ربي و أنصح لكم) ⁵ ، و قال عن هود - عليه السلام - : (أبلغكم رسالات ربي و أنا لكم ناصح أمين) ⁶ و قال عن نبيته صالح - عليه السلام - : (يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي و نصحت لكم و لكن لا تحبون الناصحين) ⁷ .

و قد استخدم النبي - صلى الله عليه و سلم - هذا الأسلوب حيث أوصى به قولاً فقال : " الدين النصيحة " ⁸ ، و النصيحة هنا تنطبق على الموعظة باعتبارها مرادفة لها و طبقه عليه الصلاة و السلام عملاً في العديد من المواقف ؛ منها موقف الأعرابي الذي بال في المسجد ، فعن أنس - رضي الله عنه - قال : " بينما نحن في المسجد مع رسول الله - صلى الله عليه و سلم - ، إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد ، فقال أصحاب رسول الله - صلى الله عليه و سلم - : مه ، قال صلى الله عليه و سلم : لا تزرموه ، دعوه فتركوه حتى بال ، ثم إن رسول الله - صلى الله عليه و سلم - دعاه فقال له : إن هذه

¹ - لسان العرب : ابن منظور ، 1873 / 11 ، طبعة دار المعارف .

² - المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفرج اثباتوي ، ص 258 .

³ - مناهج الدعوة و أساليبها : علي حريش ، مكتبة رحاب الخراز ، ط 2 ، 1409 / 1989 م ، ص 155 .

⁴ - انظر : الشعراء : 136 ، هود : 46 ، سبأ : 46 ، الأعراف : 164 ، لقمان : 13 ، النساء : 63 .

⁵ - الأعراف : 62 .

⁶ - الأعراف : 68 .

⁷ - الأعراف : 79 .

⁸ - فتح الباري : 1 / 137 ، كتاب الإيمان ، باب قول النبي " من " قدس النصيحة رقم 42 .

المساجد لا تصاح لشيء من هذا البول و لا القذر ، إنما هي لذكر الله - تعالى - و الصلاة و قراءة القرآن ، أو كما قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم - ، قال : فأمر رجلا من القوم فجاء بنلو من ماء فبشبهه عليه ¹ .

و لما كان للوعظ و الإرشاد مكانة عظيمة في توجيه الأمة و توطئتها على المثل العليا و الأخلاق الحسنة عن طريق تهذيب السلوك و تربية النفوس ، من أجل ذلك صار له سحره الفعال عند ابن الجوزي و هذا من حيث تأثيره على الأرواح بزجرها و توقيف زحفها نحو الحياة الفانية و تقويم مسارها و وضعها على درب الحياة الباقية .

لقد كان رحمه الله فارس الميدان في هذا المجال ، حيث كان له أسلوب مميز في الوعظ ظهر لنا ذلك من خلال تصفحنا امختلف كتبه الوعظية و الدعوية ² .

و الموعظة كما هو معلوم لدى المختصين في هذا المجال لها أشكال و طرق عديدة فمن أشكالها المهمة : الإشارة اللطيفة المفهومة ، التعريض و الكناية ، النقص و الخطابة ، الصبر الترغيب و الترهيب إلى غير ذلك من الأشكال ³ ، و أهم ما نارت حوله مواعظ ابن الجوزي من أشكال الموعظة و طرقها هي : استعماله القصص لأخذ العبر و العظات منها ، و تركيزه كذلك على الترهيب و الوعد و الوعيد و تشويق المدعوين إلى الجنة و زجرهم و تخويفهم من النار و كل هذا حسب مقتضى حال السامعين .

* - القصة :

القصة في المجال الدعوي تعد من أهم أشكال أسلوب الموعظة و أبرز من يمثل لنا هذه الأهمية القرآن الكريم ، حيث استعملها في جل مواقفه الوعظية و شغلت منه حيزا معتبرا و خاصة في الفترة المكية . و لسنا هنا في مجال إبراز مدلول القصة و تعدد استعمالها في القرآن ، إنما الذي يهمنا في هذا المقام بالذات هو الكيفية التي وظف بها القرآن الكريم القصة و الحكمة منها كأسلوب دعوي و تربوي ناجح .

و من هنا كان من الطبيعي أن تأخذ القصة مكانها ، و أن تقوم بدورها في هذا المجال و أن يعنى للقرآن بها تلك العناية الفائقة ، حيث أنها عالجت كل ما يهدف القرآن إلى الدعوة إليه

¹ - صحيح مسلم : 1 / 237 ، كتاب الطهارة ، باب و حرب غسل البول و غيره ، رقم 285 .

² من هذه الكتب : التذكرة في الوعظ ، المدنى ، سعد الخاطر ، المواعظ و المهامس ، تحفة الواعظ و نزهة الملاحظ ، النبصرة ، البالونة ، اللطائف ، ذم الهوى ، بسنان الواعظين ، للقلبي ، صبا نجد ، و غيرها من المؤلفات .

³ - المدخل إلى علم الدعوة : محمد أم الفتح المياثون ، ص 259 .

أو تعميق الإيمان به جملة و تفصيلا¹.

كما أن للقصة في القرآن الكريم حكم جليلة ذكرها العلماء ؛ فهناك ما ورد منها للاعتبار و بيان سنن الله في خلقه ، و هي كذلك بيان لمناهج الأنبياء في الدعوة إلى الله أضف إلى ذلك أنها تقدم نماذج للمؤمنين الصابرين ، كما يوجد فيها حقائق علمية تتعلق بهذا الكون و ما فيه من كائنات ، و خلاصة القول أن في قصص القرآن ما يفيد الدعوة و الدعاة بشكل عام ، و لعل من أهم هذه الفوائد التي لا يجدر بالدعاة نسيانها أنها تعرفهم بأساليب الأنبياء و أتباعهم في الدعوة ، و ما أصابهم من أذى في سبيل تبليغها ، كل ذلك من أجل الموعدة و الاعتبار و الاستفادة من سيرتهم ، و الدعاة هم أولى و أحق الناس بهذه الأمور من غيرهم.²

أما الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - فقد استخدم القصص في أسلوبه الوعظي و عد له فصلا كاملا في كتابه رؤوس القوارير سماه " فصول في ذكر القصص " ، و من جملة ما استخدمه ابن الجوزي من القصص القرآني قصة إبراهيم - عليه السلام - مع قومه عندما حطم أصنامهم و انفقوا على حرقه³ ، قال ابن الجوزي عن إبراهيم : " ثم دخل على الأصنام وقت الفراغ (فراغ عليهم)⁴ فجرثوه من برد برد العدل إلى حر حرقوه فسبق بريد الوحي إلى النار ، بلسان التفهيم : (كوني بردا و سلاما على إبراهيم) " ⁵ . و الهدف الذي من أجله ذكر ابن الجوزي هذه القصة هو تبيينه لمدى صبر سيدنا إبراهيم - عليه السلام - على قومه و على شدة البلاء و التعذيب الذي أحلّه به قومه ، و تبيين انتصار الخير على الشر ، و الحق على الباطل ، و الإيمان على الضلال ، و توضيح التعذيب الذي لاقاه الأنبياء من أقوامهم ؛ و بيان نعمة الله تعالى عليه بأن نجاه من الحريق و جعل النار بردا و سلاما عليه فلم تمسه بسوء .

كما تناول ابن الجوزي في مواعظه قصة فرعون الذي ادعى أنه الإله ، و أنه ملك مصر و استدل على ذلك بالأنهار التي تجري من تحت قصوره و أنها كلها ملك له ، مع أنه لا

¹ منهج القصة في القرآن : محمد شعلان ، شركة مكسات عكاظ للنشر و التوزيع ، السعودية ، ط 1 ، 1404 هـ ، 1984 م ، ص 16

² - الاستفادة من قصص القرآن للدعوة و الدعاة : عبد الكريم زيدان ، مؤسسة الرسالة بيروت ، لبنان ، 1 / 7 ، 8 ، 9 .

³ أخبار الحمقى و المغفلين : ص 63 .

⁴ - الصافات: 93

يعرف من أين منبعها ولا إلى أين منتهاها. قال تعالى حكاية عنه : (ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر و هذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون)¹ والهدف من هذه القصة كما وضحه ابن الجوزي هو تبين مدى تغفيل فرعون و بلادته² عندما نسي قدرة الخالق - جل و علا - الذي خلقه في أحسن تقويم ، و أنه - سبحانه - كما أعطاه هذا الملك قادر على أن يسلبه منه في أية لحظة ، كما بين ابن الجوزي من خلال هذه القصة أن النعمة التي يبسطها الله لعبده من عباده ليست دليلاً على رضى الله - سبحانه و تعالى - عليه في كل الأحوال .

كما تعرض ابن الجوزي لقصة قارون و بعد أن لخص قصته قال : " فلما ارتفع بظلم حطاً إلى حضيض : (فخشفنا به)³ ، فقال الجاهلون إنما بادر موسى بادرته لأخذ بدره بداره فقال حاكم الغيب لإزالة الريب (و بداره)⁴ .

واستعمل ابن الجوزي في مواضعه العديد من القصص و التي كان يحاول من ورائها لفت انتباه المدعوين و التأثير عليهم ، و من هذه القصص قصة آدم - عليه السلام - و قصة قوم عاد و ثمود ، و قصة نوح مع قومه ، و قصة لوط مع قومه ، و قصة يوسف و أيوب و قصة شعيب و موسى عليهم السلام⁵ .

و من أهم القصص التي نالت إعجاب ابن الجوزي و استخدمها في دعوته ، قصة ابني آدم التي وردت في قوله تعالى : (و اتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قرّبا قربانا نتقبّل من أحدهما و لم يتقبّل من الآخر ، قال : لأقتلنك ، قال : إنما يتقبل الله من المتقين)⁶ و ذلك من أجل أن يوضح - رحمه الله - نتيجة التقوى و الإيمان بالله - عز و جل - ، و كيف أن الذي يتقى الله تعالى في سره و علانيته ، يكون عمله خالصاً لله و يوفقه الله - عز و جل - للمداومة على أحسن الأعمال ، و أما من جانب التقوى فإن أعماله ستخرجه من دائرة الإخلاص إلى دائرة الرياء⁷ . و الهدف من إيراد ابن الجوزي

¹ - التعرف : 51 .

² - أخبار الحمقى و العقليين : ص 63 .

³ - القصص : 81 .

⁴ - رؤوس القوارير : ص 129 ، و الخلاصة من سورة القصص : 81 .

⁵ - انظر رؤوس القوارير : الصفحات 117 ، 119 ، 120 ، 122 ، 124 ، 125 إلى 128 و كذلك المدمش : ص 76 إلى 122 .

⁶ - المائدة : 27 .

لهذه القصة هو أن يبين لجماهير المدعويين عاقبة الشر و الفساد و هي الهلاك و الخسران في الدنيا و الآخرة و ذلك من أجل أن ينزجروا عنه ، و أن جزاء التقوى و الصلاح في الدنيا هو النعيم و حسن الثواب في الآخرة .

كما كانت قصة يوسف - عليه السلام - مع إخوته ، عندما ألقوه في الجب و دأعوا بأن الذنب أكله ، ذات بعد و تأثير في نفوس المدعويين حيث استطاع ابن الجوزي من خلالها أن يجلي لهم الحقيقة الكامنة لأخذ العبرة و الاتعاظ بها ، و ذلك لكونها أبرزت الحسد و الحقد و الغيرة بين بنى الإنسان في مختلف الأزمان ، كما بينت شكلا من أشكال تدبير المؤامرات الدينية للقضاء على الآخر حتى و لو كان من القرابة المقربين ، و لكن الله مطلع على ما تخفيه الصدور فهو لا ينصر المعتدين و الظالمين و لو كثرت عدتهم و تضاعفت أعدادهم و طال زمن بغيهم و ظلمهم ، لأنه سبحانه و تعالى كتب النصر و التمكين في نهاية المطاف لعباده المؤمنين¹ ، و هكذا كانت العاقبة ففي بداية المشهد القصصي : (قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبيح و تركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذنب)² ، أما في نهايته فقالوا : (تالله لقد آثرك الله علينا و إن كنا لخاطئين)³ .

و من خلال سرد ابن الجوزي لهذه القصة اتضح لنا أن الهدف الدأعوي من استعماله لها في مواعظه هو توضيحه لجمهور المدعويين كيف كان يحيك بنو آدم الدسائس و المؤامرات لبعضهم البعض منذ القدم ، و لكن الله بصير بأعمالهم و أنه يمهل و لا يهمل و أن ما ستره اليوم سيكشفه غدا ، و أن العاقبة للمؤمنين طال الزمن أم قصر .

و لما كان ابن الجوزي يمزج دائما بين الأدلة القرآنية و الحديثية في مختلف أحاديثه الدعوية ، وجدناه كما استخدم في مواعظه القصص القرآني استعمل القصص النبوي أيضا و من ذلك قوله : " قال ابن عباس : لما شب إسماعيل تزوج امرأة من جرهم⁴ فجاء إبراهيم فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته ، فقالت : خرج يبتغي لنا ، ثم سألتها عن عيشتهم ، فقالت : نحن بشر و في ضيق و شدة و شكت إليه ، فقال : فإذا جاء زوجك فأقرني عليه السلام و قولني له بغير عتية بابه ، فلما جاء فأخبرته ، قال : ذاك لبي و قد أمرني أن أفارقك ، إلحقي

¹ أحبار الحمقى و المغفلين : ص 64 .

² - يوسف : 17 .

³ - يوسف : 91 .

⁴ - جرهم : من بن اليمن نزلوا مكة و تزوج منهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام و هم أصهاره ، لسان العرب 609/1

و الهدف الذي من أجله جاء ابن الجوزي بهذه القصة هو بيان جزاء النساء اللواتي يكفرن العشير و أنهن زوجات بعيدات عن التقوى و الصلاح لعدم صبرهن على ما يلاقينه أزواجهن من قسوة العيش و شظفه ، كزوجة إسماعيل - عليه السلام - التي لم تطق صبرا فاشتكت لسيدنا إبراهيم - عليه السلام - ما تلاقينه من شدة العيش و ضيقه ، فكان الطلاق خاتمة تسرعها و استعجالها و كفرانها النعمة ، و يؤيد معنى هذه القصة و الهدف منها ما روي عن النبي - صلى الله عليه و سلم - أنه قال : " رأيت النار فلم أر كالיום منظرا قط و رأيت أكثر أهلها النساء ، قالوا : لم يا رسول الله ؟ ، قال : بكفرن قيل : يكفرن بالله؟ قال : يكفرن العشير و يكفرن الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت منك خيرا قط " ²

و خلاصة القول يمكننا أن نستنتج أن ابن الجوزي ساق القصص في منهجه الوعظي الدعوي من أجل تحقيق جملة من الأغراض الخاصة في مجملها بكيفية الوصول إلى قلوب جماهير المدعويين و عقولهم ، حتى يستطيع التأثير فيهم فيحرك مشاعرهم و يدغدغ عواطفهم ، فجاء بذلك استخدامه القصص القرآني من أجل : العبرة و الموعظة و تبيان قدرة الله - جل و علا - في خلق الأمم و إفنائها ، فعندما تجور تصبح بذلك مهياة للفناء جراء كفرها و عنادها مثال ذلك ما حصل لفرعون و هامان و جنودهما ، و هذا يستدعي من المدعويين شكر الخالق الذي شملتهم رحمته و فضله إذ لم يصيبهم ما أصاب أولئك القوم الهالكين ، كذلك ضرب المثل بقصص الأنبياء و ما أيدهم الله به من المعجزات الباهرات كالنار التي ألقى فيها الخليل إبراهيم فصارت بردا و سلاما ، و ما أجرى الله من معجزات على يد موسى و عيسى - عليهما السلام - ، بالإضافة إلى ذلك لابد من اتخاذهم قدوة في منهجهم الدعوي و أساليب التبليغ لديهم ، كما أنه لابد للمدعويين أن يتحلوا بأخلاق القرآن فيبتعدوا عن الدس و التامر على بعضهم البعض كما فعل إخوة يوسف بأخيهم ، بل عليهم أن يكونوا كما كان الصحابة - رضي الله عنهم - متلاحمين كالجسد الواحد .

* - الترغيب و الترهيب :

يعتبر الترغيب و الترهيب من أهم أشكال الموعظة و ذلك لما لهما من الأثر البالغ

¹ كتاب الأذناء : ابن الجوزي نفيس محمد عبد الرحمن عوض دار الكتاب العربي بيروت ط 2 1408 هـ 1988 م ، ص 16
والنص مذكور باللفظ مختلفة اظر فتح الباري : 6 / 396 ، كتاب الأنبياء ، باب برؤفون النسلان في المشي رقم 3364 .

على نفوس المدعوين و عواطفهم حيث يترتب على ذلك سرعة استجابتهم و انقيادهم للحق¹. و قد عرف الترغيب بأنه " كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة و قبول الحق و الثبات عليه " و الترهيب " كل ما يخيف و يحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله "².

و من العلماء من عرفهما بقوله : " الترغيب هو وعد يصحبه تحبيب و إغراء بمصلحة أو لذة ، أو متعة آجلة مؤكدة ، خيرة خالصة من الشوائب مقابل القيام بعمل صالح أو الامتناع عن لذة ضارة أو عمل سيئ ابتغاء مرضاة الله " أما الترهيب فهو " وعيد و تهديد بعقوبة تترتب على اقرار إثم أو ذنب مما نهى الله عنه ، أو على التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به ، أو هو تهديد من الله يقصد به تخويف عباده و إظهار صفة من صفات الجبروت و العظمة الإلهية ليكونوا دائماً على حذر من ارتكاب الهفوات و المعاصي "³.

و الملاحظ من خلال هذه التعاريف أنه لا يوجد أي خلاف حول مضمونها ، فهي تصب في قالب واحد و هدف واحد هو دعوة الناس و سوقهم إلى الله — عز و جل — بعناية و لطف . و أمثلة الترغيب و الترهيب كثيرة و متعددة في القرآن الكريم و في دعوة الأنبياء و المرسلين ، منها قوله تعالى : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)⁴ ، و قال سبحانه عن قريش : (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع و آمنهم من خوف)⁵ ، و قال عن نوح — عليه السلام — : (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ، و يمددكم بأموال و بنين و يجعل لكم جنات و يجعل لكم أنهارا)⁶ ، و قال عن رسول الله — صلى الله عليه و سلم — : (فأمنوا بالله و رسوله و النور الذي أنزلنا و الله بما تعملون خبير . يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن و من يؤمن بالله و يعمل صالحا نكفر عنه سيئاته و ندخله جنات تجري من تحتها الأنهار

¹ - المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتوح البيانوني ، ص 261 .

² - أصول الدعوة : عبد الكريم زيان ، ص 117 .

³ - أصول التربية الإسلامية و أساليبها : عبد الرحمن النحلوي ، دار الفكر دمشق ، سوريا ، ط 2 ، 1403 هـ 1983 م ص 287 .

⁴ - الأنعام : 160 .

⁵ - قريش : 3 ، 4 ، 5 .

خالد بن فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) ¹ .

ولقد كان الترغيب و الترهيب من الطرق الوعظية الناجحة التي استعملها سيّد المرسلين - عليه الصلاة و السلام - في دعوته ، فالناظر في كتب السيرة يجد المواقف المتعددة التي كان يقفها النبي مرغبا حيناً و مرهبا حيناً آخر ، و ما ذلك إلا للحكمة في الدعوة التي أعطيتها عليه الصلاة و السلام ، حيث كان يمر بآل ياسر و هم يعذبون فيقول لهم : " صبرا آل ياسر موعدكم الجنة " ² .

و قال عليه الصلاة و السلام : " إذا أحسن أحدكم إسلامه ، فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف ، و كل سيئة يعملها تكتب له بمثلها " ³ .

و من الأحاديث التي جمع فيها الرسول - صلى الله عليه و سلم - بين الترغيب و الترهيب من أجل إيجاد التأثير النفسي العميق لدى السامعين ، عندما جمع بين الترغيب في الصدق و الترهيب من الكذب و ذلك كون الأول يؤدي إلى الجنة ، و الثاني يسوق صاحبه إلى النار فقال : " إن الصدق يهدي إلى البر ، و إن البر يهدي إلى الجنة ، و إن الرجل ليصدق حتى يكتب صديقا ، و إن الكذب يهدي إلى الفجور ، و إن الفجور يهدي إلى النار ، و إن الرجل ليكذب حتى يكتب كذابا " ⁴ .

و من خلال استعراضنا لهذه النماذج من القرآن الكريم و السيرة العطرة ، اتضح لنا الأهمية الكبرى التي حظي بها الترغيب و الترهيب كشكل من أشكال الموعظة و أسلوب من الأساليب الدعوية و التربوية الناجحة ، لانسجامه مع الفطرة الإنسانية و ما جبلت عليه من الرغبة في التلذذ ، و الرهبة من الألم ⁵ ، أضف إلى ذلك تأثيره الإيجابي الدائم و ذلك لكونه يثير في الإنسان رغبته الداخلية و يخاطب مشاعره القلبية و خاصة إذا استخدم بتوازن و اعتدال .

من هذا المنطلق وجدنا ابن الجوزي يبيّن أهمية الترغيب و الترهيب في الميدان الدّعوي

¹ - الثعابين : 8 ، 9 .

² - السيرة النبوية : لعبد الملك ابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلي ، دار إحياء التراث العربي دت 342/ 1 و الحديث رواه الحاكم في المستدرک 3/ 383 و سكت و تبعه الذهبي و أورده ابن حجر العسقلاني في المطالب العلية و لال: أخرجه الحارث (في مسنده) قال المحقق في الماشق قال البوصري رواه الحارث سنه منقطع ، انظر المطالب العلية بروالد السائد الثمانية لابن حجر تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي طباعة المطبعة المصرية بالكويت 1973م ، 4 / 78 ، رقم 4034 .

³ - فتح الباري : 1 / 100 ، كتاب الإيمان ، باب حسن إسلام المرء ، رقم 42 .

⁴ - المصدر السابق : 10 / 507 ، كتاب الأدب ، باب قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و كونوا مع الصادقين رقم 6094 .

⁵ - الدعوة إلى الله عليه بهجة : عهد القيم محمد حسين ، ص 225 .

حيث رأى بأنه من أحسن ما يحتاج إليه الواعظ في موعظته فقال : " ما وعظ الواعظون بمثل التخويف من الانقطاع عن الوصول و لا أطرب الحادون بمثل التشويق إلى النظر إلى جمال وجه الله ، و مرافقة رسول الله " ¹ .

و لم يقتصر ابن الجوزي في منهجه الدعوي بالحث على ضرورة استعمال أسلوب الترغيب و الترهيب في الدعوة ، بل إن الرجل كان من أكبر الدعاة الذين استخدموا هذا الأسلوب في الميدان التطبيقي ، فقد كان يعظ الناس و يشجعهم على فعل الخير و يأتيهم من طريق الترغيب مرة ، و من طريق الترهيب مرة أخرى ، فكان عليه رحمة الله يحاول جامدا إثارة الرجاء في نفوس الصالحين ، و الخوف في نفوس العصاة ، يرغب فريقا في الجنة ، و يرهب فريقا من النار ، و مما ساعده على إتقان هذا الأسلوب حسن توظيفه لآيات كتاب الله - عز و جل - في مجالسه الدعوية .

و يظهر لنا هذا الطابع المميز في الوعظ عند ابن الجوزي في تصويره الرائع للتائب و مدى قلقه من انعدام قبول توبته ، فهو حائر في أمره كمن استنكحه الشك في طهوره و صلواته ، فهو متأرجح بين الخوف و الرجاء ، يقول في ذلك ² : " التائب متيقن من لنجاسة شاك في التطهير ، و وسوسته في كثرة استعمال ماء العين محمودة ، التائب كحامل وضعت و بقيت المشيمة ، إن سكن قلقه : (لا تقنطوا) ³ ، أزعه تخويف : (و يحذركم) ⁴ ، و إن رجاءه : (لو لم تذبوا) ⁵ ، قلقه : (و من يعمل مثقال ذرة) ⁶ ، و إن لجأ إلى ظل : (ورحمتي وسعت كل شيء) ⁷ ، رآه منسوخا بشس ⁸ : (إن بطش ربك لشديد) ⁹ . و مما قاله في ترغيب المدعويين في محبة الله تعالى و ترهيبهم للخوف منه قوله

¹ - التذكرة في الوعظ : ص 69 .

² - صبا مجد : ص 43 ، 44 .

³ - إشارة إلى الآية (لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) الزمر : 53 .

⁴ - إشارة إلى الآية (و يحذركم الله نفسه و لى الله المصير) آل عمران : 28 .

⁵ - صحيح مسلم : 4 / 2106 ، كتاب التوبة ، باب سقوط الذنوب بالاستغفار ، رقم 2749 و الحديث بتمامه : " و الذي نفسي بيده لو لم للنبيوا لنهب الله بكم و لجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم " .

⁶ - الزلزلة : 8 .

⁷ - الأعراف : 156 .

⁸ - الشمس : الأرض الصلبة القليظة اليابسة كأنها حجر واحد ، و يطلق على الخشن من الحجارة ، لسان العرب 4 / 2257 طبعه

دار المعارف

مخاطبا أحدهم : أما سمعت قوله في الكتاب العزيز مسطراً إخباراً عنهم في ذكرهم له قولاً بليغاً مفصلاً : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم)¹ (و الصابرين على ما أصابهم)² ، فشكرهم على ذلك و ستر ، بأنه راض عنهم يوم تشقق السماء و تنفطر : (نبأ الإنسان يومئذ بما قدم و أخر)³ ، و يبقى العاصي نادماً على تفريطه محسراً مثقلاً بحمل خطاياهم و في ذيل ذنوبه معتر ، فإذا دعي لقراءة كتابه رأى ما فيه من السيئات تحير و يرى غيره قد أمر به إلى النار مسحوب مجرر ، فيندم فلا ينفع ، و يبكي فلا يسمع و لا يرحم ، و لا يعذر ، فالعذاب الشديد لمن كذب و طغى و تجبر ، و نصحتك فالتوبة التوبة فعسى بعد الكسر تجبر ، فهو المعين لمن لجأ إليه ، فله الحمد على ما قضى و قدر⁴ .

و بمثل هذه الأوصاف التي تتخلع لها القلوب و تنفطر لها الأفئدة يمضي ابن الجوزي في منهجه الدعوي مشدداً على هذا الإنسان المستهتر بدينه العاصي لربه ، مصوراً إياه بأبشع الصور لعل يتوب إلى ربه و ينزجر .

و كأن ابن الجوزي أحس بأن الإنسان لا يتعظ إلا بمضاعفة الترهيب فقال له مخاطبياً : " يا من بأقدار الخطايا قد نلطخ ، و بأفات البلياء قد تضحخ . يا من لا يسمع كلام من لام و وبخ . يعقد عقد التوبة صباحاً فما يمسي حتى يفسخ . يا مطلقاً لسانه و الملك يحصي و ينسخ . يا من الهوى في صدره قد عشش و فرخ . كم ينادي بك في كل يوم و يصرخ كم أباد الموت ملوكاً كالجبال الشمخ " ⁵ .

و رغم هذه المواعظ التي بالغ ابن الجوزي في الترهيب بها إلا أن العناد طبع جبل عليه الإنسان لذلك نراه يذكر بأنه قد يضطر إلى تكرار الموعدة مرة و مرة حتى تجد لها أذانا مصغية فيقول متعجباً : " واعجبا كم أكرّر ذكر الموعدة على قلبك و سبيل الغفلة غالب ، ما أظن ما اصفر العمى الأغلب عليك ، و ما في قدح الكحال حيلة ، لما لاح نور النبوة في أفق الهدى راه سامان و عمى عنه أبو طالب " ⁶ .

¹ - الأنفال : 2 .

² - الحج : 19 .

³ - النعام : 13 .

⁴ - البقرة في الوعظ : ص 11 .

⁵ - تحفة الواعظ و نعمة اللاحظ : ص 182 .

و في مجال استعمال ابن الجوزي لأسلوب الترغيب و الترهيب لم ينس شريحة هامة في المجتمع ألا وهي الشباب ، و ذلك لكون هذه المرحلة موسم عظيم من مواسم العمر ففيه تظهر بجلاء مجاهدة النفس و الهوى و مصارعة الشيطان و زيانيته .

و من هنا كان ابن الجوزي حريصا أشد الحرص على تقويم سلوك الشباب ، حيث دعاهم للتخلي بالصبر على المعاصي ، حتى لا يقعون فريسة لشهواتهم و أهوائهم و مما خاطبهم به قوله : " فليُنظر الشاب في أي مقام هو ، فليس لمقامه مثل ، و لينتلمح شرف بضاعته و ثمنها المستوفي . . فليصبر الشاب ليقال له : (هذا يومكم) ¹ ، و ليحذر زلله في الشباب ، فإنها كعيب قبيح في سلعة مستحسنة. و من زل في الشباب فليُنظر أين لذتها وهل بقي لإحسرتها الدائمة التي كلما خطرت له تألم فصار ذكرها عقوبة " ² .

و هكذا يتابع ابن الجوزي نهجه في ترغيب الشباب و ترهيبهم بالعديد من القصص التي يرويها عن العباد و الصالحين قصد التأثير عليهم ³ ، حتى كان الكثير منهم يتسهافتون على مجلسه تائبين و للتوبة معلنين ⁴ .

و إذا كان هذا هو موقف ابن الجوزي من الشباب ، فما كان شأنه مع الشيوخ و قد اشتعلت رؤوسهم بالشيب ، و وهنت عظامهم فانحنيت ظهورهم و انهارت قواهم ، و ساق بياض الشعر دنو الأجل و قرب الرحيل ، فأين زادهم من التوبة و الطاعة حتى يتداركوا ما مضى قبل فوات الأوان ، فالنستمع إلى ما قاله لهم : " و ليكتف الكيل بنور الشيب الذي أضاء له سبيل الرحيل ، و ليعامل بالبقية المائلة إلى الهوى يربح لكن لا كربح الشاب " ⁵ .

ثم نراه مرة أخرى يشدد الخطاب في لهجة بالغة الترهيب ، مخافة أن تضيع منهم فرصة العمر فتمضي منهم بغير توبة ، فيرجعوا إلى خالقهم عن الصراط ناكبين و بالذنوب متقلين فيقول لهم في موعظة : " أما أنذرك الشيب " و التي اقتطفنا منها هذه العبارات : " أما خط الشيب خط النهي عن الخطأ لما وخط ، أما أذن الشباب بالذهاب فما بعد الشمط ؟ فالإلى متى يعظك الدهر و لا تقبل و حتى متى ينذرك القهر إنك عن قريب ترحل ؟ ، و تضم العيب إلى الشيب و بنس ما تفعل ، كن كيف شئت فإنما تجازي بما تفعل . . اسمع يا هذا عليك حافظ

إشارة للأية : (لا يحزنكم الفزع الأكبر و تلقاهم الملائكة هنا يومكم الذي كنتم توعدون) الأنبياء : 103 .

- تبيين التالم العمر على مواسم العمر : ابن الجوزي ، تحقيق عرفة حلمي عباس ، دار الحديث مصر د ت ، ص 84 ، 85 .

- انظر للمزيد : المراعي و المجالس : ص 50 ، 126 ، 127 .

انظر منه التهجئة بالتمسك في فصل تأذد ان الحديث في الفصل الأخير من الرسالة .

و ضابط ، يا من شاب إلى كم تغالط ؟ ، أبك على ما مضى و يكفيك الفارط " .
و بهذا استطاع ابن الجوزي أن يصل إلى الغاية المرجوة من مواعظه ، و ذلك فـ
تحذيره من الذنوب و المعاصي ، و هو يدرك تمام الإدراك بملازمتها لكل مواسم عمر
الإنسان و لكنها تتفاوت من موسم لآخر و إذا كانت في مرحلة الشباب قبيحة فهي في موسم
الشيخوخة أقيح ، لذلك وجدناه ينلدي على أهل الذنوب مذكراً إياهم بعدم الغفلة و المبادرة
إلى محو ما في الصحائف من سود الأعمال عساهم يفوزوا بالرحمة و الغفران فيقول : " فيا
أهل الذنوب مثلئى اعلموا أن الأعمال قد أثبتت عليكم في الديوان ، من الإحسان و العصيان
و الزيادة و النقصان ، و النفاق و الإيمان ، و أنت غافل في سكرة الغرور ، و كتابك مملوء
بالويل و الثبور فبادروا إلى الصحائف و امحوا ما فيها من القبائح ، و محصوا ما قد ثبتت
عليكم من الفضائح ، و ذلك باكتساب الحسنات ، كما قال رب الأرضين و السماوات : (إن
الحسنات يذهبن السيئات) " .³

و في مجال الترغيب تتغير لهجة ابن الجوزي فنجده يخفف من حدة كلامه مع
المدعوين و يحاول جاهداً تبشيرهم بما أعد الله لعباده الصالحين في الجنان و يعدهم
بالأمان من النيران فيقول منادياً في رفق: " إخواني مثلوا أهل الجنة : (يوم نحشر المتقين)³
(نورهم يسعى بين أيديهم)⁴ ، و معهم توقيع (لا خوف عليهم)⁵ ، فلما وصلوا إلى
الجنان : (و فتحت أبوابها)⁶ ، و بدأهم الخزنة : (سلام عليكم طبتم)⁷ و بشرهم
بالبقاء الدائم : (فادخلوها خالدين)⁸ ، و قرأت الأملاك من سجل الأملاك ، مبلغ الثمن :
(بما صبرتم)⁹ و جميع المرادات داخلة في إقطاع : (ما تشتهي أنفسكم)¹⁰ و قد استرجع

1- المواعظ و المجالس : ص 95 ، و معنى و خط : انتشار النسب في الرأس ، لسان العرب 7 / 424 ،

و النمط : بياض شعر الرأس يخالطه السواد المصدر السابق : 7 / 330 .

2- بستان الواعظين و ريتض السامعين : ص 129 ، و الآية من سورة هود : 114 .

3- مريم : 85 .

4- التحريم : 8 .

5- البقرة الآيات : 38 ، 62 ، 112 ، 155 ، إلى غير ذلك من الآيات .

6- الزمر : 73 .

7- الزمر : 73 .

8- الزمر : 73 .

9- الرعد : 24 .

10- فصلت : 31 .

في الميزان : (و لدينا مزيد)¹ ، و أتم التمام : (و ما هم منها بمخرجين)² .
و بعد ذلك نجد ابن الجوزي يكشف للمدعويين عن فائدة الاشتغال بالتطلع إلى الجنة
و نعيمها فقال : " أيها المرید إنه ينبغي لك أن تشغل قلبك و تعمل فكرك بالتطلع إلى ما أعدَّ
الله - عز و جل - لأوليائه في جنته ، و الاشتياق إلى ما وصف الله لنا من نعيمها ، فمن
اشتغل بذكرها و اشتاق إلى نعيمها ، لم يلبث أن يهرب من الدنيا و الحرص عليها و السرحان
بأمانيتها ، و ترك طلب العلو فيها " ³ .

و في أثناء ترغيبه لا ينسى ابن الجوزي أن يذكر العديد من الآيات و الأحاديث التي
تعرضت لوصف الجنة و نعيمها و وصف أشجارها و أطيارها و حور العين فيها و منزلة
المتحابين في الله فيها إلى غير ذلك من النعيم ، و قد تحدث ابن الجوزي عن كل ما ذكرناه
عندما عقد فصلاً كاملاً للحديث عن الجنة ⁴ .

و لما يمزج ابن الجوزي في ما ذكرناه من نماذج بين الترغيب و الترهيب فإنه بلا
شك يدرك أن لكل أسلوب دعوي و قته المناسب له فللترغيب و قته و مريدوه و للترهيب و قته
و مستمعوه ، فالواعظ كما هو معلوم طبيب في نظر ابن الجوزي ، من أجل ذلك وجدناه
يقول : " و معلوم أن الواعظ طبيب لأمرض الذنوب ، و مصلح لأمرجة القلوب ، فإذا رأى
بإنسان مآه ، أو أماناً خوفاً ، فهو يقاوم الأمراض بأضدادها " ⁵ .

و ابن الجوزي يرى أن أسلوب التخويف و الترهيب لازم للمدعويين و هو دواء لهم
في كثير من الأحيان حتى يصلح نفوسهم فتصفوا من أكارها و أطماعها فيقول : " و إنني
رأيت الأمن و قلة الخوف و مساكنة الطمع أمراضاً ، قد استولت على النفوس فعلمت أنه ما
ركب من الأدوية التخويف ، لأنه إذا حدث الساكن بما يوجب السكون كان كمبرود أعطى
برودة " ⁶ . من أجل ذلك عقد العديد من المجالس الدعوية بهذا الأسلوب المبالغ في الترهيب
و التخويف كمجلس ذكر القيامة و أهوالها ، و مجلس ذكر الميزان و الصراط ، و مجلس
في قوله تعالى (و وضع الكتاب) ⁷ ، و مجلس في ذكر القبور و غيرها من المجالس كثير

¹ - لقي : 35 .

² - المدعوي : ص 218 ، و الآية من سورة الحجر : 48 .

³ - بيان الرأفة في رياض السامعين : ص 148 .

⁴ - العاصم السابق : المصدر السابق : من الصفحة 148 إلى 169 .

⁵ - المغلق : ص 28 .

⁶ - المصدر السابق : ص 28 .

⁷ - الكهف : 49 .

في مؤلفات ابن الجوزي¹، و هي تكشف لنا عن مدى تنوع أساليب ابن الجوزي الوعظية و طرق هدايته، فهو وعظ يزرع في القلوب الرجاء ويحيي في النفوس الأمل، و يحثب التوبة إلى الناس فيملاً نفوسهم بالرغبة حيناً و بالرهبه حيناً آخر، و ذلك من خلال نداءاته الأخوية المتكررة، و بما يضيفه على مواعظه من المعاني الدعوية السامية و الإرشاد السليم أثناء وعظه للمستمعين، فيرون فيه القدوة الصالحة فيتأثرون بوعظه و يستجيبون لندائه .

و لقد كان رحمه الله كالطبيب الحاني الذي يعرف طبائع النفوس البشرية، فمن وجده أمن من العصاة و ركن إلى الحياة خوفاً و رهبة، و يقدم الحجة على ذلك بقوله :
" و اعلم أن جمهور العصاة اعتمدوا على رحمة الله و عفوه و كرمه، و نسوا أنه شديد العقاب، و ظنوا أن رحمة الله من جنس الرقة فقاوسها برحمة الخلق، و الأدمي إذا رأى عدوه يعذب رق له، و رحمة الله ليست من هذا الجنس . و أما من طلب العفو مع الإصرار فهو كالمعاندين المتهاون بالوعيد... إلى أن يقول : و قد يعاقب الإنسان على المحقر فلماذا لزم تقديم التخويف"² . أما من وجده خاف و يئس بشره و مناه في عفو الله و رحمته .

و على الرغم من تميز بعض مواعظ ابن الجوزي بالتوازن بين الترغيب و التهيب إلا أن الغالب على مواعظه جنوحها إلى جانب الترغيب أكثر، حتى و لو كان ذلك في مجال العمل و السواك، و يبدو أن الذي دفع ابن الجوزي لاستخدام هذا الأسلوب في الوعظ هو ما كان يعيشه المجتمع البغدادي من الترف و البذخ إلى حد الانحلال و الفساد³ .

و بهذا الأسلوب الحكيم استطاع ابن الجوزي أن يمتلك نفوس المدعوين فيحركها كيفما شاء نحو التوبة و الخير الصالح مرغبا مرة و مرهبا مرة أخرى. و ها هو يثبت هذا الدور و هذه المهمة الجليلة في تصوير حسي لا مثيل له مثبتا جدارته و أحقيته في هذا المجال فيقول : " مازلت أعالج مسمار الهوى في قلب العاصي، أميل به تارة إلى جانب التخويف و تارة إلى ناحية التشويق فلما ضعف الماسك بإزعاجي له اتسع عليه المجال

انظر بسنن الواعظين و رماض السامعين : من صفحة 24 إلى 89 و من صفحة 137 إلى 147 و من 170 إلى 250، و كذلك كتاب الملقن و كله في التهيب .

الملقن : ص 29 .

هذا الكلام أكدناه سابقا انظر : ذلك ما فناه في الحائنة الاجتماعية و الأخلاقية في عصر ابن الجوزي، و كذلك نتج ابن الجوزي في الدعوة إلى الله . عبد الرحيم الخنوي، ص 309 - مواعظ ابن الجوزي دراسة تحليلية في : عرفة حلي عيسى ص 120

فجذبته " 1 .

و يؤكد على هذا المعنى في كل حين مثبتا بذلك مدى صلاحية هذا الأسلوب مع المدعويين فيقول : " أنا طيب لبيب أمزج التحذير بالتشويق للعاملين و أجعل كأس التخويف صرفا للغافلين ، و اجتهد في التلطف جهدي بالعارفين " 2 ، و هو في هذا المنهج سائر على منهج الأنبياء و المرسلين حيث قال : " و لهذا بعث الأنبياء بالترغيب و الترهيب " 3 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 . المصدر السابق : ص 287 .

2 - المصدر السابق : ص 503

3 القصاص

المبحث الثاني وسائل الدعوة

تعريف الوسائل :

الوسائل في اللغة جمع وسيلة وهي : الوصلة و الاتصال ، و أصلها ما يتوصل به إلى الشيء ¹ . أما في الاصطلاح فهي تطلق على ما يستخدمه الداعية و يستعين به على تبليغ دعوته للوصول إلى تحقيق الغاية منها من أقرب طريق ، و قد تكون الوسائل مادية أو معنوية .

و قد أمر الله - سبحانه - و تعالى - الإنسان أن يأخذ بالوسائل التي تؤدي به إلى أسمى الغايات فقال : (يا ايها الذين امنوا اتقوا الله و ابتغوا إليه الوسيلة) ² ، و قال : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) ³ .

و إذا كان عموم الناس مطالبون باتخاذ أحسن الوسائل للتقرب إلى الله تعالى ، فإن الدعاة إلى الله هم أولى الناس بالتطلع إلى الوسائل التي تقربهم إلى الخالق و تصل بدعوتهم إلى جماهير المدعوين ⁴ .

و الوسائل الدعوية قد تختلف من داعية لآخر و من عصر إلى عصر آخر ، سواء المادية أو المعنوية ، و الذي يهمنا في هذا المقام هو تلك الوسائل الدعوية التي استخدمها ابن الجوزي و استطاع توظيفها على أحسن وجه في تبليغ دعوته ، و جمع فيها بين الوسائل المعنوية كالصبر و الزهد و الورع و الوسائل المادية ؛ العلمية منها كالتصنيف و التعليم ، و التطبيقية كالقوة و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، و كلها وسائل مشروعة نص الشارع على مشروعيتها و صرح بإباحتها و جواز استخدامها ⁵ .

¹ انظر لسان العرب : 11 / 721 ، 725 .

² - المائدة : 39 .

³ - الإسراء : 57 .

⁴ - للمزيد انظر أصول الدعوة لعبد الكريم ريدان ، ص 447 ، و المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتح اليانوني ص 282 .

⁵ - انظر تفصيل عن نماذج من الوسائل المادية والمعنوية و مشروعيتها : المدخل إلى علم الدعوة : ص 286 وما بعدها و 301 وما بعدها .

أولا

التصنيف

من الوسائل الدعوية التي استعملها ابن الجوزي و ركز عليها في نشر دعوته الإصلاحية التربوية تأليف الكتب في ميادين العلم المختلفة ، لأن التأليف وسيلة جيدة لنشر الدعوة و تبليغها و بخاصة إلى الأجيال المقبلة ، أو الجهات النائية و البعيدة التي قد لا يستطيع الداعية الوصول إليها بنفسه فنقل الكتاب من مكان إلى مكان أسهل من نقل الداعية نفسه إلى هذا المكان ، هذا إن كان الداعية على قيد الحياة أما لو كان ميتا فيصبح للكتاب دورا أكبر و أسمى سواء في عصر توفرت فيه وسائل النقل أو لم تتوفر¹ .

و قد أدرك ابن الجوزي أهمية الكلمة المكتوبة في حفظ فكر الداعية و روحه و تأثيره و ذلك عندما أكد أنها أكثر نفعا من الكلمة المسموعة ؛ فهذه تؤثر في عدد معين ممن يلتقي بهم صاحب الكلمة بينما تؤثر الكلمة المكتوبة فيمن يلتقي بهم و في أناس كثيرين لم يخلقوا بعد و قد أكد هذا الكلام و قدم الدليل عليه بقوله : " رأيت من الرأي القويم أن نفع التصنيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة . لأنني أشافه في عمري عددا من المتعلمين ، و أشافه بتصنيفي خلقا لا تحصى ما خلقوا بعد . و دليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم " ² .

من هذا المنطلق وجدنا ابن الجوزي يحث العلماء على تأليف الكتب النافعة ، حيث كان يرى بأن العالم إذا " أحب ألا ينقطع عمله بعد موته ، فليشر العلم بالتدوين " ³ ، و لكنه يميز بين التأليف الهادف و بين جمع المعلومات كيفما اتفق يقول في هذا الصدد : " فينبغي للعالم أن يتوفر على التصنيف إن وفق للتصنيف المفيد ، فإنه ليس كل من صنّف صنّف و ليس المقصود جمع شيء كيف كان ، و إنما هي أسرار يطلع الله - عز و جل - عليها من شاء من عباده و يوفقه لكشفها ، فيجمع ما فرق ، أو يرتب ما شتت ، أو يشرح ما أهمل هذا هو التصنيف المفيد " ⁴ .

¹ - استمرارية الدعوة : محمد السيد الوكيل ، ص 160 .

² - صيد الخاطر : ص 228 .

³ - التذكرة في الرعظ : ص 12 .

⁴ - المصدر السابق : ص 228-229 .

وتحدث - رحمه الله - عن أفضل مراحل العمر المناسبة للتأليف و قرّر بأنها مرحلة وسط العمر و برّر ذلك فقال : " ينبغي اغتنام التصنيف في وسط العمر لأن أوائل العمر زمن الطلب و آخره كلال الحواس " ¹ . و ابن الجوزي جدّ مصيب فيما ذهب إليه ، لأن همّة الإنسان و طموحه يبدآن في هذه المرحلة لأن فيما قبلها يكون الانشغال و فيما بعدها يكون التعب و الكلال " فيكون زمان الطلب و الحفظ و النشاط إلى الأربعين ، ثم يبتدئ بعد الأربعين بالتصانيف .. فأما إذا قلت الآلات عنده من الكتب ، أو كان في أول عمره ضعيف الطلب فلم ينل ما يريد في هذا الأوان ، أخر التصانيف إلى تمام خمسين سنة " ² .

و ابن الجوزي ينصح الدعاة و أهل العلم و التربية بأن يجتهدوا في هذه المرحلة من العمر في الكتابة و التأليف و الزيادة من العلم إلى غاية سن السبعين عند ذلك فإن العالم إذا جاوز هذه المرحلة جعل الغالب عليه نكر الأخرّة و التهيؤ للرحيل ، وهذا من أشرف العبد للأخرة ³ .

هكذا كان ابن الجوزي لا يضيع من زمانه شيئاً و لا يريد لطالب العلم أو العالم أن يترك زمانه يذهب دون فائدة ⁴ ، فكان علامة بارزة في ميدان التأليف ، و ما ذكره أحد ممن ترجم له إلا و قال فيه أنه الحافظ الفقيه الحجة ، المفسر المؤرخ ، صاحب التصانيف الكبيرة و الشهيرة التي أسهم بها في مختلف أنواع العلوم ⁵ .

و قد برز رحمه الله في الكثير من العلوم و ألف المصنفات الكثيرة التي انفرد بها عن غيره من العلماء و الدعاة حتى قال عنه الإمام الذهبي : " ما علمت أن أحداً من العلماء صنّف ما صنّف هذا الرجل " ⁶ .

و لقد كان معظم هذا الإنتاج الفكري الغزير من ابن الجوزي في مرحلة شبابه التي امتازت بالاستقرار ، و ذلك كونه نشأ في بغداد حاضرة العلم و العلماء و معقل الثقافة في القرن السادس الهجري ، و أول ما ابتدأ به في التصنيف كتابه " المغني في التفسير " و كان له حينذاك من العمر نحو ثلاث عشرة سنة كما نقل عنه ابن رجب ⁷ ، ثم بدأ ينشغل

¹ - التذكرة في الوعظ : ص 220 .

² - المصدر السابق نفس الصفحة .

³ - مسد الخاطر : ص 270 .

⁴ - للتزيد حول موضوع فقه الوعظ عند ابن الجوزي انظر فصل مصادر الدعوة عند ابن الجوزي .

⁵ - الذيل على طبقات الختابة : ابن رجب : 1 / 411 ، 414 .

⁶ - الذيل على طبقات الختابة : 1 / 121 - تذكرة الحافظ : الذهبي ، 4 / 1342 .

⁷ - الذيل على طبقات الختابة : 1 / 116 .

بالعلوم حتى هام بها إلى درجة لا توصف قال عن نفسه : " إني رجل حبيب إلى العلم ممن زمن الطفولة فتشاغلت به ، ثم لم يحبب إليّ فن واحد منه بل فنونه كلها . ثم لا تقتصر همتي في فن واحد على بعضه ، بل تروم استقصائه " ¹ .

و ليس بإمكاننا أن نحيط بكل ما خلفه الرجل من تراث و ذلك لكثرتة و تنوعه و امتداده على كامل فترة حياته و حسبنا في ذلك قول ابن تيمية في هذا التراث و صاحبه :
" كان الشيخ أبو الفرج مفتيا كثير التصنيف و التأليف ، و له مصنفات في أمور كثيرة حتى أعدتها فرأيتها أكثر من ألف مصنف و رأيت بعد ذلك له ما لم أراه " ² .

و نتيجة هذه الإزاه حول ابن الجوزي و مؤلفاته كان ممن الطبيعي أن تتضارب الأقوال حول عدد مصنفاته فمثلا ابن رجب يذكر أنها تزيد على ثلاثمائة و أربعين مصنفا ³ و ابن كثير يقول : " إن له من المصنفات ما يضيق هذا المكان عن تعدادها ، و حصر أفرادها " ⁴ .

و يذكر ابن الجوزي في وصيته لابنه عددا من كتبه بقوله : " و قد علمت يا بني أنني قد صنفت مائة كتاب " ⁵ و لكن هذا ليس هو الرقم النهائي لمؤلفات ابن الجوزي لأنه ألف كتباً أخرى بعد هذه الوصية .

و نجده في مصنف آخر يتحدث عن مؤلفاته الفريدة في ميدان الدعوة و الوعظ فيقول : " و قد جمعت في الآت الوعظ كتباً لم أسبق إليّ مثلها من تفاسير القرآن المهدبة من الزلل ، السليمة من الأحاديث المصنوعة ، منها كتاب " زاد المسير في علم التفسير " و أكبر منه " المغني " و كتاب متوسط سمّيته بـ " إيضاح البيان في تفسير القرآن " و أما كتب الوعظ : فمنها الحدائق ، نقي النقل ، المديح ، تبصرة المبتدئ ، كنز المذكر و اللؤلؤ ، الملح الدهش و المهلب ، و صبا نجد ، نسيم الرياض ، المنتخب " ⁶ .

و نظرا لوجود هذا العدد الهائل من المؤلفات لدى ابن الجوزي فقد استقطب أنظار عدد من الباحثين في مجال التراث فراحوا ينقبون على آثار الرجل و مؤلفاته و قد بذلوا جهدا

¹ - صيد الخاطر : ص 37 .

² - النبل على مناقب الخاتمة : ص 415 / 1 .

³ - المصدر السابق : 415 / 1 .

⁴ - البداية و النهاية : ابن كثير ، 13 / 28 .

⁵ - فتنة الكبد : ص 44 .

⁶ - القصص و المذكرين : 371، 372 .

يشكرون عليه في هذا المجال .

و مع ذلك فقد ظهر لي أنه لا بد أن أبدي بعض الملاحظات عن أهم أسباب الاختلاف حول العدد الحقيقي لمؤلفات ابن الجوزي فتوصلت إلى أن أهمها يكمن في ما يلي : أن بعض كتبه المشهورة ذكرها المؤرخون باسمين مختلفين ونشرت باسمين مختلفين أيضا مثل كتاب الحث على طلب العلم فقد ذكر بعنوان آخر وهو الحث على حفظ العلم ونشر باسم رسالة في الحث على طلب العلم و ذكر كبار الحفاظ فصار نفس الكتاب بثلاثة عناوين مختلفة ، و كتابه لفتة الكبد إلى نصيحة الولد نشر باسم رسالة إلى ولدي ¹ .

و مما زاد الالتباس في الموضوع وجود كتب له نشرت بأسماء علماء آخرين مثل كتابه أخبار النساء ، فهو لابن الجوزي و لكنه نشر منسوباً لابن قيم الجوزية رغم أن أسلوب الكتاب و موضوعه لا يدل على أنه لابن القيم مطلقاً ، و الباحث لم يصدر هذا الحكم إلا بعد الاطلاع على الكتاب و ما جاء فيه من موضوعات ² .

و من ذلك أيضا ما أورده العلماء من روايات عن كتاب صيد الخاطر حيث يذكر ابن رجب الحنبلي في الذيل على الطبقات بأنه خمسة و ستون جزءاً ، رغم أن الكتاب لا يقع في طبعاته الحديثة إلا في جزء واحد ³ ، و كتابه الحقائق الذي طبع في ثلاثة أجزاء يقول عنه ابن رجب بأنه أربعة و ثلاثون جزءاً ⁴ .

و كذلك الأمر بالنسبة لكتابه ملئقط الحكايات و الذي يحتوي في مجمله على ست و خمسين حكاية ، هذا المؤلف البسيط يقول عنه ابن رجب بأنه ثلاثة عشر جزءاً ⁵ ، و كتابه سلوة الأحران بما روي عن ذوي العرفان صغير الحجم يقول عنه كذلك أنه عشرة مجلدات ⁶ و كتابه لياقوتة في الوعظ و الذي هو عبارة عن رسالة تقع في مائة صفحة يذكر ابن رجب أنها تقع في جزأين ⁷ ، و كتاب ابن الجوزي عن مناقب معروف الكرخي صغير الحجم أيضا لكن ابن رجب يقول عنه أنه جزءان ⁸ ، و نفس الأمر بالنسبة لكتاب رؤوس

¹ - انظر فصل آثار ابن الجوزي .

² انظر كذلك فصل آثار ابن الجوزي .

³ - الذيل على طبقات الحنابلة : ابن رجب ، 1 / 419 .

⁴ - المصدر السابق : 1 / 417 .

⁵ - نفس المصدر و الصفحة .

⁶ - للمصدر نفسه : 1 / 420 .

⁷ - الذيل على طبقات الحنابلة : ابن رجب ، 1 / 419 .

⁸ - المصدر السابق 1 / 418 .

القوارير و الثبات عند الممات¹.

ونجد كذلك شيئا من المبالغة في بعض الروايات التي تحدثت عن مقدرة ابن الجوزي العجيبة في الكتابة، كهذه الرواية التي نقلها تلميذه موفق عبد اللطيف² من أن " ابن الجوزي كان لا يضيع من زمانه شيئا ، يكتب في اليوم الواحد أربعة كراريس و يرتفع له كل سنة من كتابته ما بين خمسين مجلدا إلى ستين "³.

و لكنه و رغم كل ما قيل حول مؤلفات ابن الجوزي ، فإن هذا الأمر لا ينقص بأي حال من الأحوال من القيمة العلمية لهذه المؤلفات ، و ذلك لما كان لها من الصدى الواسع بين طلبة العلم و العلماء في عصره و بعد عصره. و هذا بشهادة الشيخ ابن ناصر أحد أكبر شيوخه له بعلو كعبه في هذا المجال .

و نظرا لأهمية هذه الشهادة في هذا الموضوع الذي نحن بصدده تعمدت أن أثبتتها كاملة حتى نستطيع تقييم الرجل و وضعه في منزلته المناسبة و قد نقل ابن رجب هذه الشهادة بقوله : " لما صنّف أبو الفرج كتابه المسمى بـ " التلخيص " و له إذ ذاك نحو ثلاثين من عمره ، عرضه على ابن ناصر ، فكتب عليه : قرأ عليّ هذا الكتاب جامعاً للشيخ الإمام العالم الزاهد أبو الفرج ، فوجدته قد أجاد تصنيفه ، و أحسن تأليفه ، و جمعه و لم يسبق إلى مثل هذا الجمع ؛ فقد طالع كتبا كثيرة ، و أخذ أحسن ما فيها من الياقوت و اللؤلؤ ، فنظمه عقداً زان به التصانيف ، التي تجمعت من التواريخ ، و معرفة الصحابة و أسمائهم و كنانهم و أعمارهم ، و أبان عن فهم و علم غزير مع اختصار يحض على الحفظ و العمل بالعلم ففعله الله بعلمه ، و نفع به ، و بلغه غاية العمر ؛ لينفع المسلمين ، و ينصر السنة و أهلها و يدحض البدع و حزبها "⁴.

و لقد بقي الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - سائرا على نهج العلماء الربانيين و الدعاة المخلصين يعظ و ينشر العلم و يصنف حتى آخر أيام عمره الذي جاوز الثمانين " فقد بلغ نكره مبلغ الليل و سارت بتصانيفه الركبان إلى أقطار الأرض و انتفع الناس بها لتفاعا بيّنا "⁵.

¹ الدبل على طبقات الخانداه : 1 / 419 ، 420 .

² انظر محث شويته و ١٠٧٠ .

³ الدبل على طبقات الخانداه : ابن رجب ، 1 / 412 .

⁴ الصبر السابق : 1 / 415 .

⁵ نفس الصبر السابق : 1 / 412 . ا قد عرضت بالفصل لمؤلفات ابن الجوزي في فصل آثار ابن الجوزي .

ثانياً التعليم

يعتبر التعليم لدى القائمين بأمر الدعوة من أقوى الوسائل الدعوية إيجابية إذ بواسطته تبرز مقدره الداعية و يتمكن من جذب المدعويين إليه ، و تربيتهم و نشر روح الإسلام و آدابهِ و تشريعاته و تعريفهم بحدود الله ، فلا يكتفي الداعية بترديد حقيقة أن الإسلام صالح لكل زمان و مكان¹ ، و لا يتبع ذلك بعمل منهجي دقيق و منظم ، لأن المعلم الناجح و الداعية الحصيف لا ينظر إلى صورة العلم فقط بقدر ما ينظر إلى ما يصاحبه من حركة و سلوك .

و التعليم من أهم الضرورات في الإسلام و هو فريضة على كل فرد ، حيث يقول سبحانه : (و ما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)² ، كما نهى سبحانه عن كتمان العلم فقال : (إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات و الهدى من بعد ما بيناه للناس)³ ، و مما ورد عن الرسول - صلى الله عليه و سلم - في باب العلم قوله : " من سئل عن علم نافع فكتمه جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار " ⁴ .

و في هذا السياق يتحدث ابن الجوزي عن العلماء بقوله : " أقرب الخلق من الله العلماء ، و ليس العلم بمجرد صورته هو النافع بل معناه ، و إنما ينال معناه من تعلمه للعمل به . فكلما دله على فضل اجتهد في نيله و كلما نهاه عن نقص بالغ في تجنبه ... و الذي لا يعمل بالعلم لا يطلعه العلم على غوره و لا يكشف له سره " ⁵ .

و يذهب ابن الجوزي إلى أبعد من ذلك، فيعتبر أن العلم و التعليم هما أعظم شيء في الوجود بقوله : " و لا خصيصة أشرف من العلم ، بزيادته صار آدم مسجوداً له و بنقصانه صارت

¹ - أصول الدعوة : عبد الكريم زيدان : 443

² - التوبة : 122

³ - البقرة : 159

⁴ - كنز العمال في السنن والأقوال والأفعال : علاء الدين بن حسام الدين الهندي البرهان فوزي ، مؤسسة الرسالة بيروت

1413 • 1993م 216/10 رقم 29144 وقال رواه الطبراني والخطيب وابن عساكر عن ابن عباس

صيد الخاطر : 157 ، 158

• جهود ابن الجوزي التعليمية :

لقد كان التعليم من بين الوسائل التي استخدمها ابن الجوزي في دعوته ، حيث كانت له ممارسات عملية و آراء و توجيهات في ميدان التعليم استطاع بواسطتها تبليغ دعوته و تلقين علمه إلى عدد كبير من تلاميذه و مريديه الذين حملوا لواء العلم و الدعوة من بعده . و بجانب كونه يعتبر إمام عصره في فن الوعظ بلا منازع ، فإنه كان مفتياً ، و أستاذاً مبرزاً يدرس الفقه و يصنّف فيه ² . كما كان مدرساً قديراً و أستاذاً ماهراً في التفسير و الحديث و الفقه و التاريخ ، حيث تولى التدريس بنفسه في العديد من المدارس ببغداد و في سنة 570 هـ بنى ابن الجوزي لنفسه مدرسة و صار عميداً لها ، و ألقى في أول أيام تدريسه بها أربعة عشر درساً في شتى فنون العلم ، كما أسس فيها مكتبة كبيرة و وقف عليها كتبه التي صنّفها ، و سلّمت إليه مدرسة الشيخ عبد القادر لإدارتها و التدريس فيها ³ زيادة على هذا فقد عين الخليفة المستنضيء الشيخ للقيام بمهمة التدريس بجامعة القصر ⁴ .

لقد كان ابن الجوزي داعية كلة حركة و نشاط لا يعرف الكسل و الفتور إليه سبيلاً ناهيك عن شغفه بحب العلم و همته العالية في طلبه منذ الصبا يقول : إني رجل حبب إليّ العلم من زمن الطفولة فتشأغلت به ثم لم يحبب إليّ فن واحد منه ، بل فنونه كلّها ثم لا تقتصر همّتي في فن واحد على بعضه ، بل أروم استقصاءه و الزمان لا يسع ، و العمر أضيق ، و الشوق يقوى و العجز يظهر فيبقى و قسوف بعض المطلوبات حسرات ⁵ و يضرب لذلك مثلاً بهمة العلماء القدامى و كيف أنهم أفنوا أعمارهم في طلب العلم و التصنيف ، إلا أن من جاء بعدهم من التلاميذ ضعفت همهم فصاروا يطلبون المختصرات فيقول : " كانت همم القدماء من العلماء عليّة ، تدل عليها تصانيفهم ، التي هي زبدة أعمارهم إلا أن أكثر تصانيفهم دثرت ، لأن همم الطلاب ضعفت فصاروا يطلبون المختصرات و لا يشطون للمطولات " ⁶ .

¹ - سعد الخاطر : ص 167 .

² - النبل على لطيف الحنابلة : ص 115 / 1 .

³ - المصدر السابق : ص 115 / 1 ، ص 100 .

⁴ - نفس المصدر : ص 115 / 1 .

⁵ - سعد الخاطر : ص 37 ، و انظر شرح هذه المسألة في مجلّات مؤهلات الداعية و حظ ابن الجوزي منها .

⁶ - المصدر السابق : ص 440 .

هكذا كانت حياة ابن الجوزي التعليمية و الدعوية في ميدانها العملي التطبيقي أما من الناحية النظرية فقد تحدث ابن الجوزي عن هذا الجانب أيضا و لم يهمله ، حيث تكلم كثيرا عن العلم و التعليم و أعطاه عناية خاصة إذ جعله في الدرجة الثانية بعد التصنيف من أجل ذلك وجدناه يعتبر أن من أهم أنوات التواصل بين الأجيال التدوين و التعليم فيقول : " و من أحب ألا ينقطع عمله بعد موته فليُنشر العلم بالتدوين و التعليم " ¹ .

و لعل هذا هو السر الذي جعل ابن الجوزي يوقف نفسه خدمة للعلم و التعليم و عقد لمجلس التعليمية و الدعوية في العديد من الأماكن ببغداد ، فكانت الخلائق تتزاحم عليها من كل أنحاء بغداد ، و قد تحدث عنها بقوله : " و اتصلت مجالسي ؛ لكثرة اشتغالي بالعلم " ² . و يقول عنه ابن رجب : " و اشتهر أمر الشيخ أبو الفرج من ذلك الوقت " ³ ، و بارك الله له في عمره و عمله ، حيث روي الكثير و روي عنه الكثير ، و استمع الناس إليه و انتفعوا بعلمه و مجالسه أكثر من أربعين عاما ⁴ .

أما الوسائل التعليمية التي يرشدنا إليها ابن الجوزي و التي مارسها بنفسه ، فهي تلك الوسائل التي كانت متوفرة في عصره ، و أولها طريقة الحفظ و الاستظهار يقول عنها : فينبغي أن يحكم الحفظ و يكثر التكرار ليثبت قاعدة الحفظ " ⁵ .

و الظاهر من سبب تركيز ابن الجوزي على هذه الطريقة هو انتشارها في ذلك العصر ، مع العلم أن طريقة الحفظ و الاستظهار زيادة على صعوبتها على النفس فإنها تتطلب صفاء الذهن و قوة الذاكرة ، و ابن الجوزي يقر هذا الأمر و يؤكد بقوله : " ما رأيت أصعب على نفس من الحفظ للعلم و التكرار له خصوصا تكرر ما ليس لها في تكراره و حفظه حظ " ⁶ . و ذلك لأن الإكثار من الحفظ يؤدي بالمتعلم إلى الملل و الكلال و يقلل من قوة التفكير و الاستنباط لديه .

و لما اقترح ابن الجوزي هذه الطريقة الفعالة في التعليم فإنه وضع لها جملة من الضوابط و الشروط التي رآها تساعد في تفعيلها حتى تعطى نتائجها المرجوة و هذه

¹ التذكرة في ثمرة علم : ص 12 .

² النبل على طبقات الخنابلة : ص 402 / 1 .

³ للمصنف السابق : ص 402 / 1 .

⁴ النبل على الروضتين : لأبي شامة : ص 22 — النبل على طبقات الخنابلة : ص 412 / 1 .

⁵ صيد الخاطر : ص 262 .

⁶ المصدر السابق : ص 261، 262 .

الضوابط تشكل في مجملها خلاصة آراء ابن الجوزي في مجال التربية و التعليم ، و يمكننا تلخيص هذه القواعد و ترتيبها على هذا النحو :

1- استغلال فترة الشباب في الحفظ ، و ذلك لكون المعلومات تكون أكثر ثباتا في ذهن المتعلم في هذه الفترة الخصبة من حياة الإنسان ، و كذلك لقلة الشواغل و خلو القلب منها و لأن المحفوظ يستقر استقرارا لا يزول بعدها مطلقا ، يقول ابن الجوزي : " و للحفظ أوقات من العمر فأفضلها الصبا و ما يقاربه من أوقات الزمان " ¹

2- حث ابن الجوزي المتعلم على ضرورة اهتمامه بصحته حتى لا يتأثر محفوظه و ينشط ذهنه ، و يسهل عليه التحصيل ، فقال : " و إصلاح المزاج من الأصول العظيمة فإن للمأكولات أثرا في الحفظ " ²

3- عند الاشتغال بالحفظ عند انشغال القلب ، و قلق النفس لأن سوء الحالة النفسية و تعكر المزاج لا يساعد على التعلم و الحفظ ، قال في ذلك : " و متى رأى نفسه مشغول القلب ترك التحفظ " ³ ، كما رأى أنه من غير النافع للمتعلم أن يكابر على نفسه زيادة على اللزوم بأن يرغبها على الحفظ و هي لا ترغب فيه فيقول : " و من لم يجد نشاطا للحفظ فليتركه فإن مكابرة النفس لا تصاح " ⁴

4- أما عن مكان الحفظ و زمانه فابن الجوزي يرى ضرورة التزام أوقات معينة و أمكنة مختارة تكون مساعدة للمتعلم على الحفظ و التركيز يقول : " و أفضلها إعادة الأسفار و أنصاف النهار ، و الغدوات خير من العشيات ، و أوقات الجوع خير من أوقات الشبع " ⁵ ، و مقابل ذلك يرى ضرورة الخلوة للمتعلم و ابتعاده عن كل ما يشغله عن التركيز أثناء الحفظ ، كالأماكن الخضراء ، و شواطئ الأنهار فكل ذلك يساعده على جمع همته و تجدد عزيمته فقال : " و لا يحمد الحفظ بحضرة خضرة و على شاطئ نهر ، لأن ذلك يلهي ، و الأماكن العالية للحفظ خير من السوافل و الخلوة أصل و جمع الهم أصل الأصول " ⁶

1- سيد الخاطر : ص 177 ، 202 .

2- المصدر السابق : ص 178 .

3- البحث على حفظ العلم و ذكر كبار الحفاظ : ص 19 .

4- سيد الخاطر : ص 178 .

5- المصدر السابق : ص 177 .

6- نفس المصدر : 178 .

6 - عدم تحميل العقل فوق طاقته فيصبح ليس للمتعلم قدرة على الفهم و الاستيعاب و على هذا الأساس وجدنا ابن الجوزي قد تفتن لهذا الأمر فراح يحذر من خطورته بقوله : " و من العاطم تحميل القلب حفظ الكثير أو الحفظ من فنون شتى ، فإن القلب جارحة من الجوارح ، و كما ان من الناس من يحمل المائة رطل و منهم من يعجز عن عشرين رطلا فكذلك القلوب . فليأخذ الإنسان على قدر قوته و دونها ، فإنه إذا استنفذها في وقت ضاعت منه أوقات ¹ ، و تجنبنا لذلك دعا ابن الجوزي إلى تقسيم المحفوظ و هذا نظر لأن التمرين المتصل قد يؤدي إلى تعب المتعلم و تكاسله عن طلب العلم فقال : " و الصواب أن يأخذ قدر ما يطيق و يعيده في وقتين من النهار و الليل " ² ، و هذا لكون الأصل في الحفظ المفيد هو المدائمة و لأن " تآليل المحفوظ مع الدوام أصل عظيم " ³ .

7 - إتقان المحفوظ قبل الانتقال لغيره ، و هذا مما يساعد على ترتيب المحفوظ و إتقانه زيادة على اتباع منهجية معينة في الحفظ قال ابن الجوزي في ذلك : " و أن لا يشرع في فن حتى يحكم ما قبله " ⁴ .

8 - حسن انتقاء المحفوظ من العلوم ، و خاصة تلك التي توصله بالله - عز و جل - حيث لا يحفظ إلا ما يستعمل الحفظ و التعمد من جواهر العلوم و كنوزها ، و ذلك حتى لا يبئد المتعلم قدراته و وقته فيما لا يفيد يقول ابن الجوزي : " ثم لينظر ما يحفظ من العلم فإن العمر عزيز و العلم عزيز ، و إن أقواما يصرفون الزمان إلى حفظ ما غيره أولى منه و إن كان كل العلوم حسنا ، و لكن الأولى تقديم الأهم و الأفضل " ⁵ .

9 - ضرورة اتخاذ يوم من أيام الأسبوع راحة من الحفظ ، حتى تستريح النفس و يثبت المحفوظ ، و ذلك مثل البناء الذي يبني جزءا بعد جزء حتى يتماسك بعضه مع بعض ، يقول ابن الجوزي : " و ترفيه النفس من الإعادة يوما في الأسبوع ليثبت المحفوظ و تأخذ النفس قوة كالبنيان يترك أياما حتى يستقر ثم يبني عليه " ⁶ .

10 - و في آخر المطاف يرى ابن الجوزي أن من أهمل الحفظ أيام طلب العلم فسندم على

¹ - صيد الخاطر : ص 177 .

² - المصدر السابق : ص 177 .

³ - نفس المصدر : ص 178 .

⁴ - نفس المصدر و الصفحة .

⁵ - المصدر نفسه : ص 178 .

⁶ - نفس المصدر و الصفحة .

ذلك حيث لا ينفعه النديم فقال : " و سيندم من لم يحفظ ندم الكسعي وقت الحاجة إلى النظر و الفتوى " ¹ .

و الملاحظ في جملة هذه القواعد التي ذكرها ابن الجوزي يستنتج عمق تجربة الرجل و صدقه من خلال جملة الأفكار البناءة التي ركز عليها كالتحذير على ضرورة مراعاة الملاءمة المحفوظة من حيث الكم و الكيف و كذلك حسن اختيار الأوقات المناسبة للحفظ ، و كذا التأكيد من ملائمة المحفوظ لسن المتعلم و اختيار الأماكن التي تتح فيها عملية الحفظ ، مع الابتعاد عن كل ما يمكنه أن يشتت ذهن المتعلم أثناء حفظه ، و كذلك اختيار يوم من أيام الأسبوع ليبرح المتعلم فيه ذهنه من عملية الحفظ حتى لا يشعر بالملل فيترك العلم و التعليم . و بعد هذا يحدثنا ابن الجوزي عن وسيلة أخرى من الوسائل التعليمية ألا و هي طريقة الإلقاء و المشافهة ، و هي ما نطلق عليه اليوم اسم المحاضرة .

و على الرغم من أن ابن الجوزي كانت له اليد الطولى في حسن استخدامه لهذه الطريقة في تعليمه و دعوته ، إلا أنه كان يرى أن تصنيف الكتب أولى ، و ذلك لأن المحاضرة بقتصر نفعها على من يحضر حلقة الشيخ في المدرسة أو الجامع ، في حين أن الكتاب قد تنتفع به أجيال متتالية من طلبة العلم و العلماء على حد سواء ² .

و قد تحدث ابن الجوزي عن العديد من الدروس التي ألقاها في أماكن متعددة في مساجد بغداد و مدارسها ، و التي كان يحضرها أتباعه سواء كانوا من طلبة العلم أم من عامة الناس الذين يجلسون إليه ليستفيدوا من علمه و دعوته ³ .

و إذا كان من شروط استخدام الأستاذ للأساليب التعليمية استخداما ناجحا هو أن يجعل المادة التي يعلمها لطلبته ليست على مستوى عال من الجاذبية فقط ، بل و ذات أهمية و وزن بالنسبة له أيضا ، فقد أجاد ابن الجوزي و أحسن استخدام هذا الشرط و دعا المعلمين و الأساتذة إلى الأخذ به و ضرب الكثير من الأمثلة في هذا المجال ، منها قوله في توجيه طلبته إلى تعلم الفقه و إثارة حوافزهم لذلك فقال : " أعظم دليل على فضيلة الشيء النظر إلى ثمرته . و من تأمل ثمرة الفقه علم أنه أفضل العلوم . فإن أرباب المذاهب فاقوا بالفقه على الخلاق أبدا ، و إن كان في زمن أحدهم من هو أعلم منه بالقرآن أو بالحديث أو اللغة . و اعتبر هذا بأهل زماننا فإنك ترى الشاب يعرف مسائل الخلاف الظاهرة فيستغنى

¹ عبد الحافظ : ص 262 .

² و قد سبق الإشارة إلى هذا الأمر بالتفصيل في النقطة السابقة .

³ انظر تفصيل المسألة الدعوية و أثرها في فصل أصناف المدعوين ، في مبحث دعوة ابن الجوزي للعوام .

و يعرف حكم الله تعالى في الحوادث ما لا يعرفه النحرير من باقى العلماء¹ .
و مما ذكرناه سابقا يتجلى لنا أن ابن الجوزي استطاع استخدام التعليم كوسيلة
تربوية و دعوية لوقت النجاح و القبول فى أوساط الطلبة خصوصا و المدعويين عموما
و ذلك لما كان لمجالسه العلمية و الدعوية من نفع و خير عليهم ، أضف إلى ذلك تلك الآراء
التربوية و التعاليم التي أبداهما فى ميدان التعليم و التي تدل على عظيم تجربته و رسوخ
قدمه فى هذا المجال الذي بنا فيه أقرانه و لم ينازعه فيه إلا القليل ، و الدليل على نجاح
تجربته هو تأثيرها فى الأقطاب المدعويين و المرشدين الذين كانوا يغشون مجالسه العلمية
و الدعوية ، و عشرات التلامذة الذين نشروا علمه و فكره و دعوته من بعده .

¹ سيد الخاطر : ص 102

ثالثاً

الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر

من الوسائل الدعوية البارزة في منهج ابن الجوزي الدعوي الإصلاحى اتخاذ الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر وسيلة من وسائل الإصلاح و التربية لجماهير المدعويين .
و ذلك لوجود علاقة وثيقة بين الدعوة و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، إذ لا يمكن على الباحث أو الدارس أن يفصل بينهما لشدة ترابطهما، من حيث الأمر بهما و موضوعهما و الهدف منهما ، و حكمهما¹.

و قد تطرق رحمه الله الحديث عن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر من خلال تفسيره لآيات القرآن الكريم فى قوله تعالى : (يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر)² يقول : " قال ابن عباس - رضى الله عنه - : المعروف مكارم الأخلاق و صلة الأرحام و المنكر: عبادة الأوثان و قطع الأرحام. و قال مقاتل: المعروف :الإيمان، و المنكر الشرك"³.
و فى قوله - تعالى - : (و المؤمنون و المؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر)⁴ ، قال : (و المؤمنون و المؤمنات بعضهم أولياء بعض) أى بعضهم يوالى بعضاً ، فهم يد واحدة يأمرون ، بالإيمان ، و ينهون عن الكفر "⁵. و فى تفسيره لقوله تعالى : (الأمر بالمعروف و النّاهون عن المنكر و الحافظون لحدود الله و بشر المؤمنين)⁶ ، قال : " الأمر بالمعروف : و هو طاعة الله ، و النّاهون عن المنكر: وهو معصية الله "⁷. و فسر قوله تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر)⁸ بقوله: " و فى هذه الآية للعلماء ثلاثة أقوال : أحدهما : أن الإنسان إذا أدى الصلاة كما ينبغى

¹ - منهج ابن القيم فى الدعوة إلى الله تعالى : أحمد بن عبد العزيز الخلف ، 2 / 595 ، و هناك من جمع بينهما فى تعريفه للدعوة ،

انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية 15 / 161 ، و على محفوظ فى هداية المرشدين دار الاعتصام ط 1 ، د ت ص 17 .

² - الأعراف : 157 .

³ - زاد المسير : 3 / 184 .

⁴ - التوبة : 71 .

⁵ - زاد المسير : 3 / 318 .

⁶ - التوبة ، 112 .

⁷ - زاد المسير : 3 / 344 .

⁸ - العنكبوت : 49 .

و تدبر ما يتلو فيها ، نهته عن الفحشاء و المنكر هذا مقتضاها و موجبها .
و الثاني : أنها تنهاه ما دام فيها . و الثالث : أن المعنى ينبغي أن تنهى الصلاة عن الفحشاء
و المنكر " ¹ .

و الواضح من خلال تفسير ابن الجوزي لهذه الآيات القرآنية أنه تطرق للأمر
بالمعروف و النهي عن المنكر بوجه عام فالمعروف هو كل ما أمر الشارع به من
الطاعات مطلقا ، و المنكر هو ما كان عكس ذلك من المعاصي و الآثام .
- حكم الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر :

و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر من الواجبات الشرعية على كل مسلم بقدر
استطاعته ، و قد انقسم العلماء حول كونه واجبا عينيا أو هو من فروض الكفايات إلى
قولين :

* - الرأي الأول :

ذهب جمهور العلماء إلى أن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر من فروض الكفاية
على أمة المسلمين ، و ليس فرضا مؤكدا على كل مسلم ، و استدلل هؤلاء بقوله تعالى :
(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و أولئك
هم المفلحون) ² ، فالمطلوب شرعا أن تقوم أمة من المسلمين بهذا الواجب و ليس كلهم .
و أيد هذا الرأي الإمام القرطبي حيث فسر الآية السابقة بقوله : " و معناه أن الأمرين يجب
أن يكونوا علماء ، و ليس كل الناس علماء ، و قيل لبيان الجنس ، و المعنى لتكونوا كلكم
كذلك ، قلت : القول الأول أصح ؛ فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر
فرض على الكفاية " ³ .

أما الإمام ابن كثير - رحمه الله - فقال في الآية المذكورة : " يقول تعالى : و لتكن
منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير و الأمر بالمعروف و النهي عن
المنكر .. و المقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشئ ، و إن
كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه " ⁴

* - الرأي الثاني :

¹ - زاد المسير : 6 / 133 .

² - آل عمران : 104 .

³ - تفسير القرطبي : للإمام القرطبي ، مج 2 ، 4 / 165 ، و قد فصل الموضوع كذلك في مج 2 ، 4 / 46 و ما بعدها .

⁴ - تفسير القرآن العظيم : ابن كثير ، 2 / 86 .

و ذهب إليه بعض العلماء؛ منهم الإمام ابن حزم الظاهري - رحمه الله - الذي كان يقول بوجوب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر على كل مسلم ، حيث قال : " انفقت الأمة كلها على وجوب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر بلا خلاف من أحد منها " ¹ لذلك فقد ذهب إلى أنه فرض عين على كل مسلم حسب قدرته عندما قال : " الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فرض على كل مسلم ، إن قدر فيده ، و إن لم يقدر فبلسانه ، و إن لم يقدر فبقلبه و لأبده ، و ذلك أضعف الإيمان ، فإن لم يفعل فلا إيمان له " ² .

و قال الحصان في أحكام القرآن : " أكد الله تعالى فرض الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر في مواضع من كتابه ، و بيّنه رسول الله - صلى الله عليه و سلم - في أخبار متواترة عنه فيه ، و أجمع السلف و فقهاء الأمصار على وجوبه " ³ .

و ممن أكد هذا الرأي و سائده الإمام الشوكاني في تفسيره حيث قال : " وجوبه ثابت بالكتاب و السنة ، و هو من أعظم واجبات الشريعة ، و أصل عظيم من أصولها ، و ركن مشيد من أركانها ، و به يكمل نظامها و يرتفع سنامها " ⁴ .

و حاصل القول من كلا الرأيين أن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر يعد - و خاصة في عصرنا هذا - من الواجبات الأساسية على كل مسلم حسب قدرته و استطاعته ، و أنه يتعين على المسلم القادر الذي لم يقم به غيره ، إذا رأى المنكر و لم يره سواه و هو قادر على إزالته فيصبح فرض عين عليه ⁵ .

* - رأي ابن الجوزي :

جاء عن ابن الجوزي في تفسيره قوله تعالى : (و لتكون منكم أمة يأمرون بالمعروف ...) ⁶ قوله : " قال الزجاج : معنى الكلام و تكونوا كلّم أمة تدعون إلى الخير و تأمرون بالمعروف .. و يدل على أن الكلّ أمروا بالمعروف ، و النهي عن المنكر قوله

¹ - الفصل في الملل و الأهل و النحل : ابن حزم ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، عبد الرحمن عميرة ، دار الخليل بيروت ، لبنان ، 1405 هـ ، 1985 م ، 10 / 6 .

² الخلفى بالأثار : علي بن أحمد ، من سعد بن حزم الأندلسي ، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري ، دار الكتب العلمية بيروت 1408 هـ ، 1988 م ، 123 / 8 .

³ أحكام القرآن : لأبي بكر الحصان ، دار الفكر للطباعة و النشر ، 2 / 486 .

⁴ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير : محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، ضبطه و صححه أحمد عبد السلام عطا دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 1 ، 1415 هـ ، 1994 م ، 1 / 465 .

⁵ منهج ابن القيم في الدعوة إلى الله تعالى : أحمد بن عبد العزيز الخلف ، 2 / 592 .

⁶ آل عمران : 104

— تعالى — : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر)¹
قال : و يجوز أن يكون أمر منهم فرقة ، لأن الدعوة ينبغي أن يكونوا علماء بما يدعون إليه .
و ليس الخلق كلهم علماء ينوب بعض الناس فيه عن بعض ، كالجهد فأما الخير ففيه قولان
: أحدهما : أنه الإسلام ، ، و الثاني : العمل بطاعة الله ، و أما المعروف فهو ما يعرف كل
عقل صوابه ، و ضده المنكر² .

و من خلال تفسير الآية نرى أن ابن الجوزي يميل إلى رأي القائلين بالوجوب
الكفائي ، و ما أكد لنا ذلك أقواله في بعض مؤلفاته الأخرى منها قوله : " و اعلم أن الأمر
بالمعروف و النهي عن المنكر واجب على الخلق " ³ ، لكنه و مع هذا الوجوب فإنه يقيده
بشروط و هو إذا علم من يقوم بالإنكار حصول المقصود ، و لم يقم به غيره فقال : " إنما
يلزم الإنكار إذا رجا حصوله " ⁴ .

و نتيجة لأهمية الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فإن ابن الجوزي يرى بأن له
مكانة عظيمة و أنه لم يزل في كل عصر من العصور مهمة الرسل مع أممهم يقول موضحاً
ذلك : " اعلموا أن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر أصل الدين ، فإنه شغل الأنبياء و قد
خلفهم فيه خلفاؤهم ، و لولاه شاع الجهل و بطل العلم " ⁵ ، و يؤيد العلامة الشيخ رشيد رضا
ابن الجوزي في رأيه هذا قائلاً : " و قد جرت سنة الأنبياء و المرسلين و السلف الصالحين
على الدعوة إلى الخير و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و إن كان محفوفاً بالمكآره
و المخاوف و كم قتل في سبيل ذلك منهم من نبي و صديق فكانوا أفضل الشهداء " ⁶ .
و للنهوض بمهمة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر وجدت الأمة الإسلامية ، إذ لا يكفي
أن تعيش حياة صالحة لنفسها دون غيرها ، بل يجب عليها أن تعمل لتوجيه أفراد البشر
و هدايتهم و قيادتهم نحو الخير و الصلاح حتى تكتسب صفة الخيرية التي وصفها بها الخالق
سبحانه و تعالى .

من أجل ذلك راح ابن الجوزي يذكر بأن سبب تدهور المجتمع الإسلامي و سقوط

¹ آل عمران : 110 .

² زاد المسير في علم التفسير : 2 / 14 .

³ البصرة : 2 / 328 .

⁴ المصادر السابق : 1 / 179 .

⁵ نفس المصدر : 2 / 327 .

⁶ - تفسير المنكر : السيد محمد و شهيد رضا ، 4 / 32 .

أفراده في متاهة المعاصي و الموبقات ما هو إلا بسبب التخلي عن الأمر بالمعروف و السكوت عن إنكار المنكر فقال : " و اعلم أنه قد اضمحل في هذا الزمان الأمر بالمعروف حتى صار المعروف منكرا و المنكر معروفا ، و هذا زمن قوله صلى الله عليه و سلم : بدأ الإسلام غريبا و سيعود غريبا كما بدأ " ¹ .

و إذا كان هذا هو الحال في عصر ابن الجوزي ، و قد وجد أمثاله من العلماء ممن يأمر بالمعروف و يتصدى لإنكار المنكر ، فماذا يمكننا قوله في هذا الزمان و قد تغيرت الأحوال و قل فيه الأمرون بالمعروف و الناهون عن المنكر .

• آداب الأمر بالمعروف و خطواته :

مادام الأمر بالمعروف و الناهي عن المنكر داعية إلى الله تعالى ، فقد وجب عليه التأدب بجملة من الآداب و الأخلاق الإسلامية مما اتفق عليه العلماء و العقلاء و ذلك لكونه أسوة يقتدى به في القول و العمل ، و قد أشار ابن الجوزي إلى أهم هذه الآداب و كان يروى بأنها من أساسيات الدعوة في باب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و سأذكرها على هذا النحو :

1- الصبر على السب و الشتم و الأذى قال ابن الجوزي : " فأما السب و الشتم فليس بعذر في السكوت لأن الأمر بالمعروف يلقي ذلك في الغالب " ² ، و قد وافقه ابن تيمية - رحمه الله - و سلك منهجه قائلا : " الصبر على أذى الخلق عند الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر إن لم يستعمل لزم أحد أمرين إما تعطيل الأمر و النهي و إما حصول فتنة و مفسدة أعظم من مفسدة ترك الأمر و النهي أو مثلها أو قريب منها و كلاهما معصية و فساد " ³ .

من أجل ذلك كان من أولويات فقه الدعوة في إنكار المنكر استخدام الداعية أسلوب المحاسنة و رد السيئة بالحسنة ، و هو الأسلوب الذي اتبعه أصحاب الرسالات مع أقوامهم و قد أكد القرآن ذلك بقوله : (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) ⁴ .

2- قطع الطمع من الناس : يرى ابن الجوزي أنه من اللازم على الأمر بالمعروف أن يقطع طمعه من الناس مطلقا حتى يستطيع القيام بواجب إنكار المنكر على أحسن وجه يقول : " و من لم يقطع الطمع من الناس من شينين لم يقدر على الإنكار :

¹ - البصرة : 2 / 328 ، و الحديث رواه مسلم : 1 / 130 ، في كتاب الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا ، رقم : 145 .

² - الآداب الشرعية و المنح المرعية : ابن مفلح الحنبلي ، 1 / 176 .

³ - المستدرس السابق : 1 / 176 .

⁴ - فصلت 30

أحدهما : من لطف ينالونه به ، و الثاني : من رضاهم عنه و ثنائهم عليه ¹ .
 و الذي يمكننا استخلاصه من كلام ابن الجوزي هذا أنه على الأمر بالمعروف
 الابتعاد عن كل ما يذل نفسه أو يطمّعه فيما عند الناس من متاع ، أو أن يطمع الناس في
 شخصه و هيئته ، عن طريق حسن ثنائهم عليه مما يدخل الغرور على نفسه ، فيحس بأنه
 يجب أن يكون في منزلة أرفع من التي هو فيها ، فتحدثه بما ليس له لذلك حذر ابن الجوزي
 من يأمر بالمعروف من مغبة الوقوع في هذا الخطأ الجسيم .

١ - عدم التجسس : يرى ابن الجوزي أن من آداب الأمر بالمعروف أن لا يتجسس على
 أمر المنكر و مرتكبيه ، بل عليه التثبت بالبيّنة و الدليل القاطع على وجود المنكر يقول :
 " من تستر بالمعصية في داره و أغلق بابه لم يجز أن يتجسس عليه إلا أن يظهر ما يعرفه
 كأصوات المزامير و العيذان فلمن سمع ذلك أن يدخل و يكسر الملاهي و إن فاحت روائح
 الخمر فالأظهر جواز الإنكار ² .

إن فمن رأي ابن الجوزي أن لا يسترق الأمر بالمعروف السمع على دار غيره
 لسمع صوت الأوتار ، و لا يتعرض للشّم ليدرك رائحة الخمر ، و لا يمس ما قد ستر بثوب
 ليعرف شكل المزمار ، و لا أن يستخبر جيرانه ليخبر بما جرى ³ .

و يستدل ابن الجوزي على وجاهة رأيه بما يرويه عن المفسرين قائلًا : " قال المفسترون :
 و التجسس البحث عن عيب المسلمين و عوراتهم ... لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه
 يُطلع عليه إذا ستره الله - عز و جل - ، قيل لابن مسعود - رضي الله عنه - هذا الوليد
 ابن عقبة تقطر لحيته خمرا ، قال : إنا نهينا عن التجسس فإن يظهر لنا شيء نأخذ به ⁴ .

٤ - عدم إجابة دعوة الفاسق و المبتدع و الظالم : و ذلك لأن الأمر بالمعروف إن استجاب
 لهؤلاء سقط من أعين العامة ، أضف إلى ذلك أن حضوره يذل على الرضى بما
 يصنع هؤلاء الفسقة في مجالسهم و لو لم يصرح بذلك ، فالساكت على الحق شيطان أخوس
 يقول ابن الجوزي في ذلك : " إن كان الطعام حراما فليمتنع من الإجابة ، و كذلك إذا كان
 منكرا ، و كذلك إذا كان الداعي ظالما أو فاسقا أو مبتدعا أو مفاخرًا بدعوته ⁵ ، و نكر في

¹ الأداب الشرعية و النجحة المراجعة : ص 216 / 1 .

² - للمصدر السابق : 1 / 295 ، 296 .

³ - نفس المصدر : 1 / 320 .

⁴ - للمصدر نفسه : 1 / 296 .

⁵ نفس المصدر : 1 / 732 .

موضع آخر أنه " إذا كان في الضيافة مبتدع يتكلم ببدعته لم يجز الحضور معه إلا لمن يقدم على الرد عليه ، و إن لم يتكلم المبتدع جاز الحضور معه مع إظهار الكراهة له والإعراض عنه. و إن كان هناك مضحك بالفحش و الكذب لم يجز الحضور و يجب الإنكار فإن كان مع ذلك مزح لا كذب فيه و لا فحش أبيع ما يقل من ذلك " ¹.

5- التلطف في إنكار المنكر : و التلطف و الرفق من أهم خطوات الداعية في إنكار المنكر لذلك وجدنا ابن الجوزي يشير إلى ذلك في قوله : " و ينبغي للأمر بالمعروف أن يتلطف ثم يستشهد بالآية التي أوصى الله بها النبيين الكريمين موسى و هارون عندما بعثهما لمناظرة فرعون فقال لهما : (فقولا له قولاً لينا) ² ، و إذا كان اللين مطلوب مع فرعون و هو كافر فما بالك إذا كان إنكار المنكر مع قوم مؤمنين ، فإن التلطف معهم يصير واجبا ، و قد أشار الإمام أحمد - رحمه الله - إلى هذا المعنى بقوله : " الناس يحتاجون إلى مداراة و رفق ؛ الأمر بالمعروف بلا غلظة إلا رجل معتل بالفسق فقد وجب عليك نبيه و إعلامه لأنه يقال : ليس لفاسق حرمة فهو لاء لا حرمة لهم " ³.

و قد أكد الإمام النووي - رحمه الله - بقوله : " و ينبغي للأمر بالمعروف و الناهي عن المنكر أن يرفق أيكون أقرب إلى تحصيل المطلوب " ⁴.

6- تهذيب الأمر بالمعروف نفسه و الابتعاد عما نهى عنه : و نجد ابن الجوزي يؤكد على هذا ويبرر رأيه بقوله : " و اعلم أنه إذا هذب الأمر نفسه أثر قوله إما في زوال المنكر أو في انكسار المذنب أو إلقاء الهيبة في القلوب " ⁵ ، و يدخل في هذا الباب أيضا كون الداعية يبدأ بنفسه فيحذر ما من فعل ما ينهى عنه لأن هذا الأمر من أكبر المزالق التي يقع فيها الدعاة لذلك نبه ابن الجوزي لخطورة هذا الموقف و حذر الدعاة منه بقوله : " و ينبغي للأمر بالمعروف أن يحذر من فعل ما نهى عنه و ترك ما أمر به " ⁶ ، و هذا من الأمور الطبيعية و البديهية لدى الدعاة الربانيين ، لأنه لا بد للأمر بالمعروف أن ينهى نفسه قبل غيره و ذلك حتى يؤدي التأثير دوره أثناء عملية الإنكار فقدرة الداعية على تربيته نفسه

¹ - الآداب الشرعية و المنح المرعية : ابن مفلح / 1 / 332 .

² - النبوة : 2 / 330 ، و الآله من سورة طه : 44 .

³ - الآداب الشرعية : ابن مفلح ، 1 / 214 .

⁴ - صحيح مسلم بشرح النووي : لشرف الدين النووي ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، كتاب الإيمان ، مج 1 ، 2 / 24 .

⁵ - النبوة : 2 / 332 .

⁶ - المنصر السابق : 2 / 331 .

و حملها على العمل و الطاعة هي التي تؤهلها لتربية الآخرين و تقويم اعوجاجهم¹ ، كما أن قدرته على الإنكار على نفسه هي التي تزيد من قدرته بالإنكار على الآخرين ، و من كان عبدا لهواه استحاله عليه أن ينكر على الآخرين دون ريب .

• - وجوه الإنكار و مراتبه :

قبل الحديث عن الوجوه التي ينكر فيها المنكر و أصناف من ينكر عليهم يجدر بنا أن نتطرق إلى تقسيم ابن الجوزي لأصناف من يسمع النصيحة و النهي و الموعظة فهم أمام الاستجابة و التأثر بالنهي و الوعظ أشكال و نماذج يقول : " قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة فإذا انفصل عن مجلس الذكر عادت القسوة و الغفلة ، فتدبرت السبب في ذلك فعرفته .

ثم رأيت الناس يتفاوتون في ذلك فالحالة العامة أن القلب لا يكون على صفة واحدة من اليقظة عند سماع الموعظة و بعدها لسبيين :

أحدهما : أن المواعظ كالسياط و الشياطين لا تؤلم بعد انقضائها فيلأمها وقت وقوعها .

و الثاني : أن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مزاج العلة ، قد تخلت بجسمه و فكوه عن أسباب الدنيا و أنصت بحضور قلبه فإذا عاد إلى الشواغل اجتذبتة بأفاتها ، و كيف يصح مع تلك الجوانب أن يبقى كما كان ؟

و هذه حالة تعم الخلق إلا أن أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر . فمنهم من يعزم بلا تردد و يمضي من غير التفات فلو توقّف بهم ركب الطبع لضجوا كما قال حنظلة عن نفسه : نافق حنظلة . و منهم أقوام يميل بهم الطبع إلى الغفلة أحيانا و يدعوهم ما تقدم من المواعظ إلى العمل أحيانا ، فهم كالسنبله تميلها الرياح ، و أقوام لا تؤثر فيهم إلا بمقدار سماعه كمااء دمرجته على صفوان² .

نستنتج من قول ابن الجوزي هذا أن السبب في التأثر اللحظي عند كثير من المدعوين هو أفات الشواغل التي تجذبهم فتزيل عنهم أثر المواعظ و التوجيهات ، لذلك لابد للداعية و الأمر بالمعروف أن يعرف موقع المنكر و من هم أهله حتى يستطيع الإنكار حتى يقتل من عدد أصحاب التأثر المؤقت و يزيد من نسبة العازمين بإخلاص و التائبين عن المنكر بلا تردد. أما عن وجوه إنكار المنكر عند ابن الجوزي فقد تحدث عنها في بعض

¹ - فقه الدعوة في إنكار المنكر : عبد الحميد البلالي ، قدم له سالم الهنساوي ، دار الوفاء للطباعة و النشر المنصورة ، مصر ط 3

1412 + 1992 م من 51 .

² - عهد البلطجة : من 11 ، 12 .

الصور التي رآها ضرورية و مهمة في عصره و هذه الوجوه هي :

1- إنكار المنكر مع الحكام و السلاطين : و هذا من الأمر الجائز و يبيته ابن الجوزي بقوله : " الجائز من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر مع السلاطين التعريف و الوعظ ، فأما تخشين القول نحو : يا ظالم ، يا من لا يخاف الله ، فإن كان ذلك يحرك فتنة يتعدى شرها إلى الغير لم يجز ، و إن لم يخف إلا على نفسه فهو جائز عند جمهور العلماء " ¹ .

و بهذا المنهج كان ابن الجوزي يتعامل مع الحكام ² ، حيث استطاع أن يأمر و ينهى في مجالسهم ، و يرد للمظلومين حقوقهم دون أن يجاري الأمراء و السلاطين في منكراتهم و معاصيهم و دون أن تسقط هيئته عند العلماء أو لدى العوام .

2- وجوب إنكار المنكر مع غير المكلفين : و من الأمثلة على ذلك الصبيان و المجانين حيث يرى ابن الجوزي ضرورة إنكار المنكر مع هؤلاء . لأن المنكر أعظم إثما عند الله من المعصية بقول في ذلك : " المنكر أعظم من المعصية ، و هو أن يكون محذور الوقوع في الشرع فمن رأى صبيا أو مجنونا يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره و يمنعه ، و كذلك عليه أن يمنعه من الزنا " ³ .

3- إنكار المنكر في الأسواق : و ذلك نظرا لما يقع غالبا في مثل هذه الأماكن العامة كالأسواق و غيرها من منكرات تكون آثارها و خيمة على أفراد المجتمع ، و ذلك بسبب سكوت العلماء و الدعاة و أصحاب الأمر و النهي خصوصا ، يقول ابن الجوزي : " من يتقن أن في السوق منكرًا يجري على الدوام أو في وقت معين ، و هو قادر على تغييره لم يجز له أن يسقط ذلك عنه بالقعود في بيته ، بل يلزمه الخروج و إن قدر على تغيير البعض لزمه " ⁴ .

و لو تتبعنا رأي ابن الجوزي لوجدناه بالغ الأهمية ، و ذلك نظرا أن ما أصاب المسلمين اليوم من ضعف و وهن يرجع في الأساس إلى سكوت العلماء و الدعاة و المصلحين عن المنكر و تخليهم عن الأمر بالمعروف ، و خاصة في مثل هذه الأماكن التي يكثر فيها المنكر و لا يتعرض أصحابه لمانع أو زاجر

4- إنكار المنكر في المساجد : ، فابن الجوزي يجيز إنكار المنكر في المساجد و خاصة

¹ - الآداب الشرعية : ابن مفلح الحلبي ، 1 / 196 ، 197 .

² للمزيد انظر وعظ ابن الجوزي ، الحكام في فصل أصناف المذمومين .

³ الآداب السريعة : 1 / 209 .

⁴ المصدر السابق ، 1 / 211 .

على الذين يسيؤون في صلاتهم و يسرقون منها ، أو الذين يستعملون الأواني النجسة في المياه القليلة ، فذكر - رحمه الله - بأنه ينكر على من يسيء في صلاته بترك الطمأنينة في الركوع و السجود مع أنها من مسائل الخلاف¹ ، بل و يرى أن الأفضل للمعتكف في المسجد إنكار المنكر خير من نافلة يقتصر عليها .

و مما ذكره أيضا جملة المنكرات غمس اليد و الأواني النجسة في المياه القليلة فقد بين أنه يمكن للأمر بالمعروف أن يغير هذا بتلطف كأن يقول لصاحب المنكر مثلا : " يمكنك أن لا تؤذي بتقويت الطهارة على " ² ، و لعل هذا من أحسن الأساليب رفقا في تغيير المنكر و إنقاذ المخطئين بتحبيب العبادة لهم .

و لما كانت هذه هي أهم وجوه إنكار المنكر كان لابد من التعرض لخطوات تغيير هذا المنكر، و ذلك كون أن صاحب المنكر كالطفل أو المريض أو الجاهل فلا بد من مداراته³ قبل استخدام الإنكار المباشر باليد أو باللسان و قد ذكر الإمام الغزالي و ابن قدامة المقدسي من بعده ، هذه الخطوات و جعلها ست و هي : التعريف و الوعظ و التعنيف و اليد و التهديد و الضرب⁴ .

و ابن الجوزي و إن لم يتطرق إلى كل هذه الخطوات بالتفصيل فإنه تعرض بالذکر لأهمها ، و التي منها الجهر لصاحب المنكر بالسوء حتى يكف عن فعله كصاحب الظلم أو النفاق و قد ذكر ابن الجوزي كمثل على ذلك قول هند للنبي - صلى الله عليه و سلم - : " إن أبا سفيان رجل شحيح"⁵ .

كما ذكر ابن الجوزي مرتبة أخرى من مراتب التغيير و هي الضرب باليد و الرجل عند الضرورة ، و الضرورة هنا تقدر بقدرها ، فإن احتاج الأمر إلى أعوان يساعده على التغيير بإشهار سلاحهم ، فلا بد من أخذ الإذن من الحاكم حتى لا تعم الفوضى و الفساد قال ابن الجوزي : " الضرب باليد و الرجل و غير ذلك مما ليس فيه إشهار سلاح أو سيف يجوز للأحد بشرط الضرورة و الاقتصاد على قدر الحاجة فإن احتاج إلى أعوان يشهرون السلاح

¹ الأداب الشرعية : ابن ماجه المجلد 1 ، 180 / 1 .

² المصدر السابق : نفس الصفحة .

³ فقه الدعوة في إنكار المنكر : عبد الحميد البلاتي ، ص 69 .

⁴ - انظر مختصر منهاج القاصدين : ابن قدامة المقدسي ، تحقيق زهير شاويش ، المكتب الإسلامي بيروت ، ط 5 ، 1403 هـ ، ص

136 ، وهو مختصر لكتاب ابن الجوزي منهاج القاصدين ، الذي هذب به ابن الجوزي كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي .

⁵ - روضة الحديث : فأحتاج أن أخذ من ماله ، قال " ص " حذني ما يكفك و ولدك بالمعروف " فتح الباري : 13 / 171

كتاب الأحكام باب القضاء على الثائب ، رقم 7180

لكونه لا يقدر على الإنكار بنفسه فالصحيح أن ذلك يحتاج إلى إذن من الإمام لأنه يؤدي إلى
الفتن و هيجان الفساد " ¹ .

إن فتغيير المنكر باليد في نظر ابن الجوزي لا بد من توفر الشروط الضرورية له
و أهمها مدى سلطان صاحب الإنكار على مقترف المنكر ، و يعتبر هذا الأمر من القواعد
الضرورية في فقه إنكار المنكر في منهج ابن الجوزي ، و هذا لكونه من الدعاة الذين
مارسوا تغيير المنكر في الواقع العملي بالإضافة إلى وضع القواعد و الضوابط الأساسية له
لقد كان - رحمه الله - يقوم بمهمة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر عمليا و بتأييد من
ال خليفة المستضيء ² ، و هذا دليل على قيام ابن الجوزي بمهمة المحتسب في بعض الأحيان
بالإضافة إلى مهمة الدعوة و الوعظ و الإرشاد .

و نظرا لمكانته المرموقة فقد بدأ ابن الجوزي في عهد حكم المستضيء ، و كأنه قائد
حركة شعبية جماهيرية على حد تعبير أحد الباحثين ³ ، حيث عيّن بقرار من الخليفة كمدبر
لعملة مكافحة الزندقة ، و هذا دليل على نفوذ ابن الجوزي و ثقل وزنه ، الشيء الذي مكّنه
من إثبات جرأته و جدارته و حنكته أثناء قيامه بالأمر بالمعروف و نبيه عن المنكر حتى
مع كبار القوم في زمانه ، و قد ناله في ذلك ما ناله من الأذى و السجن لهذا السبب خلال
لمحنة التي حلت به في حياته كما رأينا .

و في الأخير يجدر بنا أن سنجل بعض ما تحدثت به ابن الجوزي عن ما قام به من
تغيير للمنكر في العديد من تصريحاته كقوله : " و في يوم الأربعاء غرة رمضان تكلمت في
مجلسي بالحلبة فتأب على يدي نحو من مائتي رجل و قطعت شعور مائة و عشرين نفسا
منهم " ⁴ ، و قال أيضا : " و قد قطعت أكثر من عشرين ألف سالف مما يتعاناه الجهال " ⁵
و ما قاله : " و تقدّم إلي بالجلوس فتكلمت ليلة الخميس ثالث ذي الحجة و حضر أمير
المؤمنين و قام إلي رجل يوم عرفة في المجلس فتأب و قطع شعره " ⁶ ، و تحدث في موضع

¹ - الآداب الدرعية : ابن مفلح ، 1 / 195 .

² - سبقت ترجمته .

³ - ابن الجوزي فاعلا و منفلا في حياة بغداد السياسية في القرن السادس الهجري : مؤمنة عوف ، مجلة الباحث ، السنة 11 ، ع

⁴ - العدد 56 ، تشرين الأول ، كانون الأول ، 1992 م ، ص 110 .

⁵ - المنتظم : 18 / 197 .

⁶ - لفظة الكبد : ص 21 .

⁶ - المنتظم : 18 / 232 .

أخر بعد أن ذكر عدد الحضور فقال : " و تاب ثلاثة و خمسون نفسا و قصت شعورهم " ¹.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رابعاً

القدوة الحسنة

لقد جعل الله - سبحانه وتعالى - لعباده الأسوة العملية في الرسل و الصالحين من عباده إذ لم يكنف سبحانه بإرسال الرسل و إنزال الكتب بل جعل القدوة الحسنة وسيلة من وسائل الدعوة عند الأنبياء و الصحابة و الدعاة و الصالحين من بعدهم¹ .

وتتجلى أهمية القدوة لدى الدعاة كونها أشد تأثيراً في نفوس المدعويين ، كما أنها تعدّ من أبرز وسائل المنهج الحسي² .

و الداعية مهما كان فصيحاً بليغاً ، و مؤثراً بارعاً ، فإن كلامه لا يتجاوز آذان المستمعين ما لم يعمل به³ ، و هذا مما يبيّن بوضوح أن الدعوة العملية لا تقل أهمية عن الدعوة القولية .

لهذا وجدنا الرسول - عليه الصلاة و السلام - قد اهتم بهذه الوسيلة و هو الذي أهله الله -

عز وجل - ليكون قدوة المسلمين حيث قال سبحانه : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة

حسنة)⁴ ، و قد مارس عليه الصلاة و السلام القدوة في حياته الأسرية و الدعوية فكان نعم

لرجل القدوة في أسرته و مجتمعه ، كما كان رجل الدعوة و الدولة و التربية و القيادة

الذي استطاع أن يجمع القبائل المتناحرة فصاروا أمة واحدة تحت مظلة التوحيد .

و الداعية الحقيقي لا بد أن يكون قدوة حسنة و نموذجاً طيباً للإسلام⁵ ، من أجل ذلك

وجدنا ابن الجوزي قد أولى اهتماماً بالغاً لجانب القدوة في الدعوة ، و قدّم الكثير من الأدلة

على ما ذهب إليه حيث أكد أن أنفع العلوم النظر في سيرة الرسول - صلى الله عليه و سلم

- و أصحابه⁶ ، وقد اقتبس ذلك من قوله تعالى : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)⁷ .

ولم يكنف بذلك بل وجدناه يبحث على ضرورة الاقتداء برسول الله صلى الله عليه و سلم

لقال : " من أراد أن يعلم حقيقة الرضى عن الله - عز وجل - في أفعاله وأن يدري

¹ - لنهج الدعوي في أصول المحاضرة الدعوية : هنام يوسف محمد بنان ، دار المجتمع للنشر و التوزيع ، جدة ، ط 1 ، 1413 هـ .

1992 م ، ص 34 .

² - المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتح البيانوني ص 215 ، و انظر فصل منهج ابن الجوزي في الدعوة المبحث الأول .

³ - استمرارية الدعوة : محمد السيد الوكيل ، ص 26 .

⁴ - الأحزاب : 21 .

⁵ - طريق الدعوة : مصطفى مشهور ، طبع الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ، السلفية ، الكويت ، د ت ، ص 29 .

⁶ - عبد الخاطر : ص 66 .

⁷ - الأنعام : 90 .

من أين ينشأ الرضى ، فليفكر في أحوال رسول الله - صلى الله عليه و سلم -¹ .
و من باب الزيادة في التأكيد على أهمية القدوة كوسيلة ناجحة في الدعوة يورد ابن الجوزي
العديد من الأمثلة ليذكرنا من خلالها بصفاته عليه الصلاة و السلام ، ذاكرًا في ذلك ما أمكنه
من الأحاديث الشريفة و مواقف الصحابة في هذا المجال ، بل و أضاف إلى هذا كله جملة
من كتب المناقب التي صنفها² .

و في بعض الأحيان نجده يستشيد ببعض المواقف من سيرته كمثال حي في باب
القدوة ، قال محدثًا ابنه أبا القاسم عن نفسه حتى يتخذة قدوة فيقتدي به : " قد رزقت عقلا
وإفرا في الصغر يزيد على عقل الشيوخ فما أذكر أني لعبت في طريق مع الصبيان قط
ولا ضحكت ضحكا خارجا... و لقد كان الصبيان ينزلون إلى دجلة و يتفرجون على الجسر
و أنا في زمن الصغر أخذ جزءا و أقعد حجرة من الناس إلى جانب الرقة فأتشأغل بالعلم"³ .
و في نهاية المطاف يوصيه بضرورة الاقتداء بسير السلف الصالح قائلا له : " و مع مطالعة
أذلاق السلف ينكشف لك الأمر"⁴ .

و لما كانت النفوس الخيرة قد جبات على حب الصالحين و الاقتداء بهم وجدنا
ابن الجوزي قد شرح لنا هذا الموقف من خلال تبينه الأثر الفعال للقدوة على النفس
الإنسانية عندما تحدث عن نفسه قائلا : " لقيت مشايخ ، أحوالهم مختلفة يتفاوتون في
مقاديرهم في العلم و كان أفعولهم لي في صحبتته العامل منهم بعلمه وإن كان غيره أعلم منه"⁵ .
و في حديثه عن شيخه عبد الوهاب الأنماطي و الجواليقي ، يبين لنا ابن الجوزي
نموذجًا آخر ممن يقتدى بهم في ميدان الدعوة و العمل فيقول : " كان على قانون السلف لم
سمع في مجلسه غيبة ... و كنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقائق بكى و اتصل بكأوه فكان
- و أنا صغير السن حينئذ - يعمل بكأوه في قلبي و يبني قواعد الأدب في نفسي .. لقيت
الشيخ أبا منصور الجواليقي ، فكان كثير الصمت ، شديد التحري فيما يقول ، متقنا محققا"⁶ .

1 - صمد الخاطر : ص 201 .

2 - انظر ، رسائل ابن الجوزي و فصل آثار ابن الجوزي .

3 - لغة الكيد : ص 10 ، 20 .

4 - المصدر السابق : ص 12 .

5 - صمد الخاطر : ص 143 .

6 - المصدر السابق : ص 143 .

ولقد كان ابن الجوزي - رحمه الله - مصيبا إلى حد بعيد لما حث الأب والمربي على
على ضرورة الاهتمام بالقدوة الحسنة في تربية الأبناء عند ما قال عن الطفل : " وليبادر
بأخبار الصالحين " ¹ .

و مما تجدر الإشارة إليه هو أن الدعوة الإسلامية في أي عصر من عصورها ، لم
تصل إلى أبداع من اتخاذ القدوة الحسنة وسيلة فعالة في نشر الإسلام و دعوة الناس إليه في
العديد من أصقاع العالم ، و خاصة لدى الشعوب الآسيوية و دول الساحل الإفريقي ، حيث
كان للتجار المسلمين و الطرق الصوفية دور فعال في نشر الإسلام و تعليم أخلاقه و غرس
أهيات الفضائل بين شعوب تلك المناطق البعيدة ، عن طريق وسيلة القدوة الحسنة .

و هكذا نلاحظ أن ابن الجوزي استخدم هذه الوسيلة و حث عليها في العديد من أقواله
و كذا من خلال مصنفاة، في هذا الباب التي شهد لها بالتفوق و الحسنة جمهرة العلماء
و هذه شهادة أحدهم ، قال ابن رجب - رحمه الله - : " و من أحسن تصانيفه : ما يجمعه
من أخبار الأولين ، مثل " المناقب " التي صنّفها ، فإنه ثقة ، كثير الإطلاع على مصنفاة
الناس ، حسن الترتيب و التبويب قادرا على الجمع و الكتابة . و كان من أحسن المصنّفين
في هذه الأبواب تمييزا ؛ فإن كثيرا من المصنّفين فيه لا يميّز الصدق فيه من الكذب... فهذه
المجموعات التي يجمعها الناس في أخبار المتقدمين من أخبار الزهاد و مناقبهم ، و أيام
السلف و أحوالهم ، مصنفاة أبي الفرج أسلم فيها من مصنفاة هؤلاء ... و أبو الفرج أكثر
علوما و فنونا " ² .

و خلاصة القول نرجح أن ابن الجوزي - رحمه الله - كان حريصا على استخدام الأساليب
و الوسائل الدعوية المناسبة ، و التي كانت متاحة للدعاة و الوعاظ في عصره ، و ذلك من
بجل أن تكون دعوته أكثر نفعا و أعظم تأثيرا في قلوب المدعوين و نفوسهم .

1 - الطب الروحاني : ص 69 .

2 - الذيل على طبقات الختابة : ابن رجب الحنبلي ، 1 / 416 .

الفصل الثالث

منهج دعوة ابن الجوزي

وخصائصه

ويتضمن ثلاثة مباحث

المبحث الأول : مناهج الدعوة وتطبيق

ابن الجوزي لها

المبحث الثاني : ما ركز عليه ابن الجوزي في

منهجه الدعوي .

مبحث الثالث : خصائص منهج ابن الجوزي

مناهج الدعوة و تطبيق ابن الجوزي لها

تعريف المناهج الدعوية :

عرف المنهج في اللغة بأنه الطريق الواضح¹ ، و جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة و منهاجا)² ، و من هذا المعنى استنبط العلماء المعنى الاصطلاحي لكلمة المنهج في الدعوة ، حيث عرفت المناهج الدعوية بأنها " نظم الدعوة و خطتها المرسومة لها "³ .

و المناهج الدعوية متعددة الأنواع و لها أقسام سواء من حيث واضعها أو موضوعها أو من حيث طبيعتها أو بما تعتمد عليه من ركائز و أسس⁴ ، و القسم الأخير هو الذي يعنينا في هذا المجال ، حيث تنقسم المناهج من خلاله إلى ثلاثة أنواع هي : المنهج العاطفي و المنهج العقلي و المنهج الحسي .

و سنشير أثناء الحديث عن كل منهج من هذه المناهج إلى الأساليب التي استخدمها ابن الجوزي دون شرح لها ، حتى نتجنب إعادة ذكر تلك الأساليب التي تناولناها بالتفصيل في فصل سابق ، إنما نذكرها هنا لنبيين مدى استعمال ابن الجوزي لهذه المناهج الدعوية من خلال تلك الأساليب التي استخدمها من أجل تبليغ دعوته للناس .

و قد اتضح لنا من خلال تلك الأساليب و الوسائل الدعوية أن ابن الجوزي حاول - و دون قصد منه - أن يستعمل هذه المناهج التي ذكرنا ، رغم كونها لم تكن قد تبلورت في عصره بهذا الشكل الذي نعرفه اليوم و مع ذلك فقد نجح في هذا الاستعمال ، و استطاع أن يؤثر في مسار الدعوة و حركيتها حيث استقطب أنظار الآلاف من المدعوين و أثر في نكرهم و سلوكهم ، و ذلك لكون الدعاة في ذلك العصر كانوا يمارسون الدعوة أكثر مما ينظرون لها .

1- المنهج العاطفي :

¹ - لسان العرب : ابن منظور ، مادة ج ح 6 ، 1591 ، طبعة دار المعارف .

² - الآية : 48 .

³ - المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفوح البيهقي ، ص 15 ، 16 ، 195 .

⁴ - انظر منه للمنهج بالتفصيل المصدر السابق : ص 195 .

من الواضح أن هذا المنهج و من خلال التسمية التي أطلقت عليه أنه منهج يعتمد على 'مجموعة الأساليب الدعوية التي تركز على القلب و تحرك الشعور و الوجدان'¹ وذلك لكون العاطفة لها تأثير كبير و سلطان عظيم على القلوب ، فإذا ما استغلت استغلالاً حسناً فإنها تكون من أنجح الوسائل لتحقيق ما يصبو إليه الداعية من إقناع المدعويين² من أجل ذلك اعتبر المنهج العاطفي ضروري في الإقناع بالدعوة إلى جانب المنهج العقلي . و هذا المنهج من أكثر المناهج التي استخدمها الإمام ابن الجوزي في دعوته و خاصة في مجالسه الدعوية مع العوام³ ، و ذلك كون العوام أول المدعويين الذين هم في حاجة إلى هذا المنهج ، و لصلته القوية بالنفس البشرية ، و سلطانه العظيم على القلوب و رغم كونه لم يستعمل جل أساليب هذا المنهج فقد استعمل أهمها و أكثرها تأثيراً في عصره و خاصة الموعظة الحسنة بأهم أشكالها و هي الترغيب و التهيب و القصص و كلها أساليب دعوية استقاها ابن الجوزي من كتاب الله و سنة رسوله و ذلك لكونه من أكبر الدعاة تأثيراً بهما⁴ .

و لما كانت للموعظة الحسنة تلك الأهمية التي ذكرنا أنفاً ، ركز عليها ابن الجوزي كأسلوب رئيسي في تبليغ دعوته ، و ذلك لأن ابن الجوزي و هو فارس حلبة الوعظ و الداعية الشعبي المتمرس أدرك أهمية الوعظ ، في إثارة العواطف و زيادة حماس المدعويين و إقبالهم على التوبة تادمين و لذنوبهم مستغفرين ، فسلك رحمه الله طريقه و أخذ يظن و هو في سن مبكرة إلى أواخر أيام حياته ، فلم ينقطع عن وعظه و بقيت مجالسه الوعظية متصلة إلى أن أحس بدنو أجله و هو على المنبر في يوم من أيام سنة 597 هـ⁵ . و لعل أكثر طرق الموعظة بروزاً في منهج ابن الجوزي الدعوي الإصلاحية هو الترغيب و التهيب ، و قد مر بنا كيف أنه مال كثيراً إلى استخدام الترغيب و التهيب و كان ميله إلى التهيب أكثر و مما استدلّ به على ذلك قوله : " أنا طبيب لبيب لبيب أمزج التخدير بالتشويق للعاملين ، و أجعل كأس التخويف صرفاً للغافلين ، و أجتهد في التلطف

¹ - الدخول إلى علم الدعوة : محمد أبو الفرج البانوي ص 204 .

² - فتى الدعوة : محمد السد الوكيل ، ص 180 .

³ - انظر فصل أصناف المدعويين عند ابن الجوزي .

⁴ - ولذا أشرنا إلى ذلك في فصل الدعوة و الداعية عند ابن الجوزي ، مبحث مصادر الدعوة عند ابن الجوزي .

⁵ - انظر فصل وفاته في فصل حياة ابن الجوزي .

وفسي تبيان ضرورة الوعظ بالترغيب و الترهيب و حاجة النفوس إليه و كونه من وظائف الأنبياء و العلماء قال: " اعلم أن الطباع لما خلقت مائلة إلى حب الشهوات المرديّة و البطالة المؤذية ، افتقرت إلى مقوم ، و متقن و محذّر يردّ ، فهي في ضرب المثل كالماء يجري بطبعه (إلى أن يقول) و لهذا بعث الأنبياء بالترغيب و الترهيب ، ثم خلفهم العلماء ، و قد كان العلماء كلهم يذكرّون بفتاويهم و علمهم ، غير أن القصاص و الوعظ ترسموا بهذا الأمر لخطاب العوام فالعوام ينتفعون بهم ما لا ينتفعون بالعالم الكبير " ² .

و من أمثلة تطبيقه لهذا المنهج قوله للمدعوين في عاقبة التفريط : " إذا قمتم من المجلس فادخلوا دار الخلوة ساعة ، و شاوروا نصيح الفكر ، و حاسبوا شريك الخيانة و تلمموا تفريط الكسل في بضاعة العمر ، تأسفوا على كل ذنب كان ، أو حظ من الله فات . البدار البدار نحو البقية ، فيلقى المفراط ما ضاع ، و ليحذر الأعور الحجر ، لا تحقر يسير الخير ... جدّ في نشدان ضالتك و لا تياس من روح الله ، فكم شفى من أشفى على الهلاك ... وبك : قد لاحت نار الهدى من زناد المواعظ ، فقم على أقدام الجدّ لعلك تجد على النار هدى " ³ .

كما نالت القصة في منهج ابن الجوزي الدعوي قسطها الوافر من الاهتمام و الاستخدام ، و ذلك كون أن القصص لم يكن مذموما في العصور السابقة ، و لأن فنونه كانت ترجع في أصلها إلى كتاب الله و سنة رسوله .

فقد جاء القصص القرآني بعدة مزايا استلهم منها الدعاة الطريقة المثلى في استعمال القصة كأسلوب ناجح في الدعوة ، و لعل أهم هذه المزايا ما ذكره صاحب تفسير المنار حيث جمع مضامين القصص القرآني و مزاياه في العناصر التالية⁴ :

1- بيان أصول دين الله العامة المشتركة بين جميع أنبيائه المرسلين ، من الإيمان بوجوده و تزييه و توحيده و علمه و حكمته ، و مشيئته ، و قدرته ، و عدله و رحمته ، و غير ذلك من صفاته ، و الإيمان بالبعث و الجزاء ، و الأمر بالمعروف ، و البر و الإحسان و سنائر الأعمال الصالحات و النهي عن الفواحش و المنكرات العامة .

¹ - المنهاج : ص 503 .

² - الفصص و المذكرين : ص 175 ، 176 .

³ - اللطائف : ص 161 ، 162 .

⁴ - تفسير المنار : السيد محمد رشيد رضا ، 12 / 41 ، 42 ، 43 .

2 - بيان أن وظيفة الرسل تبليغ وحي الله تعالى لعباده و أنهم لا يملكون فيما وراء التبليغ
فما للناس لا دينيا و لا دنيويا فقد كان أبو إبراهيم و ابن نوح و امرأته و امرأة لوط من
الكافرين .

3 - شبهة الأقوام على رسلمهم بأنهم بشر . و ردهم عليهم بأن آياتهم من فعل الله - تعالى -
لا من كسبهم بقدرتهم .

4 - بيانهم لأقوامهم أن هداية الدين سبب لزيادة النعم في الدنيا، كما أنها هي التي تنال بها
سعادة الآخرة .

5 - آيات الله و حججه على خلقه في تأييد رسله و طرق الإنذار و التحدي و ما أكرم الله به
أنبيائه من الخوارق الخاصة كالاولاد لإبراهيم و زكرياء و مريم و ابتلاء يوسف و إكرامه .

6 - نصائح الأنبياء و مواظبتهم الخاصة بكل قوم بحسب حالهم ، كقوم نوح فسي غوايتهم
و قوم لوط في فحشهم ، و عاد في قوتهم ، و بني إسرائيل في تمردهم .

7 - بيان سنن الله تعالى في استعداد الناس النفسى و العقلى لكل من الإيمان و الكفر و الخير
و الشر و الهدى و الضلال ، و استنكار الرؤساء و الزعماء المترفين عن الإيمان .

8 - ما في قصص الأقوام من المسائل التاريخية و الموضوعية كحال فرعون و قومه مع
بني إسرائيل ، و حال عاد قوم هود و ثمود قوم صالح .

9 - بيان سنن الله تعالى في الطباع و الاجتماع و التقدير و التدبير العام ، و ما في خلقه
للعالم من الحكمة و الرحمة و النظام و العدل العام .

10 - الاحتجاج بكل ذلك على قوم خاتم النبيين - صلى الله عليه و سلم - ثم على سائر من
تبلغهم دعوته من حقبة رسالته ، و كون العاقبة له و لمن تبعه فإنه المبعوث إلى جميع الأمم

إلى نهاية بقاء الأحياء في هذا العالم و كانت رسالة كل منهم إلى قومه خاصة .

و نظرا لهذا الاعتبار كانت القصة من أهم ما يستخدمه الدعوات لإبصال دعوتهم

و ذلك لتعلق النفس البشرية بها أما فيها من مؤثرات و أحداث و جدانية و عاطفية تقتضى

التفاعل معها قال ابن الحوزي : " كان الوعاظ في قديم الزمان علماء فقيهاء ، و قد حضر

مجلس عبيد بن عمير ، عبد الله بن عمر - رضى الله عنه - ، و كان عمر بن عبد العزيز

يحضر مجلس القاص . ثم خست هذه الصناعة فتعرض لها الجهال فبعد عن الحضور عندهم

" عبيد بن عمر بن قنادة الليثي - الواعظ المفسر ، ولد في حياة الرسول " ص " ، كان قاص و واعظ أهل مكة في زمانه، متفنن

على توثيق أمم الحج له الجماعة ، انظر ترجمته سر أعلام النبلاء 4 / 156 .

المميزون من الناس وتعلق بهم العوام والنساء ، فلم يتشاغلوا بالعلم وأقبلوا على القصص وما يعجب الجهلة وتنوعت البدع في هذا الفن " ¹ .

و فن القصص في عصر ابن الجوزي له مفاهيم متعددة تطرق لها ابن الجوزي بقوله : " إن لهذا الفن ثلاثة أسماء : قصص و تذكير و وعظ فيقال : قاص و مذكر و واعظ . فالقاص : هو الذي يتبع القصة الماضية بالحكاية عنها و الشرح لها و ذلك القصص ، و هذا في الغالب عبارة عن يروي أخبار الماضين . و هذا لا يذم لنفسه ، لأن في ليراد أخبار السالفين عبرة لمعتبر ، و عظة لمزدجر ، و اقتداء بصواب لمتبع ، و قد قال الله - عز و جل - (نحن نقص عليك أحسن القصص) ² ، و قال سبحانه : (إن هذا لهو القصص الحق) ³ .

و أما التذكير : فهو تعريف الخلق نعم الله - عز و جل - و حثهم على شكره و تحذيرهم من مخالفته . و أما الوعظ : فهو تخويف يرق له القلب و هذان محمودان ⁴ . و على الرغم من أن ابن الجوزي قد استخدم القصة كأسلوب من أساليب المنهج العاطفي في الدعوة إلى الله - سبحانه و تعالى - إلا أنه حمل على القصاص في عصره و لم يرض على ما كانوا يقومون به أثناء تذكيرهم و وعظهم ، و ذلك لما كانوا يقعون فيه من أخطاء سواء من حيث المنهج و المحتوى أو من حيث حصيلتهم العلمية و سلوكهم العملي ⁵ ، حيث كان يرى أنهم يسيئون إلى الدعوة و الدعاة أكثر مما ينفعون المدعوين وخاصة العوام منهم .

١ - المنهج العقلي :

و بالإضافة إلى المنهج العاطفي يعتبر المنهج العقلي من أكثر المناهج الدعوية استخداماً في نشر الدعوة الإسلامية ⁶ ، و ذلك لأنه يركز على العقل و يدعو إلى التدبر و التفكير و الاعتبار .

و من أهم أساليبه الجدل و المناظرة و الحوار و ضرب الأمثال و قصص الأمم الغابرة ⁷ .

¹ نلسن إبيس : ص 169 .

² يوسف : 3 .

³ - آل عمران : 62 .

⁴ - القصص و المذكرس : ص 4 و 5 . و ما يعدها محقق بسوق زغلول .

⁵ انظر تفصيل ذلك في محث ابن الجوزي و الوعظ و القصص في فصل محاور الدعوة عند ابن الجوزي .

⁶ نفس الدعوة : محمد السيد الوكيل - ص 186 .

⁷ للدخول إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتوح البيانوني ، ص 210 ، 211 .

و يعتبر المنهج العقلي من أهم وسائل الإقناع في البيئة التي ظهرت فيها الدعوة الإسلامية و تبرز أهميته بشكل واضح في اهتمام الإسلام به منذ الخطوات الأولى من مسيرة الدعوة¹، لأنه كان يُبذ من وجود هذا المنهج لإقناع الناس بالدعوة الجديدة التي يجهلونها .

و القرآن الكريم حافل بالشواهد الحية التي تدل على مشروعية المنهج العقلي كأسلوب دعوي استخدمه الأنبياء في تبليغ دعوتهم إلى أقوامهم ، و من الأمثلة على ذلك قصة صاحب الجنين و قصة أصحاب الكهف و قصة ذي القرنين و قصة بقرة بني إسرائيل و قصة المائدة ، و الحوار القرآني الشيق الذي دار بين مؤمن آل فرعون و قومه و قد ذكرها الله - تعالى - في قوله : (و قال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله و قد جاءكم بالبينات من ربكم) إلى قوله تعالى (فوқаه الله سينات ما مكروا و حاق بال فرعون سوء العذاب)² ، و كذلك مجادلة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - مع النمرود بن كنعان ملك بابل و قد تحدّث الله - سبحانه و تعالى - عنها بقوله : (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن أتاه الله الملك إذ قال إبراهيم : ربي الذي يحيي و يميت قال : أنا حي و أميت قال إبراهيم : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر و الله لا يهدي القوم الظالمين)³ .

أما عن ضرب المثل كأسلوب من أساليب المنهج العقلي فقد ورد الكثير منه في القرآن الكريم كهذا المثل الذي اخترناه في هذا الصدد قال تعالى : (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت و فرعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها و يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون)⁴ .

قال ابن الجوزي - رحمه الله - في شرح هذا المثل : " و الشجرة على أقوال منها أنها النخلة كما في الصحيحين ، من حديث ابن عمر ، رواه سعيد بن جبیر عن ابن عباس و به قال ابن مسعود ، و أنس بن مالك ، و مجاهد ، و عكرمة و الضحاك عن النبي - صلى الله عليه و سلم - . فابن الجوزي يذكر هنا الحكمة في تمثيل الإيمان بالنخلة كأنه يرجح قول من ذهب إلى هذا الرأي و يؤيده لعدة أوجه و هي :

¹ - تقييد الدعوة : محمد السعد ، الوكيل ، ص 187 .

² - غافر : 28 إلى 45 .

³ - البقرة : 258 .

⁴ - إبراهيم : 24 ، 25 .

– "أحدها : أنها شديدة الثبوت ، فشبه ثبات الإيمان في قلب المؤمن بثباتها .

– الثاني : أنها شديدة الارتفاع فشبه ارتفاع عمل المؤمن بارتفاع فروعها .

– الثالث : أن ثمرتها تأتي في كل حين ، فشبه ما يكسب المؤمن من بركة الإيمان و ثوابه في كل وقت بثمرتها المجنبة في كل حين على اختلاف صنوفها ، فالمؤمن كلما قال : لا إله إلا الله سعدت إلى السماء ، ثم جاءه خيرها و منفعتها .

– الرابع : أنها أشبه الشجر بالإنسان ، كل شجرة يقطع رأسها تتشعب غصونها من جوانبها إلا هي ، إذا قطع رأسها يبست ، و لأنها لا تحمل حتى تقلع ، و لأنها فضلة تربة آدم – عليه السلام – فيما يروى " 1 .

و من الناحية العملية و التطبيقية لهذا المنهج اتضح لنا أن ابن الجوزي قد استخدمه في نطاق معين و مع صنف مخصوص من المدعوبين ، و ذلك من خلال المناظرات العلمية التي كانت تجري بينه و بين بعض العلماء المعاصرين له ، بحضور العلماء و الحكام و كان يحضرها العوام في بعض الأحيان 2 .

كما استخدم هذا الأسلوب بشكل مخاير مع عموم المدعوبين سواء في مجالسه الدعوية أو من خلال مصنفااته ، حيث دعاهم إلى ضرورة إعمال الفكر و النظر في الكون و أسباب وجوده و عظمة موجدته من أجل الاعتبار و الاعتباط ، و من ذلك قوله في هذه الموعظة التي أراء من خلالها إقناع أحد مستمعيه بطاعة الله ، و ذلك بعد أن عقد له مقارنة بين ثموة طاعة الله و طاعة المخاوق فقال : " و انظر بعين التفكير و الاعتبار : لو أن طيبيا نصرانيا عفاك من شرب الماء البارد ، لأجل مرض من أمراض الجسد لأطعته في ترك ما نهاك عنه و أنت تعلم أن الطبيب قد يصدق و قد يكذب ، و يصيب و يخطئ ، و ينصح و يغش ، فما بالك لا تترك ما نهاك عنه أنصح الناصحين و أصدق القائلين ؟ لأجل مرض القلب الذي إذا لم تشف منه فأنت من أهلك الهالكين " 3 .

و مما قاله في بيان عظمة الخالق و قدرته على إهلاك المتجبرين من خلقه بأهون مخلوقاته ، و كيف أنه رغم ذلك بسط الكثير من النعم لهذا الإنسان الجاحد : " قَتَلَ ملك (النمرود) الأرض كلها ببعوضة دخلت أنفه ، و أغرق الذي قال : (أنا ربكم الأعلى) 4

1 - زاد المسير : 264 / 4 حديث النخلة : فتح الباري 8 / 377 ، كتاب التفسير ، باب كثرة طيبة أصلها ثابت رقم 4698 .

2 - انظر المنتظم : 231 / 18 .

3 - التذكرة في الوعظ : ص 41 .

4 - النازعات : 24 .

بقطرة أوردته حنقه ، و هل أغرق فرعون من تيار ذلك الماء إلا قطرة حالت بينه و بين
 ثم الهواء . يجوع الملك العظيم من ملوك الأرض ساعة ، ثم يلقي كسرة فتملاً قلبه سرورا .
 ويبلى الأسد الضاري بذباب يسقط على عينيه ، فيظل في قبضته أسيرا . ويسلّط الحية
 الصغيرة على الغيل العظيم فيخر منجدلا عقيرا . (وما كان الله ليعجزه من شيء في
 السموات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا)¹ ... لولا الخالق لم يكن المخلوق شيئا
 منكورا ، ولولا الرازق لم يملك المرزوق فتيلًا ولا نقيرا . كم من نعمة قد أنعم الله بها علينا
 وكم من حسنة قد ساقها الله إلينا: عافانا في أدياننا من الكفر ، وفي أدياننا من الضر
 وأخرجنا من أصلاب أدياننا مسلمين ، وأنشأنا بين إخوان مؤمنين ، وجعل لساننا الذي نتكلم
 به من أفصح الألسنة لهجة ، وطريقنا الذي نسلك به إليه من أوضح الطرق محجة .
 فبأي شكر نقابل نعمه علينا ، وبأي جزاء نكافئ إحسانه إلينا ، سبحانه ، سبحانه² .

ولنستمع إليه في هذا التحليل العلمي الموفق الذي أتى به عند تفسيره لقوله تعالى :
 (هو الذي جعل الشمس ضياء و القمر نورا و قدره منازل لتعلموا عدد السنين و الحساب
 ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون)³ قائلا : " ما من مجعول إلا والله
 له جاعل ، لأنه هو الخالق لكل صنعة وصانع ، وعمل وعامل ، فلماذا قال : (هو الذي جعل
 الشمس ضياء و القمر نورا و قدره منازل) أي هو الذي أضاء الشمس فجعلها ضياء بالنهار
 وهو الذي أنار القمر فجعله نورا بالليل ، فسواء ذا منازل لا تجاوزها ولا يقصر عنها .
 (منازل) هي الثمانية والعشرون منزلا ، المنقسمة عن اثني عشر برجاً ، قدر الله سبحانه
 سير الشمس والقمر في تلك البروج والمنازل ، لينتظم بمسير الشمس فيها أمر الفصول
 الأربعة ؛ ولولا تنقل الشمس فيها لم يكن للأرض صيف ولا شتاء ، ولا ربيع ولا خريف ؛
 ولولا اختلاف الهواء بتعاقب هذه الفصول لفسد نظام الحيوان والنبات والمعادن ؛ ولولا تنقل
 القمر فيها لفسد نظام الشهور القمرية ، ومطالع الأهلّة ، والبدور ، والأقمار المسخرة في
 الليالي الطوال الشتوية ، القصار الصيفية .

وكم في خلال تدابير ذي الجلال من حكم جليّة ، وأطاف خفية ... فإن قيل : ما
 لكلمة في تخصيص القمر بالذكر دون الشمس في قوله تعالى : (قدره منازل) ؟
 الجواب : أن القمر يقطع المنازل في كل شهر ، والشمس لا تقطعها إلا في كل سنة فلما

¹ - طه : 44 .

² - الذكر في الوعظ : ص 8 ، 9 .

³ - نوح : 5 .

كان القمر أسرع منها في طي المراحل، كان أولى منها بتخصيص الذكر في تقدير المنازل¹.
و المتأمل لهذا الكلام يدرك مدى مقدرته ابن الجوزي الإقناعية في إبراز عظمة الخالق
و ذلك محاولة منه لجلب انتباه المدعوين ليجتدوا صلتهم بالله و يعتبروا ببديع صنعه .
و كما وجه - رحمه الله - هذا الكلام للمدعوين بوجه عام من أجل التأثير و الاعتاظ
فإنه لم ينس أن يحدث ابنه بمثله فهو أولى الناس بمواعظه فقال له مخاطباً و مذكراً : " اعلم
يا بني - وفقك الله للصواب - أنه لم يتميَّز الأدمي بالعقل إلا ليعمل بمقتضاه فاستحضر
عقلك ، و أعمل فكرك ، و اخل بنفسك ، تعلم بالدليل أنك مخلوق مكلف ، و أن عليك
فرائض أنت مطالب بها ، و أن الملكين يحصيان أفاضك و نظراتك .. . فاعتبر بمن مضى
من الملوك و الزهاد أين لذة هؤلاء ، و أين تعب أولئك ؟ بقي الثواب الجزيل و الذكر الجميل
للصالحين ، و القالة القبيحة و العقاب الوبيل للعاصين ، وكأنه ما جاع من جاع ، و لا شبع من
شبع ، و الكسل عن الفضائل ينس الرفيق ، و حب الراحة يورث من الندم ما يربى على كل
لذة ، فانتبه و اتعب لنفسك و اعلم أن أداء الفرائض و اجتناب المحارم لازم ، فمتى تعدى
الإنسان فالنار النار " .²

ثم يوجه ابنه إلى التعرف على أدلة وجود الخالق من خلال بديع صنعه في هذا الكون
عموماً وفي الجسم الإنساني خصوصاً ، و لأن هذا هو أول ما يجب عليه معرفته من العلوم
ليعرف قدرة الخالق فيمجده ، فقال له : " و أول ما ينبغي النظر فيه : معرفة الله تعالى
بالدليل ، و معلوم أن من رأى السماء مرفوعة ، و الأرض موضوعة ، و شاهد الأبنية
المحكمة خصوصاً في جسد نفسه ، علم أنه لابد للصنعة من صانع ، و للمبنى من بان " .³
كما نجد ابن الجوزي يستعمل المنطق العقلي في الدعوة و ذلك من أجل أخذ العبرة
من التغيير ليكون مثلاً يقتدي به ذوي العقول النيرة للاعتاظ و الاعتبار فيقول منذراً الأحياء
بما حلّ بالأموات : " فأنه الله عباد الله ، عظّموا أنفسكم بأبائكم و أحبّابكم و جيرانكم و إخوانكم
فإن ذلك بلاغاً لمن تذكر و عبرة لمن تفكر ، إخوانكم كانوا بالأمس معكم يأكلون ما تأكلون
و يلبسون مما تلبسون ، فأصبحوا اليوم و قد صارت القبور لهم بيوتاً و صاروا بين أطباق
الثرى خوفتاً قد قسم الوارث أموالهم ، و نكح العدو و الصديق عيالهم " .⁴

¹ - التذكرة في الوعظ : ص 137 ، 138 ، 139 .

² - لغة الكيد : ص 15 .

³ - المصدر السابق : ص 17 .

⁴ - مستنار الواعظين : ص 193 .

و بهذا المنطق نرى كيف حاول ابن الجوزي توجيه أنظار المدعويين بمنطق العقل و الواقع و التأثير عليهم ، حتى يعتبروا بمن سار قبلهم على الطريق المحتوم طريق الموت . و مما لا يدعو إلى الشك أن لهذه الأمور التي أتى بها ابن الجوزي آثارها الجيدة على الدعوة و المدعويين ، و هذا نظرا لاستخدامه لبعض أساليب المنهج العقلي استخداما موفقا يمكن للدعاة الإفادة منه باعتباره مادة حية لهم و معينا لا ينضب يتزودون منه و خاصة إن أحسنوا استعماله بطريقة جيدة و مدروسة .

١- المنهج الحسي :

و قد عرف هذا المنهج بكونه المنهج الذي يعتمد أساسا على : " الحواس و المشاهدات و التجارب " ^١ ، و هذه الأمور مشروعة فقد أيد الله - سبحانه - الأنبياء و المرسلين بالمعجزات الحسية بحسب ما هو منتشر بين أقوامهم من علوم و معارف ، فقد أيد إبراهيم - عليه السلام - بالنجاة من النار المحرقة و أيد موسى باليد و العصا و أيد عيسى بإبراء الأكمه و الأبرص و أيد الرسول - صلى الله عليه و سلم - بمعجزة القرآن . و من أبرز الوسائل الدعوية في المنهج الحسي القدوة العملية ، و تغيير المنكر باليد و اللسان . و قد استخدم ابن الجوزي هذا المنهج من خلالهما ، و سنبين ذلك من خلال بعض الأمثلة التي تدل على حسن استخدامه لهذا المنهج .

ففي مجال القدوة العملية تحدث ابن الجوزي عن العديد من شيوخه ^٢ ، و كيف أنهم كانوا قدوة حسنة له ، فقد استفاد منهم جملة من صفات الصالحين زيادة على أنواع شتى من صنوف العلم ، و ذلك لأنه رحمه الله كان يرى بعينه البصيرة أن اللبيب هو الذي ينظر في سير المجتهدين ليستنهض همته ، إذ لا يصلح أمام العاقل أن يؤثر البطالة في موسم الأرباح ^٣ . و في باب القدوة أيضا وجدناه يشير في كثير من الأحيان إلى نفسه و ما كان له من همة عالية في طلب العلم ، و ذلك حتى يقتدي به أبناؤه و طلبه العلم أو غيرهم من المدعويين ^٤ و قد أشار إلى ذلك كثيرا في مؤلفاته ^٥ .

^١ المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتوح السانوي ، ص 214 .

^٢ مثل شعبة أبي منصور الحارثي ، الأعمش ، و ابن ناصب و العلامة ابن عسقل و غيرهم .

^٣ الطب الروحاني : ص 17 .

^٤ انظر ذلك بالتفصيل في فصل أساليب الدعوة و رسائلها عند ابن الجوزي

^٥ انظر من هذه الكتب : سيد الخاطر ، و لغة الكبد ، و المتكلم .

أما استخدامه لوسيلة تغيير المنكر باللسان واليد فقد حاول ابن الجوزي تطبيق هذه الطريقة قدر استطاعته ، ووفق ما كانت تقتضيه ظروف ذلك العصر و ملاساته المختلفة و هذا الاختلاف قد يبدو من داعية لآخر فقد يستطيع داعية أن يقوم بما لا يستطيعه داعية آخر . و ذلك نظرا لأن الظروف لم تكن من السهولة بمكان حتى يمكن للداعية أن يقوم بما أراد من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر .

و قد كان ابن الجوزي يشير بين الحين و الآخر إلى تلك الظروف الصعبة التي كان الدعاة و الوعاظ يعانون منها في ذلك الوقت كالمنع حينا و التوقيف حينا آخر و ربما الطرد من المدينة في بعض الأحيان كقوله في أحداث سنة ٥٦٦ هـ : " ثم أذن للوعاظ في الوعظ بعد أن كانوا منعوا مدة " ١ .

و مما دونه في أحداث سنة ٥٦٧ هـ قوله : " ثم منع الوعاظ كلهم من الوعظ في يوم الاثنين حادي و عشرين المحرم ، ثم بعث إلى النائب في الديوان فقال : قد تقدم إلي أن أختبر ثلاثة أنت و رجل من الشافعية ورجل من الحنفية ، و ذلك في سادس صفر فتكلمنا ثم أطلق الوعاظ واحدا بعد واحد " ٢ .

و قد كان له نصيب من هذه المضايقات التي كانت تحدث للوعاظ من حين لآخر بسبب كثرة الاتجاهات السياسية و التيارات الفكرية و العقيدية فقال يصف هذه الحادثة : ' وقع بيني و بين أرباب الولايات نوع معاداة لأجل المذهب ، فإني كنت في مجلس التذكير أنظر أن القرآن كلام الله و أنه قديم ، و أقدم أبا بكر . و اتفق في أرباب الولايات من يميل إلى مذهب الأشعري ، و فيهم من يميل إلى مذهب الروافض ، و تمالؤا علي في الباطن " ٣ .
فما كان منه رحمه الله إلا الاستعانة بالدعاء و التضرع لله بقوله : " سيدي انصرتني على من عاداني ، فإنهم لا يعرفونك كما ينبغي ، و هم معرضون عنك على كل حال ، و أنا — على تصيري — إليك أنسب " ٤

و على الرغم من ذلك، فإن ابن الجوزي لم يكن ليسكت على ما كان يراه من فساد إذ كان يغير بلسانه و قلمه فكان يهاجم أهل البدع ويرد عليهم ٥ ، سواء في مجالسه الدعوية

١ - التنظيم : ١٨ / ١٩١ .

٢ - المصدر السابق : ١٨ / ٢٠٠ .

٣ - صيد الخاطر : ص ٢٢٠ .

٤ - المصدر السابق : نفس الصفحة .

٥ - التنظيم : ١٨ / ١٤١

لو من خلال الأسئلة التي ترد عليه بين الحين و الحين سواء من المناوئين أو من المحايدين. لما باليد فقد باشر ذلك بقطع شعور العديد من اللاهين و العصاة في مجالسه الدعوية و الوعظية التي كان يعقدها في أماكن مختلفة من بغداد¹.

من خلال هذا العرض للمناهج الدعوية و أساليبها ، و بعد تعرضنا لأساليب الدعوة و رسائلها عند ابن الجوزي نخلص إلى أن ابن الجوزي - رحمه الله - قد زواج بين هذه المناهج و استعمل من كل منهج الأساليب التي تلائم تكوينه العلمي و الدعوي ، و تتماشى و العصر الذي عاش فيه ، كداعية و واعظ ، و ذلك لكون الداعية الحكيم هو الذي يختار لكل موقف ما يناسبه ، فهو ليس مجبراً بأن يلتزم بمنهج واحد جامد و إنما ينتقل بين هذا و ذلك ، فقد يبدأ في تبليغ دعوته مع إنسان معين بمنهج عاطفي ، ثم ما يلبث أن ينتقل به إلى منهج عقلي ، ثم يردّه إلى منهج خلقي يراه من خلال سلوكه و معاملاته و قد يجمع بين منهجين أو أكثر في آن واحد² ، و على هذا الأساس يجب علينا عند تقييم الداعية لمعرفة دوره و جهوده أن نحاكمه إلى ظروف عصره و ملبساته دون الالتفات إلى ما يوجد اليوم من أساليب و وسائل دعوية معاصرة .

لتنظيم : 18 / 197 ، 232 ، 236

مناهج الدعوة و أساليبها : علي حربشة ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، ط 2 ، 1409 ، 1989 م ، ص 176 .

ما ركز عليه ابن الجوزي في منهجه الدعوي

لم يكن ابن الجوزي واعظا يلقي مواعظه على المدعويين لهدايتهم فقط ، و لم يكن مجرد ناقل عن شيوخه فحسب ، بل كان مجددا في علم الوعظ و طرق الدعوة و مناهجها حيث كان للرجل في دعوته منهج دعوي متميز سلكه في مجالسه الدعوية و في مختلف مؤلفاته الوعظية و الأخلاقية التربوية عموما ، و من أهم ما ارتكز عليه هذا المنهج ما يلي :

١ - تركيزه في مستهل مجالسه الوعظية و الدعوية على قضايا التوحيد و العقيدة ، مع نصريه في العديد من أقواله بالنزاهة في منهجه الدعوي الإصلاحية بمنهج أهل السنة و الجماعة و ذلك لأن سلامة العقيدة هي من أهم الأصول التي يجب توفرها في الداعية لذلك فقد كان ابن الجوزي على الدوام يدعو الله - تعالى - بأن يثبتته على منهج أهل السنة و الجماعة بقوله : " اللهم وفقنا للطاعة ، و أمتنا على السنة و الجماعة ، و نجنا من أهوال يوم الساعة ، و أدخلنا في جملة أهل الشفاعة " ¹ ، و مما قاله في موضع آخر : " و ثبتنا عليها حتى تخرجنا من الدنيا بلا ذنب و لا تباعة على منهاج أهل السنة و الجماعة ، الذين أوجب لهم الرحمة و الشفاعة " ² .

أما القضايا العقيدية فقد حفلت بها مواعظ ابن الجوزي ، فلا يكاد يخلو له كتاب أو مجلس وعظ إلا و ذكر فيه المدعويين بعظمة الخالق و صفاته ، كل ذلك من أجل غرس العقيدة الصحيحة في قلوبهم ، و خاصة أنهم لم يكونوا يرتابون في كل ما يقوله لهم ³ و من جملة ما قاله في هذا الصدد : " تقدس في عظمته عن التشبيه و المثل فهو الحي القيوم ... و سما في علو ربوبيته عن القياس بالأقطار و الجهات ، فلا يقاس و لا يحذ و تنزه في عز قهره " ⁴ ، و مما قاله في التذكرة عن الخالق - تعالى - : " لا تتصور عظمته الأوهام ... كل معبود دون الله باطل ، و إنه وحده دون غيره رب الأواخر

¹ - بستان الراعظون : ص 144 .

² - المصدر السابق : ص 147 ، 195 .

³ - لغة الكهد : 21 .

⁴ - روح الأرواح : ص 31 ، 35 .

الأوائل " ¹ ، و يؤكد هذا التصور مرة أخرى بقوله : " الحمد لله الذي تنزّه في كماله عن تشبيهه و التمثيل و المثال ، و توحد في وحدانيته عن المؤنس ... " ² ، و الأمثلة لا تعدّ و لا تحصى في هذا الموضوع .

كثرة اعتماد ابن الجوزي في دعوته على الأسلوب الخطابي الذي يهدف إلى ترفيق القلوب و إصلاح النفوس و حثها على الخير و إبعادها عن الشر ، إضافة إلى اعتماده على أسلوب الترغيب و الترهيب و ذلك لتأثره بالنقل و الأثر ، حيث نجد في منهجه الدعوي جمع بين الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية ، ثم يختتم مجلسه في كثير من الأحيان بقصص الصالحين و شيء من أخبارهم و يمزج ذلك كلّه بأمثال الحكماء و أشعار الشعراء ليستميل قلوب المدعويين و يسيطر على عقولهم متبعاً طريقة منهجية ذات ترتيب منطقي تصاعدي فإثناء وعظه ينقل ابن الجوزي جمهور المدعويين من الآية الكريمة إلى الحديث الشريف إلى أقوال العلماء و المفسرين من الصحابة و التابعين و غيرهم ، ثم في الأخير يغوص إلى أعماق المدعويين بذكر رقائق الصوفية و مواظبتهم و في الختام أبيات من الشعر قد تكون له أو لشعراء الزهد الإسلامي و نستمتع إليه و هو يشرح منهجه للدعاة بقوله : " أحسن الترتيب في مجلس الوعظ أن يبتدئ فيه بأيات من القرآن الكريم يقرأها القارئ فإذا أنهاها ابتدأ المذكر بحمد الله لقول النبي - صلى الله عليه و سلم - : كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أبتز " ³ ثم ليشرح في تفسير الآيات ، و في كتابي المسمى بزاد المسير مقنع من غيره . ثم ليوضح تلك الآيات بأحاديث مسندة تليق بها و تقتضيها . و في كتابي المسمى بالحدائق ما يرومه من ذلك . و ليعرّج على قصة من قصص الأنبياء و في كتابي المسمى بالباب متسع . ثم ليدخل في خلال مجلسه حكايات الصالحين و في كتابي الملح و اللؤلؤة و نسيم الرياض و الأرج مجال رحب ، فإذا أنهى المجلس أجاب عن الأسئلة إن كان ثم يأمر القارئ أن يقرأ آية يختتم بالكلام عليها المجلس " ⁴ .

و هذا المجلس الوعظي في محبة الله تعالى و رسوله - صلى الله عليه و سلم - كمثل على ذلك ذكرناه بشيء من الاختصار ، يقول فيه : " إن من أصدق الشواهد على

¹ - التذكرة في الوعظ : ص 5 .

² - روح الأرواح : ص 63 ، و انظر للمزيد رؤوس القوارير ص 21 ، 22 ، 31 ، 32 ، 34 ، 38 ، 115 .

³ - طبقات الشافعية الكبرى : عبد الوهاب بن عبد الكافي السبكي ، محرر للطباعة الحيزية مصرط 2 1992م 16/1 ، و قال رواه

السلي و روي عن الزهري مرسل ، و قال الألبان في سلسلة الأحاديث الضعيفة 303/2 موضوع و في إرواء الغليل ضعيف .

⁴ - مقدمة كتابه في التصب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، القاهرة ، تحت رقم 1014 ، تصوف .

حبة تعلي الماجد : متابعة رسوله ، ومواظبة تلاوة تنزيله . فإن الهادي الرشيد و القرآن المجيد (لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)¹ . قال الحسن البصري - رحمه الله - : التزموا كتاب الله ، وتتبعوا ما فيه من الأمثال ، و كونوا فيه من هل النظر .. رحم الله عبدا عرض نفسه و عمله على كتاب الله - عز و جل - ، فإن وافق ما فيه حمد الله و سأله الزيادة ، و إن خالفه استعنتب ربه و رجع إليه من قريب .

و قالت أم الدرداء : سألت عائشة - رضي الله عنها - عن يدخل الجنة من قراء القرآن ، ما فضله على من لم يقرأه ؟ فقالت : إن عدد درجه بعدد أي القرآن . فمن دخل الجنة من القراء فليس فوقه أحد ، وإذا لم يكن فوقه في الجنة أحد فينبغي له أن يحسن كلام ربه مع القرآن ، و يجتهد في العمل بما فيه و إلا كان يوم القيامة من الخاسرين .

و قد روى عن أبي سليمان الداراني - رحمة الله عليه - أنه قال : الزبانية يوم قيامة أسرع إلى حملة القرآن يعصون الله بعد قراءته منهم إلى عبدة الأوثان ، غضبا عليهم حين عصوا الله بعد القرآن .

و عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : " رب نال للقران و القرآن يلعنه " إلى ان يقول : فالويل كل الويل لمن كان يقرأ القرآن يوم القيامة و هو المصر على الزنا و شرب الخمر و الرياء و ظلم العباد و أكل الحرام و الربا .

و قال الفضيل بن عياض² : حامل القرآن حامل راية الإسلام ، لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ، و لا يلغو مع من يلغو ، و لا يسهو مع من يسهو ، تعظيما لحق القرآن .

قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليته إذ الناس نائمون يختلون ، و بصمته إذ الناس يخوضون .

أهل القرآن أئمة بهم اهتدى	أهل السلوك إلى رضا الجبار
لكن عليهم أن يقوموا بالذي	فيه من المشروع للأبرار
صدق وإخلاص و حسن عبادة	و قيام ليل مع صيام نهار
و تورع و تزهد و تعفف	و تشبّه بخلائق الأخيار
يا حامل القرآن إن تك هكذا	فلك الهنا بفوز عقبي الدار
و متى أضعت حدوده لم تنتفع	بحروفه و سكنت دار بوار

1- فصلت : 42 .

2- الفضيل بن عياض : أبو علي التميمي البربرقي إمام فذوة ثقة مأمون ، من أركان سفيان بن عيينة في المولد و لكنه مات قبله
3- بسنوات ، كتب الكثير و روى عنه الكثير ، له مواظب و قدم راسخ في التقوى ، سير اعلام النبلاء 8 / 372 .

اللهم كما علمتنا كتابك فوقنا للعمل به حتى يكون شاهدا لنا عندك ، و قاندا إلى جنتك
و مؤسنا لنا في وحشة الألحاد ، و مركبا لنا يوم يقوم الأشهاد " ¹ .

و لما بين لنا ابن الجوزي منهجه على هذا النحو الذي رأينا ، وجدناه يوصي الدعاة
و الوعاظ بأن لا يخوضوا في مواضيع لا تهم المنعوبين و لا تنفعهم على الإطلاق و خاصة
المواضيع العقيدية الخاصة بأصول الدين و التي لا تباغها عقول العوام فقال : " و لا ينبغي
لواعظ أن يتكلم في الأصول إلا أن يقول : القرآن كلام الله غير مخلوق ، و أخبار الصفات
تمر كما جاءت ، و مهما خطر على البال من صفات الحق - عز و جل - أنه كذلك فهو
بخلافه لأنه (ليس كمثله شيء) ² و إن أقواما قلّ علمهم بالتفسير و الحديث و المواعظ
فروقوا مجالسهم بما يوجب العصبية من ذكر الصسوت و الحرف و التلاوة و المثلو
و الاستواء و النزول " ³ .

و قد نجح ابن الجوزي في استعمال هذا المنهج نجاحا كبيرا و الدليل على ذلك كثرة
محييه و مرديه و المستجيبين لدعوته ، و الذين كان يقدر عند الحضور منهم في مجالسه
الدعوية بمائة ألف أو يزيدون أحيانا كما ذكر ذلك بنفسه و ذكره مترجموه .

و من هنا يمكن أن نستنتج أن الدعوة ليست علما فقط بقدر ما هي فن تجميع الناس
على الحق و الصدق ، و الناعية الناجح فيها هو من كانت له القدرة على استمالة النفوس
و ترقيق القلوب و تطهيرها من أدرانها بالوقوف على كتاب الله و سنة رسوله عليه الصلاة
و السلام .

3 - تغليب ابن الجوزي في مذهبه الدعوي جانب الترهيب على جانب الترغيب ⁴
و بدراستنا لحياة ابن الجوزي و عصره رأينا أنه بتغاييه لأسلوب الترهيب على الترغيب قد
اختار الأسلوب المناسب لتبليغ دعوته لأن الكلمة الرقيقة قد تجدي مع فئة من الناس و لا
تجدي مع غيرهم و قد شرح منهجه في سبب اتباع منهج الترهيب بقوله في مقدمة كتابه
المعلق : " قد رأيت جماعة من القصاص قد تركوا ما يصح ذكره في المجالس من التخويف
و الترهيب و أخذوا في زخارف باطلة فإن ذكروا حديثا فالغالب أنه كذب ، فإن كان صحيحا

¹ - التذكرة في الوعظ : ص 66 ، 67 ، و غالب ما يذكره من شعر في مجالسه من نظمه لأن له مؤلفات شعرية كما ذكر
صاحب رسالة ابن الجوزي و مقاماته الأدبية و صاحب رسالة مواعظ ابن الجوزي دراسة تحليلية فيه .

² - الشورى : 43 .

³ - المقاصد و المذكرين : ص 368 .

⁴ - انظر تفصيل ذلك في فصل أساليب الدعوة و وسائلها عند ابن الجوزي .

فالعالم أنهم يزيدون فيه ما ليس منه و همهم تزويق المجلس كيفما اتفق فيخرج السامعون و ما نبتوا عن ذنب و لا خشع لهم قلب ، فان أفلح القاص قال لهم : رحمة الله واسعة ، و لا يذكر أنه شديد العقاب ... و إنى رأيت الأمن و قلة الخوف و مساكنة الطمع أمراضا ، قد نسولت على النفوس فعلمت أنه ما ركب من الأدوية التخويف ، لأنه إذا حدث الساكن بما يوجب السكون كان كمبرود أعطى برودة ، فجمعت في هذا الكتاب من الأحاديث المخوفات و المحذرات من السيئات ، و الواصفات للعقوبات ، و الحكايات المزعجات ، ما يقلق المطمئن ، و يقلل الساكن ، و يلين القلب القاسي ، و يجري الدمع الجامد و ينهض المتكاسل المتقاعد ¹ .

و هكذا فإن الجوزي يرى أن التخويف بالله حق ، و أن أثر الخوف منه بعيد المدى له نتائج الطيبة في الدنيا قبل الآخرة ، لأن الدنيا ما هي إلا مطية للآخرة إن صلحت الأولى صلحت الثانية بداهة .

4 - عناية ابن الجوزي بالنقل و الأثر عناية فائقة - سواء في مؤلفاته أو في مجالسه الدعوية - أكثر من اهتمامه بالتحليل و الاستنباط و الاستنتاج ، فقد كان يهتم بالجمع و النقل و غالبية مؤلفاته جاءت ممزوجة بالنقل و الأثر ² ، فلا يغلب عليها التحليل العلمي و الاستدلال المنهجي و قد علل ذلك بكونه مرتبا و ليس بمصنّف ³ ، و مع ذلك فهناك إشارات كثيرة أودعها أهم كتبه كتليبس إبليس و صيد الخاطر و الطب الروحاني و روح الأرواح حيث مزج فيها بين الاستدلال و التحليل و بين النصوص النقلية الأثرية ، فكان له فلم سيال في هذه الكتب فحيذا لو كانت جل مؤلفاته على هذا النحو .

5 - ولوع ابن الجوزي بالقصص و الحكايات ، حيث كثرت هذه القصص و الحكايات - رغم غرابتها في كثير من الأحيان - إلى حد التكرار ، و قد ذكر في كتبه من قصص الأنبياء و الصالحاء ما لا يحصى ، بل و وجدناه أفرد لها كتبا خاصة ⁴ رغم تصريحه بأن هذا العمل غير محمود ، حيث وجدناه في كتابيه " تليبس إبليس " و " القصص و المنكرين " يتدّد بالوعاظ الذين يستجيزون وضع الأحاديث و حكايات الترغيب و التهيب ، حيث رأى

¹ - الفلق : ص 28 .

² - ابن الجوزي الواعظ و منهجه في الدعوة إلى الله و الموازنة بينه و بين نهج الإمام الغزالي : جمعة علي عماد الخولي ، ص 279 .

³ - الدليل على طبقات الخطابلة : ابن رجب ، 1 / 414 .

⁴ - انظر فصل آثار ابن الجوزي .

إن هذا الأمر هو من صميم تلبس إبليس عليهم¹ ، فقال محذراً المدعويين مما يورده القصاص من كلام في الزهد و الرقائق ، مبيّناً لهم كيف أن الإكثار من سماعها يؤدي بالمستمع إلى قلة الفقه و العلم : " أكثر كلام الواعظ الرقائق ، فإذا تشاغل الإنسان بسماعها عن "فقه قلّ علمه"² . ثم يذكر بعد ذلك كيف أن الصحابة و التابعين — رضي الله عنهم — كانوا يعظون ، إلا أنه بعد ذلك غلب على أربابه قلة العلم و ذلك لاشتغالهم بالقصص و الحكايات دون التعمق في العلم الشرعي من فقه و حديث و أصول و غيره³ .

— كثرة تكرار ابن الجوزي للأفكار و الموضوعات ، و لعل هذا من أبرز السمات التي انفرد بها ابن الجوزي في منهجه الدعوي و في تأليفه للمصنفات أيضاً الوعظية منها على وجه الخصوص ، فمن خلال اطلاعنا على مؤلفاته وجدناه غالباً ما يكرر نفس الأفكار و الموضوعات بل و نفس العبارات في بعض الأحيان، حتى يكاد القارئ لا يفرق بين مضمون هذا الكتاب و ذاك إلا من خلال عنوانه .

فهذه الكتب على سبيل المثال : الياقوتة و روح الأرواح و رؤوس القوارير و صبا نجد و التذكرة في الوعظ و بستان الواعظين و المواعظ و المجالس تكاد تكون ذات مضمون واحد و إن اختلفت عن بعضها من حيث الصياغة و الحجم و القصص و الأقسام لا غير ، و كدليل على ذلك نذكر هذه الأمثلة فمثلاً ما قاله عن المرأة في الطب الروحاني يكاد يكون هو نفسه ما قاله في صيد الخاطر⁴ ، و ما كتبه عن الهوى و النفس في صيد الخاطر هو نفسه ما كتبه في الطب الروحاني و في ذم الهوى⁵ ، و ما كتبه عن العقل و فضله في كتابه الأذكياء يكاد يكون هو نفسه ما كتبه في الطب الروحاني و أخبار الحمقى و المغفلين⁶ ، بل و نجده يكرر الكلام عن الموضوع الواحد في الكتاب نفسه كما هو الحال في صيد الخاطر حيث تحدث مراراً عن العزلة و عن خطورة علم الكلام على العوام⁷ و كذلك كلامه عن الزهاد و الصوفية و عذره في ذلك هو كون الداعية و الواعظ عموماً كثيراً ما يكرر الموضوع و قد تحدث عنه أو كتب فيه من قبل و عذره في ذلك واضح كما

1- انظر تلبس إبليس : ص 169 و ما بعدها .

2- القصاص و المذكرين : ص 354 .

3- المصدر السابق : ص 257 .

4- انظر الطب الروحاني : ص 56 ، 57 ، و صيد الخاطر : ص 18 ، 201 ، 341 ، 481 .

5- انظر الطب الروحاني : ص 10 ، 11 ، صيد الخاطر : ص 60 ، 99 ، 115 — ذم الهوى : ص 18 و ما بعدها و ص 36 .

6- انظر الأذكياء : الصفحة الأولى من الكتاب — صيد الخاطر : ص 211 ، 212 ، 360 ، 450 ، 485 — الطب الروحاني : ص 9 .

7- صيد الخاطر : ص 271 ، 181 ، 419 ، 232 ، 262 ، 398 .

ذكر العلماء كونه رحمه الله " كان مكثرا من التصانيف ، فيصنف الكتاب و لا يعتبره ، بل يشتغل بغيره ، و ربما كتب في الوقت الواحد في تصانيف عديدة . و لولا ذلك لم يجتمع له هذه المصنفات الكثيرة " ¹ .

7- اعتماد ابن الجوزي في منهجه الوعظي الدعوي على الإكثار من استعمال الأساليب البلاغية، من صور بيانية و محسنات بدعية متكافة حينا و غير متكافة حينا آخر ، و يبدو أن ابن لجوزي قد أحسن الاختيار عندما مزج بين علم الوعظ و الأدب حيث نجح نجاحا كبيرا في استخدام التعبير البلاغي و المتمثل في التوريات و الجناسات و مختلف وسائل التعبير الأدبي للتأثير على المدعويين قدر ما يستطيع . و ذلك على الرغم من كون أسلوبه الدعوي عموما و الوعظي على الخصوص قد جاء غارقا في الصناعة اللفظية و الزخرفة الكلامية في بعض الأحيان و من الأمثلة على ذلك نذكر قوله عند الحديث عن ضرورة التوبة للعاصي : " إلى متى مع الملوئين ، متى تضاف إلى النظاف عليك يسا مسرف مشرف ² "

و في حديثه عن اغتنام الصحة يقول : " يا معشر الأصحاء اغتنموا نعمتي السلامة و الإمهال ، و احذروا خديعتي المنى و الآمال ، قد جرتكم على النفس تبذيرها في بضاعة العمر فانتهبوا لانتهاج الباقي " ³ ، و مما قاله مخاطبا الشباب امرا إياه بالتوبة قبل نزول الشيب : " يا من شاب و ما تاب و لا أصلح ، يا معرضا إلى ما يؤدي عن الأصلح ليت شعري بعد الشباب بماذا تفرح ؟ ما أشنع الخطايا في الصبا و هي في الشيب أقبح ، إذ نزل الشيب و لم يزل العيب فبعيد أن يبرح " ⁴ ، و في حديثه عن قيام الليل و دوره في صفاء النفس يقول : " لله در أقوام هجروا لذيق المنام و تنصلوا لما نصبوا له الأقدام و انتصبوا للنصب في الظلام ، يطلبون نصيبا من الإنعام ، إذا جن الليل سهروا و إذا جاء النهار اعتبروا " ⁵ ، و الأمثلة في هذا المجال كثيرة جدا .⁶

8 - اعتماد ابن الجوزي سواء في وعظه أو في مصنفاته الدعوية على الواقع الذي يعيشه

1- النيل على طبقات الخنازلة : ابن رجب : 1 / 414 .

2- صبا نجد : ص 47 .

3- المدمش : ص 351 .

4- المصدر السابق : ص 353 .

5- النياقوتة : ص 69 .

6

المزيد انظر صبا نجد ص : 26 & 49 & 54 & 58 - رؤوس القوارير : ص 140 ، 150 - النياقوتة : ص 72

بظروفه و ملبساته ، و ذلك من خلال تصويره لقضايا عصره و عيوب أفراد المجتمع ، ثم محاولته إعطاء المبررات و الحلول وفق تصوّره و تجاربه ، فرغم تأثره في منهجه الدعوى بشخصيات دعوية متعددة ، إلا أنه لم يكن ظلاماً مموخاً لأحد ، أو صورة طبق الأصل لهذه الشخصيات أو تلك¹ ، بل كانت له شخصيته المميّزة و طابعه الخاص ، فقد كان الرجل يدقّق النظر و يجول بفكره فيعتبر بما يرى و يتخذ منه درساً في الدنيا و عظة في الآخرة ، فهو يتأمل في أحوال الناس ليرى ثم يحاول استنتاج سبب صلاحهم و فسادهم² فراه يشبه حالهم يوم العيد بحالهم يوم القيامة³ ، و المخلوقات العظيمة كالجبال الشاهقة في طريق خيبر تلفت انتباهه أثناء رحلته إلى الحج⁴ ، و الحمل الذي يتعثّر من حمله الأثقال يلفت نظره⁵ ، و تلاعب الدنيا بالوزراء و العلماء و الأدباء و الفقهاء و المحدثين و الزهاد سبب عند ابن الجوزي⁶ ، و الذي يجلس في ركن من أركان مسجد الرصافة ينتبه له ابن الجوزي و يسأله عن سبب قعوده فيه⁷ ، و يرى الذي يعثر في الأرض و السبب الذي به للعثور⁸ ، بل حتى الكلاب لها حظها من الاهتمام عند ابن الجوزي .

فانظر إليه عندما أراد أن يبين حقيقة الحسد و سببه ضرب لنا مثلاً على ذلك بالكلاب فصور هذا الموقف بقوله : " رأيت كلاب الصيد إذا مرت بكلاب المحلة نبحتها هذه و بالغت و أسرعت خلفها ، و كأنها تراها مكرّمة مجلّلة فتحسدها على ذلك . و رأيت كلاب الصيد حينئذ لا تلتفت إليها و لا تعيرها الطرف و لا تعدّ نباحها شيئاً ، فرأيت أن كلاب الصيد كأنها ليست من جنس تلك الكلاب . لأن تلك غليظة البدن كثيفة الأعضاء لا أمانة لها و هذه لطيفة دقيقة الخلقة و معها أداب قد ناسبت خلقتها اللطيفة " .⁹

و هكذا فكل الذي ذكرناه من الصور الواقعية يرى فيها ابن الجوزي دليلاً على الله و مكرراً بالآخرة .

¹ - انظر فصل الدعوة و الداعية عند ابن الجوزي في مبحث مصادر الدعوة عند ابن الجوزي .

² - ص. الخاطر : ص 234 ، 249 .

³ - المصدر السابق : ص 468 .

⁴ - نفس المصدر : 154 .

⁵ - المصدر نفسه : ص 98 .

⁶ - نفس المصدر : ص 455 .

⁷ - المصدر السابق : ص 129 .

⁸ - نفس المصدر : ص 127 .

⁹ - المصدر نفسه : ص 465 .

و- تفاعل ابن الجوزي مع قضايا عصره ، و ذلك لإحساسه بدوره التغييري كداعية و يصلح يجب عليه أن يتفاعل تفاعلا ايجابيا مع عصره و ما يجد فيه من متغيرات يستطيع أن يقيم ما يدور فيه من أحداث ، و ليقوم ما يعانیه أفراد المجتمع من اعوجاج و يمكننا ملاحظة ذلك جليا في محاولته الربط بين علمه و بينته و هذا من خلال العديد من كبه .

ففي مقدّمة كل كتاب يحدثنا على أن الباعث لتأليفه لهذا الكتاب هو كذا و كذا من الأسباب مما قد يكون لاحظه في الواقع من أمراض و سلوكيات ، أو قد يكون الدافع سؤال من أحد الطلبة أو المدعوين بوجه عام فتكون الإجابة على شكل رسالة أو مصنف . و لتوضيح المسألة نذكر هذه الأمثلة من أقواله في بعض مؤلفاته ، فهي تدلّ دلالة واضحة على سعيه الدؤوب من أجل إصلاح ما يراه في مجتمعه من دواعي الفساد و أسبابه المباشرة و غير المباشرة ، كقوله في مقدمة كتابه " المقلق " : " أما بعد فإني لما رأيت التخاص قد تركوا ما يصلح ذكره في المجالس من التخويف و الترهيب ، و أخذوا في زخارف باطلة ... إلى أن يقول : فجمعت في هذا الكتاب من الأحاديث المخوفات و المخبرات من السينات ... ما يقلق المطمئن و يقلق الساكن ، و يلبس القلب القاسي و يجري الدمع الجامد و ينهض المتكاسل المتقاعد و الله الموفق " ¹ .

و من ذلك قوله أيضا في مقدمة كتابه " الوفا بأحوال المصطفى " لما رأيت خلقا من أمثال لا يحيطون علما بحقيقة فضيلته أحببت أن أجمع كتابا أشير فيه إلى مرتبته ، و أشرح حاله من بدايته إلى نهايته ² .

و يقول في كتابه ' الياقوتة ' : " هذه فصول من المواعظ ، كالأنموذج للواعظ ، ينسج على منوالها و يدرج في مثالها تشتمل على إشارات لائحة و عبارات واضحة و الله المعين " ³ .

و قال في مقدمة كتابه " ذم الهوى " : " شكّا لي بعض من أثرت شكواه إثارة همّتي في جمع هذا للكتاب ، من بلاء ابتلي به ، و هوى هوى فيه ، و سألني المبالغة في وصف ذواءه ، فأهديت له نصيحة و ديد لأدواته " ⁴ ، و ذكر السبب الموضوعي لتأليفه كتاب

¹ - المقلق : ص 28 .

² - الوفا بأحوال المصطفى : ابن الجوزي ، تحقيق معطى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية بيروت ط1 ، 1988 م ، ص 1 .

³ - الياقوتة : ص 41 .

⁴ - ذم الهوى : ص 9 .

الحث على حفظ العلم و ذكر كبار الحفاظ " فقال : " و لقد تأملت المتفهمة أنهم يعيدون
الدرس مرتين أو ثلاثا فإذا مرّ على أحدهم يومان نسي ذلك ، فذهب زمان الأول يانعا
ويحتاج أن يبتدئ الحفظ لما تعب فيه أولا ، و السبب أنه لم يحكمه ، و لما رأيت الكسل
مستوليا على المتشاغلين بالعلم ، وضعت هذا الكتاب محرصا لهم على الاجتهاد " ¹ .
و عن الدافع لكتابة رسالته " لفنة الكبد إلى نصيحة الولد يقول : " ثم لما رأيت منه
نوع توان عن الجد في طلب العلم ، فكتبت له هذه الرسالة أحثه بها و أحركه على سلوك
طريقي في كسب العلم ، و أدله على الالتجاء إلى الموفق - سبحانه و تعالى - " ² .
و غير هذا كثير عند ابن الجوزي، و هو يعطينا صورة عن الآفاق الرحبة التي امتدّ فيها
علمه، فكان بذلك من أكبر الدعاة تفاعلا مع عصره و ثقافته ، حيث استطاع أن يمزج بين
واقعه الاجتماعي و منهجه الدعوي لينسج من مصادر دعوته و ثقافة عصره وظروفها
رداء جمع فيه بين أصالة الدعوة و تجديد الداعية و بعد رؤيته .
11 - اعتماد ابن الجوزي على المنهج العلمي و تحليته بالأمانة العلمية كقاعدة أساسية في
منهجه الدعوي و نستشف ذلك من خلال استنكاره على العلماء عدم أخذهم بها فقال : " إن
كثيرا من العلماء يأنفون من قول لا أدري ، فيحفظون بالفتوى جاههم عند الناس لئلا يقال :
جهلوا الجواب ، و إن كانوا على غير يقين مما قالوا و هذا نهاية الخذلان . و قد روي عن
مالك بن أنس أن رجلا سأل عن مسألة فقال : لا أدري ، فقال سافرت البلدان إليك ، فقال
رجع إلى بلدك و قل سألت مالكا فقال لا أدري . فانظر إلى دين هذا الشخص و عقله كيف
استراح من الكلفة ، و سلم عند الله - عز و جل - " ³ .
وقد أخذ ابن الجوزي هذه الصفة الحميدة عن مشايخه حيث يذكر عن شيخه
أبي منصور الجواليقي ⁴ أنه : " ربما سئل المسألة الظاهرة التي يبادر بجوابها بعض غلمانه
فيثوقف فيها حتى يتيقن " ⁵ .

و نجده يبرز لنا بأن الراحة الحقيقية للعالم هي في قوله : الله أعلم أو لا أدري لذلك
كان - رحمه الله - يعيب على العلماء الذين يفتون بغير علم من أجل نيل الصدارة و جفط

¹ - الحث على حفظ العلم و ذكر كبار الحفاظ : ص 32 .

² - لفنة الكبد : ص 13 ، 14 .

³ - صيد الخاطر : ص 206 ، 207 .

⁴ - تقدمت ترجمته في بحث سيرته في فصل حياة ابن الجوزي .

⁵ - صيد الخاطر : ص 143 .

ماء وجوههم و لنلا يقال عنهم جهال و ضرب لنا أمثلة ببعض ممن كان يدعي العلم
والمعرفة في عصره و كيف كانوا يفتنون الناس بغير علم فقال : " و فيهم من يقدم على
القوى بجهل لنلا يخل بناموس التصتر " ¹ ، و نجده يصور مشهدا اخر لبعض مدعي العلم
في عصره فقال : " و لقد حدثني الشيخ أبو حكيم -- رحمه الله -- : أن الشريف الدحالي --
و كان يقصد فيزار و يتبرك به -- حضر عنده يوما فسأل أبو حكيم : هل تحل المطلقة
ثلاثة اذا ولدت ذكرا قال : فقلت لا والله ، فقال لي الشريف : اسكت فوالله لقد أفتيت الناس
بانها تحل من هينا إلى البصرة .

وحكى لي الشيخ أبو حكيم جد اذك الحداد و كان يتوسم بالعلم ، جاءت إليه امرأة
فزوجها من رجل ولم يسأل عن انقضاء العدة ، فاعترضها الحاكم و فرق بينها و بين الزوج
وأنكر على المزوج . قال : فلقينه المرأة . فقالت : يا سيدي أنا امرأة لا أعلم فكيف
زوجتي ؟ فقال : دعي حديثهم ما أنت إلا طاهرة مطهرة " ² .

و في باب اخر نجده يعيب على الفقهاء الذين نسوا الأمانة العلمية فقصروا علمهم من
أجل إتقان فن الجدل أو من أجل إفتاء الناس حتى ترتفع أقدارهم بين العامة فهانت عندهم
الخطايا بسبب ذلك و كأنهم لم يعلموا أن العلم أمانة قبل أن يكون شيئا من هذا القبيل فقال :
" و الفقيه قد وقع له أنه بما قد عرف من الجدل الذي يقوى به خصامه ، أو المسائل
التي يفتي بها الناس ما يرفع قدره ، و يمحو ذنبه . فربما هجم على الخطايا ظنا منه أن ذلك
يدفع عنه " ³ .

11 -- و من أهم الصفات الدعوية و أساسياتها التي انفرد بها ابن الجوزي في منهجه
الدعوي الإخلاص و القناعة و التعفف و العزلة عن الخلق حيث كان يرى بأنها من أهم ما
يجب أن يحرص عليه الدعاة ليؤدوا دورهم في الدعوة على أحسن وجه يقول في ذلك :
ينبغي لمن أراد أن يعظ الناس و يقص عليهم أن يحكم العلوم على ما ذكرنا في الباب
الثالث ثم يريد وجه الله تعالى بوعظه ، و يتعفف عن أموال الناس ، و أحب له أن يكون له
كسب و قناعة بما يملك ، و من طمع في أموال الناس لم يؤمن عليه النفاق و الرياء
و الأولى له أن يجتنب مخالطة الناس ، و أن لا يرى إلا في ساعة وعظه فإنه متى خالطهم

¹ - صيد الخاطر : ص 56 .

² - المصدر السابق : ص 119 .

³ - نفس المصدر : ص 436 ، 437 .

عازهم ذهبت هيئته من القلوب " ¹ .

كما كانت عدم الإطالة في الموعظة مما انفرد به ابن الجوزي في منهجه وذلك حتى لا يمل المدعوون و قد أوصى الدعاة بذلك فقال : " و لا ينبغي للواعظ أن يطيل المجلس فقد قال أحمد بن حنبل : لا أحب للقااص أن يملّ الناس فلا يطيل الموعظة إذا وعظ " ² .

كما تفرد ابن الجوزي في شخصيته العلمية و الدعوية بأن جمع العديد من صنوف العلم إلى جانب علم الوعظ ، حيث كان يرى أن ذلك من المقومات العلمية للداعية الناجح في عمله الدعوي ، و هذا نظرا لأن القصور العلمي يعدّ من أكبر ما يضر بالداعية أثناء أداء عمله الدعوي يقول ابن الجوزي مبرزاً هذه المسألة للدعاة و الوعاظ : " و متى كان الواعظ عالماً بتفسير القرآن و الحديث و سير السلف و الفقه عرف الجادة و لم يخف عليه بدعة من و دلّه علمه على حسن القصد و صحة البيّنة و متى كان قاصر العلم طالبا للدنيا لم ينفع غيره و ضرّ نفسه " ³ .

و خلاصة القول فإن ابن الجوزي كغيره من العلماء و الدعاة حاول مقاومة مظاهر العبث و الفساد التي كانت تنخر كيان المجتمع و تسعى إلى تفتيت روابطه ، و ذلك بأسلوب اللين تارة و بأسلوب القسوة و التهديد و الوعيد حيناً آخر ، زيادة على تلك السمات التي انفرد بها عن غيره من الدعاة ، فجاء منهجه ملائماً لعصره الذي كان يقتضي مثل هذا النهج الذي استوحاه من صميم القرآن و السنة .

¹ - القمصان و المذكرين : ص 359 و ذكر مثل هذا الكلام في لفظة الكبد : ص 44 .

² - المصدر السابق : ص 369 .

المبحث الثالث

خصائص منهج ابن الجوزي

رغم كون الدعوة إلى الله - عز و جل - دعوتهم واحدة إلا أن منهجهم قد يختلف من عصر إلى عصر و من جيل إلى آخر ، و لما كانت الدعوة تقدّم في كل عصر في ثوب قشيب يليق بها ، أصبح ذلك من أكبر الأدلة على مرونة مناهج الدعوة و حركيتها عبر مسار التاريخ الطويل للدعوة الإسلامية .

و لما صار من الضرورة بمكان تمييز مناهج الدعوة عن بعضها البعض في عناصر معينة ، كان من الطبيعي أن يختصّ منهج ابن الجوزي و دعوته بخصائص عديدة ليعرف بها و تصبح دالة عليه ، و ليتميز منهجه عن منهج غيره من الدعاة و المصلحين على مرّ القرون ، و بعد دراستنا لشخصية الرجل و أساليب دعوته و مناهجها، و أصناف المدعوين عنده ، و محاور دعوته استطعنا أن نخلص إلى أهم ما تميّزت به دعوته ، و الإطار العام لمنهجه الدعوي و ذلك من خلال الخصائص التالية :

1 - تمسك ابن الجوزي بشرع الله و تقديمه لكتاب الله و سنة رسوله - صلى الله عليه و سلم - في دعوته عن أي مصدر سواهما ، حيث كان رحمه الله مقدّما لهما عن كل كلام و ذلك لتشبعه منذ طفولته بهذين المصدرين الثّرين ، فراح ينهل منهما في دعوته بالاستشهاد بهما مرة و بالافتباس مرة أخرى و بالتضمين و الإشارة مرة ثالثة و هكذا فلنستمع إلى ما يقوله في توضيحه لأهمية الوعظ بالقران و الاستشهاد به¹ : " إن مواعظ القرآن تذيب الحديد ، و للفهوم كل لحظة زجر جديد و للقلوب النيرة كل يوم به عيد ... (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد)² ، و قد وضع لنا منهجه هذا بعبارة صريحة عندما قال : " غير أن لنا ضابطا هو الشرع ، فيه الرخصة و فيه العزيمة ، فلا ينبغي أن يلام من حصر نفسه في ذلك الضابط "³ .

و نجده يتحدّث عن سبب تمسكه بالشرع فيقول : " و المقصود أن تعلم أن الشرع تام كامل فإن رزقت فهما له فأنت تستبغ الرسول - صلى الله عليه و سلم - و أصحابه

¹ - البصرة : ص 1 / 110 .

² - ق : 45 .

³ - صيد الخاطر : ص 96 .

و تترك بنيات الطريق و لا تقلد في دينك الرجال . فان فعات فانك لا تحتاج إلى وصية أخرى . و احذر جمود النقلة ، و انبساط المتكلمين ، و جموع المنزهدين و شره أهل الهوى و وقوف العلماء على صورة العلم من غير عمل . و عمل المتعبددين بغير علم . إلى أن يقول : عصمنا الله و اياكم من تقليد المعظمين و ألهمنا اتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - فإنه ذرة الوجود ، و مقصود الكون - صلى الله عليه وسلم - و على الله أصحابه و أتباعه و رزقنا أتباعه مع أتباعه " ¹ .

و يحدثنا عن ضرورة اتباع الرسول - عليه الصلاة و السلام - بقوله : " الخير كله في متابعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - و البركة في حفظ كلامه المنقول " ² .

و انظر كيف يعيب على أهل عصره جهلهم و خروجهم عن إطار الشرع و تمسكهم بالعادة ، رغم ما يقعون فيه من باطل و منكر يقول : " من عرف الشرع كما ينبغي و علم حالة الرسول - صلى الله عليه وسلم - و أحوال الصحابة و أكابر العلماء ، علم أن أكثر الناس على غير الجادة و إنما يمشون مع العادة ، يتزاورون فيغتاب بعضهم بعضا و يطالب كل واحد منهم عورة أخيه ، و بحسده إن كانت نعمة ، و يشتمت به إن كانت معصية ، و يتكبر عليه إن نصح له ، و يخادعه لتحصيل شيء من الدنيا ، و يأخذ عليه العثرات إن أمكن . . . إلى أن يقول : فالأولى بمن عرف الله - سبحانه - و عرف الشرع و سير السلف الصالحين الانقطاع عن الكل " ³ .

و مع ذلك فابن الجوزي كان واسع الثقافة معطاء الفكر ، فقد تنوعت مصادره الثقافية و الدعوية و تجاوزت حدود النطاق الخبري في مجاله العلمي و ارتبطت بنصوص الوحي و بالعلوم المختلفة ، لذلك وجدناه دائما يحرص في منهجه الدعوي على الجمع بين النقل و العقل ⁴ ، و يؤكد في أقواله على أن النقل جاء موافقا للعقول السليمة ، و إن ظهر تعارض بينهما فذلك لقصور العقل الإنساني عن إتراك فيما عارض فيه النقل الصحيح و قد وضع ابن الجوزي ضرورة الجمع بينها بقوله : " بأدلة النقل مع مساعدة العقل عما لا يحتاج إليه العبد " ⁵ .

¹ - صيد الخاطر : ص 121 .

² - التذكرة في الوعط : ص 69 .

³ - صيد الخاطر : ص 288 ، 289 ، و ذكر نفس الموضوع في ص 170 .

⁴ - الآراء الأخلاقية عند ابن الجوزي : عبد العزيز سيد هاشم الغزولي ، ص 75 .

⁵ - صيد الخاطر : ص 272 .

2- الإستقلالية و البعد عن الجمود و التقليد : حيث حرص ابن الجوزي على أن يبتعد عن الجمود و التقليد¹ و ذلك لتفاعله مع عصره ، فلما يكن الرجل مقلداً يكتفي بالنقل و التزديد لما قاله غيره من العلماء ، فقد حارب التقليد الأعمى و الذوبان في شخصية الآخر و نظراً لكون خبرته العملية في الدعوة كانت عميقة و خصبة فقد كانت له من أهم المصادر التي أمدته بالأفكار أو عملت على تصحيحها و توجيهها و تنميتها و صبغها بطابع ذاتي .

و لما كان ابن الجوزي مقدماً لكتاب الله - عز و جل - ، و للعقل عنده منزلته الخاصة فقد كان يبتعد في منهجه الدعوي عن تقليد الأشخاص أو الإعجاب بهم لمجرد الإعجاب و لذلك وجدناه خالف الإمام أحمد - رحمه الله - في بعض المسائل² ، و حمل على العلماء و سخط على الكثير منهم ، خاصة في كتابه " تائيس ايليس " الذي حدّد فيه موقفه من الكثير من فكر و سلوكيات العديد من الطوائف كالصوفية و الزهاد و الفقهاء و علماء الكلام و المحدثين فكان " موقفه من عصره موقف ثورة و اصلاح و أدى به ذلك إلى خصومات متعددة منها المحنة الشديدة التي نكب بها في أواخر حياته³ .

و ابن الجوزي لم يكن من الذين يحفلون بالتصفيق للغير و امتداح من لا يستحق المدح ، فرغم كونه حنبلي المذهب إلا أن هذا لم يكن ليمنعه من التعبير عن رأيه و اتباع ما يميله عليه عقله و خاصة في الموازنة بين الأدلة و اختيار الراجح منها سواء وافق المذهب أم خالفه و لذلك وجدناه يتحدث عن العقل و مكانته بطريقته الجريئة فيقول : " مدار الأمر كله على العقل ؛ فإنه إذا تمّ العقل لم يعمل صاحبه إلا على أقوى دليل . و ثمرة العقل فهم الخطاب ؛ و تلمح المقصود من الأمر و من فهم المقصود و عمل على الدليل كان كالباني على أساس وثيق "⁴ ، و نراه ينال على فضيلة العقل و أهميته و أنه أول الوسائل التي تعرّف الإنسان بخالفه فيقول : " قد ثبت أن العقل هو الآلة التي عرف بها الإله و حصل تصديق الرسل و التزام الشرائع ، و أنه المحرض على طلب الفضائل و المخوف من طلب الرذائل و الناظر في المصالح و العواقب ، فهو منبر أمر الدارين ، و مثله كمثل الضوء في الظلمة .. إلى أن يقول : فينبغي لمن رزق العقل أن لا يخالفه و لا يخلد إلى

¹ - الآراء الأخلاقية عند ابن الجوزي : عبد العزيز سيد هاشم الغزولي ، ص 71 .

² - انظر فصل آثار ابن الجوزي ، بحث نماذج من فتاواه .

³ - الثرية و التعليم عند ابن الجوزي : عبد البديع عبد العزيز الخولي ، ص 31 .

⁴ - صيد الخاطر : ص 211 .

ضده و هو النهوى¹.

3 - الجمع بين العلم و العمل : كان الجمع بين العلم و العمل من أبرز ما تميز به ابن الجوزي في منيجه الدعوي ، و لعل الدافع القوي الذي دفعه للتأكيد على الجمع بين العلم و العمل و غلبة المنهج العملي عليه في بعض الأحيان ، هو اشتغاله بالدعوة و الوعظ و الإصلاح و نظرا لكونه داعية و واعظا و مصلحا اجتماعيا² فقد حاول تقويم سلوك أفراد المجتمع و كان هذا الأمر بالنسبة له الدافع القوي الى الاهتمام بالعمل فلنستمع إليه و هو يقول لابنه ناصحا له بأن يجمع بين العلم و العمل فقال : " و اياك أن تقف مع صورة العلم دون العمل به . فإن الداخلين على الأمراء و المقبلين على أهل الدنيا قد أعرضوا عن العمل بالعلم فمنعوا البركة و النفع به "³.

و يبين له من جهة أخرى أن الجمع بين العلم و العمل و إن كان طريقه صعب و شاق لكنه ضروري و أكيد بالنسبة إليه فقال له : " و ينبغي أن تسمو همتك إلى الكمال فإن خلقا وقفوا مع الزهد ، و خلقا تشاغلوا بالعلم ، و ندر أقوام جمعوا بين العلم الكامل و العمل الكامل "⁴.

و لنستمع إليه و هو يحدث نفسه التي أرادت الوقوف مع صورة العلم دون العمل به فقال لها موبخا و مؤنبا : " إلا أني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم ، فصحت بسها فما الذي أفادك العلم ؟ أين الخوف ؟ أين القلق ؟ أين الحذر ؟ أوما سمعت بأخبار أختيار الأخبار في تعبدهم و اجتهادهم؟ أما كان رسول الله - صلى الله عليه و سلم - سيد الكل ثم إنه قام حتى تورمت قدماه؟ أما كان أبو بكر - رضي الله عنه - شجي النسيج ، كثير البكاء ؟ أما كان في خد عمر - رضي الله عنه - خطان من آثار الدموع ؟ ... أما تعلمين أختيار الأئمة الأربعة في زهدهم و تعبدهم ، أبو حنيفة ، و مالك ، و الشافعي ، و أحمد . احذري من الإخلاق إلى صورة العلم ، مع ترك العمل به ، فإنها حالة الكسالى "⁵.

و اسمع إليه و هو يتحدث عن شيوخه معترفا لهم بالفضل عليه و خاصة الذين جمعوا بين العلم و العمل فقد كانوا أكثر نفعا له من غيرهم فقال : " لقيت مشايخ ، أحوالهم مختلفة

1 - الثبات عند المعامات : ص 24 .

2 - الآراء الأخلاقية عند ابن الجوزي : عبد العزيز سيد هاشم الغزولي ، ص 76 .

3 - لفنة الكبد : ص 41 .

4 - المعسر السابق : ص 40 .

5 - صمد الحاضر : ص 71 ، 72 .

يتفاوتون في مقاديرهم في العلم ، و كان أنفعهم لي في صحبتته العامل منهم بعلمه و إن كان غيره أعلم منه ¹ .

و لولوع ابن الجوزي بالعلم طيلة حياته وجدناه يتحدث عنه مرارا و عن الهدف منه وعن فضله وعن ضرورة اقتترانه بالعمل ، حتى يكون نافعا و يبرز دوره الفعال المنسوط به ، و مما قاله : " و ليس العلم بمجرد صورته هو النافع بل معناه ، و إنما ينال معناه من تعلمه للعمل به ، فكلما دله على فضل اجتهد في نيته و كلما نهاه عن نقص بالغ في تجنبه فحينئذ يكشف العلم له سره ، و يسهل عليه طريقته ، فيصير كمجذب يحث الجاذب فإذا حركه عجل في سيره ، و الذي لا يعمل بالعلم لا يطلع على غوره و لا يكشف له عن سره ، فيكون كمجنوب لجاذب جاذبه " ² .

٤ - الجرأة في الجهر بالحق و عدم كتمان العلم : لقد كانت هذه الخصيصة بارزة بشكل واضح عند ابن الجوزي ، فقد كان الرجل من أعمدة المذهب الحنبلي ، حيث كان يظهر في مجالسه مدح عاماء السنة و خاصة الإمام أحمد - رحمه الله - و مما قاله : " اعتمادي على السنة و القرآن ، و اعتقادي اعتقاد فقهاء البلدان ، و أورد الصحيح في نقلي وأقلي اليهان ³ .

و لكنه لما يسأل من بعض أصحاب الحديث : هل في مسند أحمد ما ليس بصحيح ؟ فيجيب بجرأة العالم البصير : نعم إلا أن البعض لم تعجبهم جرأة ابن الجوزي في الحق فالتفتضوا لذلك و أقاموا الدنيا و لم يقعدوها و بدأوا في تأليف الفتاوى ، لكن الرجل بقي ثابتا على موقفه و قد صور الحادثة بكل تفاصيلها بقوله : " فعظم ذلك على جماعة ينسبون إلى المذهب فحملت أمرهم على أنهم عوام ، و أهملت فكر ذلك . و إذا بهم قد كتبوا فتاوى فكتب فيها جماعة من أهل خراسان يعظمون هذا القول ، و يردونه و يقبحون قول من قاله . فبقيت دهشا متعجبا ، و قلت في نفسي : و اعجبا صار المنتسبون إلى العلم عامة أيضا و ما ذلك إلا أنهم سمعوا الحديث و لم يبحثوا عن صحيحه و سقيميه ، و ظنوا أن من قال ما قلته قد تعرض للطعن فيما أخرجه أحمد ... إلى أن يقول متأسفا : " قد غمّني في هذا الزمان أن العلماء لتقصيرهم في العلم صاروا كالعامّة ، و إذا مرّ بهم حديث موضوع قالوا قد

¹ - صيد الخاطر : ص 143 .

² - المصدر السابق : ص 157 ، 158 .

³ - رؤوس القوارير : ص 38 .

روي و البكاء ينبغي أن يكون على حساسة الهمد¹.

و لعل من أهم ما يظهر جراءة ابن الجوزي في جهره بالحق أنه كتب عن الكثير من تظاهرات الاجتماعية و الأخلاقية و نقد الكثير من الطوائف و المال و شتى طبقات المجتمع و أفراد بل و الناس جميعا فلم يسلم إلا القليل².

فمن انتقدهم من أصحاب الديانات و المال السوفسطانيين و الدهريين و الفلاسفة و أهل الكتاب من اليهود و النصارى ، و على جاحدي البعث و عبادة الأصنام من أهل الجاهلية و من طبقات المجتمع من أهل ملتنا انتقد طبقة العلماء و أولهم أهل اللغة و الأدب و الشعر و القراء و أصحاب الحديث و الفقهاء و الوعاظ و القصاص و المذكرين ، كما انتقد طوائف الزهاد و الصوفية و النساء و العوام ، و من طبقة أهل السلطة انتقد الولاة و السلاطين³.

و يوضح ابن الجوزي أن سبب سلوكه هذا السنج هو نصرة الشريعة و تنزيها عن كل ما ألصق بها من أشياء كثرت صداقها و خادسة من طرف أهل الزهد و التصوف فقال : ' و نحن نذكر بعض ما بلغنا من اغلاط القوم و انه يعلم أننا لم نقصد ببيان غلط الغالط إلا تنزيه الشريعة و الغيرة عليها من الذل و ما علينا من القاتل و الفاعل و إنما نؤدي بذلك أمانة العلم و ما زال العلماء يبين واحد منهم غلط صاحبه قصدا لبيان الحق لا لإظهار عيب الغالط و لا اعتبار بقول جاهل يقول : كيف يرد على فلان الزاهد المتبرك به . لأن الانقلاب إنما يكون إلى ما جاءت به الشريعة لا إلى الأشخاص ، و قد يكون الرجل من الأولياء و أهل الجنة و له غلطات فلا تمنع منزلته بيان زلله⁴.

5- التركيز على القدوة الحسنة : كان ابن الجوزي في منهجه الدعوي يدرك أهمية القدوة الحسنة في إعداد الفرد الصالح للمجتمع النظيف المتوازن ليكون نموذجا حيا تقتدي به الأجيال القادمة ، كما نجد ابن الجوزي يربط كيفية التعرف على عيوب النفس بأن ينظر الإنسان العاقل في سير العاملين ثم يقيس أفعاله بأفعالهم ، فيرى حينئذ آثار النقص عينا

¹ - صيد الخاطر : ص 299 ، 300 .

² - انظر تفصيل هذه الموضوعات في فصل مجاور المدخول عند ابن الجوزي ، و كذلك فعل أمستاف المدغوس عند ابن الجوزي .

³ - انظر تليس إبليس في الصفحات : 63 ، 60 ، 72 ، 81 ، 92 ، 103 ، 106 ، 110 ، 118 ، 155 ، 158 ، 163 ، 169 ، 172

181 ، 209 ، 223 ، 191 ، 909 ، ففي شرحه وفي طهارة الفرق و الحمايات .

⁴ - صيد الخاطر : ص 231 .

فيجتنبه فضلا عن فعل القبائح و المنكرات التي أمر باجتنابها¹ .

ولقد كان - رحمه الله - في تناوله لمختلف الموضوعات الدعوية و الوعظية يسوق العديد من الحكايات و القصص على سبيل الاقتداء و الاتعاظ ، و قد خصص أكثر من كتاب لترجمة حياة الخلفاء الراشدين و الصحابة و العلماء و الصالحين فذكر مناقبهم و مآثرهم ككتاب صفة الصفوة و سلوة الأحرار و كتاب الأذكياء و الظراف و المتماجنين و أخبار الحمقى و المغفلين ، و سيرة عمر بن الخطاب و الحسن البصري إلى غير ذلك من التصانيف² .

وقد ذكر ابن الجوزي في مقنمة كتابه أخبار الحمقى و المغفلين أنه جمع أخبار الأذكياء لتكون مثالا يحتذى ؛ لأن أخبار الشجعان تعلم الشجاعة ، أما جمعه لأخبار المغفلين فهو لأسباب أيضا منها : أن ذكرهم يحث المتيقظ على انتقاء أسباب الغفلة إذا كان ذلك داخلا تحت الكسب و الرياضة³ .

6 - العموم و الشمول⁴ : فالمنتبع لدعوة ابن الجوزي من خلال مراحلها المختلفة يرى أنها دعوة عامة شاملة لمختلف طبقات المجتمع الذي كان يعيش فيه آنذاك .

فدعوته لم تكن مقصورة على فئة مخصوصة من الناس بل امتدت إلى الخلفاء و الحكام و الوزراء بالإضافة إلى عوام الناس و أهل الكتاب في بعض الأحيان⁵ .

و لم تكن دعوته لتتصف بالعموم و الشمول إلا لأنه استخدم أساليب و وسائل دعوية مكنته من إيصال دعوته لكل هؤلاء الأصناف من المدعويين و جعلت منه داعية موقفا و واعظا ناجحا استطاع تحقيق أهداف الدعوة و غاياتها . و كدليل على شمول دعوته فإن مجالسه الدعوية كان يحضرها جميع أصناف المدعويين ابتداء بالحكام و الوزراء و انتهاء بالعوام⁶ .

و هكذا كانت دعوة ابن الجوزي دعوة لعامة الناس دون تمييز ، فاستفادوا منه أيما استفادة لما دعاهم إلى تقوى الله - عز و جل - و إلى العمل الصالح و قد أثمرت دعوته

¹ - الطب الرحاني : ص 49 .

² - انظر مضمون هذه المؤلفات و غيرها في فصل آثار ابن الجوزي .

³ - أخبار الحمقى و المغفلين : ص 15 ، 16 .

⁴ - انظر منهج ابن الجوزي في الدعوة إلى الله : عبد الرحيم المغدوري ، ص 142 ، و الباحث أشار إلى هذه الخصيصة ثم ذكر في صفحة 151 و في صفحة 160 قوة البيان و سرعة البديهة و إحكام ابن الجوزي لصناعة الوعظ و هذه في الحقيقة لا تدخل ضمن خصائص منهجه الدعوي كما ذكر الباحث .

⁵ - انظر تفصيل ذلك في فصل أصناف المدعويين عند ابن الجوزي .

⁶ - انظر الليل على طبقات الخنابلة : ابن رجب ، 1 / 108 ، 109 - سير أعلام النبلاء : الذهبي ، 21 / 370 و ما بعدها .

و انت أكلها فتخرج على يديه العديد من طلبه العلم و تاب على يديه الكثير من العصاة و المذنبين .

7 - المزج بين الوعد و الوعيد و الترغيب و التهيب مع تغليب جانب التهيب في بعض الأحيان ، كما بدا في بعض مواعظه موازنا بينهما ، حريصا على عدم أخذ المدعوين بالتهيب و التخويف وحده ، فوجدناه بجانب ذكر الموت و القبر و النار يحث على التوبة و أعمال البر و ما لها من ثواب عظيم .

و بهذا الأسلوب يكون ابن الجوزي قد امتلك ناصية الوعظ لاستطاعته الجمع بين الخوف و الرجاء و التأثير على المدعوين بمختلف طبقاتهم¹ .

8 - تنوع المواضيع الدعوية و الوعظية و ذلك لكثرة روافده العلمية و الثقافية كاعتماده على القرآن و السنة و مواظ السلف الصالح و من جاء بعدهم ، فجاءت الموضوعات شاملة لكل ما يهم المدعوين في دنياهم و آخرتهم² .

و قد حرص ابن الجوزي أن تكون ذات علاقة وطيبة بالعمل و السلوك ، كالحديث عن التوبة و عدم الغفلة و الزهد في الدنيا و نصح الشباب و الكهول و الشيوخ ، و الحديث عن الموت و ما بعده من تبعات و أهوال ، و اليوم الآخر و مشتملاته، و عدم التكاسل في أداء فرائض الدين و واجباته .

9 - اعتماد ابن الجوزي في مجالسه الوعظية و الدعوية و كذا في العديد من مؤلفاته على الأسلوب الأدبي الرصين و الصنعة اللفظية مع ارتجال تلك المجالس ارتجالا يلفت الانتباه فمن حيث الأسلوب فقد كان ابن الجوزي يلتزم السجع القصير بين الفقرات النثرية لوعظه و قد بدا لنا ذلك أكثر وضوحا في بعض كتبه الوعظية كالمدهش و روح الأرواح و بستان الواعظين و التذكرة في الوعظ و الياقوتة ، حيث جاءت الكثير من مجالسه الدعوية و أفرة المعاني رائعة الخيال و مما قاله في هذا المجال : " إذا رأيت من جاهد بالخير ، و ما خافت خافت ، و إذا شاهدت نفوسا طال ما صافت صافت ، و إذا عاينت أجساما ما نبتت من الحرام و عافت عافت " ³ ، و انظر إليه كيف ينسج الكلام و يولف بينه و يتلاعب بالفاظه كما يتلاعب الصبيان بالدمى يقول : " خلق إبليس من ماء غير طاهر ، فكانت خلعة العبادة

¹ - انظر تفصيل ذلك في فصل أصناف المدعوين عند ابن الجوزي .

² - و نظرا لكثرة موضوعاته الدعوية فقد ركزنا على أهم هذه الموضوعات في فصل نماذج الدعوة عند ابن الجوزي لأن هذه الموضوعات قد تستغرق رسالة علمية مستقلة بذاتها .

³ - الهالوتة : ص 89 .

عنه عارية ، فسخر ماء معاماته بايقاد نار الخوف ، فلما أعرض عنه الموقد عاد إلى
 برودة الغفلة ، و خلق عمر من أصل نقي ، فكانت اعمال الشرك عليه كالعارية " ¹ .
 و نستمتع إلى ما قاله في إحدى مواعظه عن مخالفة الهوى : " لله در نفس تطهّرت
 من أجناس هواها ، و تجلببت جلباب الصبر عند دنياها ، و إن مالت إلى الدنيا تم
 نهاها " ² ، و إن مالت إلى الهوى شفاها شفاها ، سهرت تطلب رضى المولى فرضي عن
 و أرضاها ، و قامت سوق المجاهدة على سوق هداها ، فباعت حرصها بالفناعة فظفر
 بغناها ، و رمت نجائب الأسحار فساقها حادي الاستغفار إذ عاناها ؛ و قطعت بيداء الجد
 بالة المستعد فبلغت مناها ، فمن أجلها ينزل القطر و ينبت الزرع من جزاها ، و لولاها لم
 تثبت الأرض بأهل دنياها " ³ ، و من أحسن ما جادت به قريحته و جرى به قلمه قوله في
 إحدى مواعظه محذرا من الموت و مذكرا بعواقبه ، و مع ذلك فالإنسان لا يستمتع للنصيحة
 و لا يتقبل الموعظة قال : " يا من قد امتطى بجيله مطايا المطالع ، لقد ملأ الواعظ في
 الصياح المسامع ؛ تائه لقد طال المدى فأين المدامع ؛ أين الذين بلغوا المنى فما لهم في
 المنى منازع ، رمتهم المنايا بسهامها في القوى و القواطع ، فعلموا أن أيام النعم في زمان
 الخوادم ، ما زال الموت يدور على الدوام حتى طوى الطوالع ، جمعوا فما أكلوا ما جمعوا
 و بنوا مساكنهم فما سكنوا ، فكأنما كانوا بها ظعنا لما استراحوا ساعة ظعنوا " ⁴ .

و في بعض الأحيان قد يسترسل ابن الجوزي في مواعظه و يمضي على هذا النسق
 الأدبي حتى يصل إلى حد الغموض و التعقيد في بعض الأحيان كقوله في هذا المنموذج :
 " لما ترهب راهب الوجود في دير ألت أنس بالأنس ، فلما دخل مدينة التركيب استوحش
 من وحشة الحس فنزع عرق الأنس ، و اشتاق عليل المحبة إلى شمّ النسيم ، نجد الوجد فما
 هو إلا فاح له عرف الفيح " ⁵ .

وهكذا فإن أهم ما يلاحظ على أسلوب وعظ ابن الجوزي ما يوجد فيه من الموسيقى
 المترادفة والتي تكاد تطفى على ما يتضمنه التعبير من أسباب القوة في المعاني من حيث
 جودتها و أصالتها ، و لكن يبدو لنا أن هذا التكلّف مما كان سائدا في عصر ابن الجوزي .

¹ - الياقوتة : ص 95 .

² - لهاها : بضم الهمزة أي عقلها .

³ - الياقوتة : ص 99 .

⁴ - المصدر السابق : ص 64 ، 65 .

⁵ - روح الأرواح : ص 33 ، و من الأمثلة كذلك في رؤوس القوارير : ص 122 .

أما عن قدرته في ارتجال الوعظ فإنها من أهم ما تميّز به ابن الجوزي في حياته الوعظية و الدعوية ، فقد أوتي رحمه الله القدرة الفائقة في هذا المجال ، حيث كان يستطيع أن يعظ و يلقي الكلام المصنوع من غير روية و لا تحضير أو كتابة مسبقة ، حتى رسخت فيه هذه الخلة فصار يقول الكلام ارتجالاً فيأتي مطبوعاً كأنه ألفه منذ زمن مضى رغم أنه لم يقله إلا في ذلك المجلس ، و كل ما أثر عنه في مواعظه و مجالسه الدعوية يتفاوت لفظه و تتكرر معانيه دون تنسيق بينها في بعض الأحيان ، فنجد عباراته تطول حيناً و تقصر أحياناً أخرى و معانيه ينظمها حيناً و تتدفق عليه حيناً آخر وهذا هو حال الداعية و الواعظ الذي يغلب عليه طابع الارتجال كقوله في أحد مجالسه الوعظية : " يا مؤثراً ما يفنى على ما يبقى خالفت خبرك ، يا لأهياً في أيام العوافي و الله ما تترك ، يا واقفاً مع الأمانى ضيقت عسرك ، يا فارحاً بقصره تذكر فيرك ، يا حاملاً أثقال الذنوب هلاً خففت ظهرك ؟ سار الصالحون إلى ذكرنا و اثرت هجرك ، و سمعت سيرهم و ضيقت أجرك . إن أردت صحبة المتقين فاشرح لليقين صبرك ، و إن أحببت حلوة العواقب فاستعمل صبرك " ¹ .

و الذي يبدو لنا أن سبب إغراق ابن الجوزي في مثل هذا اللون الوعظي ، هو شيوع هذا الأسلوب في عصر من جاء قبله من علماء هذا الفن و الذي هو امتداد لعصره ، فقد حاول ابن الجوزي أن يهضم ثقافة عصره و يضيف عليها دون أن يتخلص من طابع عصره و مؤثراته الأدبية و اللغوية و الثقافية بصفة عامة سواء في مؤلفاته الوعظية أو من خلال مجالسه الدعوية .

10 - جنوح ابن الجوزي في منهجه الوعظي إلى أسلوب الرمز و الإشارة ² ، و ذلك من أجل التأثير على المدعويين و السيطرة على قلوبهم و عقولهم ، فهو يعرف بحسه الدعوي أن كل مجهول و صعب مؤثر في النفوس و مرغوب فيه و خاصة لدى جماهير المدعويين من العوام كقوله في ذم الدنيا عن طريق هذه الإشارات ³ : " كان لبان يخالط اللبن بالماء فجاء سيل فأهلك الغنم ، فجعل يبكي ويقول : اجتمعت تلك القطرات فصارت سيلاً ، و لسان الجزاء يناديه " يداك أوكتنا و فوك نفخ " ⁴ .

¹ - الأمانة : ص 101 .

² - انظر الكثير من هذه الإشارات في صناديق الخصال : ص 98 ، 127 ، 147 ، 151 ، 211 ، 245 ، 271 ، 300 .

³ - اللطائف : ص 50 ، 51 ، 52 .

⁴ - مثل مشهور يضرب لمن يفعل الشيء و يقع في سوء فعله .

كم بكت في تنعد الظالم عين أرسنة . و احترقات كبد يقيم ؟؟ (و لتعلمن نبأه بعد حين)¹ .
 واعجبا من الظلمة كيف يفسون طي الأيام سالف الجبايرة ، و ما بلغوا معشار ما أتيتهم
 أما شاهدوا ما لهم ؟ (فكلا أخذنا بذنبه)² أما رحلوا عن أكوار الندم ؟ (فما بكت عليهم
 السماء و الأرض) أما صاح بيت الإنذار ؟ (كم تركوا من جنات و عيون)⁴ و اعجبا
 للمغترين (و قد خلت من قبلهم المثلات)⁵ أما يكفيهم من الزواجر (و تبين لكم كيف فعلنا
 بهم) ؟⁶ من ليم اذا طلبوا وقت العود ؟ (فحيل بينهم و بين ما يشتهون)⁷ كم دار بنعم
 النعم دارت عليها دوائر النقم ؟ (فجعلناها حصيدا)⁸ فالحذر الحذر (أن تقول نفس يا
 حسرتي)⁹ (ولات حين مناص)¹⁰ أبقى في قوس الزجر منتزع (أفنضرب عنكم الذكر
 صفحا)¹¹ .

و مما قاله عن اقتراب الحساب للناس و دم في غفلتهم ساهون هذه الموعظة التي
 يضرب فيها المثل بالانبياء و بما لا قوة من بلاء في حياتهم الدعوية : " إلى متى تتعب
 ثرواحل و لا بد لها من مناخ ، يا مخنث العزم : أين أنت و الطريق نصب فيه ادم ؟ و نلح
 لأجله نوح ، و رمي في النار الخليل . . و بيع يوسف بدهام بخس ، و نشر بالمناشير
 زكريا ، و ذبح الحصور يحيى ، و ضني بالبلاء أيوب ، و زاد على القدر بكاء داود
 و تنصص في الملك عيش سليمان . . أول قدم في الطريق بذل الروح ، هذه الجادة فأين السالك
 هذا قميص يوسف فأين يعقوب ، هذا طور سيناء فأين موسى ، يا جنيد احضر ، يا شاد
 نسمع " ¹² .

1 - ص : 88 .

2 - نعنكوت : 40 .

3 - النجاش : 20 .

4 - النجاش : 25 .

5 - الرعد : 6 .

6 - نوح : 45 .

7 - سبأ : 54 .

8 - يونس : 24 .

9 - الزمر : 90 .

10 - ص : 3 .

11 - الزخرف : 5

و ننظر الى هذه الإشارات الطيبة و كيف جمع بينها عندما تحدثت عن عقوبة
الحرص على الدنيا حيث راح يشير الى العديد ممن تجبر و حرص على الدنيا و كيف
كانت نهايته كل ذلك من اجل ايقاظ الضمائر النائمة و القلوب الميتة لدى المدعويين قال :
كم قتلت الدنيا قبلك ، كم أهلك حبها مثلك ؟ . يا كنعان الأمل ، يا نمرون الحيل ، يا ثعلبة
الجل ، يا نعيمان² الزلل ، أنت في جمع الأموال شبيه داطب³ ، و في تبيير العمر رفيق
حاتم⁴ ، تمشى في الأمل على طريق أشعب⁵ ، فكيف بك اذا ندمت ندامة الكسعي⁶ .
11 - لقد استطاع ابن الجوزي بمنهجه الحكيم ان يبتعد عما كان سائدا في عصره من تطرف
لقصاص و تهويلهم لواقع الناس و ما كانوا يعيشون فيه من معاصي و أثام ، حيث دأبوا
على زرع اليأس و القنوط في النفوس ، و أقنعوا العوام بأنه لا رحمة تنتظرهم و لا توبة
تقبل منهم إلا إذا أعرضوا كلية عما كانوا فيه من متاع الحياة الدنيا و زخرفها و ليس أمامهم
من طريق إلا التوجه إلى الله - سبحانه و تعالى - كلية و الزهد في الدنيا مطلقا إن أرادوا
التوبة فعلا مما كانوا فيه ، ثم راحوا يحدثون العوام عن الزهد في الدنيا و متعتها ، رغم
أنه يوجد بين العوام من لا يحسن الوضوء و لا يعرف أركان الصلاة فيعتقد أن ما يقوله
هؤلاء القصاص هو الشرع و ليس ما عليه الفقهاء⁷ .

لكن ابن الجوزي - رحمه الله - اعرض عن منهج هؤلاء و بيّن للمدعويين ما فيه
من خلل و استطاع بمقدرته الخطابية و الوعظية ان يضعهم أمام أنفسهم ليروا عاقبة ما جنوا
و ما فرطوا في جنب الله ، و ان يدركوا الحقيقة الكبرى و هو أن كل شيء الى زوال فكانوا

1 - ثعلب : هو الصحابي نعله بن حاطب احد النبي من بني و بين معتب بن عوف بن الحمراء . و هم الذين استمع عن دين
نزكاة ، ثم ما حدث منه حتى عهد عثمان . الإمهارة في معرفة الصحابة : بن حجر العسقلاني ، تحسين علي محمد الجاوي دار المل
بيروت ط 1 : 1412 ، 1992 م ، 1 / 44 .

2 - نعيمان : هو الحسن بن عمرو الأنصاري كان شجاعا شهد الحوادث ، و كان يمزح بمصحك النبي عليه الصلاة والسلام له
أخبار مرحة في ذلك : سير أعلام النبلاء ، 1 / 40 .

3 - حاطب : هو حاطب بن أبي بليلة شهد الوقائع مع رسول الله . و هو من أحسن الرماة بالمدينة ، ت 30 ، لا سياب في معرفة
الأصحاب : لابن عبد البر تحقيق علي محمد معوض ، عادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية بيروت ط 1 ، 1995 م ، 1 / 391 .

4 - حاتم : هو حاتم بن عبد الله الطائي . شاعر و فارس من أجواء العرب في الحاضرة حتى ضرب به المثل ، الأعلام : 2 / 151 .

5 - أشعب : هو أشعب بن حبر المعروف بالطمع ، أحد ظرفاء المدينة تأدب و روى الحديث و له نوادر ، الأعلام : 1 / 332 .

6 - الكسعي : هو محارب بن قيس الكسعي ، منسوب الى قبيلة كسعي في اليمن شاعر يضرب به المثل في الندامة ، الأعلام 5 / 281 .

7 - الطائف : ص 110 ، 111 .

8 - صيد الخاطر : ص 118 ، 119 .

يكون و ينتمون و يخرجون من مجلسه و قد عزموا على التوبة و الرجوع إلى الله تعالى .
من أجل هذا كله تمكن ابن الجوزي من أن يحرز المكانة العالية في مجتمعه و أن ينشر
أفكاره الإصلاحية و آراءه في الدعوة و التربية فآثر في نفوس المدعوين لأستعماله قدر
ما استطاع كل الأساليب الدعوية و الوعظية فحقق بذلك التأثير الكبير في جماهير المدعوين
بمختلف أصنافهم بما فيهم أهل الذمة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الرابع

أصناف المدعويين عند

ابن الجوزي

ويتضمن أربعة مباحث

المبحث الأول : المدعو، حقوقه والهدف من دعوته

المبحث الثاني : ابن الجوزي ودعوة الخلفاء

والحكام

المبحث الثالث : ابن الجوزي و دعوة العوام

المبحث الرابع : ابن الجوزي و دعوة أهل الكتاب

المبحث الأول

المدعو ، حقوقه و الهدف من دعوته

1 - تعريف المدعو و حقوقه :

المدعو في اللغة : هو اسم مفعول من دعاه يدعوهُ ، فهو مدعو و الجمع مدعوون أما في الاصطلاح الدعوي فقد عرف المدعو بأنه الإنسان البالغ العاقل ، ذكراً أو أنثى مهما كان جنسه و نوعه و لونه و مهنته وبلده ، إلى غير ذلك من الفوارق المتعددة بين البشر¹.

و قيل أن المدعو هو من توجه إليه الدعوة . أو هو الإنسان مطلقاً سواء كان قريباً أو بعيداً ، مسلماً أو غير مسلم . ذكراً أو أنثى إلى غير ذلك من الأوصاف² ، دل على ذلك قوله - سبحانه و تعالى - : (وما أرسلناك الا كافة للناس)³ و قوله ايضاً : (قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً)⁴.

إذن فالمدعو في الإسلام هو الإنسان في أي مكان أو زمان ، و هذا العموم لا يستثنى منه أي إنسان مخاطب بالإسلام ، لذا صار المقصود بالمدعو كل إنسان على قيد الحياة ، لأن القرآن الكريم خاطب الناس جميعاً بصفتهم الأسمية عندما قال - سبحانه - : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم و الذين من قبلكم لعلكم تتقون)⁵ و قد أكد هذا المعنى النبي - صلى الله عليه و سلم - في قوله : " كان النبي يبعث إلى قومه خاصة و يبعث إلى الناس عامة " ⁶.

أما اصطلاح المدعو و إن لم يكن معروفاً على عهد ابن الجوزي إلا أنه رحمه الله عبر عنه بلفظ يناسبه و يرادفه فأطلق على المدعو في كثير من أقواله اسم العامي⁷ والسامع⁸

¹ - أصول الدعوة : عبد الكريم زيدان ، ص 373 .

² - المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو النعرج البيانوي ، ص 41 ، 109 .

³ - سبأ : 28 .

⁴ - الأعراف : 158 .

⁵ - البقرة : 21 .

⁶ - فتح الباري : 1 / 436 كتاب التيمم ، باب قوله تعالى : (فإن لم تجدوا ماء فتيمموا) ، رقم 335 .

⁷ - انظر صيد الخاطر : ص 419 ، 271 ، 349 ، 100 .

⁸ - التذكرة في الوعظ : ص 70 .

واسم الموعوظ في بعض الأحيان . و مما قاله في هذا المعنى : " إن أبلغ ما بلغه واعظ إلى موعوظ ، و أنفع ما هو بالألسنة ملفوظ ، و في الصدور محفوظ كلام من كل شيء تحت قدرته مقهور و برعايته ملحوظ " ¹، و مرة يصف المدعويين عموما بالناس فيقول : " ما زلت أعظ الناس و أحرضهم على التوبة " ²، و مرة أخرى يصفهم بالخلق فيقول : " لا يخلو لي مجلس من خلق لا يحصون ، ويكون و يندبون على ذنوبهم " ³، و قال عنهم كذلك في " لفنة الكبد " : " و وضع لي من القبول في قلوب الخلق فوق الحد " ⁴ .

و رغم ما ذكرناه في هذا المقام فإن ابن الجوزي لم يكن في الغالب من الذين يحفلون بذكر الأسماء و الألقاب بقدر ما كان يهتم بالعمل التربوي و الدعوي مع المدعويين والبحث عن المنهج الأمثل لإبلاغ الدعوة لهم على أحسن وجه .

2 - أصناف المدعويين :

اختلف الباحثون في مجال علم الدعوة و شؤونها في تصنيف المدعويين فهناك من صنفهم حسب معتقدتهم ، و منهم من صنفهم حسب سلوكياتهم و أخلاقهم و مستواهم العلمي و الملاحظ أن هذا الاختلاف ليس جوهريا و لا مقصودا في حد ذاته إذ أن الهدف في النهاية واحد و هو الحرص على هداية المدعويين و الوصول بهم إلى بر النجاة ، و مع ذلك يجدر بنا أن نتعرض و لو إجمالا لهذه الأصناف و تقسيماتها ، و من هذا المنطلق وجدنا من الباحثين من جعل المدعويين سبعة أصناف ، جعل في مقدمتهم أهل الكتاب من اليهود و النصارى و الذين هم في حاجة إلى الدعوة قبل غيرهم لتتجنبهم عن الصراط المستقيم ، ثم يليهم المشركون و هم الذين : (يعبدون من دون الله ما لا يضرهم و لا ينفعهم) ⁵ و هؤلاء جزاؤهم الخلود في النار ، و منهم المنحرفون عن صراط الله المنكرون لوجوده و منهم الملأ و هؤلاء أشد المدعويين بلاء على الدعوة ، فهم يقاومون دعوة الرسل بشتى الطرق و في كل زمان و في كل مكان و قد قال سبحانه فيهم : (و كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها و ما يمكرون إلا بأنفسهم و ما يشعرون) ⁶، و من أهم شرائح

¹ - التذكرة في الوعظ : ص 141 .

² - القصص و المذكرين : ص 371 .

³ - صيد الخاطر : ص 41 .

⁴ - لفنة الكبد : ص 21 .

⁵ - يونس : 18 .

⁶ - الأسماع : 123 .

المدعويين العصاة : و هم الشريحة الأكثر جراً على الله بارتكابها لمختلف الذنوب و شتى أنواع المعصية ، مع الإقرار بالشهادتين ، أما الصنف الأخطر منهم فهم المنافقون ، و ذلك لأنهم يظهرون الإيمان و يبطنون الكفر و هم أكبر من عارض الدعوة الإسلامية عند بزوغ فجرها أيام صاحب الرسالة - عليه الصلاة و السلام - و لا يزالون يعارضونها إلى اليوم و بألوان مختلفة و بشعارات متعددة ، و آخر صنف من المدعويين العوام ؛ و يشكلون السواد الأعظم من الناس منهم الفقراء و المساكين و أصحاب المهن ، و هم أسرع أصناف المدعويين استجابة لدعوة الرسل - عليهم الصلاة و السلام - و غالباً ما ينشب الصراع بينهم وبين التيار المضاد و هم الملا¹ ، و قد تحدث الله - سبحانه و تعالى - عن العوام و قصتهم مع الملا من قوم صالح - عليه السلام - فقال : (قال الملا الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون)² .

و من الباحثين من قصر المدعويين على أربعة أصناف : و هم الملا و جمهور الناس و المنافقون و العصاة ، ثم بيّن بعد ذلك أن لكل صنف من هؤلاء المدعويين جملة من الصفات و هي سلبية في غالبيتها³ ، و قد تبعه في هذا التقسيم باحثون آخرون⁴ ، و لكن هناك من خالف هذه التقسيمات كلها و انفرد بتقسيم جديد⁵ صنف من خلاله المدعويين حسب المعتقد إلى قسمين أساسيين استنبطهما من النصوص الشرعية التي وردت في الحديث عن أحوال الناس و أصنافهم و الصنفان هما : المسلمون و هم أصناف و الكافرون و هم أصناف كذلك .

و من خلال ما ذكرناه عن أصناف المدعويين و حجم كل صنف و خطورته على الدعوة و الدعاة اتضح لنا أن كل هذه الأصناف يمكن حصرها في ثلاثة لا غير ؛ و لأن جل بقية الأصناف تنضوي تحتها ، و ذلك نظراً لأن جل العلماء المختصون في علم الدعوة ذكروا هذه الأصناف بأسماء مختلفة لكنها ذات مضمون واحد ، و هي نفسها التي ركز عليها

¹ - انظر الموضوع بالتفصيل أصناف المدعويين و كيفية دعمهم : محمود بن أحمد الترحيني ، دار العاصمة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ط 1 ، 1414 هـ ، صفحة 100 إلى 110 .

² - الأعراف : 75 .

³ - انظر أصول الدعوة : عبد الكريم زيدان ، ص 380 و ما بعدها .

⁴ - انظر فقه الدعوة و أساليبها : محمود محمد حمادة و محمد مطلق عساف ، ص 122 إلى 138 .

⁵ - المدخل إلى علم الدعوة : محمد أمير الفسوح البياتري ، ص 173 .

ابن الجوزي في دعوتته و لعلمه كسان موفقا و مصيبا إلى حد بعيد في تركيزه على هذه الأصناف .

و هذا التوفيق نستنتجه من خلال آثار دعوتته على المدعويين بمختلف فئاتهم و توجهاتهم . فالصنف الأول هم الخلفاء و الحكام ؛ و يشمل هذا الصنف الخلفاء و الوزراء و أصحاب الولايات و الجنود و صاحب الشرطة و غيرهم من أصحاب المسؤوليات في الدولة و يوجد ضمن هذا الصنف الملأ و العصاة . و الصنف الثاني هم جمهور العوام ؛ ويشمل الأغنياء و التجار و الفقراء و المساكين و الجهلة و الدهماء و هؤلاء يشكلون غالبية أفراد المجتمع . و يوجد ضمن هذا الصنف الأغلبية العظمى من العصاة . أما الصنف الثالث فيم أهل الكتاب ؛ و غالبيتهم يكونون من اليهود و النصارى .

و لما كان للمدعويين المكانة و الأهمية الكبرى في الإسلام عموما و عند دعائه على وجه الخصوص بات من اللازم عليهم الاهتمام بهد ، و ذلك باعتبارهم القاعدة الصلبة للدعوة و أساسها المتين ، من أجل ذلك أصبح لهؤلاء المدعويين حقوق لازمة في عنق الدعاة لا بد لهم من الوفاء بها ما داموا قد تصدوا لهذا العمل الشريف ؛ وهو الدعوة والإصلاح و التربية و الذي هو في الأصل عمل الأنبياء و المرسلين .

إن فلا بد للمدعويين من الحصول على هذه الحقوق، إذا أراد الدعاة أن يبرنوا ذمهم أمام الله يوم القيامة ، لأن هذا من الواجبات عليهم قبل أن يكون من حقوق المدعويين . و يمكننا التركيز على جملة من هذه الحقوق التي رأيناها ضرورية في هذا المقام .

و أول هذه الحقوق أن يقصد الدعاة المدعوون أو يرسلوا إليهم ، و هذا حق مشروع لهم إذ لا ينبغي للداعية أن يبقى مكتوف الأيدي ينتظر مجيء الناس إليه ، و هذا اقتداء برسول الله - صلى الله عليه و سلم - الذي كان يأتي مجالس المشركين من قريش و يدعوهم إلى الإسلام، كما كان يخرج إلى دعوة القبائل في ديارهم ، و يلتقي بالقادمين إلى مكة في المواسم المختلفة فيدعوهم إلى الله - عز و جل -¹ و مما جاء في سيرة ابن هشام قوله : " و كان - صلى الله عليه و سلم - ، لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب ، له اسم و شرف إلا تصدى له ، فدعاه إلى الله ، و عرض عليه ما عنده " ² .

كما ذهب إلى الطائف يدعو أهلها: " فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم

¹ - أصول الدعوة : عبد الكريم ريسان ، ص 374 - المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتح البيانوني ، ص 470 .

² - سيرة ابن هشام : لابن هشام ، ص 07 / 2 .

يومئذ سادة ثقيف و أشرافهم ، فجلس إليهم رسول الله - صلى الله عليه و سلم - ، فدعاهم إلى الله " 1 .

و هكذا يفعل الداعية مادام قد نبأ وظيفته الدعوة إلى الله تعالى - التي هي وظيفة الأنبياء أولاً - بأن ينتقل إلى أماكن تواجد المدعوين في قراهم و مدنهم ، ليبلغهم ما لم يصلهم من دعوة الله تعالى ، أو يكون قد وصلهم بصورة مشوهة أو غير صحيحة 2 .
كذلك من الواجب على الداعية أن يتلطف في مخاطبة المدعوين ، حتى يستطيع جلب انتباههم و إصغابهم لما يقول ، كأن يخاطبهم بالقوم و العشيرة أو يذكر طيب خصالهم و بلانهم في خدمة الإسلام و الجهاد في سبيله 3 ، أو كل هذا مشروع ما لم يصل إلى حد المداينة و النفاق .

وإذا كان التلطف محمود في دعوة المشركين فإنه مع عصاة المسلمين يكون من بلب أولى كما ذهب إلى ذلك الإمام القرطبي عند تفسيره قوله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة و جادلهم بالتتي هي أحسن) 4 بأن هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش ، فأمر الله رسوله - عليه الصلاة و السلام - أن يدعو إلى دين الله و شرعه بتلطف و لين دون مخاشنة و تعنيف و على هذا النحو ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة 5 .

و من حقوق المدعوين ضرورة معاملتهم بحرص و شفقة ، و قد كان النبي - صلى الله عليه و سلم - أكثر الأنبياء شفقة بمن يدعوهم إلى الله - عز و جل - 6 ، و من مظاهر الحرص على المدعوين الاقتصاد في وعظهم و إرشادهم ، و اختيار الوقت الملائم لذلك فقد كان عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - يذكر الصحابة كل يوم خميس مرة ، فقال له رجل يوماً : " يا أبا عبد الرحمن ، لو بدت أنك ذكرتنا كل يوم ، فقال : أما إنه يمنعني من ذلك أنني أكره أن أملكم ، و إنني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله - صلى الله عليه و سلم - يتخولنا بها مخافة السامة علينا " 7 .

1 - سيرة ابن هشام : لابن هشام ، 2 / 200 .

2 - الدعوة إلى الله على بصيرة : عبد النعيم محمد حسين ، ص 126 ، 127 .

3 - المستفاد من قصص القرآن للدعوة و الدعاء : عبد الكريم زيدان ، 1 / 153 .

4 - النحل : 125 .

5 - تفسير القرطبي : لأبي عبد الله القرطبي ، مج 5 ، 10 / 200 .

6 - أصول الدعوة : عبد الكريم زيدان ، ص 375 .

7 - فتح الباري : 1 / 163 ، كتاب العلم ، باب من جعل لأهل العلم أماناً معلومة ، رقم 70 .

و إذا كان من أخلاق الإسلام عدم الاستهانة بأي إنسان كان شأنه ، فما بالك إذا كان هذا الإنسان ممن يقصده الدعاة بدعوتهم . و لعل هذا المدعو الذي لا تعطى له أهمية اليوم قد يكون له شأن عظيم في المستقبل في ميدان الدعوة إلى الإسلام و تبليغه¹ ، و قد كان النبي - عليه الصلاة و السلام - لا يستهين بأحد فيزهد في دعوته له ، و كل ذلك نابع من شدة حرصه على تبليغ الدعوة للمدعويين مهما كان شأنهم ، حتى أنه لما لقي عند العقبة ستة نفر من الخزرج و هم يطلقون رؤوسهم ، فلم يزهده حالهم عن دعوتهم ، فما كان منه - صلى الله عليه و سلم - إلا أن أقبل إليهم و عرض عليهم دعوته² ، و كل ذلك ما هو إلا نموذج من الحرص الدعوي للنبي - صلى الله عليه و سلم - تجاه هؤلاء المدعويين .

و لقد كان ابن الجوزي يدرك جيدا أهمية المدعويين في حياة الدعوة و ما لهم من حقوق فقد كان - رحمه الله - يصبر على أذاهم و لا يغتاض من أسألتهم التي لم يكن الكثير منهم يريد من ورائها العلم³ ، و رغم ذلك فلم يكن الرجل يضيع أية فرصة تسنح له من أجل لقائهم فقد كان يسعى إليهم في أغلب مساجد بغداد و مدارسها و في مختلف الأماكن الواسعة و الساحات التي يمكن لها أن تضم الآف المدعويين الذين كانوا يأتون من كل حدب و صوب لسماع مواعظه و الاقتداء بدعوته⁴ ، فيعظهم و يدعوهم إلى الله - عز و جل - و قد نالهم على يديه الخير الكثير من العلم و الفقه و الدعوة و الإصلاح و التربية .

د - الهدف من دعوة المدعويين :

ليس هناك من هدف أكبر و أسمى في حياة الداعية الدعوية من دعوة الناس إلى دين الله - عز و جل - و الإيمان به قولاً و عملاً و تحقيق معناه في سلوك المسلم ظاهراً و باطناً و هذا تطبيقاً لقوله - عز و جل - : (و ما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون)⁵ و قد شرح الإمام ابن تيمية - رحمه الله - هذا الهدف في قوله : " و كان المقصود بالدعوة وصول العباد إلى ما خلقوا له من عبادة ربهم وحده لا شريك له .."⁶ ، و يزيد هذا المعنى

¹ - انظر : أصول الدعوة : عبد الكريم زيدان : ص 376 - المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتح البيانوي ، ص 170 - الدعوة إلى الله على بصيرة : عبد النعيم محمد حسين ، ص 128 .

² - دلائل النبوة : لأبي بكر بن الحسين أبيهفي تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، دار الفكر ط 1403 هـ 1983 م ، 2 / 170 - حياة الصحابة : محمد يوسف النكاشهتوي نفس محمد حامد الفقي ، دار الفكر بيروت ط 2 ، 1401 هـ 1981 م ، 1 / 86 .

³ - انظر مبحث ابن الجوزي و دعوة دعواه من هذا المعنى : و كذلك فصل تأثر ابن الجوزي و ما أخذ عليه .

⁴ - انظر مجالس دعوته في مبحث ابن الجوزي و دعوة العوام .

⁵ - الفاربات : 56 .

⁶ - بمجموع فتاوى ابن تيمية : لابن تيمية ، 2 / 6 .

وضوحاً تلميذه ابن القيم - رحمه الله - بقوله : " أن جميع الرسل إنما دعوا إلى توحيد الله و إخلاص عبادته من أولهم إلى آخرهم " ¹ و استدل - رحمه الله - على قوله هذا بالعديد من الآيات كقوله تعالى : (و لقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله و اجتنبوا الطاغوت) ² و قوله سبحانه : (و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) ³ .

أما الهدف من دعوة المدعوين عند ابن الجوزي فهو إخراج هؤلاء المدعوين - و خاصة العصاة منهم - من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، و من ظلمة المعصية إلى نور الطاعة و إرشادهم إلى طريق الحق حتى يسلكوه ، و قد رأى ابن الجوزي ثمار حصاد دعوته أمام عينيه مراراً حيث تاب على يديه الآلاف من الشباب و عصاة المدعوين و أسلم على يديه المئات من أهل الكتاب ⁴ ، و من الأدلة التي تبرز لنا تركيز ابن الجوزي على هذا الهدف الأسمى في حياته هو سعيه الدؤوب لتربية الناس و إصلاحهم حتى أنه كان يشفق على نفسه أن يكون عديم الإخلاص قد حجب عنه أجر موعظته للناس فيرجو من الله - سبحانه - أن يكون من حضر مجلسه شفيعاً له يوم القيامة فيقول : " إلهي إذا دلت السالكين عليك فوصلوا بحسن موعظتي إليك أترك المدلول و نزوله ليل ، إلهي إن لم يكن كلامي في مجلس من حضر خالصاً لوجهك فشفعه في تقصيري بنور وجهك و ارحمنا يا أرحم الراحمين " ⁵ و لعل هذا ما ينفي قول من ادعى أن ابن الجوزي لم يكن له هدف دعوي يسعى إليه ماعداً تقوية العاطفة الدينية في نفوس المدعوين ⁶ ، و لقد تعجبت كيف استطاع الباحث أن يصل إلى مثل هذه النتيجة ، بعد أن أنجز رسالة ثقيلة المحمل في الموازنة بين منهج ابن الجوزي و الغزالي في الدعوة إلى الله ، من خلال كتابيهما منهج القاصدين لابن الجوزي و إحياء علوم الدين للغزالي ، و لكن الأمر هان عندي لما وجدت أن الرجل لم يتحدث عن منهج ابن الجوزي في الدعوة إلى الله إلا في تسع صفحات و حتى لو سلمنا أن ما قاله فيه جانب من الصحة ، فإن هذا الحكم الذي أطلقه مبالغ فيه

¹ - مدارج السالكين : ابن القيم ، تحقيق محمد حامد الغني ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، 1392 هـ ، 1972 م ، 1 / 101 .

² - السجدة : 36 .

³ - الأبياء : 25 .

⁴ - لغتة الكبد إلى نصيحة الولد : ص 21 - صيد الخاطر : ص 230 .

⁵ - روح الأرواح : ص 71 .

⁶ - انظر ابن الجوزي الواعظ و منهجه في الدعوة إلى الله و الموازنة بينه وبين منهج الإمام الغزالي : جمعة علي محمد الخولي ، ص

مقارنة بما بذله ابن الجوزي من مجهودات في ميدان الدعوة و الإصلاح و التربية و التعليم و التصنيف¹ ، و حيداً لو أنه استنبط رأيه هذا من خلال دراسة مستفيضة لسيرة الرجل و جهوده و بلائه في الدعوة ، أو بمطالعة جادة لمختلف مؤلفاته الوعظية الدعوية .

فهل يمكن لداعية كابن الجوزي - الذي ملأ الدنيا و شغل الناس - ألا تكون له غاية دعوية ؟ و هو الذي كان من أحرص الوعاظ و الدعاة على استمالة قلوب المدعويين حتى يستمعوا لوعظه فاسمع إليه و هو يقول : " أيها المقبل على الدنيا خاطبها جامعا ... متى يصبح للوعظ بقلبك القاسي نافعاً ؟ متى تعمل في قلبك المواعظ ؟ متى تقبل قول الناصح الواعظ " ² ، ثم راح يعبقريته المعهودة في ميدان الترغيب و الترهيب يذكر المدعويين بالعواقب التي تنتظرهم من ضيق اللحد إلى هجوم الدود فيقول : " أيها الموعوظ كأنه لم يسمع أما أنت عن قليل في اللحد توضع " ³ .

و لكنه يرى أن تأثير المواعظ لا يكون إلا بمقدار تقبل الإنسان لها و تفاعله معها فحاله كحال الشجر مع ماء السقي يقول : " الماء يدخل في أصول الشجر فتخرج من ثمرها على قدر طبعها فيظهر ذلك الماء من الرمان الحلو حلوا و من الحنظل مرا ، و هكذا المواعظ تدخل إلى القلوب فلا يظهر منها إلا ما جبلت عليه و كل إلى طبعه عائد ، يا مترددا إلى المجلس عشرين سنة ، و ما أرى للنجاح علامة " ⁴

و من خلال ما سبق ذكره يمكننا أن نستنتج بأن أهم ما يظهر نجاح الداعية في بلوغه هدفه عدة أمور و أهمها ما يبدو جلياً - عند ابن الجوزي خاصة - من خلال استجابة الناس لما يقوله لهم و يدلهم عليه ، ثم إقبالهم المنقطع النظير على حضور مجالسه العلمية و الدعوية ، و هذا دليل على أن ما يلقي الاستحسان يلقي الإقبال من المدعويين ، لأنه يعبر عن رأي الجماهير المتعطشة⁵ للتزود من العلم و الرغبة في الاستقامة على النهج القويم و هذا ما يمكن إطلاقه على جهود ابن الجوزي في ميدان الدعوة و ما كان لها من آثار طيبة على المدعويين .

¹ - أشرت لجهود ابن الجوزي في الدعوة و الإصلاح في فصل محاور الدعوة ، و في فصل تأثيره في ميدان العلم و الدعوة .

² - تحفة الراعظ و نزعة الملاحظ : ص 187 .

³ - المصدر السابق : ص 193 .

⁴ - صبا نجد : ص 71 .

⁵ - مقدمات للشهوض بالعمل الدعوي : عبد الكريم بكار ، دار القلم ، دمشق ، ط 1 ، 1420هـ ، 1999 م ، ص 173 .

المبحث الثاني

ابن الجوزي و دعوة الخلفاء و الحكام

١ - مكانة ابن الجوزي عند الحكام و موقفه منهم :

لم يكن ابن الجوزي من الدعاة الذين ينادون بقطع حبل الصلة مع الحكام أو مع من يمثلون السلطة مطلقا و ذلك لما كان يراه من ضرورة وجود هذه العلاقة ، إذ لا بد للداعية الحكيم أن يستغل صلته بذي السلطة لمصلحة الدعوة و الدعاة كما فعل ذلك مؤمن آل فرعون الذي كان أحد أبناء عمومة فرعون و كيف استطاع بحنكته أن يجيب الدفاع عن موسى عليه السلام¹.

و لما كان من الواجب على الداعية أن يستغل علاقته بأصحاب القرار و النفوذ في السلطة سواء كانت هذه العلاقة علاقة قرابة أو صداقة ، بات من الضروري أن تستغل هذه العلاقة لمصلحة الدعوة و الدعاة ، و ذلك لكون أن هذه الصلة تسمح لصاحب السلطة بأن يصغي لما يقوله هذا الداعية ، و قد يستمع لنصحه و يأخذ برأيه فيكف عن إلحاق الأذى بالدعوة و ملاحقة الدعاة ، أضف إلى ذلك فإن هذه الصلة قد تسمح للداعية بنقل انشغالات جماهير المدعوين للحاكم ، لأن هؤلاء المدعوين و رغم كونهم أتباعا و مرعدين لهذا العلم أو الداعية فهم في حقيقة الأمر رعية هذا الحاكم بالدرجة الأولى و هو مسؤول عنهم أمام الله - عز و جل - يوم القيامة .

و هذا الذي ذكرناه من جنس ما كان يفعله ابن الجوزي - رحمه الله - من حسن استغلال صلته بالحكام في تبليغ مظالم الرعية للخلفاء ثم تقديم النصح لهم في الإطار المشروع و الأخذ بأيديهم نحو الخير و الصلاح ، لكن الذي ظهر لنا أن هذه العلاقة لم تقنع بعض الباحثين² الذين كانوا يتمنون لو أن ابن الجوزي قام بدور أكبر من هذا الدور البسيط الذي قام به - في نظرهم - و هو الداعية و الواعظ صاحب الشخصية البارزة و المكانة الرفيعة عند الخلفاء. و الذي ينبغي تحريره في هذه المسألة أنه لم يكن من مبدأ ابن الجوزي مهاجمة الخلفاء و الأمراء و لا من الذين يحبذون استعمال أسلوب الانتقاد و التجريح حتى

¹ - الاستفادة من قصص القرآن للدعوة و الدعاة : عبد الكريم زيدان ، 1 / 378 ، انظر قصة موسى آل فرعون في سورة غافر

الآيات 28 إلى 45 تفسير ابن كثير 6 / 135 إلى 144 .

² - انظر ابن الجوزي الواعظ : جمعة علي عماد الحولي ، ص 80 ، 81 .

يافتوا انتباه السلطة نحوهم فيأحقون الصبر بالدعوة و الدعاة قبل أن يلحقوه بأنفسهم ، و هذا هو الأمر الذي حدا بابن الجوزي أن يحرص على إبقاء هذا الخيط الرفيع موصولاً بينه وبين أصحاب القرار و لم يكن هذا الحرص من أجل مصلحة عاجلة أو دنيا فانية ، و هذا رغم المكانة المحترمة التي كانت له عند الخلفاء و الوزراء والتي أكدها بنفسه في كتابه " المنتظم " بقوله : " و قال لي صاحب المخزن : ما يخرج إلي شيء من عند السلطان فيه ذكرك إلا يثني عليه ، و قال له يوماً نجاح الخادم : أنت تتعصب لابن الجوزي ، فقال : و الله ما يتعصب له سيديك بقدر ما أتعصب له إلا خمسين مرة و ما يعجبه كلام غيره " ¹ .

وقد ذكر غير واحد من المؤرخين أنه قد "عظم شأن الشيخ في ولاية الوزير ابن هبيرة و كان يتكلم عنده في داره كل جمعة " ² ، و كان ضمن من يحضر مجالسه الدعوية من الخلفاء المستضيء و ما كان هذا ليحدث لو أن ابن الجوزي كان من الذين يغشون القصور و يستنلون للخلفاء ³ ، و هذا مما يجعلنا نؤكد أن ابن الجوزي — رحمه الله — كان يحاول جاهداً أن يستخدم علمه و نفوذه و مكانته المميّزة عند الحكام لخدمة الدعوة و تبصير الناس بشؤون دينهم و دنياهم و هدايتهم إلى طريق الله — عز و جل — و هو بذلك ليس ممن سخروا علمهم و دينهم لخدمة الخلفاء و الأمراء طمعا مما في أيديهم كما أكد ذلك بعض الباحثين ⁴ ، فاتجه بكلّيته إلى و عظ المدعويين بمختلف أصنافهم و غايته في ذلك جمعهم على التقوى بإصلاح نفوسهم و تطهير قلوبهم و تحكيم شرع الله في رقابهم و رغم كون الرجل عاش في عصر مضطرب مليء بالقلق و الأحداث الجسام إلا أنه كان حريصاً على دعوة الناس و قيادتهم إلى الله عز و جل .

و على الرغم من هذه المكانة التي حظي بها ابن الجوزي عند الخلفاء و الحكام و رغم علاقته الطيبة مع غالبية حكام عصره إلا أنه كان يرى أن البعد عن الحكام أولى لسلامة الدين و حفظ هيبة العلم و مكانة العلماء لدى عموم الناس ، لذلك فقد كان شديد الحرص على أن يبتعد عن كل ما ينفّر المدعويين منه .

و على هذا الأساس كان له موقف من الحكام وضع فيه جانبا مهما من شخصيته حيث أنه لم

¹ - المنتظم : 18 / 249 .

² - الذيل على طبقات الخنابلة : ابن رجب ، 1 / 403 .

³ - ابن الجوزي و مقاماته الأدبية : علي جميل علي مهنا ، ص 51 .

⁴ - ابن الجوزي فاعلا و منفعا في حياة بغداد السياسية في القرن السادس الهجري : مومة العوف ، مجلة الباحث ، ج 4 ، ع 56 .

يقبل على الحكام و لم يحاول أن يتملقهم إذ رغم وعظه لهم لكنه لم يكن واعظا محترفا في وعظ السلاطين و لا كان من حاشية الملوك ، فتجربته مع الحكام و السلاطين هي التي أملت عليه هذا الموقف السليم فكانت له بذلك شخصيته المستقلة و منزلته الرفيعة في مجتمعه و عصره ، و نستمتع إليه يحدثنا عن إحدى هذه التجارب مع بعض ولاة عصره حيث أنه لما خالطه و تناول من مطعمه ، و ملبسه و انبسط فيما يباح على سبيل التأويل فحدث أن أصيب بظلمة في القلب و ضاعت منه حلاوة الإيمان ، فابتعد عنه و لاذ بالعزلة داعيا الله أن يرد عليه ما فقد منه بسبب هذه المخالطة فأدر كته عناية الله و أنارت له طريق الرشاد .

قال في ذلك : " كنت في بداية الصبوة قد ألهمت ، سلوك طريق الزهاد ، بإدامة الصوم و الصلاة و حبب إلي الخلوة ، فكنت أجد قلبا طيبيا ، و كانت عين بصيرتي قوية الحدة تنأسف على لحظة تمضي في غير طاعة ، و تبادر الوقت في اغتنام الطاعات .. فأنتهى الأمر إلى أن صار بعض ولاة الأمور يستحسن كلامي ، فأمالني إليه ، فمال الطبع ففقدت تلك الحلاوة . ثم استمالني آخر فكنت أتقي مخالطته و مطاعمه لخوف الشبهات و كنت حالي قريبة ثم جاء التأويل فانبسطت فيما يباح ، فانعدم ما كنت أجد من استنارة و سكينة و صارت المخالطة توجب ظلمة في القلب إلى أن عدم النور كله .. فكان حنيني إلى ما ضاع مني يوجب انزعاج أهل المجلس ، فيتوبون و يصلحون ، و أخرج مفلسا فيما بيني و بين حالي و كثر ضجيجي من مرضي ، و عجزت عن طب نفسي ، فلجأت إلى قبور الصالحين و توسلت في صلاحي ، فاجتذبني لطف مولاي بي إلى الخلوة على كراهة مني ، و رد قلبي علي بعد نفور عني ، و أراني عيب ما كنت أوثره ، فأفقت من مرض غفلتي " ١ .

و على هذا الأساس اتخذ ابن الجوزي موقفا من الحكام و ذلك بعدم الركون إليهم مطلقا و قد عبّر عن موقفه هذا و مقدما الدليل الواضح على أحقية ما يقول حيث أن العلماء لم تعد لهم تلك المكانة الرفيعة كما كانت عند أسلافهم ، زد على ذلك فإن العلماء لم تعد لهم قدرة للتأثير على الولاة بل قد ينغمس العلماء أنفسهم فيما انغمس فيه الحكام يقول ابن الجوزي : " و لم يبق لأهل العلم وقع عند الولاة ، فمن داخلهم دخل معهم فيما لا يجوز ولم يقدر على جذبهم مما هم فيه ثم من تأمل حال العلماء الذين يعملون في الولايات يراهم

١ - عهد الخاطر : ص 78 ، 79 .

منسوخين من نفع العبد قد صاروا كالشرطية¹.

و ابن الجوزي يحاول دائما قدر الإمكان الابتعاد عن عطايا الحكام حتى لا يستنلوه بها ، وقد ذكر ذلك لابنه عندما بين له فضل الله عليه وأنه لم يذل نفسه في طلب الدنيا لولاة الأمور كما يفعل غيره ، ولم يخرج ليطوف في البلدان كبقية وعاظ عصره ، ولم يبعث لأحد من أولى الأمر رقعة من رقاعه يطلب المال و المعونة فقد كانت أموره تجري على التوفيق والسداد².

تلك هي إذن مجمل نظرة ابن الجوزي - كداعية و واعظ - للحكام، فلم يكن رحمه الله يخالط الخلفاء أو الولاة من أجل تولى مناصب عامة كمنصب ولاية الحسبة أو القضاء مثلا أو غيرها من المناصب، بل كانت مخالطته لهم من أجل القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير ، وقد بلغت جرأته أن قام بدم الخليفة الناصر في مجالسه الوعظية و تم ظاهرة لبس سراويل الفتوة التي انتشرت في ولاية عهده³ و ألف كتابا في ذمه و التعريض به سماه " عقد الخناصر في ذم الخليفة الناصر"⁴.

و لما كان من منهج ابن الجوزي الدعوة إلى الابتعاد عن ربط الصلة بالحكام وجدناه دائما يحث طلاب العلم في كل مناسبة بأن يكونوا بعيدين عن الحاكم و السلطان ، و لعل رأيه في هذا الأمر قد بناه على ما شاهده من ذل فقراء العلماء و وقوفهم على أبواب الحكام و السلاطين و أصحاب المال و الجاه و مما قاله في هذا الأمر هذا المشهد الذي صورته بقوله : " حضرنا بعض اذية ارباب الاموال ، فرأيت العلماء اذل الناس عندهم ، فالعلماء يتواضعون لهم و يذلون لموضع طمعهم فيهم ، و هم لا يحفلون بهم لما يعلمونه من احتياجهم إليهم ... و أعود باللوم على العلماء و أقول : ينبغي لكم ان تصونوا انفسكم التي شرفت بالعلم عن الذل للأنال ، و ان كنتم في غنى عنهم كان الذل لهم و الطلب منهم حراما عليكم و ان كنتم في كفاف فإم اسم تؤاؤروا التلذذ عن الذل بالعفة عن الحطام الفاني الحاصل بالذلة"⁵.

و قد تحدث ابن الجوزي كثيرا عن ضرورة الغنى و كسب المال بالنسبة للعلماء لكي

1 - صيد الخاطر : ص 80 .

2 - لفحة الكبد إلى بصيحه الرشد : ص 30 .

3 - تليس إبليس : ص 196 : 197 .

4 - الذلل على طبقات الخنابلة : ص 120 .

5 - صيد الخاطر : ص 209 .

يحفظوا كرامتهم و لا يمدوا أيديهم بالسؤال للحكام : ليس في الدنيا أنفع للعلماء من جمع المال للاستغناء عن الناس ، فإنه إذا ضم إلى العلم حيز الكمال ، و إن جمهور العلماء شغلهم العلم عن الكسب ، فاحتاجوا إلى ما لا يبد منه ... و قد رأينا جماعة من المتصوفة و العلماء يغشون الولاية لأجل نيل ما في أيديهم ، فمنهم من يدهن و يراني ، و منهم من يمدح بما لا يجوز ، و منهم من يسكت عن المنكرات إلى غير ذلك من المداهنات و سببها الفقر " ¹ .

و في نفس المعنى وجدناه يؤكد ما قاله في السابق كأنه يظن وجود البعض ممن قد يستهين بالأمر، لأن الفقر لا يحتمله الكثير من الناس فشدد اللهجة بقوله : " رأيت خلقا من العلماء و القصاص تضيق عليهم الدنيا فيفزعون إلى مخالطة السلاطين لينالوا من أموالهم و هم يعلمون أن السلاطين لا يكادون يأخذون الدنيا من وجهها و لا يخرجونها في حقها " ² .

و يوضح ابن الجوزي سر نهييه عن السير في ركاب الولاية و الحكام و ما له من آثار سيئة على الداعية أولا و على المدعوين من عامة الناس ثانيا و على ذلك الحاكم أو الأمير ثالثا و جملة هذه الأخطار هي: عدم انتفاع الناس بعلم هذا العالم و سقوطه من أعين العامة و عدم إقتدائهم به ، و قد يستصوبون ما عليه الأمير من سلوك و ظلم للرعية بسبب سكوت ذلك العالم عن أمره بالمعروف و نهييه عن المنكر قال ابن الجوزي مبرزاً هذه الخطورة : " و أول ما يجري على ذلك العالم أنه قد حرم النفع بعلمه ، و قد رأى بعض الصالحين رجلا عالما يخرج من دار يحيى بن خالد البرمكي فقال : أعوذ بالله من علم لا ينفع . كيف ؟ ألم تر المنكرات و لا تنكر ، و تتناول من طعامهم الذي لا يكاد يحصل إلا بظلم فينطمس قلبك و تحرم لذة المعاملة للحق - سبحانه - ، ثم لا يقدر لك أن يهتدى بك أحد ، بل ربما كان فعل هذا سببا لإضلال الناس و صرفهم عن الإقتداء به ، فهو يؤذي نفسه و يؤذي أميره ، لأنه يقول : لو لا أنني على صواب ما صحبني و لأنكر علي .

و يؤذي العوام تارة بأن يروا أن ما فيه الأمير صواب ، وتارة بأن الدخول عليه و السكوت عن الإنكار جائز . أو يحبب إليهم الدنيا ، و لا خير والله في سعة من الدنيا ضيقت طريق الآخرة . و أنا أفندي أقواما صابروا عطش الدنيا في هجير الشهوات زمان العمر حتى رووا يوم الموت من شراب الرضى ، و بقيت أذكارهم تروى فتروى صدأ القلوب و تجلو صداها .

¹ - صد الخاطر : ص 161 .

² - المصدر السابق : ص 388 .

هذا الإمام أحمد يحتاج فيخرج إلى اللقطة و لا يقبل مال سلطان . و هذا إبراهيم الحربي¹ يتغذى بالبقل ويرد على المعتصم ألف دينار² .

و يزيد ابن الجوزي المسألة توضيحا أكثر حتى يرتدع من يقدم على هذا العمل من العلماء لأن الخطورة متعدية في هذا الأمر إلى أطراف آخرين و ليست بعائدة على العالم لوحده فقال : " و ليس على العالم أضر من الدخول على السلاطين فإنه يحسن للعالم الدنيا ويهون عليه المنكر، وإن الإنسان ليمشي في السوق ساعة، فينسى بما يرى ما يعلم ، فكيف إذا انضم إلى ذلك التردد إلى الأغنياء و الطمع في أموالهم ... و لا يحسن اليوم المجالسة إلا لكتاب يحدثك عن أسرار السلف ... و لا يمكن الانقطاع الكلي إلا بقطع الطمع ، و لا يقطع الطمع إلا بالقناعة باليسير أو يتميز بتجارة ، أو أن يكون له عقار يستغله ، فإنه متى احتاج شئت لهم ، و متى انقطع العالم عن الخلق و قطع طمعه فيهم و توفر على ذكر الآخرة فذاك الذي ينفع و ينتفع به " .³

و يرى أن عاقبة هذه المخالطة سيئة للغاية وأن أطيب العيش يكون بالبعد عنهم يقول شارحا منهجه في هذا الوصف الدقيق : " و قد رأينا جماعة من العلماء خالطوا السلطان فكانت مغبتهم سيئة ، و لعمرى إنهم طلبوا الراحة فأخطنوا طريقها ، لأن غموم القلب لا توازيها لذة مال و لا لذة مطعم ، هذا في الدنيا قبل الآخرة ، و إن أشرف و أطيب عيشا من منفرد في زاوية لا يخالط السلاطين و لا يبالي أطاب مطعمه أم لم يطب ، فإنه لا يخلو من كسرة و فعب ماء ، ثم هو سليم من أن يقال له كلمة تؤذيه ، أو يعيبه الشرع حين دخوله عليهم (إلى أن يقول) : و لما بليت أقوام بمخالطة الأمراء أثر ذلك التكدير في أحوالهم كلها فالصبر عن مخالطة الأمراء و إن أوجب ضيق العيش من وجه يحصل طيب العيش من جهات " .⁴

و بناء على ما قلناه أنفا اتضح لنا أن ابن الجوزي لم يكن يوصي طلاب العلم و العلماء بالسعي في طلب الرزق حيا منه في جمع المال أو من أجل الجري وراء العيش الرغيد ، و إنما ليبيث فيهم روح العزم و المثابرة و السعي في طلب حياة العزة و الكرامة

¹ - إبراهيم الحربي : شيخ الإسلام الحافظ أبو إسحاق إبراهيم الحربي ، عالم العراق و شيخ البغداديين في وقته أخذ عنه خلق كثير توفي سنة 285 هـ سننرات الذهب : مج 1 ، 2 / 190 ، سير أعلام النبلاء 13 / 356 .

² - صيد الخاطر : ص 389 .

³ - المصدر السابق : ص 342 ، 343 .

⁴ - نفس المصدر : ص 286 ، 287 ، 288 .

حتى يحققوا آمالهم و آمال أمتهم المعقودة عليهم¹ ، فكيف يمكن للعالم و الداعية أن يحقق التمكين للدعوة و الدين و هو دليل و في حاجة لغيره من الخلق .

2 - ابن الجوزي و دعوة الخلفاء و الحكام :

لما كانت من أخطر المهام في هذه الحياة الدنيا مهمة التصرف في رقاب الناس و تولي رعاية شؤونهم الدينية و الدنيوية فإن ابن الجوزي كان يرى أن تولي أمر المسلمين هو من الأمور المهمة بمكان من أجل ذلك وجدنا يؤكد على إبراز ما في التصدي لولاية أمرهم من خطورة يقول في باب رفض رياسة الدنيا: "اعلم أن النفس تحب الرفعة و العلو على جنسها ، فتؤثر الإمارة و الولاية لمكانة الأمر و النهي ، و هذا و إن كان مطلوباً إلا أن فيه مخاطرات ، أفسلها العزل بعد الولاية و أعظمها الجور في الحكومة و أوسطها تضييع الزمان إذا لم تصح للوالي نية"² .

وبعد تأكيد على هذه الخطورة يرى ابن الجوزي - رحمه الله - أنه يتعين على من أراك التصدي لنيل هذا المنصب أن يراجع الأمر أكثر من مرة حتى يستقر له الرأي و تثبت عنده المشورة و حتى لا تكون له ذلاً و تدامة يوم القيامة يقول : " و ينبغي لمن أحب الولاية أن يعلم أنه إنما يتخايلها عظيمة ما لم يبناها ، فإذا نالها هانت عنده و سما إلى غيرها فاللذة تزول و الأوزار تبقى و المخاطرة بالنفس و الدين ، فالتفكر في هذه الأشياء علاج "³ .

و مع ذلك فابن الجوزي لا يخفى عليه أنه مع كل هذه المخاطر و المحذورات فإن الولاية شرف و رفعة ، و خاصة إذا كانت الأيدي التي تولت هذه المهمة الشريفة و الخطيرة في أن واحد ، مؤهلة و أظهرت تحقيق العدل و القسط بين الرعية يقول في ذلك موضحاً هذا الشرف العظيم للولاية مع ما فيها من أخطار : " اعلم وفقك الله و أسعدك : أن كل ماله منظر فيه مخاطرة ، و كل ما ارتفع المقام ازدادت المخاطرة فيه ، و لا تنال الراحة بالراحة ، ألا ترى أن الربح في ركوب البحر وفيه خطر ، و مرتبة الفتوى غاية العلم و فيها خطر ؛ و كذلك السلطنة ؛ فإذا سلم التاجر من البحر ، و المفتي من الزلل و السلطان من الحيف ، لم يزاحم في فضيلته .

و تزيد مرتبة السلطان العادل على قوام الليل و صوام النهار ؛ لأن نفع أولئك لا يتعداهم و نفعه يتعدى ، إذ ينظره يتعبد المتعبدون ، و يسافر التاجرون ، و يشتغل بالعلم المتعلمون

¹ - ابن الجوزي أهدت و منهجه في الموضعات : أبو العلا علي أبو العلا ، ص 15 .

² - الطب الروحاني : ص 18 .

³ - المصدر السابق : ص 18 .

و تعتبر قضية الخلافة و الحكم من أهم القضايا التي أولاها ابن الجوزي اهتماما خاصا في منهجه الدعوي الإصلاحى حيث انه عندما رسم صورة المثل الأعلى للخليفة و السلطان لم يقف ساكنا بل تعرض بجراته المعهودة بالنقد اللاذع للسلطين و الحكام الذين " لا يكادون يأخذون الدنيا من وجهها و لا يخرجونها في حقها ، فإن أكثرهم إذا حصل له خراج ينبغي أن يصرف الى المصالح و هبه لشاعر ، و ربما كان معه جندي يصلح أن تكون مشاهرتة عشرة دنانير فأعطاه عشرة الاف ، و ربما غزا فأخذ ما ينبغي أن يقسم على الجيش فأصطفاه لنفسه هذا غير ما يجري من الظلم في المعاملات " ² .

و اسمع إليه و هو يتحدث عن مصدر أموال السلطين و كيف جمعوها من شتى وجوه الشبهات و يتفقونها فيما لا يصلح من اللهو و المعصية فقال : " فأكثر السلطين يحصلون الأموال من وجوه رخيئة و يتفقونها في وجوه لا تصلح ، و كأنهم قد تملكوها و ليست مال الله الذي إذا غزا أحدهم باسمه فغنم الأموال اصطفاه لنفسه ، و أعطاهما أصحابه كيف اشتهى " ³ .

و يعال ابن الجوزي سبب فساد السلطين و الولاية في عصره بقوله : " و قد كانت الولايات لا يسألها إلا من أحكمته العلوم ، و ثقفته التجارب ، فصار أكثر الولاية يتساوون في الجهل فتأتي الولاية على من ليس من أهلها " ⁴ .

و رغم هذه الحال التي هي عليها السلطين و الحكام لكن ابن الجوزي لا يفقد الأمل في توجيه الحكام و إسداء النصيح لهم وفق منهج حنّده و رسم معالمه ، حيث كان - رحمه الله - يرى أنه من أول ما يجب على السلطان أن يحققه " ينبغي له أن يخلو بنفسه فيجلو عليها أدلة التوحيد و شواهد الربوبية فيوقن بوجود الخالق ، و ينظر في معجزات النبي - صلى الله عليه و سلم - و ما أظهره الله على يديه من الدلائل و المعجزات ، فيعلم صدقه فيوجب ذلك عليه الانقياد إلى الشريعة ، و يعلم بالشرع أنه قد قلّد أمرا عظيما " ⁵ ، و أن يعدل و يبتعد عن ظلم رعيته لما في ذلك من الآثار الزاجرة و الأخبار المرهبة لمن جار

¹ - الشفاء في مراعات الملوك و الخلفاء : ص 13 .

² - صيد الخاطر : ص 388 ، 389 .

³ - المصدر السابق : ص 390 .

⁴ - نفس المصدر : ص 403 .

⁵ - للمصدر نفسه : ص 55 .

و ظلم¹ .

ثم يستأنف ابن الجوزي في إسداء النصح و التوجيه للحاكم و تحذيره من مغبة اتباع الهوى قائلا : " و ليحذر السلطان من العمل بالهوى و الغضب ، أو يجري على قانون العادة فيما كان من قبله يفعل ، فإن خلقا من الأسراء يقطعون يد من لا يجوز قطعه ، و يقتلون من لا يجوز قتله ، و يسمون ذلك سياسة² ، و يبين ابن الجوزي مدلول ذلك و أثره على شرع الله - سبحانه و تعالى - بقوله : " و هذا انتقاد على الشرع معناه : أن الشرع قاصر وأنه ما ورد بما يكفي من الردع ، فنحن نضم إليه برأينا هذا ، و هذا من أفبح الأشياء ، بل الشريعة هي السياسة ... و ليعلم السلطان ، أن دوام دولته بالعدل و الشكر ، و ليعلم السلطان أن زينة ملكه و بهجته الخوف من الله تعالى و التواضع " ³ .

و من أهم ما يراه ابن الجوزي ضروري للحاكم هو اتخاذ بطانة صالحة من أهلى العلم و الصلاح حتى يعينوه على طاعة الله و الإحسان إلى رعيته كما أحسن الله إليه ذلك لأن العمر مركب مستعجل يقول : " و ينبغي أن لا يخلى مجلسه من كبار العلماء الأخيار الأفاضل ، الذين يخافون الله فإن ذلك زيادة في دينه و دنياه ، و لا يعمل شيئا إلا بفتواهم " ⁴

و من خلال ما رأينا نجد هنا كيف أن ابن الجوزي في منهجه الدعوي الإصلاحى يؤكد على مبدأ من أهم مبادئ الحكم في الإسلام و هو مبدأ الشورى ، و هو لا يترك الأمر دون ضوابط معينة ، بل نجده يحدده بدقة حيث يجعل هذه الشورى موقوفة على العلماء الأخيار و هذا يعتبر من الأمور المهمة و من المرجعيات الأساسية في قواعد الحكم الإسلامى في أي عصر من العصور ، كما اتضح لنا نظرة ابن الجوزي للحاكم و توجيهاته وفق منهجه الذي يعتمد في أساسه على النصح و حسن المعاملة للحاكم وخاصة إذا كان متمسكا بكتاب الله - عز و جل - و سنة نبيه عليه الصلاة و السلام .

د - القواعد الأساسية في دعوة ابن الجوزي للخلفاء والحكام :

لابن الجوزي قواعد خاصة رسمها لنفسه و أرشد إليها الدعاة و الوعاظ حتى يحسنوا حذوه في دعوة الخلفاء و وعظ الحكام و قد سار على هذا المنهج و هذه القواعد في كتبه

¹ - الثغراء في مواضع الخلفاء : ص 53 .

² - المصدر السابق : ص 56 .

³ - نفس المصدر : ص 57 ، 58 .

⁴ - المصدر نفسه : ص 55 .

التي ألفها خصيصا لوعظ الأمراء و السلاطين¹ ، و ذلك لما لهؤلاء القوم من مكانة عالية و نفوذ ، كما أن صلاحهم أو فسادهم من صلاح الرعية أو فسادها .

و نظرا لأهمية الموضوع و خطورته فقد عقد له فصلا خاصا عن وعظ السلاطين في كتابه " صيد الخاطر " ² ، أشار فيه إلى المنهج الأمثل في دعوة هؤلاء الحكام و طريقة نصحهم ، و سنحاول تحديد هذا المنهج في العناصر الآتية :

١ - عدم مخالطة الأمراء و أهل الحكم و السلطان :

حيث يرى أنه من غير المناسب للداعية و العالم أن يخالط الحاكم لما في ذلك من خطر على حياته و دعوته لأنه و إن سلمت له حياته فلم يقتل لم يسلم له دينه من الفتنة و الابتلاء فيكون بذلك كمن باع دينه بدنيا غيره ، يقول في ذلك : " العجب ممن له مسكة من عقل أو قليل من دين كيف يؤثر مخالطتهم ، فإنه بالمخالطة لهم أو العمل معهم يكون قطعاً خائفاً من عزل أو قتل أو سب ، و لا يمكنه أن يعمل إلا بمقتضى أوامرهم ، فإن أمروا بما لا يجوز لم يقدر أن يراجع ، فقد باع دينه قطعاً بدنياه فمنعه بالخوف من القيام بأمر الله و ضاعت عليه آخرته " ³ .

٢ - الزهد فيما عند الحكام من نعم و أموال :

و هذا مطلب أساسي و صفة لازمة للداعية و الواعظ حتى يتجرّد في دعوته و يخلص فيها فيبتعد عن كل غرض دنيوي قد يحدث خلافاً في دعوته و قد تحدّث ابن الجوزي كثيراً عن هذا المطلب و أولاه عناية خاصة فكم من الدعاة ممن ركبوا الأهوال في طلب المزيد من الأموال فلم يسلم لهم دين و لم تنتشر لهم دعوة و لم يجمع لهم مال يقول : " فأما من ليس له كسب كالعلماء و المتزهدين ، فسلامتهم طريفة ، إذ قد انقطعت موارد السلاطين عنهم و مراعاة العوام لهم ، فإنه من ترخّص منهم اليوم أكل الحرام ، لأنه يأخذ من الظلمة خصوصاً بحجة التتمس و التزهد " ⁴ ، و اسمع إليه كيف يصور المسألة بشيء من الدقة و التفصيل و يبيّن عاقبة العلماء و الدعاة الذين يفضلون الانخراط في طابور الحكام مع ما هم عليه من ظلم و جور و ينسون ما أمرهم الله - سبحانه و تعالى - به من نشر العلم و تبليغ دعوة الله للناس ، فيقول و قد امتلكته الدهشة و استولى عليه العجب من

¹ - ابن الجوزي الواعظ و منهجه في الدعوة إلى الله و الموازنة بينه و بين الغرالي : جمعة علي محمد الخولي ، ص 248 .

² - صيد الخاطر : ص 402 .

³ - المصدر السابق : ص 453 .

⁴ - نفس المصدر : ص 391 .

هذا الصنف ممن ينسبون للعلم و يلبسون ثوب الدعاة و يحترفون مهنة الدعوة و هم مؤمنون بالله و بالجزاء : " طال تعجبي من مؤمن بالله - عز و جل - ، مؤمن بجزائه يؤثر خدمة السلطان مع ما يرى منه من الجور الظاهر ، فوا عجباً ما الذي يعجبه ؟ ، إن كان الذي يعجبه دنويًا فليس ثم إلا أن يصاح بين يديه بسم الله الذي ينسب إليه زورا ، وهو ما إلا أن يتصدّر في المجالس و يلوي عنقه كبرا على النظراء ، و يأخذ الأسحات وهو يعلم من أين تحصل ، و ربما انبسط في البراطيل ، ثم يقابل هذا أن يصادر أو يعزل ، فتستخرج تلك المرارة من كل حلاوة كانت في الولاية ... إلى أن يقول : و إن كان دينًا فإنه يعلم أنهم لا يمكنونه في الغالب من العمل بمقتضى الدين ، إنهم يأمرونه بترك ما يجب و فعل ما لا يجوز فيذهب دينه على البارد ، و لعقاب الآخرة أشقّ " ¹ .

هكذا يكون جزاء مثل هؤلاء الذين يذلون أنفسهم في خدمة الظلمة من أصحاب الولايات ، فإنه لا ينالهم إلا سخط العوام ، و الخوف على الأرزاق ، و تناول السحت من الأموال ، أضف إلى ذلك ما ينتظرهم من مخافة المصادرة و مهانة العزل .

و بعد هذا يبيّن ابن الجوزي أنه ليس هناك من شيء آمن على الداعية من القناعة باليسير من المباح و الاشتغال بالعلم حتى يسلم للداعية دينه و دعوته و عرضه يقول : " فليس في الدنيا أطيب عيشاً من منفرد عن العالم بالعلم ، فهو أنيسه و جليسه ، قد فزع بما سلم به دينه من المباحات الحاصلة ، لا عن تكلف و لا تضييع دين ، و ارتدى بالعز و عن الذل للدنيا و أهلها ، و التحف بالقناعة و اليسير ، إذ لم يقدر على الكثير بهذا الاستعفاف يسلم دينه و دنياه " ² . و يؤكد أنه ليس للدعاة شيء يرفعهم في نظر المدعويين إلا القناعة فهي أصل الأصول فلا يجب على الداعية أن يتخلى عنها حتى ولو اضطر إلى سف التراب فهو أهون له من نيل عطايا الحكام و أصحاب الأموال من أهل المن و الأذى ، يقول ابن الجوزي : " والقناعة بما يكفي ، و ترك التشوّف إلى الفضول أصل الأصول ... إلى أن يقول : ثم فيمن ! إنما هو سلطان جائر ، أو مزك منان ؟ أو صديق مثل بما يعطي ، و العز لذم كل لذة ، والخروج عن ربة المنن و لو بسف التراب أفضل " ³ .

د - التلطف و حسن المخاطبة عند وعظ الحكام و السلاطين :

و ابن الجوزي لما تحدّث عن هذه القاعدة كان يدرك أهميتها بالنسبة للدعاة مع

¹ - صيد الخاطر : ص 347 .

² - المصدر السابق : ص 373 .

³ - نفس المصدر : ص 304 .

المدعويين من الحكام ، إذ لا تنفع معهم فضاضة القول و لا غلظة الطبع ، بل يجب مراعاة المداخل العاطفية في الخطاب ، كالذكر بشرف الولاية التي تقلدها السلطان أو الحاكم وحصول ثوابه في رعاية الرعية مع ذكر طرق وسير الحكام العادلين من أسلافه إن وجد أو من غيرهم ، وكل ذلك لتهيئة الجو النفسي للحاكم لقبول النصيحة أو الموعدة و الأخذ بها . يقول ابن الجوزي : " ينبغي لمن وعظ سلطانا أن يبالغ في التلطف و لا يواجهه بما يقتضي أنه ظالم ، فإن السلاطين حظهم التفرد بالتهر و الغلبة ، فإذا جرى نوع توبيخ لهم كان إنزالا و هم لا يحتملون ذلك . وإنما ينبغي أن يمزج وعظه بذكر شرف الولاية و حصول الثواب في رعاية الرعايا ، و ذكر سير العادلين من أسلافهم " ¹ .

٤ - عدم مواجهة الداعية الحكام و وصفهم بالظلم :

و ذلك لما يتفرد به الحكام في الغالب من حب التسلط و الغلبة و سموّ ، فإذا ما واجههم الدعاة بالشدّة ردوا بأكثر منها ، يقول ابن الجوزي : " ثم لينظر الواعظ في حال الموعدوظ قبل وعظه ، فإن رأى سيرته حميدة كما كان منصور بن عمار ² و غيره يعظون الرشيد و هو يبكي و قصده الخير زاد في وعظه و وصيته ، و إن راه ظالما لا يلتفت إلى الخير ، وقد غلب عليه الجهل ، اجتهد في أن لا يراه و لا يعظه " ³ ، إنما الواجب على الداعية أن يذم عنده الظلم ، و يبين له أنه بسبب ضرورة و جوب العدل و عقوبة الظلم كانت الولاية خطيرة و أوزارها عظيمة في الدنيا و الآخرة ⁴ ، و أن يذكره بأن العدل و الشكر أساس دوام الملك و الدولة و بغيابهما تنمحي الدول و تزول الحكومات من الوجود ⁵ .

و ابن الجوزي يرى بأن على الواعظ أو الداعية إذا كان قد ابتلي بوعظ و تذكير هذا الخليفة أو الحاكم " فليكن على غاية التحرز فيما يقول و لا ينبغي أن يغترّ بقولهم منه بحسن القبول لما يقول ، ظنا فإنه لو قال كلمة لا توافق أغراضهم ثارت حرارتهم " ⁶

5 - الإيجاز و الاختصار في وعظ الحكام :

¹ - صيد الخاطر : ص 402 .

² - منصور بن عمار بن كثير أبو السري السلمي الواعظ ، من أهل حراسان و قيل من أهل البصرة سكن بغداد و حدث لها ، حلية الأولياء و طبقات الأصفياء : لأبي نعيم الأصبهاني دار الكتاب العربي ط 1400 3 1980 م مج 5 ، 325 / 9 - ميزان الاعتدال في نقد الرجال : شمس الدين الذهبي تحقيق علي محمد البحاري دار المعرفة د ت ، 4 / 187 - سير أعلام النبلاء : 93/9 .

³ - صيد الخاطر : ص 402 ، 403 .

⁴ - الشفاء في مواعظ الملوك و الخلفاء : ص 53 .

⁵ - المصدر السابق : ص 57 .

⁶ - صيد الخاطر : ص 403 .

و ذلك لكون الحكام عند سماعهم النصيحة و الموعدة صنفان ففريق يجب سماع النصيح و الوعظ و الاستزادة من الخير و البعد عن الشر ، و فريق ظالم جاهل متعد لا يلتفت إلى الخير وهو إلى الشر أقرب . وإزاء ذلك يوجه ابن الجوزي الواعظ أو الداعية تجاه الصنف الأول ، و ذلك بترغيبه وترهيبه و تذكيره بما يجب لله عليه و ما يجب للرعية عليه أيضا كل ذلك بايجاز و اختصار ، و ذلك نظرا لأن الحاكم المسلم قد يكون له ما يقوم به من مهام و ما يشغله من تدبير أمور الرعية سواء الداخلية أم الخارجية ، و ما ينبع ذلك من مسؤوليات جسام قد يضيق وقته عن سماع المواعظ الطويلة ، لذا ينبغي على الواعظ أو الناصح للحكام مراعاة حال هؤلاء الصنف من المدعويين ، و ذلك بتحييب الخير لهم بأرق الأساليب وأطيب الكلام مع استعمال أسلوب الإشارة فهو مناسب في مثل هذه الظروف و قد أشار ابن الجوزي لذلك بقوله : " فإن اضطرر إلى موعدته كانت كالإشارة ، و قد كان أقوام من السلاطين يلينون عند الموعدة و يحتلمون الواعظين " ¹ .

إن فالحبيطة و الحذر و عدم الاندفاع في النصيحة كل ذلك مطلوب للداعية ، و مما أورد ابن الجوزي في كتابه المصباح المضيء حول طريقة وعظ الخلفاء و السلاطين قوله : " و مما يوعظ به السلطان أن يقال له : إن الله - تعالى - لم يقنع لك بنصيب من النعم دون أن ملكك ما لم يملك أحدا من خلقه ، و أخضع لك الرقاب كلها ، و رفعك على جميع العباد ، فلا يصلح أن ترضى له بأدون مراتب الشكر ، كن له مع حاجتك إليه كما كان لك مع استغنائه عنك ، إذا كان قد ألزمك بأن لم يجعل على الأرض من يتجاسر أن يعصيك فأحذر مخالفته ، و لا تقنع له من نفسك بما لم يقنع به لنفسك من غيرك ، تالله ما أنصف من أمرته نفسه و نهاه ربّه فأطاعها و عصاه " ² .

6 - عدم قدح الداعية في ولاة السلطان في مجلسه :

و هذا من ضرورات فقه الدعوة في وعظ الحكام و دعوتهم و ذلك حتى لا تتور حفيظته و يشتد غيظه و يظهر حنقه زد على ذلك ما يناله من سوء منهم لظنهم أنه يريد إفساد و تأليب ولي الأمر عليهم يقول ابن الجوزي : " و ليحذر مذكر السلطان أن يعرض له بأرباب الولايات فإنهم إذا سمعوا بذلك صار الواعظ مقصودا لهم بالإهلاك خوفا من أن يعتبر السلطان أحوالهم فتفسد أمورهم " ³ .

¹ - مبد الخاطر : ص 403 .

² - المصباح المضيء في خلافة المستضيء : ابن الجوزي ، تحقيق ناجية عبد الله إبراهيم ، 57 / 1 .

³ - مبد الخاطر : ص 403 .

٧ - الابتعاد عن الوعظ و التذكير إذا لم يأت بفائدة مرجوة :

و يرى ابن الجوزي أنه من باب تضييع الأوقات مع الحكام عندما لا يكون للتذكير وقع في قلوبهم و نفوسهم ، لأنه عند ذلك يكون السكوت أسلم ، و البعد عنهم أولى و يرى أن هذا هو الأصلح في زمانه ذلك ، لأنه من الأخرى للداعية في هذه الظروف أن يتجه لدعوة العوام و تذكيرهم خيراً له و أجدي من حكام ميؤوس من صلاحهم و إصلاحهم يقول في ذلك : " و البعد في هذا الزمان عنهم أصلح ، و السكوت عن المواعظ لهم أسلم فمن اضطر لتلطف غاية التلطف ، و جعل وعظه للعوام و هم يسمعون و لا يعنيه منسه بشيء " ¹ ، أضف إلى ذلك ما في وعظ مثل هؤلاء الحكام من المخاطرة بالنفس و التي قد تلحق الضرر بالداعية عند تذكيرهم في مثل هذه الظروف فقال عن ما يحدث بالداعية من خطر : " لأنه إن وعظه خاطر بنفسه ، و إن مدحه كان مدهانا " ² و على أية حال كان الخسران من نصيب الداعية في كل الأحوال ، فالأولى له إذن كف أذاهم بالابتعاد عنهم و الاشتغال بغيرهم من عوام المدعويين فقد يكون فيهم الخير الكثير فإنهم كالغيث لا يعرف أين يكون نفعه .

٨ - نماذج من وعظ ابن الجوزي للحكام :

لم تكن مواعظ ابن الجوزي خاصة بصنف معين من المدعويين أو مقصورة على سامعيه من العلماء و جمهور الناس من العوام ، بل كان له اهتمام بالخلفاء و الحكام و السلاطين ، خاصة منهم الخليفة المستنجد و الناصر ، و المستضيء الذي كان على علاقة طيبة بابن الجوزي فألف له الشيخ كتابه " المصباح المضيء في خلافة المستضيء " و كتابه " النصر على مصر " .

و فوق ذلك فلابن الجوزي كتاب جمع فيه مواعظ و حكم و نصائح لأصحاب الحكم و السلطة من حكام و خلفاء و وزراء ، و الكتاب هو " الشفاء في مواعظ الملوك و الخلفاء " ³ و مما قاله في مقدمته مبرزاً أهمية وعظ الملوك و الحكام : " لما صلفت كتاباً في مواعظ العوام ؛ أثرت أن أكتب كتاباً في مواعظ الملوك ؛ فهم أحق الناس بوعظ الواعظين " ⁴ .

¹ - صيد الخاطر : ص 403 .

² - المصدر السابق : نفس الصفحة .

³ - الشفاء في مواعظ الملوك و الخلفاء : ص 57 إلى 90 ، 95 ، 96 .

⁴ - المصدر السابق : ص 40 .

و من أشهر ما وعظ به ابن الجوزي الخلفاء و السلاطين هذه المواظ الحكيمة التي
تل على الخبرة و الدراية في مجال التذكير و الدعوة لهؤلاء :

قال في كتابه المنتظم واعطا الخليفة المستضيء : " و تكلمت يوم الخميس بعد العصر
تسع رجب تحت المنظرة و أمير المؤمنين حاضر و الزحام شديد و الباب مغلق لشدة
الزحام و بالغت في وعظ أمير المؤمنين فمما حكيت له : أن الرشيد قال لشييان عظمي
فقال : يا أمير المؤمنين لأن تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمن خير لك من أن تصحب
من يؤمّنك حتى يدركك الخوف ، قال الرشيد : فسّر لي هذا قال : من يقول لك أنت مسؤول
عن الرعية فاتق الله أنصح لك ممن يقول أنتم أهل بيت مغفور لكم ، و أنتم قرابة نبيكم
فبكي الرشيد حتى رحمه من حوله ، قلت له في كلامي : يا أمير المؤمنين إن تكلمت خفت
منك ، و إن سكت خفت عليك فأنا أقدم خوفاً عليك لمحبتي لك على خوفاً منك " ¹ .

و لاشك أن ابن الجوزي من خلال هذه الموعظة الموجزة استطاع أن يوصل
الرسالة التي أراد إيلاؤها دون أن يقع في أي حرج أو يشعر الخليفة بأنه في حاجة ماسية
إليه فيذل نفسه له و هنا يتجلى أسلوب الحكمة في تبليغ الدعوة للحكام و كيفية التأثير عليهم .
و مما قاله من مواظ ما ذكره في حوادث سنة 574 هـ بقوله : " فتقدّم إليّ بالكلام تحت منظرة
باب بدر فتكلمت بكرة و حضر أمير المؤمنين ، و تكلمت هناك يوم عاشوراء و حضر أمير
المؤمنين و قلت : و لو أني مثلت بين يدي السّدة الشريفة لقلت : يا أمير المؤمنين كن لله
— سبحانه — مع حاجتك إليه كما كان لك مع غناه عنك ، إنه لم يجعل أحداً فوقك فلا ترض
أن يكون أحد أشكر له منك ، فتصدق أمير المؤمنين عقيب المجلس بصدقات و أطلق
محبوسين " ² ، و في هذه السنة كذلك تقدّم الخليفة بعمل لوح نصب على قبر الإمام أحمد
و حصل للشيخ أبي الفرج و الحنابلة تعظيم زائد ، و جعل الناس يقولون للشيخ أبي الفرج :
" هذا بسببك ، فإنه ما ارتفع هذا المذهب عند السلطان حتى مال إلى الحنابلة إلا بسماع
كلامك قال : فشكرت الله على ذلك " ³ .

و مما لاشك فيه أن هذه الموعظة و رغم كونها قصيرة إلا أنها قد أدت دورها من
حيث للتأثير المباشر على الخليفة ، فقد استغل ابن الجوزي عاطفة الخليفة الدينية ليذكره بأن
يكون لله — عز و جل — مع حاجته إليه كما كان الله له رغم أنه سبحانه في أعلى عله

¹ - المنتظم : 18 / 250 .

² - المصدر السابق : 18 / 248 .

³ - نفس المصدر : 18 / 249 — الذيل على طبقات الحنابلة : ابن رجب ، 1 / 409 .

و عن ملكه .

و مما ذكره رحمه الله في حوادث سنة ٤٧٢ هـ قوله : " ثم تقدم إليّ بالجلوس بباب بدر تحت المنظرة يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة فتكلمت فيه بعد العصر و أمير المؤمنين حاضر و جرى مجلس مستحسن تاب فيه جماعة و قصت فيه شعور " ¹ .

و الملاحظ عن هذه المواعظ أنها تأتي بأكلها و يظهر أثرها الطيب في الحين و اللحظة بإذن الله - سبحانه و تعالى - فيقوم الخليفة - بما يسمى اليوم - بإجراءات العفو عن المساجين و تخرج الصدقات و ترد المظالم إلى أصحابها ثم يتوب من يتوب و يندم من يندم و يسفر المجلس على عدد كبير من التائبين .

و ذكر ابن الجوزي في حوادث هذه السنة أيضا أنه ألقى موعظة له بحضور أمير المؤمنين و كانت موعظة مشهودة اشتهت فيها الزحام بين المدعوين حيث قال : " و تكلمت يوم الخميس عاشر رجب بعد العصر تحت المنظرة و أمير المؤمنين حاضر و الزحام شديد ... فكان يوم مجلسي تغلق أبواب المكان بعد الظهر لشدة الزحام ، فإذا جئت بعد العصر فتح لي فزاحم معي من يمكنه أن يزاحم " ² .

و قد تواصلت مواعظ ابن الجوزي للخلفاء و الحكام و اتخذت طابعا مميزا يغلب عليه حسن الأداء و بلاغة التعبير مع التركيز على جانب الترهيب كما هو شائع في منهج ابن الجوزي الدعوي ، و من أحسن ما قاله في وعظ الخليفة المستضيء : " يا أمير المؤمنين إن تكلمت خفت منك ، و إن سكت خفت عليك ، فأنا أقدم خوفاً عليك من خوفاً منك لمحبتتي دوام أيامك ، و أن أقدم قول القائل : اتق الله خير من قول القائل : إنكم أهل بيت مغفور لكم ، و قد قال الحسن البصري : لئن تصحب أقواما يخوفونك حتى تبلغ المأمّن خير من أن تصحب أقواما يؤمتونك حتى تبلغ المخاوف ؛ و كان عمر بن الخطاب يقول : إذا بلغني عن عامل أنه ظلم الرعية و لم أعيره فأنا الظالم . يا أمير المؤمنين ، كان يوسف - عليه السلام - لا يشبع في زمان القحط لنلا ينسى الجياع ، و كان عمر يضرب بطنه عام الرمادة و يقول : قرقر إن شئت أو لا تقرقر ، فوالله لا شبعت و المسلمون جياع فتصدق الخليفة المستضيء بصدقات كثيرة ، و أشبع الجياع و أطلق الحبوس " ³ .

و الناظر في هذه المواعظ يلاحظ أنها و رغم كونها ليست مستمرة على الدوام إلا

¹ - المنظم : 18 / 228 .

² - المصدر السابق : 18 / 229 .

³ - اللؤلؤ على الروضتين : لأبي شامة ، ص 22 - البداية و النهاية : ابن كثير ، 13 / 32 ، 33 .

أنها ذات آثار إيجابية على الحكام و المحكومين فمن ناحية الحكام فإنها تذكرهم بالله تعالى - فيتوبوا إلى ربهم و يرجعوا إلى رشدهم و منهم من يندم على ما فرط في جنب الله ، أما عن الرعية فإن أثرها الحسن يظهر فيما ترفعه من الغبن و الظلم الذي كان يقع على الرعية سواء بعلم الحكام أو دون علمهم ، و لعل هذا من حسنات ابن الجوزي التي سجلها له التاريخ بأحرف من ذهب على مر العصور و الأجيال .

لقد استطاع رحمه الله بمواعظه أن يبكي الخلفاء كما أبكى المدعويين من العوام و مماروي عن عظيم تأثير وعظه في الخلفاء أن الخليفة المستضيء سمعه مرة يعظ تحت داره و هو يقول منشدا هذه الأبيات :

سننقلك المنايا عن ديارك و يبذلك الردى دارا بدارك
و نترك ما عنيت به زمانا و ننقل من غناك إلى افتقارك
فدود القبر في عينيك يرعى و ترعى عين غيرك في ديارك

فجعل المستضيء يمشي في قصره و يقول : أي و الله ؛ و ترعى عين غيرك في ديارك !
و يكررها و يبكي حتى الليل¹ .

و مما ذكره صاحب مرآة الجنان عن أثر مواعظ ابن الجوزي ، هذه الحادثة التي تدل على مكانة ابن الجوزي و تأثير وعظه و أسلوب دعوته في الحكام حتى يصل بهم الأمر في بعض الأحيان إلى تطبيق ما يشير به ابن الجوزي في التوبة و الحال يقول : " و من نولده ما سمعت من بعض أهل العلم يحكي أن الخليفة غضب على إنسان من أهل حاشيته ، فلراد أن يعاقبه فهرب ، فلزم أخاه و صادره و أخذ له مالا ، فشكى ذلك المصادر إلى ابن الجوزي و ذكر له القضية ، فقال له : إذا انقضى مجلس وعظي فقم قدامي حتى تذكرني ، و كان الخليفة يسمع وعظه من خلف الستر كما تقدم ، فلما كان أول مجالسته للوعظ بعد ذلك و انقضى المجلس ، قام ذلك الإنسان المصادر ، فلما راه الشيخ أبو الفرج أنشد معرضا بكون البريء لا يؤخذ بذنب الجريء معرضا للخليفة على العدل و الإحسان ، و أن يعاد المال المأخوذ على ذلك الإنسان فقال :

ففي ثم أخبرينا يا سعاد بذنب الطرف لم سلب الفؤاد
و أي قضية حكمت إذا ما جنى زيد به عمرو يقاد
يعاد حديثكم فيزيد حسنا و قد يستحسن الشيء المعاد

¹ الأدب على طبقات الخنابلة : ابن رجب ، 1 / 409 ، 410 .

فقال الخليفة من وراء الستر : يعاد - يعني المال - فأعيد على ذلك الشخص ماله و انجبر حاله¹.

و لقد كانت مواعظه الخلفاء ظاهرة حتى في ألبه النثري ، و الدليل على ذلك ما جاء في مقاماته الأدبية التي خصها للوعظ كالمقامة الرابعة و الثلاثون و التي جعلها لوعظ السلطان قال فيها عنه : " أين من حصن الحصون و احترس ، و عمر الحدائق و غرس نصب سرير الكبر و جلس ، و ظن بقاء النفس خاب الظن في النفس ، نازله الموت فلما أنزله عن الفرس ، فرس (قتل) و وجهه وجهه إلى ديار البلى فانطمس " ².

إن ومن خلال هذه المواعظ يمكننا القول أنه مثلما نالت شخصية ابن الجوزي الكثير من الحظوة عند العلماء و العوام ، فقد لاقت دعوته أيضا الكثير من القبول و الاستحسان لدى الخلفاء و الحكام في عصره . و ما ذلك إلا بسبب أسلوبه الدعوي الناجح في التعامل معهم . فقد كان - رحمه الله - يؤثر السلامة بالابتعاد عنهم و عدم المخالطة لهم في كل حين ، لأنه يعرف أنه إن اقترب منهم فسيفقدونهم بعطايهم ، لكنه استغنى عما في أيديهم و أثر الكفاف و العيش من كسب يده³ ، و صان نفسه عن التزلف لهم حتى يحفظ لإيمانه حرارته ، و لدعوته صداها و تأثيرها ، فيتمكن من الإنكار عليهم كلما اقتضى الأمر ذلك و لم يكن هذا السلوك نتيجة هوى صادفه أو رأيا رآه ، و إنما كان نتيجة لما وقر في قلبه مما علمه ، و عملا بما أوحى إليه تجاربه مع أولئك الذين التفوا حول السلاطين و تفيئوا بضلال عروشهم ، ففقدوا من إيمانهم و دينهم أكثر مما نالوه من الدنيا و عطايا الحكام⁴.

و هكذا كانت نظرة ابن الجوزي للعلاقة مع الحكام تتلخص في ضرورة صيانة النفس و البعد عن الرياء ، و لا يحصل ذلك في نظره إلا بترك مخالطة أصحاب الولايات الظلمة و عمالهم . لذا لم يجد لأحد من الحكام عليه يد تمنعه من نصحه ولو بلغ من قوته و سلطته ما بلغ ، من أجل ذلك راح ينكر على الخليفة الناصر و يعرض بدمه في مجالسه الوعظية مما تسبب في إيذائه و حبسه كما مر بنا ذلك عند تعرضنا للحديث عن محنته⁵.

¹ - مرآة الختان و عبرة اليقظان : للباغمي ، 3 / 490 .

² - ابن الجوزي و مقاماته الأدبية : علي جميل علي مهنا ، ص 431 .

³ - فقد كان ابن الجوزي يشتغل في شراء أدكاكين و بيعها ، و ذلك من خلال تصريفه بما وقع له مع أحد المشتريين ، انظر صيد الخاطر : ص 231 .

⁴ - كتاب أحكام النساء : ابن الجوزي ، تحقيق و دراسة علي بن محمد يوسف الحمادي ، رسالة ماجستير مخطوطة ، بكلية

الشرعة جامعة الأزهر ، ص 117

⁵ - تعرضنا لهذا الموضوع في حديثنا عن موقفه من الحكام و كذلك في فصل حياة ابن الجوزي .

إن لقد كان ابن الجوزي حذرا متحفظا في دعوته للحكام ، متبعا معهم منهج الحيطة و الحذر في وعظه لهم و لم تكن حدة الأسلوب أو سلاطة اللسان من عرفه و طبيعه أو طريقته في التعامل معهم ، لكنه و بالرغم من ذلك لم يكن مهادنا و مسالما أو مداهنا كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين¹ ، حيث اعتبر أن ابن الجوزي لم تكن له الجرأة الكافية التي تمكنه من أن يقف في وجه الحكام و يصحح ما عندهم من أخطاء و يقوم ما هم فيه من اعوجاج .

و حتى نكون منصفين غير متجنين على الرجل نذكر بعض المقاطع مما دونه عن ابن الجوزي في هذا المقام فبعد ان تساءل قائلا: " ما هو الدور الذي اتخذه ابن الجوزي تجاهه حكام و خلفاء و أمراء هذه بعض أعمالهم و سلوكهم ؟ " قال : " الحق أنه اتخذ موقفا سلبيا لا يبعث على الارتياح ، موقفا سلبيا واهي الأثر ، و شاء لنفسه أن يقتصر على النصيحة و التوجيه في رفق و حيطة بالغين .

و راح يطرب العامة و يعجبهم بقصصه مما جعل الناس تحبه و تلتف حوله ، و قد رضوا منه بهذا ، كما رضي الحكام و ذوي النفوذ و السلطان بهذا منه أيضا لأنه كان بعيدا عن الكلام في النواحي السياسية، سلبيا في هذا الموضوع لا ينفّر من حاكم و لا يخرج على سلطان و هذا أقصى ما يبلغه أصحاب السلطة من واعظ مشهور مثله .. إلى أن يقول متهما الشيخ - رحمه الله - بقوله : و لقد استفاد أبو الفرج بهذا كثيرا في دنياه ، و استفاد كثيرا لأهل مذهبه ، وبمخالطته للحكام ولعل ما كان يأخذه منهم جعله يسالمهم ويتغافل في وعظه لهم عن تجلية الحقائق أمام أعينهم ، و إزاحة الغشاوة التي كانت تطمس على أبصارهم كما جعله يتغاضى عن مصارحتهم بما كان يجب أن يصارحوا به ، من مثل غفلتهم عن النهوض بالرعية و النظر في مصالح الناس و قيام حكمهم على الاستبداد ، وعدم الأخذ فيه بالشورى و الغفلة عن العمل للإسلام بوصفهم أئمة المسلمين و خلفائهم ...

إلى أن يقول: كان المفروض - و هو الواعظ ذو الحضوة - أن ينتهز فرصة سماع المسؤولين له ، و حضور الخليفة مجلسه و تلبيتهم لرغباته أن يتعمق معهم في التصحح و أن يترجّ بالكلام معهم ، و يعرض و لو إشارة أو تلويحا للمتابع التي تعاني منها الأمة و النكبات التي لحقت بالإسلام ... كان هذا هو الأليق ، بدل أن يكتفي في وعظه للخليفة

¹ - ابن الجوزي الواعظ و منهجه في الدعوة إلى الله و الموازنة بينه وبين منهج الإمام الغزالي : جمعة علي محمد الخولي ، ص 79 ،

بكلام لا يفهم منه إلا أن يتصدق كثيراً، و إن يطلق سراح بعض المسجونين وأن يقوم بعمل لوحة تذكارية تنصب على قبر الإمام أحمد...! و مع تقديرنا لشخصه لم نرتض موقفه هذا و لا طريقته و لا منهجه في ذلك ، لقد كان يشاهد ثروات الدولة تضيع بين إسراف الخلفاء و تبيير الحكام إلى حد السفه ، فما رأيناه انكر أو ارشد أو قوم¹ .

و الواقع أنني بعد ما تأملت ما ذكره الرجل من تهيم الصق معظمها بالشيخ إصافا بيتنا و جنته بعد ذلك بنفسه يجيب على ما كان يتساءل حوله من دعوى تقصير الشيخ في دعوته للحكام ثم رأيناه يجد للشيخ مخرجا و يلتمس له العذر في المنهج الذي سلكه مع الخلفاء و الحكام فيقول : فالرجل - لعل حرصه - على وعظ الناس و هدي العامة و قيادة الجماهير إلى الله جعله يتغاضى و يتغافل عما يفعله أولى الأمر ،... و لكنه - في نظري - ما يمكن الاعتذار به عن أبي الفرج ، فمن يدري ربما لو ذهب لذهب معه خير كثير ، أو كما يقال جارهم ما دمت في دارهم ، فإن تاريخ الرجل في ميدان الوعظ و الإرشاد و النصيح العام حافل بالخير ملئ بالصالحات² .

و خلاصة القول فإن الذي يمكننا التعقيب به على ما أورده الباحث من كلام حول ابن الجوزي في هذا المجال ، هو أنه و مهما يكن الأمر فإن الباحث الحقيقي لا بد له من تقصي الحقيقة و الثبوت منها قبل أن يكبل التهم للعلماء و الدعاة ، و خاصة لمن نعتبرهم قدوة لنا في ميدان العلم و السلوك كابن الجوزي وغيره من العلماء . إذ كيف يمكن أن نصف من كانت جهوده الدعوية بهذا المستوى من التأثير و بهذا الشكل من حيث البيان و التبليغ .

و الحقيقة التي يمكننا تقريرها في هذا المجال هي : أن ابن الجوزي بحيطته و حنره كان على درجة عالية من الفطنة و الذكاء في وعظه و دعوته للحكام ، حيث كان يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر جاهرا بالحق حتى لانت له القلوب و التفت حوله جموع المدعوين و أثرت كلماته فيهم كما يؤثر الماء البارد في حلق العطشى³ ، و لو أنه اتبع منهجا غير الذي نهجه و استعمل أسلوبا مغايرا للأسلوب الذي سلكه لما وصلت دعوته إلى أسماع الحكام أصلا و لوجدت من العراقل في طريقها ما لا يعد و لا يحصى، و لكان لحقه

¹ - ابن الجوزي الراعظ و منهجه في الدعوة إلى الله و الموازنة بينه و بين منهج الإمام الغزالي : جمعة علي محمد الخولي ، مقتطفات من الصفحات : 79 ، 80 ، 81 ، 82 .

² - المصدر السابق : ص 83 .

³ - كتاب أحكام النساء : ابن الجوزي ، دراسة و تحقيق ، علي بن محمد يوسف الحمادي ، ص 119 .

من الأذى و التضيق و الملاحقة ما لا يستطيع معه أن ينفع المدعويين بشيء من علمه
و مواعظه بل و لن يجد لنفسه متسعاً من الوقت حتى يولف ذلك العدد الهائل من المصنفات
التي انتفع بها طلبة العلم و العلماء و شتى أصناف الخلق على مدى الدهور ، إنما يكون
مصيره الملاحقة و المصادرة و القتل و الإلقاء في غياهب السجون أو يقضى عليه بالتشريد
و النفي على أقل تقدير ، فعند ذلك لا يكون الخاسر هو ابن الجوزي لوحده لأنه إن خسر
دنياه بالموت — في تقدير أهل الدنيا — فقد ربح آخرته بنيله الجنة و الرضوان ، بل يكون
الخاسر الأول هو الإسلام بدعوته التي تكون قد فقدت أحد دعواتها المبرزين و كوارها
المخلصين أما الخاسر الثاني فهم المدعوون الذين افتقدوا من يذكرهم بالله — عز و جل —
و يبين لهم الطريق المستقيم .

الأمير عبد القادر للعظم الإسلامي

المبحث الثالث

ابن الجوزي و دعوة العوام

١ - نظرة ابن الجوزي للعوام :

رغم اهتمام ابن الجوزي بدعوة العوام إلا أنه كانت له نظراته الخاصة لهم ، و كمل سجل على العلماء جملة من الانتقادات في كتابه " تلبس إبليس " ، سجل كذلك انتقادات كثيرة على العوام نجملها فيما يلي :

- فمن حيث أخلاقهم فهي سيئة حيث وجد فيهم من يلبس الحرير ، و منهم من يشرب الخمر و منهم من يعترض على قضاء الله فيشكر عند النعمة و يضجر عند البلاء ، و مع ذلك تجدهم يتعصبون لبعض الصحابة و يناصرون المذاهب العقدية و الفكرية و يشجعونها و هم لا يفقهون منها شيئاً ، و فيهم من يتقاتل و يتلاعن في قضايا علمية و فقهية دون أدنى معرفة لشيء منها ، و منشأ ذلك كله الجهل يقول عنهم : " و تارة يلبس عليهم من جهة العصبية للمذاهب فترى العامي يلاعن و يقاتل في أمر لا يعرف حقيقته ، فمنهم من يخص بعصبيته أبا بكر - رضي الله عنه - ، و منهم من يخص علياً ... و ترى كثيراً ممن يخاصم في هذا يلبس الحرير و يشرب الخمر و يقتل النفس ، و أبو بكر و علي برينان منهم . و قد يحس العامي في نفسه نوع فهم فيسول له إبليس مخاصمة ربه فمنهم من يقول لربه قضي و عاقب . و منهم من يقول لم ضيق رزق المنقي و أوسع على العاصي . و منهم طائفة تشكر على النعم فإذا جاء البلاء اعترض و كفر ، و منهم من يقول أي حكمة في هدم هذه الأجساد يعذبها بالفناء بعد بنائها ، و منهم من يستبعد البعث ، و من هؤلاء من يخل عليه مقصوده أو يبتلى ببلاء فيكفر ويقول أنا ما أريد أصلي " ¹

كما يوجد بين العوام من يخالف العلماء و يقدم الزهاد عليهم ، و يعتلي بالنوافل و يستهين بالفرائض يقول ابن الجوزي مصوراً حالهم : " و من تلبسه عليهم تقديمهم المتزهدين على العلماء .. و قدحهم في العلماء ... و من العوام من يعتمد على نافلة و يضيع فرائض " ² .

و لا شك أن هذه الرذائل و الأمراض الأخلاقية مرجعها في نظر ابن الجوزي إلى

¹ - تلبس إبليس : ص 492 .

² - المصدر السابق : ص 492 ، 493 ، 497 . و قد بسط ابن الجوزي الموضوع في فصل كامل من كتابه تلبس إبليس .

بعد هؤلاء العوام عن العلم و العلماء يقول ابن الجوزي : " و كل هذه الآفات تمكن بها منهم
إليس لبعدهم عن العلم و العلماء " ¹ .

— أما عن أصنافهم فإن العوام ما كانوا بهذه الأخلاق و السلوكيات إلا لكونهم أصناف
و نماذج شتى و قد أعطى ابن الجوزي لكل صنف من هؤلاء نصيبه من النقد و التقريع
و خاصة منهم التجار الذين غلب عليهم حرص فصاروا لا يفكرون إلا في وجوه كسب
المال كيفما كانت ، فأهملوا الزكاة و اشتغلوا بالربا ، و منهم أرباب المعاش ممن فشا بينهم
الغش و التطفيف و لا همة لهم إلا ما هم فيه . أما في الليل فيخادون للنوم فهم كالبهائم
و منهم أرباب الحرف و أصحاب المهن البتلة و هم أرذل القوم على حد تعبير
ابن الجوزي . و منهم فسطاع الطرق و العيارين . و منهم من عمه الجهل من أهل القرى
و الأرياف الذين لا يميزون بين الطهارة و النجاسة فهؤلاء لا فرق بينهم و بين حيواناتهم
من البقر و الغنم فهم في زمرة واحدة في رأي ابن الجوزي .

قال رحمه الله في هذه الأصناف كلها : و منهم تجار فمتهم الاكتساب و جمع
الأموال ، و أكثرهم لا يؤدي الزكاة و لا يتحاشى الربا ، فهؤلاء في صور الناس . و منهم
أرباب معاش يطففون المكبيل . و يخسرون الميزان و يبخسون الناس و يتعاملون بالربا و هم
في الأسواق طول النهار لا همة لهم إلا ما هم فيه ، فإذا جاء الليل وقعوا نياما كالسكارى
فهمة أحدهم ما يأكل و يتلذذ به ، و ليس عندهم من الصلاة خير ، فإن صلى أحدهم نقرها أو
جمع بينهما ، فهؤلاء في عداد البهائم . و من الناس ذو رذالة في جميع أحوالهم فهذا كناس
و هذا زبال و هذا نخال و هذا يكسح الحش فهؤلاء أرذل القوم .

و منهم من يطلب الذات و لا يساعده المعاش فيخرج إلى قطع الطريق ، و هؤلاء
أحمق الجماعة ، إذ لا عيش لهم ، فإن التذوا لحظة بأكل أو شرب فحرت الريح قصبه هربوا
خوفا من السلطان و ما أقل بقاءهم ، ثم القنل و الصلب مع اثم في الآخرة . و منهم أرباب
قرى قد عمهم الجهل ، و أكثرهم لا يتحاشى من نجاسة ، فهم في زمرة البقر " ² .

و الملاحظ من خلال هذا العرض أن ابن الجوزي كان من المهتمين بالواقع
الاجتماعي اهتماما بالغا حيث قام بتسجيل أصناف الناس و وصف أحوالهم ، و قد شغل هذا
الموضوع كثيرا من خواطره ، مما يبين لنا درايته الجيدة بأصناف المدعويين من عوام الناس

¹ - نليس إليس : 492 .

² - صيد الخاطر : ص 341 ، وكذلك ص 35 .

و بمعيشتهم و أخلاقهم و سوكياتهم .

و على هذا الأساس جاءت أفكاره و آراؤه في وصفهم و دعوتهم و تربيتهم ناتجة عن خبرة و فهم و دراية و احتكاك مع اشكالهم المختلفة إذ لا يمكن أن يقدم مثل هذه الأوصاف و النعوت إلا من جرب و خالط ثم سجل ملاحظاته بدقة و عناية و هكذا كان ابن الجوزي يسجل كل ما يراه و ما يسمعه و ما يعانيه من تجارب مع مختلف أصناف العوام .

— و مادام العوام يتشكون من هذه الأصناف و يتصفون بهذه الصفات فإن ابن الجوزي دعا إلى الابتعاد عنهم قدر المستطاع و يخص بالذكر طوائف العلماء و الدعاة و الوعاظ فهو لاء لا بد ان يكونوا ابعد الخلق عن العوام و ليس المقصود بذلك العزلة التامة عنهم و لكن بالقدر الذي تنصلح به أحوالهم ، فعلى الداعية أن يبتعد عن مخالطة تضره و تؤثر سلبا عليه، و قد تحدث عن هذا الموضوع كثيرا مقدما العديد من المبررات من ذلك قوله : " فليبعد العالم عنهم ما استطاع فإن مخالطتهم تشينه و تنقص من مقداره في أعينهم فيهون علمه عندهم ، و لو راه عامي يضحك أو يأكل أو سمع أنه قد تزوج لم يبق له عنده قدر فالحذر الحذر منهم فإنهم قنلة الأنبياء فإذا اضطر إلى مجالستهم فليقل الكلام معهم أو ليتكلم بما لا تسلق لهم به عليه و لا فيه احتمال لما لا يصلح لخطابهم و بعد هذا فالسلامة منهم طريقة " ¹ .

و يقول في موضع آخر محذرا من مخالطتهم معتبرا أنها أشد ضررا على الإنسان : " و في هذا الزمان إن وقعت المخالطة للعوام عكّرت الفؤاد ، فهم ظلمة مستحكمة فإذا ابتلى العالم بمخالطتهم فليشمر ثياب الحذر و لتكن مجالستهم إياه للتذكرة و التلذيب فحسب " ² .

إن فالعالم أو الداعية مأمور عند ابن الجوزي بأن لا ينبسط أمام العوام مطلقا و إذا اضطر إلى مخالطتهم فلا يكون ذلك منه إلا بقدر معين و ليتلطف بهم و يتأدب معهم بأحسن الآداب كالحلم و الإيثار و الكرم و العفو فيها يملك الداعية رقاب الناس .
و الملاحظ أن ما ذكره ابن الجوزي من الأسباب لاتخاذ هذا الموقف من العوام له ما يبرره بالنسبة للداعية أو الواعظ ، و ذلك لكونه يرى أن للداعية منزلة لا يجب أن تسقط عند العوام بمخالطتهم ، لأنه لو خالطهم لتجرأوا عليه ، و قد ضرب لذلك مثلا بتجرتهم على الأنبياء

¹ - الطب الرحان : ص 59 .

² - مبد الخاطر : ص 337 .

بالقتل .

و لما كانت هذه هي حال العوام من القلب و عند الاستقرار فان ابن الجوزي ينكر عدد الحضور منهم في مجالسه الدعوية و الذي يقدر بالآلاف إلا أنه لا يعول عليهم و قد لا ينكرهم بخير ، لأن هذه الجموع لم تغن عنه شيئا و لم تستطع التخفيف عنه أثناء محنته و على هذا الأساس فابن الجوزي لم تكن تغريه كثرة حضور العوام لمجالسه الدعوية لأنه يدرك جيدا أن الجماهير التي لم تأخذ حظها من الفقه و التربية سرعان ما تنقص و تتراجع إذا واجهتها الشدائد و المحن¹ . و إذا كان هذا التراجع و التقهقر قد يصيب الدعاة أنفسهم فيتساقطون على طريق الدعوة ، فلا ضير أن العوام سيصيبهم ذلك دون ريب زد على ذلك ما كان يلاحظه على العوام من أحوال و مواقف منقلبة عند سماعهم للتذكير و الموعظة من الداعية . فغالبيتهم يقبلون على المعصية و يرجون أن تشملهم رحمة الله و عنايته .

2 - منهج ابن الجوزي في دعوة العوام :

يعتبر العوام من أسرع المدعوين استجابة للحق و دعوة الرسل و ذلك لسلامة فطرتهم و استعدادهم للبدل فيما يروونه حقا ، لذلك فأتباع الرسل كانوا في الغالب من عامة الناس و من الضعفاء و الفقراء² و هم بمثابة القواعد الخلفية لنشر الدعوة . و رغم ما كان من موقف لابن الجوزي تجاه العوام فإننا وجدناه اهتم بوعظهم اهتماما بالغا و عقد لهم الكثير من المجالس الدعوية في العديد من النواحي و المساجد و لكونه رجل الدعوة و الوعظ فقد كان يدرك ما يحيط بالعوام من شهوات و معاصي انهمكوا فيها عن عمد و عن سهو و غفلة و جهل و قد تحدث ابن الجوزي عن الطريقة و المنهج الذي كان يسلكه في دعوة العوام فقال شارحا المنهج شرحا وافيا : " و أنا أتخير للوعظ طريقا لا بأس بها فأقول : أما المنبر فلا بأس بارتقائه فقد ارتقاه رسول الله - صلى الله عليه و سلم - و أما الفرش عليه فلا بأس به . فإنه يوجب نوع احترام في النفوس ، ألا ترى إلى أهبة الخطيب و دقه المنبر بالسيف فإنه يزجج النفوس فتتأهب لتلقف الإنذار ، فأما لباس المنبر الخرق الملونة فإني أكرهها ... إلى أن قال : فإذا ارتقى المنبر سلم عليهم و لا بأس أن يقرأ آيات على وجه الترتيل و التحزين ، لا على طريق الألحان ، فإذا فوغ

¹ - نصوص دعوية من أحاديث خير البرية : حبار بن أحمد الصافح ، ص 168 .

² - أصناف المدعوين و كيفية دعوتهم : محمود بن أحمد الرحيلي ، ص 112 .

القراء حمد الواعظ الله - عز و جل - و أتى عليه و على رسوله و أصحابه و دعا للإمام و الرعية ، فإن كانت له صناعة في انشاء الخطبة ، أو كان يحفظ خطبة فيذكرها ، و لا بأس فإن الكلام المستحسن له وقع في النفوس ... و ليجتنب السجع في الدعاء ... فإذا أنهى الخطبة و الدعاء ذكر تفسير الآيات التي قرنت و درج في تفسيرها ما يليق به من ذكر الوجوه و النظائر و الأخبار المستندة و الحكايات اللاتقة بذلك . و لا بأس أن يرفع صوته و يظهر الجد في تحذيره و وعظه ..

ثم قال : فإذا أنهى الكلام في التفسير أجاب عن مسائل إن سئل ثم أمر القارئ فقرأ و تكلم على الآيات بما يليق بها و يصلح من المواعظ المرققة و الزواجر المخوفة ... و إذا حضر مجلسه نسوة ضرب بينهن و بين الرجال حجاباً¹ .

و يزيد هذه الطريقة توضيحاً بقوله : " أما كيفية وعظه فليعلم أن أصحاب النبي - صلى الله عليه و سلم - كانوا إذا أرادوا الموعدة أمرؤا رجلاً أن يقرأ عليهم سورة"²

أما عن مضمون المجالس الدعوية التي تطرق لها في وعظه للعوام فقد قال مخبراً الدعاء عنها حتى يتخذوها كمنهج لهم : " و ليدرّج في كلامه أخبار الوعد و الوعيد و التشويق إلى الجنة و التحذير من النار ، و ليأسر بالمحافظة على الصلاة و ينهى عن التواني عنها و ليحثّ على الزكاة و يذكر الوعيد لمن فرط فيها ، و كذلك الحج و الصوم . و ليبالغ في ذكر بر الوالدين و صلة الرحم ، و فعل المعروف و ينهى عن المنكر و أكل الربا و يعلمهم عقود المعاملات . و ليأمر بامساك اللسان عن فضول الكلام و غض البصر عن الحرام ، و ليخوف من الزنا"³ .

و في منهج ابن الجوزي فإن عمل الداعية و الواعظ له أهمية قصوى و ذلك لما له من دور خطير في توجيه المجتمع و تربية أفراده على الخير و الصلاح يقول عن هذه الرسالة المهمة : " و لا ينبغي أن يحتقر أمر الواعظ فإنه إذا كان كامل العلم ، صادق القصد عمّ نفعه ، و اجتلب إلى باب الله - سبحانه - عدا زائداً على الحد ما لا يقدر على اجتلاب عشر عشيرة فقيه، و لا محدث و لا قارئ، لأن خطابه بالسوعظ للعام و الخاص و خصوصاً العوام الذين لا يلقون فقيهاً ، إلا في كل مدة ، فيسألونه عن كلمة و هذا الواعظ كالراني لهم

¹ - الفصاح و المذكورين : ص 361 و ما بعدها .

² - المصدر السابق : ص 360 .

³ - الفصاح و المذكورين : ص 13 . تحقيق سيون زغلول .

يتفهم و يقومهم و يودبهم .¹

و لكن في منهج ابن الجوزي ليس كل الدعاة يصلحون للقيام بمهمة دعوة العوام حيث اشترط على من يتصدى لدعوتهم من الدعاة أن يتبع منهاجا معيناً كان يراه ضرورياً لدعوتهم و ذلك حتى تأتي الدعوة بثمرتها المرجوة ، فلو خرج الدعاة و الوعاظ عليه لما انتفع العوام بل تضرروا أكثر مما ينتفعون .

١ - التوازن في الصوت لدى الداعية عند إلقائه المواعظ على العوام حتى لا يغفلون أو يشردون وذلك تأسياً برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيخفض الداعية صوته و يرفعه حسب الحاجة إليه قال ابن الجوزي : " و لا بأس أن يرفع صوته و يظهر الجدة في تحذيره و وعظه " ² ، و قد استنبط ابن الجوزي هذا الكلام من خطب الرسول - صلى الله عليه وسلم - و ما كان ينتابه من رفع صوته و احمرار عينيه و اشتداد غضبه عند الموعظة فقد كان عليه الصلاة و السلام إذا خطب الناس احمرت عيناه و علا صوته و اشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول : صبّحكم و مستاكم ³ .

٢ - التخول بالموعظة و هو شرط مهم لمن يشتغل بدعوة العوام و تذكيرهم ، بل و هو من الأساليب الحكيمة في تبليغها لهم ، فلا بد أن تكون المواعظ في أيام محددة معلومة لدى العوام لأن النفس البشرية تمل ، فإذا ما تعودوا على المواعظ هانت عليهم و فقدت قيمتها في نفوسهم أما لو تباعد زمن الموعظة فستزيد الرغبة فيها و سيتعلق القلب بها ، و خاصة إذا ترك الداعية القصة غير مكتملة أو ترك الحديث مفتوحاً لم ينته بعد ، فهنا يبقى حرص النفس قائم على مواصلة سماع الموعظة كحرصها على ما منعت منه ، و لم يزل عنصر التشويق حاضراً إلى الموعظة القادمة و هذا من عادة النفس كما يقول ابن الجوزي ، فهي تحرص لتحصل على ما منع منها من قبل و هذا الحرص يزداد فيها كلما قوي المنع " و في الأمثال : المرء حريص على ما منع ، و تواق إلى ما لم ينل ، و يقال : لو أمر الناس بالجوع لصبروا ، و لو نهوا عن تقنين البعر لرغبوا فيه ، و قالوا : ما نهينا عنه إلا لشيء " ⁴ . و من هذا المعنى اشتق ابن الجوزي قوله ، فقال موصياً الداعية : " و ليقصر على مجلس

¹ - الفصاح و المذكرين : ص 362 .

² - المصدر السابق : ص 363 .

³ - صحيح مسلم : 2 / 592 ، كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة و الخطبة ، حديث رقم : 43 ، 867 .

⁴ - ميد الخاطر : ص 40 .

واحد في الأسبوع ، فإن رأى الهمم متشوقة إلى الزيادة جعلها مجلسين و لا يزيد على هذا ¹ لأن النفس تصبح غير قادرة على التحمل ، فلا تلبث أن تملّ فتتصرف عن سماع الوعظ و الوعاظ و عن سماع كلام الله و حديث رسوله مطلقا و خاصة إذا كان الداعية يخاطب متعوين من العوام بتلك الأوصاف التي ذكرها ابن الجوزي .

د- و أول هذه الشروط أن يخاطب الداعية و الواعظ العوام بما يفهمون و ما يطيقون و يبدأ بأهم الأمور ثم الأقل أهمية سواء من حيث السلوك و العمل أو من حيث الاعتقاد و الفكر، فمن حيث العمل و التطبيق يعطون بقدر ما تطيقه الإرادة و العزيمة فمن العوام من لا تكفيه مواعظ أشهر الوعاظ و منهم من تكفيه الإشارة أو بيت من الشعر ² ، يقول ابن الجوزي : " إلا أن الواعظ مأمور بأن لا يتعدى الصواب ، و لا يتعرض لما يفسد بل يجذبهم إلى ما يصلح بالطف ووجه ... ينبغي أن ينظر في اللازم الواجب ، و أن يعطيهم المباح في اللفظ قدر الملح في الطعام ، ثم يجذبهم إلى العزائم ، و يعرفهم طريق الحق " ³ . أما من حيث الاعتقاد و الفكر فيعطيه الداعية قدر الملح في الطعام لأن من أضر الأشياء على العوام علم الكلام ، إذ لا قدرة لهم على فهم مباحثه و مسائله المعقدة حتى و لو فهموها و علقت بأذهانهم فلا فائدة مرجوة من ذلك و قد أكد ابن الجوزي على هذه المسألة كثير و ذلك نظرا لخطورتها و انتشارها في تلك الفترة و ولوع بعض الوعاظ بهذه المسائل و قد رد ابن الجوزي عليهم ردا عنيفا فقال : " من المخاطرات العظيمة تحديث العوام بما لا تحتمله قلوبهم ، أو بما قد رسخ في نفوسهم ضده " ⁴ ، و أكد على خطورة هذه المسألة و عظيم ضررها مرة ثانية فقال : " من أضر الأشياء على العوام كلام المتأولين فإن الأنبياء - عليهم الصلاة و السلام - بالغوا في الإثبات لينتقروا في أنفس العوام وجود الخالق " ⁵ ، فالعامي الفارغ من هذه الأشياء كما يقول ابن الجوزي ليست له القدرة على استيعاب هذه الموضوعات فيفهمها على غير مراد الله منها " و هذه جناية عظيمة على الأنبياء ... و لا يجوز لعالم أن يأتي إلى عقيدة عامي قد أنس بالإثبات في هوشها ، فإنه يفسده

1 - القصاص و المذكرين : ص 369 .
2 - صيد الخاطر : ص 100 .
3 - المصدر السابق : ص 100 .
4 - نفس المصدر : ص 419 .
5 - المصدر نفسه : ص 101 .

و يعود ليزيد الأمر توضيحا ليؤكد مرة أخرى على المخاطر الموجودة في تحديث العوام بما لا يطبقون دون إعطائهم ما يحتاجونه من مواعظ و مسائل فقهية هم في أمس الحاجة إليها قبل غيرها من أي علم حتى و لو كان علم أصول الدين، لأن لكل علم رجاله و العوام ليسوا رجال هذا العلم مهما كان لديهم من المواصفات ، فيقول : " أضر ما على العوام المتكلمون فإنهم يخلطون عقائدهم بما يسمعونهم ، من أقبح الأشياء أن يحضر العامي الذي لا يعرف أركان الصلاة و لا الربا في البيع مجلس الوعظ فلا ينهأ المتكلم عن التواني في الصلاة ، و لا يعلمه الخلاص من الربا " ² ، و لنستمع إليه في تحذير بالغ الأهمية يبين فيه أن الأمر قد يستهوي بعض العوام فيتساهلون في سماعه ظنا منهم أنه بإمكانهم استيعاب مسائله و فهمها و لكن الحقيقة غير ذلك تماما .

وابن الجوزي في هذا المقام لا يلقي باللوم على العوام لوحدهم لأنهم في أغلب الأحيان يتبعون و لا يناقشون لأنهم لا يملكون وسائل النقاش و اليات و بالتالي فهم يسمعون لكل ناعق سواء أخطأ أو أصاب ، لذلك راح ابن الجوزي يلقي باللائمة على جمهور القصاص و المذكرين في عصره و يصفهم بالحمق لأنهم تركوا ما ينفع العوام و حدثوهم بمباحث كلامية لا يعرف حل رموزها إلا الراسخون في هذا العلم فقال : " ليس على العوام أضر من سماعهم علم الكلام ، و إنما ينبغي أن يحذر العوام من سماعه و الخوض فيه كما يحذر الصبي من شاطئ النهر خوف الغرق . و ربما ظن العامي أن له قوة يدرك بها هذا و هو فاسد ، فإنه قد زل في هذا خلق من العلماء فكيف العوام . و ما رأيت أحقق من جمهور قصاص زماننا ، فإنه يحضر عندهم العوام الغشم فلا ينهاهم عن خمر و زنا و غيبة و لا يعلمونهم أركان الصلاة و وظائف التعمير " ³ .

4 - عدم إغراق الداعية و الواعظ للعوام في الحديث عن الرقائق و الزهديات عند وعظهم لأن علم الرقائق علم صعب المنال و لا يحسن حتى العلماء التوغل فيه ، فما بالك بالعوام الذين لم يحسنوا فقه الصلاة و الوضوء و هو من علم الظاهر فكيف يطبقون علم الزهد و الرقائق و هو من علم الباطن ، وعلى هذا الأساس فابن الجوزي لا يرى فرقا بينه و بين علم الكلام في مدى خطورته و ضرره عليهم .

¹ - صيد الخاطر : ص 102 .

² - المصدر السابق : ص 271 .

³ - نفس المصدر : ص 349 .

لا يرى رحمه الله أنه لا مناص للوعاظ والدعاة من الأخذ بهذا الشرط إذا أرادوا أن ينجحوا في دعوتهم مع العوام بقول في ذلك : " وفي الوعاظ من يتكلم على طريق المعرفة والمحبة فترى الحانك والسوقي الذي لا يعرف فرائض تلك الصلاة يمزق أثوابه دعوى لمحبة الله - تعالى - و الصافي حالا منهم - وهو أصلحهم - يتخايل بوهمه شخصا هو الخلق فيبكيه شوقه إليه لما يسمع من عظمته و رحمته و جماله ، و ليس ما يتخايلونه المعبود لأن المعبود لا يقع في خيال ، و بعد هذا فالتحقيق مع العوام صعب ، و لا يكادون ينتفعون بهم الحق " ¹ .

و لما كانت مجالس العوام تتكوّن من الحانك و السوقي و أرباب المعاش و الذين لا تتعدى منزلتهم منزلة البهائم و البقر في تعبير ابن الجوزي ² فإنهم يتضررون كثيرا مما يقمه لهم الدعاة و الوعاظ من هذه الرقائق و الزهديات فتنتطق أذهانهم في تصور أشياء من صميم الخيال يظنون أنها تنطبق على ما يقوله الوعاظ ، فينزوي العامي منهم عن الخلق قصد التعبد و الزهد " فلا يستفيد من خلوته إلا كما يستفيد الحمار من الإسطبل " ³ ، و كان الأجر بالدعاة أن يعلموه العبادة و الأخلاق قبل أن يلقنوه الزهد و التصوّف .

د - أثر المواعظ على العوام :

كما تحدّث ابن الجوزي عن قواعد منهجه في دعوة العوام و ما اشترطه على الدعاة من شروط لتبلغ دعوتهم هدفها المنشود مع هذا الصنف من المدعويين ، لم يفته الحديث عن أثر تلك المجالس الدعوية و المواعظ التي كرّس حياته من أجل تبليغها، و موقف المدعويين من العوام منها ، و الذين كانت لهم أحوال متعددة تجاه ما يسمعون من وعظ و تذكير . و بعد استقراءنا لجملة من أقوال ابن الجوزي في هذا الصنف من المستمعين وجدناهم ينحصرون في ثلاثة أنواع :

- النوع الأول : و هو المذنبون المصرون على المعصية الذين لا يتأثرون بالموعظة رغم تصديقهم بالوعاظ و بما يقول ، حيث أنهم يعزمون على التوبة ثم يعودون للمعصية ، يعتبر ابن الجوزي هذه الحال من علامات فساد العقل عند المدعويين من العوام و هي من أعجب الأحوال عندهم فيقول متأملا : " تأملت في الخلق و إذا هم في حالة عجيبة ، يكاد يقطع معها بفساد العقل ، و ذلك أن الإنسان يسمع المواعظ و تذكر له الآخرة فيعلم صدق القائل ، فيبكي

¹ - صيد الخاطر : ص 100 .

² - المصدر السابق : ص 55 ، 341 ، 458 و غيرها من الصفحات ، و انظر القصاص و المذكرين : ص 318 .

³ - نفس المصدر : ص 119 .

و يزرع على تفريطه ، و يعزم على الاستدراك ، ثم يتراخى عمله بمقتضى ما عزم عليه .
فإذا قيل له : أتشك فيما وعدت به ، قال لا والله ، فيقال له : فاعمل ، فبنوي ذلك ثم
يتوقف عن العمل ، و ربما مال إلى لذّة محرمة ، و هو يعلم النهي عنها ... إلى أن يقول :
فتأملت السبب ، فإذا له ثلاثة أسباب : أحدها رؤية الهوى العاجل ، فإن رؤيته تشغل عن
الفكر فيما تجنيه ، والثاني التسويف بالتوبة ، فلو حضر العقل لحدّر من آفات التأخير ، فربما
هجم الموت و لم تحصل التوبة ، و العجب ممن يجوّز سلب روحه قبل مضي ساعة و لا
يعمل على الحزم ، غير أن الهوى يطيل الأمد ، و قد قال صاحب الشرع - صلى الله عليه
وسلم - : " صل صلاة مودّع " ¹ ، و هذا نهاية الدواء لهذا الداء ، فإنه من ظن أنه لا يبقى
إلى صلاة أخرى جدّ و اجتهد .

و الثالث رجاء الرحمة فيرى العاصي يقول : ربي رحيم ، و ينسى أنه شديد العقاب .
و نوعلم أن رحمته ليست رقة إذ لو كانت كذلك لما ذبح عصفورا و لا ألم طفلا و عقابه
غير مأمون ، فإنه شرع قطع اليد الشريفة بسرقة خمسة دراهم لجد و أناب " ² .
و هكذا العوام و الغوغاء من الناس صنّف منهم يصل الأمر بهم إلى حد البكلاء
و الندم فيعقدون العزم على التوبة ثم سرعان ما يرجعون إلى ما كانوا عليه من الفبي
و العصيان و قد يدركهم الموت و هم لا يزالون مصرين على معصيتهم فلا نرى أثرا
للمواعظ عليهم .

و نجد ابن الجوزي يؤكد هذا الكلام مرة أخرى و كيف أن جمهور العوام يبارزون
الله بالمعصية و ينتظرون الرحمة الواسعة لأنهم من أهل السنة و لا يقدّمون عملا صالحا
و هذا ضرب من الجنون بسبب قوة الجهل و استحكامه يقول عنهم : " و عموم العوام
يبارزون بالذنوب اعتمادا على العفو و ينسون العقاب ، و منهم من يعتمد أني من أهل
السنة ، أو أن لي حسنات قد تنفع ، و كل هذا لقوة الجهل " ³ ، و يذكر ابن الجوزي
مواقف أخرى عجيبة للعوام الذين حكّموا العادات و نسوا الشرع و ذلك موافقة لهواهم
فضربوا بالمواعظ و بأقوال العلماء عرض الحائط يقول عنهم : " فرأيت من العوام من قد

¹ - جمع الزوائد و منبع الموائد : لأبي بكر الهيثمي ، 10 / 229 و قال: رواه الطبراني في الأوسط انظر المعجم الأوسط : للحافظ

الطبراني ، تحقيق محمود الطحان: مكتبة المعارف الرياض ط 1 ، 1-115 ، 1995 م ، 5 / 215 ، رقم 4424 .

² - صيد الخاطر : ص 351 .

³ - المصدر السابق : ص 458 .

غلبت عليه العادات فلا يلتفت معها إلى قول فقيهه¹.

وقد كان ابن الجوزي حائقا أشد الحنق على هذا الصنف من العوام حتى اعتبر أن وجودهم كالعدم إذ لا تؤثر فيهم موعظة و لا تحفزهم طاعة و لا تترجمهم معصية ، و قد تحدث ابن الجوزي عنهم و وصف أفعالهم أحسن وصف في هذا التصوير الذي بسطه بسطا وافيا بقوله : " فتفكرت ، فرأيت كثيرا من الناس وجودهم كالعدم ، لا يتصفحون أدلة للوحدانية ، و لا ينظرون في أوامر الله - تعالى - و نواهيه ، بل يجرون - على عاداتهم - كالبهائم . فإن وافق الشرع مرادهم ، و إلا فمعتولهم على أغراضهم . و بعد حصول الدينار ، لا يباليون ، أمن حلال كان أم حرام ، و إن سهلت عليهم الصلاة فعلوها و إن لم تسهل تركوها . و فيهم من يبارز بالذنوب العظيمة ، مع معرفة المناهي . و ربما قويت معرفة عالم منهم ، و تفاقمت ذنوبه ، فعلمت أن العقوبات و إن عظمت دون إجرامهم . فإذا وقعت عقوبة لتمحص ذنبا ، صاح مستغيثهم : ترى هذا بأي ذنب ؟ و ينسى ما قد كان مما تنزلزل الأرض لبعضه " ² . و هذا الصنف من العوام تكاد تكون المواعظ معه لا نفع لها و لا تؤثر عليه إلا كما يؤثر الماء عند صبّه على حجر أملس كما وصفهم ابن الجوزي بقوله : " و أقوام لا يُؤثر فيهم إلا بمقدار سماعه ، كمااء دحرجته على صفوان " ³ .

ورغم تفنّن ابن الجوزي و خبرته في فن الوعظ و حسن أسلوبه و روعة أدائه إلا أن هذا النوع لم تحركه مواعظ ابن الجوزي و لم تؤثر فيه ، يحدثنا عن ذلك قائلا : " يا لها مواعظ لو وجدت سامعا ، و جواهر لو رأيت جامعا ، و سلع نصائح لا ترى لها مشتريا و لا بائعا " ⁴ .

- النوع الثاني : و هم المترددون بين المعصية و بين التوبة فهم يتأثرون بالمواعظ فترة معينة فيستوبون ثم يعودون للمعصية ثم يندمون و يتوبون و هكذا ففيهم من يتوب توبة نصوحا و فيهم من يبقى مترددا متذبذبا تائبا حيناً و عاصيا حيناً آخر ، و مرد ذلك كما يقول ابن الجوزي يعود لأثر المواعظ على هؤلاء العوام و بصور هذا الأمر في هذا المشهد فيقول : " الماء يدخل في أصول الشجر فتخرج من ثمرها على قدر طبيعتها فيظهر لك الماء من الرمان الحلو حلوا ، و من الحنظل مرا ، و هكذا المواعظ تدخل إلى القلوب فلا يظهر

¹ - سيد الخاطر : ص 231 .

² - المصدر السابق : ص 16 .

³ - نفس المصدر : ص 12 .

⁴ - صبا نجد : ص 98 .

منها إلا ما جلبت عليه و كل إلى طبعه عائد . يا مترندا إلى المجلس عشرين سنة ، و ما أرى للنجاح علامة " ¹ .

و هكذا فأثر المواعظ على العوام عند ابن الجوزي كأثر الماء عند سقي الأرض و كما يخرج بعد السقي من الفاكهة الحلو و الحامض و من النبات المر كالحنظل ، فكذاك المدعويين منهم من يتقبل الموعظة و منهم من يقف أمامها مترندا و منهم من يرفضها أصلا و قد استنبط ابن الجوزي هذا من هدي النبي - صلى الله عليه و سلم - في دعوته عندما قال : " مثل ما بعثني الله به من الهدى و العلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكان منها نقيّة قبلت الماء فأنبتت الكلاً و العشب الكثير ، و كانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ؛ فشربوا و سقوا و زرعوا ، و أصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء و لا تنبت كلاً ؛ فذلك مثل من فقه في دين الله و نفعه ما بعثني الله به فعلم و علم " ² . فأحوال هذا النوع من عوام المدعويين متقلّبة يتأثرون حيناً ثم يعودون لما كانوا عليه في سابق عهدهم يقول ابن الجوزي عنهم : " المبتدئ إذا سمع المواعظ يستغيث لأنه قد نزل بقلبه ما لم ينزل به ، و المنتهى عود ، الثوب الجديد إذا خرق صوت ، و الرث عند التمزيق ساكن قد تمرّن على البلاء " ³ .

و على الرغم من ذلك فابن الجوزي لا يبأس من دعوة هذا النوع من المدعويين فنراه يكرر المواعظ على مسامعهم كل مرة بشكل يختلف عن سابقه لعلّه ينقذ ما يمكن إنقاذه و لكن الغفلة لا تترك قلوب المدعويين تنفتح حتى تلج المواعظ إلى أعماقها يقول متعجبا : " واعجبا ! كم أكرر ذكر الموعظة على قلبك و سبيل الغفلة غالب " ⁴ ، و هكذا دائما تكون الغفلة و عدم حضور القلب حاجزا قويا و سدا منيعا أمام تأثير المواعظ في هؤلاء المدعويين ، لأجل ذلك وجدنا ابن الجوزي يطالبهم بإحضار الذهن قبل إحضار الجسم و التدبر في الموعظة لا الإعجاب بصاحبها يقول : " إذا حضرنا مجالس الذكر فالقلب غائب و الجسم شاهد ، فأحضروا الأفهام قبل الأجسام ، و استعدوا لتدبر المعنى قبل سماع الكلام و لا ترضوا أن يكون حظكم من المعرفة بالله تلبسكم بظاهر الإسلام " ⁵ .

¹ - صبا مجد : ص 71 .

² - فتح الباري : 1 / 175 ، كتاب العلم ، باب فضل من علم و علم ، رقم 79 .

³ - صبا مجد : ص 106 .

⁴ - روح الأرواح : ص 77 .

⁵ - التذكرة في الموعظ : ص 222 .

و خلاصة القول نجد ابن الجوزي يصف هذا النوع وصفا صائبا و صادقا فيقول :
" و منهم أقوام يميل بهم الطبع إلى الغفلة أحيانا ، و يدعوهم ما تقدم من المواعظ إلى العمل
أحيانا فهم كالسنبله تميلها الرياح " ¹ .

- النوع الثالث : و هم المستجيبون للمواعظ و المتأثرون بها و قد نالوا القسط الوافر من
دعوة ابن الجوزي و مواعظه فمما قاله يصف حالة أهل الاستجابة : " إن حالة سماع
المواعظ يكون الإنسان فيها مزاج العلة ، قد تخلى بجسمه و فكره عن أسباب الدنيا
و أنصت بحضور قلبه ، فإذا عاد إلى الشواغل اجتذبتة بأفاتها ، و كيف يصح مع تلك
الجواذب أن يبقى كما كان ؟ ! و هذه حالة تعم الخلق ، إلا أن أرباب اليقظة يتفاوتون في
بقاء الأكثر ، فمنهم من يعزم بلا تردد ، و يمضي من غير التفات ، فلو توقف بهم ركب
الطبع لضجوا كما قال حنظلة ² عن نفسه : نافق حنظلة ! " ³ .

و المستجيبون للمواعظ و التذكير غالبا ما يتوبون على الفور في مجالس ابن الجوزي
الدعوية أو عند انتهائه من الوعظ مباشرة ، و قد ذكر مشاهد التوبة هذه و التي كانت كثيرة
الحدوث في كتبه كما ذكرها غيره من العلماء و الرحالين كابن جبير و مما قاله عن هذا
النوع من المدعوين : " و تكلمت يوم السبت مفتتح رمضان في مدرستي بدر بدينار فكان
الزحام خارجا عن الحد حتى غلق الأبواب و قصت ثلاثون طائفة و تاب خلق من
المفسدين " ⁴ .

و قال عن مجلس آخر : " تكلمت في مجلسي بالحلبة فتاب على يدي نحو من مائتي رجل " ⁵
و ذكر ما جرى في مجلس آخر فقال : " فبات في الجامع خلق كثير و ختمت ختمات
و اجتمع للمجلس بكرة ما حرز بمائة ألف و تاب خلق كثير " ⁶ .

و لما كان حسن الاستماع أهم شرط لتفاعل المدعوين مع المواعظ اعتبره
ابن الجوزي شرطا لازما لمعرفة أصناف المستمعين فقد كان رحمه الله يطالبهم على الدوام
بذلك فقال : " ينبغي للحاضر أن يكون سامعا ، و للسامع أن يكون واعيا ، و للداعي أن

¹ - صيد الخاطر : ص 12 .

² - حنظلة : هو حنظلة بن الربيع النسيبي ، صحابي شهيد القادسية و نزل الكوفة ، من كتاب الوحي تخلف عن الإمام على يوم
الحمل ، يقال له " حنظلة الكاتب " مات في خلافة معاوية انظر الإصابة : لابن حجر دار الجيل بيروت ط 1992 ، 2 / 134 .

³ - صيد الخاطر : ص 11 ، 12 .

⁴ - المنتظم : 18 / 250 .

⁵ - المصدر السابق : 18 / 197 .

⁶ - نفس المصدر : 18 / 249 .

يكون بمادعا عاملا و للعامل في عمله أن يكون مخلصا " ¹ ، و هذه شروط واقعية وجامعة في فقه الدعوة لو توفرت في الدعاة و المدعوين في ذلك العصر لكانت الدعوة على أحسن حال و لكانت بالتأكيد أحسن مما هي عليه اليوم بكثير .

١ - مجالسه الدعوية مع العوام :

و حتى نعرف مقدار تأثير دعوة ابن الجوزي على العوام نتعرض لذكر بعض مجالسه الدعوية و التي كان جل الحضور فيها من العوام و كان عددهم يقدر بالآلاف و كانوا يشدون الرحال إليها ، لأن ابن الجوزي لم يكن يعظ في مكان واحد بل كان يعقد مجالسه حيثما حل ² ، و من هذه المجالس نذكر ما يلي :

١ - في جامع المنصور :

و كان ابن الجوزي يجلس فيه للوعظ أياما في السنة قال يصف أحد مجالسه في هذا الجامع و ذلك في حوادث 560 سنة ه : " و في يوم الجمعة : جلست في جامع المنصور فحرز الجمع بمائة ألف " ³ .

و قال في حوادث سنة 568 ه : " وفي هذه السنة عقدت المجلس بجامع المنصور يوم عاشوراء و حضر من الجمع ما حرز بمائة ألف و جرى في سنة تسع مثل ذلك أيضا " ⁴ . و قال في حوادث سنة 571 ه : " و في يوم الإثنين النصف من ربيع الآخر : تكلمت في جامع المنصور و حضر الخلق فحرزوا بمائة ألف و تاب ثلاثة و خمسون نفسا " ⁵ ، و في حوادث سنة 572 ه قال : " و في يوم السبت غرة جمادى الآخرة : عبرت إلى جامع المنصور فوعظت فيه بعد العصر و عبر الناس من نهر معلى و اجتمع أهل المحال فحرز الجمع مائة ألف و رجعنا إلى نهر معلى و الناس ممتدون من باب البصرة كالشراك إلى الجسر و كان يوما مشهودا " ⁶ .

٢ - في باب بدر :

و أذن له في سنة 568 ه أن يجلس في هذا المكان قال الشيخ : " فأخذ الناس أماكن

¹ - التذكرة في الوعظ : ص 70 .

² - فكان يعظ في جامع المنصور ، و انفصر و تاب بدر و الحلبة و الرصافة و درب دينار و تربة أم الخليفة و غيرها من الأماكن .

³ - المنتظم : 18 / 202 .

⁴ - المنتظم : 18 / 199 ، 202 .

⁵ - المصدر السابق : 18 / 236 .

⁶ - نفس المصدر : 18 / 228 .

من وقت الضحى للمجلس بعد العصر و كانت ثم دكاك فاكثریت ، حتى إن الرجل كان يكثرى موضع نفسه بقراطين و ثلاثة¹ .

و من جملة مجالسه فى باب بدر ما ذكره فى حوادث سنة ٦٥٩ هـ واصفا المجلس وصفا دقيقا بكل ما فيه من تفاصيل قائلا : " و فى شعبان تقدم إلى بالجلوس بباب بدر يوم عرفة فحضر الناس من وقت الضحى و كان الحر شديدا و الناس صيام ، و كان من أعجب ما جرى أن حمالا حمل على رأسه دارنوية² من قبل الظهر إلى وقت العصر ظلل بها من الشمس عشرة أنفس فأعطوه خمسة قراريط و اشتریت مراوح كثيرة بضعفى ثمنها و صاح رجل يومئذ قد سرق الآن منى مائة دينار فى هذه الزحمة فوقع له أمير المؤمنين بمائة دينار³ .

و فى حوادث سنة ٦٦٠ هـ ، قال : " و تقدم إلى بالجلوس تحت المنطرة بباب بدر فتكلمت يوم الخميس بعد العصر خامس رجب و حضر أمير المؤمنين و أخذ الناس أماكنهم من بعد صلاة الفجر و اكثریت دكاكين ، فكان مكان كل رجل بقيراط حتى أنه اكثرى دكان لثمانية عشر بثمانية عشر قيراطا ثم جاء رجل فأعطاهم ست قراريط حتى جلس معهم و كان الناس يقفون يوم مجلسى من باب بدر إلى باب العيد كأنه العيد ينظر بعضهم إلى بعض و ينتظرون قطع المجلس⁴ .

و مما سجله فى حوادث سنة ٥٧١ هـ قوله : " أنه تقدم إلى بالجلوس بباب بدر فتكلمت بكرة الخميس ثالث محرم و الخليفة حاضر و كان يوما مشهودا ثم تقدم إلى بالجلوس هناك يوم عاشوراء فأقبل الناس إلى المجلس من نصف الليل و كان الزحام شديدا زائدا على الحد و وقف من الناس على الطرقات ما لا يحصى و حضر أمير المؤمنين⁵ .

و يقول فى حوادث سنة ٥٧٢ هـ : " و تقدم إلى بالكلام تحت منطرة الخليفة بباب بدر فتكلمت يوم الأحد ثانى محرم و حضر أمير المؤمنين ، ثم تكلمت هناك يوم عاشوراء فامتلا المكان من وقت السحر فطلع الفجر و ليس لأحد طريق فرجع الناس و امتلأت الطرق بالناس قياما يتأسفون على فوت الحضور ، و قام من يتظلم فى المجلس فبعث أمير المؤمنين

¹ - المنتظم : 18 / 200 - الذيل على طبقات الختالة : اس رجب ، 1 / 404 .

² - يقصد بها المظلة التى تقيه من حر الشمس .

³ - المنتظم : 18 / 201 .

⁴ - المصدر السابق : 18 / 214 .

⁵ - نفس المصدر : 18 / 218 .

في الحال من يكشف ظلامته¹ ، كما ذكر مجالس أخرى له سنة ٤٧١ هـ و سنة ٥٢٢ هـ و ما بعدها و كان يحضر الخليفة إلى مجالسه في كل مرة ، و يبدأ ازدهام الناس على المجلس ابتداء من منتصف الليل² .

٣- أهل الحربية :

يذكر ابن الجوزي أن أهل هذه المنطقة سألوه أن يعقد لهم مجلسا للوعظ فكان لهم ذلك و كان فيه من شدة الزحام ما فيه و حضره الرجال و النساء و لم يتخلف عنه حتى الصبيان قال في ذلك : " و سألتني أهل الحربية أن أعقد عندهم مجلسا للوعظ ليلة فوعدتهم ليلة الجمعة سادس عشر ربيع الأول فانقلبت بغداد و عبر أهلها عبورا زاد على نصف شعبان زيادة كثيرة فعبرت إلى باب البصرة فدخلتها بعد المغرب فتلقاني أهلها بالشموع الكثيرة و صحبني منها خلق عظيم فلما خرجت من باب البصرة رأيت أهل الحربية قد أقبلوا بشموع لا يمكن إحصاؤها فأضيفت إلى شموع أهل باب البصرة فحرزت بألف شمعة فما رأيت البرية إلا مملوءة ضوءا و خرج أهل المحال الرجال و النساء و الصبيان ينظرون و كان الزحام في البرية كالزحام في سوق الثلاثاء فدخلت الحربية و قد امتلأ الشارع و اكتريت الرواشن³ من وقت الضحى فلو قيل أن الذين خرجوا يطلبون المجلس و سعوا في الصحراء بين باب البصرة و الحربية مع المجتمعين في المجلس كانوا ثلاثمائة ألف ما أبعد القائل " ⁴ .

٤- دار ظهير الدين :

و ذكر ابن الجوزي بعض المجالس له في هذا المكان ففي سنة ٥٢٢ هـ قال : " و في يوم الاثنين حادي عشر رمضان : تقدم إلي بالجلوس في دار ظهير الدين صاحب المخزن و حضر أمير المؤمنين و أذن للعوام في الدخول فتكلمت و أعجبهم حتى قال لي ظهير الدين : قد قال أمير المؤمنين ما كأن هذا الرجل آدمي لما يقدر عليه من كلام " ⁵ .

٥- الحلبية :

و تحدث رحمه الله عن مجلسه الذي كان يعقده في هذا المكان قائلا : " و في يوم

¹ - المنتظم : 18 / 226 .

² - المصدر السابق : 18 / 226 ، 238 .

³ - الرواشن : الرواشن ، الكوة و الشرفة جمع رواشن ، المعجم الوسيط 1 / 347 .

⁴ - المنتظم : 18 / 203 - الذيل على طبقات الحنابلة : ابن رجب 1 / 405 .

⁵ - المصدر السابق : 18 / 230 .

الأربعاء الأربعاء غرة رمضان : تكلمت في مجلسي بالحلابة فتاب على يدي نحو من مئتي رجل و قطعت شعور مائة و عشرين منهم¹ .
6 - ضاحية بنفسها :

و هذه المنطقة هي ضاحية من ضواحي بغداد شهدت مجالس ابن الجوزي الدعوية و اكتضت بالمستمعين و حضر إليها المدعوون عن بكرة أبيهم ، و جاءوا من كل حسدب و صوب ينسلون فكانت هذه المجالس أقرب إلى المهرجانات منها إلى المجالس الدعوية الوعظية نظر للأعداد الهائلة من الجماهير التي كانت تحضرها ، يقول ابن الجوزي في حوادث سنة 572 هـ عندما تسلّم من الجهات الرسمية مدرسة في تلك الناحية : " و تقدم إلي يوم الخميس المذكور² بذكر الدرس ... و وقف أهل بغداد من باب النوبي إلى باب المدرسة كما يكون في العيد و أكثر و كان على باب المدرسة ألوف و الزحام على الباب ... و ذكرت بعد ذلك الدرس فألقيت دروسا كثيرة من الأصول و الفروع و كان يوما مشهودا لم ير مثله ... إلى أن يقول : ثم عقدت المجلس يوم الأربعاء سابع شوال تحت المدرسة فاجتمع الناس من الليل و باتوا و حرز الجمع يومئذ بخمسين ألفا و كان يوما مشهودا " ³ .
7 - مدرسة درب دينار :

وتحدث ابن الجوزي عن مجالسه الدعوية فيها فقال في حوادث سنة 574 هـ : " و تكلمت يوم السبت مفتتح رمضان في مدرستي بدرب دينار فكان الزحام خارجا عن الحد حتى غلق الأبواب و قصت ثلاثون طائفة و تاب خلق من المفسدين " ⁴ .
8 - جامع القصر :

و قد وصف ابن الجوزي شدة الزحام الذي كان يحصل في هذا الجامع عند عقد مجلس الوعظ كل جمعة ، حتى تضطر الجهة المسؤولة إلى التدخل بالرجالة و الشرطة أحيانا لتنظيم جماهير المدعوين الذين احتشدوا عبر الأزقة المؤدية إلى الجامع يقول : " و ازدحم العوام حتى امتلأ صحن الجامع و لم يمكن للأكثرين وصول إلينا و حفظ الناس بالرجالة خوفا من فتنة ، و ما زال الزحام على حلقتنا كل جمعة ، و كانت ختمتنا في المدرسة ليلة سبع و عشرين فعلق فيها من الأضواء ما لا يحصى و اجتمع من الناس ألوف

¹ - المنتظم : 18 / 197 .

² - يقصد به يوم الخميس خامس و عشرين شعبان من سنة 570 هـ انظر المنتظم : 18 / 214 .

³ - المنتظم : 18 / 214 ، 215 - الذيل على طبقات الخنابلة : 1 / 106 .

⁴ - المنتظم : 18 / 250 .

كثيرة فكانت ليلة مشهودة " ¹ .

و هكذا أنفق ابن الجوزي نحواً من سبعين عاماً من عمره في الدعوة و الوعظ سطر
خلالها الآلاف من الصفحات ضمنها مؤلفاته الوعظية و الدعوية .

و ليس لنا أن نذكر المزيد مما قاله العلماء عن تأثير وعظه ² إلا ما قاله ابن رجب
- رحمه الله - كخلاصة لما كانت عليه مجالس ابن الجوزي الدعوية : " و حاصل الأمر
أن مجالسه الوعظية لم يكن لها نظير ، و لم يسمع بمثها ، و كانت عظيمة النفع ، يتذكر
بها الغافلون ، و يتعلم منها الجاهلون ، و يتوب فيها المذنبون . و يسلم فيها المشركون " ³
فرحمه الله رحمة واسعة .

الإمامة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

¹ - المنتظم : 18 / 214 ، 215 .

² - لأننا ستطرق لموضوع تأثير ابن الجوزي في الفصل الأخير من الرسالة فلا مبرر للإطالة هنا .

³ - الثقل على طبقات الحنابلة : ابن رجب ، 1 / 410 .

المبحث الرابع

ابن الجوزي و دعوة أهل الكتاب

تمهيد :

لم يكن الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - في دعوته مقتصرًا على فئة معينة من المدعويين ، لذلك لم يحصر منهجه في دعوة المسلمين فقط ، بل تعدت دعوته لتشمل غيرهم من أهل الكتاب ، و ذلك لشمولية منهجه و تنوع أساليبه حتى يتناسب مع عظمة الإسلام و عالمية رسالته التي بعث بها رسول الله - صلى الله عليه و سلم - إلى الناس كافة ، كما قال تعالى : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا)¹ ، و ليستطيع من خلال هذا المنهج أن يبرز أن الإسلام هو المهيمن على ما سواه من الأديان و الدعوات كما أكد ذلك الله - سبحانه و تعالى - في قوله : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله)² .

من أجل ذلك كانت دعوة ابن الجوزي أفسح مجالًا من أن تنحصر في صنف واحد من أصناف المدعويين ، و بناء على ذلك فقد جعل من أساسيات منهجه دعوة الناس كافة و الحرص على هدايتهم ، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ؛ و المسلمين عموما تكون دعوتهم بالتذكير و الحث على طاعة الله و التمسك بمبادئ دينه و ذلك لكون عامل القابلية و عامل الاستجابة متوفرين لديهم ، أما غير المسلمين فدعوتهم تبدأ بشرح الإسلام لهم و إظهار ما يجهلونه من الحق ثم دعوتهم للدخول فيه . و هكذا ينبغي أن يكون الداعية الحق واسع الأفق رحب المجال لا تقيد عمله القيود و لا تحد دعوته الحدود .

و قد بين الحق - سبحانه و تعالى - منهج دعوة أهل الكتاب و طريقة مخاطبتهم فقال : (و لا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم و قولوا آمنا بالذي أنزل إلينا و أنزل إليكم و إلها و إلهكم واحد و نحن له مسلمون)³ .

و وضّح هذا المنهج مرة أخرى فقال : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئا و لا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله فإن

¹ - الفرقان : 1 .

² - التوبة : 33 ، و نفس الآية في سورة الصف : 9 .

³ - العنكبوت : 46 .

تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)¹ ، و قد تحدث القرآن الكريم في العديد من آياته عن عقيدة أهل الكتاب و بين لهم ما هم عليه من شرك و ضلال و دعاهم إلى عبادة الله الواحد و نبذ ما هم عليه من غلو و انحراف عن الدين الصحيح .

• منهج ابن الجوزي في دعوة أهل الكتاب :

في منهجه لدعوة أهل الكتاب اتبع ابن الجوزي - رحمه الله - منهج القرآن الكريم الذي يقوم على إظهار زيف تلك العقائد وهدمها من الأساس ثم بناء العقيدة الصحيحة مكانها و قد ظهر ذلك جليا عند ابن الجوزي في كتبه الوعظية الدعوية و خاصة كتابه " تلييس إبليس " و " صيد الخاطر " حيث ناقش فيه بشتى أساليب الإقناع و الحكمة و الموعظة أهل الكتاب فقدم - رحمه الله - لهم الأدلة على صدق النبي - صلى الله عليه و سلم - و ذلك بأن نبههم إلى ما يجدونه مسطرا في كتبهم من صفات النبي - عليه الصلاة و السلام - كما بين لهم أن هذا النبي الذي يدعوهم إلى الإسلام هو النبي الذي بشر به عيسى - عليه السلام - ، و أن أصول دعوته - صلى الله عليه و سلم - هي نفسها أصول دعوة كل الأنبياء السابقين ، زيادة على ذلك فإن القرآن الكريم جاء مصدقا للكتب السماوية السابقة ثم راح ابن الجوزي - رحمه الله - يؤنبهم و ينذرهم بالعقوبة ، مبرزاً بأن السبب الرئيسي لعنادهم هو اتباعهم للهوى و رضاهم و اطمئنانهم على أنفسهم قائلًا : " فترى اليهودي أو النصراني يرى أنه على صواب ، و لا يبحث و لا ينظر في دليل نبوة نبينا - صلى الله عليه و سلم - و إذا ما سمع ما يلين قلبه مثل القرآن المعجز هرب لئلا يسمع " ² .

و لعل من أهم الأساليب التي استخدمها ابن الجوزي في منهجه الدعوي مع أهل الكتاب أسلوب المناظرة و الحوار ، و ذلك حتى يبين لهم بالمنطق و الحجة أن ما هم عليه من ضلال سببه الكبر و العناد و ليس الدليل القوي أو الحجة الدامغة لذلك وجدناه - رحمه الله - بعدما تحدث في كتابه " صيد الخاطر " عن قيمة النفس و أنها أعز ما عند الإنسان تعجب منه كيف يسعى في إهلاكها لكنه رأى أن مرد ذلك كله يرجع إلى قلة العقل و سوء النظر ، ثم ضرب مثالا على تعجبه هذا بما جرى بينه و بين أحد اليهود فقال : " وأظرف من هذا اليهود و النصراني ، فإن أحدهم يبلغ فيجب عليه أن ينظر في نبوة نبينا - صلى الله عليه و سلم - فإذا فرط فله الخلود في جهنم ، و لقد قلت لبعضهم : ويحك تخاطر بنفسك في

¹ - آل عمران : 64 .

² - صيد الخاطر : ص 457 .

عذاب الأبد ، نحن نؤمن بنبينا و كذب بنبينا و كذب بنبينا أو بالتوراة
 خذ في النار فما بيننا و بينكم خلاف ، إذ نحن مؤمنون بصدقته و كتابه ، فلو لقيناه لم نخجل
 و لو عاتبنا مثلا و قال : هل قسم بالسبت و السبت من الفروع و الفروع لا يعاقب عليها
 بالخلود . فقال لي رئيس القوم : ما نطالبكم بهذا لأن السبت إنما يلزم بني إسرائيل ، فقلت :
 فقد سلمنا بإجماعكم و أنتم هالكون ، لأنكم تخاطرون بأرواحكم في العذاب الدائم ...
 و السبب في هذه الأشياء كلها قلة العقل و ترك أعماله في النظر و الاستدلال ¹ و يواصل
 ابن الجوزي المضي في دعوته على نفس الأسلوب فبين بكثير من التفصيل كيف لبس
 الشيطان على أهل الكتاب حتى أخرجهم عن الصراط المستقيم ² ، و قد ضرب لذلك العييد
 من الأمثلة مما قاله عن اليهود : " قد لبس عليهم في أشياء كثيرة نذكر منها نبذة ليستدل
 بها على تلك ، فمن ذلك تشبيههم الخالق بالخلق ، و لو كان تشبيههم حقا لجاز عليه ما يجوز
 عليهم .. ثم مروا على أصنام طلبوا مثلها فقالوا : (اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة) ³ ...
 و اجترأوا على الله بالكلمات القبيحة كقولهم : (إن الله فقير و نحن أغنياء) ⁴ و قولهم :
 (يد الله مغلولة) ⁵ .

و يستمر ابن الجوزي في ذكر العديد من النماذج التي تدل على فساد عقيدة اليهود
 و يظهر فيها جليا تلبس الشيطان عليهم ، ثم يرد على هذه الافتراءات بحكمة و روية مع
 استعماله دائما لأساليب المنهج العقلي ، فانظر إليه على سبيل المثال كيف يرد عليهم
 ادعاءهم بعدم نسخ الشرائع ليتصلوا من الإيمان بالإسلام و دعوته فيقول : " و من تلبسه
 عليهم أنهم قالوا : لا يجوز نسخ الشرائع ، و قد علموا أن من دين آدم جواز نكاح
 الأخوات و ذوات المحارم ، و العمل في يوم السبت ، ثم نسخ ذلك بشريعة موسى ، قتلوا إذا
 أمر الله - عز و جل - بشيء كان حكمه فلا يجوز تغييره . قلت : قد يكون التغيير في بعض
 الأوقات حكمة فإن تقلب الأدمي من صحة إلى مرض و من مرض إلى موت كله حكمة
 و قد حظر عليكم العمل يوم السبت و أطلق لكم العمل يوم الأحد و هذا من جنس ما أنكرتم

¹ - صيد الخاطر : ص 441 .

² - انظر رد ابن الجوزي على شبهات أهل الكتاب في كتاب تلبس إبليس : الصفحات من 103 إلى 107 - صيد الخاطر : ص

441 ، 457 .

³ - الأعراف : 138 .

⁴ - آل عمران : 181 .

⁵ - تيس إبليس : ص 103 و الآية من سورة المائدة : 64 .

وقد أمر الله - عز و جل - إبراهيم - عليه السلام - بذبح ابنه ثم نجاه عن ذلك " ¹
و بعد ابن الجوزي الكثير من انحرافاتهم و التي منها تكذيبهم عن الصراط السوي بعدم
إيمانهم بالنبي - صلى الله عليه و سلم - ثم يسلم في نهاية الأمر بأن فضائعهم أكثر من أن
تعد أو تحصى ² .

و بعد حديثه عن اليهود و كيف لبس الشيطان عليهم و غرر بهم انتقل الإمام
ابن الجوزي للحديث عن النصارى و كيف لبس الشيطان عليهم ؛ فقال رحمه الله : " تليسه
عليهم كثير فمن ذلك أن إبليس أو همهم أن الخالق - سبحانه - جوهر ... : إن الله جوهر
واحد أفانيم ³ ثلاثة فهو واحد في الجوهرية ، ثلاثة في الألفية ، فأحد الأفانيم عندهم الأب
والآخر الإبن و الآخر روح القدس ... و هؤلاء قد نسوا أنه لو كان الإله جوهرًا لجاز عليه
ما يجوز على الجواهر من التحيز بمكان و التحرك و السكون و الأون ثم سول لبعضهم
أن المسيح هو الله " ⁴ .

ثم يبين ابن الجوزي كيف أن الشيطان يقول لبعض النصارى " أن المسيح هو ابن الله
و قال بعضهم المسيح جوهران أحدهما قديم و الآخر محدث و مع قولهم هذا في المسيح
يقرون بحاجته إلى الطعاد و لا يختلفون في هذا و في أنه صلب و لم يقدر على الدفع عن
نفسه و يقولون إنما فعل هذا بالناسوت فهلا دفع عن الناسوت ما فيه من اللاهوت " ⁵

و من خلال هذه الحجج استطاع ابن الجوزي تبين ما وقع فيه النصارى من
تناقضات عجيبة في عقيدتهم أدت بهم إلى الوقوع في التثليث و في الانحرافات و الأباطيل
و إنكار ما هو مصرح به في كتابهم من نبوة الرسول - صلى الله عليه و سلم - و من أنه
بعث للناس كافة و ليس للعرب فقط كما يدعون فقال : " ثم لبس عليهم أمر نبينا محمد
- صلى الله عليه و سلم - حتى جحدوه بعد ذكره في الإنجيل ، و من الكتابيين من يقول
عن نبينا إنه نبي إلا أنه مبعوث إلى العرب خاصة و هذا من إبليس استغفلهم فيه لأنه متى
ثبت أنه نبي فالنبي لا يكذب وقد قال - صلى الله عليه و سلم - : " بعثت إلى الناس كافة " ⁶

¹ - تليس إبليس : ص 104 .

² - المصدر السابق : ص 104 .

³ - الأفانيم : مفردا أقنوم ، و الأفانيم هي الصفات ، انظر الملل و النحل : محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، 1 / 221 .

⁴ - تليس إبليس : ص 106 .

⁵ - المصدر السابق : ص 106 .

⁶ - فتح الباري : 1 / 436 ، سنن ترمذ الخديث في صفحة 287 من هذه الرسالة .

وقد كتب إلى قيصر و كسرى و سائر ملوك الأعاجم¹ .

و في آخر المطاف يذكر ابن الجوزي نموذجا من سخف اليهود و النصارى و تغليلهم و يرد عليه مفندا و كاشفا هذا التلبيس فيقول : " أنهم قالوا لا يعذبنا الله لأجل أسلافنا فمننا الأولياء و الأنبياء فأخبرنا الله - عز و جل - عنهم بذلك : (نحن أبناء الله و أحبواؤه)² ، أي منا ابنه عزيز و عيسى ، و كشف هذا التلبيس إن كان شخص مطالب بحق الله عليه فلا يدفعه عنه ذو قرابة و لو تعدت المحبة شخصا إلى غيره لموضع القرابة لتعدي البعض ، و قد قال نبينا - صلى الله عليه و سلم - لابنته فاطمة : " لا أغني عنك من الله شيئا "³ ، و إنما فضل المحبوب بالتقوى فمن عدمها عدم المحبة ثم إن محبة الله - عز و جل - للعبد ليست بشغف كمحبة الأدميين بعضهم بعضا إذا لو كانت كذلك لكان الأمر يحتمل "⁴ .

و الملاحظ على ابن الجوزي في دعوته للنصارى استخدامه أساليب المنهج العقلي و ذلك بالمجادلة و الحوار والتي هي أحسن .

أما من حيث الوسائل الدعوية فبإضافة إلى دعوة ابن الجوزي أهل الكتاب عن طريق المصنفات كما رأينا ، فقد دعاهم إلى الإسلام عن طريق الوعظ كما يتضح ذلك من خلال المجالس الدعوية و الوعظية التي كان يعقدها ، و ما كان يتخللها من إسلام الازميين و توبة العاصين و ندم المفرطين .

يقول ابن الجوزي - رحمة الله - يصف حال دعوته لأهل الكتاب و ما أسفرت عنه من نتائج حميدة : " و وضع الله لي من القبول في قلوب الخلق فوق الحد ، و أوقع كلامي في نفوسهم فلا يرتابون بصحته ، و قد أسلم على يدي نحو من مائتين من أهل الذمة ، و لقد تاب في مجالسي أكثر من مائة ألف ، و قد قطعت أكثر من عشرين ألف سالف مما يتعاناه الجهال "⁵ .

و قال مؤكدا هذا المعنى مرة أخرى في كتابه القصاص و المذكرين ، متحدثا عن آخر النتائج الجزئية لدعوته و آثارها على مختلف المدعوين و من بينهم أهل الكتاب و هذا إلى

¹ - تليس إبليس : ص 106 ، انظر محتوى هذه الكتب في زاد المعاد : لابر القيم 1 / 30 .

² - المائة : 18 .

³ - فتح الباري : 5 / 382 كتاب الوصايا ، باب هل يدخل النساء و الولد في الأقرار ، رقم 2757 .

⁴ - تليس إبليس : ص 107 .

⁵ - لئنة المكيد لل نصيحة الولد : ص 21 .

حين فراغه من تأليف كتابه المذكور : " ما زلت أعظ الناس و أحرصهم على التوبة و التقوى، فقد تاب على يدي الي أن جمعت هذا الكتاب أكثر من مائة ألف رجل ؛ و قد قطعت من شعور الصبيان اللاهين أكثر من عشرة الاف طائفة . و أسلم على يدي أكثر من مائة ألف " ¹.

و يتحدث سبطه أبو المظفر ² عن أثر دعوة جده ابن الجوزي لأهل الكتاب و مدى استجابتهم له قائلا : " و سمعته يقول على المنبر في آخر عمره : كتبت بأصبعي هاتين ألفي مجلدة و تاب على يدي مائة الف و أسلم على يدي عشرة آلاف يهودي و نصراني " ³، و يذكرنا ابن رجب بخلاصة مجالس ابن الجوزي الدعوية و آثارها العظيمة الفائدة و النفع على المدعويين بمختلف أصنافهم من العوام و العصابة و أهل الذمة فيقول عنه : " و قد ذكر في تاريخه : أنه تكلم مرة ، فتاب في المجلس على يده نحو مائتي رجل ، و قطعت شعور مائة و عشرين منهم " ⁴.

هذا و قد ذكر الكثير عن آثار مجالسه الدعوية و ما كان يحدث فيها من توبة و خشوع ، و يتخللها من صيحات الواجدين و دموع الخاشعين ، و إنابة السادمين و ذل التائبين ⁵.

¹ - القصاص و المذكرين : ص 372 - الذيل على طبقات الخناينة : ابن رجب 1 / 410

² - تقدمت ترجمته .

³ - الذيل على الروضتين : لأبي شامة ، ص 21 - الذيل على طبقات الخناينة : ابن رجب 1 / 410 ، و لكن ابن رجب عوض أن يذكر عشرة آلاف يهودي و نصراني ذكر عشرون ألف يهودي و نصراني .

⁴ - الذيل على طبقات الخناينة : ابن رجب ، 1 / 410 .

⁵ - انظر البحث السابق ، و كذلك الحديث عن تأثير ابن الجوزي و دعوته في الفعل الأخير من هذه الرسالة .

الباب الثالث

محاوّر دعوة ابن الجوزي وتأثيره وما أخذ عليه

ويتضمن ثلاثة فصول

الفصل الأول : محاوّر التربية والتعليم

الفصل الثاني : محاوّر الدعوة والإصلاح

الفصل الثالث : تأثير ابن الجوزي وما أخذ عليه

الفصل الأول

محاوور التربية والتعليم

ويتضمن ثلاثة مباحث

المبحث الأول : ابن الجوزي وتربية النفس والبدن

المبحث الثاني : المرأة والأولاد عند ابن الجوزي

المبحث الثالث : العلم والعلماء عند ابن الجوزي

تمهيد

إن أهم ما يبرز دور الداعية في التغيير بمختلف أنواعه و أشكاله هو تأثيره المباشر و غير المباشر في محيطه الاجتماعي و بين أبناء دينه و وطنه ، و ذلك من خلال ما ينتجه من فكر في ميادين شتى ، و ما يسهم به من حلول للقضايا الكبرى التي تشغل بال أمته و يعاني منها مجتمعه . و ذلك هو الذي نعنيه في هذا المقام ، من حديثنا عن مواضيع الدعوة عند ابن الجوزي ؛ و التي تتمثل في القضايا الكبرى التي لفتت انتباهه فراح يتأملها محللاً و مناقشاً لها حيناً ، و غاضباً ساخطاً ثائراً عليها حيناً آخر ، مبدياً رأيه و اجتهاده بكل جرأة و صراحة ، حتى و لو كان في إبدائه لرأيه ما قد يؤلب الخصوم عليه في بعض الأحيان¹.

و قد تجلّى لنا اهتمامه هذا من نتاجه الفكري الذي اشتمل على وسائل متعددة عبّر من خلالها الإمام ابن الجوزي عن هذه القضايا و الآراء المختلفة ، منها التصنيف و التدريس و المذاكرة ، و منها مجالس الدعوة و الوعظ و الإرشاد . و لعل من أهم تلك المواضيع التي جالبت انتباه ابن الجوزي و فكره ، جملة من القضايا الكبرى التي تعرض لها بالوصف و التحليل عن طريق الملاحظة و التجربة و المعاينة مرة و عن طريق النقد و الاستنباط مما كتب و ألف في هذه الموضوعات مرة أخرى ، و قد حاولنا أن نحصر تلك القضايا و الانشغالات في هذه المحاور التي ظهر لنا أنها من أهم ما تناوله ابن الجوزي في مؤلفاته خلال حياته الدعوية التي امتدت أكثر من سبعين عاماً و التي سنتطرق لها بشيء من التحليل و النقد و الاستنتاج من خلال المباحث الآتية :

¹ - طبعا فإن المواضيع الدعوية تختلف من داعية لأخر من حيث الأهمية و المضمون و المنهج و الأسلوب الذي تتناول به .

المبحث الأول

ابن الجوزي وتربية النفس و البدن

تمهيد :

قبل الحديث عن النفس و كنهها و يجب علينا التفرقة إلى طبيعة الإنسان و لعل الطريق القويم لمعرفة طبيعته الانسانية و كيفية التعامل معها هو كتاب الله - عز و جل - الذي جاء فيه الكثير من التفاصيل عن خلق هذا الإنسان و دقة تكوينه ، و طبيعة الإنسان مزدوجة كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله : (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين فإذا سوّيته و نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)¹ ، و هي فطرية فيه و ليست أمرا ثانويا أو طارئا ، فهو روح و جسد ، و لا يمكن أن يحيا الإنسان دون أحدهما كما لا يجوز للمؤمن - خاصة - أن يتكر أحدهما في سبيل الآخر .

و معرفة طبيعة الإنسان من الأمور المهمة بمران ، و ذلك نظرا لارتباطها بحقيقة خلق هذا الإنسان و كيفية تكوينه لكي يتربح بعد ذلك مصيره العاجل و الأجل ، و من ثم يعرف الأسلوب الصحيح لكيفية تفسير سلوكه و توجيهه الوجهة التي توافق جسده و روحه دون التركيز على جانب و إهمال الآخر . بل لابد من إيجاد توازن بينهما .

و الدليل على التوازن و الوسطية العديد من الآيات و الأحاديث كقوله - جل شأنه - (و كذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا)² و معنى وسطا خيارا أو عدولا لأن الوسط عدل بين الأطراف³ .

و قوله - تعالى - : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طبيبات ما أحل الله لكم و لا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)⁴ . فإسسه - سبحانه - يأمرنا بالأكل و الشرب لرعاية الجسد ، لأنه إذا وهن و اعتدل عجز المرء عن تحقيق ما يراد منه من التعمد و طلب العلم و الجهاد في سبيل الله و السعي في طلب الرزق ، و نفع المجتمع فحث المسلم أن يبتعد عن كل ما فيه إضعاف لجسده ، فلا يحرمة مما أباحه الله من الطيبات ، و لا يرهقه في العبادة ، و لا يهمل

¹ - ص : 71 ، 72 .

² - البقرة : 143 .

³ - تفسير الكشاف : محمود بن عمر بن عثمان ، ضبطه و صححه معطى حسين أحمد ، دار الكتاب العربي ط 3 ، 1987م/1987 .

⁴ - المائدة : 89 .

التداوي من الأمراض و التوفيق من الأدواء إلى غير ذلك مما يوهنه و يعجزه ، لأن ضرورة الحياة تقتضي أن يكون هناك توزن بين صفاء الروح و سلامة الجسد ، بل إننا نلاحظ أن التوسط ضرورة حتى في الدعوة إلى الدين و تبيين تعاليمه للناس ، لأن منزلته - سبحانه - أمر بذلك فقال : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة و جادلهم بالتتي هي أحسن)¹ ، ويؤيد هذا المعنى قواه - صلى الله عليه و سلم - : " إن الدين يسر و لن يشاد الدين أحد إلا غلبه فاستدوا وقاربوا و ابشروا و استعينوا بالغدوة و الروحة و شيء من النجاة " .²

و من خلال توجسيبات الرسول - صلى الله عليه و سلم - المخلصة تعلم الصحابة كيف يوازنون بين المطالب الدنيوية و المطالب الأخروية ، و كيف يعملون للنجاح في دنياهم دون الإخلال بأخرايتهم ، فكانت أعمالهم الدنيوية عوناً لهم على أداء فرائضهم الدينية ، فكانوا يعتقدون أنهم ليسوا بعيدين عن الدنيا كما أنهم في مزارعهم و معاملهم غير بعيدين عن الدين³ لأن رواد المساجد ليسوا تراويش متعطلين و لا رهبانا متبطلين ، فهم أناس لهم دنياهم و أعمالهم من تجارة و بيع ، و تكن ذلك لم يلهمهم عن حق الله - تعالى -⁴ أما ابن الجوزي - رحمه الله - فهو يرى أن الإنسان مكون من الروح و الجسد ، و هو في طبيعة خلقته مركب من الثبوسة الحيوانية الجسدية و من الروح النورانية الملائكية يقول في ذلك موضحاً رأيه : " خلقت الملائكة من نور لا ظلمة فيه ، و خلقت الشياطين من ظلمة لا نور فيها ، و ركب البشر من الضدين ، فظلام نفسه مقترن بنور عقله ، بينهما حاجز لطيف لا تعلمه إلا بالمجاهدة . كما أن بين الشمس و الظل خط لا يراه إلا المهندس فالملك يسبح لأنه صاف ، و الشيطان يعصي لأنه كدر ، و إنما العجب تقوى من تقوى في حق الأضداد الأدمي عقل و هوى غير أن بين الهوى و الهدى برزخ من التوفيق لولا لطائف الإعانة قلع سكر التماسك ، و لم تطق البشرية المدافعة " .⁵

و هكذا فالملائكة في تعبدهم ليس لهم صداد و لا مانع يعوقهم عن كثرة العبادة مثلهم كمثل الماء الذي يجري مسرعاً من منحدر عال فهذه طبيعته ، أما تعبد البشر فهو كالماء

1 - النحل : 125 .

2 - فتح الباري : 1 / 93 . كتاب الإيمان ، باب العين يسر ، حديث رقم 31 .

3 - الخصائص العامة للإسلام : يوسف القرضاوي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 2 ، 1405 هـ ، 1985 م ، ص 145 .

4 - المصدر السابق : ص 181 .

5 - اللطائف : ص 73 .

الصاعد الذي يشق طريقه مغالبا للشناك و العقبات فشتان بين عبادة و عبادة¹ .
 و هكذا فان نظرة ابن الجوزي لطبيعة الإنسان هي نفسها نظرة - القرآن الكريم -
 و قد سار الشيخ الندوي على رأي ابن الجوزي فقال : " الإنسان جسم و روح ، و هو قلب
 و عقل و عواطف و جوارح ، لا يسعد و لا يفلح و لا يرقى رقىا متزنا عادلا حتى تنمو فيه
 هذه القوى كلها نموا متناسقا لأنقا بها ، و يتغذى غذاء صالحا ، و لا يمكن أن توجد المدنية
 الصالحة البتة إلا إذا ساد وسط بيني خلقي جسدي يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله
 الإنساني " ² .

1 - تربية النفس :

تعتبر تربية النفس و تهذيبها من الأمور الضرورية و اللازمة لكي يستقيم سلوك
 الإنسان و يصلح حاله ، و قد وردت كلمة نفس بمختلف تصريفاتها في مائة و تسع وأربعين
 موضعا³ من القرآن الكريم و هذا يدل دلالة واضحة على العناية الربانية بهذه النفس والتي
 هي سر من أسرار الخالق - جل و علا - .

كما وردت كلمة النفس في أحاديث النبي - صلى الله عليه و سلم - منها قوله : " لا يؤمن
 أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " ⁴ ، و قوله كذلك : " لا يحل دم امرئ مسلم يشهد
 أن لا إله إلا الله و أني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، و الثيب الزاني
 و المفارق لدينه التارك للجماعة " ⁵ ، و قال في حديث آخر : " ألم تروا الإنسان إذا ملت
 شخص بصره ، قالوا بلى . قال : فذلك حين يتبع بصره نفسه " ⁶ .

و لما كان الإسلام دين الفطرة فإنه اعترف بما في النفس الإنسانية من نزعات
 و ميول ليتمكن الإنسان من توجيهها و قد أشار القرآن - الكريم - إلى جملة من هذه
 الطباع و هذه الميولات التي دارت عليها رحي تربية النفس عند ابن الجوزي ، و من هذه
 النزعات : نزعة التملك و الضعف ، و استعجال الخير و كثرة المجادلة و الفرح بالنعمة

1 - صيد الخاطر : ص 74 .

2 - ماذا حسر العالم بالعقبات المستعصية : أبو الحسن الندوي، مكتبة رحاب الجزائر، ط 17 ، 1408 ، 1987م ص 115 .

3 - القرآن الكريم تفسير و بيان : محمد حسن الحمصي . ص 217 ، و ما بعدها .

4 - فتح الباري : 1 / 57 ، كتاب الإيمان ، رقم 13 - صحيح مسلم : 1 / 67 كتاب الإيمان باب الدليل على أن من حصل

الإيمان أن يحب لأخيه المسلم رقم 15 .

5 - فتح الباري : 12 / 201 ، كتاب اللغات . رقم 878 .

6 - صحيح مسلم : 2 / 638 ، كتاب الجنائز ، باب في شعور من حضر الميت تبع نفسه ، رقم 921 .

و الخوف على الأهل و المال و الولد و العودة الى الله في الشدائد و المحن¹ .
 و قد اهتم المربون و الدعاة و الوعاظ و المصلحون بتربية النفس منذ قرون خلت ، و ذلك
 لأن الغاية من هذه التربية هي الوصول بالنفس إلى درجة الكمال الخلقى الذي تنشده .
 و من هؤلاء العلماء و الفلاسفة على سبيل التحديد ابن مسكويه² الذي كان يرى أن النفس
 ليست هي الجسم ، و ليست جزءا منه ، و ليست حالا من أحواله ، و إنما هي جزء آخر
 متميز عن البدن تمام التميز ، و مستقلة عنه ، و لكنها تؤثر فيه و تتأثر به ، و هذه النفس
 باقية لا تفنى بفناء الجسم³ .

و ابن حزم - رحمه الله - كان يرى أن النفس هي المدبرة للجسد و هي حية و عاقلة
 و هي جسم طويل عريض عميق ، ذات مكان ، و هي غير الجسد المحسوس ، و يرى أنها
 جسم من الأجسام و هي مخلوقة محدثة⁴ .

أما الإمام أبو حامد الغزالي - رحمه الله - فقد كانت له آراء في ميدان النفس
 و محاولة معرفة كنهها و تربيتها بمختلف الرياضات و المجاهدات ، لذلك فقد كان يؤكد
 دائما على أن النفس الإنسانية التي بها تعرف حقيقة الإنسان ليست جسما و لا بعضه و لا
 جزءا منه ، بل هي جوهر منزه عن المادية و الصور الحسية الجسمانية فلنستمع إليه فيما
 قال في معنى النفس : " النفس ، و هو أيضا مشترك بين معان ، و يتعلق بغرضنا معنيين
 أحدهما : أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب و الشهوة في الإنسان على ما سيأتي
 شرحه ، و هذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف ، لأنهم يريدون بالنفس الأصل
 الجامع للصفات المذمومة من الإنسان ، فيقولون : لايت من مجاهدة النفس و كسرها ، و إليه
 الإشارة بقوله - عليه الصلاة و السلام - : " أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك " ⁵
 و المعنى الثاني : هي اللطيفة التي ذكرناها التي هي الإنسان بالحقيقة و هي نفس الإنسان
 و ذاته ، و لكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها " ⁶ .

1 - فلسفة التربية الإسلامية : عمر التومي النسائي ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس ، ليبيا ، 1988 م ، ص 103 .

2 - ابن مسكويه : أبو علي أحمد بن محمد المتوفى سنة 421هـ نجارب الأمم و تعاقب المهتم و تهذيب الأخلاق و نظهير الأعراق
 و الفوز الأصغر ، انظر كشف الظنون 1 : 314 ، 515 .

3 - تهذيب الأخلاق و نظهير الأعراق : ابن مسكويه ، صححه و علن عليه عمود إبراهيم ، المكتبة العباسية مصر 1988م ص 4 .

4 - الأخلاق و السياسة عند ابن حزم : صلاح الدين بسبري رسلان - مكتبة النهضة ، جامعة القاهرة ، ص 207 و ما بعدها .

5 - انظر تفريح العراقي على الإحياء : مج 3 ، 78 - قال : أخرجه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس ، و فيه محمد
 ابن غزوان أحد الفرضاعين .

6 - إحياء علوم الدين : الغزالي ، مج 3 : 8 .

أما ابن الجوزي — رحمه الله — فقد كانت للنفس أهمية خاصة عنده، حيث جعلها في منهجه من أكبر البراهين التي تدل على قدرة الخالق في خلقه عندما قال : " من أكبر الدليل على وجود الخالق — سبحانه — هذه النفس الناطقة المميزة المحركة للبدن على مقتضى إرادتها . فقد دبرت مصالحها . و ترققت إلى معرفة الأفلاك . و اكتسبت ما أمكن تحصيله من العلوم ، و شاهدت الصانع في المصنوع ، فلما يحجبها ستر و إن تكاثف و لا يعرف مع هذا ماهيتها و لا كيفيتها و لا جوهرها و لا محلها . و لا يفهم من أين جاءت ، و لا يدري أين تذهب ، و لا كيف تعلق بهذا الجسد " ¹ .

و النفس عند ابن الجوزي من الأمور البديعية التي لا تحتاج إلى دليل عليها فهي دليل على وجود مدبر و خالق لها يقول في ذلك : اعلم أن الله — عز و جل — وضع في النفوس أشياء لا تحتاج إلى دليل . فالنفوس تعلمها ضرورة . و أكثر الخلق لا يحسنون التعبير عنها . فإنه وضع في النفس أن المصنوع لا بد له من صانع ، و أن المبنى لا بد له من بان " ² .

من أجل ذلك جاء مفهوم تربية النفس الإنسانية عند ابن الجوزي مفهوما عاما وشاملا حيث عبّر عنه بعدة مصطلحات كاللقيم و الرياضة و التأديب و التدريب ³ حتى يكون أكثر وضوحا لدى مستمعيه و مدعويه أو لدى مريديه من التلاميذ و طلبة العلم .

1 - تعريف ابن الجوزي للنفس :

و ابن الجوزي بصفته واعظا شعبيا و داعية للجماهير و مصلحا اجتماعيا فإنه استطاع أن يلتحم بالجماهير ليتفاعل مع قضاياهم و يواجه سلوكهم و نفوسهم نحو الخير و الفلاح ⁴ . لذلك كان لا يحب الخوض في مسألة حقيقة الروح و ماهية النفس وغيرها من المسائل التي لا يوجد عليها دليل يقيني امثالا لقول الله — سبحانه و تعالى — : (ولا تقف ما ليس لك به علم) ⁵ و ذلك ليس لعدم قدرته على فهم مثل هذه المسائل ومناقشتها وإنما كان قصده حتى لا يشغل جمهور المدعويين بقضايا ليست من فقه الأولويات عنده كهذه المسألة .

1 - صيد الخاطر : ص 253 .

2 - المصدر السابق : ص 249 .

3 - التربية و علم النفس الروا. في الذات العربية: علي زيعور . دار الأندلس للطباعة و النشر : بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1405 هـ .

1985 م ، ص 63 .

4 - الآراء الأخلاقية عند ابن الجوزي : عبد العزيز سيد هاشم ، ص 231 .

5 - الإسراء : 36

من أجل ذلك فقد انتقد الذين حاضوا فيها فقال : رأيت كثيرا من الخلق و عالما من العلماء لا ينتهون عن البحث عن أصول الأشياء التي أمر بعلم جلتها من غير بحث عن حقائقها كالروح مثلا فإن الله - تعالى - سترها بقوله : (قل الروح من أمر ربي)¹ برهان على ما يدعيه . وكذلك العقل . فإنه موجود بلا شك كما أن الروح موجودة بلا شك ، كلاهما يعرف بآثاره ، لا بحقيقة ذاته . فإن قال قائل : فما السر في كتم هذه الأشياء ؟ قلت : لأن النفس ما تزال تترقى من حالة إلى حالة فلو اطلعت على هذه الأشياء لترقت إلى خالقها . فكان ستر مادونه - زيادة في تعظيمه : لأنه إذا كان بعض مخلوقاته لا يعلم كنهه فهو أجل وأعلى .

و يبقى ابن الجوزي دائما يؤكد على رأيه هذا ، و يرى أن أمر النفس قد صعب على الناس فهمه و إزاء ما ذهبته مع إجماعهم على وجودها دون تردد ، كما أشكل عليهم مصيرها بعد الموت . و سذهب أهل الحق أن لها وجودا بعد موتها ، و أنها تنعم و تعذب و أن أرواح المؤمنين في الجنة و أرواح الكفار في النار . و أن أرواح المؤمنين في حواصل طير خضر تعلق من شجر الجنة ، فإذا كانت القيامة أعيدت إلى الجسد ليتكامل لها التنعم بالوسائط، و هذا دليل على أن النفوس لا تنال لذة إلا بواسطة . أما لذات المعارف و العلوم فيجوز أن تنالها بذاتها مع عدم الوسائط³ .

و في تعريفه للنفس يذكر ابن الجوزي بعض الأقوال فذكر أن البعض قال : إنها جوهر روحاني ، و ذكر البعض أنها جسم لطيف . و منهم من قال : إنها عرض لأنها لا تتوهم بنفسها ، لكن ابن الجوزي في النهاية وجدناه يميل إلى رأي القائلين بأنها جوهر روحاني⁴ و مع ذلك نجد ابن الجوزي ينظر إلى النفس على أنها عالم عجيب ، لا بد على الإنسان أن يقف ليتأمل و يفكر في نفسه و يتعظ بها ، و يتعجب من الذين يخرجون للاتعاط في المقابر و ينسون أن النفس أكبر و اعظ لهم ، وفي هذا يقول : " العجب ممن يقول

1 - الإسراء : 85 .

2 - صيد الخاطر : ص 75 ، 76 .

3 - المصدر السابق : ص 35 ، و انظر تفصيل الموضوع في كتاب الروح : محمد الدين ابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، 1399 هـ ، 1979 م . ص 112 و ما بعدها : كما ذكر القول الصائب الذي دل عليه الكتاب و السنة في تعريف النفس و الروح ، انظر الروح ص 178 و ما بعدها .

4 - نزعة الأعلى الناظر في عد الوجوه و النظائر : ابن الجوزي ، تحقيق محمد عبد الكريم كاتظم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 1407 هـ ، 1987 م ، ص 544 و ما بعدها .

أخرج إلى المقابر فاعتبر بأهل البلى ، ولو فطن يعلم أنه مقبرة يغنيه الاعتبار بما فيها عن غيرها " 1 .

2 - صفات النفس عند ابن الجوزي :

أما صفات النفس عند ابن الجوزي فهي ناطقة مميزة مميزة محركة للبدن ، تدبر مصالحه وتكتسب المعارف والعلوم ولها طاقات تفوق طاقات البدن ، و بالتالي فخصائصها غير خصائصه يقول : من أكبر الدليل على وجود الخالق سبحانه هذه النفس الناطقة المميزة المحركة للبدن على مقتضى إرادتها ، فقد دبرت مصالحها ، وترقت إلى معرفة الأفلاك واكتسبت ما أمكن تحصيله من العلوم ، وشاهدت الصانع في المصنوع فلم يحجبها ستر وإن تكاثف ، ولا يعرف مع هذا ماهيتها ولا كيفيتها ولا جوهرها ولا محلها ولا يفهم من أين جاءت ولا يدري أين تذهب ، ولا كيف تعلقت بهذا الجسد " 2 .

و من خصائص هذه النفس عنده كذلك أنها تميل إلى الخمول و الكسل و الطمع في الحصول على الدنيا و ملذاتها ، حيث وصفها بقوله : " فلما بحثت عن سبب ذلك وجدت سببين ، أحدهما : أن النفس لا تصبر على الحصر فإنه يكفي حصرها في صورة البدن فإذا حصرت في المعنى بمنع زاد طيشها ، و لهذا لو قعد الإنسان في بيته شهرا لم يصعب عليه و لو قيل له : لا تخرج من بيتك يوما طال عليه . و الثاني : أنها يشق عليها الدخول تحت حكم ، و لهذا تستلذ الحرام ، و لا تكاد تستطيب المباح . و لذلك يسهل عليها التعتد على ما ترى ، و تؤثره لا على ما يؤثر " 3 ، لذا فهي دوما في حاجة إلى الوعظ و التذكير . و من طبيعتها أنها تستيقظ من غفلتها و تستجيب للدعوة و الموعظة ثم إذا وجدت نوعا من التواني لدى صاحبها تحولت يقظتها إلى غفلة و هذا هو حالها و دينها و ابن الجوزي يحلل المسألة بخيرته في ميدان النفس و بتجربته الشخصية ليبيّن لنا حصيلة ذلك ، فيقول : " خطر لي خاطر و المجلس قد طاب ، و القلوب قد حضرت ، و العيون جارية ، و الرؤوس مطرقة و النفوس قد ندمت على تفريطها ، فقلت لنفسي : ما بال هذه اليقظة لا تدوم ؟ فإني أرى النفس و اليقظة في المجلس متصادقين متصافيين ، فإذا قمنا عن هذه التربة وقعت الغربية . فتأملت ذلك فرأيت أن النفس ما تزال متيقظة ، و القلب ما يزال

1 - صيد الخاطر : 306 .

2 - نزهة الأعيان النواظر في علم الوجوه و النظائر ص 140 : 141 .

3 - صيد الخاطر : ص 41 .

عارفاً ، غير أن القواطع كثيرة ، و الفكر الذي يبغى استعماله في معرفة الله - سبحانه و تعالى - قد كل مما يستعمل في اجتلاب الدنيا و تحصيل حوائج النفوس ، و القلب منغمس في ذلك ، و البدن أسير مستخدم " ¹ .

و من الأمور المهمة التي تختص بها النفس هو أنها في حاجة ماسة إلى ما تنقوي به على الطاعة حتى لا تفقد اتزانها فتصرف إلى الرعونة أو تنشغل عن هدفها في الحياة و من جملة ما ركز عليه ابن الجوزي : المال و الجاه ، و كل ما يجلب الفرح و يجلب الحزن و ما يوجب الخوف و ما يوجب الرجاء الي غير ذلك . يقول عن النفس : " و من ذخائرها التقوي بالمال و الجاه و ما يوجب الفرح ، فإذا فقدت ذلك و كانت عزيزة ذات أنفة أخرجت و قد يهجم عليها الخوف فلا تجد ذخيرة من الرجاء يفاومه فتذهب ، و يغلب عليها الفرح فلا تجد من الحزن ما يقاومه فتذهب . فاجتهد في حفظ ذخائرها .. و لا يلتفت إلى من يذم المال فإنهم الحمقى الجهال الذين اتكلوا على خبز الراحة . فاستطابوا الكسل و الدعة و لم يأنفوا من تناول الصدقة و لا من التعرض السؤال ، و قد كان لكل نبي معاش و لجميع الصحابة ، و خلفوا أموالاً كثيرة فافهم هذا الأصل ، و لا تلتفت إلى كلام الجهال " ² ، فالمال و الجاه في منهج ابن الجوزي من أكبر ما يعين على رضى النفس من طمعها و غرورها و لكن دون أن يصل ذلك إلى الحد سيطرة هذا الطمع و الغرور عليها ، كما أن تقلب النفس بين الفرح و الحزن يبعد عنها الملل و السامة ، و قد استشف ابن الجوزي ذلك من قوله تعالى - : (لكيلا تأسوا على ما فاتكم و لا تفرحوا بما آتاكم) ³ ، أضف إلى ذلك فإن تذكير النفس من سوء الخاتمة يجعلها تشمر على ساعد الجند ، فلا تنتظر عفو الله و تنسى حسابه و لا تأمن مكرهه و تستهين عقابه .

و من خلال ما سبق اتضح لنا أن ابن الجوزي تناول قضية الطبيعة الإنسانية و النفس و خصائصها بمنظار علماء الإسلام و فقهاه لا بمنظار الفلاسفة ، و رغم ذلك فقد كان له اطلاع و دراية كافيين على الموضوع ، حيث وجدناه - رحمه الله - قد أشار إلى أقوال العلماء في النفس و ما رجح لديه في تعريفها ، كما تطرق للعديد من الصفات و الأحوال التي تعتبرها ليخلص في نهاية الأمر للحديث عن الذخائر التي تنقوي بها النفس .

¹ - صيد الخاطر : ص 59 .

² - المصدر السابق : ص 370 .

³ - المائدة : 23 .

3 - أنواع النفوس عند ابن الجوزي :

تحدث القرآن - الكريد عن التقسيم الذي يصف الحالات التي تعترى النفس ، فذكر لها ثلاث حالات و هي النفس النطمئنة و اللوامة و الأمانة بالسوء ، فالنفس قد تكون لوامة في سلوك معين ، و أمانة بالسوء في سلوك ثان و نطمئنة في سلوك ثالث ، و هذه السلوكيات المنقلبة للنفس ترجع إلى درجة إيمان صاحب هذه النفس ومدى مراقبته لله - عز و جل - .

أما علماء الأخلاق و فلاسفة الإسلام فإنهم لم يستثمروا هذا التقسيم القرآني على أحسن وجه و يستفيدوا منه في كتاباتهم عن النفس الإنسانية ، بل الكثير منهم اتبع ما قاله أفلاطون في هذا الشأن و حتى ابن الجوزي في كتابه الطب الروحاني تحدث عن أنواع النفوس و أقسامها و لم يخرج عن ما قاله العديد من مفكري الإسلام الذين تأثروا بالتقسيم الأفلاطوني¹ ، حيث نكر أن النفس ثلاثة أقسام عقلية و قسم غضبي و آخر شهواني يقول : " و اعلم أن النفس منها جزء عقلي فضيلته الحكمة و رذيلته الجهل ، و جزء غضبي فضيلته الحدة و رذيلته الجبن ، و جزء شهواني فضيلته العفة و رذيلته إطلاق الهوى فالصبر عن الرذائل فضيلة للنفس بها يحتمل الإنسان الخير و الشر ، فمن قل صبره فحكّم هواه على عقله فقد صير المتبوع تابعا و المأمود إماما " ² ، و يعيد الكلام شارحا إياه مؤكدا عليه و هذا هو نص مقاله كاملا : " و اعلم أن في الإنسان قوى ثلاثة : قوة ناطقة ، و قوة شهوانية ، و قوة غضبية ، فينبغي لمن شرفه الله - تعالى - بحسب العلم أن يعتني بتكميل النفس الناطقة التي فضله الله - تعالى - بها على سائر الحيوانات و شارك بها الملائكة فيجعلها هي المسطرة على القوتين الأخرين أعني الشهوانية و الغضبية لتكون منزلتها في البدن بمنزلة الراكب للفرس فإن الفارس ينبغي أن يكون هو المسلط على الفرس لاستعلائه فيمضي بها أين شاء و يعقها إذا شاء . فكذلك ينبغي أن تكون القوة الناطقة هي المستعلية على باقي القوى تستعملها كما تحب و تكفها حين تحب و من كان كذلك استحق أن يسمى إنسانا حقيقة قال أفلاطون : الإنسان بالحقيقة من كانت نفسه الناطقة أقوى الأنفس لأن الشهوانية إذا أفرطت خرج الإنسان إلى طبع البهيمية ، و من سيب هواه في مرعاه ، و جعل حبله على غاربه فقد خرج عن مركزه فصار أخس من البهائم ؛ لأن تلك تمضي بطباعها

1 - منهم ابن مسكويه و الغزالي و الأصفهاني وابن حزم وابن تيمية أنظر : الفيلسوف الخلقية في الإسلام : عبد المقصود عبد الغني

مكتبة الزهراء ، القاهرة ، 1407 هـ ، 1986 م ، ص 134 و ما بعدها .

2 - الطب الروحاني : ص 10 .

و هذا قد خالف طبعه . ومتى أفرغت القوة الغضبية خرج الإنسان الى أخلاق السباع و الضواري ، فينبغي أن يروض نفسه بمخالفة الشهوانية ويكسر الغضبية ، و يتبع القسوى الناطقة حتى يتشبه بالملائكة و يتحرر من عبودية الشهوة و الغضب¹ .

و لست أدري لماذا اخذ فلاسفة الإسلام و مفكروه بهذا التقسيم الأفلاطوني رغم أن لديهم في القرآن - الكريد - ما يغنيهم عن ذلك، فقد تحدث بشكل واضح و مميز عن هذا الموضوع لكنني وجدت أن الإمام الغزالي - رحمه الله - قد عاد و أشار الى التقسيم القرآني و أثبتته بقوله عن النفس : اللطيفة التي ذكرناها ، التي هي الإنسان بالحقيقة ، وهي نفس الإنسان و ذاته ، ولكنها توصف باوصاف مختلفة بحسب اختلاف احوالها ، فإذا سكنت تحت الأمر و زابتها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات ، سميت النفس مطمئنة قال الله - تعالى - في مثلها : (يا أيها النفس مطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية)² ... و إذا لم يتم سكونها ، و لكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ، و معترضة عليها ، سميت النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه . قال الله - تعالى - : (و لا أقسم بالنفس اللوامة)³ و ان تركت الاعتراض ، و أذعنت و أطاعت لمقتضى الشهوات و شواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء ، قال الله - تعالى - إخبارا عن يوسف - عليه السلام - أو امرأة العزيز : (و ما أبرأ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء)⁴ .

كما وجدت أن الإمام ابن القيم - رحمه الله - حاول أن يبين نظريته من خلال التوفيق بين ما ذهب إليه العلماء السابقون حتى يزيل ما هنالك من لبس ، و يؤكد على المنهج القرآني في المسألة فقال : " و قد وصف سبحانه النفس في القرآن بثلاث صفات : مطمئنة و الأمارة بالسوء و اللوامة ، فاختلاف الناس : هل النفس واحدة و هذه أوصاف لها ، أم للعبد ثلاث أنفس : نفس مطمئنة ، و نفس لوامة و نفس أمارة ؟ فالأول قول الفقهاء و المتكلمين و جمهور المفسرين و قول محققي الصوفية ، و الثاني : قول كثير من أهل التصوف و التحقيق : أنه لا نزاع بين الفريقين ، فانيا واحدة باعتبار ذاتها ، و ثلاث باعتبار صفاتها فإذا اعتبرت بنفسها فهي واحدة ، و إن اعتبرت كل صفة تون الأخرى فهي متعددة ، و ما

1 - الطب الروحاني : ص 52 .

2 - الفجر : 30 ، 31 .

3 - القهامة : 2 .

4 - اسمه عزم الدين : لأبي حمزة الغزالي : مع 3 : 8 ، والآية من سورة يوسف : 53 .

أظنهم يقولون أن كل لكل أحد ثلاثة أنفس كل نفس قائمة بذاتها مساوية للأخرى في الحد والحقيقة ، وأنه إذا قبض العبد قبضت له ثلاثة أنفس ، كل واحدة مستقلة بنفسها ... فالنفس إذا سكنت إلى الله و اطمانت بذكره و انابت إليه ، و اشتاقت إلى لقائه فهي مطمئنة ... و إذا كانت بضد ذلك فهي أمارة بالسوء ، تأمر صاحبها بما تبواه من شهوات الغنى ، و اتباع الباطل و أما اللوامة فاختلاف في اشتقاق هذه اللفظة هل هي من التلوم و هو التلون و التردد أو هي من اللوم ... و النفس قد تكون نارة أمارة ، و نارة لوامة ، و نارة مطمئنة ، بل في اليوم الواحد و الساعة الواحدة يحصل منها هذا و هذا ، و الحكم للغالب عليها من أحوالها ¹ .

و الملاحظ أن ابن القيم قد ناصر النظرة القرآنية في تقسيم الأنفس دون أن يأخذ بعين الاعتبار ما قاله أفلاطون و أكد كلامه هذا في المسألة الحادية و العشرون من كتابه " الروح " بقوله : " و هي هل النفس واحدة أم ثلاث ؟ فقد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس ، نفس مطمئنة ، و نفس لوامة ، و نفس أمارة ... و التحقيق أنها نفس واحدة و لكن لها صفات فتسمى مطمئنة باعتبار طمانيتها إلى ربها ... و أما النفس اللوامة فاختلاف فيها فقالت طائفة هي التي لا تثبت على حال ... و أما النفس الأمارة هي المذمومة فإنها التي تأمر بكل سوء و هذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله و ثبتها و أعانها ... و قد امتحن الله - سبحانه - الإنسان بهاتين النفسين الأمارة و اللوامة كما أكرمه بالمطمئنة فهي نفس واحدة تكون أمارة ثم لوامة و مطمئنة و هي غاية كمالها و صلاحها " ² .

أما بالنسبة لابن الجوزي - رحمه الله - فعندما تتبعت تفسيره لآيات القرآن ، رأيته قد رجع هو أيضا عما قاله سابقا و أتبع ما جاء في القرآن الكريم بشأن النفس فعند تفسيره لقوله - تعالى - : (و لا أقسم بالنفس اللوامة) ³ ذكر أن في النفس اللوامة ثلاثة أقوال أحدها : أنها مذمومة قاله ابن عباس فعلى هذا هي التي تلوم نفسها حين لا ينفعها اللوم . و الثاني : أنها النفس المؤمنة قاله الحسن ، قال : لا يرى المؤمن إلا يلوم نفسه على كل حال . و الثالث : قال الفراء : أنها جميع النفوس ، فليس من نفس برّة ولا فاجرة إلا و هي تلوم نفسها ، إن كانت عملت خيرا قال : هلا زدت . و إن كانت عملت سوءا قال : ليتني لم أفعل " ⁴ .

1 - إغاثة اللهفان من معاصد الشيطان : لابن قيم الجوزية ، تحقيق محمد حامد الفقي ، دار المعرفة بيروت دت : 1 / 78، 76، 75 .

2 - الروح : لابن قيم الجوزية ، ص 220 ، 225 ، 226 .

3 - القبارة : 2 .

4 - زاد المسير في علم التفسير : 416 / 8 .

وفي تفسيره لقوله - تعالى - : (يا أيها النفس مطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية)¹ قال : " وفي معنى المطمئنة ثلاثة أقوال :
 أحدها : المؤمنة ، قاله ابن عباس ، وقال الزجاج : المطمئنة بالإيمان .
 و الثاني : الراضية بقضاء الله ، قاله مجاهد ، و الثالث : الموقنة بما وعد الله ، قاله قتادة "² .
 و الذي يمكن لنا استخلاصه من هذا الموضوع هو أن اتباع المنهج القرآني هو الأسلم في مثل هذه القضايا ، حتى يتعد الباحث عن الوقوع في التخبط و الخطأ و خاصة أن مجال العقل و التفكير محدود في هذا الميدان .

4 - منهج ابن الجوزي في تربية النفس :

تحدث ابن الجوزي كثيرا عن المنهج الذي يؤدي إلى رياضة النفس و تربيتها و من أهم ما ركز عليه في هذا المنهج طريقة مجاهدة النفس وكيفية إيجاد الأدوات المناسبة لأمراضها حتى يتوصل إلى علاجها ؛ و الذي يكون باصلاحها و تهذيبها .
 و حتى يكون ابن الجوزي عمليا و مسهما فعلا في مجال تربية النفس وجدناه يركز على جملة من القواعد و الخطوات التي رأى أنها تؤثر بشكل فعال في تربيتها و تهذيبها لأن النفس بطبعها - كما رأينا - دائما تميل إلى الهدوء و الدعة و الطمع في الدنيا ، فلا بد أنها في أمس الحاجة إلى الوعظ و التذكير كخطوة أولى ، و إن كان الوعظ غير كاف مع جملة من الخلق و ذلك لتفاوت النفوس في تأثرها بالمواعظ كما أكد ذلك ابن الجوزي بقوله :
 " ثم رأيت الناس يتفاوتون في ذلك ، فالحالة العامة أن القلب لا يكون على صفة واحدة من اليقظة عند سماع الموعظة و بعدها "³ .

و يوضح ابن الجوزي الغاية من تربية النفس و رياضتها و هي بلوغ مرتبة الكمال و إن كان هذا الكمال نسبي فطلبه ليس محالا عند ابن الجوزي ، فلا بد أن يجمع الإنسان بين كمال الخلق و الخلق أي بين الكمال في الظاهر و في الباطن فلا يترك فضيلة إلا و نال حظها منها و لا يرضى بدنو الهمة فنلك قناعة جبن لا قناعة زهد ، قال في بيان منهجه : " من أعمل فكره الصافي دلّه على طلب أشرف المقامات ، و نهاه عن الرضى بالنقص في كل حال و قد قال أبو الطيب المتنبي :

1 - المعجم : 30 ، 31 .

2 - زاد المسير في علم التفسير : 8 / 248 .

3 - سيد الخاطر : ص 11 .

و لم أر في عيوب الناس عيباً كدقصر القادرين على التمام
 فينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه ، فلو كان ينصوّر للأدنى صعود السماوات
 لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض ... و السيرة الجميلة عند الحكماء خروج النفس
 إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم و العمل ، و في الجملة لا يترك فضيلة يمكن تحصيلها
 إلا حصلها فإن القنوع حالة الأراذل ، و لو أمكنك عبور كل أحد من العلماء و الزهاد فللفعل
 فإنهم كانوا رجالاً و أنت رجل . و ما قعد من قعد إلا لشناعة الهمة و خساستها .
 واعلم أنك في ميدان سباق و الأوقات تنتهب ، و لا تخلد إلى كسل ، فما فات ما فات
 إلا بالكسل و لا نال من نال إلا بالجدّ و العزم ، و إن الهمة لتغلي في القلوب غليان ما في
 القدر ¹ و يمكننا أن نجمل هذه الخطوات في العناصر التالية :

١ - معرفة عيوب النفس :

و أول خطوات هذا المنهج هو معرفة عيوب النفس ، إذ لا يمكن التمسك من تربية
 النفس دون معرفة عيوبها ، و لا يستطيع المرء معرفة عيوب نفسه لأنه يحبها و حبه إياها
 يحجب عنه معرفة عيوبها ، و الناس في التعامل مع النفس على نوعين كما يقول ابن الجوزي
 منهم من يقوى نظره و جهاده للنفس فينزّلها منزلة العدو في المخالفة فيظهر له عيوبها و منهم
 من تخفي عليه عيوب نفسه ، و قد لا يراها عيوباً من أجل ذلك رأى ابن الجوزي أنه يمكن
 التعرف على عيوب النفس بسبع طرق و هي ² :

الطريق الأول : أن يتخيّر صديقاً من أعقل مخالطيه ، و يسأله إبانة ما يرى من قبيحة
 و يعرفه أن ذلك منة منه عليه ، فإذا أخبره ابتهج بما سمع منه و لم يظهر له الحزن على
 ذلك لتلا يقصّر في شرح الأمور و يقول له : متى كنتني شيئاً عدتلك غاشاً .

الطريق الثاني : أن يبحث عما يقوله فيه جيرانه و إخوانه و معاملوه و بماذا يمدحونه
 أو يذمونه .

١ - مبد الخاطر : ص 150 ، 160 ، 161 .

٢ - و هذه الطرق التي ذكرها ابن الجوزي هي نفسها التي ذكرها الرازي في كتابه الطب الروحاني ، فابن الجوزي بلا شك متأثر
 به و قد نقلها عنه ، كما أن معسر كتاب الرازي نكرد من 20 فصلاً تحدث فيه عن العمل و ذم الهوى ، تعرّف الرجل على
 عيوب نفسه ، و الحسب ، دفع العصب ، أضراح الكذب ، ذم البخل ، دفع الكبر و المم و الغم ، و هم نفس ما تضمنه كتاب ابن
 الجوزي ، انظر الطب الروحاني للإمام البرقي : ص 116 و فقام له سيسان سليم ابواب ، دار الحكمة بيروت ، دمشق سنة 1986م
 كما أن الإمام العراقي قد أشار إلى أربعة طرق منها النظر لإحياء علوم الدين : المغربي ، ص 3 ، 8 / 116 .

الطريق الثالث : أن ينتطاع الى ما يقول فيه الأعداء فإن العدو بحاث عن العيوب عن عيوب خصمه ، وقد ينتفع الإنسان من عدوه أكثر من انتفاعه من صديقه ، لأن العدو يذكر للنقص و الصديق يستر الخلل ، فإذا عرف الإنسان من طريق عدوه نقصه اجتنبه .

الطريق الرابع : أن يصور الإنسان أفعاله في غيره ، فيأخذ منها الحسن و يترك القبيح .

الطريق الخامس : أن يعمل فكره في عاقبة صفاته و ثمرات أفعاله ، فيدرك العيب عيبا و الحسن حسنا لأن الفكر الصادق نافذ .

الطريق السادس : أن يعرض اعماله على موازين الشرع ، و يريها نافذ العقل و ميزان العدل ، فيعرف الخطأ من الصواب لا محالة .

الطريق السابع : أن ينظر في سير السلف الصالحين ثم يقيس أفعاله بأفعالهم ، ليرى نقصه جانب كمالهم فيجتنبه¹ .

— العزلة و البعد عن الخلق :

يعتبر اعتزال الخلق من أهم خطوات منهج ابن الجوزي في تربية النفس ، و ذلك نظرا لكون العزلة من الوسائل التي تساعد الإنسان على الخلو بنفسه و اراحته بعدم تتبع عورات الناس و عيوبهم ، فيصفو فكره فلا يشتغل إلا بخالقه .

و المراد — طبعا — بالعزلة التي يقصدها ابن الجوزي ، عزلة من ينفعه اعتزال الناس كالعالم و الزاهد و المراد بالعزلة ؛ العزلة التي تحفظ القلب من التشتت و تحفظ النفس من تضييع الأوقات في الغيبة ، فيجتمع هم الإنسان و يقوى نازع الإرادة فيه يقول ابن الجوزي مشيدا بالعزلة : " فيا للعزلة ما أذها ، سلمت من كدر غيبة ، و آفات تصنع و أحوال المداجاة ، و تضييع الوقت ، ثم خلا فيها القلب بالفكر ، بعد ما كان مشغولا عنه بالمخالطة ... فلو لم يكن في العزلة إلا التفكير في زاد الرحيل و السلامة من شر المخالطة كفى ثم لا عزلة على الحقيقة إلا للعالم و الزاهد ، فإنهما يعلمان مقصود العزلة و يحسنان الإفادة منها ... إنما اعتزلا ما يؤذي ، فهما في الوحدة بين جماعة فهذان رجلان قد سلما من شر الخلق و سلم الخلق من شرورهما ، بل هما قدوة للمتعبدين و علم للسالكين ، ينتفع بكلامهما السامع و تجري موعظتهما المدامع و تنتشر هيبتهما في المجامع "² .

و يحدثنا ابن الجوزي عن تجربته في ميدان العزلة و ما عادت به من فوائد عليه

¹ - الطب الروحاني : ص 48 ، 49 .

² - صيد الخاطر : ص 263 .

فيقول شارحا حاله : و قد جربت على نفسي مرارا أن أحصرها في بيت العزلة فتجتمع هي و يضاف إلى ذلك النظر في سير الساف ، فإلى العزلة حمية ، والنظر في سير القوم دواء و استعمال الدواء مع الحمية عن التخليط نافع ، فإذا فسحت انفسى في مجالسة الناس و لقائهم تشتت القلب المجتمع . و وقع الذموم عما كنت أراعيه ، و انتقش في القلب ما قدرته العين ، و في الضمير ما سمعه الأذن ، و في النفس ما تطمع في تحصيله من الدنيا "

وابن الجوزي يوصي كثيرا بالعزلة و يباليغ فيها أحيانا حتى يرى أنها من أنفع الأدوية في معالجة النفس و تقويمها عن اعوجاجها ؛ كما أنها وسيلة لصفاء هذه النفس في زهدها و تعبدها و لإمجال عنده لتضييع الأوقات في الأسواق و البيع و الشراء لمن لا يشتغل به يقول في ذلك : " لا يصفو التعبد و التزهد و الاشتغال بالأخرة إلا بالانقطاع الكلي عن الخلق ، بحيث لا يبصرهم و لا يسمع كلامهم إلا في وقت ضرورة كصلاة جمعة أو جماعة و يحترز في تلك الساعات منهم ، و أما من يمشي في الأسواق اليوم و يبيع و يشتري مع هذا العالم المظلم ، و يرى المنكرات و المستهجنات فما يعود إلى البيت إلا و قد أظلم القلب ، فلا ينبغي للمريد أن يكون خروجه إلا إلى الصحراء و المقابر " ² .

و فوائد العزلة بالنسبة للعالم و الداعية كثيرة و متعددة عند ابن الجوزي لذلك فهو يكرر دائما التأكيد عليها و يقنم الكثير من الحجج والمبررات اللازمة على ما ذهب إليه و من جملة ما قاله في هذا الشأن : " ما أعرف للعالم قط لذة و لا عزا و لا شرفا و لا راحة و لا سلامة أفضل من العزلة . فإنه ينال بها سلامة بدنه و دينه و جاهه عند الله - عز و جل - و عند الخلق ، لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم ، و لا يعظم عندهم قدر المخالط لهم ، و لهذا عظم قدر الخلفاء لاحتجابهم ، و إذا رأى العوام أحد العلماء مترخصا في أمر مباح هان عندهم .. فمراعاة الناس لا ينبغي أن تنكر... و بيان هذا أنه لو خرج العالم إلى الناس مكشوف الرأس أو في يده كسرة يأكلها قلّ عندهم و إن كان مباحا فيصير بمثابة تخليط الطبيب الأمر بالحمية ، فلا ينبغي للعالم أن ينسبط عند العوام حفظا لهم ، و متى أراد مباحا فليستتر به عنهم ... فإن الإنسان يخلو في بيته عريانا فإذا خرج إلى الناس لبس ثوبين و عمامة و رداء ، و مثل هذا لا يكون تصنعا و لا ينسب

1 - صيد الخاطر : ص 353 .

2 - المصدر السابق : ص 398 .

إلى كبر ... فإن أردت اللذة و الراحة فعليك أيها العالم بقعر بينك ، و ليكن لك مكان في بيتك تخلو فيه و تحدث سطور كتبك و تجري في حلقات فكرك ، و احترس من لقاء الخلق و خصوصا العوام " ¹ .

و يؤكد ابن الجوزي أن كل ما يجده المؤمن في قلبه من ظلمة؛سببها الرئيسي كثرة المخالطة للناس - و خاصة من لا يصلح منهم - و ما يدخل عليه من آفات لا حصر لها بسبب لقائهم فتكون النهاية سينة و النتائج وخيمة و قد صورها بدقة بالغة عندما قال : " ما رأيت أكثر أذى للمؤمن من مخالطة من لا يصلح ، فإن الطبع يسرق . فإن لم ينتشبه بهم و لم يسرق منهم فتر عن عمله ... و كذلك رؤية أرباب الدنيا و دورهم و أحوالهم خصوصا لمن له نفس تطلب الرفعة . و كذا سماع الأغاني و مخالطة الصوفية الذين لا نظر لهم اليوم إلا في الرزق الحاصل ... و ينبغي للمنفرد لطاعة الله - تعالى - عن الخلق أن لا يخرج إلى سوق جهده ، فإن خرج ضرورة غض بصره ، و أن لا يزور صاحب منصب و لا يلقاه ، فإن اضطر دارى الأمر و لا يخالط عاميا إلا لضرورة مع التحرز ... و ليجعل خلوته أنيسه ، و النظر في سير السلف جليسه ، و ليكن له وظيفة من زيارة قبور الصالحين و الخلوة بها ، و لا ينبغي أن يفوته ورد قيام الليل " ² .

و رغم تأكيد ابن الجوزي على العزلة إلا أنه لا ينسى الطرق الأخرى التي يتوصل بها إلى تربية النفس و التي لا تكون إلا عن طريق العزلة ؛ كالابتعاد عن المباح أمام العوام و مطالعة سير السلف و قيام الليل و زيارة المقابر لأنها تذكر بالموت و البلى ، إلى غير ذلك مما ذكره ابن الجوزي في هذا المقام .

د - تطهير الجوارح :

تعتبر أعمال الجوارح أكثر ما يعبر عن صلاح النفس و فسادها لذلك راح ابن الجوزي يؤكد مرارا على ضرورة تطهيرها و تصفيتها وسأركز على جارحتين ركّز عليهما ابن الجوزي نفسه أولهما : القلب و ثانيهما : العين .

و قد تحدث ابن الجوزي عن القلب في العديد من كتبه ، بصفته أهم جارحة في الإنسان لذلك فلا مصيبة عنده أعظم من فقدان القلب،فبفقدانه تعطل النفس و يببس عودها كما يببس غصن الشجرة إذا حرم من السقي ، فلا تنفعها بعد ذلك المواعظ و من جملة ما قاله :

¹ - صيد الخاطر : ص 232 ، 233 .

² - المصدر السابق : ص 411 ، 412 .

" يا هذا ما أعظم المصيبة على من فقد قلبا واعيا ، و ما أسرع العقوبة إلى من عدم طرفا باكيا ... استحوذ على نفوسنا الطمع فأهلكها ، و نحن عما يراد بنا غافلون ، و بخلاف ما قد علمناه عاملون ، فلا الواعظ يشفي منا عيلا ، و لا الإنذار يجد إلى قلوبنا سبيلا و قد علمنا أن وراعتنا يوما ثقيلا " ¹ ، كما بين - رحمه الله - الأحوال التي تعترى القلب و مدى تأثيره على الجوارح فقال : " يا أخي الخشبة اليابسة إذا دخل طرفها الواحد في النار عرق طرفها الآخر ، و كذلك القلب فيه حرقة و ندامة الذنوب التي حصلت في الكتلب المكتوب الموضوع جادت العينان بواكف الدموع و لانت الجوارح بالخضوع و القلب بالإنابة و الخشوع " ² .

و مما قاله أيضا عن التأثير السلبي للجوارح في القلب : " اعلم أن القلب في أصل الوضع سليم من كل آفة و الحواس الخمس توصل إليه الأخبار ، فترقم في صفحته ، فينبغي أن يستوثق من سد الطرق التي يخشى عليه منها الفتن ، فإنه إذا اشتغل بشيء منها أعرض عما خلق له من التعظيم للخالق و الفكر في المصالح " ³ ، و هكذا فالقلوب كما تتأثر بالطاعة تؤثر فيها المعصية فتصاب بالقسوة و الصدا و قد شرح ابن الجوزي هذه القسوة عند تفسيره لقوله - تعالى - : (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) ⁴ فقال : " فإن قيل كيف يقسو القلب من ذكر الله - عز و جل - ؟ فالجواب : أنه كلما تلى عليهم ذكر الله الذي يكذبون به قست قلوبهم عن الإيمان به ... و إنما قست القلوب من ذكر الله لأنهم جعلوه كذبا فأقسى قلوبهم ، و من قال : قست قلوبهم عنه أراد أعرضت " ⁵ .

و حتى يزيد الأمر توضيحا يسوق ابن الجوزي أمثلة من تجربته الشخصية مع القلب ما جرّه عليه من متاعب فقال : " نازعتني نفسي إلى أمر مكروه في الشرع ، و جعلت تنصب لي التأويلات و تدفع الكراهة ، و كانت تأويلاتها فاسدة ، و الحجة ظاهرة على الكراهة .

فلجأت إلى الله - تعالى - في دفع ذلك عن قلبي ، و أقبلت على القراءة و كان درسي قد

¹ - المواعظ و المجالس : 196 .

² - بستان الواعظين : ص 145 .

³ - ذم الهوى : ص 56 .

⁴ - الزمر : 22 .

⁵ - زاد المسير في علم التفسير : 7 / 174 .

بلغ إلى سورة يوسف فافتحتها ، و ذلك الخاطر قد شغل قلبي حتى لا أدري ما أقرأ ، فلما بلغت إلى قوله - تعالى - : (قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثوأي)¹ انتبهت لها و كأنني خوطبت بها ، فأفقت من تلك السكره ، فقلت : يا نفس افهمت ؟ .. فكيف بك و أنت عبد على الحقيقة لمولى ما زال يحسن إليك من ساعة وجودك ، و إن ستره عليك الزلل أكثر من عدد الحصى . أفما تذكرين كيف رباك و علمك و رزقك و دافع عنك ، و ساق الخير إليك و هداك أقوم طريق ، و نجاك من كل كيد .

و هكذا يسرد لنا ابن الجوزي ما جرى له مع نفسه التي أوقعت قلبه في ظلمة المعصية و كثرت عليه صفو عيشه و كيف استطاع الخلاص من شرورها بلجونه إلى الله - سبحانه و تعالى - .

و في قصة أخرى له عن نفسه يقول : " امكنتي تحصيل شيء من الدنيا بنوع من أنواع الرخص ، فكنت كلما حصل شيء منه فاتني من قلبي شيء ، و كلما استنارت لي طريق التحصيل تجدد في قلبي ظلمة . فقلت : يا نفس السوء الإثم حواز القلوب ، و قد قال : استفت قلبك فلا خير في الدنيا كلها إذا كان في القلب من تحصيلها شيء أوجب كدر و مازلت أغلب نفسي تارة و تغلبني أخرى ، ثم تدعى الحاجة إلى تحصيل ما لا بد لها منه ... فقلت لها : أو ليس الورع يمنع من هذا ؟ قالت : بلى ، قلت : أليست القسوة في القلب تحصل به ؟ قالت : بلى ، قلت : فلا خير لك في شيء هذا ثمرته ..."³ و يستمر الحديث طويلاً شيئاً بين ابن الجوزي و نفسه فهي تسأل على لسانه و هو يجيبها حتى يردها عن رعونتها و غفلتها .

و يحدث لابن الجوزي مع نفسه الكثير من الجدل و المناظرة و ذلك مما يدل على صفاء النفس و استعدادها للتربية و الإصلاح بتقبلها لما يرشدها إليه فقال في حوار له معها : " تراعت علي نفسي في طلبها شيئاً من أغراضها بتأويل فاسد ، فقلت لها : بسانه عليك نصبري فإن في المعبر شغلاً يحذر الغرق من كثرة الموج عن التنزه في عجائب البحر إذا هممت بفعل فقدري حصوله ثم تلمحي عواقبه و ما تجتنين من ثمراته ، فأقل ذلك الندم على ما فعلت ، و لا يؤمن غضب الحق - عز و جل - و إعراضه عنك فأف للقاطع عنه

1 - يوسف : 23 .

2 - صيد الخاطر : ص 201 ، 202 .

3 - المصدر السابق : ص 148 ، 149 .

و لو كان الجنة .. قالت النفس لقد أمرتني بالصبر على العذاب ، لان ترك الأغراض عذاب قلت : لك عن الغرض عوض ، و من كل متروك بدل . و أنت في مقام مستعبد و لا يصح للأجير أن يلبس ثياب الراحة في زمان الاستئجار و كل زمان المتقي نهار صوم " ¹ .

و هكذا تبقى الذنوب و المعاصي و الترخص في الشبهات من أهم العوامل التي تكدر صفاء القلب و تقسيه و هاهو ابن الجوزي يسوق لنا في هذه الحادثة موقفا اخر له مع نفسه ليؤكد لنا ما يتركه التأويل الفاسد من أثر سيى على القلب و لو كان ذلك مع المباحات فيقول : " ترخصت في شيء يجوز في بعض المذاهب ، فوجدت في قلبي قسوة عظيمة و تخايل لي نوع طرد عن الباب ، و بعد و ظلمة تكاثفت ، فقالت نفسي : ما هذا ؟ أليس ما خرجت عن إجماع الفقهاء ؟ فقلت لها : يا نفس السوء جوابك من وجهين :

أحدهما : أنك تأولت ما لا تعتقدين ، فلو استفتيت لم تفت بما فعلت . قالت : لو لم أعتقد جواز ذلك ما فعلته . قلت : إلا أن اعتقادك ما ترصينه لغيرك في الفتوى .

و الثاني : أنه ينبغي لك الفرح بما وجدت من الظلمة عقيب ذلك ، لأنه لولا نور في قلبك ما أثر مثل هذا عندك ، قالت : فلقد استوحشت بهذه الظلمة المتجددة في القلب . قلت : فاعزمي على الترك ، و قدري ما تركت جائزا بالإجماع و عدي هجره ورعا ، و قد سلمت " ² .

كما حذر ابن الجوزي من إطلاق البصر بالنظر في محارم الله و رأى بأن هذا من أعظم الوسائل و أخطرها التي تساعد على انطماس القلب و قسوته ، بل هي من أكبر العقوبات التي لا يحس الإنسان بها ، فقال : " و من أعظم العقوبة أن لا يحس الإنسان بها و أن تكون في سلب الدين و طمس القلوب و سوء الاختيار للنفس ، فيكون من أثارها سلامة البدن و بلوغ الأغراض ، قال بعض المعتبرين : أطلقت نظري فيما لا يحل لي ، ثم كنت أنظر العقوبة ، فألجئت إلى سفر طويل لانية لي فيه ، فلقيت المشاق ، ثم أعقب ذلك موت أعز الخلق عندي و ذهب أشياء كان لها وقع عظيم عندي ، ثم تلافيت أمري بالتوبة فصلح حالي ثم عاد الهوى فحملني على إطلاق بصري مرة أخرى ، فطمس قلبي و عدمت رفته و استلب مني ما هو أكثر من فقد الأول ، و وقع لي نعويض عن المفقود بما كان فقده أصلح ... فيها أنا أنادي من على الساحل : إخواني احذروا لجة هذا البحر ، ولا تغتروا

1 - صيد الخاطر : ص 186 ، 187 و انظر كذلك ، صفحات 197 ، 218 ، 237 ، 282 ، 320 ، 330 ، 333 .

2 - المصدر السابق : ص 216 ، 217 .

بسكونه و عليكم بالساحل و لازموا حصن التقوى فالعقوبة مرة ، و بالله لو نمتم على المزابيل مع الكلاب في طلب رضى المبلى كان قليلا في نيل رضاه ¹ .

و في مرحلة أخرى متقدمة في باب تربية النفس و تهذيبها يرى ابن الجوزي أنه لا تتم التربية المرجوة و المرغوب فيها للإنسان إلا بكف جل جوارحه عن المحرمات ، و هذا الصنف فقط هو الذي نال إعجاب ابن الجوزي فأشاد به قائلا : " سه در أقوام بادروا الأوقات و استدركوا الهفوات ، شغلوا العيون بالذموع عن النظر إلى المحرمات ، و سجنوا الألسن في سجن الصمت عن موارد الهفوات ، و كفوا الأكف عن تناول الشهوات ، و قيدوا الأقدام عن السعي إلا إلى الطاعات ، إن غشيهم الليل ضجوا بالأصوات في الخلوات ، و إن أقبل النهار قطعوه بمقاطعة الذات أفيطمع في لحاقهم من عري عن هذه الصفات (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين أمنوا و عملوا الصالحات) ² .

و تأسيسا على ما سبق مما قاله ابن الجوزي في هذا المجال فإن القلب غالبا ما يفسد إذا لم يستعمل فيما خلق من أجله من سلامة الفكر ، و السعي لجلب ما يصلح آخرة الإنسان و يسعى في إبعاد صاحبه عن المفسد حتى يقبل على الطاعات ، و العاقل في نظر ابن الجوزي هو من يسعى دائما إلى تصفية قلبه ، و ترقيقه و إصلاحه و تنظيفه مما يعلوه من ران و صداً و يكون ذلك ممكنا بتلاوة القرآن و ذكر الله و عيادة المرضى و تشييع الجنائز ، و الاستعداد للموت و الخروج للمقابر ، و الصيام و القيام ، و تقليل الطعام و التضرع لله في الأسفار و مجالسة الأخيار ³ .

٤ - الحزم في مجاهدة النفس :

وتعتبر المجاهدة من الطرق التي حث عليها ابن الجوزي في تربية النفس و وضع لها منهجا منظما ، و تهذيبها يبدأ من التفكير ثم لوم النفس على ميلها لهواها ثم الذهاب إلى المقابر ؛ ليكون ذلك علاجا لهواها ؛ فإن لم يجد هذا الدواء نفعا لزمها ممارسة الجوع بكثرة الصوم و العزلة عن الخلق لتتحقق المجاهدة ؛ لأن في الاختلاط آفة لكثير من النفوس يقول ابن الجوزي : " يا هذا اخل بنفسك في بيت الفكر ، و اعذلها في الهوى ، فإن لم تلتن فأخرج بها إلى عسكر المقابر ، فإن لم ترعوي فاضربها بسوط الجوع و احبسها في سجن

١ - صيد الخاطر : ص 180 .

٢ - المواعظ و المجالس : ص 197 ، و الآية من سورة الخايمه : 21 .

٣ - ذم الهوى : ص 62 ، 63 .

العزلة ، فالمخالطة نهاية " 1 .

و العاقل في نظر ابن الجوزي هو الذي لا يتوانى مع نفسه، بل يأخذها بالعزيمة القوية ويكون حازما معها ؛ لأن النفس من طبيعتها الدعة و الخمول و الميل إلى الشهوات و التبرم من الطاعات ، فلا علاج لها إلا بشدة العزم و قوة الحزم فذاك هو الدواء الأنفع لها قال ابن الجوزي بوضح هذا الأمر : " يا مقهورا بغلبة النفس ، صل عليها بسوط العزيمة فإنها إن عرفت جدك استأسرت لك و امنعها ملذوذ مباحها ليقع الاصطلاح على ترك الحرام فإذا صبرت على ترك المباح (فإنما منا بعد و إما فداء) 2 ، إن مالت إلى الشهوات فألجمها بلجام التقوى ، و إن أعرضت عن الطاعات فسقها بسوط المجاهدة ، و إن استحلقت شراب التواني و استحسننت ثوب البطالة فصح عليها بصوت العزم ... فإن رمقت نفسها بعين العجب فذكرها خسارة الأصل فإنك و الله ما لم تجد مرارة الدواء في حلقك ، لم تقدر على ذرة من العافية في بدنك " 3 .

إن فلا بد من تقوية العزيمة مع النفس ، و أما إذا لم يعاملها صاحبها بالعزم استصغرت و طمعت فيه و قد أترك ذلك ابن الجوزي جيدا عندما قال : " و اعلم أنه إذا علمت منك النفس الجد جدت و إذا عرفت منك التكاسل طمعت فيك " 4 .

و بطبيعة تجربته العميقة في ميدان النفس عرف - رحمه الله - أنها لا تثبت على حال و أنها دائما تطلب المزيد و بعد أن فكر مليا في المسألة قال : " فتفكرت فعلمت أن النفس لا تقف عند حد بل تروم من اللذات ما لا منتهى له ، و كلما حصل لها عرض برد عندها و طلبت سواه ، فيفنى العمر و يضعف البدن و يقع النقص " 5 .

و في جميع الأحوال فإن الحزم مطلب ضروري في تربية النفس ، لأنه لولا الحزم لما أقدم الإنسان على فعل الطاعات و لا على ترك المنكرات لأن طريق الجنة محفوف بالمكاره و طريق النار محفوف بالشهوات و صاحب الحزم فقط هو الذي يستطيع التغلب على هذه العقبات فيجد نفسه بسوط الطاعة ليبعدها عن جب الهوى ، من أجل ذلك قال ابن الجوزي : " و إنما الحازم من تعلم منه نفسه الجد و حفظ الأصول ، فإذا فسح لها في

1 - المراءظ و المجالس : ص 144 .

2 - محمد : 4 .

3 - اللطائف : ص 46 .

4 - الطب الروحاني : ص 53 .

5 - صيد الخاطر : ص 320 .

مباح لم تتجاسر أن نتعداه . فيكون معها كالمملك إذا مازح بعض جنده ، فإنه لا ينبسط إليه الغلام ، فإن انبسط ذكر هيبة المملكة . فذلك المحقق يعطيها حظها و يستوفي منها ما عليها " ¹ .

ولابن الجوزي منهج معتدل في تربية النفس عن طريق المجاهدة و هذا المنهج يقوم في أساسه على الوسطية و الاعتدال و قد شرحه شرحا وافيا ، راداه على العلماء و الزهاد الذين لم يفهموا المجاهدة بمعناها الصحيح - حسب رأيه - و ملخص ما جاء فيه قوله : " تأملت جهاد النفس فرأيت أنه اعظم جهاد . و رأيت خلقا من العلماء و الزهاد لا يفهمون معناه لأن فيهم من منعها حظوظها على الإطلاق . و ذلك غلط من وجهين : أحدهما : أنه رب مانع لها شهوة أعطاها بالمنع أوفى منها ، مثل أن يمنعها مباحا فيشتهر بمنعها إياها ، فترضى النفس بالمنع لأنها قد استبدلت به المدح .

و الوجه الثاني : أننا قد كلفنا حفظها ، و من أسباب حفظها ميلها إلى الأشياء التي تقيمها فلا بد من إعطائها ما يقيمها ، و أكثر ذلك أو كله مما تشتهي . و نحن كالوكلاء في حفظها لأنها ليست لنا بل هي وديعة عندنا ، فمنعها حقوقها على الإطلاق خطر " ² .

و بعد أن أحس ابن الجوزي بأنه أقام الحجة على من يضيقون على النفس بالمجاهدة من أجل تربيته راح يبين منهجه في ذلك مبدئا خبرته و تجربته في هذا المجال ، بقوله : " ثم رب شدة أوجب استرخاء ، و رب مضيق على نفسه فرت منه فصعب عليه تلافئها . و إنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل ، يحملها على مكروهاها في تناول ما ترجو به العافية و يذوب في المرارة قليلا من الحلاوة و يتناول من الأغذية مقدار ما يصفه الطبيب . و لا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعم ربما جرّ جوعا ، و من لقمة ربما حرمت لقمات .

فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها ، و لا يهمل مقودها بل يرخي لها في وقت و الطول بيده ، فما دامت على الجادة لم يضايقها في التضيق عليها ، فإن رآها قد مللت ردها باللفظ فإن ونت و أبت ، و إلا فبالعنف ، و يحبسها في مقام المداراة ، كالزوجة التي مبنى عقلها على الضعف و القلة ، فهي تدارى عند نشوزها بالوعظ ، فإن لم تصلح فبالهجر فإن لم تستقم فبالضرب ، وليس في سياط التأديب أجود من سوط عزم .

¹ - صيد الخاطر : ص 141 .

² - المصدر السابق : 66 ، 67 .

هذه مجاهدة من حيث العمل . فأما من حيث وعظها وتأديبها ، فينبغي لمن رآها تسكن للخلق وتعرض بالدناءة من الأخلاق أن يعرفها تعظيم خالقها لها فيقول : ألسنت التي قال فيك : خلقتك بيدي ، وأسجدت لك ملائكتي . وارتضاك للخلافة في أرضه . وراسلك واقترض منك واشترى .

فإن رآها تتكبر قال لها : هل أنت إلا قطرة من ماء مهين تقتلك شرقة وتولمك بقعة ؟ وإن رأى تقصيرها عرفها حق الموالى على العبيد ، وإن ونت في العمل ، حدثها بجزيل الأجر وإن مالت إلى الهوى . خوفها عظيم الوزر ، ثم يحذر لها عاجل العقوبة الحسية كقوله تعالى : (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم)¹ والمعنوية كقوله تعالى : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير حق)² فهذا جهاد بالقول ، وذلك جهاد بالفعل³ .

و بناء على هذا يمكن أن نستنتج أن مجاهدة النفس عند ابن الجوزي لا يعني حرمانها أو القسوة عليها كما نظر إلى ذلك بعض العلماء و الزهاد⁴ ، فإن الجوزي استنكر عليهم هذا المنهج موضحاً أن جهاد النفس ليس بالضرورة منع النفس من كل الحظوظ ، و هذا في رأي هو المنهج السليم و هو الذي عليه جمهور العلماء⁵ .

5 - مخالفة الهوى :

متابعة الهوى و مخالفته من أهم الموضوعات التي تطرق لها ابن الجوزي و صنف في ذلك كتابه القيم " ذم الهوى " و اعتبر أن مخالفته من أهم الخطوات في تربية النفس عنده ، و ذلك لأن في مخالفته استراحة للنفس " فينبغي للعاقل أن يعلم أن مقاساة الشدة في خلاف الهوى أسهل مما يلقي في موافقته . و أقل ما يلقي موافقته الهوى أنهم يصبرون إلى حالة لا يلتذون به فيها ثم لا يصبرون عنه . لأنه يصير بالإدمان عادة . كمدمني الجماع و شراب الخمر . " ⁷ و يصبح بذلك صادق الهوى مغلوباً و تابعاً ذليلاً لهواه ، يذمه الشرع

1 - الأتعام : 40 .

2 - الأعراف : 40 .

3 - صيد الخاطر : ص 67 ، 68 .

4 - انظر تاذج للذين شككوا على تقاسمهم في الجماعة : سنة الصغرة الأجزاء 1 ، 2 ، في الكثير من الصفحات .

5 - انظر إحياء علوم الدين : لأبي حامد الغزالي ، مج 3 ، 8 / 135 و 1 ، بعدها . إغاثة اللهبان : ابن القيم ، 1 / 81 و ما بعدها . الروح : لابن القيم ، ص 225 .

6 - انظر محنوى الكتاب في فصل مؤلفات ابن الجوزي ، و بالإضافة إلى ذلك فقد عقد له فصلاً كاملاً في كتابه الطب الروحاني .

7 - الطب الروحاني : ص 10 .

و يبغضه الناس قال ابن الجوزي يشرح المسألة : إعلم أن المغلوب بموافقة الهوى و النفس مقهور ، و لذلك تجد في نفسه - لا مكان الفهم و غالب الهوى - و صولة ، و لذلك وقع عظيم في الشرع و عند الخلق ، أما في الشرع فإن فطر الهوى يوجب المباهاة ، و أما عند الخلق فإنهم يعجبون من الزاهد و يذلون له و يتبركون به لأنه قوي على حمل ما ضعفوا عنه و هجر ما لا يستطيعون هجره .¹

و مخالفته الهوى مطلب ضروري إذا أراد الإنسان ترويض نفسه حتى تقف على حدود الله - عز و جل - و المؤمن الحق هو من خالف نفسه و هواها و ابن الجوزي صادق عندما ضرب لنا مثلا بأهل الحزم وكيف كانوا يعمدون أنفسهم على مخالفة هواها و لو كان مباحا كل ذلك حتى يمتثلوا على ترك الهوى مطلقا ، لأن من أرك الأرباح في المعاملة و جب عليه ترك المباح ، و يبدو هذا الأمر صحيحا و مقبولا في كثير من الأحيان ، و ما فعل الإنسان ذلك إلا و تحرر من عبودية الشهوة و تشبه بالملائكة الكرام البررة³ .

و حتى يزيد ابن الجوزي ترسيخ فضيلة مخالفة الهوى بطريقة تربوية ناجحة يضرب لنا مثلا آخر و هو صبر يوسف - عليه السلام - على مخالفة هواه و ما ناله بعد ذلك من عز و منعة فيقول : " قرأت سورة يوسف - عليه السلام - ، فتعجبت من مدحه على صبره و شرح قصته للناس و رفع قدره بترك ما ترك . فتأملت خبيثة الأمر فإذا هي مخالفة للهوى المكروه"⁴ .

و ابن الجوزي لا يترك هذا الموضوع الخطير يمر دون أن يشارك مع غيره من علماء الإسلام⁵ في وضع علاج عملي فعال في نظره و هو عبارة عن خطوات مهمة يقوم بها الإنسان حتى يتخلص من هواه ؛ و الذي يهون بسبعة أشياء نذكرها في هذا المقام مختصرة لأهميتها و مدى فاعليتها وهي :

1 - التفكير في أن الإنسان لم يخلق للهوى .

1 - دم الفرى : ص 48 ، 10 .

2 - المصدر السابق : ص 10 .

3 - الطب الروحاني : ص 52 .

4 - صيد الخاطر : ص 215 .

5 - انظر في ذلك ما كتبه الغزالي في كتابه معارج القاس في معارج معرفة النفس ، مطبعة السعادة ، القاهرة سنة 1340، ص 17

و كذلك تهذيب الأخلاق لابن مسكويه : نفس و عين محمود إبراهيم : ص 1 .

- 2 - أن يفكر في عواقب الهوى .
- 3 - أن يتصور العاقل انقضاء غرضه من هواه .
- 4 - أن يتصور ذلك في حق غيره . ثم يتلمح عاقبته بفكره فإنه سيرى ما يعلم به عيبه إذا وقف في ذلك المقام .
- 5 - أن يتفكر فيما يطالبه من اللذات ، فإنه .. يخبره العقل أنه ليس بشيء و إنما عين الهوى عمياء .
- 6 - أن يتدبر عن الغلبة و ذل القهر فإنه ما من أحد غلب هواه إلا أحس بقوة عز ، و ما من أحد غلبه هواه إلا وجد في نفسه ذل القهار .
- 7 - أن يتفكر في فائدة المخالفة للهوى ، من اكتساب الذكر الجميل في الدنيا و سلامة النفس و العرض و الأجر في الآخرة¹ .
- و في آخر المطاف يخبر ابن الجوزي من عاقبة اتباع الهوى لأنه قد يخرج بصاحبه " من دار العقل إلى دائرة الجنون"² و ما فعله فرعون من عدم اتباع موسى إلا بسبب اتباع الهوى و كذلك ما كان من عناد صنديد كفار قريش و عدم إيمانهم بالنبي - صلى الله عليه و سلم - إلا بسبب اتباع الهوى و قد نالهم ما نالهم من الهوى بسبب كفرهم و اتباعهم الهوى .

6 - التدرج و التلطف مع النفس :

التدرج مع النفس و أخذها بالرفق و اللين من الخطوات الناجعة في تربيتها عند ابن الجوزي و يشرح ذلك بقوله : و اعلم ان الرياضة النفس تكون بالتلطف و التنقل من حال إلى حال ، و لا ينبغي أن يوحى بالعنف و لكن بالتلطف"³ .

ومن مظاهر التلطف ان لا يحمل الإنسان نفسه على ما لا تطيق بل يتدرج معها فابن الجوزي يرى انه ينبغي العاقل ان لا يقدم على العزائم حتى يزن نفسه هل تطيقها ؟⁴ ، و للتدليل على صحة ما ذهب إليه يضرب لنا مثلا يؤكد من خلاله أن تحميل النفس فوق ما تطيق وسيلة غير ناجحة في مجال تربية النفس يقول : " و مثاله : رجل سمع بذكر الزهاد فرمى ثيابه الجميلة و لبس الذون و انفرج في زاوية ، و غلب على قلبه ذكر

1 - ذم الهوى : ص 19 ، 20 .

2 - المصدر السابق : ص 21 .

3 - الطب الروحاني : ص 53 .

4 - حيد الخاطر : ص 173 .

الموت و الأخرى . فلم يلبث متقاضى الطبع أن ألح بما جرت به العادة¹ .
 ولكنه مع ذلك فإنه يعود فينبه الإنسان بعدم التراخي مع النفس ، لأنه إذا أطمعها
 استصغرت و طمعت فيه ، ولكنه إذا أقتعها باليسير قعت و استكانت فهي " مثل كلب السوء
 متى شبع ناد ، و إن جاع بصبص " ، و صلاحها يكون بمخالفة غرضها ، و حبسها عن
 فضول الكلام ، و إبعادها عن النظر الحرام ، و دفنها عن كل محرّم من الشهوات عند ذلك
 تسهل قيادتها لتبلغ مرادها يقول في ذلك : إن النفس إذا اطمعت طمعت ، و أقنعت باليسير
 قنعت ، فإذا أرتت صلاح مرضها فبترك غرضها ، أحبس لسانها عن فضول كلماتها
 و غرض طرفها عن محرّم نظراتها ، وكف كفها عن مؤذى شهواتها إن شئت ان تسعى لها
 في نجاتها .
 و ابن الجوزي يحس بخطورة هذا الموضوع لذلك نجده يستغل كل الفرص للحديث
 عنه رغم كونه تطرق له في مصنف آخر فيها هو على سبيل المثال يحمل مرة أخرى على
 من يتوانى في تربية نفسه و يتقاعس عن مجاهدتها بقول في إحدى مواعظه عن جهاد
 النفس : " فإنها إن علمت أنك الجد جت و أن رأتك مائلا عنها صدت " ⁴ . و لما إذا
 عرفت منك التسكسل طمعت فيك⁵ فهي كالكلب العفور لا يرسى حتى يرسى
 و مواعظ ابن الجوزي كثيرة لا يتسع المقام لذكرها في هذا المجال .
 7 - محاسبة النفس على التفريط :

محاسبة النفس دلالة على صحة القلب و قوة العزم و رسوخ قدم العبد على طريق
 التوبة ، و قد تحدث الإمام الغزالي عن محاسبة الإنسان لنفسه ملخصا نظريته فقال : " ينبغي
 أن يحاسب نفسه عن الأنفاس ، و على معصيته بالقلب و الجوارح في كل ساعة ، و لو رمى
 العبد بكل معصية حجرا في داره لأمثلات داره في مدة يسيرة قريبة من عمره ولكنه يتساهل
 في حفظ المعاصي " ⁷ .

1 - صيد الخاطر : ص 173 .

2 - اللطائف : ص 46 .

3 - النصرة : 2 / 196 .

4 - الياقوتة : ص 84 .

5 - الطب الروحاني : 53 .

6 - اللطائف : ص 47 .

7 - إحياء علوم الدين : لأبي حامد الغزالي ، مج 6 ، ص 26 / 15 .

أما ابن الجوزي فقد تكررت نداءاته على النفس حتى تقلع عما هي فيه من التهور
و الرعونة و من جملة الطرق في محاسبة النفس عنده طريقة لوم النفس و معاتبته
بالتخويف حيناً و الرجاء حيناً آخر و الجمع بين الخوف و الرجاء في أحيان آخر .
و من جملة ما خاطب به النفس قوله : " أيتها النفس ، اقلعي عن الجناح و توبي
و ارجعي إلى الصلاح و أوبي ، أيتها النفس قد شان شاني عيوبي أيتها الجاهلة تكفيني
ذنوبي " ¹ .

و ابن الجوزي لا يكتفي بالحديث عن معاتبة نفسه فقط بل يوصي غيره بذلك حتى
يؤدي دوره في إصلاح الفرد و المجتمع بصفته داعية و مصلحاً فلا بد أن يكون له دور في
هذا المجال يقول في ذلك : " يا هذا عاتب نفسك على نقصيرها ، و حاسبها على تخليطها
حدثها بما ينفعها و أخبرها و أشر عليها بمصلحتها و دبرها " ² . و إذا لم ينفع العتاب لابسد
من ترهيب النفس و ترغيبها حتى ترجع " فالخوف للنفس سائق و الرجاء لها قائد ، إن و نت
على قائدتها حدثها سائقها ، و إن أبت على سائقها حركها قائدها . مزيج الرجاء يسكن حر
الخوف ، و سيف الخوف يقطع سيف سوف ، و إن تفكر في الإنعام شكر " ³ .

و يوصي ابن الجوزي الإنسان بأن يذرف دموع الندم و الحسرة على ما اقترفه في
جنب الله - سبحانه - فيقول : " يا هذا إذا خلى الفكر باليقين ثارت عجاجة الدمع فإذا أفرح
الحزن القلب استحالت الدموع دماً " ⁴ . و نجده يؤكد على هذا المعنى في موضع آخر فيقول
ناصر : " إخواني ، لو تفكرت النفوس فيما بين يديها ، و تذكرت حسابها فيما لها وعليها
لبعث حزنها بريد دمها إليها ؛ أما يحق البكاء لمن طال عصيانه : نهاره في المعاصي و قد
طال خسراته ، و ليله في الخطايا ؛ فقد خف ميزانه ، و بين يديه الموت الشديد فيه من
العذاب ألوانه " ⁵ . و تركيز ابن الجوزي على مثل هذه الخطوات يدل دلالة واضحة على
تجربته في هذه الحياة الدنيا كما يدل كذلك على مدى فاعلية ما ذكره من وسائل .

8 - مطالعة العلم و الاقتداء بالصالحين :

و هذه طريقة أخرى يحدث عليها ابن الجوزي في مجال تربية النفس ، إذ لا بد من

1 - المدمش : ص 177 .

2 - المواعظ و المجالس : ص 146 .

3 - البهجة : ص 91 .

4 - المواعظ و المجالس : ص 146 .

5 - البهجة : ص 43 .

العلم النافع للإنسان فهو نعم المونس ، و الكتاب نعم الرفيق و سيرة الصالحين هي قوته على الطريق ¹ . قال - رحمه الله - في تبيان ما يعين على تربية النفس : " و يعين على الرياضة صحبة الأخيار و البعد عن الأشرار . و دراسة القرآن و الأخبار ، و إجالسة الفكر في الجنة و النار و مطالعة سير الحكماء و الزهاد " ² .

ومقابل ذلك نهى عن كل ما من شأنه أن يثبط العزائم أو تخور بسببه النفس أو يهون من همة الإنسان و إرادته و قد أوضح بجلاء جملة من هذه الأمور " منها مقاطعة أهل الدناءة أنفة منهم و مواصلة أرباب الهمم العالية ثم التفكير بالعواقب و مال الدناءة و مصير أولي الجد و الاجتهاد ... و من تفكر في المرتفعين في الهمم ، علم أنهم كهو من حيث الأصلية و الأدمية ، غير أن حب البطالة و الراحة جنيا عليه فأوثقاه فساروا و هو قاعد و لو حرك العزم لوصل ... و ما يناله أرباب التعب من الراحة في تعظيم الخلق لهم و ارتفاع قدرهم في الدنيا قبل الآخرة ينسى مرارة كل نصب فكأنه ما تعب من استراح و لا استراح من تعب " ³

و جملة هذه الأمور التي ذكرها ابن الجوزي مفيدة لا يمكن الاستغناء عنها لمن أراد سلوك منهج التربية القويم و خاصة إذا كانت القدوة حسنة و العلم مقرون بالعمل والعبادة و جملة من الرقائق ، وقد أشار إلى ذلك ابن الجوزي عند قوله : " فالصواب العكوف على العلم مع تذيق النفس بأسباب المرفقات " ⁴ .

٥ - الترويح عن النفس :

رغم حديث ابن الجوزي الجاد عن النفس و مبالغته في التشديد عليها لكنه لا ينسى أن يشير بأن لها حقا على الإنسان لا بد أن تناله " فإن من حقها إعطاءها حظوظها التي تقدر في مقصود الرياضة فإنها إذا منعت مقاصدها في الجملة عمى القلب و تشتت الهمم و تكلف التعب . و اعلم أن قدر النفس عند الله - سبحانه - أعظم من قدر العبادات ، ولهذا أباح الفطر للمسافر و إنما يعقل هذا العلماء " ⁵ .

و من بين ما ركز عليه ابن الجوزي في منهج تربية النفس : الترويح عنها ، و ذلك

1 - صيد الخاطر : ص 263 .

2 - الطب الروحاني : ص 53 .

3 - المصدر السابق : ص 50 .

4 - صيد الخاطر : 145 .

5 - الطب الروحاني : ص 53 .

بإدخال السرور و البهجة عليها لئلا احتجها بعد التعب و الكد و الفكر و العمل ، و الترويح عن النفس يكون عادة عن طريق رواية الملح و المراج و اللعب المباح¹ .
و الهدف من الترويح عن النفس عند ابن الجوزي هو تقوية همة الذكر و الفهم و العبادة و إبعاد الملل عن النفس و تجديد حيويتها و نشاطها على قسوة الاحتمال و التركيز لزيادة الفهم و التحصيل² .

و يدلل ابن الجوزي على مشروعية الترويح عن النفس باللغو المباح من خلال ما ذكره من أحاديث للنبي - صلى الله عليه و سلم - و ما رواه العلماء من ملح و طرف ، ثم بين كيف أن نفوسهم كانت تسرح في مباح اللغو فكانها من الجد لم تنزل³ ، و كيف أن الأفاضل و العلماء ما زالت تعجبهم الملح و يهشون لها لأنها تفتح شهية النفس و تريح القلب من كد الفكر و تعب⁴ ، كما تعرض ابن الجوزي لأحوال الصحابة رضي الله عنهم - و كيف كانوا يمزحون و يتمازحون و يتبادحون بالبطيخ فإذا كانت الحقائق كانوا الرجال⁵ .
و مما ذكره في هذا المجال من انبساط العلماء بالترويح عن النفس نماذج كثيرة منها قوله :
" كان الزهري يقول : هاتوا من أشعاركم هاتوا من طرفكم أفيضوا في بعض ما يخف عليكم و تأنس به طباعكم " .

و ما نقل عن القاضي شريح عند خروجه من دار زياد، فسئل كيف تركت الأمير ؟
قال : تركته يأمر و ينهى ، قال : يأمر بالوصية و ينهى عن النياحة⁷ .
و من الملح التي رواها ابن الجوزي عن الصوفية قوله : " كان أبو الحسين بن السماك⁸
يتكلم على الناس بجامعة المدينة ، و كان لا يحسن من العلوم شيئاً إلا ما شاء الله ، و كان مطبوعاً يتكلم على مذهب الصوفية ، فكتب إليه رفعة : ما يقول السادة الفقهاء في رجل مات و خلف كذا و كذا ، ففتحها فتأملها فقرأ ما تقول السادة الفقهاء في رجل مات فلما رآها في

1 - الترية التروحية في الإسلام : أحمد عبد تعزير أبو سمات ، دار الفانس للأردن ، ط 1 ، 120 هـ ، 2000 م ، ص 70 .

2 - أخبار الحمقى و المغفلين : ص 10 ، 17 .

3 - المصدر السابق : ص 20 .

4 - نفس المصدر : ص 18 .

5 - أخبار الظراف و المتماحجين : ابن الجوزي ، مكتبة المتاحف القاهرة ، ط 2 ، 1983 م ، ص 11 .

6 - المصدر السابق : ص 11 .

7 - أخبار الظراف و المتماحجين : ص 22 .

8 - ابن السماك : أحمد بن الحسين أبو عطاء المعروف بابن السماك كان يفظ جماع المعصوم و يتكلم على طريقة التصوف تكلم

فيه بعض الأمة و نسب إليه الكتاب بروي سنة 424 هـ ، المستطاب : 15 / 236 - البداية و النهاية : 12 / 35 .

الفرانض رماها من يده و قال : أما انحلد على مذاهب قوم إذا ماتوا لم يخلفوا شيئا فعجب الحاضرون من حدة خاطره¹

و قد رويت لأبن الجوزي في هذا الجانب طرائف ممتعة ، وما ذلك إلا أنه كان يدرك ما للدعابة و المرح من اثر على النفس من اجل ذلك قرر " انه لا بد من التلطف معها ، فلن فاطع مرحلتين في مرحلة خليق بأن يفقه ، فينبغي ان يقطع الطريق بالطف ممكن ، وإذا تعبت الرواحل نهض الحادي يغنيها ، وأخذ الراحة للجد جد ، وغوص السابح في طلب الدر صعود"²

ويوضح هذا الأثر أكثر عندما يقول بأن " النفس تمل من الجد فلم يكن بأس بإطلاقها في مزح ترتاح به"³ ، و مثل ذلك استراحتها " الى بعض المباح من اللهو"⁴ .

و من أهم ما لاحظته - رحمه الله - في هذا الباب هذه الحادثة الطريفة التي يرويها و يحللها بأسلوبه الأدبي الرصين ليخرج لنا في النهاية بنتيجة هامة عن كيفية معاملة النفس و تعليها فيقول : " مربي حمالان تحت جدع ثقيل ، وهما يتجاوبان بإنشاد النغم ، وكلمات الاستراحة فأحدهما يصفى إلى ما يقوله الآخر ثم يعيده أو يجيبه بمثله ، والآخر همته مثل ذلك . فرأيت أنهما لو لم يفعلا هذا زادت المشقة عليهما ، وكلما فعلا هذا هان الأمر ، فتأملت السبب في ذلك ، فإذا به تعليق فكر كل واحد منهما بما يقول الآخر ، وطربه به ، وإحالة فكره في الجواب بمثل ذلك ، فينقطع الطريق ، وينسى ثقل المحمول .

فأخذت من هذا إشارة عجيبة ، ورأيت الإنسان قد حمل من التكليف أمورا صعبة ، ومن أثقل ما حمل مداراة نفسه ، وتكليفها الصبر عما تحب ، وعلى ما تكسره . فرأيت الصواب قطع طريق الصبر بالتسلية والتلطف للنفس"⁵ .

وهو بذلك يرى أن سعوته لا تخالف ما جاء من النبي صلى الله عليه وسلم - من أحاديث تنهى عن المزاح و تكراهه ، كما أن المكروه منه هو ان يجعل الرجل من إضحاك الناس عادة له ، أو أن يكون إضحاهم على حساب سعادة الآخرين ، و أما الضحك القليل فهو غير مذموم بل يمكن اعتباره من وسائل إدخال البهجة والسرور على النفس ، و قد كان

1 - كتاب الأذكياء : ص 147 .

2 - صيد الخاطر : 241 .

3 - أخبار الطراف و المتساحرين : ص 11 .

4 - أخبار الحمقى و المغفلين : ص 16 .

5 - صيد الخاطر : ص 98 .

الرسول - صلى الله عليه وسلم - يضحك حتى تبدو بواجده¹.

و هكذا نجد ابن الجوزي و هو الواعظ الشعبي المتمرس ، الذي كان إذا وعظ طاشت الأبواب² لم يستغن عن هذه الطريقة التربوية الناجحة و ذلك لما وجد فيها من منفعة تعود على المدعوين بالفائدة في كثير من الأحيان . و هذا راجع لكون " الارتياح إلى مثل هذه الأشياء في بعض الأوقات كالمطبخ في السفر³ ، إذ يصبح من الضرورات التي لا بد منها و ذلك لكونه مرتبط بالصدق و مجانبة للمعصية ، و يحقق المودة و الأمان ، والترابط الوجداني و النفسي ، و التوازن الاجتماعي و العقدي بين أفراد المجتمع الإسلامي⁴ .

و إن كثيرا من الدعاة و الوعاظ لم ينالوا رضا الناس و إقبالهم على مواعظهم و لم يراعوا لها أي اهتمام لخلوها من مثل هذه النوازل و الملح⁵ ، رغم إحرار هؤلاء الدعاة و الخطباء على قدر كبير من العلم و الفصاحة و البلاغة .

و خلاصة القول فقد اتضح لنا من خلال ما ذكرنا ان منهج ابن الجوزي في اصلاح النفس هو منهج الإسلام ذاته ، حيث كان في العديد من قضايا النفس يستند إلى القرآن - الكريم - و أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، كما أنه كان على دراية كافية بأحوال النفس و ما تحتاج اليه من رياضات و مجاهدات و قد ركز في أساس هذا المنهج على تربية الروح الخيرة و العاطفة الدينية لدى المدعوين بصفة عامة ، و قد استعمل في منهجه هذا الكثير من الطرق و الوسائل التي قررها الإسلام إضافة إلى تجربته الشخصية في هذا المجال ، التي استوحاها من واقع الدعوة التي كان يمارسها طيلة حياته الدعوية و التي استمرت أكثر من سبعين عاما .

ثانيا - تربية البدن :

لقد اهتم الإسلام منذ الوهلة الأولى بتكوين جسد الإنسان المسلم و ذلك حتى يؤدي واجبه في المجتمع الإسلامي على أحسن وجه . و قد وردت لفظة الجسم مرتين في القرآن الكريم مرة بصيغة الأفراد عندما تحدث الله - سبحانه و تعالى - عن طالوت بقوله : (إن

1 - صحيح البخاري : محمد بن إسماعيل البخاري - صحيح ، مصنف في عهد الخليفة العباسي دار ابن كثير الدمامي : بيروت ، ط 1407 هـ .
1987م / 6 / 2697 ، كتاب المرحمة ، باب قول الله تعالى لما خلقتم بني آدم رقم 6978 ، 6979 .

2 - رحلة ابن جبير : لابن جبير - ص 160 .

3 - أخبار الحمقى و المغفلين : ص 21 .

4 - التربية التربوية في الإسلام : أحمد عبد العزيز أم حسان ، ص 51 .

5 - مواعظ ابن الجوزي دراسة تحقيقية فيه : عرفة جمعي عباس ، ص 57 .

الله اصطفاه عليكم و زاد بسطة في العلم و الجسم)¹ ، و الثانية بصيغة الجمع في حديثه عن المنافقين بقوله : (و إذا رأيتم تعجبك أجسامهم)² ، أما الرسول - صلى الله عليه و سلم - فقد عبر عن الجسم بالقوة في قوله : المؤمن القوي خير و أحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، و في كل خير³ ، و تعوية الدين عنده - عليه الصلاة و السلام - حق في رقبة المسلم يجب أن يوثقه ليدنه :⁴ و إن لجسك عليك حقا⁵ .

و الأهتمام بالجسم يعين الإنسان السلد على طاعة الله - سبحانه و تعالى - حتى يؤدي ما افترضه الله عليه على أحسن وجه ، و قبل هذا حتى يكون قادرا على أن يسعى في الأرض و يعمرها و يستكشف ما اودع الله فيها من نعم شتى ، سخرها الله لمنفعته ، فهذا الجسم إن ليس شرا و لا لعنة ، بقدر ما هو مخلوق لعمارة الأرض و لمعرفة الخالق و عبادته و إحسان الصلاة به⁶ .

و ابن الجوزي - رحمه الله - رعد اهتمامه بالنفس الإنسانية إلا أنه لم يهمل في مشروعه الدعوي الإصلاحية الحديث عن تربية البدن و الرفق به ، و هذا تصديقا منه لقول الله - عز و جل - : (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا في مناكبها و كلوا من رزقه و إليه النشور)⁷ و لقوله أيضا : (و كلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا و اتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون)⁸ ، فهو عنده بمثابة الراحلة للمرتحل ، و المرء مطالب بالاعتناء بجسمه و مختلف حواسه حتى يقوم بأداء دوره المنوط به على أكمل وجه يقول في ذلك : " لا ينبغي للإنسان أن يحمل على بدنه مالا يطيق ، فإن البدن كالراحلة إن لم يرفق بها لم تصل بالراكب . فتتري في الناس من يتزهد وقد ربي جسده على الترف فيعرض عما ألفه فتتجدد له الأمراض ، فتقطعه عن كثير من العبادات "⁹ .

إن و لكي يحافظ الإنسان على استمراره في القيام بواجباته لابد له من وسيلة لذلك

1 - البقرة : 247 .

2 - المنافقون : 4 .

3 - صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج القشيري ، حسين ، صحيح عماد فؤاد عبد الباقى ، 1 / 2052 ، كتاب الفطر ، باب الأمر بالقوة و ترك العجز و الاستعانة بالله و تفويض المقادير لله حديث رقم 2004 .

4 - فتح الباري : 4 / 218 . كتاب الصوم ، رقم 1975 .

5 - الخصائص العامة للإسلام : يوسف القرضاوي ، ص 142 ، 143 .

6 - الملك : 15 .

7 - المائدة : 88 .

8 - صيد الخاطر : ص 445 .

وهي تناول الطعام حتى يتقوسى به على طاعة المعبود و هذا يدخل في عموم قول الله - تعالى - : (و ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة و لا تنس نصيبك من الدنيا و أحسن كما أحسن الله إليك)¹ ، يقول ابن الجوزي في هذا المعنى : " و أما المطعم فالمراد منه تقوية هذا البدن لخدمة الله - عز و جل - و حق على ذي ناقة أن يكرمها لتحمله "² ، و كذلك لابد له من الشرب " فإذا لم يشرب فقد سعى في آذى بدنه "³

و هذا من صميم المنهج النبوي فقد كان - صلى الله عليه و سلم - يحرص أشد الحرص على أن يوجه أصحابه الوجهة السليمة التي تقودهم إلى التوازن بين الدين و الدنيا و بين حق أنفسهم و حق خالقهم ، و بين متعة أبدانهم و نعيم أرواحهم ، عندما قال : " عليكم بما تطيقون فو الله ! لا يمل الله حتى تملوا "⁴ .

و يحدثنا ابن الجوزي عن الهدف الرئيسي من غريزة الأكل عند الإنسان بقوله : " و اعلم أن العاقل يجب أن يأكل ليبقى ، و الجاهل يكثر أن يأكل ليبقى و رب لقمة منعت لقمات و كانت سبب الهلاك "⁵ ، و يعبر عن هذا الأمر بصيغة أخرى قائلا : " و لولا الهوى في المطعم ما تناول الطعام ، فلم يقم بدنه فجعل له إليه ميل و توق "⁶ ، و ما هذا إلا امتثالا لقول الله - عز و جل - : (و كلوا و اشربوا و لا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين)⁷ ، ولكن ليس المراد من ذلك الإغراق في المذات و الشهوات و ذلك لكون الأكل فوق الشبع مكرود فلا بد من التوسط و الاعتدال⁸ ، يقول مخاطبا نفسه : " اعلمي أن البدن مطية ، و المطية إذا لم يرفق بها لم تصل براكبها إلى المنزل . و ليس مرادي بالرفق الإكثار من الشهوات ، و إنما أعني أخذ البلغة الصالحة للبدن ، فحينئذ يصفو الفكر ، ويصح العقل ، و يقوى الذهن "⁹ .

منهج ابن الجوزي في تربية البدن :

1 - الفصص : 77 .

2 - مبد الخاطر : 27 .

3 - نفس المصدر : ص 28 .

4 - سنن ابن ماجة : 2 / 116 : كتاب الزهد : باب المناوغة على العمل . ص 1238 .

5 - الطب الروحاني : ص 15 .

6 - مبد الخاطر : ص 124 .

7 - الأعراف : 31 .

8 - مبد الخاطر : ص 27 .

9 - المصدر السابق : ص 82 .

و أفضل منهج عند ابن الجوزي في التعامل مع البدن و تربيته هو التوسط والاعتدال من جميع النواحي ابتداءً بالمأكل ثم الملبس ، فالتساوي إلى غير ذلك من الأمور المتعلقة بصحة البدن و رياضته .

١ - المأكل و المشرب :

ففي مجال الأكل عبر ابن الجوزي عن منهجه الوسطي بقوله : " ثم ينبغي له أن يرفق ببدنه الذي هو راحته ، و لا ينقص من قوتها فتنقص قوته ، و لست أمر بالشبع الذي يوجب الجشاع^١ ، إنما أمر بالتوسط ، فإن قوى الأدمي كعين جارية كم فيها من منفعة لصاحبها و لغيره ...^٢ . و برز منهجه هذا بتبيينه الآثار السيئة للشبع و دوافع التقليل من الأكل ، فقال : " و لا تظنين اني أمر باكل الشهوات ، و لا بالإكثار من المأخوذ ، إنما أمر بتناول ما يحفظ النفس ، و انتهى عما يؤذي البدن ، فأما التوسع في المطاعم ، فإنه سبب النوم ، و الشبع يعمي القلب . و يهزل^٣ البدن و يضعفه . فافهم ما أشرت إليه ، فالطريق هي الوسطى " ^٤ .

و أهم ضابط في منهج ابن الجوزي الاهتمام بمصدر الطعام و الشراب ، فلا يجب أن يخرج عن دائرة الحلال . و هذا تأسيًا منه بمنهج القران الكريم في قوله : (و كلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا و اتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) ^٥ لذلك فقد قال : " فإن النظر ينبغي أن يكون في حلّ المطعم و أخذ ما يصلح بمقار^٦ " .

و حتى يبين واقعية منهجه و سلامته لروح الإسلام و شرعه ندد بما يفعله المتصوفة و ما يأمرون به العوام من تغليل الطعام و ذلك لما له أثر مستفبح على الإنسان و على صحته و عبادته فقال : " و لا يلتفت إلى منزه يقول لا أبلغها الشهوات " ^٧ ، ثم وجدناه يبسط المسألة جيدًا قائلا : " فإن المتقلل لا يزال ينقل ، إلا أن يعجز عن النوافل ثم الفرانض ثم يعجز عن مباشرة اهله و إعفافهم ، و عن بذل القوى في الكسب لهم ، و عن فعل خير قد كان يفعله . و لا يهوانك ما تسمعه من الأحاديث ، الذي تحدث على الجوع ، فإن

١ - الخناء : جثأت المعدة تنفست ، و تجلو تنفس المعدة عند الإمتلاء ، لسان العرب : 625/1 طبعة دار المعارف .

٢ - صيد الخاطر : ص ١٢٩ .

٣ - المصدر السابق : ص ١١٥ .

٤ - الثالثة : ٨٨ .

٥ - صيد الخاطر : ص ١٥٠ .

٦ - المصدر السابق : ص ١٥٠ .

المراد بها إما الحدث على أنصوم وإما النهي عن مقامة الشبع فأما تنقيص المطعم على الدوام فمؤثر في القوى ، فلا يجوز ثم في هؤلاء المذمومين من يرى هجر اللحم ، و النبي - صلى الله عليه و سلم - كان يومئذ أن يأكله كل يوم " ¹ .

ثم ينبه ابن الجوزي إلى وجود بعض الفوارق بين الناس في هذا المقام فهم يتفاوتون لذلك "لا ينبغي أن يطالب الإنسان بما يقوى عليه غيره ، فيضعف هو عنه ، فإن الإنسان أعرف بصلاح نفسه ... و لا تكون أيها السامع ممن يرى صور الزهد ، فرب متنع لا يريد التمتع و إنما يقصد المصلحة ، و ليس كل بدن يقوى على الخشونة " ² .

و لم يكتف ابن الجوزي بعرض الأمثلة المجردة بل راح يلتمس الأمثلة من الواقع فقال عن العلماء : " فقد كان فيهم من يصلح على خشن العيش ، كأحمد بن حنبل ، و كان فيهم من يستعمل رقيق العيش كسفيان الثوري مع ورعه ، و مالك مع تدينه ، و الشافعي مع قوة فقهه " ³ . ثم راح يحدثنا عن تجربته الشخصية في هذا المجال ليؤكد ما ذهب إليه بقوله : " فمن ألف الترف فينبغي أن يتلطف بنفسه إذا أمكنه ، و قد عرفت هذا من نفسي فإني رببت في ترف فلما ابتدأت في التقلل و هجر المشتى ، أثر معي مرضاً قطعني عن كثير من التبعث ، حتى أني قرأت في أيام كل يوم خمسة أجزاء من القرآن ، فتناولت يوماً ما لا يصلح فلم أقدر في ذلك اليوم على قراءتها فقلت : إن لقمة تؤثر في قراءة خمسة أجزاء بكل حرف عشر حسنات . إن تناولها لطاعة عظيمة ، و إن مطعمها يؤذي البدن فيفوته فعل خير ينبغي أن يهجر " ⁴ .

2 - الملابس :

و كما أمر ابن الجوزي بالاعتناء بالبدن من حيث المطعم و المشرب تحدث عن ضرورة وجود الملابس في حياة الإنسان ليقويه من حر الصيف و قر الشتاء فقال : " و لما كان بدنه يحتاج إلى كسوة و له قدرة تمييز و قدرة يصنع بها ما يقويه الأذى من القطن و الصوف لم يجعل على جلده ما يقويه خلقة بخلاف الحيوان البهيم " ⁵ .

و من أهم ما يجب على المسلم الاهتمام به في منهج ابن الجوزي العناية بملبسه

1 - صيد الخاطر : ص 31 .

2 - المصدر السابق : ص 34 .

3 - نفس المصدر : ص 34 .

4 - المصدر نفسه : ص 440 .

5 - المصدر نفسه : ص 452 .

و التوسط فيه ، دون إفراط الى حد التبذير أو تفريط الى حد الشطف و خشونة العيش ، فليس كل النفوس تطيق ذلك فقال : " و لا يلبس الصوف على البن من لم يعتد " ¹ ، و ذلك نظرا لكون الطباع تختلف و كذلك النفوس لا تحتمل ، لذلك قال : " و هذا لأن الطباع لا تتساوى فرب شخص يصلح على خشونة العيش ، و اخر لا يصلح على ذلك ، و لا يجوز لأحد أن يحمل غيره على ما يطيقه هو " ² .

و مع أمره بالتقليل من اقتناء اللباس فإن ابن الجوزي ينهى عن الشراء و المبالغة في تحصيل فنون الملبات و منها اقتناء الملابس الفاخرة في كل حين فهذا في نظره مرض أصله موافقة الهوى يقول : " و قد يقع الشراء في فنون ما يتلذذ به : الأبنية المنقوشة و الخيل المسومة و الملابس الفاخرة و غير ذلك و هذا مرض أصله موافقة الهوى " ³ .

و يقدم ابن الجوزي وجهة نظره في علاج مرض الشراهة في الملبس ، و الذي هو في أصله اتباع الهوى فيقول : " و علاجه أن يعلم أن الحساب على كسب الحلال شديد عزيز و التبذير ممنوع منه ، و إن الله - تعالى - لا ينظر من جر ثوبه خيلاء و أن كل شيء يؤجر عليه إلا البناء فالعاقل من نظر في مقدار إقامته و تلمح بيت نقلته فحينئذ يقنع من الثياب بما يواريه ، و من الثياب ما يوربه " ⁴ .

د - طهارة الجسم :

لقد كان اهتمام الإسلام بالبن اهتماما شاملا و من ضمن ذلك أنه أرشد إلى ضرورة العناية بتطهيره و تنظيفه على احسن ما يرام ، و ذلك عن طريق جملة من النصوص التي أرشدت إلى ذلك و حدثت عليه . كقول الرسول - صلى الله عليه و سلم - : " من أكل البصل و الثوم و الكراث فلا يقربن مسجدنا ، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم " ⁵ و مما قاله في باب الغسل : " حق لله على كل مسلم ، أن يغتسل في كل سبعة أيام ، يغسل رأسه و جسده " ⁶ . و مما ورد في خصال الفطرة قوله عليه الصلاة و السلام : " عشر من

1 - صبا، الخاطر : ص 432 .

2 - المصدر السابق : ص 96 .

3 - الطب الروحاني : ص 10 .

4 - المصدر السابق : ص 110 .

5 - صحيح، مستم : 395/1 كتاب المساجد و مواضع الصلاة

رقم 74 .

6 - المصدر السابق : 285/2 : كتاب الجمعة :

القطرة : قصّ الشارب ، و اعفاء اللحية ، و السواك ، و استنشاق الماء ، و قصّ الأظفار
و غسل البراجم¹ ، و نشف الإبط ، و حلق العانة ، و انتفاص الماء ، قال زكرياء : قلل :
مصعب : و نسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة ، زاد قنينة قال وكيع : انتفاص الماء
يعني الاستنجاء² .

و المتأمل في هذه النصوص يدرك أنها القواعد الأساسية التي انطلق منها
ابن الجوزي في إطار تربية البن و العناية بنظافة الجسم ، فقد لاحظت أن ابن الجوزي
- رحمه الله - كان يرى أنه من مظاهر الإهمال الشديد ترك المسلم جسمه عرضة
للأوساخ و الأمراض ، فيعطى بذلك صورة مشوهة عن الدين ، حتى يظن جهلة الناس
و أعداء الدين أن الإسلام قد أمر بذلك و حث عليه .

و قد لاحظ ابن الجوزي هذا السلوك المشين و تلمّحه عند كثير من الناس فراح يرد
عليه بلا هوادة حتى يقلع أصحاب هذه المظاهر المزرية عن فعلهم هذا فقال : " تلمّحت على
خلق كثير من الناس إهمال إبتائهم ، فمنهم من لا ينظف فمه بالخلل بعد الأكل ، و منهم من
لا ينقي يديه في غسلها من الزهم ، و منهم من لا يكسا يسنّك ، و فيهم من لا يكتحل
و فيهم من لا يراعي الإبط الى غير ذلك ، فيعود هذا الإهمال بالخلل في الدين و الدنيا " ³ .
و يشرح ابن الجوزي علاقة ما ذكره بالخلل بالدين و الدنيا ، فمن ناحية الدين تفسد
عبادة من يعبد الله على هذا النحو من الأوساخ و الأدران ، و من ناحية الدنيا فإنه يكون
مصدر إيذاء للخلق و أولهم زوجته التي قد تلتفت عنه يقول : " أما الدين فإنه قد أمر المؤمن
بالتنظف و الاغتسال للجمعة لأجل اجتماعه بالناس ، و نهي عن دخول المسجد إذا أكل الثوم
و أمر الشرع بتنقية البراجم ، و قصّ الأظفار ، و السواك ، و الاستحذاد و غير ذلك من
الآداب ، فإذا أهمل ذلك ترك مسنون الشرع ، و ربما تعدّى بعد ذلك إلى فساد العبادة مثل أن
يهمل أظفاره فيجمع تحته الوسخ المانع للماء في الوضوء أن يصل .

و أما الدنيا فإني رأيت جماعة من المهملين أنفسهم يتقدّمون إلى السرّار و الغفلة التي
أوجبت إهمالهم أنفسهم ، أوجبت جهلهم بالأذى الحادث عنهم . فإذا أخذوا في مناجاة السر
لم يمكن أن أصدف عنهم ، لأنهم يقصدون السر ، فألقى الشدائد من ريح أفواههم ، و لعلّ

¹ - البراجم : جمع برجة و هي عقد الأصابع و مفاصلها كلها . لساد العرب : ابن منظور الإفريقي ، دار بيروت للطباعة
و النشر ، دت ، 12 / 46 .

² - صحيح مسلم : 1 / 273 ، كتاب الطهارة ، باب غسل القطرة ، حديث رقم 50 - 201 .

³ - سيد الخاطار : ص 89 .

أكثرهم من وقت انتباههم ما أمرَ أصبعه على أسنانه ، ثمَّ يوجب مثل هذا نفور المرأة ، و قد لا تستحسن ذكر ذلك للرجل ، فيثمر ذلك التفاتها عنه " ¹ ، و للتأثير على المدعويين و جمهور المسلمين عامة حشد ابن الجوزي بعد هذا العديد من مواقف النبي - صلى الله عليه و سلم - في الموضوع ثم أردفها بأقوال الحكماء حتى يشعر بأنه قد بلغ الرسالة التي أريد تبليغها ، فمن جملة ما ذكره أن النبي - صلى الله عليه و سلم - كان أنظف الناس وأطيبهم ريحا، و كان لا يفارقه السواك و الطيب ، و لم يفوت الفرصة في هذا المقام دون أن يذكر الزهاد فقال : " و قد رأيت جماعة يزعمون أنهم زهاد و هم من أفقر الناس، و ذلك أنهم ما قوتهم العلم " ² .

و تجدر بنا الإشارة في هذا الباب أن ابن الجوزي حث أيضا على التداوي من العليل و الأمراض و خالف الإمام أحمد في رأيه فقال : " و لهذا أرى التداوي مندوبا إليه ، و قد ذهب صاحب مذهبي ³ إلى أن ترك التداوي أفضل ، و منعني الدليل من اتباعه في هذا " ⁴ .

4 - إتيان النساء :

و من جملة ما أوصى به ابن الجوزي في ميدان تربية البدن الحرص على تحقيق الاعتدال في إتيان النساء و معاشرتهن ، و قد أفصح - رحمه الله - عن الهدف من ذلك في قوله ناصحا الشباب : " ينبغي للصبي إذا بلغ أن يحذر كثرة الجماع ، ليبقى جوهره فيفيده ذلك في الكبر ، لأنه من الجائز كبره ، و الاستعداد للجائز حزم ، فكيف للغالب ؟ كما ينبغي أن يستعد للشقاء قبل هجومه " ⁵ .

و لعمق تجربته و قوة ملاحظته يضرب لنا - رحمه الله - مثلا بما لاحظته من أناس انهمكوا في اللذات ففاجأهم هادم اللذات و مفرق الجماعات على غرة من أمرهم فيقول : " و عموم من رأينا من الكبار غلبت عليهم شهوة الوطء فأنهدمت أعمارهم و رحلوا سريعا. و قد رأينا من العقلاء من زجر نفسه عن هذه المحنة و لم يستعملها إلا وقت الحاجة فبقي لهم سواد شعورهم و قوتهم حتى تمتعوا بها في الحياة و حصلوا

¹ - ميد الخاطر : ص 89 .

² - المصدر السابق : ص 90 .

³ - يقصد به الإمام أحمد .

⁴ - ميد الخاطر : ص 87 ، و قد أشرت إلى هذه النقطة في فصل آثار ابن الجوزي ، مبحث ما أُر عن ابن الجوزي .

⁵ - المصدر السابق : ص 348 .

و نجدده يشرح نظريته في كيفية معاشره النساء ، حيث يرى أنه من الأحسن عدم الإكثار منهن و الاكتفاء بواحدة فيقول : " و العاقل من يقتصر على الواحدة إذا وافقت غرضه ، و لا بد أن يكون فيها شيء لا يوافق ، إنما العمل على الغالب ... و مما يهلك الشيخ سريعا الجماع ، فلا يغتر بما يرى من انبساط الألة و حصول الشهوة " ²

و منهج ابن الجوزي في تربية البن هو التوسط و التوازن في كل ما يأتي الإنسان و ما يدع إلا من أراد التشديد على نفسه و بنه فإن تشديده هذا غير ملزم لأحد ، و يوضح ابن الجوزي لنا عنجه بقوله : " غير أن لنا ضابطا هو الشرع ، فيه الرخصة و فيه العزيمة ، فلا ينبغي أن يلام من حصر نفسه في ذلك الضابط ، و رب رخصة كانت أفضل من عزائم لتأثير نفعها " ³ ، و لكنه - رحمه الله - لا ينسى أن يذكر الإنسان بحقيقته حتى لا يعجب ببذنه و ينسى أصله الذي خلق من طين ، و كيف أنه خلق ضعيفا و يموت ضعيفا فاسمع إليه يتحدث عن البن فيقول متعجبا : " عجبت لمن يعجب بصورته و يختال في مشيته و ينسى عبدا لربه ، أما أوله لقمه ضمنت إليها جرعة ماء فإن شئت كسيرة خبز معها تمرات و قطعة من لحم و منقعة من لبن و جرعة من ماء و نحو ذلك طبخته الكبد فلخرجت منه قطرات مني فاستقر في الأنثيين فحركتها الشهوة ، فصبت في بطن الأم مدة حتى تكاملت صورتها فخرجت طفلا تتقلب في خرق البول ، و أما آخره فإنه يلقى في التراب فيأكله الدود و يصير رفاتا تسفيه السواقي ، و كبر يخرج ترابا بذنه من مكان إلى مكان آخر؟ و يقلب في أحوال إلى أن يعود فيجمع ، هذا خبر البن " ⁴

و خلاصة القول فإن ابن الجوزي يرى أن جميع ما وضع في الأدمي إنما الغاية منه مصلحته كما يرى أن الأصل في الأمزجة الصحة و أن العال و الأدواء طارئة و أن أحسن التربية و أفضل التقويم - من حيث النفعي و التنفيذ - ما كان في مرحلة الصبا و على هذا فإننا نعتقد جازمين أن جملة الآراء التي جاء بها ابن الجوزي في هذا الموضوع بالذات لا يستطيع أن ينكرها أهل الاختصاص من علماء النفس و التربية اليوم ⁵ ، و هذا مما يدل على

1 - حيد الحناظر : ص 428

2 - المصدر السابق : ص 123 .

3 - نفس المصدر : ص 96 .

4 - المصدر نفسه : ص 356 .

5 - التربية الإسلامية : محمد عطية الأبراشي ، مدار القومية للطباعة و النشر ، د ت ، ص 28 .

جديّة ابن الجوزي في ما طرقه من مسائل و ما ذهب اليه من حلول ثبتت نجاتها إلى حد بعيد .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني

المرأة و الأولاد عند ابن الجوزي

١ - المرأة عند ابن الجوزي :

لم يفرق الإسلام في شريعته بين المرأة و الرجل بل جعل كل واحد منهما مسؤولاً أمام نفسه وربه و مجتمعه فقال - سبحانه وتعالى - : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحسبنا حياة طيبة و لنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)^١ كما أقر بأن كلامها له حقوق و عليه واجبات فقال - سبحانه - : (و لهن مثل الذي عليهن بالمعروف و للرجال عليهن درجة)^٢ و من عظيم قدر المرأة عند خالقها - سبحانه - أنه أنزل سورة طويلة و سماها بسورة " النساء " و هي تتلى إلى يوم القيامة ، كما شرع لها العديد من غرر الأحكام في سورة النور .

أما في حياة النبي - صلى الله عليه و سلم فقد لاقى المرأة كل الاحترام و التبجيل حيث كان عليه الصلاة و السلام لها نعم الزوج الوفي و الأب الحنون و الأخ الودود و الابن البار و الجار المخلص .

و لقد سار ابن الجوزي على هذا المنهج حسب الظروف و الملابس التي كانت في عصره و من ذلك نجده يحدثنا عن تلقيه العلم على يد بعض شيخات زمانه^٣ ، كما تلقى الإمام ابن عقيل^٤ من قبله العلم على يد مشايخ من النساء يقول ابن الجوزي : " و من مشايخه من النساء الحرانية و بنت الجنيد و بنت الفراد المنقطعة إلى قعر بيتها فلم تصعد سطحاً قط ولها كلام في الورع " ^٥ .

و يذكرنا ابن الجوزي بوجود مدرسة للنساء في عصره مارس فيها التعليم مدة من الزمن فيقول : " و بنت الجبهة المعظمة رباطاً في سوق المدينة للصوفيات و فتحتة في أول رجب و عملت فيه و تكلمت ، و قد أفرد لأخت أبي بكر الصوفي شيخ رباط الزوزني^٦ و فرقت

١ - النحل : ٩٧ .

٢ - البقرة : ٢٢٨ .

٣ - انظر مبحث شيوخه في فصل حياة ابن الجوزي في الباب الأول من الرسالة .

٤ - انظر ترجمته في مبحث مصادر الدعوة عند ابن الجوزي من فصل الدعوة و الناعية عند ابن الجوزي .

٥ - للتظيم : ١٧ / ١٧٩ .

٦ - تكلمت ترجمته .

أما الحديث عن منهج ابن الجوزي في تعليم المرأة فيمكن استنباطه من خلال الأقوال والآراء التي وردت عنه في هذا المجال . أضف إلى ذلك تلقيه العلم على يد بعض النساء من شيخات عصره وعالماته ، لذلك وجدناه قد لاحظ أهمية العلم بالنسبة للمرأة فراح يطلب بضرورة تعليمها مبينا أن العلم واجب في حقها مثل الرجل تماما و قد عبر عن ذلك بقوله :
 المرأة شخص مكلف كالرجل فيجب عليها طلب علم الواجبات عليها ، لتكون من أدائها على يقين " 2 ، و هي بذلك في حاجة إلى العلم حتى لا تقع في الكثير من الأخطاء والمعاصي التي وقعت فيها بنات جنسها من النساء و ذلك كون " الصبيّة في الغالب تنشأ في مخدعها لا تلقن للقرآن و لا تعرف الطهارة من الحيض ، و لا تعلم أيضا أركان الصلاة ، و لا تحدّث قبلي التزويج بحقوق الزوج ، و ربما رأت أمها تؤخر الغسل من الحيض إلى حين غسل الثياب و تدخل الحمام بغير منزر ، و تقول ما معي إلا أختي و ابنتي ، و تأخذ من مال الزوج بغير إذنه و تسحره ، و تدّعي جواز ذلك لتعطفه عليها ، و تصلي مع القدرة على القيام قاعدا و تحنّال في إفساد الحمل " 3 و كل هذه الآفات و المعاصي ما تلبست بها المرأة إلا بسبب الجهل و قلة العلم .

أما عن نوعية الأستاذ و المعلم المؤهل لتعليم المرأة في نظر ابن الجوزي فلا بد أن يكون أحد محارمها كالأب أو الأخ أو الزوج و في حالة تعذر وجود هؤلاء يجب عليها أن تكف أو أن تبحث عن من يدرسها كامرأة أو شيخ هرم شريطة عدم حصول خلوة بقول في هذا المعنى : " فإن لم يكن لها أب أو أخ أو زوج أو محرم يعلمها الفرائض ، و يعرفها كيف تؤدي الواجبات كفاها ذلك ، إن لم تكن سألت و تعلمت ، فإن وجدت امرأة تعلم ذلك تعرفت منها و إلا تعلمت من الأشياخ و ذوي الأستنان من غير خلوة بها " 4 .

و الملاحظ أن ابن الجوزي لا يريد الإطالة و استغراق الوقت الكبير في ممارسة العملية التعليمية و التربوية بالنسبة للمرأة و ذلك لوجود مهام أخرى تنتظر المرأة و لهذا فالعلم للمرأة ينبغي أن يكون بمقدار الملح في القدر خاصة إذا لم يكن المعلم من جنس النساء

1 - المنظم : 18 / 238 .

2 - أحكام النساء : ابن الجوزي ، دار الشهاب للطباعة و النشر ، بانه الجزائر ، دت ، ص 12 .

3 - المعجم السابق : ص 4 .

4 - نفس المعجم : ص 12 .

فبعد ذلك يجب عليها أن : " تقتصد على قدر اللازم " ¹ حتى لا يكون هناك كلام خارج عن نطاق المنهج إلا عند وجود مسألة هامة فلا بد لها حينئذ من السؤال و الاستفسار عليها لكي تعرف الحق و الصواب و لأن الله لا يستحي من الحق ².

و على هذا الأساس وضع ابن الجوزي المنهج الدراسي للمرأة و رتبته على هذا النحو جاعلا أوله حفظ القرآن الكريم فقال : " فينبغي للمرأة أن تجتهد في حفظ ما يمكن ... و قد كان جماعة من النساء يحفظن جميع القرآن ، و قد رأينا في زماننا جماعة منهن فينبغي لمن لها همة أن تؤثر هذه الفضيلة التي ليس لها مثيل ، و أما التسبيح و الذكر فقد أمر النساء بعده ليسهل عليهن " ³.

و في مجال تربية المرأة و تأديبها فإن لابن الجوزي نظرتة في ذلك ، و التي بلورها حسب تصوره و وفق ما كان يلاحظه و يستنتجه من القضايا و الحوادث التي كانت تحدث بين الحين و الآخر في عصره وقد عبر عن رأيه ووجهة نظره في هذه المسألة بكامل الجرأة و الصراحة المعهودتين فيه .

وقبل أن يباشر ابن الجوزي الحديث عن الناحية التربوية للمرأة ، بدأ كلامه بالحديث عن أنواع النساء و أقسامهن و هذا طبعا من خلال تجربته و ملاحظته فقال : " و رأيت النساء ينقسمن أيضا فمنهن المستحسنة التي تبغي ، ومنهن الخائنة لزوجها في ماله ، ومنهن من لا تصلي و لا تعرف شيئا من الدين فهؤلاء حشو النار ، فإذا سمعن موعظة فإنها كما مرت على حجر ، وإذا قرىء عندهن القرآن فكانهن يسمعن السمر " ⁴.

و الناظر في هذه الأصناف من النساء التي ذكرها ابن الجوزي يلاحظ أن هناك حجما لا بأس به من الفساد الأخلاقي لدى النساء في ذلك العصر فحينئذ صار من اللازم على ابن الجوزي و بصفته داعية و مصلحا أن ينبري لهذا الفساد الذي تفتش بين نساء المجتمع ليقدم للعلاج السليم له . وقد عبر عنه بعدة أمور رأى أنه من الضرورة أن تمنع منها المرأة داخل البيت حتى يصلح حالها و حال من تقوم بتربيته من الأطفال ، فقال : " و أكثر العلاج في إصلاح المرأة منعها من محادثة جنسها و من خروجها من بيتها و اطلاعها من ذروته و أن تكون عنده عجوز تؤدبها و تلقنها تعظيم الزوج و تعرفها حقوقه و تعظيم قليل الإنفاق

¹ - أحكام النساء : ص 12 .

² - المصدر السابق : ص 12 .

³ - نفس المصدر : ص 46 .

⁴ - صيد الخاطر : ص 342 .

عندها و تكون كالحافظ فإن عقل الصبي مأفون¹.

إن فابن الجوزي يرى أن الأساس في تاديب المرأة هو إبعادها عن محادثة النساء و عدم مغادرة قعر بيتها ، و تخصص لها عجوز تلقنها حقوق الزوج و آداب المعاشرة الزوجية و ابن الجوزي لم يذكر هذه الخطوات العملية في مجال تربية المرأة إلا لكثرة انتشار الآفات بين النساء و أعظمها آفات اللسان كالغيبة و النميمة و رمي بعضهن البعض بأحاديث الإفك و البهتان فهذه كلها من الأسباب التي دفعت ابن الجوزي ليقول مثل هذا الكلام .

وفي نظر ابن الجوزي أيضا أن المرأة إذا كانت لوحدها في البيت و طرق عليها الباب فلا ترد على الطارق بصوتها العادي حتى لا يفتن الطارق أو يظن بها ظن السوء و يؤيد ابن الجوزي رأيه هذا بما بلغه عن امرأة من القدماء أنه كان إذا طرق عليها الباب و ليس عندها أحد وضعت يدها على فمها و تكلمت ليخرج كلاما منزعا لا يفتن² ، و بما رواه عن الإمام أحمد - رحمه الله - " أنه كان عنده رجل من العباد ، فعطست امرأة أحمد فقال لها العابد : يرحمك الله ، فقال أحمد : عابت جاهل³ .

و أما إذا ما اجتمعت المرأة مع غيرها من النساء فعليها أن تكف لسانها عن الكلام في الآخرين لأن هذا الأمر هو دأبهن في الغالب فمن "عادة أكثر النساء إذا اجتمعن أن يذكرن بعضهن بعضا ، و رميهن المذكورة بكل شيء و قد عاقبت المحصنات من الكبائر"⁴ .
أما خروج المرأة من البيت عموما فابن الجوزي يرى أن لزوم البيت أفضل لها من الخروج إلى غيره من الأمكنة و ذلك لفساد الزمان و تغير الحال في عصره ، يقول : " ينبغي للمرأة أن تحذر من الخروج مهما أمكنها إن سلمت في نفسها لم يسلم الناس منها"⁵ فهو إذن لا يبيحه إلا عند ما تضطر المرأة للخروج ومع ذلك فينبغي لها " أن تغض طرفها عن الرجال كما يؤمر الرجال بالغض عنها"⁶ .

و إذا حدث و أن خرجت فلا بد لها أن تراعي جملة من الآداب ، أولها أن تطلب

¹ - الطب الروحاني : ص 56 .

² - أحكام النساء : ص 39 .

³ - المصدر السابق ، نفس الصفحة .

⁴ - نفس المصدر : ص 61 .

⁵ - المصدر نفسه : 39 .

⁶ - نفس المصدر : ص 62 .

الإذن من زوجها ، و أن لا ترتدي أي لباس قد يلفت النظر إليها، وأن تسير بعيدا عن وسط الشارع أو الأماكن المكتظة بالمارة ، ولا تكلم أحدا أو تسلم عليه مطلقا¹ ، يقول في ذلك :
" فإذا اضطرت إلى الخروج خرجت بإذن زوجها في هيئة رثة ، و جعلت طريقها في المواضع الخالية دون الشوارع و الأسواق ، و احتززت من سماع صوتها ، و مشت في جانب الطريق لا في وسطه² .

ثم ينتقل ابن الجوزي للحديث عن جملة من واجبات المرأة نحو زوجها - و هو بلا شك يعبر هنا عن وجهة نظره إلى حد بعيد - والتي منها وجوب طاعة الزوج وعظم حقه على المرأة ، و ذكر في ذلك أحاديث كثيرة ، و من جملة ما قاله في نصح المرأة حفاظا على عشاها و استقرارا لبينتها : " و ينبغي للمرأة العاقلة إذا وجدت زوجها صالحا يلائمها أن تجتهد في مرضاته و تجتنب كل ما يؤذيها فإنها متى أدته أو تعرضت لما يكرهه أوجب ذلك ملالته و بقي ذلك في نفسه فربما وجد فرصة فتركها أو أثر غيرها فإنه قد يجد و قد لا تجدهي و معلوم أن الملل للمستحسن قد يقع فكيف للمكروه³ .

و ابن الجوزي يصرح للمرأة بأنها إذا لم تتبع هذه الوصايا فستكون هي الخاسرة لا محالة لأن الزوج سيستبدلها بغيرها ، و خاصة أن بعض الأزواج يرى أن هذا الأمر حق مشروع في كل الأحوال دون استثناء .

لكن و مع أمر ابن الجوزي المرأة بطاعة زوجها إلا أن هذه الطاعة لا يجب أن تخرجها إلى معصية الله حتى و لو أمرها الزوج بذلك و لاحتج على ما ذهب إليه بجملة من الأحاديث ثم أردف بعدها قائلا : " وعلى ما ذكرنا من وجوب طاعة الزوج فلا يجوز للمرأة أن تطيعه فيما لا يحل مثل أن يطلب منها الوطء في زمان الحيض ، أو في المحل المكروه أو في نهار رمضان ، أو غير ذلك من المعاصي ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق⁴ .

أما من حيث معاملة الزوج لزوجته فابن الجوزي يأمر الرجل بأن يعامل زوجته وفق ما أمر به الإسلام و أن يظهر أمامها بمظهر حسن كما يجب هو أن تكون حتى لا ترى منه

1 - أحكام النساء : ص 38 .

2 - المصدر السابق : ص 39 .

3 - نفس المصدر : ص 85 .

4 - المصدر نفسه : ص 89 .

و بجانب هذا فهو يبحث على الوسطية في التعامل مع المرأة في بعض الأمور فيأمر الزوج مثلا بعدم إفساء كل أسرارها لها و يعتبر ذلك من العجز ومبرره في ذلك أن المرأة قد تكون ممن يحبون المال و المتاع فتنتقل كاهله بكثرة الإنفاق² " و رب مفش سره إلى زوجة أو صديق فيصير بذلك رهينا عنده"³ ، كما يأمر بالوسط في مداعبتها حتى لا تستسهله و تطمع فيه فيقول مذكرا : " ولا ينبغي للرجل أن يمزح مع المرأة فتطمع فيه طمعا يخرجها عن طاعته و لا أن يسلم ماله إليها فيصير هو كالرهن في يدها فربما استغنت واستوثقت لنفسها ثم تركته ... بل ينبغي أن يمزج بنوع من الهيبة"⁴ .

و لا أظن أن ابن الجوزي صرح بهذه الأمور لعدم وثوقه في المرأة أو لعدم خبرته بالنساء كما ذهب إلى ذلك أحد الباحثين⁵ ، أو لكونه تحدث عنها من وجهة نظر الرجل المتعالية عن المرأة ، لكن الذي بدا لنا في المسألة عكس ما قاله تماما إذ أن ما قاله ابن الجوزي يعبر عن مستوى عال من الملاحظة و الوعي بالمسؤولية الملقاة على عاتقه و لكونه داعية و مصلحا فلا يمكنه إلا أن يصف الداء كما هو ليشرح له الدواء ، فلو كانت المرأة في عصره على مستوى كاف من تطبيق الإسلام و الالتزام به لما أجاز ابن الجوزي لنفسه أن يعبر عن رأيه بتلك الآراء و الأفكار و لكان ما ذكره من باب التشدد و التضييق على المرأة و لكن الأمر ليس كذلك ، و هذا نظرا لما كان يسود الحالة الاجتماعية و الأخلاقية من تدهور واضطراب شاركت فيه المرأة بشكل أو بآخر كما ذكر ابن الجوزي و غيره من المؤرخين لذلك العصر .

و مع ذلك ففي نهاية المطاف نجد ابن الجوزي لا يفوت الفرصة دون أن يحدثنا عن فضائل المرأة و عن فطانة بعض النساء أيام البعثة النبوية و ما قامت به المرأة من دور في سبيل الدعوة الإسلامية ، و ما رواد في هذا المجال ان أسماء بنت أبي بكر قالت : " لما توجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من مكة إلى المدينة ومعه أبو بكر ، حمل أبو بكر معه جميع ماله خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم فأتاني جدي أبو قحافة - و قد ذهب

¹ - الطب الروحاني : ص 56 .

² - صيد الخاطر : ص 243 .

³ - المعنى السابق : ص 201 .

⁴ - الطب الروحاني : ص 56 .

⁵ - التوبة و التضييق عند ابن الجوزي : عبد الباقع الخول : ص 100 ، 101 ، 105 .

بصره - فقال : أرى هـا و الله قد فجعكم بماله مع نفسه فقلت لا يا أبت قد ترك لنا خيرا كثيرا فعمدت إلى أحجار جعلتها في عوة البيت كان أبو بكر يحصل ماله فيها و غطيت على الأحجار بثوب ثم جنت به فأخذت بيده و وضعتها على الثوب و قلت : ترك لنا هذا ، فجعل يجذ مس الحجارة من وراء الثوب ، فقال : أما إذا ترك لكم هذا فنعم ، و لا و الله ما ترك لنا قليلا و لا كثيرا " ¹ .

و في باب فقه النساء و علمهن بالشرع يروي لنا ما كان من أمر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مع تلك المرأة عندما قال : " لا تزيدوا في مهر النساء على أربعين أوقية ... فمن زاد ألقبت الزيادة في بيت المال . فقالت امرأة من صف النساء طويلة في أنفها فطس : ما ذاك لك ، قال : و لم ؟ قالت لأن الله - عز و جل - قال : (و آتيتن إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتاننا و إنما مبينا) ² . قال عمر : أصابت امرأة و رجل خطأ " ³ . و في نفس السياق ينقل لنا ما قاله ابن قتيبة عن الجارية التي جاءت بهدية فقال لها : " قد علم مولاك أنني لا أقبل الهدية ، قالت : و لم ؟ قلت : أخشى أن يستمد مني علما لأجل هديته فقالت : ما استمد الناس من رسول الله - صلى الله عليه و سلم - أكثر ، و قد كان يقبل الهدية ، فقبلتها فكانت الجارية أفقه مني " ⁴ .

و خلاصة القول في هذا الموضوع فإن منهج ابن الجوزي قد اعتراه كثير من الصدق و أنه نظر إلى قضية تعليم المرأة و تربيتها ضمن الإطار العام الذي جاءت به الشريعة الإسلامية دون أن ينسى خصوصيات و ظروف العصر الذي عاش فيه ، و هذا من شروط الداعية الناجح في نظرنا .

ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن الجوزي في هذه الناحية يتفق مع الإمام الغزالي في العديد من الآراء وخاصة فيما يتعلق بحقوق المرأة و واجباتها ⁵ ، مع خلاف بينهما في منهج طرح المسألة و الجرأة على النقد و التحليل و هذا راجع لاختلاف توجه الرجلين و تنوع مشاربهما رغم اتفاقهما في المصدر و المنطلق ، و هنا يتجلى لنا منهج ابن الجوزي الذي يبدو فيه مخالفا لدعاة عصره في بعض قضايا إصلاح المجتمع و تربية أفراد .

¹ - كتاب الأذكياء : ص 236 .

² - النساء : 20 .

³ - كتاب الأذكياء : ص 234 .

⁴ - المصدر السابق : ص 254 .

⁵ - انظر إحياء علوم الدين : لأبي حامد الغزالي ، مع 2 ، 4 / 133 و ما بعدها .

٢ - تربية الأولاد :

الاهتمام بالطفولة من الأمور الضرورية و الحبوية في حياة الوالدين ، و ذلك لكون الأبناء من النعم التي امتن الله بها على عباده في قوله : (المال و البنون زينة الحياة الدنيا)¹ ، وقد يصبحون من شهوات الدنيا إذا بالغ السراء في طلبهم و أفرط في العناية بهم . و قد أولى الإسلام عناية خاصة بالتنشئة السوية للأطفال ، و جعل تربيتهم و تهذيبهم من أعظم المسؤوليات الملقاة على عاتق الآباء .

و لما كانت الأسرة هي الخلية الأولى التي ينشأ فيها الطفل ، فقد أحاطها الإسلام برعاية فائقة لينشأ الطفل بين أفرادها نشأة مستقيمة على مبادئ الدين و مكارم الأخلاق . و القرآن الكريم تحدث عن وجوب هذه التربية و الرعاية في الدنيا و جعل لها جزاء في الآخرة ، فيها يبقى المسلم نفسه و أهله نار جهنم في ذلك اليوم المشهود فقال سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم و أهليكم نارا و قودها الناس و الحجارة)² .

و قد تحدث القرآن عن نموذج رائع في مجال تربية الأولاد ألا وهو لقمان الحكيم في وصاياه لابنه يقول تعالى : (و إذ قال لقمان لابنه ، و هو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)³ .

كما تحدث الرسول - صلى الله عليه و سلم - عن ضرورة هذه الرعاية و بين أهميتها و ألقى مسؤولية الرعاية على جميع أفراد الأسرة فقال : " ألا كلكم راع و كلكم مسؤول عن رعيته فالإمام الأعظم الذي على الناس راع و هو مسؤول عن رعيته ، و الرجل راع على أهل بيته و هو مسؤول عن رعيته ، و المرأة راعية على أهل بيت زوجها و ولده و هي مسؤولة عنهم ، و عبد الرجل راع على مال سيده و هو مسؤول عنه ، فكلكم راع و كلكم مسؤول عن رعيته " ⁴ .

كما أوصى بضرورة تأديب الأولاد و جعله من الواجبات عندما قال : " ما ورث والد ولدا خيرا من أدب حسن " ⁵ ، و حثهم على أن يعينوا أولادهم على

¹ - الكهف : 46 .

² - التحريم : 6 .

³ - لقمان : 13 .

⁴ - فتح الباري : 13 / 111 ، كتاب الأحكام رقم 7138 ، و ورد أيضا في نفس المصدر 9 / 299 ، كتاب النكاح رقم 5200 .

⁵ - مع الزوائد و منبع الفوائد : نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ، 8 / 105 ، كتاب الأدب ، باب تأديب الأولاد ، وقال رواه

الطبراني في الأوسط و فيه عمرو بن دينار فهران آل الزبير و هو ضعيف .

البر، وسن عليه الصلاة والسلام العديد من الآداب التي تتعلق بالمولود منذ ولادته كالآذان والإقامة والعقيقة واختيار الاسم الحسن وغيرها من السنن².

أما ابن الجوزي فقد بدأ لنا اهتمامه بالطفولة والأولاد واضحا من خلال ما سطره في مصنفاته عن هذا الموضوع³، وخاصة كتابه الطب الروحاني الذي تحدث فيه عن تأديب الأولاد ورياضتهم، كما تضمن كتاباه صيد الخاطر وفتنة الكبد العديد من الآداب والوصايا المتعلقة بتربية الأولاد وتهذيبهم، حيث كان - رحمه الله - يرى أن التربية الفاضلة والأخلاق السامية يجب أن يتم غرسها في هذه المرحلة لأنه إذا لم يتم تهذيب الطفل في الصغر صعب ذلك عليه في الكبر يقول ابن الجوزي في ذلك: " أقوم التقويم ما كان في الصغر⁴، تلك فلا بد من المواظبة على الرياضة و التهذيب قبل أن ينفلت الزمام من يدي المربي .

و لأن هذه المرحلة هي الفترة الخصبة في حياة الإنسان ففيها تفتح شهيته للعلم و يصفو عقله للتأق و يصير التعلم عنده من أهم الواجبات " فالتهذيب في الصغر كالنقش في الحجر " ⁵ على حد تعبير ابن الجوزي .

ونظرا للأهمية الكبرى التي حظيت بها مسألة تهذيب الأطفال وتربيتهم منذ الصغر لم يفتأ ابن الجوزي يتحدث عنها مختصرا مجرد و مطنبا مرة أخرى يقول: " علامة الكامل تربية القدرة له من الطفولة وإعطاؤه الرأي النام والعقل الوافر من الصغر كما قال - تعالى - (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل) " ، و تخلق له همة عالية و شرف نفس فتحمله على طلب المعالي و تمنعه ركوب الدنايا فتراه في لعبه يحب أن يكون رئيس الصبيان ، فإذا ترعرع كان الأدب شعاره من غير تعلم و الحياء لباسه من غير ترهيب ، و أقل الرياضة

¹ - أصل هذا الكلام حديث أعينوا أولادكم على امر، قال صاحب مجمع الزوائد: رواه الفايان في الأوسط و فيه من لم أعرفهم مجمع الزوائد 8 / 146 ، كتاب البر و الصلاة باب إعانة الولد على البر .

² - انظر تفصيل ذلك: تحفة المودود في أحكام المولود: ابن القيم، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، دار الريان للتراث القاهرة، 1404 هـ، 1983 م، ص 11 - منهج التربية النبوية للطفل: محمد نور بن عبد الحفيظ سويد، دار الطباعة و النشر الإسلامية، القاهرة، ط 2، 1408 هـ، 1988 م، ص 54 .

³ - من هذه المصنفات على الخصوص: الطب الروحاني، الحث على حفظ العلم و ذكر كبار الحفاظ، تبيين النائم الغمر على مواسم العمر، ذم الفحوى و غيرها .

⁴ - الطب الروحاني: ص 54

⁵ - تبيين النائم الغمر على مواسم العمر: ص 50 .

⁶ - الأنبياء: 51 .

فيه يؤثر ، كما ينفع المسن الفولاذ و لا ينفع الحديد ، فإذا عقل و استدل على صانعه و علم لماذا خلق ؟ و نظر بماذا خوطب ؟ و إلى أين يصير؟ وما المراد منه شمر عن ساق و ساق فيطلع العلم على حقائق الأمور ، فيرى أن أفضل الأشياء ما يقربه من خالقه ثم يرى أن أقرب ما يقرب به العلم و العمل فيجتنها في إكمالهما على غاية ما يطبق منهما بدنه و ينهض النية و العزيمة بحمل الباقي¹ .

و هكذا نلاحظ أن الإمام ابن الجوزي كان على دراية تامة بأن تربية الطفل و تهذيبه في الصبا يعوده على التحلي بالفضائل و الابتعاد عن الرذائل بثتى صورها ، و ذلك لأن الطفل إذا أخطأ و أحس بخطئه و بمقدار جرمه ابتعد عن ذلك الفعل إذا كان نقي السريرة حسن الطباع .

- قواعد تربية الأولاد عند ابن الجوزي :

يمكننا اعتبار ابن الجوزي أحد المنظرين التربويين أو هو " بكلمة أكثر تواضعا كاتب في ميدان الفكر الوعظي المخصص للولد "² ، كل ذلك نظرا لما ألفه من مصنفات و ما أدلى به من آراء في هذا المجال . و قد تحدث ابن الجوزي عن تربية الولد ضمن بعض القواعد و الأصول التي يمكننا اعتبارها أهم الركائز في ميدان تربية الطفل نجملها في ما يلي :

1- إبعاده عن اتباع الهوى :

لما كان الهوى هو " ميل الطبع إلى ما يلائمه "³ ، وجدنا ابن الجوزي ينصح الآباء و المربين بإبعاد أبنائهم عن اتباع الهوى لأنه " إذا ترك الولد و طبعه فنشأ عليه و مرن كان رده صعبا "⁴ ، لذلك لابد من تطويعه في هذه المرحلة المبكرة أما إذا كبر فإن الهوى يغلب عليه و قد لا يستطيع رده ، و عوض ذلك يوصي ابن الجوزي بضرورة ملاحظة الأطفال النجباء و الاهتمام بهم منذ الصغر قبل أن يتلبس بهم الهوى فيضلهم عن سبيل الله فيقول: " وأمانة فلاح الصبي و فساده تنبئين من طفولته فالنجيب منهم ينتبه بالتعلم و الذي ليس بنجيب لا ينفعه التعلم "⁵ ، و هو بذلك يكون قد سبق النظريات التربوية الحديثة التي جعلت

¹ - الطب الروحاني : ص 60 .

² - التربية و علم النفس الإنساني في الذات العربية : غني زعور : ص 63 .

³ - الطب الروحاني : ص 10 .

⁴ - المصدر السابق : ص 54 .

⁵ - نفس المصدر : ص 54 .

العبقرية و الذكاء هما الأساس في التمييز بين الأطفال كما ذهب الى ذلك بعض الباحثين¹ .
وما دامت علامات الذكاء و العبقرية قد تظهر على الصبيان في هذه المرحلة
المتقدمة من العمر فلا بد أن يستغلها الآباء في إصلاح الطفل و تعليمه الصلاة و تربيته عليها
حتى يشب مواظبا عليها لأن هذا " الموسم يتعلق معظمه بالوالدين فهما يربيان ولداهما
و يعلمانه و يحملانه على مصالحته ، و لا ينبغي ان يفترأ عن تأديبه و تعليمه ... فيعلمانه
الطهارة و الصلاة و يضربانه على تركها اذا بلغ تسع سنين " ² .

٢ - إبعادهم عن قرناء السوء :

من أهم ما يؤكد عليه ابن الجوزي - رحمه الله - في قواعد تربية الأولاد ضرورة
إبعادهم عن رفاق السوء و ذلك لكون الطفل لا يزال في هذه المرحلة أمانة في عنق والده³
و كذلك لسرعة تأثير الأطفال ببعضهم البعض ، و يعتبر هذا من حسن التدبير في تربية
الأولاد فيقول : " و أما تدبير الأولاد فحفظهم من مخالطة تفسد مستقبلهم " ⁴ ، و هذا واضح
من خلال ما يكتسبه الولد من قيم و سلوكيات منحرفة و أخلاق اجتماعية فاسدة بسبب
مخالطة قرناء السوء و رفاق الدون من الجهال و السفهاء لذلك فابن الجوزي يأمر بأن
يحذر الولد " من مصاحبته للجهال و السفهاء فإن الطبع لص ... و من المخالطة للصبيان
المعوجين " ⁵ .

و مقابل ذلك يأمر ولي الطفل بأن يلزمه مصاحبة الأخيار و العلماء للاستفادة من
خيراتهم و تجاربهم أضف إلى ذلك ما يراه من تقدير الناس لهم كل ذلك ينمي فيه عاطفة
الحب لهم و تمنى الوصول إلى مراتبهم يقول : " وليحمل على صحبة الأشراف و العلماء " ⁶ .

٣ - التلطف مع الأولاد :

و التلطف مع الأولاد محمود عند ابن الجوزي ، لما له من آثار طيبة على مستقبل
الطفل و خاصة إذا كان هذا الطفل عنيقا و حادا المزاج فلا بد من التلطف معه ، يقول :

¹ - أبو الفرج ابن الجوزي أراده الكلامه و بالأخلاق : ص 270 .

² - نيه التام العمر عنى مواسم العمر : ص 50 .

³ - الطب الروحاني : ص 55 .

⁴ - صيد الخاطر : ص 244 .

⁵ - المصدر السابق ، نفس الصفحة .

⁶ - نفس المصدر : ص 244 .

وإذ أراه عرما في صغره ، فلينلطف به ¹ ، كما يرى أنه من الضروري التغافل عن إساءة الصبي وخاصة إذا أخطأ وحاول إخفاء خطئه بقوله : " فإن أساء تغافل عن إساءته " ² أما إذا عاد الطفل و نجاس على ارتكابه بعض الأخطاء و الحماقات فلا بأس من توبيخه دون النزول إلى مرتبته ³ فلا يهتك مؤدبه ما بينه وبينه من الستر ، و لا يوبخ إلا سرا ⁴ . و إذا ما رأى المربي بعض النسواني والتفاسع من الطفل ، أو بعض الميل إلى الانحراف حاول تقويمه ⁵ فإذا عاقت به خلة قبيحة بولغ في راعه عنها قبل أن تتمكن ⁶ .

وفي أخسر المطاف و عندما لا يصبح التلطف علاجا فعلا في تربية الطفل ينتقل ابن الجوزي إلى آخر الوسائل و هو الضرب فيقول عن الطفل : " و لا بأس بضربه إذا لم ينفع اللطف ، فقد قال لقمان لابنه : يا بني ، ضرب الوالد الولد مثل السمك للزرع " ⁷ ، إذن فابن الجوزي يقيد هذا الضرب فلا يجعله مطلقا ، إنما هو من الضرب غير المبرح الذي لا يشوه عضوا و لا يسيل دما أو يترك أثرا ، و لا تمتد فسرة التوبيخ و الضرب حتى مرحلة البلوغ ، إذ في هذه المرحلة لا ينفع مع الوالد إلا أسلوب الإحسان ، كما أن الرفق هو أساس كل الأساليب التربوية يقول ابن الجوزي عن هذه المرحلة الحرجة في حياة الولد : " فإن أحسنت إليه فهو شريكك ، و إن أسأت إليه فهو عدوك ، و لا ينبغي أن يضرب بعد بلوغه و لا أن يساء إليه لأنه حينئذ يتمنى فقد الوالد ليستبد برأي نفسه ، و من بلغ عشرين سنة ولم يصلح فبعيد صلاحه إلا أن الرفق متعين بالكل " ⁸ .

٤ - حثهم على مكارم الأخلاق :

و بجانب استعمال القواعد السابقة لا بد من قيام المربين بدور هام في رعاية الطفل و تربيته و ذلك عن طريق غرس مكارم الأخلاق و التي تعد قاعدة أساسية في تكوين شخصية الطفل مستقبلا و هذا لكون قلب الطفل في هذه المرحلة يكون فارغا و مستعدا للتلقي و التنفيذ في أن واحد دون أن يعرف الأسباب و الأهداف من أي عملية تربوية أو غير تربوية .

¹ - الطب الروحاني : ص 55 .

² - المصدر السابق : ص 55 .

³ - الطب الروحاني : ص 55 .

⁴ - المصدر السابق : ص 55 .

⁵ - نفس المصدر و الصفحة .

⁶ - نفس المصدر و الصفحة .

و من جملة الفضائل التي ركز عليها ابن الجوزي في هذا الموضوع ، أولها بر الوالدين لأن من لم يحترم والديه في الصغر لم يوقرهما في الكبر ، و من ضيع حق والديه فهو لحقوق ما سواهما أضيع . و ثانيهما إبعاده و حفظه عن مخالطة النساء¹ ، لأنهن - في رأيه - " قليلات الدين ، عظيمات الجهل ، ما عندهن من الآخرة خبر إلا من عصم الله "² ، ثم يكون التدرج معه في التربية شيئا فشيئا ، بدأ بما يجب مراعاته داخل البيت ثم بما هو ضروري تعلمه خارجه ، و يكون ذلك بتدرج و تودة³ .

فداخل البيت يرى ابن الجوزي ضرورة التزام الطفل بسلوكيات معينة كإبعاده عن كثرة الأكل و النوم و أن يعود الخشونة في طعامه و فراشه فلا يأكل كل ما يريد و لا يفرش ما شاء و خاصة إذا كان الوالد لا يطيق ذلك ، يقول : " و يمنع من كثرة الأكل و النوم ، و يعود الخشونة في المطعم و المفروش . فانه أصح لبدنه "⁴ .

و من حيث المظهر و اللباس فيرى أن الثياب البيض هي أحسن اللباس للصبى لأن الملون منها هو لباس المختئين يقول ابن الجوزي : " و ليلبسه الثياب البيض ، فإن طلب الملون قال له : تلك ملابس النساء و المخانيث "⁵ .

أما خارج البيت فابن الجوزي يوصي بأن يحذر الطفل من الكذب فلا يتعامل إلا بالصدق يقول : " وليحذر الصبي من الكذب غاية التحذير "⁶ ، و إذا كان بين الناس فلا يقوم بأي سلوك مخل بالمروءة و الأدب حتى لا يعد في الإذنباء فلا جرم أن " يؤدب بالنهي عن استدبار الناس و الإمتخاط بينهم و التناوب "⁷ .

و مقابل ذلك يفرس فيه المودب خلق الاقتداء بالصالحين و يريغه في الأخلاق الحسنة كما أكد على ذلك ابن الجوزي بقوله " وليحيب إليه الحياء و السخاء ... و ليبادر بأخبار الصالحين ، وليجنبه أشعار الغزل : لأنها بذر الفساد ، و لا يمنع من أشعار السخاء

¹ - سيد الخاطر : ص 244 .

² - المصدر السابق : ص 65 .

³ - للمزيد أنظر : نظرية التربية في القرآن و تطبيقاتها في عهد الرسول عليه الصلاة و السلام : أمينة أحمد ، حسن ، دار المعارف ،

القاهرة ، ط 1 ، 1985 م ، ص 298 ، 301 ، 319 و ما بعدها .

⁴ - الطب الروحاني : ص 55 .

⁵ - المصدر السابق : ص 65 .

⁶ - سيد الخاطر : ص 244 .

⁷ - الطب الروحاني : ص 55 .

و الشجاعة ليمجد وينجد " ¹ ، حتى يرتفع فيبلغ أعلى درجات السؤدد .

٢ - تعليم الأولاد عند ابن الجوزي :

في ميدان التعليم حدد ابن الجوزي منهجا دراسيا مناسباً لقدرات الأطفال جعله يتكون من جملة من أهم المواد التعليمية التي كانت تدرس في عصره . وأول هذه المواد حفظ لقرآن الكريم و سماع الحديث ، و خاصة في مرحلة الصبا يقول في ذلك ميرزا دور الوالدين : " و يحفظانه القرآن و يسمعانه الحديث و ما احتمل من العلم " ² و هذا نظراً لما في حفظ القرآن من أثر فعال في نمو العاطفة الدينية ، و إثراء الثروة اللغوية لدى الطفل ، أضف إلى ذلك أن في هذه المرحلة يثبت محفوظ الطفل " و يختلط باللحم و الدم " ³ ، بالإضافة إلى هذا لا بد له من معرفة الأحكام الفقهية الضرورية التي تناسب سنه و مقدمة في النحو ، إلى جانب الاطلاع على سير الصالحين ، و هذه المرحلة تكون للحفظ فهي أهم وسيلة للتحصيل في هذه المرحلة يقول : فأما تدبير العلم فانه ينبغي أن يحمل الصبي من حين يبلغ خمس سنين على التشاغل بالقرآن و الفقه و سماع الحديث ، و ليحصل له المحفوظات أكثر من المسموعات ؛ لأن زمان الحفظ إلى خمس عشرة سنة ، فإذا بلغ تشتت همته ... ثم مقدمة من النحو يعرف بها اللحن ، ثم الفقه مذهباً و خلافاً ، و ما أمكن بعد هذا من العلوم فحفظه حسن " ⁴ .

و قد ذكر ابن الجوزي ما يشبه هذا المنهج الدراسي في كتابه لفحة الكبد حيث أوصى ابنه أن يتشاغل بحفظ القرآن و تفسيره و بحديث النبي - صلى الله عليه و سلم - و معرفة سيرته و سيرة أصحابه و معرفة النحو ليقوم به لسانه ، هذا بالإضافة إلى علم الفقه و هو أصل العلوم و الوعظ و التذكير أعمها نفعا على رأي ابن الجوزي ⁵ ، و كل هذه العلوم لا يوجد زمن أفضل لتحصيلها كزمن الصبا ، و قد استفاد ابن الجوزي من هذه المرحلة استفادة كبرى ⁶ .

و بعد تحديده للبرنامج التعليمي ، ينتقل للحديث عن الطريقة المثلى لأخذ العلم

¹ - الطب الروحاني : ص 55 .

² - نبيه التام العمر على مراسم العمر : ص 50 .

³ - صيد الخاطر : ص 244 .

⁴ - المصدر السابق : ص 244 .

⁵ - لفحة الكبد : ص 17 ، 18 .

⁶ - انظر للمصدر السابق : ص 19 ، 20 ، 21 .

والتوقيت المناسب لها فيقول في ذلك : " و قد مدح الحفظ في السحر لموضع جمع الهم و في
البكر و عند نصف الليل " ¹.

و الملاحظ ان هذه الأوقات التي ذكرها ابن الجوزي تبدو لنا اليوم صعبة التطبيق أو
غير مناسبة لتغير أساليب الحياة عما كانت عليه في ذلك العصر ، حيث كانت هذه الأوقات
في تلك الفترة هي الأوقات المحمودة لطب العلم و خاصة الحفظ لأنها تتميز بالهدوء و قلة
الحركة فنتيح لطالب العلم الفترة على الاستيعاب و التركيز .

و لكن ابن الجوزي يوصي الود الذي يطلب العلم بعدم إرهاق نفسه بالحفظ، بل يجعل
لنفسه وقتاً معيناً للراحة حتى لا يتكدس المحفوظ بعضه فوق بعض فلا يعي مما حفظ شيئاً
فيكون بذلك مثله مثل البناء الذي يبني سوراً عالياً فإن جزءاً بناءه كان متيناً ، و إن بناه دفعة
واحدة فسيفسيبه الانهيار في أية لحظة لعدم تماسكه يقول : " و ينبغي أن يريح نفسه من
الحفظ يوماً أو يومين ليكون ذلك كالبناء الذي يراح ليستقر " ².

و أثناء حديثه عن تعليم الصبيان فابن الجوزي يلاحظ الفروق الفردية بينهم فهم ليسوا
في مستوى واحد من الذكاء و الفهم ، حيث أن النجيب الحاذق منهم يتنبه بالتعليم و تكفيه
الإشارة و أما غيره لا ينفعه التعلم و لا تغنيه الإشارة ، ولعل هذا الأمر يؤكد لنا مرة أخرى
مدى معرفة ابن الجوزي و إحاطته بموضوع الفروق الفردية بين الأفراد ، والتي تظهر بين
الصبيان منذ الصغر ، فهناك منهم من يجمع بين البلادة و سوء الخلق يقول ابن الجوزي
فيهم : " فمن الصبيان بعيد الذهن يطول مكثه في المكتب و يخرج و ما فهم شيئاً ... ومن
الصبيان من يجمع مع بعد ذهنه ، و قلة فهمه و عدم تعلمه لدى الصبيان ، فهو يؤذيه
و يسرق مطاعهم ، و يستغيثون من يده ، فلا هو صلح ، و لا فهم ، و لا كف عن الشر " ³.
ومن هذا النص ندرك مدى دقة التصوير والملاحظة عند ابن الجوزي حتى للأطفال
الصغار في المكتب فكأنه كان يتابع تحركاتهم وما يقومون به من تصرفات داخل الفصل
و هذا مما يدل على أن كلامه ناتج عن تجربة وملاحظة وليس نتاج مطالعة للمصنفات فقط .
و بعد حديثه عن الصنف الأول المخوس من الأطفال يحدثنا عن طائفة منهم ممن
تظهر عليهم النجابة و الهمة العالية فتراهم يطمحون إلى الوصول لمعالي الأمور منذ الصبا
فيقول عنهم ابن الجوزي : " و منهم من سمت همته إلى المعالي الكاملة ، فهو مقدم الصبيان

¹ - الحث على حفظ العلم و ذكر كبار الحفاظ : ص 45 .

² - المصدر السابق : ص 42 .

³ - صيد الخاطر : ص 305 ، 306 .

في المكتب و نائب عن معلمهم ، ثم يرتفع عنهم بعزة نفسه ، و أدب باطنه ، و كمال صناعة الآداب الظاهرة ، و لا يزال حاث من باطنه يحثه على تعجيل التعلم ، و تحصيل كل فضيلة لعله أن المكتب لا يرد لنفسه بل لأخذ الأدب منه ، و الرحلة إلى حالة الرجولية و التصرف فهو يبدر الزمان في نيل كل فضيلة " ¹ .

و في نص آخر يبين أن نجابة الأطفال تظهر من خلال التعلم و أما من ليس له همة أو نجابة فلا ينفعه التعلم بشيء يقول : " وأمارة فلاح الصبي و فساده تتبين من طفولته ؛ فالنجيب منهم يتتبه بالتعلم ، و الذي ليس بنبيه لا ينفعه التعلم " ² .

و لعل أحسن ما يمثل منهج ابن الجوزي في ميدان تربية الأولاد و تعليمهم وصيته الموسومة بـ : " لفنة الكبد إلى نصيحة الولد " و التي هي بحق تعتبر وثيقة تربوية في نظرنا بشهادة بعض المختصين في المجال التربوي ³ ، و ذلك لكونها تعدّ خلاصة تجارب ابن الجوزي في الحياة ، بالإضافة إلى ما اكتسبه من علوم أهله للإدلاء بدلوه في هذا المجال الذي لا يمكن أن يخوض فيه إلا الراسخون في العلم من أهل الاختصاص ، و قد كتبها لابنه أبي القاسم ⁴ ، لما رأى منه بعض التراخي و التراجع عن الجد في طلب العلم و عن الاجتهاد في طاعة الله - عز و جل - وهي تعد بحق منهجا و برنامجا يوميا وضعه هذا الأب الحريص لذلك الإبن المفرط ليسير عليه منذ نهوضه من النوم إلى آخر النهار لعله يلحق بركب السائرين إلى الله تعالى . و من جملة ما جاء فيها قوله : " فالزم نفسك يا بني الانتباه عند طلوع الفجر و لا تتحدث بحديث الدنيا ، فقد كان السلف الصالح رحمهم الله لا يتكلمون في ذلك الوقت بشيء من أمور الدنيا ، و قل عند انتباهك من النوم : " الحمد لله الذي أحياني بعد ما أماتني وإليه التمشور " ⁵ " الحمد لله الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم " ⁶ . ثم قم إلى الطهارة واركع سنة الفجر و اخرج إلى المسجد خاشعا و قل في طريقك : " اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك و بحق

¹ - صيد الخاطر : ص 306 .

² - الطب الروحاني : ص 54 .

³ - التربية و علم النفس الولد : علي زبور ، ص 64 .

⁴ - تقدمت ترجمته .

⁵ - فتح الباري : 11 / 113 ، كتاب الدعوات ، باب ما يقول إذا نام ، رقم 6312 .

⁶ - المستدرک علی الصحیحین : للحاكم ، 1 / 548 ، كتاب الدعاء ، و قال صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه - مجمع

التروائد و منبع الفوائد : لأبي بكر الهينمي ، 10 / 120 ، و قال رواه أبو يعلى و رجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن الحجاج

الشمسي و هو ثقة .

ممشاي هذا ، فإني لم أخرج أشرا و لا بطرا و لا رياء و لا سمعة ، و خرجت اتقاء سخطك و ابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تجيرني من النار ، و أن تغفر لي ذنوبي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت " ¹ و اقصد الصلاة إلى يمين الإمام ، فإذا فرغت من الصلاة فقل : " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير " عشر مرات ² ، ثم سبح عشرا ، واحمد عشرا ، وكبر عشرا ³ ، وقرأ آية الكرسي ⁴ و أسأل الله - سبحانه - قبول الصلاة ، فان صح ذلك فاجلس ذاكرا لله تعالى إلى أن تطلع الشمس وترتفع ، ثم صل وتركع ما كتب لك ⁵ ، وإن كان ثمان ركعات فهو حسن " ⁶ .

و أمر ابنه بالعزلة لأن فيها الخير كل الخير و حذرَه من جليس السوء و بيّن له أن أحسن الجليس له هو الكتاب و سيرة السلف الصالحين فقال له : " عليك بالعزلة فهي أصل كل خير ، و احذر من جليس السوء . و ليكن جساوك الكتب و النظر في سير السلف ، و لا تشتغل بعلم حتى تحكم ما قبله ، و تلمح سير الكاملين في العلم و العمل و لا تقنع بالدون " ⁷ . و يوصيه بالقناعة فهي أساس العز في الدنيا و الرفعة في الآخرة ، و يبين له أن من لم يقنع بما أعطاه الله استعبده الأراذل في الدنيا و كان دون الناس في الآخرة فيقول : " و اجتهد يلا بني في صيانة عرضك من التعرض لطلب الدنيا و الذل لأهلها ، و اقنع تعز : فقد قيل : من قنع بالخبز و البقل لم يستعبده أحد ، و مر أعرابي على البصرة فقال : من سيد هذه البلدة ؟ قيل له : الحسن البصري ، قال : و بم سادهم ؟ قالوا : لأنه استغنى عن دنياهم و انتقروا إلى علمه " ⁸ . ثم يأمره بالتقوى فهي أصل كل خير ، و لأن من حفظ حدود الله حفظه الله في دينه و دنياه فقال له : " يا بني ، ومتى صحت التقوى رأيت كل خير ، و المنقى لا يراني

1 - سنن ابن ماجة : 256/1 ، كتاب المساجد و الجماعات ، باب المشي الي الصلاة رقم 778 .

2 - الجامع الصحيح ، سنن الترميدي : 6 - 516 ، كتاب الدعوات ، رقم 3183 ، و قال حديث حسن عريب .

3 - فتح الباري : 11 / 132 ، باب الدعوات ، باب الدعاء الصلاة رقم 6329 .

4 - السنن الكبرى : لأحمد بن شعيب النسائي ، تحقيق عبد الغفار سليمان البداري ، سيد كسروني حسن ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط 1 ، 1411 هـ ، 1991 م ، 30 / 5 ، رقم 9928 .

5 - الجامع الصحيح ، سنن الترميدي : 2 - 181 ، باب الصلاة رقم 580 ، مجمع الزوائد : لأبي بكر المنيني ، 104 / 10 ، باب

ما يفعل بعد صلاة الصبح و المغرب و العصر .

6 - لفظة الكعب : ص 28 إلى 30 ، 31 .

7 - المصدر السابق : ص 34 .

8 - نفس المصدر : ص 36 .

الخلق ولا يتعرض لما يؤذي دينه ومن حفظ حدود الله حفظه الله . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لابن عباس رضي الله عنهما : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده امامك¹ و اعلم يا بني ان يونس - عليه السلام - لما كانت خيرته خيرا نجا بها من الشدة . قال الله عز وجل : (فلولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون)² . ثم يوصيه بغض بصره و كف لسانه و ان يكون مؤثرا لحق الله لا لشهوات نفسه فيقول له : " واعلم ان أوفى الذخائر : غض الطرف عن محرم ، وإمساك للسان عن فضول كلمة و مراعاة لحد ، وإيثار الله - سبحانه وتعالى - على هوى النفس " ³ . ثم يبين له أن ملاك ذلك كله لا يكون إلا بالجمع بين العلم و العمل و لن يستطيع الجمع بينهما إلا إذا كان صاحب همة عالية عند ذلك قال له : " و ينبغي أن تسمو همتك إلى الكمال فإن خلقا وقفوا مع الزهد ، و خلقا تشاغلوا بالعلم ، و ندر أقوام جمعوا بين العلم الكامل و العمل الكامل " ⁴ . و يذكره في موضع آخر عن الوصية بهذا الموضوع قائلا : " و على الحقيقة فليست الفضائل الكاملة إلا الجمع بين العلم و العمل ، فإذا حصل رفعا صاحبهما إلى تحقيق معرفة الخالق سبحانه و حركاه إلى محبته و الشوق إليه ، فتلك الغاية القصوى ، و على قدر العزوم تأتي العزائم ... و كل ميسر لما خلق له " ⁵ .

و لا ينسى ابن الجوزي أن يوجه ابنه إلى العناية بمظهره قائلا : " و أستر نفسك بثوبين جميلين لا يشهرانك بين أهل الدنيا برفعتيهما ! و لا بين المتزهدين بضعتهما و حاسب نفسك عن كل نظرة و كلمة و خطوة فإنك مسنول عن ذلك ، و على قدر انتفاعك بالعلم ينتفع السامعون " ⁶ .

و في ختام الوصية نرى أن ابن الجوزي لم يترك شيئا نافعا إلا و حث ابنه عليه و لا ظهر له القبح في أمر إلا و نهاه عنه بل وجدناه يرشده حتى إلى أحسن ما يطالعه ⁷ من

¹ - المصنف المصنف ، سنن الربيعي : 4 / 007 . كتاب صفة القيامة ، حديث رقم 2521 و قال حديث حسن صحيح ، أما لفظ " احفظ الله تجده امامك " رواه الطبراني في المعجم الكبير . انظر المعجم الكبير : لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني تحقيق هدي عبد الحميد السلفي ، ط 1411 ، 1980 م . 1 / 11 ، رقم 11243 .

² - لقطة الكبد : ص 37 ، و الآيات من سورة الصافات : 143 ، 144 .

³ - المصدر السابق : ص 38 .

⁴ - نفس المصدر : ص 40 .

⁵ - المصدر نفسه : ص 16 .

⁶ - المصدر نفسه : ص 42 .

⁷ - نفس المصدر : ص 43 .

كتب العلم في مختلف علوم الشرع ، و ابن دل هذا على شيء فإنما يدل على حرص ابن الجوزي و عنايته بالأبناء كيف لا ، و هو يعرف كل المعرفة ما لهذا الموضوع من أهمية في حياة الفرد و الأسرة ، و ما قاله ناتج عن مطالعة أولاد و عن تجربة شخصية صداقة ثانيا و خاصة في ما يتعلق بصلاح الأولاد و فسادهم¹ .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

¹ - قلنا هنا الكلام لأن ابن الجوزي كان له ابن عاك وعظ ثم ترك الرعظ ، و هو الذي كتب له هذه الرصية ، و كان له ابنا صالحا نفعه حتى صار من عبوة العلماء و مات شهيدا ، انظر فصل حياة ابن الجوزي .

المبحث الثالث

العلم و العلماء عند ابن الجوزي

تمهيد :

يعتبر طلب العلم من أهم الأسباب التي تقرب الإنسان من ربه - سبحانه و تعلى - ولهذا فقد كان دأب أهل العلم و الصلاح منذ القرون الأولى الانكباب على طلب العلم و التعليم اقتداء برسول الله - صلى الله عليه و سلم - الذي مجد العلم و حث عليه و بالإضافة إلى ممارسة العلم و التعليم في الميدان العملي فقد اعتنى علماء الإسلام بناحيته النظرية فقاموا بنحريير الكثير من الرسائل و المصنفات في هذا الشأن مثل : آداب العالم و المتعلم للإمام الغزالي ، و " الجامع لأخلاق الراوي و آداب السامع " للخطيب البغدادي و " تذكرة السامع و المتكلم في آداب العالم و المتعلم " لبدر الدين ابن جماعة ، و " تعليم المتعلم طرق التعلم " للزرنوجي ، و " جامع بيان العلم و فضله " لابن عبد البر ، و مقدمة " المجموع " للإمام النووي ، و غير هذا كثير مما ألفه علماء الإسلام في هذا الميدان الخصب . أما الإمام ابن الجوزي فبالإضافة لممارسته للعلم و التعليم كوسيلة دعوية في الواقع فقد تحدث عن فضل العلم و أهمية التعليم ، و عن العلماء و أصنافهم و آدابهم ، و لم يكتف بذلك بل و خصصهم بكتاب مستقل انتقد فيه جميع طوائف العلماء و كل من له صلة بالعلم و هو كتابه " نقد العلم و العلماء " و الذي اشتهر بكتاب " تلبيس إبليس " ، زيادة على كتب أخرى مثل : كتاب " الحث على طلب العلم و ذكر كبار الحفاظ " و رسالة " الحث على طلب العلم و الحركة على سلوك طريقه " ، أضف إلى ذلك ما قاله من كلام كثير في الموضوع في كتابه " صيد الخاطر " و كتاب " الأذكياء " و كتاب " أخبار الحمقى و المغفلين " .

١ - آراء العلماء في العلم و التعليم :

و قبل أن نتناول موضوع العلم و العلماء عند ابن الجوزي ارتأينا في أن نعرض على بعض العلماء لنعرف رأيهم في الموضوع لنعرف النظرة الشاملة و الموحدة لرأي علماء الإسلام في هذه المسألة ، و أخص بالذكر منهم ابن عبد البر و الغزالي و النووي . تحسنت الإمام ابن عبد البر الأندلسي في كتابه " جامع بيان العلم و فضله و ما ينبغي في رويته و حمله " عن الهدف من تأليفه لهذا المصنف قائلاً : " و رغبت أن أقدم لك قبل هذا من آداب التعلم و ما يلزم العالم و المتعلم التخلق به و للمواظبة عليه ، و كيف وجه الطلب

وما حمد و مدح فيه من الأجنهاد و النصب ، إلى سائر أنواع آداب التعلّم و التعليم و فضل ذلك و تلخيصه بابا بابا¹ .

و في كتابه المذكور تحدث ابن عبد البر بشيء من الإسهاب عن وجوب طلب العلم و كيف أنه فريضة على كل مسلم ، ثم فصل ما يجب من العلم و جوبا عينيا على كل مسلم² وهو ما يتعلّق بأصول العقيدة و العبادة و الخلق و الحلال و الحرام ، كما تطرق إلى ما هو فرض كفاية من العلوم فقال : " ثم سائر العلم و طلبه و التفقه فيه ، و تعليم الناس إياه و لتواهم به في مصالح دينهم و دنياهم و الحكم به بينهم فرض على الكفاية ، يلزم الجميع فرضه ، فإذا قام به قائم سقط فرضه عن الباقيين بموضعه ، لا خلاف بين العلماء في ذلك و حجتهم فيه قول الله - عز و جل - : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم)³ فالزوم التفرير في ذلك البعض دون الكل ، ثم ينصرفون فيعلّمون غيرهم ، و الطائفة في لسان العرب الواحد فما فوقه ، و كذلك الجهاد فرض على الكفاية "⁴ .

ثم تطرّق ابن عبد البر بكثير من الشرح و التفصيل إلى فضل العلم و أهله⁵ و تفضيله على العبادة⁶ ، و تحدث عما ينبغي لطالب العلم أن يراعيه في طلبه للعلم و ما يجب عليه من التواضع و عدم العجب أو الرياسة و احترام العلماء ، و عدم الحرص على المال و الاتصاف بالصبر و السماحة⁷ .

و قد أنكر ابن عبد البر على طالبي العلم و العلماء العديد من الصفات الذميمة منها تكبرهم على الناس ، و مخالطتهم الأمراء و السلاطين⁸ ، كما أنه لا ينبغي لطالب العلم أن ينتظر من الناس الثناء أو أن يحمد على أفعاله و يثنى عليه بها ، أو أن يطلب من الناس ذلك فيتسبب في أذى من لا يجسيبه إليه ، و ربما كان ذلك الفعل إلى الذم أقرب منه إلى المدح . و من هنا كان أئمة الهدى من الأئمة الأعلام ينهاون عن حمدهم على أعمالهم و ما يصدر

1 - جامع بيان العلم و فضله : لابن عبد البر النمري ، تحقيق ابن لاشينال الزهري ، دار ابن الخوزي ، ط 1 ، 419هـ 1998م / 2 .

2 - المصدر السابق : 1 / 23 .

3 - التوبة : 222 .

4 - جامع بيان العلم و فضله : 1 / 58 ، 99 .

5 - المصدر السابق : 1 / 63 .

6 - نفس المصدر : 1 / 99 .

7 - المصدر نفسه : 1 / 562 ، 712 ، 500 و ما بعدها .

8 - نفس المصدر : 1 / 631 .

منهم من الإحسان إلى الخلق ، و يأمرون بإضافة الحمد على ذلك لله وحده لا شريك له لأنه مصدر النعم كلها . و من ذلك ما ذكره ابن رجب الحنبلي مستذكرا على الذين يطلبون العلم من أجل الشرف و العلو على الناس و رأى أن هذا من الفحش العظيم ؛ " لأن العلم و العمل و الزهد إنما يطلب به ما عند الله من الدرجات العلى و النعيم المقيم ... و من يطلب بالعلم و العمل و الزهد الرياسة على الخلق و التعاضد عليهم ، و أن ينقاد الخلق ويخضعون له ويصرفون وجوههم إليه و أن يظهر للناس زيادة علمه على العلماء ليعلو به عليهم ونحو ذلك ، فهذا موعده النار لأن قصد التكبير على الخلق محرم في نفسه، فإذا استعمل فيه اله الأخرة كان أقبح و أفحش من أن يستعمل فيه الآت الدنيا من المال و السلطان " ¹ .

أما الإمام شرف الدين النووي - رحمه الله - فقد قسم العلم الشرعي على ثلاثة أقسام فصل القول فيها في مقدمة كتابه الشهير " المجموع " و نظرا لأهميتها في هذا المقام ارتأينا الإشارة إليها ملخصة كما جاءت في قوله :

- القسم الأول :

فرض العين ؛ و هو تعلم المكلف ما لا ينادى الواجب الذي تعين عليه فعله إلا به ككيفية الوضوء و الصلاة ونحوهما ، و عليه حمل جماعات الحديث المروي في مسند أبي يعلى الموصلي عن أنس . عن النبي - صلى الله عليه و سلم - " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " . و هذا الحديث وإن لم يكن ثابتا معناه فمعناه صحيح ، و حمله آخرون على فرض الكفاية . و أما أصل واجب الإسلام و ما يتعلق بالعقائد فيكفي فيه التصديق بكل ما جاء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - و اعتقاده اعتقادا جازما سليما من كل شك . و لا يتعين على من حصل له هذا تعلم أدلة المتكلمين هذا هو الصحيح الذي أطبق عليه السلف و الفقهاء و المحققون من المتكلمين من أصحابنا و غيرهم .

القسم الثاني :

فرض كفاية ؛ و هو تحصيل ما لا بد للناس منه في إقامة دينهم من العلوم الشوعية كحفظ القرآن و الأحاديث و علومهما و الأصول و الفقه و النحو و اللغة و التصريف و معرفة رواة الحديث و الإجماع و الخلاف . و أما ما ليس علما شرعيا و يحتاج إليه قوام الدين كالتطب و الحساب ففرض كفاية أيضا نص عليه الغزالي ² .

¹ - جامع بيان العلم و فضله : ابن عبد البر ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، د ت ، 1 / 175 ، 176 و كلام ابن رجب هذا

لا يوجد في الطبعة السابقة الذكر لكتاب جامع بيان العلم و فضله .

² - نظر إجماع علوم الدين : الغزالي ، 1 / 28 .

و اعلم أن للقائم بفرض الكفاية مزية على القائم بفرض العين لأنه أسقط الحرج عن الأمة .

القسم الثالث :

النفل ، و هو كالتبحر في أصول الأدلة ، و الإمعان فيما وراء القدر الذي يصل به فرض الكفاية : وكتعلم العامي نوافل العبادات لفرض العمل لا ما يقوم به العلماء من تمييز الفرض من النفل فإن ذلك فرض كفاية في حقهم والله أعلم¹ .

كما تطرق الإمام النووي - رحمه الله - إلى العديد من الآداب و الأخلاق التي لا مناص للمتعلم من أن يتحلى بها ، و من جملتها تطهير القلب ، و الانقطاع عن كل الشواغل و الرضى باليسير ، و الصبر على ضيق العيش ، و التواضع للعلم و للمعلم ، و معاملته بكل الآداب التي أوصى بها الإسلام² ، و هذه الآداب في مجموعها لا تكاد تختلف كثيرا عن ما أورده ابن عبد البر و الغزالي و ابن الجوزي إلا في بعض الشروح و التفاصيل .

أما الإمام الغزالي - رحمه الله - ففي كتاب العلم من إحياء علوم الدين تحدث عن فضل العلم و التعليم و التعلّم و شواهد من النقل و العقل ، حيث اعتبر أن العلم فضيلة في ذاته و هو وسيلة إلى دار الآخرة ، و تريعة إلى القرب من الله - تعالى - ، فلا يتوصل إليه إلا به³ ، كما تحدث عن العلم المحمود و المذموم ، و بيان ما هو فرض عين و ما هو فرض كفاية ، و بيّن حاصل القول في المسألة و هو " أن كل فريق نزل الوجوب على العلم الذي هو بصدده " ⁴ .

و عند تطرقه للحديث عن آفات العلم تحدث الإمام الغزالي بإسهاب عن علامات علماء الآخرة و علماء السوء ، و يقصد بعلماء السوء علماء الدنيا و طلابها ، و ذلك لكونهم أشد الخلق عذابا يوم القيامة لأنهم قصدوا من العلم التمتع بالدنيا و التوصل إلى الجاه و المنزلة⁵ فوقعوا في العديد من الآفات التي راح يعتدها ، و في آخر المطاف تطرّق الغزالي لآداب العالم و المتعلم فشرحها شرحا وافيا يمكننا ذكرها على سبيل الإجمال كما يلي :

1 - تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ، لأن العلم هو عبادة القلب ، و صلاة السر و تربة الباطن إلى الله - تعالى - ، و عمارة القلب بالعلم لا تتم إلا بعد طهارته من خبائث

¹ - انظر المجموع شرح المهذب : الإمام شرف الدين النووي ، دار الفكر للطباعة و النشر ، دت ، 1 / 24 إلى 27 .

² - المصدر السابق : 1 / 35 ، 39 .

³ - إحياء علوم الدين : الغزالي ، 1 / 21 .

⁴ - المصدر السابق : 1 / 24 .

⁵ - نفس المصدر : 1 / 98 .

الأخلاق و ذميم الصفات .

- 2 - للتقليل من الاشتغال بالدنيا ، و الابتعاد عن الأهل و الوطن، لأن العلائق شاغلة و صارفة .
 - 3 - عدم التكبر على طلب العلم ، و التعامل على معلم يلقي إليه زمام أمره ، بل يدعن إليه تواضعا كما يدعن المريض الجاهل للطبيب الحاذق .
 - 4 - أن يحترز طالب العلم عن الإصغاء إلى اختلاف الناس سواء طلب علوم الدنيا أم علوم الآخرة حتى لا يتحير ذهنه و يتشتت عقله فيياس عن الإدراك و التحصيل .
 - 5 - أن ينظر في كل ما استطاع من العلوم المحمودة ليبلغ مقصده منه ، ثم يشتغل بالأهم فإن ساعده العمر طلب التبحر فيما سواه فإن العلوم متعاونة .
 - 6 - عدم الخوض في علم من العلوم دفعة واحدة ، بل ينبغي له مراعاة الترتيب و البدء بالأولى و الأهم فإن العمر عزيز و العلم كثير ، و أشرف العلوم و غايتها " معرفة الله - عز و جل - و هو بحر لا يدرك منتهى غوره ، و أقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ثم الأولياء ، ثم الذين يلونهم " ¹ .
 - 7 - عدم الخوض في علم حتى يحكم ما قبله و يستوفيه ، فالعلوم مرتبة و الموفق من راعى فيها ذلك التدرج و الترتيب .
 - 8 - أن يعرف السبب الذي به يترك أشرف العلوم و هذا يراد من ورائه شيئان : الأول : شرف الثمرة ، و الثاني : وثاقة الدليل و قوته .
 - 9 - أن يكون هدف المتعلم تحلية الباطن بالفضائل في الحال ، و القرب من الله في المآل بعيدا عن الرياسة و المال و الجاه ، و ممارسة السفهاء و مباهاة الأقران .
 - 10 - أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد ، حتى يكون إيثاره للرفيع القريب على البعيد و المهم على غيره و لا مقصد إلا لقاء الله تعالى ، ففيه النعيم كله ² .
- أما المعلم فمسؤوليته كبيرة أمام الله - عز و جل - " فمهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما و خطرا جسيما فليحفظ آدابه و وظائفه " ³ ، و على هذا الأساس ينبغي عليه أن يراعى هذه الآداب :
- 1 - الاقتداء بالمعلم الأول سيدنا رسول الله - صلى الله عليه و سلم - فلا يطلب على العلم

¹ - إحياء علوم الدين : الغزالي ، 1 / 88 .

² - المصدر السابق : 1 / 82 إلى 90 .

³ - نفس المصدر : 1 / 93 .

أجراً، ولا يرى لنفسه مئة على من يعلمهم ، بل يرى الفضل لهم بأن تهذبت قلوبهم واقتربت إلى الله بزراعة العلوم فيها .

2 - الشفقة على المتعلمين فيعاملهم كأبنائه .

3 - أن لا يدع من نصح المتعلم شيئا إلا و نصحه به .

4 - أن يزجر المتعلمين عن سوء الأخلاق بالتعريض قبل التصريح ، و بالتلميح قبل التوبيخ

لأن التصريح يذهب الهيبة و يولد الجراءة و الإصرار .

5 - أن لا يفتح العلوم الأخرى و يزدريها ، كعلم اللغة لا يفتح علم الفقه ، و الفقيه لا يفتح

علم الحديث ، و معلم الكلام لا ينفّر من الفقه .

6 - أن يترقى بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقي إليه إلا ما يطيقه عقله اقتداء برسول الله

- صلى الله عليه و سلم - الذي كان يخاطب الناس على قدر عقولهم .

7 - أن يكون المعلم قدوة حسنة لطالب العلم فيجمع بين العلم و العمل ، فلا يصدر منه ما

يخالف علمه ، فإذا خالف العمل العلم منع الرشد¹ .

2 - العلم و التعليم عند ابن الجوزي :

ابن الجوزي كغيره من العلماء المسلمين أشاد بالعلم و التعليم و العلماء ، و ذلك من

خلال فهمه العميق لمنهج التربية و التعليم في الإسلام . فقد جعل - رحمه الله - هذا

الموضوع محورا هاما في منهجه الدعوي ، و سنقتصر في حديثنا عن جملة من آراء

ابن الجوزي في العلم و مفهومه و فضله ، و آداب العالم و المتعلم و منزلة العلماء

و أصنافهم و جملة ما أخذهم عليهم و سنعرض ذلك بشيء من الدقة و التركيز² .

* - مفهوم العلم و فضله :

للعلم و العلماء منزلة عظيمة في الإسلام ، لا تدانيها ، منزلته في غيره من الأديان .

وقد وردت الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية التي تبرز هذه المكانة و تظهرها

وإبن الجوزي استقى جملة آرائه و أقواله في فضل العلم و العلماء من المنهج الإسلامي

بأصليه العظيمين الكتاب و السنة .

و قبل الحديث عن هذا الفضل و هذه المنزلة و جب علينا أن نعرف رأي ابن الجوزي

في ماهية العلم و مفهومه لديه و في هذا المجال نرى أنه لم يعط تعريفا محدد للعلم في حد

¹ - انظر إحياء علوم الدين : الغزالي ، 1 / 92 إلى 98 .

² - أشرت في مباحث أخرى إلى العلم و التعليم عند ابن الجوزي كمبحث المرأة و الأولاد عند ابن الجوزي ، و في مبحث وسائل

المعزة ، و في مبحث صلوات الناعية . و حظ ابن الجوزي منها لنا أثرت هنا عدم الإطالة و أن أركز على ما لم أذكره سابقا .

ذاته بل نظر إليه من خلال الهدف و الدور الذي يؤديه صاحبه في هذه الحياة و على هذا المنوال جاء كل كلام ابن الجوزي تقريبا فانظر معي إلى هذا التعريف الذي يقول فيه :

' و العلم هو الذي يدل على الطريق و يعرف ما يصلح لها و يحذر من فظاعتها ' ¹ ، فقد صار العلم عنده بمثابة المصباح الذي يبين الطريق للمتعلم ، فلو سلب منه المصباح لم يستطع السير في الظلام الدامس ، مثلما فعل إبليس بالمتزهدين حيث صرفهم عن العلم فكانه شرع في إطفاء المصباح ليسرق في الظلمة " ² .

لذلك كان تركيز ابن الجوزي على الهدف من العلم و الذي هو العمل به إذ لا قيمة للعلم ما لم يترجم إلى عمل في الواقع ليكون له أثره الفعال في حياة طالب العلم خصوصا و جملة المدعوين عموما يقول ابن الجوزي: " ليس العلم بمجرد صورته هو النافع بل معناه و إنما ينال معناه من تعلمه للعمل به " ³ ، و على هذا الأساس فإن العلم النافع هو الذي يقود صاحبه إلى زيادة الإيمان و الخوف من الله - عز و جل - و خشيته ⁴ يقول في ذلك :

' و متى أدى العلم لمعرفة الحق و خدمة الله - عز و جل - فتحت له أبواب لا تفتح لغيره " ⁵ .

و يترجم قوله هذا ميدانيا فيحدثنا عن تجربته مع العلم و ما جرى له في مرحلة من مراحل حياته ، لما أرادت نفسه التشاغل بالعلم دون العمل به فقال : " وجدت رأي نفسي في العلم حسنا ، فهي تقدمه على كل شيء و تعتقد الدليل ، و تفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل ... إلا أنني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم ، فصحت بها فما الذي أفادك العلم ؟ أين الخوف ؟ أين القلق ؟ أين الحذر ؟ أو ما سمعت بأخبار أخيار الأبحار في تعبدهم و اجتهادهم ؟ ... احذري من الإخلاق إلى صورة العلم ، مع ترك العمل به ، فإنها حالة الكسالى " ⁶ .

أما عن فضل العلم و مكانته ، فابن الجوزي يرى أن للعلم فضلا لا ينكر و مكانة رفيعة لا تضاهي ، و قد صرح في الكثير من مصنفاته عن هذا الفضل و المنزلة حتى أنه ذكر أن التشاغل به أفضل من التنفل و الصوم و الصلاة ⁷ ، و مما قاله في فضله : " ليس

¹ - صيد الخاطر : ص 344 .

² - المصدر السابق : ص 344 .

³ - نفس المصدر : ص 157 .

⁴ - المصدر نفسه : ص 438 .

⁵ - المصدر نفسه : ص 176 .

⁶ - المصدر السابق : ص 71 ، 72 .

⁷ - نفس المصدر : ص 71 ، 98 ، 254 .

في الوجود شيء أشرف من العلم ، كيف لا ؟ و هو الدليل ، فإذا عدم وقع الضلال ...
و ربما كان تقليب الأوراق أفضل من الصوم و الصلاة ، و الحج و الغزو و كم من معرض
عن العلم يخوض في عذاب من الهوى في تعبده ، و يضيّع كثيرا من الفرض بالنفل و يشتغل
بما يزعمه الأفضل عن الواجب ، ولو كانت عنده شعلة من نور العلم لا هتدى " ¹ .

و في هذا الإطار أشار ابن الجوزي إلى رتبة العلماء و كيف أنها تفوق رتبة الزهاد
في العلو و الرفعة مثلما تعلقو رتبة جبريل و ميكايل على باقي الملائكة مع قيامهم بالتعبّد
على أحسن وجه ، لكن هذه المنزلة و هذا العلو يكرنان على مقدار علمهم بالله - سبحانه
و تعالى - و قد سجدت الملائكة لأدم بعد أن علّمه الله ما لم تعلمه من الأسماء : " فسبحان
من خصّ فريقا بخصائص شرفوا بها على جنسهم ، و لا خصيصة أشرف من العلم
بزيادته صار آدم مسجودا له و بنقصانه صارت الملائكة ساجدة ... فكل ما دله على فضل
اجتهد على نياله و كلما نهاه عن نقص بالغ في تجنبه ، فحينئذ يكشف العلم له سره و يسهل
له طريقه و يصير كمجذب يحث الجاذب ، فإذا حركه عجل في سيره ، و الذي لا يعمل
بالعلم لا يطلعه على غوره و لا يكشف له عن سره " ² .

و بعد أن دلّل ابن الجوزي على منزلة العلم و أفضليته بالنقل انتقل لإثبات هذه المنزلة
بالمنطق و العقل و البديهة ، فهو الوسيلة لمعرفة المعبود و التقرب إليه لنيل الخلود في النعيم
الدائم قال في ذلك : " و لا يخفى فضل العلم ببديهة العقل ، لأنه الوسيلة إلى معرفة الخالق
و سبب الخلود في النعيم الدائم ، و لا يعرف التقرب إلى المعبود إلا به فهو سبب لمصالح
الدارين " ³ ، بل و يذهب ابن الجوزي إلى أبعد من هذا حيث يكشف لنا عن القيمة الحقيقية
للإنسان و كيف أنها لا تكون إلا بالعلم فمن فقد العلم فهو في مصاف البهائم على حد تعبيره
فقال : " من ليس له علم فليس له قيمة ، اغتنم تعلّم العلم ، و احضر مجالسه ، فمن ليس
بعالم و لا متعلّم فهو بمنزلة البهيمة ، و ليست فطرته سليمة " ⁴ .

و بعد أن تحدّث ابن الجوزي كثيرا عن العلم و فضله و شرفه و كيف أنه أفضل من
العبادة و الزهد في منهجه ⁵ ، و أن العبرة فيه بالكيف لا بالكم بيّن لنا نظرته للعلوم

¹ - صيد الخاطر : ص 96 ، 98 .

² - المصدر السابق : ص 157 ، 158 .

³ - البصيرة : 2 / 203 .

⁴ - تذكرة في الرعظ : ص 43 .

⁵ - صيد الخاطر : 71 ، 98 ، 157 ، 254 .

ومنهج في المفاضلة بينها¹، فهو مثل الإمام الغزالي يوصي ببعض العلوم قبل غيرها لأن المر يقصر عن تعلم الكل، و للعلم عنده أولويات ينبغي لطالب العلم مراعاتها و ذلك بتقديم الأهم على المهم، و أول ما يجب عليه من الواجبات و الفضائل أن ينظر في معرفة الله - تعالى - بالدليل ليتّم اعتقاده ثم يعرف ما يجب عليه من الوضوء و الصلاة و الزكاة، ثم يترقى إلى الفضائل و يتشاغل بحفظ القرآن الكريم و الحديث الشريف و سير السلف، و لا بد من معرفة ما يقيم لسانه من النحو و اللغة و الفقه و علم الوعظ و التذكير و هو أعتها نفعاً².

و منهج ابن الجوزي في طلب العلم يسير بالطالب على المنوال الذي يفصله بقوله :
 ' فإن الشاب المبتدئ طلب العلم ينبغي له أن يأخذ من كل علم طرفاً ، و يجعل علم فقه الأهم و لا يقصر في معرفة النقل ، فبه تبيّن سير الكاملين ، وإذا رزق فصاحة من حيث الوضع ثم أضيف إليها معرفة اللغة و النحو فقد شحذت شفرة لسانه على أجود مسنّ " ³ .

و لا ينسى ابن الجوزي في منهجه أن يوصي طالب العلم أن يمزج ما ذكر من العلوم بالرقائق و الاقتداء بالسلف الصالح ؛ لأن العلم النظري وحده لا يكفي في صلاح القلب فيقول : " رأيت الاشتغال بالفقه و سماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب ، إلا أن يمزج بالرقائق و النظر في سير السلف الصالحين لأنهم تناولوا مقصود النقل ، و خرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها و المراد منها ... فافهم هذا و امزج طلب الفقه و الحديث بمطالعة سير السلف و الزهاد في الدنيا ليكون سبباً لرقّة قلبك " ⁴ .

و ابن الجوزي لا ينسى أن يذكر طالب العلم باللجوء إلى خالقه على الدوام في كل وقت وفي كل شدة و قد قال في بيان ذلك لابنه : " ومتى رأيت في نفسك عجزاً فسل المنعم أو كسلاً فالجأ إلى الموفق ، فلن تنال خيراً إلا بطاعته ، ولا يفوتك خير إلا بمعصيته فمن الذي لقب عليه فلم ير كل مراد ؟ و من الذي أعرض عنه فمضى بفائدة ؟ أو حظي بغررض من أغراضه " ⁵ .

و الذي يمكن ملاحظته أن ابن الجوزي في منهجه التعليمي هذا ركّز على علوم

1 - لفتة الكبد إلى نصيحة الولد : 19 - صيد الخاطر : ص 143 - الذيل على طبقات الخنابلة : ابن رجب ، 1 / 401 .

2 - لفتة الكبد إلى نصيحة الولد : ص 17 ، 18 .

3 - صيد الخاطر : ص 176 .

4 - للعصر السابق : ص 216 .

5 - لفتة الكبد إلى نصيحة الولد : ص 18 .

لشريعة مع بعض العلوم الإنسانية الأخرى كالعلوم اللغوية من نحو و غيره ، و ذلك لكونها المفتاح الموصل لعلوم الشرع ، زد على ذلك أنه حصر مرضاة الله في هذه العلوم ، أما بقية العلوم الأخرى كالطب و الهندسة و علم الحساب و غيرها فلم يتطرق لها رغم أهميتها ورغم كونها أيضا تؤدي إلى مرضاة الله - عز و جل - كذلك إذا صدقت النية و حسن القصد¹ ولسنا ندرى السبب الذي دفع ابن الجوزي إلى السكوت عن هذا الأمر الخطير رغم كونه قد شارك في مجال الطب و ألف فيه كتبا ، و خاصة كتابه لقط المنافع الذي مزج فيه بين الفقه و الطب و ذكر فيه العديد من القضايا التي أثبت العلم و الطب صحتها².

و الذي بدا لنا أن الإمام الغزالي كان أكثر دقة و واقعية من ابن الجوزي في تناول هذا الموضوع حيث جعل العلم بالصناعات و الحرف و الطب و الحساب و غيرها - مما تحتاجه الأمة الإسلامية - من فروض الكفاية التي لا بد أن يوجد في المسلمين من يتقنها ليستغنوا بها عن أعدائهم ، و لتكون لهم القوة و الغلبة و الاستقلال بالسلطان³، و لكن ابن الجوزي وافقه في إنكاره لبعض العلوم كالسحر و علم النجوم و علم الكلام المخالف لمنهج أهل السنة و الجماعة⁴، و رغم كونهما محققين في ما ذهبا إليه لما لهذه العلوم من آثار سيئة على العقيدة حيث ربطتها بالفلسفة حيناً و بالخرافة و الجهل حيناً آخر⁵ إلا أن ابن الجوزي انفرد في هجومه على علم الكيمياء و انتقده انتقاداً لا ذعاً و وصف المشتغلين به بالبلاهة و التدليس على الناس لأخذ أموالهم بالباطل فقال : " و أبله من هؤلاء من يتشاغل بعلم الكيمياء فإنه هذيان فارغ ، و إذا كان لا يتصور قلب الذهب نحاساً لم يتصور قلب النحاس ذهباً ، فإنما فاعل هذا مستحل للتدليس على الناس في جمع النقود"⁶، و هناك من الباحثين من اعتبر أن ابن الجوزي في انتقاده لعلم الكيمياء قد جانب الصواب و ذلك لاعتقاده أن علم الكيمياء في عصر ابن الجوزي هو نفسه علم الكيمياء اليوم الذي له دور في كثير من الصناعات⁷، و لكن الشيخ الغزالي - رحمه الله - يبرر رأي ابن الجوزي هذا بـ

¹ - آراء ابن الجوزي التربوية : ليلي عبد الرشيد عططار ، منشورات أمانة للسلام ، ميرواندا ، الولايات المتحدة ط 1 ، 1419 هـ . 1998 م ، ص 236 .

² - انظر فصل آثار ابن الجوزي .

³ - انظر إحياء علوم الدين : الغزالي ، 1 / 28 .

⁴ - انظر عطر علم الكلام على المدعوين في فصل أصناف المدعوين .

⁵ - إحياء علوم الدين : 1 / 49 ، 50 - صيد الخاطر : ص 310 .

⁶ - صيد الخاطر : ص 310 ، 311 .

⁷ - آراء ابن الجوزي التربوية : ليلي عبد الرشيد العططار ، ص 238 .

الكيمياء كانت على عهد ابن الجوزي " جهدا فكريا مضطربا في تحويل المعادن بعضها إلى بعض و ليست علما دقيقا كما هي عليه اليوم " ¹ ، زيادة على ذلك فإن هذا العلم لم يكن له دور في التنمية الاقتصادية في ذلك العصر ، ولو كان له شيء من ذلك لما تأخر ابن الجوزي عن الإشادة به و هو العالم الموسوعي الذي اطلع على أغلب علوم عصره و فنونه و أشياده بكل علم اطلع عليه أو مارسه شريطة أن يكون نافعا و موصلا إلى الله - عز و جل - .

• - آداب طلب العلم و آفاته :

يعتبر ابن الجوزي من الدعاة و المربين الذين تكلموا كثيرا على ما ينبغي أن يتحلى به طالب العلم من الصفات و الأخلاق ² في طلبه العلم ، و قد كان صادقا في ما أسداه من نصائح ، لكونها صادرة عن تجربته الشخصية من خلال ما كابده من معاناة و شذائد في سبيل طلب العلم و التحصيل حيث أودع عصارة تجربته تلك في هذه النصائح النفيسة و الآداب الرفيعة حتى يثمر طلب العلم لدى طالبه ، و قد ذكر ابن الجوزي الكثير من هذه الآداب نورد منها ما يلي :

1 - الإخلاص في طلب العلم :

فينبغي للمتعلم أن يكون طلبه للعلم ابتغاء وجه الله - تعالى - أولا ، و إذا حصل له شيء من الدنيا فلا حرج عليه في ذلك ، و السر في ذلك عند ابن الجوزي هو أن فقدان الإخلاص مانع من قبول الأعمال حيث قال : " و ينبغي لطالب العلم أن يصحح قصده ، إذ فقدان الإخلاص يمنع قبول الأعمال " ³ ، و يؤكد هذا الكلام مرة أخرى مذكرا بأن الإخلاص في طلب العلم يجنب صاحبه من الانغماس مع أهل الدنيا في شهواتهم و يقوده إلى القناعة و الرضا بما قسم الله له ، يقول : " و من رزق يقظة دلته بقظته فلم يحتج إلى دليل ، و من قصد وجه الله - تعالى - بالعلم دلته المقصود على الأحسن " ⁴ .

2 - خشية الله و التزام حدوده :

و هذه ميزة جليلة و أدب رفيع من آداب طالبي العلم وهي ثمرة من ثمار العلم النافع من أجل ذلك و يجب على طالب العلم أن يحفظ نفسه فلا يتعدى حدود الله - سبحانه و تعالى

¹ - انظر صيد الخاطر بتحقيق الشيخ محمد الغزالي : ص 310 .

² - وقد جمع الباحث محمد بن إبراهيم الشيبان جملة أقوال ابن الجوزي في الموضوع من مؤلفاته ، في كتاب نشره بعنوان " وصايا و نصائح لطالب العلم " انظر مبحث ما كتب عن ابن الجوزي من دراسات و أبحاث .

³ - صيد الخاطر : ص 311 .

⁴ - للصبر السابقين : ص 178 .

– و يحاول ابن الجوزي أن يجسد هذه الخلّة الحميدة في ابنه فيقول له مخاطباً : " وانظر يا بني إلى نفسك عند الحدود فتلمّح كيف حفظك لها ، فإنه من رعى روعى و من أهمل ترك " ¹ .

و يحدثنا ابن الجوزي عن نفسه و ما أكسبه العلم أيام الطلب من رياضة للنفس و خشية للخالق فقال : " حتى إنني لأذكر في زمان الصبوة ، و وقت الغلّة و العزبة قدرتي على أشياء كانت النفس تتوق إليها توقان العطشان إلى الماء الزلال ، و لم يمنعني عنها إلا ما أثمر عندي العلم من خوف الله – عز و جل – " ² .

و مع أن ابن الجوزي يرى أن التشاغل بالعلم و الميل إليه يقسّي القلب و يقويه فيتشاغل العالم بتصنيف العلوم راجياً إتمامها بطول الأمل ، بينما المعاملة ترقق القلب و تقلّل الأمل فتطيب المناجاة و تنزل السكينة ، و مع هذا كلّه فهو يرجّح كفة العلم و يراه أفضل و أقوى حجة و أعلى رتبة ، و الصواب الجمع بينهما يقول : " فالصواب العكوف على العلم مع تلاذيع النفس بأسباب المرفقات تذييعاً لا يقدر في كمال التشاغل بالعلم " ³ .

د – الجمع بين العلم و العمل :

يرى ابن الجوزي أن العلم يطلب في الأساس للعمل به ⁴ و ذلك لكون أن العلم لا ينفصل عن العمل ، فهو سبيله و هما توأمان متلازمان و الذي لا يعمل بعلمه مثل حامل المسك المزكوم لا يستفيد من حلمه ⁵ .

و يرى ابن الجوزي أن على طالب العلم أن يمزج علمه بالعمل و أن يكون قصده الجزاء الأخروي لتصح معاملته فيقول : " رأيت الاشتغال بالفقه و سماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب ، إلا أن يمزج بالرقائق و النظر في سير السلف الصالحين ، لأنهم تناولوا مقصود النقل ، و خرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها و المراد بها " ⁶ بل و نجد ابن الجوزي يصرّح بأن العمل بالعلم أكبر لذة يصل إليها طالب العلم إذا لم يشغله عنها شاغل آخر ألا و هي معرفة الله – تعالى – يقول : " فإن رواية العلم و العمل

¹ - لئنة الكبد لل نصيحة الولد : ص 19 .

² - صيد الخاطر : ص 235 .

³ - المصدر السابق : ص 145 .

⁴ - البصرة : 2 / 205 .

⁵ - الطائف : 92 .

⁶ - صيد الخاطر : ص 216 .

به إلى درجة المعرفة سه - عز و جل - اسرة المشاعر ، وربما شغلته لذة ما وصل إليه
عن كل شيء ، ويا لها حالة سليمة من افقة " 1 .

ثم راح بعدها ابن الجوزي يبين لطالب العلم حقيقة كبرى قد يغفل عنها أثناء خوض
عمار التحصيل و هي إذا تم له التوفيق في الجمع بين العلم و العمل أن يرى إنعام الموفق
لذلك العمل فلا يغتر به لأنه إذا قيس ذلك العمل بالنعم لم يف بمعشار عشرها ، و إذا لاحظ
عظمة الخالق احتقر كل عبادة أو عمل ، فقال محذرا : " إذا تم علم الإنسان لم ير لنفسه عملا
وإنما يرى إنعام الموفق لذلك العمل ، ويجب على العاقل ألا يرى لنفسه عملا أو يعجب به " 2
و من أعظم ما وجهه ابن الجوزي من النصائح تلك النصيحة الجامعة لطالب العلم حتى
يجمع بين العلم والعمل و لا يكتفي بأحدهما دون الآخر ، كما لا يكتفي بالعبادة من غير علم
فقال له : " و إياك أن تقف مع صورة العلم دون العمل به ، فإن الداخلين على الأمراء
و المقبلين على أهل الدنيا قد عرضوا عن العمل بالعلم فنعوا البركة و النفع ، و إياك أن
تشتغل بالتعب من غير علم ، فإن خلقا من المتزهدين و المتصوفة ضلوا طريق الهدى إذ
عملوا بغير علم و استر نفسك بثوبين جميلين لا يشهرانك بين أهل الدنيا برفعتهما ! و لا بين
المتزهدين بضعتهما ، و حاسب نفسك عند كل نظرة و كلمة و خطوة فإنك مسؤول عن ذلك
و على قدر انتفاعك بالعلم ينتفع السامعون ، و متى لم يعمل الواعظ بعلمه زلت موعظته عن
القلوب كما يزل الماء عن الحجر ، فلا تعطن إلا بنية و لا تمشين إلا بنية ، و لا تأكلن لقمة إلا
بنية ، و مع مطالعة أخلاق السلف ينكشف لك الأمر " 3 .

4 - الأخذ من كل علم بطرف :

و من أهم ما ركز عليه ابن الجوزي في وصاياہ لطالب العلم الإمام بمختلف العلوم
و الأخذ بكل طرف منها فيقول : " الشاب المبتدئ في طلب العلم ، ينبغي له أن يأخذ من كل
علم طرفا ، و يجعل علم الفقه الأهم ، و لا يقصر في معرفة النقل ؛ فبه تبيين سير الكاملين
و إذا رزق فصاحة من حيث الوضع ، ثم أضيف إليها معرفة اللغة و النحو فقد شحذت شفرة
لسانه على أجود مسن " 4 ، و السبب في ذلك أن العمر عزيز و لا يسمح لاستقصاء كل
للعلوم ، فلا بد من الأخذ بالجزء خير من ترك الكل و بالأهم قبل المهم من العلوم فقال :

1 - صيد الخاطر : ص 176 .

2 - المصدر السابق : ص 382 .

3 - لغة الكبد إلى نصيحة الولد : ص 42 .

4 - صيد الخاطر : ص 176 .

إعلم أنه لو اتسع العمر لم أمنع من الإيغال في كل علم إلى منتهاه غير أن العمر قصير
و العلم كثير ، فينبغي للإنسان أن يقتصر من القراءات إذا حفظ القرآن على العشرة ، و من
الحديث على الصحاح و السنن و المسانيد المصنفة ... فمن كان ذا همة و نصح نفسه
شاعل بالمهم من كل علم " 1 .

و يبين ابن الجوزي خطأ من أفنى عمره في طلب العلم مقتصرا على علم واحد
و يضرب لذلك أمثلة قصد من ورائها إنارة الطريق لطالب العلم فيقول عن أصحاب الحديث
الذين أوغلوا في طلبه دون غيره من فنون العلم : " ولو اتسع العمر كان استيفاء كل الطوق
في كل الأحاديث غاية في الجودة ، و لكن العمر قصير .

و لما تشاعل بالطرق مثل يحيى ابن معين ² فاته من الفقه كثير ، حتى أنه سئل عن
للحائض أيجوز أن تغسل الموتى ! فلم يعلم ، حتى جاء أبو ثور ³ فقال : يجوز... فيحیی
أعلم بالحديث منه ، و لكن لم يتشاعل بفهمه ، و من أفبح الأشياء أن تجري حادثة يسأل عنها
شيخ قد كتب الحديث ستين سنة فلا يعرف حكم الله - عز و جل - فيها " ⁴ ، و يمضي
ابن الجوزي في حديثه عن أهمية الإمام بشتى العلوم النافعة ⁵ و كل ذلك نابغ من تجربته
في طلب العلم فقد كان يروم في طلب العلم كل ما قدر عليه ، و يطالع الأحمال من الكتب
و المصنفات ⁶ فكانت همته في طلب العلم ليس لها مثيل إلا عند القليل من العلماء ⁷ .

5 - التزام آداب المذاكرة :

و لما كانت عملية التعلم ليست بالمهمة السهلة التي يستطيع إنجازها كل فرد نظرا لما
يبدل فيها من جهد فكري مضمّن فقد أوصى ابن الجوزي طالب العلم بالمدارسة و إعادة
للمحفوظ حتى لا ينفلت منه و جعل له منها دقيقا يساعده على ذلك و يتمثل في تحسين

¹ - صيد الخاطر : ص 429 ، 430 .

² - يحيى بن معين : شيخ الهداين أبو زكريا يحيى بن معين ولد سنة 158هـ ، سمع من ابن المبارك وغيره ، روى عنه الإمام أحمد
و خلق كثير ، انظر سير أعلام النبلاء 11 / 71 .

³ - أبو ثور : هو إبراهيم بن خالد ، أبو نور الكلبي البغدادي الفقيه ، مفي العراق ولد سنة 170هـ ، سمع من سفبان بن عيينة
و غيره ، مات سنة 240 ، سير أعلام النبلاء 12 / 72 .

⁴ - صيد الخاطر : ص 430 .

⁵ - للمزيد انظر المصدر السابق : ص 163 ، 178 ، 310 ، 200 ، 429 ، 438 .

⁶ - انظر نفس المصدر : ص 235 ، 250 ، 440 ، 441 .

⁷ - تلمذت - همة ابن الجوزي و تبحره في العلوم في فصل حياة ابن الجوزي و فصل مؤهلات الداعية و حظ ابن الجوزي منها

الأكل أثناء المذاكرة، و تخير الوقت المناسب للحفظ مع الاستعداد النفسي لذلك لكي لا يشغله شاغل عن المذاكرة ، و الابتعاد عن كل العوامل التي تؤدي إلى نسيان المحفوظ و تقسيم المادة المراد حفظها على الوقت المناسب لها ، لأنه من الغلط تحميل القلب حفظ الكثير من فنون شتى وإنما الصواب أن يأخذ الطالب قدر ما يطيق ، و أن يرفه نفسه من الإعادة يومية في الأسبوع وتقليل المحفوظ مع الدوام والاستمرار محمود ولا يشرع الطالب في فن حتى يحكم ما قبله ¹.

6 - التواضع و الصبر :

و هما من أجل الصفات التي أوصى بهما ابن الجوزي طالب العلم حيث ألزمه بأن يتواضع و لا يتكبر ، وأن يصبر على طلب العلم و لا ييأس فيقول له: "يا أيها الطالب ! تواضع في الطلب فإن التراب لما ذل لأخصم تلقدم صار طهورا للوجه ، و لا تيأس مع مداومة الخير أن يقوى ضعفك ، فالرمل مع الزمان يستحجر ، صابر ليل البلاء فبعين الصبر تزي فجر الأجر ، ما يدرك منصب بلا نصب ، ألا ترى إلى الشوك في جوار الورد أيها المبتدئ ! تلطف بنفسك فمدارة الجاهل صعبة تنقل من درج الرخص إلى سطوح العزائم ، و لا تيأس من نيل المراد فأول الغيث قطرة ثم ينسكب ، دم على حضور المجلس فالطفل يحتاج كل ساعة إلى الرضاع ، فإذا صار رجلا صبر على الفطام ، على أن الماء إذا كثر صدمه للحجر أثر ، يا عطاش الهوى في تيه القوى : انصرفوا إلى جادة العلم ، فكم في فيافي التعلم من عين تعين على قطع البادية " ².

و هكذا يبين ابن الجوزي لطالب العلم نتائج صبره على طلب العلم ، فقد يكون الصبر مرا و لكن عدم اليأس سبيل للوصول إلى أعلى درجات سلم المجد ، و يبقى ابن الجوزي مصرا على ضرورة الصبر لطالب العلم حتى يعلم أن تكاليف العلم لا بد من الصبر عليها فيقول : " ما ينتاهى في طلب العلم إلا عاشق العلم ، و العاشق ينبغي أن يصبر على المكاره ... فالصبر الصبر أيها الطالب للفضائل ، فإن لذة الراحة بالهوى أو بالبطالة تذهب و يبقى الأسي " ³.

7 - الابتعاد عن النكاح زمن الطلب : و من شدة حرص ابن الجوزي على الاستقرار النفسي

¹ - انظر تفصيل ما قلناه في صيد الخاطر : الصفحات ، 177 ، 178 ، 262 ، و قد أشرت بالتفصيل إلى آراء ابن الجوزي في

الحفظ و التعلم في المرأة و الأولاد عند ابن الجوزي .

² - اللطائف : ص 92 ، 93 .

³ - صيد الخاطر : ص 442 ، 443 .

لطالب العلم ، يوصيه بالابتعاد عن الزواج في هذه المرحلة الحرجة من حياته العلمية حتى لا يشتت ذهنه بين واجب تحصيل العلم و مسؤولية رعاية الزوجة و الأبناء ، و قد لا يستطيع التوفيق بين هذه المسؤوليات جميعا و يضرب له مثلا على ذلك بالإمام أحمد - رحمه الله - فيقول : " واختار للمبتدئ في طلب العلم أن يدافع النكاح مهما أمكن فإن أحمد بن حنبل لم يتزوج حتى تمت له أربعون سنة ، و هذا لأجل جمع الهم " ¹ ، و الشيخ لا يقصد من ذلك أن يهمل طالب العلم زوجته و أبنائه و كسبه ، بل أراد ألا تشغله هذه الأمور - إن كان لا بد منها - عن علمه و مذاكرته حتى لا يضيع جل وقته فيها و هو مطالب باستغلاله أحسن استغلال " فإن غلب عليه الأمر تزوج واجتهد في المدافعة بالفعل لتوافر القوة على إعادة العلم . ثم لينظر ما يحفظ من العلم فإن العمر عزيز و العلم عزيز " ² . و كأن ابن الجوزي لا يطمئن على طالب العلم من انشغاله بعد الزواج بالزوجة و الأولاد فنجده يحاول قدر الإمكان التخفيف عليه من هذه الوطأة - إذا ألجأته الضرورة إلى الزواج - فيقدم له جملة من الحلول و التي كانت تبدو ناجعة في ذلك العصر فيقول : وإن وجد من طبعه منازعا إلى الشوق في النكاح فليختير السراري فإن الحرائر في الأغلب غل ³ .

و الذي يبدو لنا من خلال كلام ابن الجوزي هذا ، أنه من الذين يحبذون التفرغ لطلب العلم و إبعاد كل الشواغل الأخرى التي تشغل بال طالب العلم عن تحصيله ، فهذا قد يكون محقرا له في تحسين المستوى العلمي و اختصار زمن التحصيل قدر الإمكان .

8 - الاشتغال بالكسب : لقد بدا لنا من خلال مطالعتنا للعديد من مؤلفات ابن الجوزي ، أنه كان ينكر على العلماء و طلبة العلم و الزهاد و المنصوفة الكثير من الأشياء التي كان يرى أنها ليست من أخلاقياتهم ما عدا طلب المال و الكسب و الارتزاق ، فإن ابن الجوزي لم يكن من الذين يتسامحون في هذا الأمر حتى مع الذين تلبسوا بلباس الزهد و التصوف ، فلم يكن من منهج ابن الجوزي في الحياة أن يستجدي الناس فيطلب منهم المال مهما كانت وضعيتهم المالية لو مركزهم السياسي ، فلم يثبت عنه أنه أدل نفسه في طلب العلم أو خرج يطوف في البلدان كما يفعل غيره من الوعاظ و لا بعث برقعة لأحد يطلب منه مالا فقد كانت أموره

¹ - عبد الخاطر : ص 178 .

² - المصدر السابق : نفس الصفحة .

³ - نفس المصدر : ص 171 .

تسير على التوفيق و السداد¹ . و اسمع إليه كيف يتحدث عن نفسه و ما كان يلقاه من تعب و جوع في سبيل طلب العلم : " و لقد كنت أنور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نفسي من العدو لئلا أسبق ، و كنت أصبح و ليس لي مآكل و أمسي و ليس لي مآكل ما أذلني الله لمخلوق قط ، و لكنه ساق رزقي لصيانة عرضي² .

و من خلال تجربته هذه يريد ابن الجوزي لطالب العلم أن يكون مستقلا في حياته المالية فلا يعتمد على منحة دراسية من السلطة أو غيرها من أموال المحسنين و صدقاتهم و لعل السر في أن ابن الجوزي لم يوص الحكام و الأغنياء بتخصيص منح دراسية لطالب العلم بدلا من الاشتغال بالكسب ، الذي يكون على حساب طلب العلم و تقدم العلوم هو حتى لا يعتمد عليهم طالب العلم في معيشته ، فيفتن بالدنيا و مآذنها بدعوى طلب العلم³ لذلك ارتأى له ابن الجوزي أن يوفر قوته من كسبه و تجارته إن وجد من يباشرها له ، يقول في ذلك : " و ينبغي له بالنظر أن يجعل جزءا من زمانه مصروفا إلى توفير الاكتساب و التجارة مستنيبا فيها ، غير مباشر لها مع التدبر في العيش الممتنع من الإسراف و التبذير"⁴ . فابن الجوزي يحبذ المال لطالب العلم لأن المال في نظره سبيل العفة و به يحصل البعد عن النل و المداينة يقول : " و إن جمهور العلماء شغلهم العلم عن الكسب ، فاحتاجوا إلى ما لا بد منه .. فعليك يا طالب العلم بالاجتهاد في جمع المال للغنى عن الناس فإنه يجمع لك دينك . فما رأينا في الأغلب منافقا في التدين و التزهّد و التخشع و لا أفة طرأت على عالم إلا بحب الدنيا ، و غالب ذلك الفقر . فإن كان له مال يكفيه ثم يطلب بتلك المخالطة الزيادة فذلك معدود في أهل الشره ، خارج عن حيز العلماء "⁵ ، و هكذا هو طالب العلم في منهج ابن الجوزي يسعى إلى اكتساب المال بقدر حاجته إليه ليعيش راضيا بما قسم الله مستغنيا عما في أيدي الناس فيصفو له بذلك العلم و التعليم ، وقد كان ابن الجوزي ينكر أشدّ النكير على العلماء الذين يذلّون أنفسهم لذوي المال و أصحاب الدناءة من أهل الولايات حتى أخذ منه للفضب - في يوم من الأيام - مبلغا فخاطب أحدهم لما قد وقع في ما لا بد منه من اللذ بعد العز قائلا: " ويحك أين تلك الأنفة من الجهل التي سهرت لأجلها، و أظلمات بهارك

¹ - لغة الكبد إلى تعجبه الرشد : ص 30 .

² - المصدر السابق : ص 21 .

³ - آراء ابن الجوزي التربوية : ليلي عبد الرشيد العطار ، ص 307 .

⁴ - صيد الخاطر : ص 176 .

⁵ - المصدر السابق : ص 161 ، 162 .

بسببها ، فلما ارتفعت و انتفعت عدت إلى أسفل سافلين . أفما بقي عندك ذرة من الأنفة تنبو به عن مقامات الأرائل ؟ ... على أنه يبين لي أن سهرك و تعبك كأنهما كانا لنيل الدنيا . ثم إني أراك تزعم أنك تريد شيئا من الدنيا تستعين به على طلب العلم ، فاعلم أن التفاتك إلى نوع كسب تستغني به عن الأرائل أفضل من التزيد في علمك ، فلو عرفت ما ينقص به دينك لم تر في ما قد عزمت عليه زيادة ، بل لعلّه كلّه مخاطرة بالنفس ، و بذل الوجه الذي طالما صين لمن لا يصلح التفات مثلك إلى مثله ... ثم ما تحصله يفنى ويبقى منه ما أعطي و عيب المنقذين إياك ، واقتداء الجاهلين بك . و يكفيك أنك عدت على ما علمت من ذم الدنيا بشينه إذ فعلت ما يناقضه ، خصوصا و قد مر أكثر العمر ... " ¹

د - العلماء عند ابن الجوزي :

• فضل العلماء :

للعلماء مكانة عظيمة في الإسلام ، و فضل لا يساويه فضل بين أصناف طبقات المجتمع الإسلامي . وقد أشار القرآن الكريم وحديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى هذه المنزلة الرفيعة فقال - سبحانه و تعالى - فيهم : (يرفع الله الذين آمنوا منكم و الذين أوتوا العلم درجات و الله بما تعملون خبير) ² ، و قال - سبحانه - : (شهد الله أنه لا إله إلا هو و أولوا العلم قائما بالقسط) ³ و قوله - جل و علا - : (قل هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون) ⁴ ، و قال - صلى الله عليه وسلم - : " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " ⁵ ، و قال أيضا : " العلماء ورثة الأنبياء " ⁶ ، و ورد عنه قوله : " من طلب علما فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر ، و من طلب علما فلم يدركه كتب الله له كفلا من الأجر " ⁷ و الشواهد القرآنية و الحديثية في هذا الباب كثيرة يضيق بنا الحال أن نذكرها في هذا المجال .

¹ - ميد الحاضر : 166 ، 167 .

² - الهادئ : 11 .

³ - آل عمران : 3 .

⁴ - الزمر : 39 .

⁵ - فتح الباري : 1 / 164 ، كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، رقم 71 و كذلك 13 / 293 كتاب

الاعتصام بالكتاب و السنة ، باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم - لا تزال طائفة من أمتي رقم 7312 .

⁶ - مجمع الزوائد : المئتمني 1 / 126 ، كتاب العلم ، باب في فضل العلماء و محالستهم ، و الحديث رواه البزار و رجاله موثقون .

⁷ - المعجم الصغير : 1 / 123 ، كتاب العلم ، باب فضل العالم و المتعلم ، رواه الطبراني في الكبير و رجاله موثقون .

و ابن الجوزي في تعامله مع العلماء و تبين فضلهم . كان منهجه مستمداً من خلاصة تجربته في التعامل مع القران و السنة و أقوال علماء السلف ، حيث اعتبر أن مكانة العلماء تعلو على مكانة الزهاد مثلما تعلو رتبة جبريل و ميكايل عن بقية الملائكة فقال : " من أراد أن يعرف رتبة العلماء على الزهاد ، فليُنظر في رتبة جبريل و ميكايل ، و من خص من الملائكة بولاية تتعلق بالخلق " ¹ .

و يبرز لنا مقدار نثره بالمنهج الإسلامي عند تبينه للمنزلة الرفيعة التي تبوأها العلماء و فضل مجالس العلم و أهميتها عند الله ، فيقول عنهم : " من أحب أن يكون للأنبياء وارثاً و في مزارعهم حارثاً ، فليتعلم العلم النافع و هو علم الدين ... و ليحضر مجالس العلماء فإنها رياض الجنة و من سأل عن طريق تلبّغ الجنة فليمش إلى مجلس العلم " ² .

و يثني - رحمه الله - على العلماء المخلصين الذين قصدوا بعلمهم وجه الله - عز و جل - و هم صنف نادر و قليل على حد تعبيره ، إذا ما قارناه بالأصناف الأخرى من العلماء من ذوي النوايا الخبيثة أو ممن يتزلقون إلى الحكام لينالوا رضاهم و تشملهم عطاياهم فيقول عنهم : " و قليل من العلماء من تسلّم له نيته و يحسن قصده ، فمن أراد الله به خيراً رزقه حسن القصد في طاب العلم ، فهو يحصله لينتفع به و ينفع ، و لا يبالي بعمل مما يدلّه عليه العلم . فتراه يتجافى أرباب الدنيا ، و يحذر مخالطة العوام ، و يقنع بالقليل خوفاً من المخاطرة في الدنيا في تحصيل الكثير " ³ ، و من خلال قول ابن الجوزي هذا تتضح لنا إشارته إلى ندرة النبوغ أو الكمال في جميع الصفات حتى بين العلماء وهذا أمر مفروغ منه تفرضه الضرورة حيناً و يفرضه المنطق و الواقع حيناً آخر ، يقول : " فأما الكاملون في جميع الأدوات فيندر وجودهم ، فيكون في الزمان البعيد منهم واحد " ⁴ ، ثم راح يحدثنا - رحمه الله - عن الكمال الحقيقي و الذي يكون فيه تدبير الخالق ، و عناية القدرة الإلهية فيقول : " علامة الكمال تربية القدرة له من الطفولة و إعطاؤه الرأي التام و العقل الوافر من الصغر ، كما قال - تعالى - : (و لقد آتينا إبراهيم رشده من قبل) " ⁵ .

و تخلق له همة عالية و شرف نفس فتحمله على طلب المعالي و تمنعه ركوب

¹ - صيد الخاطر : ص 157 .

² - التذكرة في الرعظ : ص 42 .

³ - صيد الخاطر : ص 342 .

⁴ - المصدر السابق : ص 56 .

⁵ - الأنبياء : 51 .

و في مجال حديثه عن مكانة العلماء ينطرق ابن الجوزي للكلام عن أحوال مختلفة للعلماء في ميدان العلم و السلوك ، فمزيد من كان على قانون السلف لكونه استطاع أن يجمع بين العلم و العمل ، و منهم من كان على غير ذلك فيقول : " لقيت مشايخ ، أحوالهم مختلفة يتفاوتون في مقاديرهم في العلم . و كان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه و إن كان غيره أعلم منه . و لقيت جماعة من علماء الحديث يحفظون و يعرفون و لكنهم كانوا يتسامحون بغيبة يخرجونها مخرج جرح و تعديل . و يأخذون على قراءة الحديث أجرة و يسرعون بالجواب لنلا ينكسر الجاه و إن وقع خطأ " ² .

و نجد ابن الجوزي يركز دائما على صفة الجمع بين العلم و العمل و خاصة بين العلماء فلا قيمة و لا مكانة لعالم عنده ما لم يقترن علمه بعمله ، و من كان على غير هذه الخلة فعلمه مردود عليه و قد تأمل ابن الجوزي في المسألة مليا ليصل إلى نتيجة قال عنها : " تأملت العلماء و المتعلمين ، فرأيت القليل من المتعلمين عليه أمانة النجابة ، لأن أمانة النجابة طالب العلم للعمل به ، و جمهورهم يطلب منه ما يصيره شبكة للكسب ، إما ليأخذ به قضاء مكان أو ليصير به قاضي بلد ، أو قدر ما يتميز به عن أبناء جنسه ثم يكتفي " ³ .

و رغم تأكده على الجمع بين العلم و العمل فإن ابن الجوزي يعود ليؤكد أن هناك من علماء السلف من غلب عليه الاتصاف بصفة معينة قد لا تكون متوفرة عند عالم آخر و قد تكون صفة غالبية عند هذا الآخر و لا يكون هذا العالم أو ذاك متصفا بها ، و هذا الطراز من العلماء لا عيب فيه و لا نقیصة بشأن بها يقول ابن الجوزي مبررا هذا الوأي : " و إن كان في السلف سادات إلا أن أكثرهم غلب عليه فن ، فنقص من الآخر ، فمنهم من غلب عليه العلم و منهم من غلب العمل ، و كل هؤلاء كان له الحفظ الوافر من العلم و النصيب الأوفى من المعاملة و المعرفة . و لا يأس من وجود من يحنو حذوهم ، و إن كان الفضل بالسبق لهم ، فقد أطلع الله - عز و جل - الخضر على ما خفي من موسى عليهما السلام " ⁴ .

و كخلاصة لتبيان مكانة العلماء يضرب لنا ابن الجوزي أمثلة عن فطانتهم و حسن

1 - الطب الروحاني : ص 60 .

2 - صيد الخاطر : ص 143 .

3 - المصدر السابق : ص 56 .

4 - نفس المصدر : ص 57 .

فراستهم و سرعة البديهة عندهم ، و من ذلك ما روي عن ابن المبارك - رحمه الله - أن رجلا عطس عنده فلم يحمد الله فقال له ابن المبارك : أي شيء يقول العاطس إذا عطس قال : الحمد لله قال : يرحمك الله ، و من هذا الباب أيضا ما روي عن الشافعي و قد جاءه رجل يسأله عن مسألة فقال : من أهل صنعاء أنت ؟ قال : نعم ، فلعنك حداد قال : نعم .

و سأله مرة رجل فقال : حلفت بالطلاق إن أكلت هذه النمرة أو رميت بها ، قلل : تاكل نصفها و ترمي نصفها¹ . و المنتبغ لسير العلماء و مناقبهم يدرك أن هذه الفطنة التي امتازوا بها كلها مستقاة من مشكاة النبوة لا غير ، فقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سيد أهل الفطنة و الذكاء .

* - موقف ابن الجوزي من علماء عصره :

لقد كان موقفه من علماء عصره فيه نوع من التشدد و الحدة ، رغم كون هذا الموقف فيه الكثير من الحق و الصواب ، و ذلك لكون الرجل وقف منهم موقف الناقد لمختلف طوائفهم ابتداء بالقراء إلى أصحاب الحديث ثم الفقهاء ، فقد أخذ عن كل فرقة منهم جملة من المأخذ كانت كافية منهم لإعطائهم صورة سينة عن الإسلام الذي يمثلونه بعلمهم هذا و منظرًا مستقبحا للعلم و العلماء الذين ينتسبون إليهم .

فالقراء كان همهم الاشتغال بالقراءات الشاذة فيضيعون أعمارهم في تحصيلها و إتقانها مفرطين فيما دونها من الواجبات و الفرائض ، بل و هناك منهم من أحدث قراءة بالألحان زيادة على ترخيصهم في الكثير من الأخطاء مدعين أن حفظهم للقرآن يكفيهم للنجاة من عذاب الله يوم القيامة و ما ذلك إلا لغفلتهم عن إدراك أن الله - تعالى - يعذب العالم أكثر من غيره من الخلق و مما أنكره ابن الجوزي عليهم قوله : " فمن ذلك أن أحدهم يشتغل بالقراءات الشاذة و تحصيلها فيفني أكثر عمره في جمعها ، و تصنيفها و الإقراء بها و يشغله ذلك عن معرفة الفرائض و الواجبات .. و لو تفكروا العلموا أن المراد حفظ القوان و تقويم ألفاظه ثم فهمه ثم العمل به ثم الإقبال على ما يصلح النفس و يطهر أخلاقها ثم للتشاكل بالمهم من علوم الشرع ، و من الغبن الفاحش تضييع الزمان فيما غيره الأهم ... و قد صاروا يوقدون النيران الكثيرة للختمة فيجمعون بين تضييع المال و التشبه بالمجوس و التسبب إلى اجتماع النساء و الرجال بالليل للفساد و يربهم إبليس أن في هذا إعزاز للإسلام ... و اعتقدوا أن حفظ القرآن يرفع عنهم العذاب ، و ذلك من تلبس إبليس عليهم لأن

¹ - كتاب الأذكار : ص 99 ، 101 .

عذاب من يعلم أكثر من عذاب من لم يعلم " ¹ .

و من خلال كلام ابن الجوزي هذا اتضح لنا المنهج الذي سار عليه في نقد هؤلاء حيث اعتبر أن المنهج القويم في حفظ القرآن و دراسته هو فهمه و العمل به ثم إسقاطه على النفس لتنتهيه و تتحلى بأحسن الصفات ثم يكون الانتقال بعد ذلك إلى دراسة الأهم من علوم الإسلام و شرعه ، أما ما عدا ذلك مما تفعله طائفة من القراء فكله من تلبس إبليس .
أما أصحاب الحديث فقد أخذ عليهم ابن الجوزي جملة من الأخطاء ؛ من بينها أنهم أضاعوا أعمارهم في حفظ الحديث -ون فهمه و التفقه فيه ، و ذهب بعضهم للطواف في البلدان ليقال عنه أنه رحل و تكبد مشاق الرحلة من أجل العلم ، مع أنه في الحقيقة قد يكون لم يغادر بلده مطلقاً ، كما ينجز بعضهم فيقترح في غيره من العلماء بدعوى الجرح و التعديل أضف إلى هذا كله ما يقومون به من رواية الأحاديث الموضوعة و هذا من أكبر الكذب و الجنابة على شرع الله و سنة رسوله .

و شيخنا كلام كثير عنهم نذكر خلاصة ما جاء فيه ، يقول : " من ذلك أن قوما استغرقوا أعمارهم في سماع الحديث و الرحلة فيه و جمع الطرق الكثيرة إلا أن إبليس يلبس عليهم بأن يشغلهم بهذا عما هو فرض عين من معرفة ما يجب عليهم و الاجتهاد في أداء اللزوم و التفقه في الحديث ... فترى المحدث يكتب و يسمع خمسين سنة و يجمع الكتب ولا يدري ما فيها و لو وقعت له حادثة في صلاته لافتقر إلى بعض أحداث المتفهمة الذين يترددون إليه لسماع الحديث منه ... ولم يكن مقصودهم صحيحاً و لا أرادوا معرفة الصحيح من غيره بجمع الطرق ، و إنما كان مرادهم العوالي و الغرائب فطافوا البلدان ليقول أحدهم لقيت فلانا و لي من الأسانيد ما ليس لغيري و عندي أحاديث ليست عند غيري ... و هذا كله من الإخلاص بمعزل و إنما مقصودهم الرياسة و المباهاة و لذلك يتبعون شاذ الحديث و غريبه ... و من تلبس إبليس على أصحاب الحديث قدح بعضهم في بعض طلباً للتشفي و يخرجون ذلك مخرج الجرح و التعديل الذي استعمله قداماء هذه الأمة للذب عن الشرع والله أعلم بالمقاصد ... و من تلبس إبليس على علماء المحدثين رواية الحديث للموضوع من غير أن يبينوا أنه موضوع و هذه جنابة منهم على الشرع و مقصودهم ترويح أحاديثهم و كثرة رواياتهم " ² .

¹ - تلبس إبليس : ص 155 ، 156 ، 157 .

² - المصدر السابق : ص 158 ، 160 ، 162 .

و لقد كان للفقهاء النصيب الأوفر من نقد ابن الجوزي ، و لعل أهم ما أخذه عليهم في هذا الشأن ابتعادهم عن منهج الفقهاء الأوائل و ركونهم إلى الراحة ، فقد كان الإنسان قبل هذين العلوم و السنن يحتاج إلى السفر الطويل و التعب المصنعي أما الآن فقد صنفت الكتب و عرف صحيح الحديث من سقيمه ، لكن المتأخرين من العلماء اخلدوا إلى الكسل فلم يجهدوا أنفسهم و اكتفوا من القرآن الكريم ببعض آيات الأحكام ، و من السنة على بعض كتب الحديث المشهورة فافتقدوا بذلك - في نظر ابن الجوزي - إلى العديد من المواصفات العلمية التي يتحلى بها العلماء .

يقول ابن الجوزي عنهم مستنكرا : " كان الفقهاء في قديم الزمان هم أهل القوان و الحديث فما زال يتناقص حتى قال المتأخرون يكفيننا أن نعرف آيات الأحكام من القوان و لن نعتمد على الكتب المشهورة في الحديث كسنان أبي داود ونحوها ثم استهانوا بهذا الأمر أيضا و صار أحدهم يحتج بآية لا يعرف معناها و بحديث لا يدري أصحح هو أم لا وربما اعتمد على قياس يعارضه حديث صحيح و لا يعلم لقله التفاته إلى معرفة النقل وإنما لفته استخراج من الكتاب و السنة فكيف يستخرج من شيء لا يعرفه ؟ ... و من تلبس بلبس على الفقهاء ، أن جل اعتمادهم على تحصيل علم الجدل يطلبون بزعمهم تصحيح الدليل على الحكم و الاستنباط لقائيق الشرع و علل المذاهب " ¹ .

و بعد كل ما قاله ابن الجوزي عن العلماء ، كأنه لم يكتف بما ذكره انفا عن آفات العلماء في كتابه " تلبس إبليس " فأعاد عليهم الكرة مرة أخرى في كتابه " صيد الخاطر " بكلام أشد قوة في الحجّة و أكثر صراحة و صلابة ، لأن الحق فوق الجميع في منهج ابن الجوزي ، فقال : " فالفارغ مشغول بالروايات ، عاكف على الشواذ ، يرى أن المقصود نفس التلاوة ، و لا يتلمح عظمة المتكلم ، و لا زجر القرآن و وعده ... و المحدث يجمع الطرق ، و يحفظ الأسانيد ، و لا يتأمل مقصود المنقول ، و يرى أنه قد حفظ على الناس الأحاديث ، فهو يرجو بذلك السلامة ... و الفقيه قد وقع له أنه بما قد عرف من الجدل الذي يقوى به خصامه أو المسائل التي يفتي بها الناس ما يرفع قدره ، و يمحو ذنبه ، فربما هجم على الخطايا ظنا منه أن ذلك يدفع عنه ، و ربما لم يحفظ القرآن و لم يعرف الحديث ، ولم يدبر أنهما ينهيان عن الفواحش بزجر و رفق " ² .

¹ - تلبس إبليس : ص 163 .

² - صيد الخاطر : ص 436 ، 437 .

و بعد هذا كله راح ابن الجوزي يتأمل في حالة العلماء فوجدها ليست على ما يرام حيث ابتلوا بالكثير من الآفات ابتعدت يده كثيرا عن سمات العلماء الربانيين و جعلتهم أقرب إلى علماء الدنيا منه إلى علماء الآخرة رغم رداء العبد الشرعي الذي تسربلوا به ، و قد جمعنا أهم هذه الآفات التي ابتلى بها العلماء على يد ابن الجوزي فكانت على هذا النحو .

١ - الاستهانة بالمعصية :

و لعل هذه من أكبر المصائب التي يبتلى بها العلماء ، إذ كيف تخول للعالم نفسه بأن يترخص في المعصية و يستهين بها ، لذلك وجدنا ابن الجوزي لم يستسغ هذا الأمر فانتقد بشدة العلماء الذين اتخذوا علمهم صناعة فهانت في نظرهم المعصية ظناً منهم أن العلم يدفع عنهم فيكتسبون بذلك الكبر و الحمافة ، لكن هؤلاء المغفلين لم يفهموا معنى العلم ولا المراد منه ، إذ لو عرفوا المراد لعلموا أنه يورث الخشية والخوف ، حيث أن العالم يرى المنة لله بالعلم وقوة الحججة له سبحانه على طالب العلم .

و قد ذكر ابن الجوزي نماذج لهؤلاء العلماء ، حيث قال فيهم : " رأيت جماعة من العلماء يعصون الله و يظنون أن العلم يدفع عنهم ، وما يدرون أن العلم خصمهم ، و أنه يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب . وذاك لأن الجاهل لم يتعرض بالحق ، و العالم لم يتأدب معه ... فتفكرت فلذا العلم الذي هو معرفة الحقائق ، والنظر في سير القدماء و التأدب بآداب القوم ، و معرفة الحق و ما يجب له ، ليس عند القوم . و إنما عندهم صور ألفاظ يعرفون بها ما يحل و ما يحرم ، و ليس كذلك العلم النافع . إنما العلم فهم الأصول و معرفة المعبود و عظمته و ما يستحقه ، والنظر في سير الرسول - صلى الله عليه وسلم - و صحابته ، و التأدب بآدابهم و فهم ما نقل عنهم ؛ هو العلم النافع الذي يدع أعظم العلماء أحقر عند نفسه من أجهل الجهال " ١ .

و حبذا لو كانت هذه الاستهانة بالمعاصي من فئة واحدة من العلماء لكان الأمر هيناً و لكن البليّة قد عمت على الجميع ؛ من قراء و فقهاء و محدثين كأنهم يظن أن العلم يدفع عنه شر المعصية ، و كأنهم لا يدرون بأنهم أول من يسأل على المعصية يوم القيامة فقال عن قارئ القرآن : " و ربما ظن أن حفظ القرآن يدفع عنه ، فنراه يترخص في الذنوب ، و لو فهم لعلم أن الحججة عليه أقوى ممن يقرأ " ٢ و قال عن المحدث : " و ربما ترخص في

١ - صيد الخاطر : ص 313 .

٢ - النضر السابق : ص 43٥ .

الخطايا ظنا منه أن ما فعل في خدمة الشريعة يدفع عنه ¹ و قال عن الفقيه : " فر بما هجم على الخطايا ظنا منه أن ذلك يدفع عنه " ² .

و يضرب لنا ابن الجوزي مثلا لهؤلاء العلماء المبخوسين الذين بارزوا الله بالمعصية فيقول : " وقد حكى بعض المعتبرين عن شيخ أفنى عمره في علوم كثيرة ، أنه فتن في آخر عمره بفسق أصر عليه ، و بارز الله به . و كانت حالته تعطي بمضمونها أن علمي يدفع عني شر ما أنا فيه و لا يبقى له أثر . و كان كأنه قد قطع لنفسه بالنجاة ، فلا يرى عنده أثر لخوف و لا ندم على ذنب . قال : فتغير في آخر عمره و لازمه الفقر ، فكان يلقي الشدائد و لا ينتهي عن قبح حاله . إلى أن جمعت له يوما قراريط على وجه الكدية فاستحى من ذلك و قال : يا رب إلى هذا الحد ؟ . قال الحاكي : فتعجبت من غفلته كيف نسي الله - عز و جل - و أراد منه حسن التدبير له و الصيانة و سعة الرزق ، و كأنه ما سمع قوله تعالى : (و أن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) ³ .

و بعد هذا قال ابن الجوزي معقبا على هذه القصة لعل هناك من يأخذ العبرة فيعتبر : " نسأل الله عز و جل يقظة تفهمنا المقصود و تعرفنا المعبود ، و نعوذ بالله من سبيل راع يتسمون بالعلماء ، لا ينهاتهم ما يحملون ، و يعلمون و لا يعملون ، و يتكبرون على الناس بما لا يعملون و يأخذون عرض الأدنى و قد نهوا عما يأخذون ، غلبتهم طباعهم ، و ما راضتهم علومهم التي يدرسون فهم أخس حالا من العوام الذين يجهلون : (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) " ⁴ .

2 - التحاسد :

يرى ابن الجوزي أن الحسد من الأمور التي وضعت في النفس الإنسانية و هو يختلف من إنسان لآخر ، يقول : " و اعلم أن من الأمر الموضوع في النفوس الحسد على النعم ، أو الغبطة و حسب الرفعة ، فإذا رآك من يعتقدك مثلا له و قد ارتقيت عليه فلا بد أن يتأثر وربما حسد " ⁵ ، و السبب الرئيسي للحسد كما راه ابن الجوزي هو حب الإنسان التميز

¹ - صيد الخاطر : 436 .

² - المصدر السابق : ص 437 .

³ - نفس المصدر و الصفحة ، و الآية من سورة الحس : 16 .

⁴ - المصدر نفسه : ص 438 ، و الآية من سورة الزوم : 7 .

⁵ - المصدر السابق : ص 165 .

على بنى جنسه و كراهيته مساواتهم له فلا يزول ألمه الا بزوال نعمة المحسود¹ .
و إذا كان الحسد في الغالب يكون بين العوام ، فقد وجد له طريقا إلى العلماء فنشر
الحقد و البغض و أشعل نار العداوة بينهم و كل ذلك منشأه حب الدنيا كما يقول ابن الجوزي
لأن من كانت غايته عالم الآخرة ان يكون ودودا لا حسودا، أما أشباه العلماء من أمثال
هؤلاء فهم ينظرون إلى كثرة جموع المدعويين لا إلى طرق التأثير عليهم ؛ فغايتهم الدعوية
حب الظهور و الرياسة في الدنيا و لو كان ذلك على حساب الدين و الدعوة .

يقول ابن الجوزي متأملا كعادته : " تأملت التحاسد بين العلماء ، فرأيت منشأه من
حب الدنيا ، فإن علماء الآخرة يتوادون و لا يتحاسدون ، كما قال - عز و جلى - : (و لا
يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا) ... و الأمر الفارق بين الفئتين : أن علماء الدنيا
ينظرون إلى الرياسة فيها ، و يحبون كثرة الجمع و الثناء ، و علماء الآخرة ، بمعزل من
ليثار ذلك ، و قد كانوا يتخوفونه ، و يرحمون من بلى به " ² ، و المصيبة الكبرى أن الحسد
لا يقع إلا في أمور الدنيا أما الآخرة فلا يتحاسد عليها أحد و حتى الحسد الواقع بين العلماء
ليس سببه العلم في حد ذاته كما يقول ابن الجوزي ، ولكن الصيت و السمعة و حب الظهور
و تصدر المجالس هو الذي أتى على الأخضر و اليابس و قد شرح المسألة بقوله : " و اعلم
أنه لا يقع الحسد إلا في أمور الدنيا فإنك لا ترى أحدا يحسد قوام الليل صوام النهار و لا
العلماء على العلم بل على الصيت و الذكر " ³ .

و يذهب - رحمه الله - بعيدا فيرى أنه يجب على العالم المخلص لدينه الابتعاد عن أمثال
هؤلاء العلماء الذين انغمسوا في الكثير من الخطايا ، زيادة على الحسد الذي كان على أشده
فيما بينهم فيقول : " و إن وقعت المخالطة للعلماء فأكثرهم على غير الجادة ، مقصودهم صورة
العلم لا العمل به ، فلا تكاد ترى من تذاكره أمر الآخرة ، و إنما شغلهم الغيبة و قصد الغلبة
و اجتلاب الدنيا . ثم فيهم من الحسد للنظر ما لا يوصف " ⁴

أما علماء الآخرة فلم يكونوا كهذا الصنف الذي ذكر ابن الجوزي ، بل كان الورع
شعارهم و التواضع سمتهم ، يتدافعون الفتوى و لا يتسابقون لإبداء الرأي ما لم يطلب منهم
لأن غرضهم الأول من طلب العلوم " القرب إلى الله - تعالى - دون الرياسة و المباهاة

¹ - الطب الروحاني : ص 24 .

² - صيد الخاطر : ص 17 و الآية من سورة الحشر : 9 .

³ - الطب الروحاني : ص 24 .

⁴ - صيد الخاطر : ص 337 .

و المنافسة " 1 .

و يضرب لنا ابن الجوزي مثلاً من هؤلاء العلماء الربانيين فيقول : " و كان النخعي² لا يستند إلى سارية ، و قال علقمة³ : اكره أن يوطأ عقبى ، و يقال : علقمة . و كلن بعضهم إذا جلس إليه أكثر من أربعة ، قام عنهم ... و إنما كان بعضهم يدعو لبعض و يستفيد منه لأنهم ركب تصاحبوا فتواتوا ، فالأيام و الليالي مراحلهم إلى سفر الجنة " 4 .

و - المبالغة في الحرص على المال :

يأمر ابن الجوزي في كثير من مؤلفاته طالب العلم و العالم بضرورة التكتسب للحصول على المال لجمع الهم وتحسين الحال ، حتى لا يعرض أي منهما نفسه لذل السؤال و ذلك لكون المال طريق للعفة و وسيلة مساعدة في طلب العلم فيقول : " ليس في الدنيا نفع للعلماء من جمع المال للاستغناء عن الناس ، فإنه إذا ضمّ إلى العلم حيز الكمال ، و إن جمهور العلماء شغلهم العلم عن الكسب ، فاحتاجوا إلى ما لا بد منه " 5 . إلا أنه استنكر على العلماء الذين بالغوا في الحرص على المال و راحوا يلهثون وراءه فذهبوا في جمعه مذاهب شتى يقول : " لا ينكر أن الطباع تحب المال ، لأنه سبب بقاء الأبدان لكنه يزيد حبه في بعض القلوب حتى يصير محبوباً لذاته لا للتوصل به إلى المقاصد . وليس العجب أن تكون في الجهال بل العجب أن تكون في أهل العلم ، وينبغي أن يؤثر فيها عند العلماء المجاهدة للطبع و مخالفته ، خصوصاً في الأفعال اللازمة في جمع المال . فأما أن يكون العالم جامعاً للمال من وجوه قبيحة ، و من شبهات قوية و بحرص شديد و بذل في الطلب ، ثم يأخذ من الزكوات ولا تحلل له مع الغنى ، ثم يدخره و لا ينفع به ، فهذه بهيمية تخرج عن الصفات الأدمية ، بل البهيمية أعذر لأنها بالرياضة تتغير طباعها ، و هؤلاء ما غيرتهم رياضة و لا أفادهم العلم " 6 .

و بعد رده على مذاهب العلماء في جمع المال ، انتقل بنا للحديث عن المنهج السليم

1 - إحياء علوم الدين : الغزالي ، 1 / 101 .

2 - النخعي : إبراهيم بن يزيد بن الأسود النخعي ، بكى أبا عمران ، أدرك جماعة من الصحابة ، كان يهوى الشهرة ، مهاها نوق زان الحجاج و هو ابن 49 سنة ، صفة الصفوة : ابن الجوزي ، دار الجيل ، بيروت ط 1 ، 1992م ، 1 / 51 ، 52 .

3 - علقمة : هو علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك النخعي ، كان يحتم القرآن كل خمس ، أسند عن عمر و عثمان و علي و ابن مسعود و غيره نوق و له 90 سنة ، صفة الصفوة : 2 / 14 ، 15 .

4 - صيد الخاطر : ص 17 ، 18 .

5 - المصدر السابق : ص 161 .

6 - نفس المصدر : ص 291 ، 292 .

الذي لا يخرج في نظره عن إطار التوسط و الاعتدال ؛ فلا بأس للعالم أن يطلب المال بقدر حاجته ليعيش متعافيا غير طامع مما في أيدي الناس، يقول ابن الجوزي : " فأسعد الناس من له قوت دار بقدر الكفاية ، لا من منن الناس وصدقائهم و قد قنع به ... وليقنع بالقليل ، فإنه متى سمت همته إلى فضول المال وقع المحذور من التشنت في الأول للعدم ، و هذا التشنت يكون للحرص على الفضول فيذهب العمر على البارء " ¹.

4 - اتباع الهوى :

ومن الأمراض المستعصية التي حذر ابن الجوزي منها العلماء اتباعهم للهوى فقد تأمل هذا المرض و رأى نتائجه الوخيمة على العلماء ، لقد أوقعهم في مزاللق و أرداهم في مهالك ، و إذا كان العالم متبعا لهواه فهل يلام العامي على ما يفعل ؟ و ليتهم كانوا قلة فهم الأكثرية كما يقول ابن الجوزي : " تأملت العلماء فرأيت أكثرهم يتلاعب بهم الهوى و يستخدمه ، فهو يؤثر ما يصده العلم عنه ، و يقبل على ما ينهاه ، و لا يكاد يجد ذوق معاملة الله - سبحانه - و إنما همته أن يقول و حسب " ² .

لكن ابن الجوزي يحمده الله أن الأرض لم تخل في كل عصر من العلماء العاملين الذين يردون على أدعياء العلم كيدهم في نحورهم ، حتى و لو كانوا قليلي العلم و العمل فالعبرة بحسن القصد و رسالية الهدف ، فقال : " إلا أن الله لا يخلى الأرض من قائم له بالحجة ، جامع بين العلم و العمل ، عارف بحقوق الله - تعالى - خائف منه ، فذلك قطب الدنيا ، و متى مات أخلف الله عوضه و ربما لم يمت حتى يرى من يصلح للنيابة عنه فسي كل نائبة " ³.

5 - الخضوع للحكام :

ومن جملة ما استنكره على العلماء و طالبي العلم دخولهم على السلاطين و الأغنياء و مخالطتهم لأرباب الولايات و تطلعتهم إلى النيل من هباتهم و عطاياهم فيعرضون أنفسهم للنل و الهوان و السكوت عن المنكر ، و قد تحدث كثيرا عن هذه الآفة فقال : " رأيت خلقا من العلماء و القصاص تضيق عليهم الدنيا فيفزعون إلى مخالطة السلاطين لينالوا من أموالهم " ⁴ ، و ابن الجوزي يوضح لنا أن السبب المباشر الذي أدى بهم إلى مخالطة هؤلاء

¹ - صيد الخاطر : ص 303 .

² - المصدر السابق : ص 56 .

³ - نفس المصدر : ص 56 .

⁴ - المصدر السابق : ص 388 ، و قد أشرنا بالتفصيل إلى الحديث عن العلماء و الحكام في فصل أصناف المدعوين عند ابن الجوزي .

هو الفقر والحاجة ، ومع ذلك فهو لا يرى أن هذا مبررا كافيا لهم للإقدام على هذا العمل
المشين وخاصة لنا علموا أنيا أرزاق حرام فيقول :¹

و العلماء لقسوة فقرهم و شدة شرهم ، يوافقون و ينخرطون في سلوكهم¹ ، و كم
شامت ابن الجوزي أمثال هؤلاء العلماء الذين حضعوا لأصحاب السلطان فكانت عاقبتهم
الخراب المبين ، و كان الأجر بهم الحصول على كسرة و قعب ماء أو ابن ثم يبيتون ليلهم
في سلامة و عافية خير من صرة نانير تلحقها لعنة ألف ملك² ، و قد شهد ابن الجوزي هذا
الذي لحق بالعلماء و هم يتواضعون للأغنياء و أصحاب السلطة و يذلون لهم طمعا فيما
عندهم ، بينما لا يحفل بهم الأغنياء ، فيعقب على هذا المشهد المؤثر و المؤلم قائلا:
و إنما أعود باللوم على العلماء ، و أقول : ينبغي لكم أن تصونوا أنفسكم التي شرفت بالعلم
عن الذل للأندال . وإن كنتم في غنى عندهم كان الذل لهم و الطلب منهم حراما عليكم ، و إن
كنتم في كفاف فلم لم تؤثروا التنزه عن الذل بالعفة عن الحطام الفاني الحاصل بالذلة³ .

و من خلال ما ذكرنا اتضح لنا ان المنهج الذي اعتمده ابن الجوزي في التعامل مع
أصحاب السلطة و من بيدهم القرار يكمن في الابتعاد عنهم قدر المستطاع⁴ ، إلا إذا كانت
مصلحة الدعوة تقتضي الاقتراب منهم ، و لكن دون الرغبة في نيل عطاياهم ، و قد زاد هذا
الأمر توضيحا عندما حاول أن يعطي المفهوم الحقيقي للسعادة في نظره فيقول : " فالسعيد
من اقتنع بالبلغة ، فإن الزمان أشرف من أن يضيع في طلب الدنيا ، اللهم إلا أن يكون
متورعا في كسبه ، معينا لنفسه عن الطمع ، فاصدا إعانة أهل الخير و الصدقة على
المحتاجين فكسب هذا أصلح من بطالته . فاما الصعود الذي سببه مخالطة السلاطين فبعيد
أن يسلم معه الدين ، فإن وقعت سلامته ظاهرا فالعاقبة خطيرة"⁵ .

والذي يمكننا أن نخلص إليه من خلال نظرة ابن الجوزي للعلماء ؛ أن الصورة النقدية
التي عرضها عن بعض علماء عصره ، تكاد تتكرر في كل عصر ، و كأن التاريخ يعيد نفسه
اليوم وهذا من خلال ما نلاحظه من تدهور مكانة العلم ، و سوء حال العلماء و ضياع هيبتهم .

¹ - سيد الخاطر : ص 390 .

² - المصدر السابق : 286 ، 287 .

³ - نفس المصدر : ص 209 .

⁴ - تحدثت بالتفصيل عن موقف ابن الجوزي من دولة العلماء بالحكام في فصل أصناف المدعوين عند ابن الجوزي ، في مبحث

ابن الجوزي و دعوة الحكام لذلك القصر على ما لم أذكره سابقا تعبنا للإطالة و التكرار .

⁵ - سيد الخاطر : ص 286 .

الفصل الثاني

محاوِر الدعوة والإصلاح

ويتضمن أربعة مباحث

المبحث الأول : نظرة ابن الجوزي للوقت
والدنيا والموت

المبحث الثاني : ابن الجوزي والقصاص

المبحث الثالث : ابن الجوزي والصوفية والزهاد

المبحث الرابع : ابن الجوزي وأهل البدع

المبحث الأول

نظرة ابن الجوزي للوقت و الدنيا و الموت

١ - الوقت عند ابن الجوزي :

يعتبر الإمام ابن الجوزي من الدعاة الذين كان لهم السبق في إدراك غياب الوعي بوظيفة الإنسان في مختلف فترات عمره و عدم إحساسه بقيمة الوقت من أهم الأسباب التي أدت إلى اضطراب الإنسان و قلقه و فقدانه لتوازنه النفسي .

* - قيمة الوقت :

لقد كان للوقت قيمة عظيمة عند ابن الجوزي و من المظاهر التي ندل على هذه القيمة كونه - رحمه الله - كان شديد الحرص على الوقت، حيث أدى به حرصه هذا إلى تأمل حال الناس و صنيعهم بأوقاتهم فرأى مدهم عجباً ، يقول في وصف حالهم : " رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعا عجيبا ، إن طال الليل فبحديث لا ينفع ، أو بقراءة كتاب فيه غزاة و سمر . و إن طال النهار فبالنوم . و هم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة و هي تجري بهم و ما عندهم خبر " ^١ و لم يكتف بهذه الصورة السمجة التي رسمها لهم ، بل راح ينعي عليهم غاضبا حانقا بقوله : " فلله الله في مواسم العمر ، و البدار البدار قبل الفوات " ^٢ .

و لهذه القيمة الكبرى للوقت و التي لا تضاهيها قيمة أخرى عند ابن الجوزي ، كان يرى أن عمر الإنسان مهما عاش هو أقصر و انفس من أن يفرض منه في نفس " ^٣ و ذلك لأن فرصة العمر لا تتكرر ، و الحياة مهما طاللت فإنها لا تدوم ، و كم تزداد حسرة الإنسان إذا ضاعت منه أيام حياته و هو في غفلة من أمره ، و يحدثنا ابن الجوزي عن حاله في زمن اللبوة حيث كان يرى أن مرضه في ضياع أوقاته و المعافاة في اغتنامها فيقول : " أه على زمان ضاع في غير خدمتك ، أسفا لوقت مضى في غير طاعتك ، قد كنت إذا لتببت وقت الفجر لا يؤلمني طول الليل ، و إذا انسلخ عني النهار لا يوجعني ضياع ذلك اليوم ، و ما علمت أن عدم الإحساس لقوة المرض ، فالآن قد هبت نسائم العافية ، فأحسست

^١ - مبد الخاطر : ص 142 .

^٢ - المصدر السابق : نفس الصفحة .

^٣ - نفس المصدر : ص 206 .

بالأم فاستدللت على الصحة¹ ، و هكذا تمت لابن الجوزي العافية المرجوة و عاد إليه صفاء النفس بعد لحظات التكدير . فانكب ينصح هذا الإنسان الغافل بأن يستشعر قيمة العمر الذي يحياه في شتى مراحل حياته لأن من عرف شرف العمر و قيمته لم يفرط في لحظة منه² فليُنظر الشاب في حراسة بضاعته ، و لينحفظ الكهل بقدر استطاعته ، و ليتزود الشيخ للحاق جماعته ، و لينظر الهرم ان يُوخذ من ساعته³ .

و ابن الجوزي يكثر من الإلحاح على ضرورة الانتباه لقيمة الوقت ، و ذلك لما يعلمه من الأثر السيئ الذي ينجر عن هذا التضييع فيقول متأسفاً : " أسفا لمن ضيَع الأوقات و قد عرفها ، و سلك بنفسه طريق الهوى فانلفها . أنس بالدنيا فكانه خلق لها و أمه لا ينتهي و أجله قد انتهى ، سَلَمَت إليه بضائع العمر فلعب بها⁴ ، ثم ينبه - رحمه الله - كل ذي عقل و بصيرة بأن لا يفتتر بأوقات الملذات و الشهوات ، و ينسى الأجل الذي يلاحقه و في كل لحظة يطارده ، و هو مقبل على سفر و لا زاد له فيقول : " اعلم أن الأدمي ابن وقته لأن ما مضى لا لذة له . لا تغترز بمد المهل و لا تنس قرب الأجل فالأيام مراحل و ستصل الرواحل ، تأهب لحوض سترده ، يا خاسرا رأس المال و ما يفتقده ، يا طالب طول البقاء و ما يجده⁵ .

و ما أروع ابن الجوزي في إحصائه للساعات التي نعيشها في هذه الفانية ، فإذا افترضنا أن بقاء الإنسان في الدنيا ستين سنة " فإنه يمضي منها ثلاثون سنة في النوم و نحو من خمس عشرة في الصبا ، فإذا حسب الباقي ، كان أكثره في الشهوات و المطاعم و المكاسب ، فإذا أخلص ما للأخرة وجد فيه من الرياء و الغفلة كثيرا ، فبماذا تشتري الحياة الأبدية ، و إنما الثمن هذه الساعات ؟⁶ .

إذن فمن الواجب أن يعلم الإنسان شرف الأوقات و كيفية المحافظة عليها ، ليدرك أنه ربما أن تلك اللحظة التي ضيعها - و هو لا يدرى - هي وقت قضاء الحاجات و إسداء النعم من المنعم - سبحانه و تعالى -⁷ ، من أجل ذلك لم يسأم ابن الجوزي من وعظ ابنه

1 - صيد الخاطر : ص 79 .

2 - نبيه التاليم الغمر : ص 130 .

3 - النبصرة : 1 / 82 .

4 - المصدر السابق : 1 / 332 .

5 - لفنة الكبد : ص 26 .

6 - التدكرة في الرعظ : ص 34 .

و إهداء النصح له حتى يعرف قيمة الوقت كما عرفه هو فقال له : " فانتبه يا بني لنفسك
و انسد على ما مضى من تقربك ، و اجتهد في لحاق الكاملين ما دام في الوقت سعة
و اسق غصنك ، ما نامت فيه رطوبة ، و انكر ساعتك التي ضاعت فكفى بها عظة " ¹ .
• - سبب ضياع الأوقات :

يورد ابن الجوزي جملة من الأمور رأى بأنها من الأسباب المباشرة لضياع أوقات الناس
و عدم إحساسهم بها ، و ذلك من خلال العيب من ملاحظاته لإهمال الكثير من الناس
لأوقاتهم دون شعور منهم .

و ما لفت نظره و شد انتباهه وجود كثير من الناس لا قيمة للحياة عندهم ، و من
ضمن هؤلاء أصحاب الأموال الذين يجلسون في الأسواق طول يومهم فيرون ما يحدث من
منكر و أفات و لا يحركون ساكنا يقول معبرا عن هذا المشهد الذي حز في نفسه : " و لقد
شاهدت خلقا كثيرا لا يعرفون معنى الحياة ، فمنهم من أغناه الله عن التكسب بكثرة ماله
فيو يقعد في السوق أكثر النهار ينظر إلى الناس ، و كم تمر به من آفة و منكر " ² .

و صنف آخر تحدث عنه ابن الجوزي و هم أصحاب اللهو و البطالة الذين يقضون
أوقاتهم في لعب الشطرنج ، فيضيعون حق الله و يغلطون عن عبادته ، و يضيعون حقوق
العباد ممن يعولونهم فلا يلتفتون اليهم برعاية أو عناية و تهذيب ، و طائفة أخرى ليس لها
هم سوى الحديث عن أحوال السلاطين و الغلاء و الرخص في الأسواق و كان هدفهم من
الحياة لا يتعدى هذا الشأن لذلك لم يوقمهم الله - سبحانه - فيلهمهم الاطلاع على شرف
الأوقات و معرفة قدرها فكان الله أعمى أبصارهم بعد أن أعمى بصائرهم إذ أنهم لم يعرفوا
المغزى من وجودهم و لا الرسالة التي كلفوا بتبليغها ، فحجب عنهم معرفة قدر أوقات
العافية فرخصت قيمتها عندهم فلم يجد رحمة الله بد من ان يقول فيهم : " و منهم من يخلو
بلعب الشطرنج ؛ و منهم من يقطع الزمان بكثرة الحوادث من السلاطين و الغلاء و الرخص
إلى غير ذلك ، فعلمت أن الله - تعالى - لم يطلع على شرف العمر و معرفة قدر أوقات
العافية إلا من و فقه و ألهمه اغتنام ذلك " ³ .

و من أسباب ضياع الأوقات التي سجلها ابن الجوزي كذلك كثرة التزاور بين الناس

¹ - لفنة الكبد : ص 23 .

² - سيد الخاطر : 228 .

³ - المصدر السابق : ص 228 .

هذا الأمر الذي اتخذوه مدعاة للجلوس و طول المكوث عند المزار في أيام الأعياد و المناسبات حيث بالغوا في ذلك حتى ضاعت عليهم الأوقات و فانتهم اللحظات يقول : " لقد رأيت خلقا كبيرا يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة ، ويسمون ذلك التردد خدمة ، و يطلبون الجلوس ويجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعني ... و خصوصا في أيام للتهاني و العيد ، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض ، و لا يقتصرون على الهناء و السلام بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان " ¹

و من أسباب التي أسهمت في هدر الأوقات و تضييعها في رأي ابن الجوزي ما سجله و هو في غاية الأسى مما يفعله بعض الأسيخ في عصره من ارتياحهم لحضور الناس عندهم و سماع الأحاديث التي تساعد على الذهول و الغفلة عن الله و عن الآخرة و الذي كان يفترض أن يكونوا هم القدوة للعوام في مجال المحافظة على الأوقات و حسن استغلالها يقول في ذلك متأسفاً : " و قد رأينا جماعة من الأسيخ يرتاحون إلى حضور الناس عندهم ، و سماع الأحاديث التي تضر و لا تنفع ، فمضى زمانهم في غير شيء و لو فهموا كانت تسيحة أصلح . و هذا لا يكون إلا من الغفلة عن الآخرة ؛ لأن بتسيحة واحدة يحصل الثواب على ما ذكرنا . و الأحاديث الدنيوية تؤذي و لا تنفع " ² .

و لكن الذي يمكننا أن ننبه عليه هو سبب هذه العناية التي أولاهها ابن الجوزي للوقت و حثه على عدم التفريط فيه ، فلاشك أن هناك من الدوافع الملحة و الأمور المهمة التي جعلته يسير في هذا الاتجاه و لعل من بين هذه الأسباب كثرة تضييع الناس لأوقاتهم بشكل فاحش و ملفت للانتباه ، حتى كره ابن الجوزي منهم ذلك فقال : " فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء ، و الواجب انتهاؤه بفعل الخير كرهت ذلك و بقيت منهم بين أمرين " ³ ، كذلك ما كان يتخلل تضييع الأوقات من الحديث في أعراض الناس و إطلاق الألسنة في اغتيابهم ⁴ و هذا جمع بين مصيبتين أولاهما تضييع الوقت و ثانيهما الغيبة .

أضف إلى أن تضييع الزمان صار عادة مستحكمة في الناس فكان لا بد من ابن الجوزي و هو المصلح و الداعية أن يقبحها لأهل عصره لعلهم يكفوا عنها فقال : " و هذا شيء يفعله

¹ - صيد الخاطر : ص 227 .

² - تبيه للنائم الفسر على مراسم العمر : ص 129 .

³ - صيد الخاطر : ص 227 .

⁴ - المصدر السابق : ص 227 .

في زماننا كثير من الناس ¹ . كذلك فإن تضييع الأوقات يفوت المقاصد على الناس فيقعوا في اللوم لأنفسهم .

زيادة على هذا فإن الإنسان كالأجير و زمان العمل في هذه الدنيا إذا ما أضيف إلى وقت البقاء في القبر لا يساوي شيئاً بما يمكنه الإنسان في الجنة أو النار ، فلماذا يضيع الإنسان وقته جرياً وراء الفانية و ينسى الباقية يقول ابن الجوزي : " ثم إن اللبيب يعلم أنه لم يخلق عبثاً و إنما هو في الدنيا كالأجير أو كالتاجر ، ثم إن زمان العمل بالإضافة إلى مدة البقاء في القبر كلحظة ثم إضافة ذلك إلى البقاء السرمدي إما في الجنة و إما في النار ليس بشيء " ²

• - منهج ابن الجوزي في المحافظة على الأوقات :

و قد بلغ ابن الجوزي الذروة في المحافظة على وقته و اتخذ لنفسه في ذلك منهجاً يمكن لكل ذي عقل و بصيرة أن يسير عليه ليتحقق له السمو في الدنيا و الرضى و المغفرة في الآخرة ، و مما جاء في حيثيات هذا المنهج و خطواته ما يمكننا أن نبرزه على هذا النحو .

لقد كانت أولى خطوات ابن الجوزي في هذا الموضوع عملية إذ لم يكن الرجل يحفل بالأقوال فقط أو يعتمد على التوجيهات النظرية لأنها قد لا تجدي نفعا مع بعض الناس في مثل هذه الظروف و خاصة في هذه القضايا الحساسة التي لا بد من الفصل فيها بأقصر طريق ممكن فقد كان رحمه الله يختصر الكلام مع جلسائه حتى يعجل فراقهم ، و أثناء جلوسه إليهم يشتغل بترتيب الكتب و بري الأقلام و إعداد أوراق الكتابة ، كل هذا لتلا يضيع من وقته شيء يقول في ذلك معبراً عن حاله : " فصرت أدافع اللقاء جهدي ، فإذا غلب قصرت في الكلام لأتعب الفراق ، ثم أعددت أعمالاً تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لتلا يمضي الزمان فارغاً . فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد و بري الأقلام ، و حزم الدفاتر ، فإن هذه الأشياء لا بد منها ، و لا تحتاج إلى فكر و حضور قلب ، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لتلا يضيع شيء من وقتي " ³ . و عمله هذا ليس بدعا منه فقد سبقه إليه من احتج بأقوالهم و أفعالهم ، فيذكر لنا أن العلماء الأقدمين كانوا يحذرون من تضييع الزمان

¹ - انظر صيد الخاطر : ص 227 ، 479 .

² - الطب الروحاني : ص 47 .

³ - صيد الخاطر : ص 228 .

و منهم من كان يعد كلامه من الجمعة إلى الجمعة¹ .
و من أهم ما ركز عليه في كيفية المحافظة على الأوقات أن تستغل في أحسن الأقوال
والأفعال و خاصة لمن علت سنه و لم يبق من عمره إلا القليل ، و يأتي بأمثلة كثيرة عن
علماء السلف و كيف كانوا يقضون الأوقات في كل ما ينفع من الطاعة و البر لكونهم عرفوا
شرف العمر فاشتتموه قال ابن الجوزي في ذلك : " و لم يبق في زمان الهرم إلا تدارك ما
مضى ، و الاستغفار ، و الدعاء ، و عمل ما يمكن ، من الخير ، اغتناما للساعات و التلهب
للرحيل " ² .

و مما يدعو إلى المحافظة على الأوقات في منهج ابن الجوزي تذكر الموت الذي
يكون أهم دافع للإنسان لكي يستغل أيامه في أحسن الأعمال و خاصة التي تبقى موصولة
الأجر بعد موته ، فالإنسان إذا بالغ في الجد و علم " بأن الموت يقطعه عن العمل ، عمل
في حياته ما يدوم له أجره بعد موته . فإن كان له شيء من الدنيا ؛ وقف وقفا ، و غرس
غرسا ، و أجرى نهرا ، و يسعى في تحصيل نرية تذكر الله بعده ، فيكون الأجر له " ³ .
و من الأمور المهمة التي تساعد على اغتنام الأوقات في رأي ابن الجوزي النظر في
سير الصالحين و المجتهدين من العلماء الأخيار ليكونوا قدوة لأهل الكسل و البطالة و لأنه
أنفع علاج لهم فقال : " و من أنفع العلاج للنظر في سير المجتهدين فالعجب من مؤثر
البطالة في موسم الأرباح " ⁴ .

و مما ينبغي الإشارة إليه أن الاستعداد و التزود لرحلة الموت و الآخرة ، يزيد العاقل
إصرارا على حسن اغتنام الأوقات على رأي ابن الجوزي حيث يقول : " الواجب على
العاقل أخذ العدة لرحيله ، فإنه لا يعلم متى يفجؤه أمر ربه ، و لا يدري متى يستدعى ؟
و لبي رأيت خلقا كثيرا غرهم الشباب و نسوا فقدان الأقران ، و أهالهم طول الأمل " ⁵ .
لذلك لا يجوز التفريط في نفس واحد من هذا الزمان ، لأن تركه يمضي في غير طاعة الله
في الدنيا يكون حسرة و ندامة يوم القيامة ، بهذا أوصى ابن الجوزي أقرب الناس إليه ؛ ابنه

¹ - ميد الخاطر : 479 .

² - تيه النائم الفجر على مواسم العمر : ص 128 .

³ - ميد الخاطر : ص 20 .

⁴ - الطب الروحاني : ص 47 .

⁵ - ميد الخاطر : ص 15 ، 16 .

ابن قتادة¹ بن أخت الأحنف بن قيس ، الذي كان حكيم قومه فكسانوا إذا أشكلت عليهم
معضلة أخذوا رأيها ولما كان ذات يوم في داره ، و إذا بالقوم قد اجتمعوا بالباب ، " فقام
ولبس ثيابه وقال : لا يراني اس حمارا لحاجة بني تميم بعد اليوم ، يا بني تميم قد وهبتكم
شبابي فهل إليّ مثيبي ؟ " ثم اعتزل و لزم العبادة و الاجتهاد حتى مات " ³ .

و من أحسن كلامه تأثيرا في السامعين قوله : " اسمعوا يا معشر الأصحاء ، اغتتموا
نعمتي السلامة و الإمبال ... فقد جزيتك على النفس تسييرها في بضاعة العمر ، فانتهبوا
لحفظ الباقي ، (و لا تؤتوا السفهاء أموالكم) ⁴ ، أيام العمر معدودة ، و سيفنى العدد
و طريق صعوبة على قلة العدد ، أترارك تظن أنك تبقى إلى الأبد ؟ " ⁵ .

و مما ساعد ابن الجوزي على أن يحرك مشاعر الناس و يدغدغ عواطفهم اعتماده
على الواقع و أخذ الأمثلة منه حتى يعتبر المدعوون و يفيق منهم الغافلون فاسمع إليه و هو
يقول : " فكم يضيع الأسمي من ساعات يفوته فيها الثواب الجزيل ، و هذه الأيام مثل
للمزرعة ، فكأنه قيل للإنسان كلما بذرت حبة أخرجنا لك ألف كر ، فهل يجوز للعاقل أن
يتوقف في البذر و يتوانى " ⁶ .

و ليزيد تأثيره في السامعين يقول متأوها : " واهما لزمان طاب لنا وما أسرع ما
ولى ، و فني ما غردت الوراقي على غصن إلا و أهاجت حزني ، يا عيني أعيني قلبا قلقا
بالنمغ ؛ ليطفئ نار الشجن أصبحت أسيرا في خطئي ، و ذنوبي قد ملأت بدني " ⁷ .
و لقد كان ابن الجوزي يعيب على نفسه التقصير و عدم مبادرتها بالأوقات رغم

¹ - ايلس قتادة التميمي ، كان فاضلي قومه اسد عن قيس بن عباد و ابي كعب ، ثم شغل بالتعب عن الرواية عن الرواية ، انظر
ترجمته : حلية الأولياء لابي نعيم ، دار الكتب العربي ، بيروت ، ط 3 ، 1980 م ، مج 2 ، 110/3 ، 111 ، صفة الصغرة :

132 / 2 ، ترجمة رقم : 491 .

² - الأحنف بن قيس بن معاوية التميمي (7 ق و د - 2 هـ) أحد العظماء الفاضل بضرب به المثل في الحلم و السواد ، أدرك
الرسول صلى الله عليه و سلم و م يره ، له خطب و أحبار كثيرة في كتب التاريخ و المناقب ، انظر ترجمته في الاستيعاب في معرفة
الأصحاب : لابن عبد الوهب ، عمير عيسى محمد ، معرض ، عادل أحمد ، عبد الوحود ، ترجمه 101 ، 1 / 230 - وفيات الأعيان :

2 / 499 ، سير أعلام النبلاء : 4 / 80 ..

³ - الواعظ و الهامس : ص 47 .

⁴ - النساء : 5 .

⁵ - الواعظ و الهامس : ص 115 .

6- صيد الغاظر: ص 480

7- البيهقوتة: ص 77

ما عرف عنه من شدة اهتمامه بها فيقول لها معانينا : يا نفس : بادري بالأوقات قبل
انصرامها و اجتهدي في حراسة ليالي الحياة و ايامها ، فكأنك بالقبور و قد تشققت
و بالأمور و قد تحققت و بوجوه المتقين و قد اشرفت ، و برؤوس العصاة و قد أطرفت .
يا نفس : اما الورعون فقد جنوا . و اما الخائفون قد استعدوا . و اما الصالحون فقد راحوا
و اما الواعظون فقد صاحوا ¹ .

و مما ساعده على حس التأثير في الناس تزكيته لمن عرفوا أهمية الأوقات و بادروا
باغتنامها قبل فوات اوانها و سميهم بالعارفين فقال فيهم : " و شدد العارفين بزمانهم ، إذ
باعوا ما شانهم بإصلاح شانهم ، ما أقل ما تعبوا ، و ما أيسر ما نصبوا ، و ما زالوا حتى
نالوا ما طلبوا ، شَمَرُوا عن سوق الجد في سوق العزائم ، و أصبحوا منزل النجاة و أنت
باللهو نائم " ² .

و مما يدل على أصالة منهج ابن الجوزي في باب العناية بالأوقات ترسمه لخطي
الدعاة من الأنبياء كيوسف عليه السلام - و كيف اغتتم فرصة وجوده في السجن
ليستغلها في الدعوة الى الله فسار ابن الجوزي على هذا النهج مشيدا بضرورة استغلال
الأوقات في الدعوة في كل اللحظات . و كسبيل لتوضيح ما أريد الوصول اليه يذكر قصة
اللس الذي " تسوّر على مالك بن دينار " -اره . فلم يجد في الدار شيئا يسرقه ، فراه و هو
قائم يصلي ، فأوجز مالك في صلاته ، ثم التفت الى اللص ، و سلم عليه . و قال : يا أخي
تاب الله عليك ، دخلت منزلي فلم تجد ما تأخذه ، و لا أدعك تخرج إلا بفائدة ، و قام و أتاه
بإناء فيه ماء ، و قال له : توضأ و صل ركعتين . فأنك تخرج بخير مما جئت في طلبه
فقال له اللص : نعم و كرامة . و قام و توضأ و صلى ركعتين ، و قال : يا مالك أيخف
عليك أن أزيد ركعتين آخرتين ؟ قال : زد ما قدر الله لك ، فلم يزل اللص يصلي إلى الصبح
فقال له مالك : انصرف راشدا . فقال يا سيدي أيخف عليك أن أقيم عندك هذا اليوم فإني قد
نويت صيامه ؟ ، فقال له مالك : أقم ما شئت . فأقام عنده أياما صائما قائما ، فلما أريد
الانصراف قال اللص : يا مالك قد نويت التوبة . فقال مالك : ذلك بيد الله - عز و جل -
فتاب اللص و حسنت توبته . و خرج من عنده فلقية بعض اللصوص فقال له : أظنك وقعت

¹ - الباهوتة : ص 80 .

² - المواعظ و المناسخ : ص 70 .

³ - مالك بن دينار البصري ، كان ورعا فورا ، أكل من كسبه ، و كتب المصاحف بالأحمر ، صدوقا ، عابدا ، أخرج له

الأربعة في سنتهم ، توفي سنة 131 هـ . تاريخ بغداد ، نظر ترجمته وفيات الأعيان : 1 / 139 - سير أعلام النبلاء : 5 / 362 .

بكنز؟ ، فقال : يا أخي وقعت بمالك بين دينار ، جنت لأسرقه فسرقني ، و قد تبت إلى الله
- عز وجل - و هنا أنا ملازم الباب فلا أرح حتى أنزل ما ناله الأحباب " ¹ .
فكيف لا يؤثر في مشغوبه من كان بهذا الأسلوب في الرقة ، و بهذه الألفاظ في العذوبة؛ التي
شهد له بها جماهير من العلماء ² .

و كخلاصة للموضوع أم نجد بدا من تكوين بعض الذرر الوعظية التي جادت بها
قريحة ابن الجوزي في هذا المجال ، مما قاله في فضل الأوقات و الإشادة بمغنتميتها في
مرضاة الله حتى نعرف لسبب الخفي الذي جعل وعظ ابن الجوزي يأخذ بالقلوب و العقول
مما قال رحمه الله : لله در أقوام انهبوا اعمارهم في طلبي و اتعبوا اعضاءهم في
لرضي و واجبي و قطعوا قواطعهم لأجل التعلق بي ، و حلموا على الجهال خوفا من
غضبي ، فإذا مروا على النار . قالت : جريا يا مومن فقد أطفأ نورك لهبي " ³ .
و قال أيضا : " يا من له قلب ومضات ، يا من كان له وقت و فات ، أشرف الأشياء قلبك
و وقتك ، فإذا أهملت قلبك و ضيعت وقتك : فقد ذهب منك الفوائد ، أو كنت تبكي على
ما فات فابك على وقتك :

و يبكي على الموتى و يفرك نفسه و يزعم أن قد قل عنها عزاؤه

و لو كان ذا رأي و عقل و فطنة لكان عليه لا عليهم بكاؤه " ⁴

و اسمع إليه و هو يقول : " إخواني : السنون مراحل ، و الشهور فراسخ ، و الأيام
أميال ، و الأنفاس خطوات ، و الطاعات رؤوس أسوال ، و المعاصي قطاع الطريق و الربح
الجنة ، و الخسران النار ، لهذا الخطيب شمر المتقوت عن سوق الجد في سوق المعاملة " ⁵ .
و من أحسن ما قال في تضييع الزمان : " اسمع يا مضيع الزمان فيما ينقض الإيمان ، يا
معرضا عن الأرباح متعرضا للخسران ، متى تذبذبت من رفادك أيها الوسنان ؟ إلى متى
ترفض قول الناصح و قد أتاك بأمر واضح ؟ " ⁶ .

و مما قاله في موعظة استدرك وقتك قبل فوات الأوقات " : " يا هذا ، إلى كم أنت

¹ - المرائض و المجالس : ص 66 .

² - الذيل على طبقات الختابة : بين رجب الخليل ، ص 112 .

³ - الباقوة : ص 88 ، 89 .

⁴ - المصدر السابق : ص 103 .

⁵ - المرائض و المجالس : ص 80 .

⁶ - المصدر السابق : ص 194 .

بالملاهي لاهي ، تطع حين أسرفت في المناهي ناهي ، أفق أيها السابح في بحار الغمرات
و استدرك وقتك قبل انصرام الأوقات، فما من حسن الأخلاق أن تكون ثياب أعمالك أخلاق
إلى كم أزرعك و أنت لا تنزجر ؟¹

و قد نشئت حدة ابن الجوزي على المدعوين أحيانا إذا وجد التواني و التراخي هو
سيد الموقف فيقول حانقا : " اسمع : يا من أنفاسه محفوظة ، و أعماله ملحوظة ، أنتفق
العمر النفيس في نيل الهوى الخسيس ؟²

و في آخر المطاف لا يجد ابن الجوزي في مقدوره سبيلا سوى أن يوضح للإنسان عاقبة
التقريط في عمره و الذي هو أمانة في عنق صاحبه ، إن سخره للخير أفلح و نجا و إن
خان و ضيع الأمانة فما عليه إلا التوبة قبل أن يغلق بابها فيندم حيث لا ينفعه الندم فيقول
له : " و العمر أمانة أتلفت شبابها في الخيانة و كهولته في البطالة ، و في الشيخوخة تبكي
و تقول : عمر قد ضاع ، متى أفلح الخائن فيما اشترى أو باع ، أنت في طلب الدنيا صحيح
الجسم ، و في طلب الآخرة بك أوجاع ... رافق رفاق التائبين قبل أن تنقطع بين
المنقطعين " ³

٢ - الحياة الدنيا :

• - نظرة ابن الجوزي إلى الدنيا :

لم تكن محافظة ابن الجوزي على الزمان من أجل التمتع بملذات الدنيا كما هو سبيل
الكثير ممن يلهث وراءها ، بل كان مراده من أجل التزود للآخرة و عدم نسيانها . و لما
صارت الحياة الدنيا هي الشغل الذي بات يشغل الناس ، فقد حمل ابن الجوزي في مجالسه
الوعظية و الدعوية على الإنسان الغافل حملة عنيفة و ذلك عن طريق ذم الدنيا التي تعلق
بها القلوب و العقول ، رغم أن القرآن الكريم قد كشف عوراتها حين قال " (و اعلموا أنما
الحياة الدنيا لعب و لهو و زينة و تفاخر بينكم و تكاثر في الأموال و الأولاد كمثل غيث
أعجب الكفار نباته ثم بهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما، و في الآخرة عذاب
شديد و مغفرة من الله و رضوان و ما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) ⁴

¹ - المراءظ و الهاليس : ص 210 .

² - المصدر السابق : ص 222 .

³ - بحر الدموع : ابن الجوزي ، دار الصحابة ، للتراث بطنطا ، القاهرة - ط 1 ، 1412 هـ ، 1992 م ، ص 79 .

⁴ - الحديد : 20 .

لقد كان ابن الجوزي ينظر إلى الدنيا بمنظار الآخرة ، فهي معبر لها ، وهو بذلك لا يدعو إلى التفريط فيها و تضييعها ، لأن من ضييع دنياه فهو لأخرته أضيع ، لذلك وجدناه يدعو للقيام بالواجبات و حماية الحقوق بين الأفراد ، و إتقان العمل و تجويده ، كما يحث على التحلي بعلو الهمة لأنها من صفات اكابر العلماء و ما ضعفوا و رضوا بالدنية في دينهم و دنياهم إلا عندما كُتت عزائمهم و ضعفت هممهم ، إلى غير ذلك مما دعا إليه في ثنايا كتبه الوعظية و الدعوية المختلفة .

و لابن الجوزي أوصاف متعددة وصف بها الدنيا حتى يهون من شأنها عند اللاهثين و راءها هذه الأوصاف التي حملت لنا تصوره بكل وضوح ، و أبدت لنا قيمتها الحقيقية عنده فقد وصفها بأبشع الصفات ، فهي نهر طالوت ، و هي الظل الذي يتبع الإنسان و هي دار المحن و الشدائد ، و هي الخمر التي تغيب عقل شاربها فلا يرتوي منها أبدا ، و قد حاول ابن الجوزي بلهجته الحادة أن ينقذ ما يمكن إنقاذه من الذين غرقوا في بحر شهواتها و من جملة ما قاله فيها هذه العبارات : " الدنيا نهر طالوت ، و الفضائل قد نادت (فمن شرب منه فليس مني) ¹ و هي كذلك ظل ، إن اعرضت عن ظلك لحقك ، و إن طلبته تقاصر ، الزاهد لا يلتفت إلى الظل ، فيتبعه الظل و الحريص كلما التفت لم يره " ² و هي " دار المحن ، و دائرة الفتن " ³ و الدنيا عنده " خمر كلما شرب منها الحريص زاد عطشه " ⁴ ، و هي دار الابتلاء و الأمراض و الأكدار و لو لم تكن كذلك لما ضاق فيها لعيش على الأنبياء و الأخيار ⁵ و هي " عن ذكر الله شاغلة ، و لمن نظر إليها فانتة ، و لمن ركن إليها قاتلة ، و لمن استصحبها غاشة ، و لمن استنصرها خاذلة " ⁶ .

و الناظر في هذه الأوصاف يدرك ما للدنيا من تأثير على نفوس الخلائق و كيف أنها أوردتهم المهالك فصاروا إلى الأخرى بين ناج و هالك ، من أجل ذلك لم يدخر ابن الجوزي جهدا في زجر الناس عن الحرص عليها فيقول : " إخواني اعتبروا بالذين قطنوا و خزنوا كيف ضعفوا و حزنوا ؟ و انظروا إلى آثارهم تعلموا أنهم قد غبنوا لاحت لهم لذات الدنيا

¹ - البقرة : 249 .

² - اللطائف : ص 109 .

³ - اللعش : ص 202 .

⁴ - اللطائف : ص 110 .

⁵ - الثبات عند الممات : ص 26 .

⁶ - فذكر في الوعظ : ص 71 .

فاغترروا و فتنوا فما انفشت سحاب المنى حتى ماوا و نفوا¹
ثم يحاول أن يلفت انتباه المعجب بالدنيا و زخرفها الى الآخرة و ما فيها من نعيم بقوله :
" إذا أعجبتك الدنيا برونق رائقها ، فاجعلها سببا للشوق إلى رياض الجنة و حدائقها ، و إذا
بهرتك الجنة بنعوت ذرايبها و نمارقها فاجعلها حاديا تحذوك إلى جناب خالقها " ² .

• - منهج ابن الجوزي في التحذير من الدنيا :

و لما صار غرور الدنيا و خداعها شيئا مقررًا و حتميا لا مهرب للناس منه ، راح
ابن الجوزي يشتد قبضته على الدنيا ليضيق عليها الخناق ، قبل أن تخنق من بقي منهم
بزخرفها و غرورها فاتخذ الترهيب منها منهجا ، و فضح طرق غوايتها مسلكا ، حتى لا
يبقى للإنسان العاقل مجال للاستغفال بالملاذات عن الطاعات ، و الغفلة عن المنجيات فقال
محذرا : " يا من قد بلغ أربعين سنة و كل عمره نوم و سنة ، يا متعبا في جمع المال بدنه
ثم لا يدري لمن خزنه ، أعلم أن هذه النفس الممتحنة ، إنها بكسبها مرتبهة ألا يعتبر
المغرور بمن قد دفنه ؟ كم رأى جبارا مسكنه و سكن مسكن مسكنة ... أين من كان يخالف
باسمه ؟ أين من كان على نسيبه شديد الغيرة ؟ ، أما رحل عنين و اخترن غيره ؟ ... أعر
سمعك الأصوات فهل تسمع إلا فلانا مات ؟ أجل بصرك في الفلوات ، فهل ترى إلا القبور
الدارسات ؟ " ³ ، فهذه هي حال الدنيا أيها الإنسان المغرور خلقت لتأكل منها فأكلتك ، مع
أنك تعلم بأن الدنيا معبر للأخرة ، و لم يكنف ابن الجوزي بهذا حيث أخذ يبين القيمة
الحقيقية للدنيا و الهدف من وجودها في منهجه ، حتى يقلل من أهميتها عند من فتنوا بها
فقال لهم منبها و راجيا أن تتلقى نصيحته اذا صاغية و قلوبا واعية اديهم : " إنما خلقت
الدنيا لتجوزها لا لتحوزها ، و لتعبرها لا لتعمرها ، فاقفل هواك المسائل إليها ، و اقبل
نصحي لا تعول عليها " ⁴ فمتى تبادر يابن ادم إلى العمل و تترك التسوييف ، و تندم و تتوب
قبل وصول الأجل و انقطاع حبال الأمل " بينما أنت في فسحة و مهل ، فنتب إلى مولاك من
تبيع الخطايا و الزلل قبل أن يقال فلان عليل ، فهل إلى دوائه سبيل ، أو على طبيب من دليل

¹ - المدمش : ص 299 .

² - الذكرة في الوعظ : ص 20 .

³ - الواعظ و المجلس : ص 13 .

⁴ - المدمش : ص 279 .

فدعى لك الأطباء و يجمع لك الدواء فلا يزيدك ذلك إلا بلاء " ¹ .

و هكذا يمضي كلام ابن الجوزي في ذم الدنيا و الترهيب منها ، حرصا منه على التفاعل الإيجابي في حياة الإنسان فلا ينجذب وراء زخرفها ، فإن حدث و انخدع بها يوما علا و تذكر عاقبة ذلك فأخذ حذره ، وهذا من علامات حياة القلب لأن " من تفكر في عواقب الدنيا أخذ الحذر ، و من أيقن بطول الطريق تأهب للسفر و ما أعجب أمرك يا من يوقن بأمر ثم ينساه ، و يتحقق ضرر حال ثم يغشاه و تخشى الناس و الله أحق أن تخشاه " ² .

و يذكر ابن الجوزي الإنسان مرة بعد مرة بأن هذه الدنيا ليست هي وطنه الأصلي إنما هي كفترة الامتحان لطالب العلم ليحصل بعدها على الشهادة و اللبيب من يعرف ذلك يقول :
" الدنيا دار المحن و دائرة الفتن ساكنها بلا وطن و اللبيب قد فطن " ³

و من خلال هذا المنهج الذي سار عليه ابن الجوزي في ذمه للدنيا كما رأينا إلا أنه كان لا يقول يتركها مطلقا كما يفعل المتصوفة فهو يرى أن هذا خروج عن منهج الشرع الحنيف و هو من تلبس إبليس عليهم ⁴ ، إذ لا بد من الحصول على قدر من الدنيا حتى تحصل الغاية من العبادات و يتحقق الغرض من الطاعات وهذا مطلوب شرعا لأن " المراد من الدنيا ما يصلح البدن ليسعى فيما خلق له ، فالاشتغال بالتزويد عائد بالنقص في المقصود ، إذ جامع الأموال لغير البلاغ خازن للورثة " ⁵ .

و ليزيد منهجه في التعامل مع الدنيا وضوحا بيّنه بقوله : " اطلب الدنيا قدر الحاجة و اطلب الآخرة على حسب الطاقة ، هذا و لو أنك بلغت إلى حمى التوكل لاستراح قلبك و غذاك الله كما يغذي الطير تغدو خماسا ، و تروح بطانا " ⁶ .
و ابن الجوزي هنا يفرق بين القصد من البعد عن الدنيا و التوكل على الله في طلب الرزق و هذا حتى لا يتخذ أصحاب البطالة رأيه هذا ذريعة للهروب من الدنيا و تعطيل حركة

¹ - سنن الرامعظي : ص 213 .

² - مبد الخاطر : ص 13 .

³ - المدمش : ص 189 .

⁴ - تلبس إبليس : ص 240 و ما بعدها ، و انظر بحث ابن الجوزي و الصوفية و الزهاد من هذا الفصل .

⁵ - اللطائف : ص 110 .

⁶ - البهوية : ص 116 ، و الكلام مأخوذ من الحديث : " لو توكلتم على الله من توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماسا و تروح بطانا " فتح الباري : 11 / 306 قال ابن حجر : أخرجه الترمذي و الحاكم و صححاه .

الحياة فيها بدعوى الزهد و التقشف و ترك الدنيا لأهل الدنيا كما يزعمون ، و لننظر معه إلى هذا المثال العجيب الذي جاء به في هذا المجال ليرينا مدى رغبة أهل الدنيا في طلبها و التنافس عليها و تقاعسهم عن طلب الآخرة فيقول مشبها طالب الدنيا بالبطال : " يا بطال : لو سافرت بلدا لم تريح فيه حزنت على فوات ربك ، و ضياع وقتك أفلا يبكي من دخل في الصلاة على قرّة العين ثم خرج بغير فائدة ¹ .

و مما يمكن ملاحظته هو أن ابن الجوزي لم يكن يركّز على ذم الدنيا في حد ذاتها إنما كان يذم دائما الإغراق في متعتها و الإسراف في ملذاتها و ما تتركه من آثار في المنقادين لها حتى تنسيهم حقوق الله و حقوق العباد عليهم فتغمسهم في الحرام فلا يستطيعون من قبضتها حراكا و لا من بين يديها فكاكا فقال يصف حالهم : " كم سلبت الدنيا أقواما أقواما كانوا فيها و عادت عزهم أحلاما أحلاما ، فتفكّر في حالهم كيف حال ، و انظر إلى من مال إلى مال ، و تدبّر أحوالهم إلى ماذا ال ، و تيقن أنك لاحق بهم بعد ليال ، عموك في مدة و نفسك معدود ، و جسمك بعد مهالك مع دود ، كم امتلت أملا فانقضى الزمن و فائك " ² .

هكذا هي الدنيا عند ابن الجوزي فهي في منهجه لا تصلح للنوطن و تبعاتها أكثر من فوائدها ، أولها فرح و آخرها تدامة و هي دوما لا تثبت على حال فيكيف يوثق في من يرحل و لا يستقر " الدنيا مغارة لا تصلح للارتطن ... و اعجبا لمن أطال الوقوف على القنطرة حتى نسي اسم البلاد ، و يدك : كسب الدنيا لذبة غير أن الحساب عليها شديد ، ساعة الحمل لعب ، و الجسد في الولادة . الدنيا كسائر أفاعلة لا تثبت مع روج فلذلك عيب طلابها " ³ .

و أما عن تأثيره في المدعوين بهذه النظر و التصور للدنيا فبالإضافة إلى أسلوب الترهيب الذي ذكرناه انفا فإن ابن الجوزي و حتى يفك قسوتهم من هذه الدنيا حاول تصويرها لهم في صورة قبيحة أهم ، و ذلك في أسلوب إشاري غاية في العمق و الغوص في أسباب سيطرة هذه الدنيا على الكثير من عقول الناس حتى القنيد في جب حبها العميق فلم يستطيعوا منها فكاكا و لم يجدوا مهربا من الله إلا إليه . و لا يكون ذلك لهم إلا بالعودة

¹ - الباقية : ص 114 .

² - المصدر السابق : ص 68 .

³ - اللطائف : ص 95 .

لما كانوا عليه، وقد مثل ابن الجوزي الإنسان في صراعه مع الدنيا بسيدنا بيوسف - عليه السلام - في صراعه مع امرأة عزيز مصر . فيقول : الدنيا - ار ابتلاء تشبه قصر مصر سبق الباب فيها " يوسف الصبر . و زليخا " الهوى ، و قمص الأعمال تعرض على " يعقوب الشفاعة " فمن رأى فيصنه فافقه من قبل دال : سحقاً سحقاً . و من راد قد قد من غير قال : انحرفت شفاعتي . فيما من : افاد الهوى في حب حب الدنيا ... فم على قدم (تجافى) . و انما انامل (يدعون ربهم)¹ . و الق ما في يمينك لتتعمل الخروج . و لا تثبت بار جاء بفر الهوى ، فاتها زحل تنهار شطيك " .

و نجده يبين طرق ابن ادم الكثيرة التي تبرر حرمته على الدنيا فكل جوارحه تنطق بحبها و العرق في او حبل شعواتها ، و ابن الجوزي يحاول منذ هذه الطرق عليها حتى لا يفسده به فتهلكه فقال له : يا هذا حب الدنيا افضل من الصد . و شرورها أكثر من النمل و عين حرصك عليها ابصر من الهوى . و بطنك اقل من الرمل ... حرصك بعد الشيب أحر من الحجر ، ابقى عسر يا ابراهيم من الشالج : و الدنيا في قلبك اعز من الروح و ستصير عند الموت اهون من الارض .

و حتى يكون ابن الجوزي عملياً و فعلاً فيما ذهب إليه من اراء ، نجده يحاول جاهداً ان يقنع الإنسان بإمكانية التغلب على هذه الدنيا اذا اراد ذلك و اخلص النية و القصد و ذلك من خلال هذه الصورة التي رسمها الدنيا حيث شبهها بالفخ الذي يخدق الطائر اذا ما حط فوقه ليلتقط الحب . فكذلك الدنيا هي فخ نصب للإنسان يقع في سراكه فلو تفكر في عواقبها لهانت عليه كما تهون على الطائر الحبة التي يرى فيها حنقه . أما اذا طمع فإنه حتماً سيقع بقول ابن الجوزي مصوراً هذا المشهود : من تذكر خلق الفخ هان عليه ترك الحبة ، شهوات الدنيا سنائير مقصودها صيد العقل . فاما طائر الطمع فكأنها في الفخ " ² ، بمثل هذه الأقوال و العبارات ، و بهذه الأساليب استطاع ابن الجوزي ان يصل بمواعظه إلى شغاف قلوب المدعويين فيؤثر فيها تأثيراً بالغاً ، و هذا ما يدل على فاعلية منهجه و مدى انتفاع الناس به فقد تاب على يديه من تاب و رجع إلى الطريق السوي من رجع و هذا كله بتوفيق الله له

¹ - اشارة الى الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا) السجدة : 16 .

² - اللطائف : ص 95 ، 96 .

³ - المصدر السابق : ص 100 .

⁴ - صبا مجد : ص 66 .

الذي وضع له القبول في قلوب الناس و أوقع كلامه في نفوسهم فلم يكونوا أبدا يرتابون بصحته¹ ، أو يشكون في صحة قصده قائله .

د - الموت :

• - نظرة ابن الجوزي إلى الموت :

الموت حقيقة لا مهرب منها ، قررها القرآن الكريم في العديد من آياته ، فقال تعالى مخاطبا نبيه - عليه الصلاة والسلام - : (إنك ميت و إنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون)² و قال - سبحانه - : (كل شيء هالك إلا وجهه)³ . و مادام كل شيء إلى زوال ، و هذا هو شأن الدنيا ، ما عليها و من عليها فإلماذا التطاحن عليها ما دام أن هناك حياة أفضل من هذه و لا يفصلنا عنها إلا موت في طاعة الله من أجل ذلك رأينا ابن الجوزي و هو يتأمل في الناس على عادته ليستنتج العبرة مما يراه و من جملة ما سجله خوف الناس من الابتلاء و الموت كأنهم لم يعرفوا أن كل شيء وجد في هذا الكون إلا و له ضد إلا الخالق الواحد - سبحانه و تعالى - فلا ثاني له ، و معنى ذلك في نظر ابن الجوزي أنه لما وجدت الحياة فلا بد أنه سيوجد الموت حتما ، و إلا لما سميت هذه الحياة بالدنيا و الثانية بالأخرى فيقول شارحا هذا المبدأ الأساسي الذي لا يجب أن ينساه كل إنسان : " إني رأيت جميع الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجا يزيد على الحد ، كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذلك وضعت ، و هل ينتظر الصحيح إلا السقم و الكبير إلا الهرم ، و الموجود سوى العدم "⁴ .

و يستدل على ما ذهب إليه بما روي عن بعض السلف أن رجلا جاءه و هو يأكل طعاما ، فقال له : " قد مات أخوك ، فقال : أقعد و كل فقد علمت ، فقال : من أعلمك و ما سبقني أحد ؟ قال : قوله تعالى : (كل نفس ذائقة الموت)⁵ .

و من هذا المنطلق تكمن أهمية موضوع الموت عند ابن الجوزي ، حيث وجدناه قد احتل حيزا لا بأس به من مواعظه و توجيهاته سواء في مؤلفاته أو من خلال مجالسه الدعوية

¹ - لفظة الكبد : ص 21 .

² - الزمر : 30 .

³ - القصص : 88 .

⁴ - شهاب عند الممات : ص 19 .

⁵ - النصر السابق : ص 20 ، و الآية من سورة آل عمران : 185 .

وقد حاول الشيخ أن يستعد عن تهويل القصاصر في أغلب ما تحدث به ، و من أحسن ما قاله في حديثه عن الحكمة من الموت ، و ذلك حتى ينتبه الناس بمختلف طبقاتهم و اتجاهاتهم و أفكارهم و لكي لا يغتر كل فريق منهم بما عنده و يعرف أنه إلى زوال : فمن الحكمة في الموت : وضع عماد المتكبرين ، و تنغيص حياة المترفين ، و تكذيب ظنون الأملين ، و تنبيه عقول الغافلين ، و إزعاج قلوب المطمئنين ، و رفع أيدي المتسلطين و رفع أثقال العبادة عن العاملين ، و فوز المحبين بلقاء من كانوا إليه مشتاقين ... الموت راحة المسيء و المحسن ؛ أما المسيء فينقطع عنه استمرار طغيانه ، و أما المحسن فيفضي إلى دار الجزاء على إحسانه . الموت فيه لقاء الأحباب ، و إحرار الثواب فليس يكرهه إلا مريب مرتاب¹ .

إن فنظرة ابن الجوزي للموت أنها قنطرة للأخرة ، و أنها راحة لكل الأطراف و لا يكرهه إلا من كان له ريب في خالقه ، و هي نظرة صحيحة في تقديرنا و هي موافقة تماما لما جاء به الإسلام الحنيف .

• - منهج ابن الجوزي في التحذير من الموت :

لقد حفلت مجالس ابن الجوزي الدعوية و مصنفاته بالحديث عن الموت فهو لا يفتأ يذكره في كل فرصة و حين و غايته في ذلك هي علته يرد السالكين لطرق الغواية إلى معرفة هذه الحقيقة الكبرى فلا يغفلوا عنها ، و أول أمر يقرره ابن الجوزي هو حتمية الموت و أنه لا مهرب لأي مخلوق منه مهما علا شأنه و كثر ماله ، و كبر سنه و عظمت منزلته فالموت كأس و كل الناس يشرب منه لا محالة و مما قاله في أحد المجالس التي تناول فيه تفسير قوله تعالى : (كل نفس ذائقة الموت)² : " يموت كل صغير و كبير يموت كل أمير و وزير ، يموت كل عزيز و حقير ، يموت كل غني و فقير ، يموت كل نبي و ولي ، يموت كل نجي و تقى ، يموت كل زاهد و عابد ، يموت كل مقر و جاحد يموت كل صحيح و سقيم ، يموت كل مريض و سليم ، كل نفس تموت غير ذي العزة و الجبروت ... عباد الله اسعوا في فكاك رقابكم ، و أجهدوا أنفسكم في خلاصها قبل أن تزهرق ، فوالله ما بين أحدكم و بين الندم ، و العلم بأنه قد زلت به القدم ، إلا أن يحوم عقاب العلية عليه ، و يفوق سهامها إليه ، فإذا الندم لا ينفع ، و إذا الشفيع لا يشفع ، و إذا الذي

¹ - الذكرة في الوعد : ص 90 .

² - آل عمران : 185 .

فات لا يسترجع . فكأنى بك يا أخى و قد صرخ عليك النسوان ، و بكى عليك الأهل و الإخوان ، و فقدك الولدان و نفخ لفرقتك الجيران ، و نادى عليك المنادي قد مات فلان ابن فلان . ثم نقلت عن الأحباب، و حملت إلى أرماس التراب ، و أضجعوك في محل ضنك ، قصير السمك ، مهول منظره ، كثير وعره " 1 .

ثم يقول مذكرا و منبها الإنسان قبل فوات الأوان ، حاثا إياه على التزود بالزاد الذي رآه نافعا لهذه الرحلة الشاقة ؛ رحلة الموت . و هو زاد الصوم و الطاعة و المراقبة و التضرع إلى الخالق وقت الأسحار . و يحثه بعدم النسيان لأن الموت لا ينسأه فقال له : " يا هذا لذكر ما وصفته ، و احفظ ما حكيتك . و عليك بالصوم و الاجتهاد ، و الطاعة لرب العباد ، و مراقبته في الليل و النهار ، و التضرع إليه في ظلمات الأسحار . يا هذا عمرك أنفاس معدودة ، و عليك رقيب يحصيها ، لا تنس الموت فإنه لا ينسك " 2 و يواصل ابن الجوزي حديثه المحزون عن الموت و أهواله ذاكرة الآيات و الأحاديث ، و الآثار و الأشعار ، واصفا له بأوصاف تثخلع لها النفوس و تتفطر لسماعها الأفئدة . ثم نجده يحمل حملة عنيفة على الإنسان الغافل ، فيعرفه بحقيقته ، و ما فيه من الضعف و قلة الشأن و ما سيصير إليه لعله يرعوي و يقلع عن اغتراره فيشتر عن ساعد الجدّ و يكبح جماحه فيقول له : " فاذا ذكر حالك أيها الغافل ، يوم تقلبك على المغسل يد الغاسل ، قد زال عزك عنك ، و سلب مالك منك ، و أخرجت من بين أحبابك و جهزت لترايبك ، و أسلمت إلى الرد ، و صرت رهنا بين اللهود ، و بكى عليك الباكون قليلا ، ثم نسوك دهرا طويلا فتغيرت منك المحاسن و المحلى ، و تحكمت في أعضائك البلى ، و قطعت في الأكفان و سعى إليك السيدان ، فبلى منك اللسان ، و سانت الحدق كأنك لم تكن قط ممن رأى و لا نطق " 3 .

و يتابع ابن الجوزي وصفه الدقيق هذا متقلا على ذلك الإنسان الغافل عن مصيره المحتوم فيعرض حالته عندما يكون في النزع و ما يواكبه من أهوال فيقول له : " ابن آدم كأنك بالموت قد حل بساحتك ، و حال بينك و بين ما تريد ، و أنت في النزع و الكرب الشديد لا ولد يدفع عنك و لا وليد ، و لا عدة تنجيك و لا عديد ، و لا عشيرة تحميك و لا قبصر

1 -ستان الراعظون : ص 170 ، 172 .

2 - المصدر السابق : ص 177 .

3 - نفس المصدر : ص 178 .

مشيد ، أليس ذلك نازل بك على كل حال ، أي و عزة الكبير المتعال ، فابك الآن حين
ينفك البكاء و الاستكانة ، قبل حلول الحسرة و الندامة " ¹ .

وهكذا فابن الجوزي في تأشيرته على المدعوين يحاول أن يمزج حديثه عن الموت
بالحديث عن المراحل التي تليه من ضيق القبر و محاصرة الدود ، إلى الحشر و العرض
و الحساب و ما فيه من أهوال ، و كذلك تحذيره المتتالي من الموت و أنه لا بد من الاستعداد
له و عدم الغفلة عنه ² ، و المقام يضيق بنا لذكر كل ما قاله الرجل في هذا المجال .

إلا أنه يجدر بنا في خاتمة المطاف أن نشير إلى جملة مما كان يقوله ابن الجوزي
للتأثير على الناس و ذلك من خلال تأكيده على ضرورة تذكر الموت و عدم نسيانه ، إذ
كيف يجدر بالعاقل أن ينسى الموت و هو يرى الجنائز تتبع و نعوش تحمل إلى المقابر كل
يوم ، و النائحات ينحن صباحا و مساء ، و في ذلك يقول : " يا أخي إذا جاعك الموت لا
ينفك ما جمعته و لا ينجيك ما اكتسبته ، فامهد لنفسك قبل مفارقة الأحباب ، و الجيران
و الأصحاب ، و الخروج من الديار إلى منازل الدود و التراب و بيوت الوحشة و العذاب
إلا أن يعفو الملك الوهاب فتفكروا يا أولي الألباب ، يا معشر الشيب و الشباب " ³ و إذا
كان الأمر على هذا المستوى من الخطورة ، فماذا ينتظر الإنسان المذنب ؟ ، ما عليه إلا
البكاء و النحيب على ما اقترفت يداه يقول : " فابكوا معاشر المذنبين على ساعة لا بد منها
أما ترون الموت قد أفنى الأمم الماضية ، و قتل القرون الخالية ، و هدم القصور العالية عطل
عشارهم ، و خرّب ديارهم ، و هدم منازلهم ، و قطف أعمارهم . فهذا دليل على أن الموت
لا يترك أحدا من المخلوقين حتى يتوفاهم و ينقلهم إلى التراب أجمعين " ⁴ .

و يقول في موضع آخر لعل هناك من يتأثر فيستفيق من نومه قبل سكرته : " كم
أخرج الموت نفسا من دارها فلم يدارها ؟ ، و كم أنزل أجسادا بحارها لم يجارها ؟ و كم نقل
ذكا ذات خطأ بأوزارها ؟ ، و كم أجرى عيوننا كالعيون ، بعد بعد مزارها " ⁵
وفي نهاية المطاف يبين - رحمه الله - لمستمعيه بأن الموت أت لا محالة و لا ينفع

¹ - بستان الرغطين : ص 178 .

² - انظر الحديث عن منه الفضايا في بستان الرغطين الصفحات : 196 ، 201 ، 208 ، 215 ، 207 ، 211 .

³ - المصدر السابق : ص 188 .

⁴ - المصدر نفسه : ص 189 .

⁵ - المعشر : ص 186 .

معهُ قتال أو مواجهة " الموت مقاتل ، يقصد المقاتل فما ينفعك أن تقا تل " ¹ .
بن و ملادام الأمر كذلك فلماذا العناد أيها الإنسان ؟ و إذا لم ينفعك واعظ الموت فلن تؤثر
فيك لا الواعظ و لا المواعظ يقول : " لقد خوفنا الموت بمن أخذ منا ، و نعلم هجومه علينا
و قد أمننا ، ما أنكرتنا المواعظ مالنا فمالنا مالنا ؟ " ² .
و كأنى بابن الجوزي يرى أن القلوب قد صدأت و تغلفت بالران فلم تعد المواعظ
تنفعها مادام واعظ الموت لم يحرك فيها ساكنا ، و مع ذلك فإنه لم يفقد أمله في الله لكي
يهدي من أراد الهداية . هذا هو الموت ، تلك الحقيقة الأزلية التي حاول ابن الجوزي مدى
حياته أن يجليها للمذعومين ليرجعهم إلى طريق الصواب ، حتى يثوبوا إلى رشدهم
و يرجعوا إلى ربهم .

¹ - الدعش : ص 557 .

² - المصدر السابق : ص 189 .

المبحث الثاني

ابن الجوزي و القصاص

تمهيد :

لقد كانت القصة من بين طرق الدعوة التي تضمنها أسلوب الوعظ عند ابن الجوزي و كتبه الوعظية خير شاهد على ذلك فقد جاء فيها الكثير من القصص و خاصة كتابه " المدهش" ¹ و "التبصرة" و "المواعظ و المجالس" و "رؤوس القوارير" وغيرها من الكتب . و رغم استخدام ابن الجوزي للقصة كأسلوب في الدعوة والوعظ إلا أنه لم يخرج به عن منهجه الدعوي الإصلاحى الذي رسمه لنفسه ، ليسلك منهج القصاص ؛ الذين انحرفوا عن المنهج الدعوي الصحيح في كثير من الأحيان فما كان من ابن الجوزي إلا أن وقف منهم موقفا واضحا و صريحا و جريئا كما هي مواقفه دائما .

لقد سلك القصاص في بداية دعوتهم للناس طريق الكتاب و السنة ، و كان منهم من يستعين بضرب الأمثال و سرد قصص الأولين تأسيا بمنهج القرآن الكريم حتى يسترعوا لثبات المدعويين و غلبت بعد ذلك هذه القصص على تذكيرهم حتى عرفوا باسم القصاص ثم استسهل هذه الحرفة بعض الدخلاء و استرسل فيها إلى أن أهمل المقصود من الوعظ و التذكير ، فكان البعض ممن اوتي طلاقة اللسان و قوة البيان يعتمد على هذا الطريق و يتصدى للدعوة و الوعظ مع قلة زاده العلمى و مخزونه المعرفى ، فيأخذ من العامة تقديرا لا يستحقه فيثير بذلك حفيظة المعارضين و المنافسين فيفتضح أمره أمام العوام و يظهر لهم عجزه و جهله ² ، و هذا الصنف من القصاص و الذكريين هم الذين تصدى لهم ابن الجوزي بقوة و كشف عن العديد من سوءاتهم في ميدان العلم و الدعوة .

١ - موقف ابن الجوزي من القصاص و ما أخذه عليهم :

رغم كون القصة أسلوب دعوي ناجح لما لها من تأثير مباشر على نفوس المدعويين و قلوبهم ، إلا أن القصاص و المذكريين انحرفوا بها عن جادة الصواب فضلوا وأضلوا السواد الأعظم من العوام ، و ذلك لما أدخلوه على الوعظ بصفة عامة و القصص بصفة خاصة من أباطيل و خرافات و أحاديث موضوعة ، فلما لاحظ ابن الجوزي خطورة الوضع

¹ - انظر للمصنف : ص 71 و 70 بعدما ، قال في بدايته : و هذا القسم و هو المختص بذكر الفصص و فيه ست و عشرون قصة .

² - الدعوة الإسلامية علما و عملا : إبراهيم السوفى مرعى ، ص 54 .

قام بتأليف كتابه القصاص و المذكرين ردّ به على أباطيلهم و بيّن الطريق الصحيح الذي يجب أن يسلكه الواعظ و ما ينبغي أن يتحلّى به من صفات و أخلاق ، و لم يكتف بذلك بل واصل ذكر العديد من انحرافاتهم في كتب أخرى¹ . و من جملة ما أنكره ابن الجوزي على لقصاص عدة أمور نجملها في هذه العناصر على هذا النحو :

1- المبالغة في ذم الدنيا :

فقد دأب القصاص و المذكرون في عصر ابن الجوزي على المبالغة في ذم الدنيا بدعوى تنفير الناس منها حتى لا يفتنوا بشهواتها و لذاتها و أدى بهم هذا الغلو و التطوف إلى الخروج عن المنهج الإسلامي و مخالفة الشرع ، فسبوا الدهر و الزمان و هذا يناقض ما ورد عن النبي - صلى الله عليه و سلم - من أحاديث و توجيهات في هذا المجال يقول ابن الجوزي مبيناً إنكاره الشديد عليهم : " و من القصاص من يذكر في مجلسه ذم الدنيا و يقول : فعلت و فعلت ، و يببالغ في ذم الدهر و ما يفعل بأهله كأنه ما سمع أن رسول الله - صلى الله عليه و سلم - قال : " لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر"² ، و هذا لأن الزمان لا يفعل إنما هو ظرف"³ .

و يرى ابن الجوزي أنه بهذه الطريقة التي سلكها القصاص في ذم الدنيا أنهم أضلوا أنفسهم و أوقعوا العوام في الضلال أيضا فقال مستنكرا عليهم : " فيرى العامة بما يورده هؤلاء القصاص أن طريق الشرع هذه لا التي عليها الفقهاء ، فيقعون في الضلال"⁴ ، و يرى - رحمه الله - أن أنفع شيء للعوام هو التذكير السليم الذي يردّهم عن المعصية و يحركهم إلى التوبة و الخلل في القصاص فعليهم أن ينتقوا الله في المدعويين فهم المسؤولون عن أحوالهم و سلوكياتهم و ما يقعون فيه من تخليط في العقائد يقول : " فأنفع ما للعامي مجلس للوعظ ، يردّه عن ذنب ، و يحركه إلى توبة ، و إنما الخلل في القاص ، فليتنق الله - عز و جل -"⁵ .

2- عدم الاهتمام بموضوعات الوعظ :

¹ - مثل كتاب صيد الخاطر ، و تبيين البصير ، و التمهيد للوعظ .
² - السنن الكبرى : لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، دار الفکر ، ص 365 ، كتاب الاستسقاء ، باب ما جاء في سب الدهر ، و قال : أخرجه مسلم في الصحيح من حديث هشام بن حسان .
³ - القصاص و المذكرين : ص 326 .

4- صيد الخاطر : ص 119

5- المصدر السابق : ص 100

لاشك أن الموضوع في الوعظة يعد من أهم ما يجب على الداعية و الواعظ إعداده
بينة و عناية ، لأن فيه تظهر شخصية الداعية و الرسالة التي يريد إيصالها للمدعوين ، لكن
القصاص و المذكورين في عصر ابن الجوزي يبدو لنا أنه لم يكن لهم اهتمام كاف بموضوع
الوعظة و لا العناية اللازمة عند إعداده ، و هذا الذي بد لنا واضحا فموضوع أن يحثوا
المدعوين على الفرائض و الواجبات ، و يرشدهم إلى مكارم الأخلاق و الطاعات ، راحوا
يحدثونهم بمواضيع ليست من أصول الدين و لا هي من أساسيات العلم ، زد على ذلك فإنهم
يحدثون هذه المجالس بالأحاديث الباطلة التي تخدع العقول و تساعد العوام على الاستمرار
في النوم في العسل و الإغراق في الشهوة و المعصية ، يقول في ذلك : " وكثير من القصاص
يملؤون المجلس بالأحاديث التي لا أصل لها كصلاة الرغائب و صلاة نصف شعبان و غير
ذلك و لا يحدثون على الفرائض و الواجبات ، وفيهم من يروي أحاديث التخويف الموضوعة
إلى أن يقنط الناس من الرحمة ، و فيهم من يروي أحاديث الرجاء المصنوعة أو التي ليس
لها معنى" ¹ ، و منهم من يفرق في القصص و يتجاهل ما يحتاجه المدعوون فلا ينهاتهم عن
معصية و لا يأمرهم بطاعة ، رغم أن هذا الأمر يعتبر من أهم الأهداف الدعوية للقصاص
و المذكورين إن كان لهم هدف أو رسالة يريدون تبليغها ، و يكشف ابن الجوزي لنا عن هذا
الأمر بقوله : " و كم منهم من يزوق عبارة لا معنى تحتها و أكثر كلامهم اليوم في موسى
و الجبل و زليخا و يوسف و لا يكادون يذكرون الفرائض و لا ينهون عن ذنب ، فمتى
يرجع صاحب الزنا و مستعمل الربا و تعرف المرأة حق زوجها و تحفظ صلاتها هيئات
هؤلاء تركوا الشرع وراء ظهورهم و لهذا نفقت سلعهم لأن الحق ثقيل و الباطل خفيف" ²
و هكذا فإن نتيجة هذه المجالس الوعظية التي تكون بهذا الشكل هي أن يخرج المدعوون
و ما أمروا بمعروف و لا نهوا عن منكر و لا تفقهوا في دين و لا تعلموا العلم النافع و مع
ذلك فهم ينتظرون رحمة الله التي وسعت كل شيء فهذا تصور باطل أعانهم عليه هؤلاء
القصاص ، فقال ابن الجوزي عنهم : " و همهم برونق المجالس كيف اتفق ، فيخرج
السامعون و ما نهوا عن ذنب ، و لا خشع لهم قلب ، فإن أفلح القاص قال لهم : رحمة الله
واسعة و لا يذكر أنه شديد العقاب" ³ .

د - الجهل بالنقل و الكذب في الرواية :

¹ - القصاص و المذكورين : ص 326 .

² - ليس ليس : ص 170 .

³ - الناق : ص 28 .

و هذه من أكبر الطامات التي وقع فيها القصاص ، و كنا نتمنى أن يكون ابن الجوزي مبالغا في الموضوع و أن الأمر لا يعدو أن يكون تهويلا لحادثة وقعت لا غير ، لكن بعد المطالعة المتأنية لبعض موافات الرجل وجدنا أن المسألة تكررت مرات عديدة ، فما كان منه إلا أن يبنيه على ما كان يراد و يسمعه من حوادث هؤلاء القصاص ، و جهلهم الواضح بالنقل الذي أدى بهم في كثير من الأحيان إما إلى الكذب أو إلى الوضع .

يقول ابن الجوزي : " و إذا كان القصاص من هذا الجنس فكيف لا يذمون ... و هذا فن يطول و أسبابه أنه قد تعانى بهذه الصناعة جهال بالنقل ، يقولون ما وجدوه مكتوبا ولا يعلمون الصدق من الكذب ، و فيهم كذابون يضعون الأحاديث على ما سبق ، فهم يبيعون على السوق الوقت ، و اتفق أنهم يخاطبون الجهال من العوام الذين هم في عداد البهائم ، فلا ينكرون ما يقولون و يخرجون فيقولون قال العالم ؛ فالعالم عند العوام من سعد المنبر" ¹ .
و هكذا صار وضع الأحاديث و الزيادة فيها عند روايتها من الأمور العادية عند القصاص قال ابن الجوزي يشرح المسألة : " و في القصاص من يسمع الأحاديث الموضوعه فيرويها و لا يعلم أنها كذب فيؤذي الناس ، و ربما سمعها من أفواه العوام فرواها .. فتزى القصاص يوردون منها و يزيدون فيها ما يوجب تحسينا لها " ² ، بل هناك من القصاص من يتجروا على وضع الأحاديث في مجلس الوعظ ارتجالا ، فضلا على الزيادة فيها أثناء الرواية و قد تحدث ابن الجوزي عن هذا الأمر الخطير فقال : " و في القصاص من يسمع الحديث ليخلطه إذا رواد و يزيد فيه ... (إلى أن يقول) : و قد كان في زماننا قاص حدثني عنه فبينان ثقتان أنه حدثهما قال : صعدت إلى المنبر يوم عاشوراء فقلت : قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم - : من صام يوم عاشوراء كان له و كان له .. و سردت من هذا كثيرا ، كله وضعته في الوقت " ³ .

و يردف ابن الجوزي الحديث عن كذب القصاص في مجلس الوعظ فيقول عن أدهم : " و ما زال يذكر من هذا الفن من الكذب البارد حتى بهت أنا من سماع ذلك " ⁴ .
و لقد ساعد على ذلك الجهال من العوام - و الذين هم في عداد البهائم على رأي

¹ - القصاص و المذكرين : ص 318 .

² - المصدر السابق : ص 309 .

³ - نفس المصدر : ص 307 .

⁴ - المصدر نفسه : ص 317 .

ابن الجوزي¹ - حيث كانوا يظنون بأن كل من صعد المنبر فهو العالم و القدوة ، و ذلك
لكونهم لا يعرفون صفات الداعية و لا مؤهلاته العلمية ، فلما كان هذا هو اعتقاد العوام في
هؤلاء القصاص كان بإمكانهم استغلال هذه الفرصة في نفع العوام نفعا عظيما لو كان عندهم
شيء من فقه الدعوة أو قدر كاف من العلم و لكن فاقد الشيء لا يعطيه .

، - الابتداع و طلب الدنيا بالوعظ :

و قد تحدث ابن الجوزي كثيرا عن بعض ممن تشبه بالوعاظ و المذكورين ثم انبسطوا
في كثير من الأفعال حتى واجروا - انزلة الابتداع فأتوا بالكثير من المنكرات و المفسدات و التي
تأدهم العوام فيها حتما و لعل أهم هذه المبتدعات ما احصاه ابن الجوزي عند قوله : " كما
كان الخطاب بالوعظ في الأغلب للعوام و جد جهال من القصاص طريقا إلى بلوغ أغراضهم
ثم ما زالت بدعهم تزيد حتى تفاقم الأمر . فأتوا بالمنكرات في الأفعال و الأقوال و المقاصد .
فأما الأفعال فعلى ضربين : أحدهما يجري من القصاص و الثاني يجري عندهم من
المستمعين ، فأما الذي يجري من القصاص فإنهم أحدثوا إلباس المنبر الخرق المتلونة كأنها
المشور ، و تعليق المصلّى على الحائط فتضرب له المسامير في حائط المسجد و هذا من
جنس ستر الجدر بالأتواب ، و من ذلك تخاشع الواعظ زيادة على ما في قلبه ، و فيهم من
يرتد و يتباكى تصنعا " ² ، و هكذا خرج هؤلاء القصاص عن المنهج النبوي إلى الابتداع
نفقوا الكثير من الإخلاص لما تشبثوا بالرياء ، بل و صار مهمهم طلب الدنيا بالوعظ و قد
حنروا العوام منها قبل ذلك فصاروا بذلك من الذين يقولون ما لا يفعلون قال ابن الجوزي
عنهم : " فجمهور القوم يطلبون الدنيا و يحتالون بالقصاص و الوعظ عليها و ربما امتنع
أدهم من أخذ العطاء تصنعا ليقال زاهد لياخذ أكثر مما رد " ³ ، بل و يذهب البعض منهم إلى
أبعد من ذلك فيجمع المال للفقراء ثم يأخذه لنفسه و هذه قمة الرذالة كما يقول ابن الجوزي :
' و رأينا من رذلتهم من يقول : " عندنا عجوز فقيرة ، فيجمع لنفسه بهذه الحجة " ⁴ ، و هذا
زيادة على ما يأخذه بعضهم من أموال الظلمة و التكبس بالقصاص في البلدان ⁵ .

¹ - ابن الجوزي يقصد هنا أن العوام في عداد الجهال و ذلك لجهلهم و قلة علمهم ، و مع المناسبة له العذر كان ينبغي له أن
يأخذ قليلا في وصفهم بمثل هذه الأوصاف و هذه التعريفات ، للتزيد انظر نظره ابن الجوزي للعوام في فصل أصناف المنحرفين .

² - القصاص و المذكورين : ص 295 ، 296 .

³ - المصدر السابق : ص 336 .

⁴ - نفس المصدر : ص 342 .

⁵ - ليس إلهام : ص 171 .

و ابن الجوزي يرى أن هذا الفعل من أكبر الإهانات للدعاة فكان من الواجب عليهم حفظ كرامتهم و عزة نفوسهم ، لذلك وجدناه يرد هذه الصفة الدنيئة عن نفسه مخافة أن يُلصقها أحدهم به فقال مخاطباً ابنه : " و ما ذل أبوك في طلب العلم قط ، و لا خرج يطوف في البلدان كغيره من الوعاظ ، و لا بعث رقعة إلى أحد يطلب منه شيئاً قط " ¹ .

٥- تشجيعهم الفساد و السكوت على المنكر :

و لما استفحل شر القصاص لم يجد ابن الجوزي بدا من كشف عوراتهم في ميدان الدعوة و إبراز شتى المفاسد التي لم تعد خافية على أحد و من أهم هذه المنكرات التي كانت تحصل في مجالسهم - سواء من طرفهم أو من طرف العوام - و لا ينهون عنها : إنشادهم لشعر الغزل بدعوى محبة الله - عز و جل - ، إظهار الوجد و الخشوع رياء ، جمع لرجال و النساء في مجلس واحد ، ثم قيامهم بالصياح و تمزيقهم لأثوابهم في المجلس إظهاراً للوجد و الخشوع ، دعوتهم العوام للزهد في الدنيا و هم لا يعرفون شيئاً من الدين يقول ابن الجوزي عن منكرات القصاص هذه : " و من ذلك أنهم تلمحوا ما يزجج النفوس و يطرب القلوب فنوعوا فيه الكلام فتراهم ينشدون الأشعار الرائقة الغزلية في العشق و لبس عليهم إبليس بأننا نقصد الإشارة إلى محبة الله - عز و جل - ... و من ذلك من يظهر التواجد و التخاشع ... و يوجب ذلك تحريك الطباع و تهيج النفوس و صياح الرجال و النساء و تمزيق الثياب ... و منهم من يحدث على الزهد و قيام الليل و لا يبيِّن للعمامة المقصود فربما تاب الرجل منهم و انقطع إلى زاوية أو خرج إلى جبل فبقيت عائلته لا شيء لهم ... (إلى أن يقول) : و من القصاص من يخلط في مجلسه الرجال و النساء و ترى للنساء يكثرن الصياح و جدا على زعمهن فلا ينكر عليهن جمعا للقلوب عليه " ² .

٥- التغفيل :

و زيادة على تلك المآخذ التي ذكرناها كانت لابن الجوزي جولة أخرى مع القصاص و ذلك من خلال صفة أخرى وجدت عند البعض منهم و هي البلادة و التغفيل ، هذه الصفة التي يفترض أن تكون في بعض الجهلة من العوام لا أن تكون فيمن يتصدون للدعوة من القصاص و المذكورين لأن هؤلاء من أول الصفات الدعوية التي يجب أن تتوفر لديهم الذكاء و رجاحة العقل فهما تاج الداعية و زينته .

¹ - لنته الكبد إلى نصيحة الرلد : ص 36 .

² - لبس إبليس : ص 169 ، 170 .

وحتى يكون ابن الجوزي أكثر واقعية و انصافا ضرب لنا أمثلة تدل على تغفيل هذا النوع من القصاص فقال : " قال بعض القصاص : يا معشر الناس ان الشيطان إذا سمي على الطعام و الشراب لم يقربه ، فكلوا خبز الأرز المالح و لا تسموا فيأكل معكم ثم اشربوا الماء حتى تغفلوه عطشا " ¹ ، فانظر إلى هذا القاص المغفل الذي أراد بتغفيله هذا أن يحتال على الشيطان ظنا منه أن هذا هو احسن طريق لمحاربة دعو الله - ايليس - و لم يعلم المسكين انه بتغفيله هذا أراد تعذيب المدعويين و ليس ارغام الشيطان .

و اسمع لابن الجوزي و هو يتحدث عن غياب احد القصاص و كيف خاطب جمهور المدعويين فقال : " كان ابو سالم الفاص يقص يوما قال : يابن ادم يابن الزانية ، أما تستحي من الملك الجليل حتى تقدم على العمل القبيح " ² .

و يذكر ابن الجوزي أن من القصاص من كان يضرب بهم المثل في الغفلة و البلادة فقال : " و قد كان في القصاص مغفلون ، فمنهم سيفويه كان يضرب به المثل في التغفيل " ³ ، فقد فرى أمامه يوما (كأنهن الباقوت و المرجان) ⁴ فقال : هؤلاء خلاف نساكم الفجار " ⁵ .

كما بين أن هناك من الوعاظ و المذكرين من بلغ درجة لا يمكن السكوت عنها من البلادة و التغفيل ، و ذلك لكونه واعظا و داعية فلا بد له من الدفاع عن شرف هذه المهنة الشريفة بالكشف عن عيوب هؤلاء المتطفلين عليها يقول مبرزاً هذا المعنى في إحدى القصص الطريفة عن أحد الوعاظ : " سنل بعض الوعاظ لم لم تتصرف (أشياء) ، فلم يفهم ما قيل له ، ثم سكت ساعة فقال : تسأل سوال الملحدين لأن الله يقول : (لا تسألوا عن أشياء) " ⁶ .

و هكذا يمضي ابن الجوزي في ضرب العديد من الأمثلة في موضوع تغفيل القصاص فهو يرى أن الهدف من كل ذلك هو أخذ العبرة من هؤلاء المبخوسين ، لأن ذكر مثل هؤلاء المغفلين يحث المتيقظ على انتقاء أسباب الغفلة ⁷ .

¹ - أخبار الحمقى و المغفلين : ص 131 .

² - المصدر السابق نفس الصفحة .

³ - القصاص و المذكريين : ص 322 .

⁴ - الرحمن : 58 .

⁵ - أخبار الحمقى و المغفلين : ص 132 .

⁶ - المصدر السابق : 134 ، و الآية من سورة المائدة : 101 .

⁷ - نفس المصدر : ص 16 و قد تحدث ابن الجوزي بالتفصيل عن تغفيل القصاص في الصفحات من 131 إلى 134 .

١- منهج ابن الجوزي في نقد القصاص :

لقد كان منهج ابن الجوزي واضحا في نقد القصاص فيما أتوا به من المفاصد والمنكرات فجعلها على ضرب ، منها منكرات في الأفعال ، ومنها في الأقوال ، ومنها في المقاصد والنيات . ثم وجدناه يفصل منهجه هذا تفصيلا دقيقا حيث جعل نقده لهم في مجال الأفعال فيه ما ينطوي على القصاص أولا وفيه ما هو موجه للمدعويين ثانيا .

١- ما يجري على القصاص :

و ذلك من خلال لبسهم للخرق الملونة ، و تعليق المصلى على الحائط حتى يوجد لقاص منهم هيبة لنفسه في قلوب الدهماء من العوام ، و إظهار التخاشع الزائد على ما في القلب ، و محاولة الحصول على أموال الناس بدون وجه حق .

٢- ما يجري على المدعويين :

من التخبط و الذي يسمونه وجدا ، و تخريق الثياب و تمزيقها ، و اللطم على الرأس و الوجه ، و اختلاط الرجال و النساء في المجلس و ارتفاع أصواتهم بالصياح من كثرة الوجد على حد زعمهم .

أما في مجال الأقوال فهي أيضا على نوعين ؛ منها ما يحصل من القصاص وملها ما يجري من المدعويين .

١- ما يحصل من القصاص :

و أوله الجهل بالسنة و الكذب في وضع الأحاديث مع الزيادة فيما عندهم من بضاعة مزجاة في الحديث ، رواية الأحاديث الموضوعية التي نتحدث عن صلاة الرغائب و صلاة لصف شعبان ، المبالغة في ذم الدنيا و سب الدهر و لعنه ، و ذكر الموت و البلى و فراق الأحبة ، فيجدد بذلك أحزان النساء و ضعاف القلوب فيسخطون على قضاء الله و قدره .

٢- ما يجري على المدعويين :

من الاستغاثات ممن يدعي الوجد من العوام ، فيصيحون و تصرخ المرأة من بينهم كأنها حبلى ، و ربما رمت سترتها و قامت بدعوى التواجد و كثرة الخشوع .
أما المقاصد والنيات : فهذه من الخطايا العظيمة المحبطة للأعمال والتي لا تحصل لصاحبها النجاة إلا بالتوبة للنصوح ، و حاصل الأمر فيها أن جمهور القصاص يطلبون الدنيا ويحتالون بالتقصص و الوعظ لتحصيلها ، و ربما امتنع أحدهم من أخذ العطاء تصدعا لا تمعنا ، إنما يقال : فلان القاص الزاهد ، فيأخذ أكثر مما رد ، و هذا من دواهي حيلهم ، بل

و يأخذون حتى من أموال الظلمة المشبوهة و يطلبون دنيا لمزيد¹ .
و مما تجدر الإشارة إليه أن ابن الجوزي قد أعطى أهمية خاصة لهذا المحور في
دعوته ، و أفرد له كتابا خاصا كما رأينا ، وذلك نظرا لمكانة القصص و للمذكرين في ذلك
العصر حيث يعتبرون في اصطلاحنا اليوم بمثابة المصلحين و المربين في المجتمع
و ابن الجوزي كان يعدّ نفسه كواحد منهم ، من أجل ذلك فقد كان حريصا في منهجه أشد
الحرص على تقويم القصص و المذكرين و الوعاظ بصفة عامة حتى يكونوا قدوة عملية
للمدعوين ، و ليكون لهم دور في إصلاح المجتمع وذلك لكون الداعية و المصلح قدوة لغيره
في واقع الأمر و قد أشار ابن الجوزي في نهاية كتابه " القصص و المذكرين " إلى أهمية
الدور المنوط بالواعظ إذا قام به على الوجه المطلوب فقال : " و لا ينبغي أن يحتقر أمر
الواعظ فإنه إذا كان كامل العلم صادق القصد عمّ نفعه ، و اجتلب إلى باب الله - سبحانه -
عدا زائدا على الحد ما لا يقدر على اجتلاب عشر عشرة فقيه و لا محدث و لا قارئ ، لأن
خطابه بالوعظ للعام و الخاص ، و خصوصا العوام الذين لا يلقون فقيها إلا في كل مدة
فيسألونه عن كلمة ، وهذا الواعظ كالرائض لهم يتفقهم و يقوّمهم و يودّبهم فلا يلتفت إلى من
أطلق ذم الوعظ ، و إنما وقع الذم للأسباب التي تقدّم ذكرها " ² ، و يؤكد مرة أخرى على
هذا المعنى مبرزاً أن الخطأ قد بدا في القصص و ليس في صناعة الوعظ لأنها محمودة
فقال : " و إنما وقع الذم لهؤلاء تركوا كتاب الله و اشتغلوا بالقصص عنه " ³ .
و نجده في نهاية المطاف يدافع عن الوعاظ و من جملتهم القصص فيقول : " فأما
إذا كان القصص صدقا و يوجب وعظا فهو ممدوح " ⁴ .

د - حكم رواية الإسرائيليات و موقف ابن الجوزي منها :

لاشك أن كل ما جاء في القرآن الكريم و السنة النبوية الصحيحة من قصص عن أهل
الكتاب و عن غيرهم من الأمم الغابرة هو حق و صدق ، و هو من باب الوحي الذي لا
يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه ، كما أنه لم يذكر لمجرد اللهو و العبث بل كل
عبرة و عظة للسامعين على مدى الدهور ، كما قال - سبحانه و تعالى : (لقد كان في

¹ - انظر مصدر هذا الكلام ليس إبليس : ص 169 إلى 171 - القصص و المذكرين : ص 295 ، 296 ، 325 ، 326 ، 318 ،

336 ، وغيرها من الصفحات .

² - انظر القصص و المذكرين : ص 343 وما بعدها .

³ - المصدر السابق : ص 343 .

⁴ - تبيين إبليس : ص 168 .

فصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى و لكن تصديق الذي بين يديه و تفصيل كل شيء و هدى و رحمة لقوم يؤمنون)¹ ، و يستفاد من هذا أنه يجوز لنا " أن نتحدث عنهم بما هو مقطوع بصدقه و لأجل ان نأخذ العبرة و العظة "² ، أما غير ذلك فلا يجوز لنا أن نحدث به على إطلاقه و لا أن نرده على إطلاقه ، إنما يكون الضابط لنا في الأخذ والسود لهذه المرويات هو القرآن الكريم وصحيح السنة الشريفة ، فما جاء موافقا لهما فهو سليم من التحريف و التغيير و نجوز روايته . وأما ما جاء مخالفا لما في شرعنا ، أو لا يمكن أن يصدقه العقل السليم و المنطق الحكيم فلا تجوز روايته و ذلك لكون هذه المخالفة دليل على أنه قد وصلت إليه يد التحريف و التبديل ، و في إياحة الله - سبحانه و تعالى - و الرسول - صلى الله عليه و سلم - الرجوع إلى أهل الكتاب و النقل عنهم ليس يدخل فيه ما كان كذبا و افتراء فاسد و رسوله لا يبيحان هذا مطلقا " و أما ما سكت عنه شرعنا و لم يكن فيه ما يشهد لصدقه و لا لكذبه و كان محتملا ، فحكمه أن نتوقف في قبوله فلا نصدقه و لا نكذبه ، و على هذا يحمل قول النبي - صلى الله عليه و سلم - : " لا تصدقوا أهل الكتاب و لا تكذبوهم "³ ، أما ما كان له سند في الشرع و أيده العقل السليم قبلناه من باب أخذ العبرة ، و إلا ففي كتاب الله - عز و جل - متسع و كفاية لمن أرك الهداية ، كما أنه في السنة الصحيحة غناء أي غناء عن مثل هذه الإسرائيليات⁴ التي نهينا عن الإسراف في روايتها و الاشتغال بها .

أما عن موقف ابن الجوزي من الإسرائيليات فقد أشار بعض الباحثين إلى وجود أحاديث ضعيفة و موضوعة في كتب ابن الجوزي الوعظية و الدعوية خاصة في باب

¹ - يوسف : 111

² - الإسرائيليات في التفسير و الحديث : محمد حسن النعمي ، مكتبة وهبه ، القاهرة ، ط 1 ، 111-1990م ، ص 48 ، 49 .

³ - المصدر السابق : ص 50 و الحديث رواد البخاري في كتاب التفسير . باب قرأه " أما بالله و ما أنزل إلينا " رقم 4485 انظر فتح الباري : 8 / 170 .

⁴ - الإسرائيليات : سبأ بن أبي إسرايل ، و سريون بن يعقوب - عليه السلام - و أمثاله هم بنو إسرائيل ، و قد عرفوا

باليهود ، و قد أكثر الله من جعلهم بين يدي رسوله في القرآن المجيدم تذكيرا لمبدأ قوة هذا النبي المصباح ، و من كتبهم التوراة

و الزبور ، و أسفار الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى ، و شروح التوراة ، و الأسفار وما اشتملت عليه ، و التلمود و شروحه

و الأساطير و الخرافات و الأباطيل التي أقروها كانت منابع الإسرائيليات التي أنصت بالنبي - صلى الله عليه وسلم - كذبا و زورا ... انظر الإسرائيليات و الموضوعات في كتب التفسير : محمد محمد أبو شهبة : مكتبة السنة ، القاهرة ، ط 4 ، 1408هـ ، ص 13.12 .

⁵ - عبد الرحمن بن الحوزي المحدث : أبو العلا علي أبو العلا ، ص 110 .

الترغيب و الترهيب¹ ، كما أشاروا إلى وجود بعض الإسرائيليات في هذه المصنفات بل وحتى في تفسيره " زاد المسير " ² ، و هذا مما يدل على ولوع ابن الجوزي بهذا اللون من الأخبار و إلا فكيف تسوّغ له نفسه النهي عن أمر خطير كهذا ثم إقدامه عليه ، و ساكتفي بضرب بعض الأمثلة عن استدلاله بالموضوعات و الإسرائيليات الواردة في كتبه³ .

فمن الإسرائيليات التي أوردها قوله في كتابه اليواقيت : " قال وهب بن منبه - رضي الله عنه - : سجد آدم - عليه السلام - على جبل الهند مائة عام يبكي حتى جرت دموعه في وادي سرنديب⁴ فنبت من دموعه الدارصيني و القرنفل ، وجعل طيور ذلك الطواويس ، ثم جاءه جبريل - عليه السلام - فقال : ارفع رأسك فقد غفر لك ... فرفع رأسه ثم أتى البيت فطاف أسبوعا فما أتمه حتى خاض في دموعه " ⁵ ، قال محقق الكتاب معلقا على هذه الرواية : " هذا الأثر من الإسرائيليات التي تلقاها وهب عن أهل الكتاب فلين كثيرا من المفسرين قد حشدوا في قصة آدم و حواء أحاديث و قصص تصل إلى حد الخيال و الحق بخلاف ما ذكروه " ⁶ .

و نجد ابن الجوزي - رحمه الله - رغم اشتراطه - في بعض كتبه - على نفسه بإيراد للصحيح فقط من الأحاديث ، إلا أننا نجد فيها الكثير من الإسرائيليات مثلما جاء في كتاب الحدائق قوله : " قال الحسن البصري : بكى آدم حين أهبط من الجنة ثلاثمائة عام حتى جرت أودية سرنديب من دموعه ... و قال وهيب بن الورد⁷ : لما عاقب الله نوحا في ابنه أنزل الله : (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) ⁸ بكى ثلاثمائة عام حتى صارت

¹ - منهم جمعة علي عماد الخوري في رسالته ابن الجوزي الملاحظ ، عبد العزيز ثابت في رسالته : ابن الجوزي و منهجه في التفسير أبو الملا علي أبو الملا في رسالته : غيب الترجيح من الجوزي الحديث .

² - انظر تفصيل للموضوع في : ابن الجوزي و منهجه في التفسير للباحث عبد العزيز ثابت ، و موازنة بين تفسير المهرج الوجيز لابن عطية و زاد المسير لابن الجوزي للباحث منصور كافي .

³ - تفصيل للموضوع أكثر عند الحديث عن ما أخذ على ابن الجوزي في الفصل الأخير من الرسالة .

⁴ - سرنديب : هي جزيرة عظيمة بأقصى بلاد الهند و فيها الجبل الذي هبط عليه آدم عليه السلام ، معجم البلدان 3 / 243 .

⁵ - اليواقيت الجوزية : ابن الجوزي ، تحقيق السيد عبد المقصود ، طبع مكتبة السنة سنة 1408 هـ ، 1988 م ، ص 3 .

⁶ - اليواقيت الجوزية : ص 57 .

⁷ - وهيب بن الورد بن أبي الورد المخرومي بالبصرة ، من العبادة الحكماء من أهل مكة ، من أئمة إمام بن آدم له أخبار مؤثرة

توفي سنة 153 ، انظر سير أعلام النبلاء : 7 / 198 ، الأعلام : 126/8 .

تحت عينيه أمثال الجداول من البكاء¹ .

هذه بعض الأمثلة لما ذكره ابن الجوزي من المرويات² التي لا يكاد يصدقها العقل لو يحكم بصحتها الواقع ، و هذا لكونها من الإسرائيليات التي ابتلى بها المسلمون و تناقلها للوعاظ في مجالسهم عن طريق السهو و حسيبنا و التعمد أحيانا أخرى ، و لقد كان حريا بابن الجوزي وهو الواعظ و المحدث الذي يعرف خطر هذه المرويات على عوام المدعوين أن يضرب صفحا عنها أو أن يشير إلى صحتها و ضعفها و هو العالم المختص في ميدان الحديث و السنة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

¹ - مواعظ ابن الجوزي : ص 44 ، 45 و كانت بغداد في علم الحديث و الزهد . باب : ابن الجوزي ، تحقيق مصطفى السبيعي ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، دت ، باب من أخبار البكائين .

² - انظر كتاب الروايات الجوزية : ص 92 ، 96 ، 79 ، 100 ، 114 ، و كذلك المعلق : ص 54 ، 59 ، 89 ، 97 فهناك أمثلة كثيرة لهذه الإسرائيليات و الأحاديث الضعيفة جدا و التي لم يتسع لنا المجال لذكرها هنا ففضلنا أن نشير إليها بأرقام الصفحات في

المبحث الثالث

ابن الجوزي و الصوفية و الزهاد

١ - مفهوم التصوف و موقف ابن الجوزي منه :

لقد حفلت كتب التصوف و مؤلفات طبقات الصوفية بتعاريف مختلفة للتصوف و الصوفية بل و حتى القضايا التي أثارها المتصوفة لم تسلم من الخلاف هي أيضا ، و كذا مصطلح الصوفي اختلف الناس حول مصدر هذه التسمية ، و الأمر الذي لا خلاف فيه هو أن الخلاف الذي وقع كان انطلاقا من مدى قبول ظاهرة التصوف في حد ذاتها أو ردها أصلا و سنعرض بشيء من الإيجاز لمفهوم هذه الكلمة عند بعض العلماء ممن عرفوا بالتصوف حتى تتضح لنا جذور الخلاف و أسبابه ثم نعرض لرأي ابن الجوزي في المسألة . من أهم مصادر كتب التصوف " حلية الأولياء و طبقات الأصفياء " لأبي نعيم الأصبهاني^١ والذي اعتبر فيه أن الصوفية هم الصالحون العقلاء الذين ينقاد لهم الصالحون و العقلاء مثلهم ، و هم السالمون من الفتن و الموقنون من المحن ، المبرورة أقسامهم ، و هم الذين صانوا أنفسهم أن تغتر بالدنيا فنظروا إلى باطن العاجلة فرفضوها ، و وضعوا ظاهرا بيجتها و زينتها ، و هم الأتقياء المخلصون ، الحاكمون بالعدل ، و الباذلون للفضل إلى غير ذلك من الأوصاف التي أطلقها أبو نعيم عليهم ، أما كلمة التصوف عنده فهي مشتقة من الصفاء عند أهل الإشارة ، أما الشيخ عبد القادر الجيلاني^٢ فإن التصوف عنده هو الصفاء من أردان النفس و الهوى ، و هو حتما ليس أقوالا تقال و لكنه طريقة فيها الجوع و قطع المألوفات و المستحسنتات ، و المتصوف عنده لا ينبغي له أن يبتغى لنفسه عبادات و صلوات لم يرد بها الشرع بل عليه الالتزام بالكتاب و السنة التزاما حرفيا .

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فيرجح أن كلمة صوفي منسوبة إلى لبس الصوف ، لأن هذا هو الحال الظاهر للمتصوفة أما رأيه فيهم فهو يقف منهم موقفا وسطا فيرى أن منهم المذنب و منهم التقى و هم على ثلاث طبقات : صوفية الحقائق ، و صوفية الأرزاق ، و صوفية

^١ - أبو نعيم الأصبهاني : الإمام الحافظ الصوفي شيخ الإسلام صاحب الحلية سمع الكثير عن الشيوخ و أحازوه ، و روى عنه الكثير مات سنة 430 هـ و له 94 سنة ، سير أعلام النبلاء ، 17 / 453 .

^٢ - سبغت ترجمته .

أما أصل كلمة الصوفية عند ابن الجوزي فهي من الأسماء العربية الصميمة و ليست
لما دخيلاً فهو يرجعه إلى خدم الكعبة الذين انقطعوا للخدمة فيها يقول في ذلك : " أن أول
من انفرد به بخدمة الله - سبحانه و تعالى - عند بيت الله الحرام رجل يقال له صوفة
واسمه الغوث بن مر فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله - سبحانه و تعالى -
فسموا بالصوفية " و يواصل ابن الجوزي ذكر ما وصل إليه علمه عن سبب تسمية الغوث
ابن مر هذا بصوفة فيقول : " إنما سمي الغوث بن مر صوفة لأنه ما كان يعيش لأمه ولد
فندرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة و لتجعله ربيط الكعبة ففعلت ، فقيل له صوفة و لولده
من بعده " ² ، و قيل أن الصوفية سماوا بهذا الاسم نسبة إلى أهل الصفة أو أنه من الصوفانة
و هي بقلة رعناء قصيرة ، فنسبوا إليها لاجتنانهم بنبات الصحراء و لكن ابن الجوزي لا
يسلم بهذين التعريفين ، و يرجح أن الصوفية يحتمل أنها راجعة إلى صوفة القفا و هي
الشعرات النابتة في مؤخره التي يطلقها القوم نسياناً لأنفسهم في التعبد ، أو إلى كلمة صوف
فيقول : " و قال آخرون بل هو منسوب إلى الصوف و هذا يحتمل ، و الصحيح الأول " ³ .
و بعد ما شرح ابن الجوزي أصل كلمة صوفية نجده يعلن أن لفظة تصوف أو زهد
كلمة حديثة الوجود لم تكن موجودة أيام السلف فقد " كانت النسبة في زمن رسول الله
- صلى الله عليه و سلم - إلى الإيمان و الإسلام ، فيقال : مسلم و مؤمن ، ثم حدث اسم
زاهد و عابد ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد و التعمد فتخلوا عن الدنيا ، و انقطعوا إلى العبادة
و اتخذوا في ذلك طريقة تفرّدوا بها . و أخلاقاً تخلّقوا بها " ⁴ .

و حاصل الأمر أن التصوف في نظر ابن الجوزي كان في بداية الأمر يحمل معنى
أخلاقياً فكان عبارة عن رياضة للنفس و مجاهدة الطبع ، برده عن الأخلاق الرذيلة و حمله
على الأخلاق الحميدة من الزهد و الحلم و الصبر و الإخلاص و التقوى و الورع إلى غير
ذلك من الخصال التي تكسب الفلاح في الدنيا و النجاة في الآخرة ، لكن هذا المعنى الأخلاقي
للجيل الذي اتسم به التصوف لم يستمر على ما عليه كان أوائل القوم و نظراً لتغير الأحوال
و الأزمان جاء قوم من الأعداء فلبس عليهم إبليس و على من بعدهم " فصدهم عن العلم

¹ - انظر الموسوعة الصوفية : عبد المعين الحفني ، دار الرشاد ، القاهرة ، ط 1 ، سنة 1992 م ، ص 89 ، 90 ، 114 ، 390 .

² - الميسر إلبس : ص 223 ، 224 .

³ - المصدر السابق : ص 225 .

⁴ - نفس المصدر : ص 223 .

وأراهم أن المقصود العمل فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات " ¹ ، ومنذ ذلك
لحين نزع الصوفية في رياضاتهم إلى عدم الاهتمام بأحكام الشريعة معولين على تطهير
القلوب و تركية النفوس فتعاطف شأنهم في إرشاد الناس و توجيههم خاصة في القرن السادس
لهجري و هو عصر ابن الجوزي ، فكان من واجب العلماء التصدي لهذا التيار الصوفي
لجأرف بالمناظرة و الحوار حيناً و بالنصام و الاقتتال حيناً آخر ² .

من المعلوم — كما ذكرنا سابقاً — أن عصر ابن الجوزي كان من بين العصور التي هبت
فيها رياح الابتداع من كل صوب ، فانقسم الناس بذلك إلى طوائف شتى .

ولما كان ابن الجوزي داعية و مرشداله اتصال مباشر بالجماهير فقد ألزم نفسه
تربيتهم و توجيههم إلى طريق الصواب ، و ذلك بالتصدي بكل قوّة لمن يقف في وجه
الدعوة أو يسهم في إفساد المدعويين و خاصة العوام ، ولعل من أكثر التيارات خطورة على
المدعويين و وقوفاً في وجه الدعوة نيار الزهاد و المتصوفة، لما كان لهم من تأثير سيئ على
كافة طبقات المجتمع و بخاصة العامة الذين التفوا حولهم ، نتيجة لما لدعوه من كرامات
ليست لهم و ما أظهروه من شطحات في أقوالهم و أفعالهم ظننها السذج من العوام من صميم
دعوة الإسلام ، فتعاطف الخلاف بين الفقهاء و المتصوفة و مصنفات ابن الجوزي خير شاهد
على ذلك فقد خص الرجل التصوف و الصوفية بكلام كثير فجل كتابه " تلبس إبليس "
و عشرات الصفحات من " صيد الخاطر " كلام عن القوم ، فقد أجهد نفسه — رحمه الله —
في كشف أكاذيبهم و حاول إعادة التصوف إلى مساره الصحيح يقول : " الصوفية من جملة
الزهاد و قد ذكرنا تلبس إبليس على الزهاد ، إلا أن الصوفية انفردوا عن الزهاد بصفات
وأحوال و توسموا بسماوات فاحتجنا إلى إفرادهم بالذكر .. إلى أن يقول : فلا بد من كشف
تلبس إبليس عليهم في طريقة القوم و لا ينكشف ذلك إلا بكشف أصل هذه الطريقة
و فروعها و شرح أمورها " ³ .

وقد اتخذ ابن الجوزي كتاب الله أمامه في تعليل حملته على الصوفية ، حيث عني
بالتفريق بين الأوائل منهم والأواخر بحسب القرب أو البعد عن اتباع الكتاب والسنة
و بمقدار ثنائه على الأوائل لالتزامهم بكتاب الله و سنة رسوله ، نجده يهاجم الأواخر
و يكشف عورتهم و مثالبهم لابتعادهم عن المنهج الإسلامي القويم .

¹ - تلبس إبليس : ص 225 .

² - أبو الفرج ابن الجوزي ، آراؤه الكلامية و الأخلاقية : أمانة محمد نصير ، ص 200 .

³ - تلبس إبليس : ص 223 .

و إذا كان ابن الجوزي قد ذم التصوف في عصره فإن هذا لا يعني مطلق الرفض له
 وللزهد كمنهجين من مناهج السلوك و العبادة ، ولكنه يفرق بينهما و بين الشطحات و البدع
 التي جاء بها هؤلاء ، وذلك وجدناه في أكثر من موضع يشيد بالزهد و يقره ، حيث سعى
 - رحمه الله - إلى نوع وسط من الزهد ، ذلك الزهد الذي لا يؤدي إلى تعذيب النفس
 و تجويع البدن¹ و الناس عند ابن الجوزي "يختلفون في طباعهم فإن الأعراب إذا لبسوا
 الصوف واقتصروا على شرب اللبن لم تلمهم ، لأن مطايا أبدانهم تحمل ذلك ... أما إذا كان
 اللبن مترفاً نشأ على التنعم فإننا ننهي صاحبه أن يحمل عليه ما يؤذيه ، فإن تزهد و أثر
 ترك الشهوات، إما لأن الحلال لا يحتمل السرف أو لأن الطعام اللذيذ يوجب كثرة تناول
 فيكثر النوم و الكسل فهذا يحتاج أن يعلم ما يضر تركه و ما لا يضر فيأخذ قدر القوام من
 غير أن يؤذي النفس"².

و هكذا فإن الجوزي - رحمه الله - كان يكره كل ما يؤذي البدن و يجعله عاجزاً
 عن العبادة و تحصيل العلم فالبدن له حق على صاحبه لا بد أن يؤذيه و خاصة إذا كان هذا
 الحق يساعد على أداء الفرائض و الطاعات ، كما لا يجب ، أن يكون مدعاة لترك الأهل
 عرضة للعاقبة و الاحتياج بقول ابن الجوزي : "فإن المنقل لا يزال ينتقل ، إلى أن يعجز عن
 التوافل ثم الفرائض ثم يعجز عن مباشرة أهله و إعفافهم ، و عن بذل القوى في الكسب لهم
 و عن فعل خير قد كان يفعله ، ولا يهولئك ما تسعه من الأحاديث ، التي تحث على الجوع
 فإن المراد بها إما الحث على الصوم ، و إما النهي عن مقاومة الشبع فأما تنقيص المطعم
 على الدوام ، فمؤثر في القوى ، فلا يجوز"³ ، و لقد كان ابن الجوزي يتخذ من سيرة
 الرسول - صلى الله عليه و سلم - سندا له و حجة في رده العنيف على الزهاد و المتصوفة
 و ما أحدثوه من طقوس و رياضات قصصوا بها ترويض النفس على الطاعة و تطهير البدن
 و تعويده على الصبر و تحمل المشاق ، فيقول عنه شارحاً أحواله - عليه الصلاة و السلام -
 - بكثير من التفصيل : " و من تأمل حالة الرسول - صلى الله عليه و سلم - رأى كاملاً
 من الخلق يعطي كل ذي حق حقه ، فتارة يمزج ، و تارة يضحك ، و يداعب الأطفال
 و يسمع الشعر ، و يتكلم بالمعاريض ، و يحسن معايشة النساء ، و يأكل ما قدر عليه و أتبع
 له ، و إن كان لذيذاً كالعسل ، و يستعذب له الماء ، و يفرش له في الظل ، و لم ينكر ذلك .

¹ - انظر منهج ابن الجوزي في تربية النفس و البدن من الفصل السابق .

² - تبيين إلهيس : ص 210 .

³ - سيد الخفايا : ص 31 .

ولم يسمع عنه ما حدث بعده من جهال المتصوفة المتزهدين ، من منع النفس شهواتها على الإطلاق ، فقد كان يأكل البطيخ بالرطب ، و يقبل ، ويمصر اللسان ، و يطلب المستحسنيات .
فأما أكل خبز الشعير و وزن المأكول ، و تجفيف البن ، و هجر كل مشتهى ، فإنه تعذيب للنفس ، و هدم للبن ، لا يقتضيه عقل ، و لا يمدحه شرع " ¹ .

و تأسيسا على هذا فإن الجوزي كان يرى أن فساد الزهد إنما جاء من بعض المتزهدين الذين لم يسعهم التسرع فأخذوا زهدهم عن الرهبان ، و انقطعوا عن الدنيا و عنى للعلم و العمل فوقعوا في الابتداع و الضلال يقول ابن الجوزي : " فإن خلقا من المتزهدين أخذوا عن الرهبان طريق النكسف ، و لم ينظروا في سيرة نبينا - صلى الله عليه وسلم - و سمعوا ذم الدنيا و ما فهموا المقصود ، فاجتمع لهم الإعراض عن علم شرعنا مع سوء فهم للمقصود ، فحدثت منهم بسع قبيحة " ² .

و الانقطاع عن الدنيا للرهبنة و التعبد يعنى فى نظر ابن الجوزي تضييع الدين بالهروب من الدنيا فلو فهم الزهاد و المتصوفة معنى التعبد على حقيقته لم يقتصروا به على الصلاة و الصوم " فربّ ما شئ في حاجة مسلم فضل تعبده ذلك على صوم سنة " ³ .
و يصل موقف ابن الجوزي من الصوفية إلى قمة الحدة و شدة الحنق عليهم ، لما أحدثوه من حماقات لا تقرها الشريعة و لا العقول السليمة و لا الواقع المألوف و يضوب لذلك أمثلة عنهم غاية في السخف و الحماقة و التغفيل ⁴ قائلا : " حتى أن أحدهم يروى أن فعل ما يؤذي النفس على الإطلاق فضيلة ، و حتى قال بعض الحمقى : دخلت الحمام فوجدت غفلة ، فآليت أن لا أخرج حتى أسبح كذا وكذا تسيحة ، فطال الأمر فمرضت و هذا رجل خاطر بنفسه في فعل ما ليس له . و من المتصوفة و الزهاد من قنع بصورة اللباس ، و ركسب من الجهل في الباطن ما لا يسعه كتاب ، طهر الله الأرض منهم و أعان العلماء عليهم ، فإن أكثر الحمق معهم " ⁵ .
و إذا كان ابن الجوزي قد عاش في عصر انتشر فيه تيار الزهد و التصوف كرد فعل

¹ - ميد الخاطر : ص 223 .

² - المصدر السابق : ص 227 .

³ - نفس المصدر : ص 224 .

⁴ - الكلام لا يسع هنا للحديث عن حق المتزهدين و تغليلهم ، انظر أخبار الحمقى و المغفلين : ص 135 إلى 139 ، ففيه الكثير

من نواحر المتزهدين و تغليلهم .

⁵ - ميد الخاطر : ص 224 ، 225 .

على تيارات المجنون و الفساد و عدم الاستقرار ، فإننا نلمس لديه روح التصوف و ذلك لسلكه طريق الزهاد و العباد ، و ذلك بحكم نشأته التي سبق و تعرفنا عليها ، فقد روض نفسه في بداية حياته على ممارسة الزهد و التقليل من مطالب الحياة و متعتها¹ و قد وصف لنا حالته تلك بقوله : " انني اشرع في النقل من الدنيا ، و قد ربيت في نعيمها ، و غذيت بلبانها ، و اطف مزاجي فوق لطف وضعه بالعادة ، فإذا غيرت لباسي و خشنت مطعمي فإن القوت لا يحتمل الانبساط ، بفر الطبع لفراق العادة ، فحل المرض فقطع عن واجبات و أوقع في آفات ، و معلوم أن لين اللقمة بعد التحصيل من الوجوه المستطابة ثم تخشيتها لمن لم يألّف سعي في تلف النفس"² . و نراه يشرح حاله مع الزهد في رسالته التي كتبها لابنه أبي القاسم " لفتة الكبد" يقول فيها : " ثم ألهمت الزهد فسردت الصوم ، و تشاغللت بالنقل من الطعام و ألزمت نفسي الصبر فاستمرت و شمّرت و لازمت و عالجت السهر"³ . و مما ذكره - رحمه الله - عن نفسه أنه تبع الزهاد مرارا " ثم رأى أن العلم أفضل من كل نافلة فانجمع عليه ، و نظر في جميع الفنون و ألف فيها"⁴ ، زيادة على هذا فقد ذكر ابن الجوزي في كتبه الدعوية و الوعظية الشيء الكثير من التراث الصوفي مما نقله عن المتصوفة من كرامات و أحوال و التي ربما توهم القارئ بأن الرجل كان يؤيد الصوفية و يقرهم على بدعهم و ضلالاتهم رغم ما أخذه عليهم ، و هذا محال في حقه فقد كانت له صولات و جولات مع الصوفية و من لف لفهم ، إنما الذي نقره في هذا المقام هو أن إنكار ابن الجوزي عليهم كان منصبا على ما جاءوا به من شطحات و طامات و محاولاتهم المنكرة التحلل من تكاليف الشرع و ابطال حجة العقل⁵ ، و هذه حقيقة ثابتة لا سبيل لنكرانها.

2- منهج ابن الجوزي في نقد الصوفية و ما أخذه عليهم :

لقد تميّز منهج ابن الجوزي في نقد الزهاد و الصوفية بالبحث و الاستقصاء و ذلك بإثباته الأفعال و الأقوال عليهم بسندها ، ليعرضها بعد ذلك على ميزان الشريعة ليبين في النهاية ما يوجد فيها من خلل في مجال العمل و التطبيق و ما شابها من انحراف في مجال

¹ - و قد سبق لنا الحديث عن زهده و ورعه في فصل الدعوة و الداعية عند ابن الجوزي .

² - صيد الخاطر : ص 39 .

³ - لفة الكبد إلى نصيحة الولد : ص 20 .

⁴ - الذيل على طبقات الخنازير : ابن رجب ، 1 / 403 .

⁵ - أثر الفرج ابن الجوزي ، آراءه الكلامية و الأخلاقية : أمينة محمد نصير ، ص 250 .

لفكر و التصور ، من أجل ذلك فابن الجوزي لم يكن يرسل الكلام على عواهنه دون
 محيص و لم يكن يكيل التهم دون دليل ، بل كان شديد العناية بتوضيح السبب الموضوعي
 لنقده للصوفية حيث بيّن أن الدافع الحقيقي الذي دفعه لنقدهم هو غربلة أفكارهم و تقويم
 ممارساتهم التعبدية و رياضاتهم الروحية ، وهذا كله ليس من باب الانتصار للنفس أو اتباع
 الهوى ، و لا هو من باب الرغبة في النيل من الآخر حتى ولو كان عدوا لدودا فما بلك إذا
 كان المنقود ممن تجمع بينهما كلمة التوحيد و رابطة الدين و اسمع إليه وهو يشرح منهجه
 في التعامل مع الصوفية فيقول : " و إذ قد ثبت هذا من أقوال شيوخهم وقعت من بعض
 شيوخهم غلطات لبعدهم عن العلم فإن كان ذلك صحيحا عنهم توجب الرد عليهم إذ لا
 محاباة في الحق و إن يصح عنهم حذرنا من مثل هذا القول و ذلك المذهب من أي شخص
 صدر ، فأما المشبهون بالقوم و ليسوا منهم فأغلاطهم كثيرة ، و نحن نذكر بعض ما بلغنا
 من أغلاط القوم و الله يعلم أننا لم نقصد ببيان غلط الغالط إلا تنزيه الشريعة و الغيرة عليها
 من الدخّل و ما علينا من القائل و الفاعل و إنما نؤدي بذلك أمانة العلم و مازال العلماء يبيّن
 واحد منهم غلط صاحبه قصدا لبيان الحق لا لإظهار عيب الغالط و لا اعتبار بقول جاهل
 يقول : كيف يرد على فلان الزاهد المتبرك به ، لأن الانقياد إنما يكون إلى ما جاءت به
 الشريعة لا إلى الأشخاص ، و قد يكون الرجل من الأولياء و أهل الجنة و له غلطات فلا
 تمنع منزلته بيان زلله " ¹ .

و خلاصة ما يمكننا أن نستنتجه من هذا القول : أن الإمام ابن الجوزي أسس منهجه
 في نقد الصوفية على عناصر استقيناها من قوله الذي أوردناه سابقا و هي :

1- ضرورة الرد على المخطئين و عدم الخوف في اللومة لانهم ، و اعتبار ذلك من
 الواجبات الدينية و الدعوية .

2- تقييم الأفعال و الأقوال و تسديدها مع الابتعاد عن تجريح الأشخاص أو اتخاذهم هدفا .
 3- هدف النقد هو صيانة الشريعة من التحريف و الابتداع ، و هذه قاعدة من قواعد النقد
 البناء .

4- أن النقد البناء و التقييم الموضوعي و التقويم السليم هو وظيفة العلماء في أداء أمانة العلم .
 5- عدم السكوت على الباطل أو البدعة تقليدا للأشخاص ، لأنه لا يوجد أحد فوق النقد كما
 أن الانقياد لا يكون إلا للشرع .

¹ - ليس لابس : 231 .

و يحاول ابن الجوزي أن يؤكد و يبرر ما ذهب إليه فنجده يحشد لذلك العديد من الأدلة التي أراد من خلالها اثبات مشروعية منهجه و مصداقيته أمام العلماء و الدعاة فيقول:
' و اعلم أن من نظر إلى تعظيم شخص و لم ينظر بالدليل إلى ما صدر عنه كان كمن ينظر إلى ما جرى على يد المسيح - صلوات الله عليه - من الأمور الخارقة و لم ينظر إليه فدعى فيه الإلهية ، و لو نظر إليه أنه لا يقوم إلا بالطعام لم يعطه إلا ما يستحقه... إلى أن يقول : و قد كان الإمام أحمد بن حنبل يمدح الرجل و يببالغ ثم يذكر غلظه في الشيء بعد الشيء و قال : نعم الرجل فلان لولا أن خلة فيه ، و قال عن السري السقطي¹ : الشيخ المعروف بطيب المطعم ثم حكى له عنه أنه قال : إن الله - عز و جل - لما خلق الحروف سجدت الباء فقال : نفروا الناس عنه .

و الملاحظ أن هذه الخطوات التي استتبطنها من كلام الرجل تنم عن موضوعيته و تركيزه على نقد البناء المؤسس و ابتعاده عن التشهير أو التهويل و المبالغة ، و كل هذا كان أساسه اعتماد ابن الجوزي على المنهج العقلي في مناقشة حجج القوم و تبیین ما وقعوا فيه من أخطاء و دعاوى مع إبراد النقول من الكتاب و السنة و من سيرة السلف و أقوالهم لمواجهة ما جاء به شيوخ الصوفية من أفكار و آراء جعلوا بها للشریعة ظاهرا و باطنا و من ثم سعوا جاهدين للفصل بين العلم و العمل .

لقد كان ابن الجوزي الخصم العنيد لكل فعل أو قول يراه بعيدا عن كتاب الله و سنة رسوله - صلى الله عليه و سلم - و لكونه عرف بعدائه الشديد لتيار الزهد و التصوف³ فقد كان الزهاد و المتصوفة أكثر الناس عرضة لانتقاداته لكونهم - حسب رأيه - في حاجة ماسة إلى الإصلاح و التقويم أولا ، و لكونهم أشد التيارات تغلغلا وسط العامة ثانيا لأن مرديهم في أغلب الأحيان منهم ، و من هذا المنطلق فقد كانت نتيجة نقد ابن الجوزي و اعتراضاته على الزهاد و الصوفية أنه عاب عليهم جملة من الأفعال حرموا فيها ما أحل الله و أحلوا ما حرم الله و سنسعى لتفصيلها حسب أهميتها و مقدار خطورتها على هذا النحو:

1 - الجهل و ترك العلم :

و هذه من أهم الانتقادات التي وجهها ابن الجوزي للزهاد و الصوفية ، إهمالهم العلم

¹ - السري السقطي : الإمام الفاضل شيخ الإسلام و ولد سنة 160 هـ ، حاشيت عنه الفاضل بن عاصم و غيره توفي سنة 253 هـ ، سير

أعلام النبلاء 12 / 185 .

² - نليس إيليس : ص 231 .

³ - موسوعة المورد العربية : مير العليكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ط 1 ، 1990 م ، 1 / 28 .

وتشاغلهم و إعراضهم عنه لأسباب واهية ، بل و قاموا بدفن الكتب و اعتبروا أن للعلم علم
للباطن و نهوا عن التشاغل بالعلم الظاهر و قد اعتبر ابن الجوزي هذا الأمر من أكبر
عوراتهم و أول مداخل إبليس التي جاءهم منها يقول في ذلك : " فأول ما ابتدأ به إبليس أنه
أمرهم بالإعراض عن العلم ، ودفنوا كتبهم و غسلوها ، و الزمهم زاوية التعبد فيما زعم و أظهر
لهم من الخزعبلات ما أوجب اقبال العوام عليهم فجعل الهمم هوهم ، ولو علموا أنهم منذ
دفنوا كتبهم و فارقوا العلم انطفأ مصباحهم ما فعلوا " ¹ .

و نجده يؤكد ما ذكره سابقا فيقول عنهم : " و فيهم من خرج إلى السياحة فأفات نفسه
الجماعة ، و فيهم من دفن كتب العلم و قعد يصلي و يصوم ، و لم يعلم أن دفنها خطأ قبيح
لأن النفس تغفل و تحتاج إلى التذكير في كل وقت ، و نعم المذكر كتب العلم ، و إنما دخل
إبليس على كل قوم منهم من حيث قعر ، و كان مقصوده بدفن الكتب إطفاء المصباح ليسير
للعابد في الظلمة " ² .

و يذكر ابن الجوزي أن من غفلة هؤلاء المنصوفة أن الشيطان بلغ في التلبس عليهم
بلغا لا يحسدون عليه ، حيث جعلهم يمنعون تلامذتهم من حمل أي شيء يدل على العلم
و لو كان محبرة و اعتبروها سوعة يجب استئثارها عن الأنظار قال ابن الجوزي : " و قد دنت
حيلة إبليس إلى جماعة من المنصوفة حتى منعوا من حمل السحابر تلامذتهم .. إلى أن يقول :
و رأيت محبرة مع بعض الصوفية ، فقال له صوفى آخر : استر عورتك " ³ .

و يحدثنا ابن الجوزي عن ما يصدر عن الزهاد و الصوفية من أفعال مخالفة للشرع
و يظنونها من علامات الصلاح و القبول فيؤدي بهم الأمر إلى الانقطاع عن الخلق لكي
يحصل لهم - في نظرهم - الجاه و بعضهم في أعين العامة ممن يكثر ازدحامهم على
مجالسهم ، و سبب وقوعهم في هذا كله هو تعبدهم بغير علم يقول ابن الجوزي : " فتأملت
العباد و المتزهدين فرأيت جمهورهم يتعبد بغير علم ، و يأنس إلى تعظيمه و تقبيل يده
و كثرة أتباعه حتى إن أحدهم لو اضطر إلى أن يشترى حاجة من السوق لم يفعل ، لئلا
ينكسر جاهه ثم تترقى بهم رتبة الناموس إلى أن لا يعودوا مريضا و لا يشهدوا جنازة " ⁴ .
وبعد إنكاره الشديد عليهم ، يشتد عليهم في إعراضهم عن العلم و يقول في لهجة

¹ - صيد الخاطر : ص 227 .

² - المصدر السابق : 224 .

³ - نفس المصدر : ص 97 .

⁴ - المصدر نفسه : ص 55 .

لها الحدة و التحيف : من اكبر المعاندة لله - عز و جل - الصند عن سبيل الله و اوضح سبيل الله العلم ، لانه دليل على و بيان لاحكام الله و شرعه ايضا - لما بحبه و بكرهه فالمنع منه معاداة الله و لشرعه ، و لكن الناهيين عن ذلك ما تفتنوا لما فعلوا" و ابن الجوزي بذلك يضع العلم في مكانه الصحيح الذي وضعه الشرع فيه ، فهو اساس كل عمل و كل تعب اما ما يفعله اجل الزهد و التصوف فهم - كما يصفهم - على الحقيقة في مقام الخفافيش قد قنوا انفسهم بالعرفان و رفع الناس ، و هي حالة حسنة اذا لم تمنع من خير من جماعة ... اذ انها حالة الجبناء ، فاما الشجعان فهم يتعامون و يعملون و هذه مقامات الانبياء - عليهم السلام - ، و ذلك لان العلم و العمل صنوان و توأمان بيان متسا واحد هو علو الهمة ، و بهما يصل الإنسان إلى مبتغاه ، و العلم الحقيقي يلزم لربابه حسن العمل و اتباع الفضائل ، و البعد عن المماثلة و التسوية يقول ابن الجوزي : العلم و العمل توأمان ، اهما علو الهمة ، اهما الشاب : جوهر نفسك بدراسة العلم و حلها بحلّة العمل .. من لم يعمل بعلمه ، لم يذر ما معه ، نادى المسك اذا كان مزكوما فلا حظ له فيما حمل .

لأن فالطريق الذي ينبغي ابن الجوزي هو طريق العلم و العمل و اما ترك المتصوفة العلم فاتهم الكثير بسبب الجهل ، و مقادير ذلك الذين انصرفوا إلى صورة العلم و تركوا العمل به والرأي السديد هو في الجمع بينهما و هو طريق النبي - عليه الصلاة و السلام - صحابته و سلفنا الصالحين .
 1 - ادعاء كراهية الدنيا :

و كراهية الدنيا و الابتعاد عنها تمثلت عند الصوفية و الزهاد في ترك الكثير من الأشياء المباحة للظهور بمظهر الزهد في الدنيا و هناك مظاهر انحرافهم عن الشريعة في نظر ابن الجوزي لأنه لا دليل على ما ذهبوا إليه ، اذ الذي سوغ لهم ذلك كله هو الجهل بالشرع يقول ابن الجوزي : موضعا المسألة : تأملت أحوال الصوفية و الزهاد ، فوجدت أكثرها منحرفا عن الشريعة بجهل بالشرع ، ابتداع بالرأي ، يستدلون بايات لا يفهمون معناها و بأحاديث لها اسباب و جمهورها لا يثبت فمن ذلك انهم سمعوا في القرآن - العزيز -

1 - تليس ابليس : ص 118

2 - صيد لخطر : ص 224

3 - اللطائف : ص 292

4 - صيد الخاطر : ص 313

(و ما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) ¹ و (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب و لهو و زينة) ² ثم سمعوا في الحديث للحديث الدنيا هون على الله من شاة ميتة على أهلها ³ فبالغوا في هجرها من غير بحث عن حقيقتها ⁴ . و قد تجلّت كراهية الدنيا هذه عندهم في تركهم للعديد من الأشياء المباحة أو التي ربما أمر بها الشارع في بعض الأحيان و تركز في جملتها على عدم الاهتمام بالمال ، و ترك النكاح ، و لبس المرفعات و الدون من الثياب .

ففي باب عدم الاهتمام بالمال ينكر ابن الجوزي على الصوفية اعتقادهم من أن المال عقوبة و أن حبه ينافي التوكل . و إذا كان أوائل الصوفية قد اشتهروا بالزهد في المال و عدم الحرص على جمعه و تجردوا من أموالهم بسبب تلبيس إبليس عليهم ، فإن المتأخرين منهم قد أنفقوا ما عندهم من أموال في وجوه التبذير و الإسراف ، و منهم من يحرص على جمع المال بأي طريق كان فيؤاؤء كفوا إبليس مؤونة التلبيس عليهم ، يقول ابن الجوزي مصورا هذا الأمر : " كان إبليس يلبس على أوائل الصوفية لصدقهم في الزهد فيريهم عيب للمال و يخوفهم من شره فيتجسسون من الأموال و يجلسون على بساط الفقر و كانت مقاصدهم سالحة و أفعالهم في ذلك خطأ بقالة العاد ، فأما الآن فقد كفى إبليس هذه المؤنة فإن أدهم إذا كان له مال أنعمه تسيرا و ضياعا ، و أما الصنف الثاني من متأخري الصوفية ممن ادعوا الزهد و التصوف ثم كانوا من أحرص الناس على جمع المال من الشبهات و ممن غير الشبهات يقول عنهم ابن الجوزي : " كانوا يتركون ما مالوا إلى الدنيا و جمع المال من أي وجه كان إيثارا للراحة و حبا للشهوات ، فممنهم من يعدر على الحساب و لا يعمل و يجلس في الرباط أو المسجد و يعتمد على صدقات الناس و قلبه معلق بطرق الباب ... و هذا كله خلاف الشريعة و جهل بها و عكس ما كان السلف الصالح عليه " ⁵ .

و بعد الرد على الصوفية و الزهد يبيّن ابن الجوزي نظرتة للمال ، و هي نظرة واقعية مشروعة حيث يرى ضرورة وجود المال في حياة الإنسان ، فهو من وسائل استمرار الحياة على وجهها الصحيح بعيدا عن الذل و المسكنة و كل ما يشغل القلب ، حتى يتفرغ

¹ - آل عمران : 185 ، الحديد : 20 .

² - الحديد : 20 ..

³ - سنن ابن ماجة : 2 / 1377 ، كتاب الزهد ، باب مثل الدنيا رقم 4111 . - مجمع الزوائد : المئتمى ، 10 / 287 ، باب هوان

دنيا على الله ، قال : زود احد و يوبطى و ابزر و فيه عمد بن مصعب و قد وثق على ضعفه ، و بقية رجالهم رجال الصحيح .

⁴ - صيد الخاطر : ص 25 .

⁵ - تلبيس إبليس : ص 240 .

⁶ - المصدر السابق : ص 249 ، 250 .

الإنسان لأداء دوره في الحياة على أحسن وجه ، فيقول : " تفكرت فرأيت أن حفظ المال من المتعين و ما يسميه جهلة المتزهدين توكلا من إخراج ما في اليد ليس بالمشروع ... (إلى أن يقول) : " و اعلم أن الاهتمام بالكسب يجمع الهم ، و يفرغ القلب و يقطع الطمع في لخلق " ¹ .

ففي منهج ابن الجوزي إذن يعتبر جمع المال من أفضل الطاعات إذا كانت نية صاحبه عند جمعه هي إعفاف نفسه و عائلته و ادخاره لظروف الزمان و حوائثه ، أو قصد لتوسعة على إخوانه و إغناء الفقراء و قضاء الحوائج و فعل المصالح و يستدل على ما ذهب إليه بما أثر عن كثير من الصحابة و التابعين بقوله : " فقد علم ما خلف الزبير و ابن عوف و غيرهما و قد بلغت صدقة علي - رضي الله عنه - أربعين ألفا ، و كان سفيان يتجر بمال ، و كان ابن مهدي يستغل كل سنة ألفي دينار " ² .

كما عاب ابن الجوزي على المتصوفة تركهم النكاح و طلب الأولاد ، و إقدام بعضهم على جب نفسه بدعوى أنهم فعلوا ذلك حياء من الله - عز و جل - و هذا الفعل غاية في الحمق و التفتيل ، فيرد - رحمه الله - على هذا الانحراف و يبين خروج أصحابه على منهج النبوي إذ لا معنى - في نظره - للزهد في أصل النكاح و لا في كثرته و يستدل بقوله تعالى : (خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها و جعل بينكم مودة و رحمة) ³ فيقول : " و كيف لا يتزوج و صاحب الشرع يقول : " تناكحوا تناسلوا " ⁴ فما أرى هذه الأوضاع إلا خلاف الشرع فأما جماعة من متأخري الصوفية فإنهم تركوا النكاح ليقال زاهد و للعوام تعظم الصوفي إذا لم تكن له زوجة فيقولون ما عرف امرأة قط فهذه رهبانية تخالف شرعا " ⁵ .

و من خلال هذا القول اتضح لنا أن الصوفية لما سلكوا هذا المسلك وقعوا في الكثير من المحرمات ، فمن حيث النية وقعوا في الرياء و من حيث الفعل فقد أضروا بأنفسهم إذ ألحقوا بها الأمراض الجسمانية و ما أعقبها من كآبة نفسية أدت بالبعض منهم إلى الانحراف

¹ - صيد الخاطر : ص 60 ، 62 .

² - المصدر السابق : ص 26 .

³ - المزمع : 21 .

⁴ - للمصنف : لأبي بكر عبد الرزاق الصنعاني ، حقه حبيب الرحمن الأعظمي ، منشورات المجلس العلمي سورت الهند د ت ، 6 / 173 - كنف الخفاء و منزل الإلهام على ما يدور من الحديث على ألسنة الناس : لإسماعيل بن محمد المجلون ، دار إحياء

الثقافة العربي بيروت لبنان ط 2 ، 1351 ، 318/1 وقال : رواه عبد الرزاق و البهقي مرسلًا

⁵ - تنقيح السبل لإسماعيل بن عيسى : ص 376

وصحبة للصبيان ، و هم في ذلك على ثلاثة أنواع كما ذكر ابن الجوزي في قوله : " و اعلم انه إذا لم ترك النكاح على شبان الصوفية أخرجهم إلى ثلاثة أنواع : للنوع الأول للمرض بحبس الماء ... و النوع الثاني الفرار إلى المتروك ... فلامسوا النساء و لابسوا من لندبا أضعاف ما فروا منه فكانوا كمن اطلال الجوع ثم أكل ما ترك في زمن الصبر ، النوع الثالث

الانحراف إلى صحبة الصبيان ¹

و يرد عليهم ابن الجوزي بأن المنهج السوي هو طلب النكاح و أن تركه لم يقل به أحد من العلماء ، ثم يوضح ان النكاح إن كان خوفا على النفس من العنت فهو واجب ، أما من غير خوف العنت فهو سنة مؤكدة عند جمهور الفقهاء ، و مذهب أبي حنيفة و أحمد بن حنبل أنه أفضل من جميع التوافل لأنه سبب في وجود الولد، ثم يمضي ابن الجوزي في شرحه لما قام به إبليس من التلبيس على كثير من الصوفية حتى منعهم من النكاح ، فترك فماؤهم ذلك تشاغلا بالتعب ، و رأوا أن في النكاح شغلا عن طاعة الله ، فيبين - رحمه الله - أن هؤلاء إن كانت بهم حاجة إلى النكاح أو بهم نوع تشوق إليه فقد خاطروا بأبدانهم و أديانهم ، و إن لم يكن بهم حاجة إليه فاتتهم فضيلة النكاح و شرفه ².

و منهج ابن الجوزي في معالجة موضوع الزهد في المنكح منهج اتسم بالعمق و الاستيعاب لسائر جوانب الموضوع ³ و ذلك نظرا لما جاء به من نصوص شرعية أتبعها بقول العلماء و تحليلاتهم ليخلص في النهاية إلى الرأي الراجح ، و قد ختم الكلام فيه بتبيان منزلة النكاح عند الأنبياء فقال : " و قد أنفق موسى - عليه السلام - من عمره الشويف عشر سنين في مهر بنت شعيب ، فلولا أن النكاح من أفضل الأشياء ، لما ذهب كثير من زمان الأنبياء فيه " ⁴.

و من مظاهر التزهد التي أنكرها ابن الجوزي على المتصوفة إهمالهم الملابس و المطعم ففي مجال اللباس أنكر ابن الجوزي عليهم الهيئة الرثة و الملابس المرقعة القذرة التي كانوا يرتدونها ، ثم انتقلهم إلى لبس الصوف و المصبغات و الثياب القصيرة أو

¹ - تلبس إبليس : ص 377

² - المصدر السابق : ص 374 ، 376

³ - أبو الفرج ابن الجوزي آراؤه الكلامية و الأخلاقية : آفة محمد نصير ، ص 209

الاقتصار على ثوب واحد¹ بدعوى الزهد مع ما في ذلك من الرياء والشهرة يقول في ذلك :
 ' وقد اتخذوا سننا تخالف الشريعة فهم يلبسون المرقع لا من فقر ، و هذا قبيح . لأنه ليس
 عندهم من أمارات الزهد سوى الملابس الدون ، فثيابهم تصيح نحن زهاد ، و باقي أفعالهم
 المستورة تفضحهم إذا اطلع عليها² ، و يرد عليهم مستنكرا هذا الفعل الشنيع و يعتبره تحدا
 للشريعة و ذلك لأن اللباس الذي يرد منه إظهار الفقر و المسكنة هو بمثابة الشكوى من
 الخلق - جل و علا - و هذا منهي عنه في الشرع³ ، و يعلل رحمه الله ذلك بأنه ليس كل
 ما نهواه النفس مذموم و لا كل التزين للناس مكروه ، إنما المنهي عنه ما كان على سبيل
 لرياء ، لذلك وجب على الإنسان التجميل و لا لوم عليه في أن يسرح شعره و ينظر في
 لمرأة و يسوي عمامته⁴ .

و الواضح من منهج ابن الجوزي في رده على الزهاد و الصوفية أنه كره ما هم عليه
 من اللباس لأربعة أسباب وجيهة و هي :

الأول : أنه ليس من لباس السلف ، لأن السلف - رحمهم الله - كانوا يرقعون ضرورة .

الثاني : أنه يتضمن لدعاء الفقر و الإنسان مأمور شرعا أن يظهر نعمة الله عليه .

الثالث : أنه إظهار للزهد و قد أمر الشرع بستره .

الرابع : أنه تشبه بهؤلاء المتصوفة المتزحزحين عن الشريعة ، و من تشبه بقوم فهو منهم⁵ .
 و خلاصة منهج ابن الجوزي في الملابس هو أنه لا يرى بأسا في أن يكون الإنسان متميزا
 في ثيابه جميلا في لباسه ، ما دام ذلك موافقا للشرع و لم يخرج بصاحبه إلى طلب الشهرة
 و الرياء .

١- تعذيب النفس و البدن :

و في هذا المجال ينقل ابن الجوزي عن الصوفية جملة من الأفعال كانوا يرون أنها
 طريقهم للوحيد الذي يوصلهم إلى الزهد في الدنيا و لم يعلموا أن ذلك ليس من شرع الله
 الذي يتقربون إلى منزلته - سبحانه و تعالى - بتعذيب أنفسهم و أبدانهم ، بل هي من أعظم
 الدلالات على حماقتهم و تغفيلهم ، و سأقتصر في هذا المقام على بعض الأمثلة فقط و ذلك

¹ - انظر ليس لليس : ص 255 ، 258 ، 260 ، 272 ، 273 .

² - صيد الخاطر : ص 338 .

³ - ليس لليس : ص 267 .

⁴ - المصدر السابق : ص 288 .

⁵ - نفس المصدر : ص 255 .

لكثرتها ، يقول ابن الجوزي ناقلاً عنهم ما كان يدور بينهم من أحاديث : " حتى أن بعضهم يقول : منذ ثمانين سنة ما اضطجعت ، و يقول آخر : حلفت لا أشرب الماء سنة ، و هؤلاء على غير الصواب " ¹ ، ومن الأمثلة التي رواها ابن الجوزي عن تعذيب المتصوفة لأنفسهم بالاستمرار في العبادة دون نوم أو راحة ما قاله في هذه الجملة من الحوادث : " ولقد دخلت يوماً على بعض من كان يتعبد ، وقد أقام إماماً وهدو وخافه في جماعة يصلي بهم صلاة الضحى و يجهر ، فقلت لهم : إن النبي - صلى الله عليه و سلم - قال : " صلاة النهار عجماء " ² فغضب ذلك الزاهد و قال : كم ينكر هذا علينا ! و قد دخل فلان و أنكر و فلان وأفكر ، نحن نرفع أصواتنا حتى لا ننام ... و لقد شأهت رجلاً كان يقال له حسين القزويني بجامع المنصور و هو يمشي في الجامع مشياً كثيراً دائماً ، فسألت ما السبب في هذا المشي ؟ فقيل لي حتى لا ينام . و هذه حماقات أوجبها قلة العلم ، لأنه إذا لم تأخذ النفس حظها من النوم اختلط للعقل ، و فات المراد من التعبد ليعد الفهم . و لقد حدثني بعض الصالحين لمجاورين بجامع المنصور أن رجلاً اسمه كثير دخل عليهم الجامع فقال : إني عاهدت الله على أمر و نقضته ، و قد جعلت عقوبتي انفسى ان لا اكل شيئاً أربعين يوماً ، قال : فمكث منها عشرة أيام قريب الحال يصلي في جماعة ، ثم في العشر الثاني بان ضعفه و كان يداري الأمر ، ثم صار في العشر الثالث يصلي قاعداً . ثم استنطح في العشر الرابع ، فلما تمت الأربعون جيء بنقوع فشربه فسمعنا صوته في حلقه مثل ما يقع الماء على المقلاة ثم مات بعد أيام . فقلت : يا الله العجب ، انظروا هذا فعل الجهل بأهله ، ظاهر هذا أنه في النار إلا أن يعفى عنه " ³ .

وظاهر الأمر أن السبب في كل ما حدث لهؤلاء كما يراه ابن الجوزي هو كون النوم من الضرورات اللازمة لجسم الإنسان حتى يستريح ليجد نشاطه و يستعد للعبادة من جديد و مثله الطعام ليقيم الإنسان صلبه ، أما الماء فلأنه " ينفذ الأغذية إلى البدن ، و لا يقوم مقامه شيء ، فإذا لم يشرب فقد سعى في أذى بدنه " ⁴ ، و تعذيب النفس بالتفريط في هذه الأمور بدعوى الزهد و التعبد مردة إلى الجهل و قلة العلم .

¹ - صيد الخاطر : ص 473 .

² - كشف الغطاء و منزل الإلهام : المعجلون ، 2 / 28 ، و قال : قال النووي في شرح المهذب في الكلام على الجهر بالقراءة إنه باطل لا أصل له ، و قال المدائني لم يرو عن النبي - صلى الله عليه و سلم - إنما هو قول بعض الفقهاء .

³ - صيد الخاطر : ص 225 ، 226 .

⁴ - المصدر السابق : ص 28 .

و يحدثنا ابن الجوزي عن أثر التقلل من الطعام عند أوائل الصوفية وما لحقهم من
 لمرض جراء ذلك فيقول : " فمنهم من أقام في الجبال يأكل البلوط فأصابه القولنج ، و منهم
 من قلل المطعم إلى أن ضعفت قواهم ، و منهم من اقتصر على نبات الصحراء ، و منهم من
 كان لا يقوت إلا بالقلل ، و الشعير ، فواجبت هذه الأفعال امراضا في البدن وترقت إلى إفساد
 العقل¹ أما المتأخرين من الصوفية فقد بالغوا في تناول الطعام و الشراب إلى حد الشوامة
 والسرف فأنكر ابن الجوزي عليهم ذلك ، وراح يعقد مقارنة بين الأوائل و المتأخرين قلنلا:
 " قد بالغ إبليس في تليسه على قدماء الصوفية فامرهم بتقليل المطعم و خشونته و منعهم
 شرب الماء البارد ، فلما بلغ إلى المتأخرين استراح من التعب ، و اشتغل بالتعجب من كثرة
 أكلهم و رفاهية عيشهم ، أما موقف صوفية زمانه من الأكل فيصفه بقوله : " و هذا الذي
 نهينا عنه من التقلل الزات في البدن ، قد انعكس في صوفية زماننا فصارت همتهم في الماكل
 كما كانت همة منقذهم في الجوع ، لهد العشاء و العشاء و الحلوى ، و كل ذلك أو أكثر
 حاصل من أموال وسخة ، و قد تركوا كسب الدنيا ، و عرضوا عن التعب و افترشوا فراش
 البطالة فلا همة لأكثرهم إلا الأكل و اللعب " .²

أما منهج ابن الجوزي فإنه يتسم بالوسطية و الاعتدال فكما أنكر على أوائل الصوفية
 تقليلهم الطعام أنكر على المتأخرين منهم الإفراط الشديد في تناوله ، و ذلك من أجل إعطاء
 حق للنفس بالرفق و اللين و هذا الذي أقره الشرع و دعا إليه و هو ما ذهب إليه
 ابن الجوزي في منهجه و قد وضع هذا المنهج بقوله : " و على المؤمن أن يرضى حق بدنه
 و ليتخير له الأغذية ... و أما زيادة التقلل مع القسوة فليس لعقل و لا شرع ، إلا أن يكون
 للقرع عَم ، فينتقل ضرورة ، و من تأمل حال رسول الله - صلى الله عليه سلم -
 و أصحابه ، و جدهم يأخذون بمقدار و لا يتركون حظوظ النفس التي تصلحها " .³

و لعل أحسن ما قاله ابن الجوزي و أوضحه كخلاصة لمنهجه في مجال تربية النفس
 و للبدن قوله : " و لا ينبغي أن يتهاون بالمأكولات ، خصوصا من لم يعتده التقشف ، و لا
 يلبس للصوف على البدن من لم يعتد . و لينظر في طريق رسول الله - صلى الله عليه -
 و سلم - و صحابته ، فإنهم القدوة . و لا يلتفت إلى بنيات الطريق ، فيقال : فلان الزاهد قد

¹ - سيد الخاطر : ص 431 .

² - ليس إبليس : ص 274 .

³ - الصدر السابق : ص 290 .

⁴ - سيد الخاطر : ص 431، 430 .

لكل الطين ، و فلان كان يمشي حافيا ، و فلان بقي شهرا ما أكل ، فإن للمحققين من هؤلاء
المخلصين لله - تعالى - على غير الجادة ، لأن الجادة اتباع رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - و أصحابه و ما كانوا يفعلون . هذا و لعمرى أنه قد كان فيهم من يقنع بالمذقة من
اللبن ، و يصبر الأيام عن الطعام و تكن إما لضرورة ، أو لأنه معتاد لذلك كما يعتاد البدوي
شرب اللبن وحده و لا يؤذبه ذلك ¹

١- الرياء و التظاهر بالخشوع :

و من أكبر الصفات الرذيلة التي أنكرها ابن الجوزي بشدة على الزهاد و المتصوفة
تصافهم بالرياء رغم ادعائهم الإخلاص ، و ذلك لصدور العديد من الأفعال التي تدل على
نك كابتعادهم عن الناس فلا يعودون مريضا و لا يزورون صديقا لانشغالهم بالعبادة عن
ذلك كما يدعون ، رغم أن الناس لم يكونوا كذلك ، و قد " كان رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - يعود المريض و يشترى الحاجة من السوق ، و أبو بكر - رضي الله عنه - يتجر
في البز و أبو عبيدة يحفر القبور ، و أبو طلحة أيضا ، و ابن سيرين يغسل الموتى ...

و أصحابنا يلزمون الصمت بين الناس و التخشع و التماوت ، و هذا هو النفاق ...
و رأيت في زهدنا من يصلي الفجر يوم الجمعة بالناس و يقرأ الموعظتين و المعنى قد
ختمت !!! ، فإن هذه الأعمال هي صريحة في النفاق و الرياء ² ، و بعد أن ذكر ابن الجوزي
جملة هذه الأعمال الدالة على الرياء و طلب السمعة أتجه لبيان هؤلاء الصوفية المرانيين أن
أعمالهم مردودة و طريق زهدهم مسدودة نتيجة لريائهم و نفاقهم فيقول لهم في حنق و شدة
مفضيا : " فانه الله في إصلاح النيات فإن جمهور هذه الأعمال مردود ... و ليعلم المراني أن
الذي يقصده بفوته وهو التفات القلوب إليه ، فإنه متى لم يخلص حرم محبة القلوب ، و لم
يلتفت إليه أحد و المخلص محبوب . فلو علم المراني أن قلوب الذين يرائيهم بيد من يعصيه
لما فعل وكم رأينا من يلبس للصوف و يظهر النسك لا يلتفت إليه ، و آخر يلبس جيد الثياب
و يبتسم و القلوب تحبه ، نسأل الله - عز و جل - إخلاصا يخلصنا ، و نستعذ به من رياء
يبطل أعمالنا ³ .

لما عن إظهار الخشوع فقد كان السلف الصالح يجهدون أنفسهم في ستر ما يظهر
لهم ، و ذلك على الرغم من أن الخشوع الحقيقي إذا سكن القلب لا يستطيع صاحبه أن

¹ - صيد الخاطر : ص 432 ، و للمزيد انظر بحث ابن الجوزي و تربية النفس و البدن من الفصل السابق .

2- المصدر السابق: ص 386

3- نفس المصدر: ص 387

يفعه فنظهر آثاره في حسن الأدب و السلوك ، بينما خشوع التظاهر هو المذموم لأن صاحبه يتصنع التخاشع والتباكي ، و المذموم تكلف التخاشع و التباكي و طأطأة الرأس لدى الإنسان حين الزهد و التهيؤ للمصافحة و تقبيل اليد ، و ربما قيل له : دع لنا ، فينتهيا للدعاء كأنه يستنزل الإجابة.. وقد كان في الخائفين من حملة الخوف على شدة الذل و الحياء فلم يرفع رأسه إلى السماء ، و ليس هذا بفضيلة لأنه لا خشوع فوق خشوع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ... و لو علموا أن اطرافهم كرفعهم في باب الحياء من الله - تعالى - لم يفعلوا ذلك غير أن ما شغل إبليس إلا التلاعب بالجهالة " 1 .

ويذكر ابن الجوزي أن التظاهر بالخشوع لم يكن من هدي أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - ، و يستدل على ذلك بقول أبي أمامة بن عبد الرحمن : " لم يكن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منحرفين و لا متماوتين و كانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم و يذكرون أمر جاهليتهم فإذا أريد أحد منهم على شيء من أمر دينه دارت حمليق عليه كأنه مجنون " 2 . فما احوج المسلمين اليوم أن يجعلوا الخشوع في قلوبهم وأن يظهرها بمظهر القوة و العزة ، وقد نظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى شاب نكس رأسه فقال له : يا هذا ، ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب فمن أظهر للناس خشوعا فوق ما في قلبه فإنما أظهر نفاقا على نفاق " 3 .

5 - إدعاء الكرامات 4 :
و رغم تصريح ابن الجوزي بعدم إنكاره كرامات الأولياء الصالحين بقوله : " لسنا من المنكرين لها ، بل نتبع ما صرح و الصالحون هم الذين يتبعون الشرع و لا يتعبون بارتهم " 5 و وافقه في ذلك ابن تيمية فقد كان لا يقر الانحرافات و الشطحات الصوفية و لكنه يقر بكرامات الأولياء و يرى بأنها حق بانفاق أئمة الإسلام و السنة و الجماعة " ، إلا أن ابن الجوزي أنكر على المتصوفة ادعاء الكرامات و ذلك لكونهم لم يقفوا على حدود التصوف المشروع من عدم الاغترار بالعمل و الإعجاب به ، فقال عنهم : " و لما بعد عن

1 - نيلس إبليس : ص 370 - 371 .

2 - المصدر السابق : ص 371 .

3 - نيلس إبليس : ص 371 .

4 - الكرامات : الكرامة ، الأمر الخارق للعادة غير المفروق بالتحدي و دعوى النبوة يظهره الله على أيدي أوليائه ، المعجم الرسيط

العدد لقوام من الصوفية لأحفظوا أنه . واليه و انفق لبعضهم من اللطف ما يشبه الكرامات فانبسطوا بالدعوى¹ . و يستدل ابن الجوزي على ما ذهبوا اليه من شطحات بالعديد من الدعوى التي ادعواها و المقولات التي تواترت عنهم . و من ذلك ما روي عن ابي يزيد البسطامي انه قال : وددت أن قد قامت القيامة حتى انسحب خيمتي على جهنم ، فسأله رجل ولم ذلك يا ابا يزيد فقال : أني أعلم أن جهنم إذا رأيتي تخمد فأكون رحمة للخلق² ، و مما نقل عنه من شطحات قوله : إذا كان يوم القسامة ، أدخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار فأسأله ان يدخلني النار فيقول له لم ؟ قال : حتى تعلم الخلاق ان برآه و اطفئه في النار مع أوليائه³ . و قد نشأ ابن الجوزي بهذا الكلام و اعتبره من اوج الاحوال لما ينضمه من تحفير لما عظمه - سبحانه - من أمر النار حيث وصفها بقوله : (و انقوا النار التي وقودها الناس و الحجارة)⁴ ، و الآيات و الأحاديث كثيرة في هذا الباب .

و قد تحدث ابن الجوزي عن -ور العلماء في محاربة هذا التيار الذي أفسد على الدعوة حسن سيرها فقال : " و قد لبس إبليس على قوم من المتأخرين فوضعوا حكايات في كرامات الأولياء ليشتدوا بزعمهم أمر القوم و الحق لا يحتاج إلى تشييد بباطل ، فكشف الله - تعالى - أمرهم بعلماء النقل⁵ .

و ابن الجوزي و إن وافق على إمكانية ظهور الكرامة على يد ولي صالح إلا أنه يحذ العلم و العلماء عن كل شيء حتى و لو كان كرامة ، و ذلك لأن العالم يقتفى أثره أما العلم فينتفع به الكثير من الخلق ، أما الكرامة فلا تنتفع إلا صاحبها هذا إن صح و أنها كرامة فعلا و ليست من تلبس الشيطان يقول ابن الجوزي في ذلك : " و من تأمل هذه الأشياء علم أن فقيها واحدا - و إن قل أتباعه ، و خفت إذا مات أشياعه - أفضل من لوف تتمسح لقوم بهم تبركا ، و يشيع جنازهم من لا يحصى ، و هل الناس إلا صاحب أثر نتبعه ، أو فقيه يفهم مراد الشرع و يفتي به ؟ نعوذ بالله من الجهل ، و تعظيم الأسلاف تقليدا لهم بغير دليل⁶ .

¹ - تلبس إبليس : ص 433 .

² - المصدر السابق : نفس الصفحة .

³ - نفس المصدر : ص 434 .

⁴ - المصدر نفسه و الآية من البقرة : 24 .

⁵ - نفس المصدر : ص 483 .

⁶ - صيد الخاطر : ص 33 .

١- التواكل و المكوث في الأربطة :

و لما لم يهتم الصوفية باتخاذ مساكن و بناء أسر لهم فقد استعاضوا عن ذلك ببناء
أربطة جعلوها مكانا لإقامتهم . وقد بين ابن الجوزي خطأهم في ذلك من عدة أوجه أهمها :

١- أنهم اتخذوا هذه الأربطة ملجأ و تركوا المساجد و الجماعات فقللوا جمعها و سوادها .

٢- أنهم تشبهوا في ذلك بالنصارى بانفرادهم في الأديرة على سبيل الرهبانية .

٣- عدم اتخاذهم الأزواج فيعرضون أنفسهم للعاب و الفتنة . و غالبيتهم شباب في حاجة

إلى النكاح .

٤- ذهاب العوام لهذه الأربطة للزيارة و التبرك بهم ، فيكتسبون الشهرة و المال الحرام .

٥- اتخاذهم الأربطة مكانا للعزلة و البطالة و الكسل مما لا يتفق مع هدي الإسلام في حثه

على السعي في الأرض و إعمارها .

٥- قضاء معظم الأوقات في الأكل و التفكك و الرقص و الغناء و غير ذلك مما يتنافى مع

أخلاق الإسلام^١ .

و يتحدث ابن الجوزي عن صفة هذه الأربطة و من يربادها من اهل البطالة و ما

ينبعث منها من روائح كريهة شوه بها هؤلاء أهم مظاهر العبادة لدى المسلمين فيقول :

و بيوت الصوفية أربطة فهي خوارج على المساجد ، و هي كالكين كريمة يقعد فيها

لكسالى عن الكسب مع القدرة عليه و يتعرضون بالعود للصدقات ... و قد أراحوا أنفسهم

من إعادة العلم و أكثرهم لا يصلي نافلة . و لا يقوم الليل ، بل يهتمهم المأكول و المشروب

والرقص^٢ .

بل لقد بلغ من حقهم رجهلهم أنهم كانوا يمنعون كل من أراد الاشتغال بالعلم في

أربطتهم يقول ابن الجوزي : " ولقد بلغني أن رجلا قرأ القرآن في رباط فمنعوه ، وأن قوما

قرأوا الحديث في رباط فقالوا لهم ليس هذا موضعه " .^٣

و بعد أن وصف ابن الجوزي احوال الصوفية في أربطتهم ؛ من خلال ما وصفوا

به من نفور عن العلم و تقصير في العبادة إلى كسل و قعود عن الضرب في مناكب الأرض

و قطع لكل أسباب الرزق . نجدده يوضح منهجه الذي يقوم في جملته على أساس أن وظيفة

الإنسان في الحياة هي العبادة و عمارة الأرض و ذلك بالتوكل و الأخذ بالأسباب وهو منهج

^١ - تلهس إبليس : ص 239

^٢ - عهد الخاطر : ص 338 .

^٣ - تلبس إبليس : ص 239

النبي - عليه الصلاة والسلام - يقول في ذلك : و من المنزهدين أقوام يرون التوكل قطع الأسباب كلها و هذا جبل بالعبد ، فإن النبي - صلى الله عليه و سلم - دخل الغار و شاور الطبيب ، و لبس الذرع ، و حفر الخندق و دخل مكة في جوار السطعم بن عدي و كلن كافرًا¹ .

و هكذا فإن الناظر فإن الناظر بعين العقل كيف قد هوى عن العلم كما قد اتبعهم من المتأخرين عن جيات العدو و حرره و يعلم من قضاء الله النازل و اكتفوا بالأذكار و الأوراد غير الشرعية في كثير من الأحيان .
7 - مصاحبة الأحداث :

و مما أخذ ابن الجوزي على المتصوفة صحبتهم للأحداث و المردان ، و إن كانت هذه الظاهرة قد وجدت لها بعض الرواج في ذلك العصر فإن الصوفية كان لهم دور في انتشار هذه الظاهرة الأخلاقية الخطيرة ، و هذا رغم كونهم قد شغلوا أنفسهم بالعبادة و حرّموا أنفسهم من الزواج الشرعي فوقوا في هذا المحذور الشنيع لبعدهم عن منهج الشرع القويم و قد قسم ابن الجوزي المتصوفة في إتيانهم لهذه البدعة إلى سبعة أصناف² :

الصنف الأول : و هم أحبب الأصناف فهم متشبهون بالصوفية ، و يقولون بالحلول .

الصنف الثاني : قوم تشبهوا بالصوفية في ملابسهم ، و قصدوا الفسق .

الصنف الثالث : يستيحيون النظر إلى المستحسن ، و هذا خلاف لما قاله الفقهاء بأن " من ثارت شهوته عند النظر إلى الأمر حرم عليه أن ينظر إليه ، و متى ادعى الإنسان أنه لا ثور شهوته عند النظر إلى الأمر المستحسن فهو كاذب " ³ .

الصنف الرابع : قوم يقولون نحن لا ننظر نظر شهوة و إنما ننظر نظر اعتبار ، و لا يضرنا هذا النظر ، و هذا محال و تلاعب و احتيال من الشيطان عليهم ، و ذلك لكون الطباع تتساوى و من ادعى تنزه نفسه عن أبناء جنسه في الطبع فقد ادعى المحال .

الصنف الخامس : و هم الذين وقعوا في فتنة المردان و منعوا أنفسهم من الفواحش يعتقدون ذلك مجاهدة و ما يعلمون أن نفس صحبتهم و النظر إليهم بشهوة معصية .

الصنف السادس : و هؤلاء لم يقصدوا صحبة المردان من أجل النظر ، و إنما ليتوب الصبي الذي صحبتهم بل رفته فينشأ على الزهد و الصلاح ، و لكن الشيطان لبس عليهم فأوقعهم في

1 - سيد الخاطر : ص 73

2 - تلبس باليس : ص 340 و ما بعدها

3 - المصدر السابق : ص 341

الصفحة السابع : و هذا الصنف جعله ابن الجوزي لقوم علموا ان صحبة المردان و النظر
لبيهم لا يجوز غير أنهم لم يصيروا عن ذلك ، فوقعوا في كثير من التخططات ¹ .
و شيوع هذه الرذيلة بين المتصوفة نارت نقمة العلماء على هذه الظاهرة الغريبة عن
المجتمع الإسلامي ، و منهم ابن الجوزي فألف كتابه الشهير " ذم الهوى " ² تحدث فيه
بإسهاب عن هذه المصيبة التي حلت بالمجتمع جراء تستر المتصوفة في أفعالهم الشنيعة
بستار أن الله اصطفاهم بعلم البواطن و جعل للعلماء علم الظواهر .

و خلاصة منهج ابن الجوزي أنه أنكر كل هذه الأفعال لأنها مخالفة للشرع وقد بين
ذلك بالعديد من الأدلة التي لا تحتاج إلى تحليل و تفصيل ، و يرى ابن الجوزي أن كل ما
تخبط فيه الصوفية من حيث ابتعادهم عن منهج الشريعة في هذا الباب مردّه قلة العلم " و من
استعمل أدب الشرع في قوله - عز و جل - (قل للمؤمنين بغضوا من أبصارهم) ³ سلم
في البداية بما صعب أمره في النهاية، وقد ورد الشرع بالنهي عن مجالسة المردان وأوصى
العلماء بذلك " ⁴ ، و على هذا المنهج عاش السلف الصالح فلم تقع بينهم مثل هذه المحدثات .
- الجرأة على كتاب الله :

لما انفرد الصوفية بالرياضات و صبّوا اهتمامهم على جانب الطاعات و العبادات
نأقت أنفسهم للكلام في العلوم و لكنهم لم يكونوا يحكمونها لعدم اشتغالهم بالعلم و التعلّم
فوقعوا في أخطاء جسيمة و صدرت منهم أقوال شنيعة و خاصة في ميدان الفقه و الحديث
و أخطر من ذلك كله كلامهم في كتاب الله بغير علم ، فكان لهم في تناول تفسير القرآن
الكريم قدر كاف من الجرأة على كتاب الله - عز و جل - فقد نحوا في هذا المجال منحي
لا يرتضيه فقيه أو عالم و ذلك لجهلهم بأسباب نزول الكتاب و لما يبدو فيه من تطويع و ليّ
لعنق الآيات حتى توافق مذهبهم الصوفي و تستر الذميمة من أفعالهم التي لا يرضى بها نقل
و لا عقل .

ولقد تعرض ابن الجوزي بالذكر لبعض كلامهم في القرآن و ما فسّروا به آيات الذكر الحكيم

¹ - انظر تفصيل هذه الأصناف في نيلس إبليس : الصفحات من 340 إلى 352 .

² - انظر تفصيل الموضوع في ذم الهوى : ص 140 و ما بعدها .

³ - النور : 30 .

⁴ - نيلس إبليس : ص 350 ، 351 .

من ذلك ما رواه : أن الجنيد سئل عن قوله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى)¹ فقال : لا تنسى العمل به ، وسئل عن قوله - تعالى - : (ودرسوا ما فيه)² فقال : تركوا العمل به ، قال ابن الجوزي : أما قوله : لا تنسى العمل به ، فتفسير لا وجه له و الغلط فيه ظاهر ، لأنه فتره على أنه نهي و ليس كذلك ، و إنما هو خبر لا نهي و تقديره - فما تنسى - إذ لو كان نهياً لكان مجزوماً ، فتفسيره على خلاف إجماع العلماء ، وكذلك قوله : (و درسوا ما فيه) ، إنما هو من الترس الذي هو التلاوة من قوله - عز وجل - (وبما كنتم تدرسون)³ لا من دروس الشيء الذي هو اهلاكه ، وسئل الشبلي عن قوله تعالى : (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب)⁴ فقال : لمن كان الله قلبه⁵ ، وسئل أحدهم عن قوله تعالى : (وإن بتوكم أسارى)⁶ فقال : غرقى في الذنوب ، و قال الجنيد : أسارى في أسباب الدنيا وقالوا في قوله تعالى : (و من دخله كان آمناً)⁷ أي من هو اجس نفسه

و وساوس الشيطان⁸ ، وقالوا في (و الجار ذي القربى) هو القلب ، (و الجار الجنب) هو النفس (و ابن السبيل) الجوارح ، و قد بلغ من حمقهم أن أحدهم سمع المؤذن يؤذن فقال : طعنه سمّ الموت ، و سمع نباح الكلب فقال : لبيك و سعديك ، فقيل له في ذلك فقال : إن الرجل المؤذن أشار عليه أن يذكر الله و هو غافل و يأخذ عليه الأجرة و لولاها ما أذن ، فلذلك قلت طعنه سمّ الموت و الكلب يذكر الله - عز و جل - بلا رياء فإنه قد قال : (و إن من شيء إلا يسبح بحمده)¹⁰ ، و يعلق ابن الجوزي على هذا التفسير المعجيب والاستنباط الغريب بقوله : " انظروا إخواني عصمنا الله و إياكم من الزلل إلى هذا لفظه الدقيق و الاستنباط الطريف " ¹¹ .

¹ - الأعلى : 6 .

² - الأعراف : 169 .

³ - آل عمران : 79 .

⁴ - ق : 37 .

⁵ - تلييس إبليس : ص 421 .

⁶ - البقرة : 85 .

⁷ - آل عمران : 97 .

⁸ - تلييس إبليس : ص 422 .

⁹ - هذه الكلمة و ما قبلها من الكلمات كلها من سورة النساء : 36 .

¹⁰ - الإسراء : 44 .

¹¹ - تلييس إبليس : ص 429 .

و خلاصة ما يصف به ابن الجوزي تفسير الصوفية للقران الكريم بأنه تأويل في غاية
لقبح¹ و الجراءة² و التخليط و الادعاء على الشريعة بأن ظاهرها يخالف باطنها³ و القران
في ذلك تابع لها فله ظاهر لأهل الفقه و الشريعة ، و له باطن لأهل التصوف و الحقيقة ، زد
على ذلك خروجهم الواضح عن منهج المفسرين من أهل السنة و الجماعة .

أما عن منهجه في تقديم نقد اعتمد فيه على الأدلة الكافية و الصحيحة من أقوال
السلف و جمهور المفسرين . و كذلك من خلال تحليله لجملة أقوالهم في آيات القران
و تصويبها من الناحية اللغوية التي كان متبحرا فيها . ليخلص في النهاية بأن من أهم
الأسباب التي أوصت لهم إلى هذا التهافت هو جرأتهم على كتاب الله - عز و جل - مع قلة
علمهم⁴ و ندرة زادهم المعرفي في هذا المجال الذي لا يصح الكلام فيه إلا لأهل العلم
و الاختصاص و ليس للمتطفلين من أمثالهم .

و بعد أن تعرض ابن الجوزي للكثير مما قاله المتصوفة من حماقات زاعمين أنها
تفسير لآيات كتاب الله - عز و جل - لخص كلامه في جملة مفيدة فقال : " فهذه لبذة من
كلام القوم و فقههم ، نبتت على علمهم و سوء فهمهم و كثرة خطئهم " ⁵ ، و قد ذكر رحمه
الله أشياء كثيرة يطول شرحها لما في الموضوع من طول و تشعب ، اقتصرنا على ذكر ما
سلف لتحديد موقفه مما كان يراه مخالفا للشرع من أفعال المتصوفة و أقوالهم و كذلك للتعرف
منهجه في التغيير فالرجل لم ينزل إلى ساحة الدعوة و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر
بدافع الغرور أو لتصدي أخطاء الآخرين ، بل من أجل إصلاح المجتمع و تربية أفراد مقتنيا
في ذلك نهج السلف الصالح ، و لعل جملة هذه القضايا مما أخذ ابن الجوزي على الزهاد
عموما و الصوفية خصوصا كافية لتوضيح مسلكه .

د - الزهد و التصوف في نظر ابن الجوزي :

الزهد و التصوف ليس لهما معنى واحدا عند ابن الجوزي ، فقد فرق بينها في أكثر
من موضع في مؤلفاته الوعظية و الدعوية فقال : " فالتصوف مذهب يزيد على الزهد ويدل

¹ - ليس اليأس : ص 422 .

² - المصدر السابق : ص 426 .

³ - نفس المصدر : ص 431 .

4 - المصدر نفسه : ص 427 ، 430 .

5 - المصدر السابق : ص 432 .

على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمه أحد و قد نمو التصوّف¹ ، كما اعتبر أن الزهد " مقام شريف من مقامات السالكين " ² و هو أيضا " ترك ما زاد على قدر الضرورة في الدنيا " ³ . و هو عنده أمر مشروع لا حرج فيه شريطة أن يكون زهدا وسطا يهذب للنفس و لا يعتبها فيحرمها مما أحله الله من الطيبات ، و قد تحدث ابن الجوزي عن نفسه لما أراد للزهد و تقليل الطعام فقال : " و قد عرفت هذا من نفسي ، فإني ربّيت في ترف فلما ابتدأت في التقلل و هجر المشتهى ، أثار معي مرضا قطعني عن كثير من التعبد " ⁴ .

و مع ذلك نجده يشترط على سالك طريق الزهد أن لا ينسى أن " الدنيا في الجملة معبر ، فينبغي للإنسان أن لا ينافس بذاتها و أن يعبر الأيام بها ... و المرء لا يخلو من حالين ، إما أن يريد التمتع باللذات المباحات ، أو يريد دفع الوقت بالضرورات " ⁵ ، فهذا هو الزهد الحقيقي عند ابن الجوزي ، زهد تكون فيه الدنيا معبر للأخرة .

لما من حيث المظهر فابن الجوزي بحث المسلم على أن يكون نظيفا و جميلا مبتعدا عن كل ما يزرى من اللباس بحجة الزهد أو إظهار الفقر فهذا مضموم و يستدل على ذلك بأن النبي - صلى الله عليه و سلم - نهى عن لباس الشهيدين ⁶ فقيل : يا رسول الله و ما الشهيقتان ؟ قال : رقعة الثياب و غلظها ، و لينها و خشونتها ، و طولها و قصرها ، و لكن سداد بين ذلك و اقتصاد ⁷ .

لما التصوّف عنده بشكل عام فهو الالتزام بالكتاب السنة ، و عدم الخروج عليهما و لذلك فهو لا يغفل في حملته على متصوفة عصره التفارقة بين الأوائل منهم و الأواخر و لقد كان على جانب كبير من الموضوعية عندما تعرض لنقد الأواخر منهم فلم ينكر أسماء بعينها و لكنه عاب عليهم تركهم العلم ، و المبالغة في تمادي ادعاء الكرمات و الشطحات التي لا أساس لها و قد أتى على أوائل الصوفية كالجنيد ، و معروف الكرخي ، و الشبلي و رابعة العدوية و أقر تصوفهم و استدلل بأقوالهم و أحوالهم ، كما دللوا القدر الكبير من

¹ - نليس إيليس : ص 227 .

² - مختصر منهاج القاصدين : أحمد بن محمد المقدسي ، ص 355 .

³ - التذكرة في الوعظ : ص 234 .

⁴ - صيد الخاطر : ص 446 .

⁵ - المصدر السابق : ص 200 ، 201 .

⁶ - نليس إيليس : ص 259 .

⁷ - هذا الحديث لورده ابن الجوزي في النليس و قد ذكره بنحوه صاحب مجمع الزوائد 5 / 135 ، في باب ثوب الشهرة و قال

الاحترام لديه لما كانوا عليه من الصلاح و التقوى .

ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن الجوزي كان في أخريات حياته عظيم الحزن و الأسى على ما أصاب التصوف من انحراف في عصره ، حيث لم يبق من الصوفية إلا دعاء التصوف أما أهل الحقائق فلم يعد لهم وجود و هذا كان من أكبر الدوافع التي جعلت قلب ابن الجوزي يعنصر حرقة و ألما فراح يقول : " ذهب أهل التحقيق ، و بقيت بنيات الطريق ، و أعجبا !! لقد رحل القوم و تخلف أهل السنة و النوم ... كان المشايخ في قديم الزمان أصحاب قدم ، و المريدون أرباب ألم ، فذهب القدم و الألم ، كان المرید يسأل عن عصاة ، و الشيخ يعرف القصة . و اليوم لا قصة و لا عصاة ، كان الصوفية قديما يسخرون بالشیطان ، و الآن يسخر الشيطان بالقوم . كان الزهد بواطن القلوب ، و صار في ظواهر الثياب . ويحك : صوت قلبك لا جسك ، و أصلح نيتك لا مرقعتك " ¹ .

و لم يكن ابن الجوزي بخلي من خطر المتصوفة الذي لم يكن ينحصر في آرائهم أو في جراتهم على الخالق جل و علا ، لأنه -- سبحانه و تعالى -- قادر على أن يتولى أمرهم بل كانت خشيته منهم على العوام لأن جهلهم يجعلهم يبعونهم دون تفكير " فإن أكثر الحمقى معهم ، فلو أنكر عالما على أحدهم مال العوام على العالم بقوة الجهل " ² .

وإذا كان ابن الجوزي يذهب في تقدير العلم و العقل لدرجة أنه يجعل العلم أفضل من الصوم و الحج و الغزو فليس لنا حاجة لشرح سبب حملته الشديدة و حربه الشعواء على متأخري الصوفية الذين كانوا يأمرؤن بحرق الكتب وإخفاء العلم و يعتبرون المحبرة عورة ³ . و لم يكن عداؤ ابن الجوزي للمتصوفة لمجرد أنه أحد فقهاء القرن السادس الهجري الذين كانوا حريصين على تطبيق ما جاء به الكتاب و السنة و ما عرف عن السلف الصالح فقط كما أثير عن الفقهاء في عصره . بل لقد تصدى في نقده لهؤلاء الصوفية بمنهج واضح كما رأينا حيث كان يستقصي جل أقوالهم و آرائهم و يناقشها بميزان القرآن و السنة ثم يرد عليهم منها ما كان مخالفا لهما و يناقشهم في بعضها بموضوعية و واقعية ، و لكنه لما يجدهم يعتنون بالمظهر حتى يعرفوا بأنهم من الصوفية رياء و نفاقا يكاد ابن الجوزي يلسى موضوعيته تجاههم فيدعوا عليهم و مما قاله : " و من المتصوفة و الزهاد من قنع بصورة اللباس ، و ركب من الجهل في الباطن ما لا يسعه كتاب . طهر الله الأرض ملهم و أمان

¹ - المطالع : ص 124 . 125 .

2- صيد الخاطر : ص 225

3- المصدر السابق : ص 97

العلماء عليهم

و رغم الجهود المضنية التي بذلها ابن الجوزي في تقويم المسار الصوفي في عصره إلا ان العديد من طاماتهم و شطحاتهم لا يزال يرددونها أتباعهم و مريدوهم إلى اليوم و لعل أفندق ما قاله ابن الجوزي فيهم ذلك الأسف و تلك التأوهات التي انبعثت من داخله — رحمه الله — لأنه على الرغم مما قدمه من جهود مضافة إلى جهود العلماء الآخرين فهم لا يزالون من أخطر الطوائف على الإسلام و المسلمين يقول : " أه لو كان للزمان عمر لاحتاج كل يوم إلى مائة درة ، لا بل كان يستعمل السيف في هؤلاء الخوارج ، و هم داخل البلد لا قدرة للعلماء عليهم ، إن قولهم فيهم لا يقبل " ².

1- صيد الخاطر : ص 225

2- المصدر السابق : ص 339

المبحث الرابع ابن الجوزي و أهل البدع

الأصل في أمة الإسلام اتباع سنة النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد بلغ الرسالة و أدى الأمانة و ترك المسلمين على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك أو مبتدع لم تسعه سنة نبيه فسلك طريق الابتداع و الاختراع ، و الإسلام بريء من كل بدعة ، بعيد عن كل محدث مذموم ، محفوظ من كل معاول الهدم التي انكسرت أمام جحافل للعلماء المنافحين عنه في الخارج ، فلجأت هذه المعاول إلى الحفر داخل المسلمين حيث وجدت أمامها أرضاً رخوة يحفر فيها أهل الابتداع كل يوم خندقاً جديداً يباعدون به بين الأمة و بين دينها بثتى الوسائل الظاهرة و الخفية بالزيادة في الدين حيناً و بالنقصان منه أحياناً أخرى ، و مرد ذلك كله اتباع الهوى و مخالفة الشرع و التجرد على القول في الدين بغير علم .

١ - تعريف البدعة و تحذير ابن الجوزي منها :

لقد تحدث علماء الإسلام - القدماء منهم و المحدثون - كثيراً عن البدع و خطورة الابتداع و ألفوا في ذلك العديد من المصنفات^١ ، و مع ذلك فموضوع البدعة و إن انتهى منه من حيث تعريف البدعة و أنواعها و أقسام المبتدعة و أهدافهم ، فإنه لا يزال مطروحاً قيد للدراسة و البحث من جهة تنوع أساليب الابتداع و كثرة المبتدعين و تلوثهم في كل عصر و تسترهم بأقنعة شتى .

و ابن الجوزي كغيره من هؤلاء العلماء أدلى بدلوه في هذا الموضوع ، فهاجم أهل البدع بكل ما استطاع و ذلك نظراً لاستفحال شرهم و تعدد مظاهر ابتداعهم ، و كثرة عددهم إذا ما أضيف إلى المبتدعة التقليديين الذين جاهاوا ببدعهم منذ القرون الأولى من ظهور رسالة الإسلام ، فبعد أن تحدث - رحمه الله - في كتابه " تلبيس إبليس " عن ضرورة لزوم

١ - للمزيد حول موضوع البدعة و أقسامها و أحكامها انظر الكتب التالية : التنبيه و الرد على أهل الأهواء و البدع لأبي الحسن المطفي ، الإحياء للإمام الغزالي و الموافقات و الإحصام و كلاهما للشاطبي ، الفصل في اللال و الأهواء و النحل لابن حزم ، الباعث على إتكار البدع و الحوادث لأن شامة ، المدخل إلى تسمية الأصحاب بتحسين البيت لابن الحاج ، و إحياء السنة و إهماد البدعة للشيخ حسين بن فردي ، رسالة في السنة و البدعة لحمد على أبو زيد ، الإبتداع في مضار الابتداع لعلي محفوظ .

لزوم منهج أهل السنة و الجماعة و عدم الخروج عنه انتقل للحديث عن البدعة كمقدمة
ليدخل بعدها الى صلب الموضوع فقال: في تعريفها : و البدعة عبارة عن فعل لم يكن
فابتدع و الاغلب في المبتدعات أنها تصدم الشريعة بالذخالة و توجب التعاطي عليها بزيادة
أو نقصان¹.

و على هذا الأساس فإن الأصل في البدعة عند ابن الجوزي مخالفة الشريعة سواء
كان ذلك عن طريق الزيادة أو بطريق النقص ، بل و وجدناه يميل الى كراهية كل شيء
مبتدع في الدين حتى و لو كان من الأمور المباحة ، كل ذلك من أجل أن يبقى المنبع صافيا
على حد تعبيره حيث قال مبررا لرايه هذا : " فإن ابتدع شيء لا يخالف الشريعة و لا يوجب
التعاطي عليها فقد كان جمهور السلف يكرهونه و كانوا ينفرون من كل مبتدع و إن كان
جانزا حفظا للأصل و هو الاتباع"²

أما تعاريف غير من جمهور العلماء فلا تكاد تخرج في إطارها العام عن هذا المعنى
اللهم إلا في بعض الاختلاف من حيث استعمال الالفاظ لا غير ، و مما جاء في هذه
التعاريف قول الإمام الغزالي : " و ما ابتدع بعد رسول الله - صلى الله عليه و سلم - ،
فليس كل ما أبدع منهيا عنه بل المنهي عنه بدعة تضاد سنة ثابتة و ترفع أمرا من الشرع
مع بقاء علته"³ ، و يؤيد هذا التعريف ما ذكره ابن رجب الحنبلي بقوله : " و المراد
بالبدعة : ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه ، و أما ما كان له أصل من
الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا "⁴ ، أما ابن حجر العسقلاني فلا يكاد يخرج تعريفه
للبدعة عن هذا الإطار حيث يقول في تعريفها : " و البدعة : أصلها ما أحدث على غير
مثال سابق ، و تطلق في الشرع في مقابل السنة فتكون مذمومة "⁵ أما الإمام الشاطبي
- رحمه الله - فقد أعطى مفهوما شاملا بعض الشيء للبدعة عندما قال : " البدعة :
طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية ، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في

¹ - تليين إيليس : ص 28 ، و تعريف البدعة في اللغة : هي الإحداث و الإختراع ، أي لما نفس المعنى الشرعي الذي أشار إليه
ابن الجوزي لنا ثم أضاف كثيرا منه في التطرف له .

² - المصدر السابق نفس الصفحة .

³ - إحياء علوم الدين : الغزالي ، ص 2 ، 4 ، 101 .

⁴ - جامع العلوم و الحكمم : ابن رجب الحنبلي ، عبد الله المنشاوي ، ملحق الإيمان المنصورة ، مصر ط 1 ، 1417 هـ 1996 م ص 298 .

⁵ - فتح الباري : 1 / 253 ، و كذلك 13 / 253 ، 254 .

و تأسيساً على ما سبق ذكره فإن ابن الجوزي قد اشتهر بعدائه للبدع وأهلها وإنكاره لكل ما يخرج الناس عن هدي الإسلام و شريعته^٢، لذلك فقد ألى على نفسه بأن يقوم بتطهير عقول الناس و عقائدهم و عباداتهم من شتى البدع و الانحرافات و الأهواء مهما كلفه ذلك من ثم^١ حتى تبقى الفطرة سليمة، و قد أيد - رحمه الله - حملته على أهل البدع مذكراً بأن المسلمين في الصدر الأول كانوا يتخوفون من البدع مهما ضعف أثرها أو انعدم مطلقاً و لكنه يتأرك الموقف ليعلم أنه بالإمكان قبول بعض الأمور المحدثّة إذا كانت لا تصادم الشريعة في أصل من أصولها و خاصة أن السلف الصالح قد عملوا بها، و يقدم تبريراً لذلك قائلاً: "إن القوم كانوا يتحذرون من كل بدعة و إن لم يكن بها بأس لنلا يحدثوا ما لم يكن، و قد جرت محدثات لا تصادم الشريعة و لا يتعاطى عليها فلم يروا بفعلها بأساً كما روي أن الناس كانوا يصلون في رمضان وحداناً، و كان الرجل يصلي فيصلي بصلاته للجماعة فجمعهم عمر بن الخطاب على أبي بن كعب - رضي الله عنهما - فلما خرج فراهم قال: نعمت البدعة هذه"^٣.

و من خلال تبرنته للمسلمين الأوائل من الابتداء نجد ابن الجوزي يفرق بينهم و بين أهل البدع فيقول: "فقد بان بما ذكرنا أن أهل السنة هم المتبعون و أن أهل البدعة هم المظهرون شيئاً لم يكن قبل و لا مستند له و لهذا استنزلوا ببدعتهم، و لم يكتف أهل السنة مذهبهم فكلمتهم ظاهرة و مذهبهم مشهور و العاقبة لهم"^٤.

و في سبيل نصرة أهل السنة و الجماعة حشد ابن الجوزي العديد من النصوص و الآثار ليديمغ به حجج أهل البدع و الضلال، منها قوله - صلى الله عليه و سلم - :

١ - الاعتمام: لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشافعي، ضبطه أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط ٢، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ م، ١ / ٢٨.

٢ - حفة المقورة: ابن الجوزي، حسن محمد بن عباس الخطيب، دار الجيل بيروت، ط ١، ١٩٩٢ م، ١ / ٨.

٣ - و بسبب محاربه للبدع و أنها كان معيرة الامتحان و السجن في آخر عمره، انظر ذات في فصل حياة ابن الجوزي.

٤ - ليس لهي: ص ٢٩.

٥ - المصدر السابق: ص ٣٠.

• لا يزال ناس من أمي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله و هم ظاهرون ¹ و قوله أيضا : " لا تزال طائفة من أمي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله و هم كذلك " ² ، ثم راجع بعد ذلك - رحمه الله - يحذر من البدع و أهلها ، حتى يكون كل مسلم على بصيرة من دينه فيعبث الله بما شرع و يسلك سبيل السلف الصالح من هذه الأمة .

و رباح البدعة العانية كما يقرر ابن الجوزي كان هبوبها على المسلمين من الجهتين اللذين يأنس الناس بهما هما جهتي العلم والعمل ، و قصد بجهة العلم العقيدة و ما أدخلته عليها الفلسفة من ضرر ، أما جهة العمل فقصد بها الرهبانية و ما أعقبها من انحراف في السلوك الإسلامي و قد فصل ابن الجوزي هذا الأمر بقوله : " فأما أصل الدخول في العلم و الاعتقاد فمن الفلسفة ، وهو ان خلقا من العلماء في ديننا لم يقنعوا بما قنع به رسول الله - صلى الله عليه و سلم - من الانعكاف على الكتاب و السنة ، فأوغلوا في النظر في مذاهب أهل الفلسفة و خاضوا في الكلام الذي حملهم على مذاهب ردية أفسدوا بها العقائد . و أما أصل الدخول في باب العمل فمن الرهبانية ، فإن خلقا من المتزهدين أخذوا عن الرهبان طريق التشف و لم ينظروا في سيرة نبينا - صلى الله عليه و سلم - و أصحابه و سمعوا ذم الدنيا و ما فهموا المقصود ، فاجتمع لهم الإعراض عن علم شرعنا مع سوء فهم المقصود فحدثت منهم بدع قبيحة " ³

و قد أورد ابن الجوزي في ذم البدع و التحذير من المبتدعة العديد من الأحاديث و الآثار ⁴ ليتنبه جمهور الدعاة خصوصا والمدعون عموما إلى هذا الخطر المحقق ، و قد قلصنا في هذا المقام على ذكر طائفة منها ، كقوله - صلى الله عليه و سلم - : " من رغب عن سنتي فليس مني " ⁵ و قوله : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس

¹ - سنن الدارمي : لأبي محمد عبد الله بن مرام الدارمي ، دار الفكر بيروت ، دلت ، 2 / 213 ، باب لا يزال طائفة من هذه الأمة و قد رواء بهذا اللفظ و في فتح الباري : 13 / 293 ، كتاب الاعتصام بالسنة باب قول النبي صلى الله عليه و سلم لا تزال طائفة من أمي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله و هم ظاهرون .

² - تليس تليس : ص 30 ، و الحديث قال عنه ابن الجوزي اضرب به مسلم ، انظر صحيح مسلم : 3 / 1523 ، كتاب الإمارة باب لا تزال طائفة من أمي رقم 1920 .

³ - صيد الخاطر : ص 226 ، 227 .

⁴ - تليس تليس : ص 23 .

⁵ - فتح الباري : 9 / 104 ، كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح رقم 5063 .

منه فهو رد¹ ، و قال - عليه الصلاة و السلام - : أنا فرطكم² على الحوض و ليختلجن³ رجال دوني ، فأقول يا رب أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك⁴ .
 و مما نقله عن العلماء و الصالحين قوله : قال صالح المري⁵ : دخل رجل على ابن سيرين⁶ و أنا شاهد ، ففتح بابا من ابواب القدر فنكلم فيه ، فقال ابن سيرين : أما أن تقوم و إما أن تقوم ... و عن ابواب السخيتاني⁷ قال : ما ازداد صاحب بدعة اجتهدا إلا ازداد من الله عز و جل - بعدا ، و قال سفيان الثوري : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية المعصية يثاب منها و البدعة لا يثاب منها ، و قال الفضول بن عياض⁸ : إذا رأيت مبتدعا في طريق فخذ في طريق آخر ، و لا يرفع لصاحب بدعة إلى الله - عز و جل - عمل و من أعان صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام ، و قال الليث بن سعد⁹ : لو رأيت صاحب بدعة يمشي غني الماء ما قبلته ، فقال الشافعي : إنه ما قصر لو رأيت يمشي على الهواء ما قبلته¹⁰ .

و على هذا النسق يمتدح ابن الجوزي في تحذيره للمسلمين من البدع و أهلها ، إذ يرى أن الواجب على المسلم التمسك بشريعة الإسلام و أن ينظر إليها بعين الكمال لا بعين

¹ - فتح الباري : 301/5 ، كتب الصلح ، باب إذا اصطنحوا على صلح جور ، رقم 2697 .

² - فرطكم : الفارط هو السابق و المتقدم وهو من تقدم إلى الورد ، تهذيب اللسان لابن منظور ، بإشراف عبد الله علي مهنا دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط1 . 1413 ، 1993 م . 3-0/2 .

³ - ليختلجن : من الخلج وهو الحنطب و الخرج ، تهذيب اللسان : 1 / 357 .

⁴ - مع الباري : 11 / 101 ، كتاب الزوائد ، باب في غموس ، رقم 0570 .

⁵ - صالح المري : القاص الزاهد ، واعظ من أهل البصرة ، ضحيف من الطبقة السابعة ، باب سنة 172 هـ ، سير أعلام النبلاء : 8 / 42 .

⁶ - ابن سيرين : صاحب التفسير ، من الصحابة ، المحدثون ، 1 / 100 ، 1984 م 382/4 .

⁷ - الليث بن سعد : من الصحابة ، من الطبقة الثالثة ، مات سنة 110 هـ ، سير أعلام النبلاء 4 / 606 و تهذيب التهذيب 1 / 190 .

⁸ - الليث بن سعد : من الصحابة ، من الطبقة الخامسة ، مات سنة 131 هـ ، وله 05 سنة ، انظر سير أعلام النبلاء 1 / 15 ، تهذيب التهذيب 1 / 318 .

⁹ - الفضيل بن عياض : سفت برحمته .

¹⁰ - الليث بن سعد : أبو الحارث العربي ثقة ثبت و فقيه ، يهجر من الطريقة السابعة ، روى عنه خلق كثير اشغل بالفتوى في زمانه انظر سير أعلام النبلاء 8 / 122 ، تهذيب التهذيب 8 / 412 .

¹⁰ - جملة هذه الأقوال من تلبس إبليس : هي 25 ، 26 ، 27 .

لنقصان يقول : " فأما إذا كانت البدعة كالمتمم فقد اعتقد نقص الشريعة ، و إن كانت مضادة فهي أعظم ¹ .

2 - طوائف أهل البدع و منهج ابن الجوزي في التعامل معهم :

و أهل البدع ليسوا طائفة بل هم طوائف متفرقة كتفرق أهل الباطل و في بيان تقسامهم يورد ابن الجوزي - رحمه الله - حديث النبي - صلى الله عليه و سلم - : " تفرقت اليهود على إحدى و سبعين فرقة أو اثنتين و سبعين ، و النصارى مثل ذلك و تفرقت أممي على ثلاثة و سبعين فرقة " ² ، و قوله أيضا ³ : " إن بني إسرائيل تفرقت إحدى و سبعين فرقة ، فهلك سبعون فرقة و خلصت فرقة واحدة ، و إن أممي ستفترق على اثنتين و سبعين فرقة ، يهلك إحدى و سبعون ، و تذاخر فرقة ، قالوا يا رسول الله ما تلك الفرقة ؟ قال : الجماعة " ⁴

ثم ينتقل ابن الجوزي للحديث عن هذه الطوائف و الفرق قائلا : قال الشيخ أبو الفرج - رحمه الله - فإن قيل ، و هذا يعد الفرق سعروقة ؟ فالجواب ، إنا نعترف الاقتصار وأصول الفرق و إن عدل دائرة من الفرق فالتقسيم إلى فرق و إن لم ندر بسط بأسماء تلك الفرق و مذاهبها ، و قد ظهر لنا من أصول الفرق : الحرورية ⁵ و القدرية ⁶ و الجهمية ⁷

¹ - تليس إبليس : ص 70

² - الجامع الصحيح ، سنن الترمذي : 5 / 25 ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في أفراس هذه الأمة ، رقم 2615 و قال حديث حسن صحيح .

³ - تليس إبليس : ص 70

⁴ - سنن ابن ماجه : 2 / 1122 ، كتاب الفتن ، باب أفراس الأمم ، رقم 7081 - جامع الرواة : الجهمي ، 233 / 0 ، 234

كتاب قال أهل البغي ، باب منه في الحوارح و قال : رواد ابن ماجه و الترمذي باختصار ، و رواد الطبراني و رجاله ثقات .

⁵ - الحرورية : و هم الحكمية الأولى من الحوارح ، لقبوا بهذا الاسم لحرورهم بحروراء سنة 37 هـ ، و اغترضوا على التحكيم رغم لهم من أكره الإمام علي عليه السلام نظر الملل و النحل : عبد الكرم الشهرستاني ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت لبنان ، ط 2 ، 1 / 114 ، 115 .

⁶ - القدرية : لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر حيوه و شره من الله تعالى ، احترازاً من وصية القلب ، و منهم أول ما ظهر (أن الأمر أنف) انظر الملل و النحل : 1 / 43

⁷ - الجهمية : نسبة إلى الجهم بن صفوان تلميذ الجعد بن درهم ، و خلاصة منهجه هو تأويل آيات الصفات و تعطيلها ، و القول بخلق القرآن ونفي الرؤية أنظر الملل و النحل : 1 / 68

و المرجئة¹ و الرافضة² و الجبرية³ . و قد قال بعض أهل العلم : أصل الفرق للضالة هذه الفرق الست ، و قد انقسمت كل فرقة منها على اثنتي عشرة فرقة ، فصارت اثنتين و سبعين فرقة⁴ .

و قد تعرض ابن الجوزي للحديث بالتفصيل عن هذه الفرق و ما افتقرت إليه من فرق أخرى كما تحدث عن مؤسسيها و ما أتوا به من آراء و ضلالات⁵ ، و من ذلك على سبيل المثال ما ذكره عن الخوارج بقوله : " قال المصنف : أن عليا - رضي الله عنه - لما حكم قتاه من الخوارج زرعة بن البرج الطائي و حرقوص بن زهير السعدي فدخلا عليه فقالا له : لا حكم إلا لله ، فقال علي : لا حكم إلا لله ، فقال له حرقوص : تب من خطيئتك و ارجع عن قضيتنا و اخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا و لنن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله - عز و جل - لأفانئك أطلب بذلك وجه الله " ⁶ .

و من ضلالات الخوارج و بدعهم ما أورده عنهم في قوله : " و لما أُرِدَ الحسن - رضي الله عنه - أن يصلح معاوية خرج عليه من الخوارج الجراح بن سنان ، و قال شُركت كما أشرك أبوك ثم طعنه في أصل فخذة ، و ما زالت الخوارج تخرج على الأمراء و لهم مذاهب مختلفة " ⁷ ، ثم يورد تعليقا على ضلالهم و ابتداعهم بقوله : " و لهم قصص تطول و مذاهب عجيبة لهم لم أر التطويل بذكرها و إنما المقصود النظر في حيل إبليس

¹ - المرجئة : و سموا بذلك لأنهم أخرجوا الفعل عن الله فقالوا : لا نصر مع الإيمان معصية ، و لا نفع مع الكفر طاعة و هم أصناف : مرجئة الخوارج ، و مرجئة الصابرية ، و مرجئة الخيرية ، و المرجئة الخالصة . انظر الملل و النحل : 1 / 139 ، الفحل لابن حزم 5 / 73 .

² - الرافضة : هم من الشيعة الذين صابوا و باد بن عبيد بن الحسن بالشورى من أبي بكر و عمر فقال زيد : إن لا أقول فيهما إلا حيرا فصاروه عند ذلك حتى قال سم : " رافضوي " و من يومئذ سموا بالرافضة . انظر تليس إبليس : ص 34 - الفرق بين الفرق : عند الفاهر بن طاهر الأسفرايني ، ط 1 - دار الغرب العلمية ، بيروت ، 1405 هـ ص 25 .

³ - الخيرية : نسبة إلى الخير ، و غير نفي الفعل حقيقته عن العبد و إضافته إلى الخلق و هم أصناف : الخيرية الخالصة التي لا تبت للعبد فعلا و لا قبرة ، و الخيرية المتوسطة : هي التي تبت للعبد قبرة غير مؤثرة . الملل و النحل : 1 / 85 ، تليس إبليس : ص 35 .

⁴ - تليس إبليس : ص 31 .

⁵ - المصدر السابق : ص 32 إلى 35 .

⁶ - نفس المصدر : ص 131 ، 132 .

⁷ - المصدر نفسه : ص 133 .

و تليسه على هؤلاء الحمقى الذين آمنوا بواقعاتهم واعتقدوا أن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - على الخطأ و من معه من المهاجرين و الأنصار على الخطأ و أنهم على الصواب و استحلوا دماء الأطفال و لم يستحلوا أكل ثمره بغير ثمنها¹ .

أما الرفضة فشانت لابن الجوزي معهم جولات إبان حياته الدعوية و قد كشف عن العديد من بدعهم في كتابه "النابيس" فقال : " و كما لبس إبليس على هؤلاء الخوارج حتى قاتلوا علي بن أبي طالب ، حمل آخرين على الغلو في حبه ، فزادوه عن الحد ، فمنهم من كان يقول إله ، و منهم من يقول هو خير من الأنبياء ، و منهم من حمله على سب أبي بكر و عمر حتى إن بعضهم نثر أيا بشر و عسر إلى غير ذلك من المذاهب السخيفة التي يرغب عن تضييع الزمان بتكرها² .

أما عن موقف ابن الجوزي من أهل البدع فلم يكن سلبيا و ذلك لكونه لم يكتف فقط بالتحذير من البدع و المبتدعين بل قاد - رحمه الله - بالرد على أولئك المبتدعة بإظهار وجه الحق و الصواب و اتخذ له منهجا جريئا و صار ما لا هولاء فيه معهم و لا مهاندة و قد تجلى لنا هذا المنهج في العديد من المواقف التي سجلها في مؤلفاته و من هذه المواقف الجريئة مع أهل البدع ما نشره في أحد كتبه سنة ١٠٠٤ هـ بقوله : " و ظهر أقوام يتكلمون بالبدع و يتعصبون في المذاهب و أعانني الله - تعالى - عليهم ، و كانت كلمتنا هي العليا³ " و كان - رحمه الله - يصرح بعذابه لأهل البدع و لا يخاف في الله لومة لائم ، فقد قال يوما على منبر الوعظ : " أهل البدع يقولون : ما في السماء أحد ، و لا في المصحف قرآن و لا في القبر نبي ، ثلاث عورات لكم⁴ " ، و مخافة أن يلحقه السوء من أهل البدع نصحه ناصح بعدم التعرض بكثرة لأهل البدع و لكن ابن الجوزي رفض ذلك و اعتبره هروبا و تخليا عن واجب القيام بالدعوة و قد سجل له ابن رجب جملة من المواقف بقوله :

' و قيل له مرة : قلل من ذكر أهل البدع مخافة الفتن ، فأشدد :

أتوب إليك يا رحمن مما جنيت، فقد تعاضمت الذنوب

¹ - نبيس إبليس : ص 134 .

² - للمصدر السابق : ص 136 ، و قد ذكر ابن الجوزي كلاما كثيرا عن الرفضة و بدعهم لا يسع المجال هنا لذكره و للزيادة في

التفصيل انظر نبيس إبليس : ص 136 إلى 141 .

³ - فتاوى : 18 / 141 - الدليل على طهارة الخاتبة : ابن رجب 1 / 403 .

⁴ - الدليل على طهارة الخاتبة : 304/ 1

و أما هوى ليلى وتركي زيارتها ، فإنسى لا أتوب

وكتب إليه رجل في رقعة : و الله ، ما أستطيع أراك ، فقال : أعمش و شمس ، كيف يراها ؟ ثم قال : إذا خلوت في البيت غرست الدر في أرض القراطيس ، وإذا جلست للناس دفعت لهم برياق سموم الهوى : احبهم عن طعام البدع ، و تأبون إلا التخليط و الطيب مبعوض¹ .
لقد كان ابن الجوزي من أشد المحاربين للبدع و هذا زيادة على كونه حنبلي المذهب و ذلك لأن الحنابلة قد ذاع صيته في هذا المجال و بلغوا إلى حد الغلو و التعصب على المخالفين في بعض الأحيان² ، و لعل ابن الجوزي قد ناله شيء من ذلك فقد قال له قائل ذات مرة :
ما فيك عيب إلا أنك حنبلي فأنشد :

و عيرني الواشون أي احبها و تلك شكاة ظاهر عنك عارها

ثم قال : أهذا عيبي !! و لا عيب في وجه نقط صحنه بالخال³ .

و لما حاول الشيعة أن يرفعوا رءوسهم ملوحين ببدعهم سنة 571 هـ ، أطلق الخليفة المستضيء يد ابن الجوزي لمحاربة البدع فصعد على المنبر وطلب من جمهور المدعوين أن يخبروه عن ينتقص الصحابة من العوام حتى يهدم عليه داره و يخلده في الحبس فكف الشيعة عن التحدث عن الصحابة بسوء .

و قد سجل ابن الجوزي هذه الحادثة في كتابه " المنتظم " فقال في حوادث 571 هـ ما نصه : " و كان الرفض في هذه الأيام قد كثر ، فكتب صاحب المخزن إلى أمير المؤمنين إن لم تقوَ يد ابن الجوزي لم يطق دفع البدع ، فكتب أمير المؤمنين بتقوية يدي ، فأخبرت الناس بذلك على المنبر ، و قلت : إن أمير المؤمنين ، قد بلغه كثرة الرفض ، و قد خرج توقيعه بتقوية يدي في إزالة البدع ، فمن سمعتموه من العوام ينتقص الصحابة فأخبروني حتى أنقض داره ، و أخذ الحبس ، و إن كان من الوعاظ حذرت المشان⁴ " و كانت النتيجة أن كف الناس و ارعوا⁵ .

¹ - الذيل على طبقات الحنابلة : 1 / 403 ، 404 .

² - وقد أشرت إلى ما كان يقع من الحسانه و الأضرار من فن في فصل عصر ابن الجوزي .

³ - المصدر السابق : 1 / 404 .

⁴ - حنجره المشان هكذا وردت الكلمة في المنتظم ، و هي غير واضحة ، أما ابن رجب فقلها على هذا النحو : حانجره المشان .

المنتظم : 18 / 222- الذيل على طبقات الحنابلة : ابن رجب : 1 / 704 .

و الذي يمكننا استنتاجه من هذا النص : أن الابتداع و الرفض كانا منتشرين في عصر ابن الجوزي ، و أن هناك طوائف من الناس قد لطمختها أحوال المعاصي فما كان من ابن الجوزي انذاك إلا أن يقوم بنور الإصلاح لشتى مظاهر الفساد في المجتمع و كان لابد له من سلطة قوية تحسبه حتى يستطيع القيام بمهامه و ذلك لأن أهل البدع و الروافض كلوا قوة لا يستهان بها في ذلك العصر ، و هذا ربما ما يساعدنا على تبرير استعانة ابن الجوزي بالسلطة للقضاء على البعة بمختلف أشكالها و استعانة السلطة بابن الجوزي للسيطرة على الوضع و المحافظة على الهدوء و الاستقرار و هذا ما يشده دائما أصحاب القرار من مواطنيهم . و قد تحدث ابن الجوزي عن العديد من الحوادث التي كانت تقع بين الفينة و الفينة و يكون وراءها بعض الروافض و المبتدعة و لكن هذا التيار الانفصالي كان يجابه بالمقاومة الشديدة من مختلف الأطراف سواء السلطة أو الدعاة و الوعاظ ، بل و حتى من العوام الذين كانوا مصدر الشعب في كثير من الأحيان ، يقول ابن الجوزي في إحدى هذه الحوادث من سنة 561 هـ : " و في ليلة الجمعة رابع عشرين رمضان : كبس بالكرخ على رجل يقال له أبو السعادات ابن فرايا ... فوجدوا عنده كتباً كثيرة فيها سب الصحابة و تلقيفهم فأخذ فقطع لسانه بكرة الجمعة و قطعت يده ثم حط إلى الشط ليحمل إلى المارستان لضربه العوام بالأجر في الطريق فهرب إلى الشط فجعل يسبح وهم يضربونه حتى مات ثم أخرجوه و أحرقوه ثم رمى باقيه إلى الماء فظفا بعد أيام فقالت العامة : ما رضيته السمك ... (إلى أن يقول) : ثم تتبع جماعة من الروافض فجعلوا يحرقون كتباً عندهم من غير أن يطلع عليها مخافة أن ينم عليهم و حسنت جبرتهم بمرّة و صاروا أذل من اليهود " ² .

و لقد كانت مثل هذه الحوادث غالباً ما تسفر على العديد من القتلى و الجرحى من مختلف الأطراف ، زيادة على ذلك فهي تدل على ما كان يوجد انذاك من غليان فكري و قلق واضطرابات بين الخاصة من العلماء و كذا على المستوى الشعبي بين العوام ، كان يسهم في إشعال فتيلها في بعض الأحيان قلة من الفقهاء بما يشهرونه من آراء شاذة و اجتهادات خاطئة ، و كان ابن الجوزي يسعى لإطفائها في غالب الأحيان حفاظاً على وحدة المسلمين و تمتيناً للروابط الاجتماعية بينهم ، ويذكر ابن الجوزي مثالا من هذا القبيل في حوادث 574 هـ فيقول : " و في ليلة السبت 29 رمضان : حضر الجماعة على طبق صاحب

¹ - للبهيم : من اللطف ، و معناه تناوله بسرعة : لسان العرب : 320 / 9 .
² - المنتظم : 152/ 18

المخزن فتكلم ابن البغدادي الفقيه فقال : إن عائشة قاتلت عليا - عليه السلام - فصارت من جملة البغاة ، ففقد صاحب المخزن بإقامته من مكانه و وكل به في المخزن ، و كتب إلى أمير المؤمنين بذلك فخرج التوقيع بتعزيره ، فجمع الفقهاء فقيل لهم : ما تقولون فيما قال ؟ و هل يجوز أن يترك تعزيره إذا أقر بالخطأ ؟ فجعل هو يناظر على ما قال و الفقهاء يردون ما يقول ، فقلت أنا من بين الجماعة : هذا رجل ليس له علم بالنقل و قد سمع أنه جرى قتال ، و لعمرني لقد جرى قتال و لكن ما قصده عائشة و لا علي إنما أثار الحرب سفهاء الفريقين ولو لا علمنا بالسير لقلنا مثل ما قال و تعزير مثل هذا أن يقر بالخطأ بين الجماعة و يصفح عنه ، فكتب إلى أمير المؤمنين بذلك فوقع إذا كان قد أقر بالخطأ فيشترط عليه أن لا يعاود ثم اطلق¹ .

و من كلامه الطريف الذي وضع به منهجه جليا في محاربة أهل البدع هذه الخطبة التي مزج فيها بين تهديده لأهل البدع و اعتزازه بفصاحته و وعظه فقال : " أيجدد الحق وسيفي في يدي و تحت لأهمي ؟! لا وقعت بأعداء السنة تبلى إلى أن تبلى أعظمي ، لازالت منصوبة في صحراء المجاهدة خيمي ، لا سكت صوت بوقي و لا نكس علمي ، جمعت بين الكتاب و السنة و عاش لي توأمي ، سوط السنة بيدي أضرب من إلى البدع ينتمي ، (هذه عصاي أتوكأ عليها و أمش بها على غمي)² ، يا لها من درر قذف بها بحر قلبي إلى ساحل فمي ، نفخت كبر الفصاحة فحسى فحمي"³ .

و يحمل في خطبة أخرى على المبتدعة من مشبهة و معطلة واصفا إياهم بأشنع الأوصاف مبيتنا غباءهم و حمقهم اخوضهم في المحال الذي لا تدركه عقولهم ، مذكرا أن المنهج السوي هو السير على طريق الكتاب و السنة ، فيقول : " إذا أخفى غيرنا عقيدته ضربنا على عقيدتنا بالطبول ، ما للمعطلة فهم و لا للمشبهة عقول ، سر على نجيب الكتاب و السنة تبلغ المأمول ، و لا تعد حمار التعطيل و لا ثور التشبيه (إنها بقرة لا نلول)⁴ ، لا شك في الاستواء و لا ريب في النزول ، أتجدد سبع آيات قد علمتم إثم الغلول ، ليس النزول نقلة و لا الاستواء حلول ، نقر و نمر و في الطريق التفتيش غول ، أينكم في الخالق من

¹ - لتنظم : 18 / 252 .

² - طه : 10 .

³ - رؤوس القوارير: ص 33

⁴ - البقرة : 71

يخرج من حيث يبول ؟ احذروا المنافقين فما للنفاق محصول ، لينك لم تترك بعدك نسلا يا ابن سلول¹ و النماذج من هذا المنوال كثيرة في أقوال ابن الجوزي التي توضح منهجه في التعامل مع أهل البدع و كيفية محاربتهم لهم ، باللين حيناً و بالشدّة أحياناً أخرى ، يقول في مطلع خطبة له : " استوى على العرش لا كما في النفوس من جلوس و افتراش ، و ينزل إذا جن الليل و وجد المشبه أسود من تلك الأغباش ، عظيم إذا سار العقل نحو عظمته حار و طاش ، المعطلة ثقال و المشبية و حاش (لهم من جهنم مهاد و من فوقهم غواش)² أحمد حمد راض بقضائهم إذا جاش الجاش ، و أصلي على رسوله محمد الذي عرج به جبريل الركائبي و الفرائش ، و على صاحبه أبي بكر الذي لا يبغضه إلا الرافضة الوحاش"³ . ويختد ابن الجوزي كلامه عن البدع و أهلها بالحديث عن صفاء عقيدة أهل السنة من خلال تبيينه لعقيدته في الصفات ثم الرد بقوة على أهل الأهواء فيقول : " أثبات قدمه أول القضايا و النهي عن تشبيهه أكد الوصايا ، استوى على العرش لا كاستواننا على الحشايا ، ينزل إلى سماء الدنيا لا كارتحال السرايا ، هذه عقيدتي و اس يعلم الطوايا ، لقد أقمت لأسر أهل التعطيل ربايا ، و اخذت أهل التشبيه كلهم سبايا ، و لو أمكنني شهرتهم على المطايا ، و لو صح لي ما تركت منهج بقايا"⁴ . و هكذا يبين ابن الجوزي مقدار حنقه على المبتدعة و أنه لو استطاع أن يشهر بهم على ظهور المطايا لفعل و لو استطاع اقتلاعهم من جذورهم لما تردد لحظة حتى يريح البلاد و العباد من شرهم .

¹ - رؤوس الفوارير : ص 31 .

² - الأعراف : 41 .

³ - رؤوس الفوارير: ص 27

⁴ - المصدر السابق : 38

الفصل الثالث

تأثير ابن الجوزي وما أخذ عليه

ويتضمن أربعة مباحث

المبحث الأول : تأثير ابن الجوزي في ميدان الدعوة

المبحث الثاني : بين ابن الجوزي والشيخ محمد

الغزالي

المبحث الثالث : تأثير ابن الجوزي في ميدان العلم

المبحث الرابع : ما أخذ على ابن الجوزي

المبحث الأول

تأثير ابن الجوزي في ميدان الدعوة

١- أثر ابن الجوزي في جماهير المدعوين :

لقد كان العصر الذي عاش فيه ابن الجوزي ، عصرا مليئا بالاضطرابات و الحوادث التي كانت تهزّ بغداد و ما حولها ، هذا العصر الذي فشلت فيه الكثير من الأمواض الاجتماعية و الخلقية .

و قد كان ابن الجوزي كثير التأمل لما يعانيه أهل الإسلام من فرقة و انشقاق فجمع كل همته لإصلاح جماهير المدعوين بتزكية نفوسهم ، و تطهيرها مما أصيبت به من علل نفسية و خلقية و ذلك بنزوله إلى الميدان الدعوي بينهم ، فراح يشرح المجتمع بنقده الرقيق حيناً و اللاذع حيناً آخر فكان له أعظم التأثير عليهم ، حيث كثر التائبون و اهتدى على يديه خلق لا يعلم عددهم إلا الله - عز و جل - ، كما كان لمجالسه الدعوية أثرها الفعال على نفوس الشباب الذين تركوا حياة اللهو و العبث و رجعوا إلى جادة الصواب ، بل و تعدى تأثير هذه المجالس و نفعها إلى غير المسلمين من أهل الكتاب ، حيث كان المجلس لا ينفذ إلا و ينهض من بين الحضور من يعلن إسلامه و يشهد شهادة الحق¹ ، لقد كان رحمه الله يجذبهم بسحر بيانه و حسن عرضه للإسلام و عقيدته عرضاً شيقاً واضحاً يعتمد في أساسه على كتاب الله و سنة رسوله ، فكان - بحق - أحد أعيان الوعظ الذين أمسكوا بزمام هذا الفن و برزوا فيه و عرفوا به ، حتى بدأ فيه أقرانه من مختلف الوعظ .

أما العوام فقد كان لهم من دعوة ابن الجوزي نصيب ، لذلك فقد انشغلوا به في اليقظة و المنام و احتل موقعا في قلوبهم فصار موضع وساوسهم و أحلامهم و هواجسهم حيث راه الكثير منهم في المنام بعد موته على أحسن هيئة و حال² .

و قد كانت مجالسه الدعوية أعظم من أن توصف، حيث كان يحضرها أكثر من مائة ألف و لا ندري كيف كانوا يسمعون صوته و يفهمون ما يقول³ ، و قد حدا الأمر ببعض العلماء أن يجزم قائلًا : " فلا ريب إن كان هذا قد وقع فإن أكثرهم لا يسمعون

¹ - انظر تفصيل هذا الكلام في فصل أصناف المدعوين عند ابن الجوزي .

² - انظر ما ذكره أبو شامة المقدسي في المنيل على الروضتين : ص 25 ، و ابن رجب في المنيل على طبقات الختابة : 1 / 429 .

³ - صيد الخاطر: ابن الجوزي، مراجعة وتحقيق علي طنطاوي، دار الفكر دمشق ط 4 ، 1987م ، ص 11 .

و على الرغم من ذلك فقد وثق الناس بابن الجوزي و صار منهم ملء السمع و البصر ، فكانوا لا يسمعون بوجوده في مكان إلا و هرعوا إليه ليستفيدوا من علمه و ينهلوا من هديه يقول في وصف أحد مجالسه : " و كان يوم المجلس تغلق أبواب المكان بعد الظهر لشدة الزحام فإذا جبت بعد العصر فتح لي و زاحم معي من يمكنه أن يزاحم² . و ما كان هذا ليحدث إلا بسبب حب الناس لوعظه فقد كان " إذا وعظ اختلس القلوب و تشقت النفوس دون الجيوب " .³

و نستمتع إليه و هو يتحدث عن قدرته التأثيرية في المجال الوعظي والتي لا تضاهيها مقدرة واعظ قبله و لا بعده فيقول : " و لقد أقدر أن أرتجل المجلس كله من غير ذكر محفوظ و ربما قرئت عندي في المجلس خمسة عشر آية ، فاتى على كل آية بخطبة تناسبها في الحال " .⁴

بمثل هذه البديهة الحاضرة كان ابن الجوزي يتفنن في إلقاء مواعظه على المدعوين فلا يحضر مجلسه مستمع إلا و ذابت نفسه حزنا و سالت دموعه أسفا على ما فرط في جنب الله .

و مما ذكرته المصادر أن مجالس وعظه كان يحضرها الخلفاء و الوزراء و العلماء و مختلف طبقات المجتمع ، فكانوا يجتمعون لحضور وعظه في وقت مبكر ، و قد يختار بعضهم مكانا لا يبرحه منذ الصبيحة و إلى المساء حتى لا يفوته سماع مجلس الوعظ . هكذا كان تأثير ابن الجوزي في الناس ، و لا أحسب أن عالما من علماء الإسلام نافسه في هذا المجال إلى يوم الناس هذا⁵ . و إنني أزعم صادقا أنه لم يوجد واعظ أو متكلم أعطى ذلك القدر من السيطرة على النفوس و التلاعب بها مثلما أعطى ابن الجوزي⁶ ، فقد كان إذا وعظ " سعد بوعظه أنفاس الحاضرين سحبا ، و أسال من أدمعهم و ابلا سكبيا ثم جعل يردد في آخر مجلسه أبياتا من النسيب ... إلى أن غلبته الرقة فوثب من أعلى منبره

1 - تذكرة الحفاظ : الذهبي ، 1 / 1341 .

2 - النبل على طبقات الخنابلة : ابن رجب ، 1 / 408 .

3 - النبل على الروضتين : لأبي شاه ، ص 22 - الدبل على طبقات الخنابلة : 1 / 412 ، 413 .

4 - النبل على طبقات الخنابلة : 1 / 410 .

5 - كتاب الموضوعات دراسة في المنهج و المصادر : أحمد عطا ، ص 30 .

6 - وهذا رأي ابن كثير ، انظر البداية و النهاية : 13 / 28 ، و الباحث متفق معه فيما ذهب إليه .

والها مكتنبا¹ .

و لقد كان كلام ابن الجوزي في الدعوة والوعظ ليس مجرد كلام عابر يرسله الرجل دون إحساس و معاناة له او تأثر به . كما نجد ذلك اليوم عند بعض من يتصدى لمهام الدعوة ممن قست قلوبهم و جفت اعينهم من الذين يتلبسون بالدعوة و يرتدون رداء الدعاة ، بل كان كلامه ناتج عن رياضة و ممارسة ، فقد ذكر عنه أنه " كان يقوم الليل و يصوم النهار و يزور قبور الصالحين اذا جن الليل ... و لا يكاد يفتر عن ذكر الله " ² .

و ابن الجوزي ستميز في وعظه الذي لم يسبق إليه و هذا باعتراف العلماء الذين شهدوا له بذلك ، فابن كثير - رحمه الله - يصف وعظه بقوله : " لم يسبق إليه و لا يلحق شأوه فيه و في طريقته و مشكله ، و في فصاحته و بلاغته و عذوبته ، و حلاوة ترصيعه و نفوذ وعظه ، و عوضه عن المعاني و تقريب الأشياء الغريبة فيما يشاهد من الأمور الحسية بعبارة و جيزة سريعة الفهم و الإدراك بحيث يجمع المعاني الكثيرة في الكلمة اليسيرة " ³ .

ولما كان ابن الجوزي بهذه الصفات و المؤهلات⁴ ، كان لمجالسه الدعوية صداها للوسع و أثرها العميق في نفوس المدعوين ، شاهدنا في ذلك ابن رجب الحنبلي حيث قال : ' وحاصل الأمر : أن مجالسه الوعظية لم يكن لها نظير ، و لم يسمع بمثلا ، و كانت عظيمة النفع ، يتذكر بها العاقلون ، و يتعلم منها الجاهلون ، و يتوب فيها المذنبون ، و يسلم فيها المشركون ، و قد ذكر في تاريخه أنه تكلم مرة فتاب في المجلس على يده نحو مائتي رجل ، و قطعت شعور مائة و عشرين منهم " ⁵ .

و قد أكد هذا الكلام ابن الجوزي نفسه في العديد من مؤلفاته فقال : " و وضع لي من للقبول في قلوب الخلق فوق الحد ، و أوقع كلامي في نفوسهم فلا يرتابون بصحته ، و قد أسلم على يدي نحو من مائتين من أهل الذمة ، و لقد تاب في مجالسي أكثر من مائة ألف و قد قطعت أكثر من عشرين ألف سالف مما يتعانه للجهال " ⁶ .

¹ - رحلة ابن حبير : لابن حبير ، ص 161 .

² - الدليل على طبقات الحنابلة : ابن رجب ، 1 / 414 .

³ - البداية و النهاية : ابن كثير ، 13 / 28 .

⁴ - للمزيد انظر مبحث مؤهلات الداعية و حظ ابن الجوزي منها من فصل الدعوة و الناعية عند ابن الجوزي .

⁵ - الدليل على طبقات الحنابلة : ابن رجب ، 1 / 410 .

⁶ - لفة الكبد : ص 21

و مما ذكره في كتابه "صيد الخاطر" حول هذا الشأن قوله : " إنه لا يخلو لي مجلس من خلق لا يحصون ، يبكون و ينسبون على ذنوبهم ، و يقوم في الغالب جماعة يتوبون و يقطعون شعور الصبا . و ربما اتفق خمسون و مائة ، و لقد تاب عندي في بعض الأيام أكثر من مائة . و عسومهم صبيان قد نشأوا على اللعب و الانهماك في المعاصي " ¹ .

و نجده يزيد الموضوع تفصيلاً في موضع آخر من الكتاب فيقول : " و لقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف ، و أسلم على يدي أكثر من مائتي نفس . و كم سألت عين متجبر بوعظي لم تكن تسيل " ² .

و يحدثنا ابن الجوزي عن حصيلة جهوده الدعوية في فترة من فترات حياته و ما كان لها من أثر طيب على المدعوين بمختلف أصنافهم فقال : " و إنني ما زلت أعظ الناس و أحرصهم على التوبة فقد تاب على يدي إلى أن جمعت هذا الكتاب أكثر من مائة ألف رجل و قد قطعت من شعور الصبيان اللاهين أكثر من عشرة الاف طائفة ، و أسلم على يدي أكثر من مائة ألف " ³ .

و على الرغم من ذلك فابن الجوزي لم يكن من الدعاة الذين يحفلون بشدة الزحام عليهم و كثرة الحضور دون الالتفات إلى أهدافهم الدعوية المرسومة ، لأنه يعلم أن هؤلاء جميعاً لن يغفوا عنه من الله شيئاً يوم القيامة إذا لم يتقن عمله و لم يخلص فيه ، و قد عبر عن موقفه هذا بقوله : " و لقد جلست يوماً فرأيت حولي أكثر من عشرة الاف ما فيهم إلا من قد رقق قلبه ، أو دمت عينه ، فقلت لنفسي : كيف بك إن نجوا و هلكت ، فصحت بلسان وجدني : إلهي و سيدي إن قضيت علي بالعذاب غداً ، فلا تعلمهم بعذابي صيانة لكرمك لا لأجلي لتلا يقولوا عذب من دل عليه " ⁴ .

و نجده - رحمه الله - يشفق على نفسه في بعض الأحيان مخالفة أن يكون عدم الإخلاص قد حجب عنه أجر موعظته للناس فيرجو أن يكون من حضر مجلسه شافعاً له يوم القيامة فيقول : " إلهي إن دللت السالكين عليك فوصلوا بحسن موعظتي إليك أترأك المدلول و نزوله ليل ، إلهي إن لم يكن كلامي في مجلس من حضر خالصاً لوجهك فشفعه

¹ - صيد الخاطر : ص 41 .

² - العصر الثاني : ص 236 .

³ - القصص و المذكرين : ص 372

⁴ - صيد الخاطر : ص 236

في تقصيري بنور وجهك يا أرحم الراحمين¹.

و لكي نعطي صورة واضحة على مجالس ابن الجوزي الدعوية و مدى ضخامتها و عظيم تأثيرها على المدعوين نور ما قاله شاهد عيان حضر بعض هذه المجالس فوصفها نق و وصف و صورها احسن تصوير ذلكم هو الرحالة الأندلسي أبو الحسين محمد بن جبير الأندلسي الذي قدم بغداد سنة 880 هـ و حضر مجالس ابن الجوزي قبل وفاته بسبعة عشر عاما فقال : ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحى جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقي و في اخره على اتصال من قصور الخليفة ، و بمقربة من باب البصلية اخر أبواب الجانب الشرقي - و هو يجلس به كل يوم سبت - فشهدنا مجلس رجل ليس من عمرو و لا زيد و في جوف الفراكل الصيد ، اية الزمان و قرّة عين الإيمان ، رئيس الحنبلية و المخصوص في العلوم بالرتب العلية إمام الجماعة و فارس حلبة هذه الصناعة و المشهود له بالسبق الكريم في البلاغة و البراعة ، مالك ازمة الكلام في النظم و النثر ، و الغانص في بحر فكره على نفاس الدر . فأما نظمه فرضي الطباع مهياري الانطباع . و أما نثره فيصدع بسحر البيان و يعطل المثل بقس و سحبان .

و من أبهر آياته و أكبر معجزاته أنه يصعد المنبر ، و يبتدىء القراءة بالقراءة - و عددهم نيّف على العشرين قارنا - فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة اية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب و تشويق ، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم اية ثانية ، و لا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءة ، و قد أوتوا بآيات مشتبهات لا يكاد المتقد خاطر يحصلها عندها ، أو يسميها نسقا . فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد خطبته عجلا مبتدرا ، و أفرغ في أصداف الأسماع من ألفاظه دررا و انتظم أوائل السور المقروءات في أثناء خطبته فقرا ، و أتى بها على نسق القراءة لها ، لا مقدما و لا مؤخرا ، ثم أكمل الخطبة على قافية آخر اية منها فلو أن أبدع من في مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء اية اية على الترتيب لعجز عن ذلك فكيف بمن ينتظمها مرتجلا و يورد للخطبة الغراء بها عجلا (أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون ، إن هذا لهو الفضل المبين)² ، فحدثت و لا حرج عن البحر ، و هيهات و ليس للخبر عنه كالخبر .

¹ - روح الأرواح : ص 78 .

ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقانق من الوعظ ، و آيات من بينات من الذكر ، طارت لها القلوب اشتياقا ، و ذابت بها الأنفوس احتراقا ، إلى أن علا الضجيج ، و تردد بشهقاته الشيخ ، و أعلن التائبون بالصياح ، و تساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها ، و يمسح على رأسه داعيا له ، و منهم من يفضى عليه فيرفع في الأذرع إليه ، فشاهدنا هؤلاء يملا النفوس إنابة و ندامة ، و يذكرها هول يوم القيامة " 1 .

و يبين ابن جبير — رحمه الله — أنه ركب الأخطار و واصل الأسفار إلى بلاد نانية في رحلته هذه التي ذاق فيها سموم الصيف وزمهرير الشتاء وركب فيها الصعاب يقول أنه وإن ذاق ذلك أو أكثر منه ، إلا أن مجلسا واحدا من مجالس ابن الجوزي وسعنا لذلك كله و أنه بقاء هذا الشيخ قد أساء الأمامه و هوّن عليه أتراحه و جعله يستعذب الألام ، و يستسهل للصعاب فلنستمع إليه يقول : " فلو لم نركب ثبح البحر ، و نعتسف مفازات القفر ، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل ، لكانت الصفقة الرابعة ، و الوجهة المفلة الناجحة و الحمد لله على أن من بقاء من تشهد الجمادات بفضله و يضيق الوجود عن مثله .

و في أثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل ، و تطير إليه الرقاع ، فيجاوب أسرع من طرفة عين ، و ربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل ، و الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، لا إله سواه . ثم شاهدنا مجلسا ثانيا له بكرة يوم الخميس الحادي عشر لصفرة ، بباب بدر في ساحة قصور الخليفة و مناظره مشرفة عليه ، وهذا الموضع المذكور هو من حرم الخليفة و خص بالوصول إليه و التكلم فيه ، ليسمع من تلك المناظر الخليفة و والدته و من حضر من الحرم ثم يفتح الباب للعامة فيدخلون إلى ذلك الموضع ، و قد بسط بالحصر ، و جلوسه بهذا الموضع كل يوم خميس ، فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس المذكور و قعدنا إلى أن وصل هذا الحبر المتكلم فصعد المنبر ، و أزاح طيلسانه عن رأسه تواضعا لحرمة المكان ، و قد تسطر القراء أمامه على كراسي موضوعة ، فابتدروا القراءة على الترتيب ، و شوقوا ماشاؤوا ، و أطربوا ما أرادوا ، و بدرت العيون بإرسال الدموع .

فلما فرغوا من القراءة — وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات — صدع بخطبته الزهراء للغراء ، و أتى بأوائل الآيات في أثنائها منتظمات ، و مشى الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب ، إلى أن أكملها وكانت الآية : (الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه

والنهار مبصرا ، إن الله لذو فضل على الناس)¹ فتماذى على هذا السنين وحسن أي تحسين ، فكان يومه في ذلك أعجب من أمسه . ثم أخذ في الثناء على الخليفة ، و الدعاء له ولوالدته و كنى عنها بالستر الشرف والجناب الأرف ، ثم سلك سبيله في الوعظ ، كل ذلك بديهة لاروية ، و يصل كلامه في ذلك بالآيات المقروءات على النسق مرة أخرى ، فأرسلت وابلها العيون ، و أبدت النفوس سر شوقها المكنون ، و تطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين و بالتوبة معلنين ، وطاشت الأبواب و العقول و كثر الوله و الذهول و صارت للنفوس لا تملك تحصيلا ، و لا تميز معقولا ، و لا تجد للصبر سبيلا .

ثم في أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب ، مبرحة التشويق ، بديعة الترفيق ، تشعل للقلوب وجدا ، و يعود موضوعها النسيبي زهدا ، و كان آخر ما أنشده من ذلك — و قد أخذ للمجلس مأخذه من الاحترام ، و أصابت المقاتل سهام — ذلك الكلام :

أين فؤادي ؟ أذابه الوجد و أين قلبي ؟ فما صحا بعد
يا سعد زدني جوى بذكرهم بالله قل لي فديت يا سعد

و لم يزل يرددتها و الأنفعال قد أثر فيه ، و المدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه ، إلى أن خاف الإفحام ، فابتدر القيام ، و نزل عن المنبر دهشا عجلا ، و قد أطار القلوب و جلا و ترك الناس على أحر من الجمر ، يشيعونه بالمدامع الحمر ، فمن معلن بالانتحاب ، و من متعفر بالتراب . فياله من مشهد ما أهول مراه ، و ما أسعد من راه ! نفعنا الله ببركته و جعلنا ممن فاز به بنصيب من رحمته ، بمنه وفضله .

و في أول مجلسه أنشد قصيدا نيرا القبس ، عراقى النفس ، في الخليفة أوله :

في شغل من الغرام شاغل من هاجه البرق بسفح عاقل

يقول فيه عند ذكر الخليفة :

يا كلمات الله كوني عوذة من العيون للإمام الكامل

ففرغ من إنشاده و قد هز المجلس طربا ، ثم أخذ في شأنه و تماذى في إيراد سحر بيانه . و ما كنا نحسب أن متكلمنا في الدنيا يعطى من ملكة للنفوس و التلاعب بها ما أعطي هذا الرجل . فمبجان من يخص بالكمال من يشاء من عبادة ، لا إله غيره ... إلى أن يقول :
' و كنا قد شاهدنا بمكة و المدينة — شرفهما الله — مجالس من قد ذكرناه في هذا التقييد لصغرت — بالإضافة لمجلس هذا الرجل اللذ — في نفوسنا قدرا ، و لم نستطع لها ذكرا ...

و حضرنا له مجلسا ثالثا يوم السبت الثالث عشر لصفري بالموضع المذكور بإزاء داره على لسط الشرقي ، فأخذت معجزاته البيانية مأخذها ، فشاهدنا من أمره عجا : صعد بوعظه نفاس الحاضرين سحبا ، و أسال من أدمعهم وابتلا سكبا ، ثم جعل يردد في آخر مجلسه آياتا من النسيب شوقا زهديا وطربا إلى أن غلبته الرقة ، فوثب من أعلى منبره والها مكننبا و غادر الكل متندما على نفسه منتحبا ، لهفان ينادي : يا حسرتا واحربا !

و النادبون ينورون بنحيبهم نور الرحي ، و كل منهم بعد من سكرته ما صحا ، فسبحان من خلقه عبرة لأولي الألباب ، و جعله لتوبة عباده أقوى الأسباب ، لا إله سواه " ١ .

١ - تأثير ابن الجوزي على العلماء في ميدان الدعوة و الوعظ :

- تمهيد :

أعظم ما يدل على تأثير ابن الجوزي في الحياة الثقافية و العلمية للمسلمين هو ذلك الأثر الحميد و الصدى الواسع الذي تركته مؤلفاته بين علماء الإسلام و دعائه على مر العصور .

و لقد تتبعنا العصور التي تلت عصر ابن الجوزي فوجدنا انتقاعا لا ينكر بمؤلفاته لكتبه الوعظية و الدعوية لا تزال تخدم أهم القضايا ذات الطابع الدعوي الإصلاحية في المجتمع الإسلامي ، كما أن كتبه في مختلف العلوم الشرعية لا تزال للمعين الذي لا يلضب للكثير من العلماء إلى يوم الناس هذا .

و قد أخذ تأثر العلماء بمؤلفات ابن الجوزي صوراً مختلفة ، فمنهم من كان تأثره بها إلى حد الإعجاب فراح يلخص مضامينها ، و منهم من تعقبها بالنقد و التمحيص و الرد و آخرون قادمهم تأثرهم بها إلى اقتباس الكثير منها و تضمينها صلب مؤلفاتهم ، أما العلماء و الباحثون المعاصرون فقد كان من نصيبهم دراسة شخصية ابن الجوزي المتعددة الجوانب و تحقيق العديد من كتبه التي لا يزال الكثير منها مخطوطا ينتهده الإهمال و الضياع ، إذ لم يطبع إلى الآن - حسب تقديري - حتى ربع ما ألفه هذا العالم صاحب الإنتاج الغزير .

و كون ابن الجوزي - رحمه الله - من العلماء الموسوعيين الذين ألفوا في علوم كثيرة فقد كان تأثير مصنفاة على العلماء في فنون عديدة ، و بوجه خاص في مجال الدعوة و الوعظ و الأخلاق و التاريخ و الفقه و التفسير و الحديث و سنشير إلى هذا التأثير و مدى أهميته بشيء من التفقة و الاختصار حتى لا نخرج عن الإطار الدعوي الإصلاحية لبحثنا لو نحيد

به عن الهدف المرسوم له . و ساقطصر أثناء كلامي على من تأثر بابن الجوزي على نماذج من العلماء القدامى ، و بعض النماذج من المحدثين في هذا العصر ، و هذا لا يعني - طبعا - عدم وجود غيرهم كأمثلة للدلالة على تأثير ابن الجوزي في العلماء في مجال التنكير و الدعوة .

- تأثيره في مجال الدعوة و الأخلاق و الوعظ :

لما كان أهم ما اشتهر به ابن الجوزي هو الدعوة و الوعظ، فقد لاقت مؤلفاته في هذا الميدان الكثير من القبول و الاستحسان ، - و إن كانت لا تخلو من عيوب في بعض الأحيان - حيث انبرى العلماء يقتبسون منها و يستشهدون بآرائه و أقواله، و هذا أكبر دليل يبرز لنا مكانة ابن الجوزي العلمية و الدعوية التي احتلها في عصره و بعد عصره و إلى اليوم ، و قد برز لنا هذا التأثير جليا في مؤلفات كثير من العلماء .

و أول المتأثرين بابن الجوزي في ميدان التأليف للصوفي محي الدين بن عربي¹ حيث تأثر بابن الجوزي في مزجه بين علوم الدين و الأدب ، و كذلك استعماله الأسلوب الإشاري الذي بالغ فيه أكثر من ابن الجوزي ، و قد صرح بتأثره بابن الجوزي و ذكر في مقدمة كتابه " محاضرة الأبرار " انه استمده من كتاب صفة الصفة لابن الجوزي ، و من كتاب مثير الغرام² .

و ممن تأثر بابن الجوزي في مجال الدعوة و التربية الإمام ابن قيم الجوزية³ و الذي يجري مقارنة بسيطة بين كتاب " روضة المحبين و نزهة المشتاقين " لابن القيم و كتاب " ذم الهوى " لابن الجوزي يلاحظ هذا التأثير باديا للعيان ، و قد صرح ابن القيم بالنقل من الكتاب في العديد من صفحات مصنفه ، لكننا وجدناه يضرب صفحا عن الإشارة إلى نقله من كتاب ابن الجوزي ، فقد نقل منه العديد من الصفحات دون إشارة لمصدرها فالباب التاسع و العشرون في ذم الهوى و ما في مخالفته من نيل المعنى الذي تضمنه كتاب " روضة المحبين " لابن القيم ، مأخوذ بأكمله من كتاب " ذم الهوى " لابن

¹ - ابن عربي : هو محي الدين بن عربي . العالم العربي صاحب التأليف الكثيرة من أردنا مصنفاته الفصوص ، قال عنه الشيخ

عز الدين ابن عبد السلام : شيخ سوء . كتاب يقول بنديم العالم و لا يجرم فرجا ، سير اعلام النبلاء 23 / 48 ، 49 .

² - انظر ابن الجوزي الواعظ و منهجه في الدعوة إلى الله و الموازنة بينه و بين منهج الإمام الغزالي : جمعة على محمد الخولي ، ص 306 ، و الكلام مأخوذ عن كتاب محاضرة الأبرار و مسامرة الأخبار في الأدبيات و النوادر و الأخبار لابن عربي ، ص 6 ، 8 ، 10 .

³ - ابن القيم : هو محمد بن أبي بكر ، إمام الجوزية وابن قيمها ، تعلم على يد ابن تيمية ، كان حسن الخلق كثير

التودد ، قال ابن كثير كنت من أصحاب الناس له ، و أحب الناس إليه ، ت سنة 751 ، البدايات و النهاية : 432/14 ، 235 .

الجوزي من بابيه الثاني في مد الهوى و الشهوات ، و لم يكن عمل ابن القيم في هذا الباب الذي نقله سوى انه حذف الاسانيد التي أوردها ابن الجوزي في كتابه ، ثم رتب الكلام و جعله في أرقام متسلسلة و لتوضيح ما قلناه نورد هذه الأمثلة كشاهد على ذلك : قال ابن الجوزي : " أعلم ان الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه ، و هذا الميل قد خلق في الإنسان لضرورة بقائه ، فإنه لو لا ميله إلى الطعام ما أكل ، وإلى المشرب ما شرب ، و إلى المنكح ما نكح ، و كذلك كل ما يشتهي ، فالهوى مستجلب له ما يفيد ، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذي ، فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق و إنما يذم المفرط من ذلك وهو ما يزيد على جلب المصالح و دفع المضار . و لما كان الغالب من موافق الهوى أنه لا يقف منه على حد المنتفع أطلق ذم الهوى و الشهوات لعموم غلبة الضرر " ¹ .

و قال ابن القيم في الموضوع نفسه : " الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه ، و هذا الميل خلق في الإنسان لضرورة بقائه ، فإنه لو لا ميله إلى الطعام و المشرب و المنكح ما أكل و لا شرب و لا نكح . فالهوى مستحث لما يريد ، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذيه ، فلا ينبغي ذم الهوى مطلقا ، و لا مسحه مطلقا ، كما أن الغضب لا يذم مطلقا ، و لا يحمد مطلقا و إنما يذم المفرط من النوعين ، و هو ما زاد على جلب المنافع ، و دفع المضار ، و لما كان الغالب من مطيع هواه و غضبه أنه لا يقف فيه على حد المنتفع به أطلق ذم الهوى و الشهوة و الغضب لعموم غلبة الضرر . لأنه ينذر من يقصد العدل في ذلك و يقف عنده كما أنه ينذر في الأزجة المزاج المعتدل من كل وجه ، بل لا بد من غلبة أحد الأخلاط " ² . و الملاحظ يدرك جيدا أن الكلام لابن الجوزي و أن ابن القيم - رحمه الله - لم يصف إليه شيئا قبيلا و لا كثيرا عدا التصرف في بعض الألفاظ .

و الذي يثبت لنا أيضا أن هذا الكلام لابن الجوزي هو كتابته لما يشبه هذا المعنى في كتابه " الطب الروحاني " حيث قال في ذم الهوى : " الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه ، فلا يذم هذا المقدار إذا كان المطلوب مباحا و إنما يذم الإفراط فيه ، فمن أطلق ذم الهوى فلأن الغالب فيه ما لا يحل أو يتناول المباح بإفراطه " ³ .

و هذا مثال آخر يجعل الصورة تتضح لدى القارئ و الباحث ، قال ابن الجوزي في ثمرة للعقل و فائدته : " إنما تبتين فضيلة الشيء بثمرته و فائدته ، و قد عرفت ثمرة العقل

¹ - ذم الهوى : ص 18 .

² - روضة المهير و ثمرة المشائخ : لابن القيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، دت ، ص 469 .

³ - الطب الروحاني : ص 10

وفائدته فإنه هو الذي دل على الإله وأمر بطاعته و امتثال أمره ، و أثبت معجزات الرسل و أمر بطاعتهم ، و تلمح العواقب فاعتبرها فراقبها و عمل بمقتضى مصالحها، وقاوم الهوى فرد غربه ، و أدرك الأمور الغامضة ، و دبر على استخدام المخلوقات فاستخدمها، و حدث على الفضائل و نهى عن الرذائل ¹ .

و على نفس النسب كتب ابن القيم في الموضوع قائلًا : " و هذه ثمرة العقل الذي به عرف الله - سبحانه و تعالى - و أسماؤه و صفات كماله و نعوت جلاله ، و به أمن المؤمنون بكتبه و رسله و لقائه و ملائكته ، و به عرفت آيات ربوبيته و أدلة وحدانيته و معجزات رسله ، و به استنلت أوامره و اجتنبت نواهيه ، و هو الذي تلمح العواقب فراقبها و عمل بمقتضى مصالحها ، و قاوم الهوى فرد جيشه مفلولا ... و حدث على الفضائل و نهى عن الرذائل ، و وفق المعاني ، و أدرك الغوامض ، و شد أزر الحزم فاستوى على سوقه ، و قوى أزر الحزم حتى حظي من الله بتوفيقه ، فاستجلب ما يزين ، و نفى ما يشين فإذا نزل و سلطانه أسر جنود الهوى فحصرها ، و نهض بصاحبه إلى منازل الملوك ... فيصبح أسيرا بعد أن كان أميرا ، و محكوما بعد أن كان حاكما ، و تابعا بعد أن كان متبوعا ... و إذا كانت الدولة للعقل سالمة للهوى و كان من خدمه و أتباعه ، كما أن الدولة إذا كانت للهوى ، صار العقل أسيرا في يديه ، محكوما عليه ، و لما كان العبد لا ينفك عن الهوى ما دام حيا فإن - هواد نازم له - كان له الأمر بخروجه عن الهوى بالكلية كالممتنع " ² .

و في كتابه المنكسور انفا سار ابن القيم - رحمه الله - على خطى ابن الجوزي و منهجه ، فتطرق إلى جملة موضوعات كتاب ابن الجوزي مع اقتباسه للكثير مما جاء فيه من معاني و ألفاظ ، بل حتى الأدلة التي أوردها ابن الجوزي في كتابه أثناء تعريفه للعشق وجدناها نفسها التي أتى بها ابن القيم ³ ، كل ذلك يبين لنا مدى تأثير ابن القيم بابن الجوزي - رحمهما الله - .

و من تأثر بابن الجوزي وأخذ عنه للعديد من الأقوال والآراء الإمام ابن مفلح الحنبلي ⁴

¹ - ذم الهوى : ص 17 .

² - روضة المحبين و روضة المشاهير : ابن القيم ، ص 7 ، 8 .

³ - انظر ذم الهوى لابن الجوزي ص : 228 ، و روضة المحبين لابن القيم ص : 137 ، 138 .

⁴ - ابن مفلح : هو مصنف الآداب الشرعية و المنهج الشرعية ، الإمام القاضي شمس الدين محمد بن علي بن مفلح القدسي الحنبلي التوفي سنة 763هـ من تلاميذ ابن تيمية و كان يقول له : ما أنت ابن مفلح بل أنت مفلح انظر ترجمته في البداية و النهاية، 14/ 294 .

وفائدته فإنه هو الذي دل على الإله وأمر بطاعته و امتثال أمره ، و أثبت معجزات الرسل و أمر بطاعتهم ، و تلمح العواقب فاعتبرها فراقبها و عمل بمقتضى مصالحها، و قاوم الهوى فرد غربه ، و أدرك الأمور الغامضة ، و دبر على استخدام المخلوقات فاستخدمها، و حدث على الفضائل و نهى عن الرذائل ¹ .

و على نفس النسق كتب ابن القيم في الموضوع قائلا : " و هذه ثمرة العقل الذي به عرف الله - سبحانه و تعالى - و أسماؤه و صفات كماله و نعوت جلاله ، و به أمن المؤمنون بكتبه و رسله و لقائه و ملائكته ، و به عرفت آيات ربوبيته و أدلته وحدانيته و معجزات رسله ، و به امتثلت أوامره و اجتنبت نواهيه ، و هو الذي تلمح العواقب فراقبها و عمل بمقتضى مصالحها ، و قاوم الهوى فرد جيشه مفلولا ... و حدث على الفضائل و نهى على الرذائل ، و فتق المعاني ، و أدرك الغوامض ، و شد أزر الحزم فاستوى على سوقه ، و قوى أزر الحزم حتى حظي من الله بتوفيقه ، فاستجلب ما يزين ، و نفى ما يشين فإذا نزل و سلطانه أسر جنود الهوى فحصرها ، و نهض بصاحبه إلى منازل الملوك ... فيصبح أسيرا بعد أن كان أميرا ، و محكوما بعد أن كان حاكما ، و تابعا بعد أن كان متبوعا ... و إذا كانت الدولة للعقل سالمه الهوى و كان من خدمه و أتباعه ، كما أن الدولة إذا كانت للهوى ، صار العقل أسيرا في يديه ، محكوما عليه ، و لما كان العبد لا ينفك عن الهوى ما دام حيا فإن - هواد لازم له - كان له الأمر بخروجه عن الهوى بالكلية كالممتنع " ² .

و في كتابه المذكور انفا سار ابن القيم - رحمه الله - على خطى ابن الجوزي و منهجه ، فتطرق إلى جملة موضوعات كتاب ابن الجوزي مع اقتباسه للكثير مما جاء فيه من معاني و ألفاظ ، بل حتى الأدلة التي أوردها ابن الجوزي في كتابه أثناء تعريفه للعشق وجدناها نفسها التي أتى بها ابن القيم ³ ، كل ذلك يبين لنا مدى تأثير ابن القيم بابن الجوزي - رحمهما الله - .

وممن تأثر بابن الجوزي وأخذ عنه العديد من الأقوال والآراء الإمام ابن مفلح الحنبلي ⁴

1 - ذم الهوى : ص 17 .

2 - روضة المحبين و نزوة المشاهير : ابن القيم ، ص 7 ، 8 .

3 - انظر ذم الهوى لابن الجوزي ص : 228 ، و روضة المحبين لابن القيم ص : 137 ، 138 .

4 - ابن مفلح : هو مصنف الآداب الشرعية و المنح المرعية ، الإمام القاضي شمس الدين محمد بن علي بن مفلح المقدسي الحنبلي المتوفى سنة 763 هـ ، من تلاميذ أبي نعيم وكان يقول له : ما أنت ابن مفلح بل أنت مفلح انظر ترجمته في البداية والنهاية، 14/ 294.

مقدمة كتابه بنقله عن جملة من كتب ابن الجوزي أهمها : التبصرة ، و المنهل المورود
 و منتخب المنتخب ، و سوامح العمر ، و صيد الخاطر ، و الموضوعات ، و آداب النساء
 و لكن المتصفح لكتاب السفاريني يجده يذكر في ثنايا كتابه أقوالا نقلها من كتب أخرى
 لابن الجوزي لم يشر إلى أسماؤها في مقدمته . و من هذه الكتب : " مثير الغرام الساكن إلى
 أشرف المساكن " و " الوفاء بأحوال المصطفى " و " جامع المسانيد " و " ذم الهوى " و " كتاب
 الأثكياء و تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ و السير " و " تلبس إبليس " و " مناقب
 الإمام أحمد " و " منهاج القاصدين " و " أخبار الحمقى و المغفلين " و " عيون الحكايات "
 و " زاد المسير في علم التفسير " .

و من أهم النقول التي جاءت في كتاب السفاريني ما قاله عند شرحه لقول المرادي
 في منظومة الآداب :

و طرف الفتى يا صاح رائد مزجه و متعبه فاغضضه ما استطعت تهتد

المقام الثاني : في بعض عقوبات من اطلق نظره في الدنيا ممن أراد الله به خيرا ليزجره
 عن المعصية بإرسال ذلك ، روى الإمام الحافظ ابن الجوزي في تبصرته بسنده إلى أبي
 يعقوب النهرجوري قال : رأيت في الطواف رجلا بفرد عين و هو يقول في طوافه : أعوذ
 بك منك ، فقلت له : ما هذا الدعاء ؟ فقال : إني مجاور منذ خمسين سنة ، فنظرت إلى
 شخص يوما فاستحسنته فإذا بلطمة وقعت على عيني فسالت على خدي ، فقلت : أه فوقعت
 أخرى ، و قائل يقول : لو زدت لزدناك . و روى بسنده عن عبد الرحمن بن أحمد بن عيسى ...
 قال : كنت مع أستاذي أبي بكر النفاق فمر حدث فنظرت إليه ، فراني أستاذي أنظر إليه
 فقال : يا بني لتجسدن غيها و لو بعد حين ، فبقيت عشرين سنة و أنا أراعي ذلك الغب
 فممت ليلة و أنا متفكر فيه ، فأصبحت و قد نسيت القرآن كله " ١ .

و مما نقله عن ابن الجوزي في ذم الدنيا قوله : " مطالب في ذكر الأخبار و الآثار
 التي وردت في ذم الدنيا ... قال الحافظ ابن الجوزي : و اعلم أن خلقا كثيرا سمعوا ذم الدنيا
 و لم يفهموا المذموم ، و ظنوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التي خلقت للمنافع من
 المطاعم و المشارب فأعرضوا عما يصلحهم منها فتجففوا فهلكوا ، و لقد وضع الله — جل
 و علا — في الطباع توقان النفس إلى ما يصلحها ، فكلما تأقت منعوها ظنا منهم أن هذا هو
 المراد ، و جهلا بحقوق النفس ، و على هذا أكثر المتزهدين .. ثم قال : و اعلم أن الأرض

١ - انظر غلاة الألباب : السفاريني ، ١ / 70 - التبصرة : ١ / 161 - تلبس إبليس : ص 353 ، 354 .

خلقت مسكنا و ما عليها ملابس و مطعم و مشرب و منكح ، و قد جعلت المعادن فيها كالخزائن فيها ما يحتاج اليه ، و الأدمى محتاج الى ذلك لصالح منته الذي هو كالناقاة للمسافر فمن تناول ما يصلحه لم يذم ... و لا وجه في التقصير في تناول الحاجة من الدنيا لأن الناقاة لا تقوى على السير إلا بتناول ما يصلحها ، و هذا الكلام في غاية التحقيق لم يخرج إلا من جوف صديق¹ .

و زيادة على ما ذكرنا فقد لاقت مولفات ابن الجوزي الدعوية عناية كبيرة من العلماء و خاصة كتابه الفريد "صيد الخاطر" الذي اعنى بتحقيقه العديد من العلماء فصار أشهر كتاب ألف في بابه ، و على الرغم أن الحظوظ عثرت به - على حد تعبير الشيخ الفزالي - إلا أننا نوقن بحليل فائدته لكل من تغرر بالدعوة الى الله ، و لكل راغب في التعرف على الحق و الاستمتاع بالهدى العالى ، و لكبر معنى الإصلاح العام ، و رفع مستوى الجماهير² . و قد قلناه الكاتب و الناقد احمد امين فسمى ديوان مقالاته "فيض الخاطر" و لكن شتان ما بيدهما³ .

أما كتابه "تليس إبليس" فقد لاقى عناية كبيرة من العلماء هو الآخر ، فهناك من أعجب به و بمؤلفه و هناك من رد عليه بعنف و شدة و لم يسلم لمصنعه بما أورده فيه و نتيجة لشهرة الكتاب و مؤلفه فقد حققه باحثون كثيرون و اختصره آخرون ، و من أهم هذه المختصرات كتاب "اصحاح من قاموس إبليس" للباحث محمد ماهر عبد الحميد و نشرته دار الدعوة بالإسكندرية سنة 1990 م ، و كتاب "المنقى النفيس من تليس إبليس" للباحث على حسن عبد الحميد ، و نظرا لشهرة الكتاب و سمعته نظيية فقد نشرته دار ابن الجوزي بالسعودية في طبعته الرابعة سنة 1998 م ، لكن الكتاب لم يسلم من الرد و الانتقاد و من بين من انتقده بشدة و رد عليه ابن شاذل المقدسى الشافعى المتوفى سنة 678 هـ في كتابه المسمى "تليس إبليس" ، و صاحب كتاب "الفروحات الغيبية في الأسرار و حل الرموز و مفاتيح الكنوز" و قد رد على ابن الجوزي حول ما ذكره عن الصوفية

¹ - غناء الألباب : شفايى ، 2 / 429 ، 430 ، نفس الكلام يقر - في بعض النسخ - من 211 ، 212 ، و قد نقل في كتابه عن ابن الجوزي في الصفح 236 ، 237 ، 238 ، 239 ، 240 ، 241 ، 242 ، 243 ، 244 ، 245 ، 246 ، 247 ، 248 ، 249 ، 250 ، 251 ، 252 ، 253 ، 254 ، 255 ، 256 ، 257 ، 258 ، 259 ، 260 ، 261 ، 262 ، 263 ، 264 ، 265 ، 266 ، 267 ، 268 ، 269 ، 270 ، 271 ، 272 ، 273 ، 274 ، 275 ، 276 ، 277 ، 278 ، 279 ، 280 ، 281 ، 282 ، 283 ، 284 ، 285 ، 286 ، 287 ، 288 ، 289 ، 290 ، 291 ، 292 ، 293 ، 294 ، 295 ، 296 ، 297 ، 298 ، 299 ، 300 ، 301 ، 302 ، 303 ، 304 ، 305 ، 306 ، 307 ، 308 ، 309 ، 310 ، 311 ، 312 ، 313 ، 314 ، 315 ، 316 ، 317 ، 318 ، 319 ، 320 ، 321 ، 322 ، 323 ، 324 ، 325 ، 326 ، 327 ، 328 ، 329 ، 330 ، 331 ، 332 ، 333 ، 334 ، 335 ، 336 ، 337 ، 338 ، 339 ، 340 ، 341 ، 342 ، 343 ، 344 ، 345 ، 346 ، 347 ، 348 ، 349 ، 350 ، 351 ، 352 ، 353 ، 354 ، 355 ، 356 ، 357 ، 358 ، 359 ، 360 ، 361 ، 362 ، 363 ، 364 ، 365 ، 366 ، 367 ، 368 ، 369 ، 370 ، 371 ، 372 ، 373 ، 374 ، 375 ، 376 ، 377 ، 378 ، 379 ، 380 ، 381 ، 382 ، 383 ، 384 ، 385 ، 386 ، 387 ، 388 ، 389 ، 390 ، 391 ، 392 ، 393 ، 394 ، 395 ، 396 ، 397 ، 398 ، 399 ، 400 ، 401 ، 402 ، 403 ، 404 ، 405 ، 406 ، 407 ، 408 ، 409 ، 410 ، 411 ، 412 ، 413 ، 414 ، 415 ، 416 ، 417 ، 418 ، 419 ، 420 ، 421 ، 422 ، 423 ، 424 ، 425 ، 426 ، 427 ، 428 ، 429 ، 430 ، 431 ، 432 ، 433 ، 434 ، 435 ، 436 ، 437 ، 438 ، 439 ، 440 ، 441 ، 442 ، 443 ، 444 ، 445 ، 446 ، 447 ، 448 ، 449 ، 450 ، 451 ، 452 ، 453 ، 454 ، 455 ، 456 ، 457 ، 458 ، 459 ، 460 ، 461 ، 462 ، 463 ، 464 ، 465 ، 466 ، 467 ، 468 ، 469 ، 470 ، 471 ، 472 ، 473 ، 474 ، 475 ، 476 ، 477 ، 478 ، 479 ، 480 ، 481 ، 482 ، 483 ، 484 ، 485 ، 486 ، 487 ، 488 ، 489 ، 490 ، 491 ، 492 ، 493 ، 494 ، 495 ، 496 ، 497 ، 498 ، 499 ، 500 ، 501 ، 502 ، 503 ، 504 ، 505 ، 506 ، 507 ، 508 ، 509 ، 510 ، 511 ، 512 ، 513 ، 514 ، 515 ، 516 ، 517 ، 518 ، 519 ، 520 ، 521 ، 522 ، 523 ، 524 ، 525 ، 526 ، 527 ، 528 ، 529 ، 530 ، 531 ، 532 ، 533 ، 534 ، 535 ، 536 ، 537 ، 538 ، 539 ، 540 ، 541 ، 542 ، 543 ، 544 ، 545 ، 546 ، 547 ، 548 ، 549 ، 550 ، 551 ، 552 ، 553 ، 554 ، 555 ، 556 ، 557 ، 558 ، 559 ، 560 ، 561 ، 562 ، 563 ، 564 ، 565 ، 566 ، 567 ، 568 ، 569 ، 570 ، 571 ، 572 ، 573 ، 574 ، 575 ، 576 ، 577 ، 578 ، 579 ، 580 ، 581 ، 582 ، 583 ، 584 ، 585 ، 586 ، 587 ، 588 ، 589 ، 590 ، 591 ، 592 ، 593 ، 594 ، 595 ، 596 ، 597 ، 598 ، 599 ، 600 ، 601 ، 602 ، 603 ، 604 ، 605 ، 606 ، 607 ، 608 ، 609 ، 610 ، 611 ، 612 ، 613 ، 614 ، 615 ، 616 ، 617 ، 618 ، 619 ، 620 ، 621 ، 622 ، 623 ، 624 ، 625 ، 626 ، 627 ، 628 ، 629 ، 630 ، 631 ، 632 ، 633 ، 634 ، 635 ، 636 ، 637 ، 638 ، 639 ، 640 ، 641 ، 642 ، 643 ، 644 ، 645 ، 646 ، 647 ، 648 ، 649 ، 650 ، 651 ، 652 ، 653 ، 654 ، 655 ، 656 ، 657 ، 658 ، 659 ، 660 ، 661 ، 662 ، 663 ، 664 ، 665 ، 666 ، 667 ، 668 ، 669 ، 670 ، 671 ، 672 ، 673 ، 674 ، 675 ، 676 ، 677 ، 678 ، 679 ، 680 ، 681 ، 682 ، 683 ، 684 ، 685 ، 686 ، 687 ، 688 ، 689 ، 690 ، 691 ، 692 ، 693 ، 694 ، 695 ، 696 ، 697 ، 698 ، 699 ، 700 ، 701 ، 702 ، 703 ، 704 ، 705 ، 706 ، 707 ، 708 ، 709 ، 710 ، 711 ، 712 ، 713 ، 714 ، 715 ، 716 ، 717 ، 718 ، 719 ، 720 ، 721 ، 722 ، 723 ، 724 ، 725 ، 726 ، 727 ، 728 ، 729 ، 730 ، 731 ، 732 ، 733 ، 734 ، 735 ، 736 ، 737 ، 738 ، 739 ، 740 ، 741 ، 742 ، 743 ، 744 ، 745 ، 746 ، 747 ، 748 ، 749 ، 750 ، 751 ، 752 ، 753 ، 754 ، 755 ، 756 ، 757 ، 758 ، 759 ، 760 ، 761 ، 762 ، 763 ، 764 ، 765 ، 766 ، 767 ، 768 ، 769 ، 770 ، 771 ، 772 ، 773 ، 774 ، 775 ، 776 ، 777 ، 778 ، 779 ، 780 ، 781 ، 782 ، 783 ، 784 ، 785 ، 786 ، 787 ، 788 ، 789 ، 790 ، 791 ، 792 ، 793 ، 794 ، 795 ، 796 ، 797 ، 798 ، 799 ، 800 ، 801 ، 802 ، 803 ، 804 ، 805 ، 806 ، 807 ، 808 ، 809 ، 810 ، 811 ، 812 ، 813 ، 814 ، 815 ، 816 ، 817 ، 818 ، 819 ، 820 ، 821 ، 822 ، 823 ، 824 ، 825 ، 826 ، 827 ، 828 ، 829 ، 830 ، 831 ، 832 ، 833 ، 834 ، 835 ، 836 ، 837 ، 838 ، 839 ، 840 ، 841 ، 842 ، 843 ، 844 ، 845 ، 846 ، 847 ، 848 ، 849 ، 850 ، 851 ، 852 ، 853 ، 854 ، 855 ، 856 ، 857 ، 858 ، 859 ، 860 ، 861 ، 862 ، 863 ، 864 ، 865 ، 866 ، 867 ، 868 ، 869 ، 870 ، 871 ، 872 ، 873 ، 874 ، 875 ، 876 ، 877 ، 878 ، 879 ، 880 ، 881 ، 882 ، 883 ، 884 ، 885 ، 886 ، 887 ، 888 ، 889 ، 890 ، 891 ، 892 ، 893 ، 894 ، 895 ، 896 ، 897 ، 898 ، 899 ، 900 ، 901 ، 902 ، 903 ، 904 ، 905 ، 906 ، 907 ، 908 ، 909 ، 910 ، 911 ، 912 ، 913 ، 914 ، 915 ، 916 ، 917 ، 918 ، 919 ، 920 ، 921 ، 922 ، 923 ، 924 ، 925 ، 926 ، 927 ، 928 ، 929 ، 930 ، 931 ، 932 ، 933 ، 934 ، 935 ، 936 ، 937 ، 938 ، 939 ، 940 ، 941 ، 942 ، 943 ، 944 ، 945 ، 946 ، 947 ، 948 ، 949 ، 950 ، 951 ، 952 ، 953 ، 954 ، 955 ، 956 ، 957 ، 958 ، 959 ، 960 ، 961 ، 962 ، 963 ، 964 ، 965 ، 966 ، 967 ، 968 ، 969 ، 970 ، 971 ، 972 ، 973 ، 974 ، 975 ، 976 ، 977 ، 978 ، 979 ، 980 ، 981 ، 982 ، 983 ، 984 ، 985 ، 986 ، 987 ، 988 ، 989 ، 990 ، 991 ، 992 ، 993 ، 994 ، 995 ، 996 ، 997 ، 998 ، 999 ، 1000 .

² - صيد الخاطر : شرح الفزالي : ص 5 .

5- المصدر السابق: مراجعة و تحقيق علي طنطاوي و ناجي طنطاوي ص 5

و شطحاتهم و ذلك لكون هذا الشيخ من أعمدة التيار الصوفي و المدافعين عنه في ذلك العصر .

و من الكتب المهمة التي استحسنها العلماء كتابه في التراجم و السير " صفة الصقوة " الذي اختصره عن كتاب " حلية الأولياء و طبقات الأصفياء " لأبي نعيم الأصبهاني ، و قد أشاد العلماء بهذا الكتاب ، و بكل كتب ابن الجوزي في المناقب و ذلك لكونه ثقة كثير الاطلاع على مصنفات غيره من العلماء ، زيادة على مقدرته الفائقة على الجمع و الكتابة فقد كان من أحسن المصنفين في هذا المجال ¹ ، و نتيجة لهذا فقد تعرض الكتاب للتحقيق و الاختصار عدة مرات منها كتاب " مختصر صفة الصقوة " للشعراني و الذي نشرته مكتبة الفلاح بمكة المكرمة سنة 1388 هـ ، و كذلك " مختصر صفة الصقوة " و سماه صاحبه " أحاسن المحاسن " للعالم الشيخ إبراهيم الرقي ، و حققه سيد إبراهيم ، و طبعته دار الحديث بالقاهرة ، و كتاب " الصقوة من صفة الصقوة " للباحث عدنان سعد الدين ، طبع بمطابع الشمس، بعمان بالأردن سنة 1987 م .

كما تعرض كتاب ابن الجوزي الشهير " ذم الهوى " إلى العديد من التحقيقات ، حيث حققه منذ أكثر من عشرين عاما الأستاذ مصطفى عبد الواحد ، و راجعه الشيخ محمد الغزالي ثم حققه الأستاذ أحمد عبد السلام عطا حديثا و نشرته دار الكتب العلمية ببيروت سنة 1993 م ثم جاء الشيخ إبراهيم محمد رمضان و اختصره في كتاب سماه " مختصر ذم الهوى " نشرته دار القلم ببيروت سنة 1993 م ، ثم اختصره الأستاذ خالد أبو صالح في مؤلف سماه " المنقلى من ذم الهوى " و نشرته دار الوطن بالرياض سنة 1999 م .

و في نهاية المطاف يجدر بنا أن نشير إلى أن الداعية الناجح في دعوته لا بد أن ينظر إلى مدى تأثيره في هذا الميدان ؛ بما تركه من بصمات و ملامح بارزة بين جماهير المدعوين .

و ابن الجوزي الذي عاش في عصر مليء بالاضطرابات و القلاقل حصل له لقبول و شدة التأثير بين المدعوين من العوام و الحكام و العلماء ² ، و الذي يمكننا أن نرجعه لبعض العوامل : منها ما يعود لشخصية ابن الجوزي كداعية ، و منها ما يعود لطبيعة المدعوين خاصة و للمجتمع عامة .

1- الذيل على طبقات الضائفة : ابن رجب ، 1 / 416 .

2- قد أشرت إلى تأثير ابن الجوزي على المدعوين و منهجه في ذلك في فصل أصناف المدعوين من الباب السابق.

أما عن ابن الجوزي فالظاهر في تأثيره يرجع إلى رغبته الصادقة و نيته المخلصة في اصلاح المجتمع ، و هداية الناس وهذا واضح من جملة أقواله ، و مواعظه و مصنفاته لصف إلى ذلك ما كان عليه من خلق و دين و هذه من اهد الصفات الضرورية للدعاة.

أما بالنسبة للمدعوين فذلك واضح لوجود بذرة الخير في نفوسهم ، و قد ساعد على نموها رغبتهم في التقى و تقبلهم لما يقول ، و استعدادهم للتوبة و الرجوع إلى الله بمجرد التذكير و التخويف من الله - تعالى - ، و قد كان بعض الحكام أيضا على هذا الجانب من الخوف و الورع و الخشية من الله - عز و جل - كما أوضح ذلك ابن الجوزي في مصنفاته .

أما بالنسبة للمجتمع فيرجع إلى ما كان يسوده من فساد ظاهر و خفي؛ و هذا مما ساعد على بروز آثار دعوة ابن الجوزي و تجليها فيه ، و ذلك لأن المجتمع إذا شاع فيه الفساد و هب العلماء لإصلاحه بصدق و يقين ظهرت نتائج دعوتهم ، و نبئت في المجتمع كما نبئت البقل رغم ما قد يواجهها من العقبات و المحن .

المبحث الثاني

بين ابن الجوزي و الشيخ محمد الغزالي

و ممن تأثر تأثراً مباشراً من دعاة هذا العصر وابن الجوزي في ميدان العلم والدعوة للشيخ الإمام محمد الغزالي - رحمه الله - ، فقد أتى الشيخ كثيراً على ابن الجوزي كأديب ومربٍ و داعية من الطراز الأول ، و لعل هذا الثناء و الاعتراف مما يزيد مكانة الرجل و عظيم ما قام به في مجال الدعوة و الإصلاح .

و مما قاله ميرزا دوره الكبير و المؤثر في ميدان دعوة الجماهير و إصلاح عُلهم :
" ثم إن ابن الجوزي - رضي الله عنه - اشتغل طول عمره بعلاج الجماهير - أعنى وعظ الناس في المساجد الجامعة - فلم يكن الرجل أدبياً مترفاً يحتر المقالات في بيته ، أو مدرساً مستريحاً يرسل كلماته في أحد الفصول مع تلامذته ، بل كان فارساً معلماً يقتحم كل غمرة ، و يقترب من الخاصة و الدهماء جميعاً ، ليهدر بينهم بكلمة الحق ، و يشخص ما يترأى له من علل نفسية و جماعية ثم يبرز أدويتها من كتاب الله و سنة رسوله ، إبراز طبيب خبير و أخصائي ماهر " ¹ .

و قول الشيخ الغزالي هنا في ابن الجوزي يؤكد ما سبق و قلناه من أن تأثير ابن الجوزي امتد على مر العصور مثلما كان مؤثراً على جماهير المدعوين بكافة أصنافهم . أما عن دوره في ميدان العلم و التربية فيشيد به الشيخ الغزالي و يعترف له بجهوده قائلاً :
و مكث طول حياته الخصبة يعلم الناس و يشفي ، قامهم ، و يشرح الإسلام و يدفع عنه بغى المتعالمين ، و خرف الجاهلين ، و انحراف أصحاب الآراء و المذاهب ، و سيرى القارئ - بعد صحبة قليلة للمؤلف - أنه أمام إنسان ضخم ، رفيع الهمة ، بعيد المدى دخل ميدان الإيمان و هو صحيح النفس و الفسخر ، واسع الأمل ، باغي الفطنة ، و ما أقل هذه الصفات بين المعتمدين إلى الدين . و آثاره العلمية كثيرة جداً " ² .

و يحدثنا الشيخ الغزالي - رحمه الله - حديث المنائر المعجب عن مدى جدية ابن الجوزي واتساع أفق شخصيته في ميدان الدعوة و الفكر ، و يرى بأن أمثال ابن الجوزي من العلماء لا بد أن يلقوا الكثير من الشدة و العنت و التضيق ، ممن تضيق عقوله بفكر

¹ صدر المصنف : لعن الغزالي ، ص 8 .

² المصدر السابق ، ص 8 ، وقد تحدثنا عن جهود ابن الخروف في ميدان العلم و التعليم في فصول سابقة

الأخرين فيقول : " إن ابن الجوزي - في نظري - مثل للتدين الرفيع عندما يملأ ألفه نوي لقلوب الكبيرة من الشعراء ، أو نوي العقول الحصيصة من العلماء ، فلا عجب إذا مزج في كتابته بين الفقه و الأدب ، و لا عجب إذا ضاق بكتابته من لا عقل لهم من المتدينين ، و من لا دين لهم من الماجنين " ¹ .

و عند حديثه عن ورع ابن الجوزي و تقواه كان الشيخ الغزالي - رحمه الله - يرى أن التمثل بأمثال هؤلاء القمم مزية لا غنى عنها للعلماء و الدعاة ، فيقول : " إن ابن الجوزي إنسان جيش القلب بالمشاعر العامرة ، و الجانب العاطفي في أحاسيسه و أحكامه بارز يؤثر في جلسانه و قرانه بقوة ، و كما ينقلك الجذلان المرح ، إلى جو من البهجة ، و كما تنقلك الحديقة الغناء إلى عالم من السكينة و الرضا ، يحدثك ابن الجوزي عن الله فيقفك بحضرته ثم يرفعك بأسلوبه النقي إلى مقام الإحسان . و يحدثك عن معالم دينه دون تزيد أو انتقاص فإذا أنت أمام الحقيقة المجردة تسرح طرفك في جنباتها فلا ترى إلا الخير و الصدق ، و هذه حالة أستشعرها وأنا أقرأ لبعض أئمتنا أمثال أبي حامد الغزالي و ابن القيم و غيرهم " ² .

و الشيخ الغزالي هنا كأنه يسلم لنا بضرورة وجود هذه الصفات في الدعاة إلى الله - عز و جل - فهم يتشابهون لأنهم ينهلون من منبع واحد ، و مهما اختلفت مناهج الدعوة و طرقها لكن أهداف الدعاة مشتركة و ثابتة لا تتغير .

و يحدثنا الشيخ الغزالي بوضوح عن الفرق الذي لاحظته بين منهج كل من ابن القيم و ابن الجوزي في مجال البحث و التصنيف ، ليكشف لنا منهج تعامل ابن الجوزي مع النصوص و طريقته الفريدة في إسقاطها على الواقع الدعوي ، حتى يجد لنفسه فيه مكانا فاعلا و محركا لا منفعلا سلبيا بلا هدف يسعى إليه ، و هذا لعمرى من ضرورات فقه الواقع و فقه كيفية التمتع فيه ، و قد كان ابن الجوزي على دراية تامة بما يقول و ما يفعل و ما يصلح لجماهير المدعوين و ما لا يصلح ، يقول الشيخ الغزالي : " ومنهج ابن الجوزي في البحث قريب من منهج ابن القيم من ناحية التحقيق الفقهي ، إلا أن في الأخير نزعه سلفية مطلقة أما صاحب " صيد الخاطر " فإنك واجد في كتابه هذا شيئا غير قليل من الأناة في الأخذ بظواهر الصفات ، مرجعه - فيما أرى - اطلاعه الدقيق على أحوال العامة - إذ يلي بوعظهم - و ربطه الذكي بين الأحكام الشرعية ، و تمكين الجمهور من الانتفاع بها

¹ - " صيد الخاطر : لعلمين الشيخ الغزالي ، ص 5 .

² - المصدر السابق : ص 5 ، 6 .

على نحو يهذب السلوك و يصون المجتمع . إن الرجل مربٍ عظيم ، و هو ينظر إلى النصوص نظرة الطبيب إلى الأدوية يستعملها ، و نصب عينيه التماس الشفاء بها للمعلولين¹ . و لا شك أن ما ذكره الشيخ الغزالي هنا عن ابن الجوزي و ابن القيم - رحمهما الله - هو الجوهر الرئيسي الذي يفرق بين الدعاة حتى لا يكونوا صوراً منسوخة لأصل واحد ، بل لا بد أن يكونوا نماذج مختلفة لأصل واحد ، فيكون اختلافهم اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد . فهذا الذي يحدث عليه الشرع و يقره العقل و الواقع ، و قد كان صاحب الرسالة - عليه الصلاة و السلام - يصنع من الصحابة نماذج شتى لعبقرات مختلفة ، و ما نجاح العديد من الدعاة في الحركات الإسلامية اليوم و إخفاق غيرهم إلا لعدم الجدية في الأخذ بهذا السبب إذ لو كان المذبح واحد لانتفت الحكمة من تعدد المذاهب الدعوية التي استخدمها الأنبياء و المرسلون .

و لا يجد الشيخ مناصاً إلا أن يقر بتأثره و تلمذته على يد ابن الجوزي و ذلك من خلال العطاء الفكري المتصل للرجل عبر قرون خلت ، فهو يرى أن التأثير و التأثر بين الدعاة و العلماء من السنن الثابتة ، حتى يتصل الماضي بالحاضر و يمتد بجذوره إلى المستقبل يقول في ذلك : " و نحن الذين نتلمذنا على هذا و ذلك² ننشد الحق في مظانه و نقر لكلا الرجلين فضله و رسوخه ، و قد نأخذ من هذا و ندع من ذلك ، لكننا لا ننسى أن هؤلاء الأعلام قمع شماء في ماضيها العلمي الرابع ، و أن حاضرتنا لن يتألق إلا إذا اتصل بهم و وصل ما انقطع من أمجادهم³ .

فالشيخ الغزالي يؤكد هنا على ضرورة التواصل العلمي و الدعوي بين أبناء هذه الأمة ؛ فإذا كانت القلاع و الصروح لا تبنى بجهود فردية منعزلة و هي أشياء مادية زائلة فكيف تبنى الدعوات الربانية و يمكن لها في الأرض بواسطة أفراد قلائل لا يربط بينهم رابط . يقول مؤكداً هذا المعنى : " لقد تتلمذت على كتابات لابن الجوزي و ابن تيمية و الغزالي و ابن رشد ، و انتفعت من صواب أولئك كلهم ، و تركت ما تعقبهم الآخرون فيه بحق⁴ .

1 - صيد الخاطر : تحقيق الغزالي ، ص 6 .

2 - بقصد الإمام أبي حامد الغزالي .

3 - صيد الخاطر : تحقيق الغزالي ، ص 6 ، 7 .

4 - التلمذ في طريق نهضة الإسلام : محمد الغزالي ، صدر ضمن سلسلة كتاب الأمة ، رئاسة المحاكم الشرعية و الشؤون المدنية في دولة قطر، سنة 1402 ، ص 139 .

و اعترافاً منه بهذا الفضل الكبير فإن الشيخ لا يفتأ يذكر تأثيره و تتلمذه على فطاحل العلماء و على رأسهم ابن الجوزي فيقول : " اني تتلمذت و ما زلت على أئمة مختلفين قرأ لأبي حنيفة إمام أهل الرأي ، و لابن حنبل إمام أهل الأثر ، و لابن تيمية ، و لأبي حامد الغزالي و لابن سينا و ابن الجوزي و هذا فيلسوف و ذاك واعظ " ¹

و الذي لا شك فيه هو أن الانقطاع الحضاري الذي حصل بين ماضي هذه الأمة و حاضرها كان نتيجة التشتت و التشرذم حيناً ، و انقطاع التواصل بين قمم شماء من علمائنا العظام و أجيال عريضة من الدعاة الذين لم يحسنوا قيادة موكب الدعوة إلى ساحل النجاة حيناً آخر ، ولن تتمكن الأمة من النهوض إلا بوصل ما انقطع بين شرائحها ، وخاصة للعلماء و الدعاة منهم على وجه الخصوص ، و كما قال الشيخ إنه لمن " العجب بقاء أمة مال ميزانها على هذا النحو و ما يمكن أن نعود لسيرتنا الأولى حتى تزدهر بيننا قيمة العلم و ترتفع أقدار العلماء " ² .

وفي ميدان التأليف يقر الشيخ الغزالي أن الكثير من مؤلفاته كانت صدى لما كتبه ابن الجوزي منذ عهد ليس بقريب ، و أن اختلفت العبارات بينهما لكن الهدف الأساسي الذي كان يجمع بينهما واحد هو الدعوة و إصلاح المجتمع و تربية أفراده ضمن الإطار العام للمنهج الإسلامي الأصيل .

فلنستمع للشيخ و هو يوقع مرسوم الإقرار للإمام ابن الجوزي بالسبق له في الكثير من قضايا الدعوة و الإصلاح يقول الغزالي : " فما من رأي انتهيت إليه في كتاباتي الكثيرة إلا وجدت هذا المؤلف قد سبقني إلى تقريره ، و قرنه بما يدعمه من نصوص ، و ما من علة في المجتمع نددت بها ، إلا كان في هذا الكتاب (يفصّد صيد الخاطر) هجوم عليها و حصار لوبائتها قبل أن يشيع " ³ .

و يتحدث عن اقتفائه أثر ابن الجوزي و اعجابه بنهجه و اتباعه له في مجال التأليف فيقول : " و قد تابعت ابن الجوزي في هذا النهج ، " فكتابه صيد الخاطر " تضمن بحوثاً في سطور لكنها جليلة الفائدة ، بل لعلها أفضل من رسائل طويلة " ⁴ ، و الأعجب من ذلك أننا نجد - رحمه الله - يعبر على ما ينتابه من تحريك للمشاعر الداخلية و الذي يعود سببها

¹ - الحق المر: محمد الغزالي ، دار المشهاب ، بانهة ، الجزائر : 2007 ، ص 11

² - صيد الخاطر : لعين الغزالي ، ص 10 .

³ - المصدر السابق : لعين الغزالي ، ص 3 .

⁴ - الحق المر: محمد الغزالي ، ص 6 .

إلى ما تركته فيه شخصية ابن الجوزي العلمية و منهجه الدعوي من أثر ، حيث يرى أن ما يقوم به من عمل في ميدان الدعوة و الإصلاح لا يختلف عن الرسالة التي كان يقوم بها ابن الجوزي و هي رسالة الدعوة و التربية و تعليم الناس ، و هي من أشرف الوظائف كما قال ، وقد عبّر عن ذلك بصراحة فقال : " عندما قرأت كتاب " صيد الخاطر " لابن الجوزي أحسست أن الرجل عبّر بكلمات بصيرة بليغة عن خوالج نفسية تحركت في باطني و سجلت طرفاً منها قبل أن أطلع على كتابه هذا . و ربطني بالرجل إلى جانب ذلك أنه مشغول بتعليم الإسلام و نصح الجماهير ، و هي الوظيفة التي شرفني القدر بها ... إن أمثالنا من الدعاة إلى الله ينقلون أقدامهم بوجل في سبيل مزحومة بالأقذاء ، و الإنكار ، لا يعين على السلامة فيها إلا الله ، الذي لا نسأم دعاءه و رجاءه .¹

و في حب الدنيا و متاعها لا ينكر الشيخ الغزالي ذلك على نفسه ، إذا كان ليس فيه إذلال للنفس أو معصية لله - عز و جل - ، و يصرح لنا أن هذا ما كان عليه ابن الجوزي و هو بذلك موافق له في منهجه الدعوي و السلوكي على السواء ، و نحن نقول بأنه لا ضير في ذلك فالعلماء الربانيون هم قدوتنا في العلم و العمل ، و لا يعقل أن نقنّدي بهم في الدين و لا نقنّفي أثرهم في الدنيا ، يقول الشيخ : " و لست أطلب من الله سعة تشغل عنه ، بل أطلب سعة تدفع إليه ، و كثيراً يحصن من زراية السفهاء ، و لعب الكبراء ... جالت هذه الخاطرة في نفسي و أنا أقرأ لابن الجوزي هذه الفتحة التي سطرها في كتابه " صيد الخاطر " يصف بها حياته و رجاءه ، و قلت : ألا ما أقرب الشبه بين عيش و عيش ، و أمل و أمل قال : - غفر الله لنا و له - : ما ابتلى الإنسان قط بأعظم من علو همته ، فإن من علت همته يختار المعالي و ربما لا يساعد الزمان ، و قد تضعف الآلة ، فيبقى في عذاب ، و إنني أعطيت من علو الهمة طرفاً فأنا به في عذاب ، و لا أقول : لئنه لم يكن ، فإنه إنما يحلو العيش بقدر عدم العقل ، و العاقل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل " ، و يواصل الشيخ استدلاله بكلام ابن الجوزي فينبقى عنه قرابة الثلاث صفحات من أجل تأكيد ما ذهب إليه ، بل و وجدناه في كتاب آخر يشيد بعلو همة ابن الجوزي و يتخذها مثلاً له و يطالب للمسلمين أن يأخذوا بها ، و يعتبر أن هذا الموضوع من المواضيع المشقة في موروثنا الفكري منذ قرون فيقول : " من أمارات النضرة في ثقافتنا القديمة هذه الكلمات لابن الجوزي

¹ - الجانب المظلي من الإسلام : محمد الفزالي ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، د ت ، ص 295 ، 296 .

² - المصدر السابق : ص 296 ، 297 ، و الكلام في صيد الخاطر : ص 238 .

يدعوا فيها إلى علو الهمة ، ويطلب من المسلم أن يكون طليعة سابقة في كل ميدان ، يقول :
" ينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه ، فلو كان يتصور للأدنى صعود السماوات
لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض ! ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد رأيت المقصر
في تحصيلها في حضيض ! " ، إن هذه الصيحة السماء نضحت من وحي الإيمان الحق
ومن خصائص التربية الإسلامية في الشروق المحمدي الأول ، وهو الشروق الذي قاده
رجال أصحاب عزمات شداد ، و آمال عراض ، فطووا في سياحتهم المشارق و المغرب !
و ابن الجوزي من علماء القرن السادس الهجري ، و لو رأى المسلمون الآن في عصر
الفضاء ينظرون إلى غزاة الجو ببلاهة لحمل السوط و جلد به الظهور ، و لبرأ الإسلام من
هذا الانتماء المخزي .¹

و بهذه التقارير المفصلة للشيخ الغزالي - رحمه الله - تتضح لنا القيمة المعنوية
و الأدبية لشخصية ابن الجوزي العلمية و الدعوية و لما تركه من مصنفات نالت إعجاب
و تقدير جمهرة من العلماء .

و لتوضيح العلاقة الوثقى بين ابن الجوزي و الغزالي يجدر بنا أن نتصفح القاموس
للغوي للشيخ و ما فيه من حدة و قسوة و سخط في كثير من الأحيان ، فهو يكاد يكون نفس
القاموس اللغوي الذي استخدمه ابن الجوزي في عصره ، فمن حيث الأسلوب و الألفاظ
و جدنا الكثير من العبارات التي تدل على حمق الصوفية و تغفيلهم و وصف العلماء و العوام
و المخالفين عموماً بالكثير من الألقاب عند ابن الجوزي ، كما وجدنا في مؤلفات الشيخ
الغزالي ما يماثل هذا بكثرة ، و لعل ذلك يكون كافياً بضرب هذه الأمثلة - زيادة على ما
قلناه آنفاً - من خلال بعض الموضوعات التي تأثر فيها الشيخ الغزالي بابن الجوزي تأثراً
واضحاً :

١ - العوام و غالبية المدعوين من الشباب :

جعل لهم أوصافاً كثيرة منها ما ذكره في الر : على العلمانيين قائلًا : " إن هؤلاء
البله يحسبون أن الإسلاميين سيقومون حلقة ذكر لحل مشكلة " .
و يقول عن الخلافات الفقهية بين العوام و سببها : " إن ذلك الخلاف الفقهي نموذج لعشرات

¹ - مشكلات في طين الحياة الإسلامية : ص 40 ، 41 ، وما استدل به من كلام ابن الجوزي بوجد في صيد
الخطير : ص 159 .

² - الحق الثمر : محمد الغزالي ، ص 16 ، و انظر أوصاف العوام عند ابن الجوزي في بحث ابن الجوزي و دعوة العوام من فصل
أصناف المدعوين عنده فلا نعيدها هنا

من أمثاله تشغل الدهماء و توقد الفتن .. أن هذه الخلافات الفرعية تشبه صور الجراثيم التي تعرض علينا في كتب الصحة ... و عندي أن إشعال التعصب المذهبي كان خطة مأكرة لصرف العامة عن النقد السياسي و متابعة الأخطاء التي أودت بالدولة الإسلامية قديما ¹ . و يصف الموقف مرة أخرى بقوله : " الواقع أن الخلاف العلمي لا يثير الحفاظ إلا لدى الرعايا .. أما العلماء الكبار فلهم شأن آخر " .

و عند حديثه عن ترك المشتغلين بالدعوة للعلم و تفرغهم لنشر الخلافات يقول : " إن كل علم يطوي مسافة هذا التخلف هو من أركان الدين ... و هو أولى من نوافل العبادات و مسائل الخلاف التي برع فيها الفارغون " ² .

و يقول عن بعض من يتكلم في الدين بغير علم : " و قد رأيت بعض الجهال الذين لا يجوز لهم الكلام في الإسلام يرحمون المجتمعات بأثار ما فهموها " ³ ، و ذلك لأن دين الله - على حد قوله - لا ينصر بأمثال هؤلاء : " إن دين الله لا يقدر على حمله و لا على حمايته الفاشلون في مجالات الحضارة الإنسانية الذكية ، الثرثارون في عالم الغيب ، الخوس في عالم الشهادة " ⁴ .

و لعل هؤلاء هم الذين ظلموا الإسلام قبل أن يظلمه أعداؤه الحقيقيون كما يرى الشيخ في قوله : " إن الإسلام يظلم باسم الإسلام ، يظلمه علماء ، يخدمون السلطة ، و شبان عديمو الفقه و غوغاء حيارى " ⁵ .

و يصفهم بالتخلف العقلي لقصورهم في ميدان العلم لأن الدين - في نظره - لا ينصر بدون التقدم في ميدان العلم فيقول : " إن أولئك المتخلفين عقليا و حضاريا فقدوا أهم معالم الصلاح و هم أعجز من أن يقيموا مجتمعا نقيًا أو يقاوموا مجتمعا كفورا . و المتخلفون عقليا و حضاريا يستحيل أن يصنعوا صحوة إسلامية لأن الصلاح في الإسلام ليس خيمة من الغيبات يهرع إليها العجزة " ⁶ ، و كما تأسف ابن الجوزي على ما يفعله بعض المتدينين في عصره ، نرى الشيخ الغزالي يعبر عن حسرته و أساه من أشباه هؤلاء الذين

¹ - الحق المر : محمد الغزالي ص 34 ، 35 .

² - المصدر السابق : ص 91 .

³ - سر نأخر العرب و المسلمون : محمد الغزالي ، دار الفصحة ، القاهرة ، ط 1 ، 1405 هـ ، 1985 م ، ص 78 .

⁴ - الحق المر : الغزالي ص 99 .

⁵ - مذكرات في طريق الحياة الإسلامية : محمد الغزالي : 36 .

⁶ - الغزو الثقافي يمتد في فراغنا : محمد الغزالي ، الزيتونة للنشر و الإعلام ، بلنجة : الجزائر ، د ت ، ص 8 .

⁷ - المصدر السابق : ص 100 .

و جدوا في عصرنا فيقول : " و الذي يحز في نفسي أن جمهوراً من المتدينين الجهلة في بلادنا تبني مفاهيم الجاهليات اليونانية و الرومانية و غيرها و قرر أن يحيا في نطاقها و زاد إلى هذه السفاهة أن قرر الدعوة إليها بحسبانها مفاهيم اسلامية " 1 .

و كان حصاد مثل هذا النوع من المتدينين أنهم الملقوا بالإسلام عدداً من الشبهات و أوقعوا به الكثير من الهزائم في ميدان الفكر و العمل ففي مجال نظرتهم للمرأة يقول 2 :
" جهلة المتدينين تستكثر على المرأة المسلمة هذه المكانة الكبيرة ، و قد نتج عن هذا التفكير في قضية المرأة ، و عن التفكير المماثل له في قضايا أخرى كثيرة أن ظلم الإسلام ظلماً شديداً ، و أن أساء به الظن من لم يحط به خيراً و من لم يحسن له فقهاً ، و عدي أن إفلات للنهضة النسائية من قيود الإسلام الحقيقية يرجع إلى هذا العجز و الغياب " 3 .
2 - العلم و العلماء :

كما تحدث ابن الجوزي طويلاً عن العلم و العلماء و انتقدهم بشدة بمختلف طوائفهم 4
كذلك فعل الشيخ الغزالي و لعل عباراته لا تكاد تختلف في مضمونها و روحها عن ما قاله ابن الجوزي و ندد به و إليك طائفة من الأمثلة التي توضح ذلك : فقد اعتبر الشيخ أن نفراً من العلماء من قليلي العلم و الفقه هم السبب في انهزام الإسلام و ضياع مجده ، حيث قال فيهم : " و عدي أن النكبات التي أطاحت بمجد الإسلام ، تعود أكثر ما تعود إلى قلة العلماء الراسخين ، و الخبراء الفاقهين ، و إن كثر المتزيفون بزي العلماء و الحاملون لإجازتهم الدراسية " 5 .

و يتحدث عن سلبيات التعليم الأزهري فيقول : " و قد ظل الأزهر - و هو أكبر معهد إسلامي - يطنب في شرح العبادات الشخصية ، و يحسب جهده هذا إحاطة لها شأناً ؟ في الوقت الذي ذهل فيه ذهولاً معيباً عن التشريعات التجارية و الاقتصادية و السياسية

1 - قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة و الوافدة : محمد الغزالي . دار الانتفاضة للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1992 م ، ص 65 .

2 - للمزيد حول الموضوع انظر مؤلفات الغزالي هذه : الإسلام و الطائقات المعطلة : محمد الغزالي ، الرتبة للإعلام و النشر ، طائفة الجزائر ، ص 17 - كفاح دين : محمد الغزالي . نشر مكتبة رحاب ، ط 1 ، 1988 م ، ص 275 ، 285 - الحن المر : ص 103 ، 111 ، 116 ، 117 - سر نأخر العرب و المسلمين : ص 21 ، 22 ، 23 - عمرو انشاق بمند في فراغنا : ص 147 -

حصاد الغرور : 203 - قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة و الوافدة : ص 167 ، 201 ،

3 - حصاد الغرور : محمد الغزالي ، دار الشهاب ، طائفة الجزائر ، 1994 ، 195 .

4 - انظر هناك كلام كثير عن العلماء في صمد الخاطر : 96 ، 132 ، 95 ، 71 ، 96 ، 17 ، 206 ، 211 ، 282 ، 313 ، 442 ،

364 ، 388 ، 414 ، 421 ، 436 ، 469 ، 470 ، و ان ليس ليس من ص 153 إلى 176 .

5 - كيف نفهم الإسلام : محمد الغزالي ، دار الكتب ، الجزائر ، ص 34 .

و الاجتماعية التي زخر بها الإسلام " ¹ .

ثم نجده يأخذ على العلماء و الدعاة الكثير من الأخطاء و خاصة التي تمس الجانب العلمي و الدعوي على الخصوص فيقول : " و إنما الذي يؤخذ على العلماء و الدعاة ما يوقعونه من أخطاء أو خطايا تمس سير رسالتهم التي حملوها .. فكثير من هؤلاء يعمل في حدود نصاب معين من الأهداف الدائمية ، ثم يتوقف توقفا تاما بعد ذلك إذا أحس اقتربا من سلطات جائرة أو تقاليد مرعية ، أو أوضاع مبنوس من اصلاحها .. هذا الخوف يحمل نفوسا من العلماء على ترك كثير من حدود الله حتى توشك أن تخفى أو هي خفيت " ² .

و نجده يعلق على كتب العلم التي يدرس بها الإسلام فيقول : " إن الإسلام ظلم ظلما فادحا في منات الكتب التي انتشرت زمنا طويلا بين يدي العامة ، كما صور تصويرا سخيفا شأنها في المتنون و الشروح و الحواشي التي اعتبرت وحدها مواد الدراسة في الجامع الأزهر " ³ .

و يقول مشنعا بتلك النماذج من الكتب : " إن القرن الأول - من بين القرون الأربعة عشر التي تمثل تاريخنا - هو أقرب الصور إلى حقيقة ديننا ، فكيف يحكم الإسلام متن من متون الفقه لآل أيام الاضمحلال العقلي لأمتنا " ⁴ .

و يعتبر عن قصور الفقهاء و الدعاة و عدم اهتمامهم بالعلم و بالتحديات الثقافية التي تهاجم الأمة على مختلف الأصعدة ، فيقول : " إن التحدي الثقافي الأجنبي يمتد حتما في هذا الفراغ العقلي و الديني عندنا ، و ربما أعانه هذا على استئصال شأفتنا ، و القضاء على رسالتنا و عندي أن مطاردة الفقهاء و الدعاة الذين يصنعون هذا الفراغ أهم من مطاردة تجار المخدرات ، و باعة الخمور ، و إذا لم ننفذ مستقبنا الحضاري من هؤلاء الناس قضوا علينا يقينا " ⁵ .

و يتحدث عن قصورهم في الجانب التربوي و الاجتماعي و خاصة في مجال حقوق المرأة فيقول : " من المحزن أن ينتقل ازدياء الأوثنة من تقاليد الأعراب و الصعاليك في جاهليتهم الأولى إلى المجتمع الإسلامي ... إن جمهرة من علماء الدين وضعت صعوبات

¹ - كيف نفهم الإسلام : محمد الغزالي ص 30 .

² - المصدر السابق : ص 41 .

³ - نفس المصدر : ص 249 .

⁴ - حصاد القرون : محمد الغزالي ، ص 197 .

⁵ - الغزو الثقافي يمتد في فراغنا : محمد الغزالي . ص 60 ، 61 .

رهيبة أمام تعليم المرأة في شتى المراحل ، و لم تستسلم إلا كارهة ، و هي الآن تضع ذات الصعوبات أمام تردد المرأة على المسجد .

وكما حمل ابن الجوزي على العلماء في تخصصات عديدة و كشف عن الكثير من عورتهم² راح الشيخ الغزالي يترسم خطاه — قصد ذلك أم لم يقصده — فتحدث عن ضحالة الموروث العلمي في مجال العلم و الدعوة لدى جملة من العلماء ، و قد أحببنا نقل كلامه كله ملخصا لعموم فائدته قال — رحمه الله — ما ملخصه : لقد كنا في العلوم المنقولة والمعقولة أصفارا ، و كان تاريخنا الطويل صحراء لا معالم لها ، و لو كنا على مستوى الإسلام لكن لنا باع طويل في كل فن ، و لزاحمنا بالمناكب في كل الكشوف المادية و الأدبية و العلمية التي هديت إليها الفطرة بعد سياحات يسيرة او شاقة ، و الغريب أن ناسا من جلدتنا لا يزالون باسم الدين يريدون استنبقاء قيود التخلف و الضياع ... و أخيرا جاء دور أنصاف العلماء ! و هم قوم لهم في كتب الدين قراءات مبتورة لا تميز غثا من سمين ، و لا تعرف أصلا من دخيل ، و قد اقتحموا أبواب الدعوة و الفتوى و أحدثوا فوضى شديدة ، هذا مفسر للقران يقول : إن آية لا إكراه في الدين منسوخة !! و يمضي في عماء لينسخ عشرات و مئات من آيات القران الكريم كلها محكمة ، و هذا يتحدث في السنة يقول : إن حديث " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله الا الله " ³ على ظاهره ، و هو جاهل ! و لم يقل أحد من العلماء أن الحديث على ظاهره ، بل قالوا : هذا على عموم أريد به خصوصي ! كلمة للناس تعني قوما معينيين شرحتهم أوائل سورة براءة .

و هذا يتحدث في العقيدة يقول : إن وصف الله بأنه واجب الوجود بدعة ! قلت له : كلمة واجب الوجود ليست من أسماء الله الحسنى فهذه الأسماء توقيفية من الشارع ... قال : هذا كلام الفلاسفة ، و هو بدعة و كل بدعة ضلالة ! قلت له : لا تسوّ بين عدو و صديق ! هناك فلاسفة ملاحدة ، و هناك من عرفوا الله ! لكن هذا المتكلم يستبيح دمك إذا مضيت في مناقشته ! أي بلاء يقع فيه العلم الديني إذا كان رجال التفسير و الحديث و العقيدة من النوع الهابط ، لذلك قلت إننا فقراء إلى علماء من طراز رفيع ، و القحط الثقافي الذي حل بتاريخنا من عدة قرون أتاح للاستعمار أن يصنع بنا الدواهي ! لقد دق أبوابنا و الجهل العام أخذ بخناقنا ، في علوم الدين و في علوم الدنيا على سواء ، و قد نتج عن قصورنا العلمي ما

¹ - سر أعر العرب و المسلمين : محمد الغزالي ، ص 24 .

² - انظر فصل محاور المحبرة عند ابن الجوزي ، محت العلم و العلماء ، و كذلك ليس بليس و صيد الخاطر .

³ - فتح الباري : 112/6 ، كتاب الجهاد رقم 2946

مكن لغزو الثقافي من مهاجمة عقائدنا و شرائعنا بطرق مختلفة¹ .

و يحمل الشيخ الغزالي جمهرة العلماء تخليدا عن رسالتهم في قيادة الجماهير - كما كان أسلافهم من الأزهريين - ، و ما أصاب الأمة من فوضى فكرية ، و تصدر أنصاف المتعلمين للدعوة و الوعظ و الإفتاء بغير علم ، فيقول : " و قد كان علماء الأزهر القدامى أقدر الناس على علاج هذه الفتن ، فهم يدرسون الإسلام دراسة تستوعب فكر السلف والخلف و الأمة الأربعة كما يدرسون ألوان التفسير و الحديث ، لكن الأزهر من ثلاثين عاما أوتزيد ينحدر من الناحية العلمية و التوجيهية ، و لذلك خلا الطريق لكل ناعق ، و شرع أنصاف و أعمار المتعلمين يتصدرون القافلة و يثيرون الفتن بدل إطفائها ، و انتشر الفقه البدوي و التصور الطفولي للعقائد و الشرائع² .

د - الصوفية :

كما هاجم ابن الجوزي التصوف و الصوفية في العديد من مؤلفاته خاصة كتابيه " تليس إبليس " و " صيد الخاطر " ³ ، حيث كشف عوراتهم و هتك أسرارهم ، فإن الشيخ الغزالي لم يترك هذا الموضوع يمر دون أن يدلي بدلوه فيه ؛ فقد تصدى - رحمه الله - للصوفية و حملهم ما أصاب العقل الإسلامي من تخريب و انحراف ، بل و وجدناه يضيق نرعا بالمتصوفة ، نتيجة لما أصاب المسلمين بسبب فكرهم المعلول - على حد قوله أضف إلى ذلك فإن التصوف ليس سلوكا إسلاميا في أصله - و من جملة ما قاله في هذا الشأن : " إن المتصوفة يحملون أوزار هذا التخريب الفكري في العقل الإسلامي ، و هذه اللبلة النفسية التي جعلت القافلة الإسلامية تنحاز جانبا في الحياة ، بينما الأجناس الأخرى تمر مر السحاب .. على أن هذه الأفكار المعلولة التي أفرخت بين أهل الطرق الصوفية فشت فشا منكرًا بين جماهير المسلمين ، و غاض ما كان يصحبها قديما من خير ... و فلسفة التصوف هذه دخيلة على الإسلام ، و هي تخالف طبيعة الحياة كما شرحتها الله في كتابه ، و تخالف طبيعة الإسلام التي تتألق في نصوصه و في سيرة السلف الصالحين " ⁴ .

1 - سر تاجر العرب و المسلمين : محمد الغزالي ، ص 82 ، 83 ، 81 .

2 - السنة الثامنة من أهل اللغة و أهل الحديث : محمد الغزالي ، دار الفکر ، بيروت ، طبع في الجزائر ، 1980 م ، ص 11 .

3 - انظر فصل ملوك الدعوة عند ابن الجوزي ، بحث ابن الجوزي ، إعداد و تصحيحه ، و انظر تليس إبليس : ص 223 إلى

403 و صيد الخاطر : 25 ، 60 ، 63 ، 96 ، 119 ، 142 ، 220 ، 221 ، 251 ، 400 .

4 - كيف نفهم الإسلام : محمد الغزالي ، ص 56 ، 57 .

و يبيّن أن ما فعله المتصوفة من إبعادهم للناس عن معتزك الحياة كلبية ، يعتبر من أخطائهم التي لا تغتفر ، و يعتبر هذا من الغذاء المسموم الذي حفل به التراث الصوفي فيقول : " إن ذلك ما فعل المتصوفة ، نهوا الناس عن حب الدنيا و الفتنة بها ، و ما زالوا يحصون مثالبها و يقبّحون الاتجاه إليها ، حتى أصبحت أيدي الناس صفرا منها ، فعانوا الام الجوع بعد ما كانوا يعانون متاعب البطنة ، فأى طبيب ذلك الذي لا يحسن إلا نقل المريض من علة إلى علة قد تكون شرا منها و أنكى ؟ و تراث الصوفية حافل بهذا الغذاء المسموم " ¹ و مرة أخرى نجده يحمل على علمي الكلام و التصوف و يعتبر أن إثمهما أكبر من نفعهما و ينصر العلماء الذين هاجموهما و قدموا البديل الإسلامي النقي من كل شائبة فيقول : " و كان المفروض في ثقافتنا الذاتية أن علمي الكلام و التصوف يشرفان على هذا الجانب و يقومان بتصوير العقائد ، و تأسيس العناصر التي تجعل الإيمان يخالط القلوب و يوجه النفوس . بيد أن ملايسات شتى أحاطت بهذين العلمين ، فإذا إثمهما أكبر من نفعهما فماذا صنعنا لنوجه مسارهما و وجهتهما ؟ ، و أظن الذين حاربوا علم الكلام و التصوف ذكروا بدائل حسنة لما عدوه خطأ في هذين العلمين ، فهل درسنا هذه البدائل ؟ " ² .

و بعد هذا النقد اللاذع الذي وجهه للصوفية ، ذكر رأيه الصريح حول التصوف المقبول الذي ينصره و جملة المآخذ التي أخذها على المتصوفة فقال : " و لنؤكد هنا أن للتصوف المقبول - إن صح التعبير - تربية دقيقة قبل أن يكون سعة علم ، و إنما أخذ على القوم أمران ؛ أحدهما الغلو و الجهل بأحكام كثيرة دينية و إنسانية ، و الثاني اعتبارهم مراحل الطريق أو درجات الترقى صفة لفرقة متميزة من المسلمين ، تنعزل بها عن العامة و تنفرد بأحوال خاصة ، و هذا باطل " ³ ، و مما يؤسف له أن بقايا التصوف و آثاره لا تزال موجودة ترسم علاماته عند بعض شيوخ الطرق و مريديهم من أهل البدع و الخرافات في هذا العصر و فيهم الكثير من الذين لا يمتنون إلى التصوف بصلة يقول الغزالي : " إن هذا التصوف قد انتهى عصره ، و انقرض رجاله ، و لكن بقايا الشبانعة في مواردنا الروحية و الفكرية لا حصر لها " ⁴ .

و مرة أخرى نجد الشيخ الغزالي لا يخفي إعجابه بالتصوف الذي لم يخرج أصحابه

¹ - الإسلام و الطائفة المعطلة : محمد الغزالي ، ص 30 .

² - المنبر الثقافي محمد بن فرحان : محمد الغزالي ، ص 96 .

³ - المصدر السابق : ص 57 .

⁴ - الإسلام و الطائفة المعطلة : محمد الغزالي ، ص 33 .

عن منهج الكتاب و السنة ، بل راح يثنى عليه و على ما تركه من آثار حميدة على العوام حيث كان ملاذهم ، كما كان له الفضل في وصول الإسلام إلى أقطار نائية ، و لولا أنه لم يشتط في بعض الموضوعات الغيبية التي لا علاقة لها بها لأدى رسالته على أحسن وجه و مقالته : " إن التصوف علم احتضن كثيرا من العواطف الإسلامية الشريفة ، و نمت في مباحثه فنون شتى للتربية و الأخلاق ، و نجح رجاله في الإفراد بمقاود العامة ، و استطاع فريق منهم أن ينشر الإسلام في الأقطار النائية . بيد أن التصوف دخل في موضوعات غيبية لا علاقة لها بها و تعاق بأفكار أجنبية ينكرها الإسلام و اشتط في أحكامه على الأمور فزل عن الصراط المستقيم " .¹

٤ - السلفية :

كان موضوع السلفية و اتباع السلف الصالحين من القضايا التي أتعبت الفكر الإسلامي منذ قرون عدة ، ففي عصر ابن الجوزي² كان الغالبية من الحنابلة يمثلون هذا التيار و الذي كان في أساسه مضاد لتيار الصوفية في السلوك و تيار المتكلمين في العلم و لقد كان الصراع بين الحنابلة و هؤلاء ينتقل في كثير من الأحيان من حلبة الفكر و المجادلة إلى حلبة التناوش و الاقتتال ، و أهدت هذه الصراعات و أخطرها ما كان يحدث بين أهل السنة من الحنابلة و الأشاعرة حيناً و بين أهل السنة و الروافض حيناً آخر³ ، و كانت تسفر في غالب الأحيان على سقوط العديد من القتلى و الجرحى من الجانبين ، و مع الأسف فإن هذا الصراع المرير لا يزال مستمرا إلى اليوم ، و هذا ما نشاهده على الساحة الفكرية و الدعوية من تناطح و صراع بين فرق و طوائف شتى من الإسلاميين كاد أن يأتي على الأخضر و اليابس ، و قد تحدث عنه الدعاة و المخلصون من هذه الأمة كثيرا ؛ من باب لم الشمل و توحيد الصف ضد الأعداء في المعارك القائمة و قد ابتلى الشيخ الغزالي بخوض العديد من الصراعات مع هذا التيار فبعد أن رأى بعض المظاهر التي تزيها بها بعض الناس ظنا منهم أن هذه هي السلفية رد بقوله : " أن السلفية فيما يعلم أولوا الأبواب شيء آخر فوق إطفاء الشوارب ! " .⁴

و يتحدث عن ضرورة صيانة العوام في المساجد ممن يلبسون ثوب الوعاظ و يحشون

¹ - الإسلام و الطوائف الممثلة : صمد الغزالي ، ص 28 ، 29 .

² - انظر سبب الحاضر : ص 83 ، 84 ، 85 ، 277 ، 140 ، 271 .

³ - انظر التنظيم في الصلوات المجددة ، في بحث الحالة السياسية من فصل عصر ابن الجوزي .

⁴ - الغزو الثقافي بمد في فراغنا محمد الغزالي ، ص 51 .

فكر هؤلاء بأشياء كثيرة من فقه الخلاف كما فعل عمر بن الخطاب عندما أمر بطرد القصاص من المسجد و مضمون هذا الكلام قاله ابن الجوزي منذ قرون ، لكن الشيخ الغزالي قاله بلغة عصره معبرا عما استجد فيه و من جملة ما قاله : " كانت دولة الخلافة الراشدة بادية الحرص على سلامة المعرفة التي تصل الى الجماهير ، و قد رأينا علي بن أبي طالب يرقب المساجد ، و يستمع إلى ما يلقي بها من دروس ، و قد أمر بطرد أعداد من القصاص للمتحدثين إلى العامة ، و استبقى الحسن البصري وحده ! إن الميدان الديني مرتع خصب للمشعوبين و الخرافيين ، و لا يجوز أن يسنخفي أولئك في أياق الوعظ و الفقه ليفسدوا الأفكار ، و ينحرفوا بالناشئة ... و قد رأيت شابا غضا يلقى بعض الأحاديث ، و هو دون مستواها ، و يشعل بها خلاقات مخوفة العقبى ، و قد يكون الجيش مكلفا بدخول مدينة ، أو بلوغ هدف فإذا هؤلاء يتحدثون فتنة حول قصر الثوب ، أو الصلاة في النعل ، أو الشرب عن قيام فيصاب الإسلام من غبانهم " 1 .

و يتحدث الشيخ الغزالي عن خطورة هذا التيار على الصحوة الإسلامية المعاصرة و الدعوة عموما ، و ما كان له من نزال خاضه معهم في كثير من الأحيان فيقول : " الصحوة الإسلامية المعاصرة مهددة من أعداء كثيرين ، و الغريب أن أخطر خصومها نوع من الفكر الديني يلبس ثوب السلفية ، و هو ابعث الناس عن السلف ، إنها ادعاء السلفية و ليست السلفية الصحيحة !! إن حب السلف دين و كرههم نفاق ! إنهم دعائهم حضارتنا و معالم رسالتنا ، من أجل ذلك يجب أن نحسن التأسى بهم ، و أن نندفع عنهم كل ما يؤدي سمعتهم . كنت يوما أتحدث في موضوع غير ذي بال ، و في المجلس رجل موصوف بالسلفية و جرت على لساني كلمة موهمة له أقصد إلى شيء بها! ... و كثر عن أبيابه و استعد للفتك ! غير أن الحديث انعرج إلى ناحية أخرى ، و شعرت بأن الرجل أسف لأنني أقلت منه .

قلت له : فلان ! قال : ما تريد ؟ قلت : رأيك متحفزا للنزال ، ثم كفى الله المؤمنين القتال ... قلت : ليت الأمر يكون كذلك ، إنكم تهاجمون المذاهب الفقية ، و تخذشون أقدار الأئمة و تتركون تقاسمات عميقة بين الناس باسم السلفية ، و العلم الصحيح لا يأخذ هذا المنهج قال : نحن نرفض التقليد المذهبي ، و نعلم الناس الأخذ المباشر من الكتاب و السنة أتأبى أنت ذلك ؟ قلت : لا يأتى مسلم الارتباط بكتاب ربه و سنة نبيه ... و الفقهاء الأربعة الكبار

1 - سر تاخر العرب و المسلمين عمدة الغزالي ص 41

نماذج رفيعة لاحترام الكتاب و السنة ، و لايلام مسلم تبع واحدا منهم ، كما لا تلامون انتم في قناع الشوكاني لو الالباني او الصنعاني ... الخ .

الرأي عندي أن المأساة (خلقية) ، لا علمية ، و أولى بكم أن تتواضعوا لله و تصلحوا نيتكم معه ¹ . و يتحدث عن جهوده في مواجهة خطر هذا التيار الزاحف الذي شمل مختلف البقاع و الأصقاع و عن آثاره العميقة في المجتمع فيقول : " و قد نددت أنا في كتاب لي بمحاضرة أقيمت في حي الزيتون بالقاهرة تحت عنوان " أبو حامد الغزالي الكافر " و للمكان الذي أقيمت فيه هو مقر السلفية ! و الطلبة السلفيون في جامعة الأمير عبد القادر بالجزائر يقولون عن مالك، بن أنس : إنه يفضل عمل أهل المدينة على حديث رسول الله قلت لهم : هذا كذب ، إن مانكا - رضي الله عنه - يرى عمل أهل المدينة أدل على سنة رسول الله من حديث واحد قد يحفظ أو ينسى ، قد يخطئ أو يصيب !... و قد لاحظت ثلاث ثمار مرة لهذا العلم المغشوش ، الأولى أن بعض الطلاب الذين لا يحسنون إعراب جملة يقولون عن الأئمة المتبوعين : هم رجال و نحن رجال ، و الثانية أن نفرا من العمال و الفلاحين فرطوا في أعمالهم الحرفية ، أو الفنية ، مكتفين في إثبات تدينهم بثوب قصير و لحية مشوشة ، و حمل العصا حيناً ، أو ارتداء عمامة ذات ذنب عندما تكون " المشيخة " قد ثبتت لصاحبها ، أما الملاحظة الثالثة ، هو خطر ما شديد فإن عملاء روسيا و أمريكا أيقاظ في محاربة الإسلام ، يجتهدون في إبراز الجماعات المتطرفة ، لأنها وجه ذميم للإسلام و دعاية حقيقية ضده ² .

و يقول عنهم في أحد مؤلفاته : " و في عصرنا ظهر فتيان سوء يتناولون على أئمة الفقه باسم الدفاع عن الحديث النبوي ، مع أن الفقهاء ما جادوا عن السنة ، و لا استهانوا بحديث " ³ و يتساءل الشيخ عن الفائدة المرجوة من وراء الطعن في العلماء ، و تجديد العراك بين الموتى و ضرب آراء بعضهم بآراء البعض الآخر بدعوى أن هؤلاء من السلف و هؤلاء من الخلف ، ترك الإسلام في حلبة الصراع وحيدا تنهشه ذئاب مسعورة ضارية من المستعمرين و المستشرقين و المبشرين و المستغربين من بني جلدتنا ، يقول : " و واجبت في هذا العصر الأجدد العراك بين الموتى ، و ألا نجتزئ الخلافات القديمة ، لنقطع بها أرحام المؤمنين ... ماذا يكسبه السلفيون من شتم الأشعري و الرازي و الغزالي و القرطبي

¹ - سر تاخر العرب و المسلمين : محمد الغزالي ، ص 92 ، 91 .

² - المصدر السابق : ص 54 .

³ - السنة النبوية بين أهل الفقه و أهل الحديث محمد الغزالي ص 15

و بقية علماء المسلمين ؟ كذا في الجامع الأزهر ونحن طلاب صغار نعرض رأي السلف
والخلف ، و قد ألفت كتابي " عقيدة المسلم مؤثرا مذهب السلف ، بيد أنني ما فكرت في
تأليف فرقة لتسم الأشعري و سائر الخلف ، و شغل المسلمين بمحاربة الموتى ، و إلقاء
محاضرة في تكفير الغزالي باسم السلف !¹
- العقيدة :

رغد تصريح الشيخ الغزالي بعقيدته السلفية إلا أنه و من باب ردم الفجوات التي
تفصل بين الشباب المسلم ، و لكونه داعية يخاطب كل أصناف المدعوبين فقد تطرق إلى
موضوع العقيدة بين السلف و الخلف ، و صال و جال فيه تماما كما فعل ابن الجوزي²
و أكد على أن هذا الخلاف لم يكن له وجود عندما كانت الأمة تؤدي رسالتها ، و إنما ظهر
هذا الوباء عندما تخلى المسلمون عن أداء رسالتهم³ .

و إنسان يرى أن المنهج الذي طرق به الغزالي الموضوع هو نفسه الذي سار عليه
ابن الجوزي من قبله ، و يتضح ذلك في محاولته الجمع بين رأي السلف و الخلف لتوحيد
سواد الأمة فاسمع إليه كيف رد على القائل الذي قال له : " لكن اباينا اختلفوا بعد ما فكروا
ما نستطيع إنكار ذلك، و في البلاد من يتعصب للسلف الذين أقرروا الآيات على ظاهرها
و فيهم من يتعصب للخلف الذين أولوها و التمسوا لها معاني معقولة ، فماذا نصنع ؟ قلت :
إن للتعصب الأعمى مرفوض ! إن السلف و الخلف جميعا يسبحون بحمد ربهم و يقصدون
له ، و يرجون رحمته و يخافون عذابه ، إنهم جميعا يؤمنون بوجوده ... و عبارات السلف
والخلف تتجه كلها إلى تلك الغاية " ⁴ .

و نظرا لاتفاق كل من ابن الجوزي و الشيخ الغزالي في الاستغفال بدعوة الجماهير
و قيادتها إلى الله - عز و جل - فإننا نرى ضرورة اتفاقهما في النظرة لهذا الموضوع
و هذا الذي ظهر لنا فعلا من خلال كلام الرجلين فيه ، و اسمع إليه و هو يشرح مذهبه
العقدي و كأنه يعبر على لسان ابن الجوزي أو كأن ابن الجوزي عاد ليتكلم على لسانه قال :
" و قد ملت إلى رأي السلف ، و ظهر ذلك في كتابي " عقيدة المسلم " غير أنني بعد مزيد من

¹ السنة النبوية من أهل الفقه و أهل الحديث : محمد الغزالي ص 59 .

² - انظر للعقل الموضوع في فصل حياة ابن الجوزي ، مبحث مذهبه العقدي ، و صيد الخاطر : 76 ، 114 ، 115 ، 116 ، 118
و من 181 إلى 185 ، 266 ، 324 ، 336 ، 419 ، 476 .

³ - مشكلات في طريق الحيات الاسلاميه : محمد الغزالي ص 118

⁴ المصدر السابق ص : 120

الاستقصاء و البحث رأيت أن التفويض مطلوب ما لم يشعر بتجسيم ، و أن التأويل مطلوب ما لم ينقته بتعطيل ، و بناء على ذلك رفضت مسلك المعتزلة - تأثرا بالفلسفة الإغريقية - أعطوا صورة مشوهة عن الألوهية ، و رفضت مسلك الغلاة من بعض الحنابلة لأنهم كادوا ينتهون إلى التجسيم ، و عدت إلى كلام الأئمة و العلماء على امتداد العصور فرأيت بعضه يصدق بعضا ، أو يكاد ، و رأيت الشقة قريبة بين المروي عن السلف و الخلف ، و أنه لا مكان لمعارك دامية بين هؤلاء و أولئك .¹

و بعد تحليل الغزالي للمسألة تحليلا وافيا ، يرى بعنف شديد على الذين أغرقوا في التفويض إلى درجة التجسيم فيقول : " و في الجهة المقابلة نجد صنفا آخر يدعى التفويض و السلفية و ينتبع الأخبار التافهة ذات الأسانيد المظلمة ، و يستقي منها العقائد و يجوي وراء نص هنا و نص هناك فيطوي المسافة بينهما ليخرج آخر الأمر بضرب من التجسيم لا يعرفه المسلمون من سلف أو خلف ."²

و بعد أن صال الشيخ و جال في بسط الموضوع و تحريره ختم كلامه بالدفاع عن الإمام أحمد - رضي الله عنه - و لم يجد بدا من الرجوع إلى رأي ابن الجوزي في المسألة فقال : " و سنقرأ لابن الجوزي من كتابه " صيد الخاطر " تعليقا على مسلك هؤلاء الحمقى قال : عجبت من أقوام يدعون العدم و يميلون إلى التشبيه بحملهم الأحاديث على ظواهرها فلو أنهم امرؤوها كما جاءت أسلموا ، لأن من أمر ما جاء من غير اعتراض و لا تعرض فما قال شيئا ، لاله و لا عليه ..."³

و لما كان الشيخ الغزالي يعلم أن ابن الجوزي قد تعقبه في ذلك العصر بعض " غلاة الحنابلة " كما أطلق عليهم انبرى يدافع عنه و يبرر مقالته ، و من جملة ما قاله : " ربما فهم من هذا السياق أن ابن الجوزي من محبذي التأويل و دعائه ، و أنه إن لم ينتم إلى الخلف فقد انتهج نهجهم و سار على دربهم ! و هذا غير صحيح ! و سننقل له هنا حملة عنيفة على المؤولين إن الرجل يرفض التشبيه و ما يؤدي إليه ، و يريد التمشي مع النصوص في نطاق الأصليين : للنقلي و العقلي "⁴ .

و راح الشيخ بعدها يسرد نصوصا لابن الجوزي في حملته على المؤولين ، بعدها

¹ - مشكلات في طريق الحياة الإسلامية : محمد الغزالي ص 124 .

² - المصدر السابق : ص 125 .

³ - نفس المصدر : ص 126 و الكلام قاله ابن الجوزي في صيد الخاطر : ص 83 .

⁴ - المصدر نفسه ص 128 .

عَبَّ الشَّيْخُ عَلِيَّ أَرَاءَ ابْنِ الْجَوْزِيِّ وَ نَاصِرِهِ وَ أَدَبَ قَوْلَهُ وَ بَرَّرَ اضْطِرَّارَهُ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : " إِنْ نَقَادَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ اتِّمَمَهُ بِالْتَنَاقُضِ ! وَ هَذَا ظَلَمٌ لِلرَّجُلِ ، فَهُوَ شَدِيدُ الْحِرْصِ عَلَى حَقَائِقِ الدِّينِ وَ عَلَى تَنْزِيهِهِ اللَّهُ وَ تَمْجِيدِهِ ، فَدَكَانَ إِزَامًا عَلَيْهِ أَنْ يَنْقُذَ الْإِسْلَامَ مِنْ صَنْفَيْنِ خَطِيرَيْنِ : أَصْحَابِ التَّصْوِيرِ الْمَادِيِّ السَّادِجِ الَّذِينَ يَفْهَمُونَ الْإِكْوَاهِيَةَ بِخِيَالِ الْأَطْفَالِ وَأَصْحَابِ التَّجْرِيدِ الْعَقْلِيِّ الَّذِينَ يَمْوَزُونَ الْإِكْوَاهِيَةَ مَفْهُومًا يَرْتَفِعُ وَ يَرْتَفِعُ ، وَ لَا يَزَالُ يَرْتَفِعُ حَتَّى يَغِيْبَ عَنِ الْأَنْظَارِ وَالْأَفْكَارِ " ¹ وَ بَعْدَمَا دَافَعَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ وَ اطْمَأَنَّ أَنَّهُ اسْتِرَاحَ مِنْ عِبَاءِ هَذِهِ الْمَهْمَةِ ، أَعَانَ نَصْرَتَهُ إِيَّاهُ الرَّايَ الَّذِي جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ تَأْوِيلِ الْخَلْفِ وَ تَقْوِيضِ السَّلْفِ ، وَ هُوَ رَأْيٌ لَا يَكَادُ يَخْرُجُ عَنِ مَا قَالَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ وَ شَرَحَهُ فِي مَوْلَفَاتِهِ فَقَالَ : " وَ مَا دَامَ التَّأْوِيلُ ضَرُورَةً فِي شَرْحِ بَعْضِ النُّصُوصِ ، وَ مَا دَامَ السَّلْفُ وَ الْخَلْفُ قَدْ اضْطَرُّوا إِلَيْهِ جَمِيعًا ، فَنَحْنُ مَعَ السَّلْفِ نَفُوضُ رَافِضِيْنَ التَّحْسِيْمِ ، وَ مَعَ الْخَلْفِ نُوَوِّلُ رَافِضِيْنَ التَّعْطِيلِ " ² ، وَ هَكَذَا خَرَجَ الشَّيْخُ الْغَزَالِيُّ مِنَ الْبَابِ الْوَاسِعِ وَ أَخْرَجَ ابْنَ الْجَوْزِيِّ مِمَّا كَانَ يَظُنُّهُ بِهِ أَدْعِيَاءَ كَثِيرُونَ مِمَّنْ انْتَقَدَهُ دُونَ تَمْحِيصِ وَ تَدْفِيقِ .

، - عَمَ الْخُرُوجِ عَلَى الْحَاكِمِ :

لَقَدْ كَانَتْ مَسْأَلَةُ طَاعَةِ الْإِمَامِ وَ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ مِنَ الْقَضَايَا الَّتِي أَثَارَتْ جَدَلًا كَبِيرًا بَيْنَ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ مِنْذُ الْعَصُورِ الْأُولَى ، وَ ذَلِكَ نَظَرًا لِلْحَوَادِثِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي حَدَّثَتْ عِبْرَ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ الطَّوِيلِ ، وَ قَدْ تَضَارَبَتْ أَرَاءُ الْعُلَمَاءِ بَيْنَ مُؤَيِّدِ الْخُرُوجِ وَ مُعَارِضِ لَهُ وَ لَا بَأْسَ أَنْ أَذْكَرَ رَأْيَ أَحَدِ الْعُلَمَاءِ الْأَعْلَامِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ - وَ هُوَ الْإِمَامُ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ - وَ ذَلِكَ لِانْسِجَامِهِ مَعَ سِيَاقِ كَلَامِنَا فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ .

قَالَ : " اسْتَدَلَّ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِهَذِهِ الْآيَةِ (وَ إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَّهِنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) ³ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ وَ الْفَضْلِ مَعَ الْقُوَّةِ عَلَى الْقِيَامِ بِذَلِكَ ، وَ هُوَ الَّذِي أَمَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ - أَلَّا يَنْزَعُوا الْأَمْرَ مِنْ أَهْلِهِ . فَأَمَّا أَهْلُ الْفُسُوقِ وَ الْجُورِ وَ الظُّلْمِ فَلْيَسْأَلُوهُ بِأَهْلِ لِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (لَا يَنْالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) وَ قَالُوا وَ لِهَذَا خَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الزُّبَيْرِ وَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلِيَّ بَنِي أُمَيَّةٍ وَ خَرَجَ خِيَارُ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَ عُلَمَاؤُهُمْ عَلَى الْحِجَاجِ وَ أَخْرَجَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بَنِي أُمَيَّةٍ وَ قَامُوا عَلَيْهِمْ فَكَانَتْ الْحَرَّةُ الَّتِي أَوْقَعَهَا بِهِمْ حَقْبَةً

¹ - مَشْكَالَاتُ فِي طَرِيقِ الْحَيَاةِ الْإِسْلَامِيَّةِ : مَعْدُ الْغَزَالِيُّ ، ص 130 .

² المصدر السابق ص 130

³ البقرة 123

و الذي عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه ، لأن في منازعته و الخروج عليه استبدال الزمن بالخوف ، و إزاحة الدماء ، و انطلاق أيدي السفهاء و شن الغارات على المسلمين و الفساد في الأرض ، و الأول مذهب طائفة من المعتزلة ، و هو مذهب الخوارج فأعامة الخوارج .

أما بالنسبة لابن الجوزي فمن خلال تتبعنا لعلاقته بالحكام و الخلفاء رأينا أنه لم يكن من الذين يحدّون الاتصال بالحكام و التنازل لهم لئلا منحهم ، كما أننا لم نجد له أي نص يدعو فيه بالتصريح أو التامع للخروج عليهم ، و إن كان هذا الموقف لم يكن ليمنعه من نصحهم و وعظهم كما سبق و أن رأينا ، و أمل ابن الجوزي — و الله أعلم — قد نهج هذا النهج لمصلحة الدعوة و الدين لا غير ، و هذا النهج نفسه هو الذي سار عليه الشيخ الغزالي حيث لم يكن — رحمه الله — من الذين يغلفون الدين بالسياسة، و يزيّتون السياسة بالدين ليدخل بعد ذلك في صراعات لا نهاية لها مع الحكام و يكون الخاسر الأول فيها الدعوة الإسلامية و الرابع الأول أعداء الإسلام ، الذين يرون في هذه العلاقات بين حكام المسلمين و شعوبهم انتصارا ثميناً لهم دون أن يبذلوا أي مجهود فيه .

يقول الشيخ مبرزا رأيه بصراحة في المسألة : " و نحن نرفض الخروج المسلح على الدولة و نشاعم من الثورات العمياء التي يثيرها أناس في موازينهم العلمية و الخلقية عوج و اضطراب " ¹ و لكنه يرى أن الأمر دائما يحتاج إلى تفكير و أناة ، فإذا كان الخروج مرفوض فكذاك السمع و الطاعة ليس من القدر النازل من السماء يقول موضحا: " لكن هل يعني ذلك أن نفسر السمع و الطاعة في جميع الأحوال بأنهما لفلان ؟ و أن مقتضى ذلك قبول غشمة ، و الركون إلى شخصه ؟ .. و لا نحب الوقوف على أطلال الماضي لنأسى و نتحسر ، و إنما نريد علاج الحاضر بفقّه إسلامي و اع ، فإن بعض الشيوخ لا يفهم الحكم إلا سلطة لا تسأل عما تفعل ، و رعية ينبغي أن تصبر على قدرها ، و تقبل كل ما ينزل بها

¹ - الحرة : أرض بظاهر المدينة لما حجارة سود كثيرة ، و يوم الحرة وقع يوم ترويض من معونة لما ذهب عسكريه من أهل الشام المدينة المنورة ، و قتلوا خلقا من الصحابة و التابعين ، انظر المنظم 12 / 0 - الأناضول في التاريخ : 3 / 455 .

² - الجامع لأحكام القرآن : لأن عبد الله القرطبي ، مج 2 ، 108 ، مسأله الخادمه و العتقون — و انظر تفصيل الموضوع في كتاب الفضائل الثلاث ، تفسير المنكر ، الحرة ، الخروج على الحاكم ، تحقيق شاذلية : محمد رأفت عثمان ، دار الفضيلة ، دبي الإمارات العربية المتحدة ، ط 1 ، 1410 هـ 1989 م ، ص 45 ، و المؤلف سطر المسألة و أورد آراء الكثير من العلماء فيها ، و رجع

المبحث الثالث

تأثير ابن الجوزي في ميدان العلم

كما كان لابن الجوزي تأثيره على العلماء في مجال الدعوة والإصلاح؛ وجدناه قد ترك بصماته الواضحة في مجال العلم، فقد صارت مصنفاته المتعددة المائدة الشبيهة ينتقى منها العلماء ما لذ وطاب من صنوف أطباق الفكر والثقافة في شتى مجالات العلوم الإسلامية والإنسانية و ساخص بالذكر بعض العلوم التي كان تأثير ابن الجوزي على العلماء فيها واضحا وجليا. و أول هذه العلوم علم التاريخ والتراجم والسير؛ الذي صنّف فيه ابن الجوزي كتبا عديدة¹ منها المطول ومنها متوسط الطول.

و من مظاهر تأثير ابن الجوزي في المورخين و علماء التراجم والسير أن الذين جاؤا من بعده اعتمدوا كثيرا على كتابه "المنتظم"، الذي يعتبر من أهم ما كتب ابن الجوزي لكونه موسوعة شاملة جمع فيه المؤلف العديد من صنوف العلم، حيث اشتمل على التاريخ العام والخاص والتراجم والسير والمناقب والجرح والتعديل والمواعظ و نكر فيه الكثير من الوثائق والقرارات السياسية الهامة التي كان يتخذها الخلفاء والسلاطين.

و قد لاقى الكتاب عناية كبيرة من العلماء قديما وحديثا، ففي حياة ابن الجوزي اختصره - رحمه الله بنفسه - و سماه "شذور العقود في تاريخ العهود" أضاف إليه حوادث أربع سنوات، ثم اختصره بعد ذلك الشيخ علاء الدين علي بن محمد المعروف بـ "مصنّفك" و سماه: "مختصر المنتظم و منقط الملتزم" و قد انتقد المؤلف الكتاب و صرح بما يوجد فيه من أغلاط و أوهام، كما وضع العلماء تذييلات للكتاب استدركوا فيها على ابن الجوزي ما فاتته من حوادث و تراجم في عصره و بعد عصره و من أهمها كتاب "الفاخر في ذكر حوادث أيام الإمام الفاضل محمد بن محمد القادسي المتوفى سنة 634 هـ، و يقع في ست مجلدات، و كتاب "ذيل على كتاب المنتظم" للإمام العز أبو بكر محفوظ ابن معنوف ابن البزروي المتوفى سنة 691 هـ².

و من أبرز الذين أعجبوا بابن الجوزي و تأثروا بكتابه "المنتظم" و استفادوا منه

¹ - انظر فصل آثار ابن الجوزي.

² - انظر المنتظم: مقدمة المؤلفين، محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطا، 1 / 44.

كثيرا الإمام ابن كثير - رحمه الله - ، وقد عثر عن إعجابه بابن الجوزي قائلا : " ولم يزل يورخ أخبار العالم حتى صار تاريخا " 1 ، و مما قاله عند ترجمته لابن الجوزي : " وله كتاب " المنتظم " في تواريخ الأمم من العرب والعجم في عشرين مجلدا ، وقد أوردنا في كتابنا هذا كثيرا منه ، من حواشيه و تراجمه " 2 لذلك فقد ملأ كتابه " البداية و النهاية " بما نقله عن ابن الجوزي في " المنتظم " ، و لا أكون مغاليا لو زعمت أن " البداية و النهاية " لابن كثير ما هو إلا توسعة و شرح لكتاب " المنتظم " ، و ذلك لكونه جاء أكبر منه حجما نوعا ما إذ لا يكاد يمر بك جزء من أجزائه إلا و يرد فيه ذكر اسم ابن الجوزي عشرات المرات ، و كمثل على ذلك نجد ابن كثير يذكر اسم ابن الجوزي في الجزء الثاني عشر من البداية و النهاية أكثر من مائة مرة ، هذا مما صرح به و ما لم يصرح به يكاد يكون مثله ، و حتى لا يطول بنا المقاد أذكر في هذا المجال مثلا واحدا مختصرا مما صرح به و مثلا واحدا مما لم يصرح به على سبيل التوضيح .

فمما صرح به قوله في حوادث 561 : " وممن توفي فيها من الأعيان ، عيسى بن هبة الله ابن عيسى أبو عبد الله النقاش ، سمع الحديث ، مولده سنة سبع و خمسين و أربعمائة قال ابن الجوزي : " وكان ظريفا خفيف الروح ، له نوابر حسنة ، رأى الناس و عاشر الأكياس و كان يحضر مجلسي ، ويكاتبني و أكايبه " 3 ، ونفس هذا الكلام عند ابن الجوزي مع بعض التصرف .

و مما لم يصرح به و أصله موجود في " المنتظم " ، قوله في حوادث 561 هـ : " وممن توفي فيها : عبد الوهاب بن محمد بن عبد الواحد بن محمد الشيرازي الفاسي ، سمع الحديث الكثير ، و تفقه ، و ولاه نظام الملك تدريس النظامية ببغداد في سنة ثلاث و ثمانين - أي و أربعمائة - فدرس بها مدة ، و كان يعلو الأحاديث ، و كان كثير التصحيف " 4 . و لعل ما ذكرناه يظهر لنا بشكل واضح اهتمام المؤرخين بتراث ابن الجوزي في التاريخ و السير .

كما كان لابن الجوزي تأثير على العلماء في مجال التفسير و علوم الحديث ، و إن كان تأثيره في علوم الحديث أوسع منه في علم التفسير و مع ذلك لم تخل كتب عدد لا بأس

1 - البداية و النهاية : ابن كثير ، 28 / 13 .

2 - المصدر السابق : 28 / 13 .

3 - المنتظم : 75 / 18 - البداية و النهاية : 228 / 12 .

4 - البداية و النهاية : 12 / 168 والكلام نفسه في المنتظم : 104/17

به من المفسرين من أقوال ابن الجوزي و ترجيحاته ، و من أبرز من نقل عن ابن الجوزي في تفسيره الإمام ابن تيمية - رحمه الله - حيث اعتمد عليه في تفسيره اعتمادا كبيرا و كان من أكثر المصادر التي تكرت في تفسيره ، فكان بصرح بنقله من تفسير ابن الجوزي و يوافقه على ما ذهب إليه في كثير من الأحيان ، و يناقشه ويرد عليه في أحيان أخرى ، و لكنه في بعض الأحيان لا يصرح بنقله ، و من الأمثلة على ذلك قول ابن تيمية - رحمه الله - في تفسيره لقوله - تعالى - (و أنزلنا إليكم نورا مبينا)¹ : فالنور المبين المنزل يتناول القرآن ، قال قتادة : بيّنة من ربكم ، و قال الثوري : هو النبي - صلى الله عليه و سلم - قال البغوي : هذا قول المفسرين ، و لم أجده منقولا عن غير الثاني ، و لا ذكره ابن الجوزي عن غيره ، و ذكر - أي ابن الجوزي - في البرهان ثلاثة أقوال أحدها : أنه الحجة ، والثاني : أنه الرسول - صلى الله عليه و سلم - و ذكر أنه القرآن عن قتادة ...

ثم قال ابن تيمية : و الذي رواه ابن أبي حاتم عن قتادة بالإسناد الثابت أنه بيّنة من الله تعالى و البيّنة و الحجة تتناول آيات الأنبياء - عليهم الصلاة و السلام - التي بعثوا بها فكل ما دل على نبوة محمد - صلى الله عليه و سلم - فهو برهان² وهذا الذي نقله ابن تيمية عن ابن الجوزي موجود في تفسيره .

و لكننا نجد ابن تيمية في بعض الأحيان يناقش ابن الجوزي و يستدرك عليه ما لم يذكره من الأقوال الراجعة ففي تفسير سورة " الناس " مثلا يقول ابن تيمية : " قوله تعالى (من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة و الناس)³ فيها قول و لم يذكر ابن الجوزي إلا قولين ، و لم يذكر الثالث ، و هو الصحيح ، و هو أن قوله - تعالى - (من الجنة و الناس) لبيان الوسواس ، أي الذي يوسوس من الجنة ، و من الناس في صدور الناس ، فإن الله - تعالى - قد أخبر أنه جعل لكل نبي عدوا شياطين الإنس و الجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا⁴ ، و أبحاؤهم هو وسوستهم

¹ - النساء : 174 .

² - مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية : جمع و ترتيب عبد الرحمن بن محمد بن فاسه ، 15 / 80 - زاد المسير : 2 /

227 .

³ - الناس : 4-6

⁴ - أصل الكلام (انا جعلنا لكل نبي عدوا..) الأنعام : 112

وليس من شرط الموسوس أن يكون مستترا عن البصر بل قد يشاهد¹، ومما نقله ابن تيمية عن ابن الجوزي و لم يشر إليه ، ما قاله عند تفسيره لقول الله - سبحانه وتعالى - : (و لا تفتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم و إياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا)² حيث لورد ما ذكره ابن الجوزي في تفسير الآية برمته³.

و ممن نقل عن ابن الجوزي في تفسيره الإمام الخازن⁴ في كتابه " لباب التأويل في معاني التنزيل " ، ومن جملة ما نقله ما ذكره في تفسير سورة الرعد قال : " قال ابن الجوزي : اختلفوا في نزولها على قولين ، أحدهما : أنها مكية رواه أبو طلحة عن ابن عباس ، و به قال الحسن ، و سعيد بن جبير و عطاء و قتادة ، و روى أبو صالح عن ابن عباس : أنها مكية إلا آيتين : إحداهما قوله تعالى : (و لا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة)⁵ و الأخرى : قوله تعالى : (و يقول الذين كفروا لست مرسلًا)⁶ ، و القول الثاني : أنها مدنية ، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس ، و به قال جابر بن زيد ، و روي عن ابن عباس - رضي الله عنهم أجمعين - أنها مدنية إلا آيتين نزلتا بمكة ، و هما : قوله تعالى : (و لو أن قرآنا سیرت به الجبال)⁷ إلى آخر الآيتين ، و قال بعضهم : المدني منها قوله تعالى : (هو الذي يرجم البرق .. إلى قوله .. له دعوة الحق)⁸ .

و ممن أخذ عنه الإمام القرطبي في تفسيره " الجامع لأحكام القرآن " ، حيث أورد صفحات من كلام ابن الجوزي في موقفه من المتصوفة و وافقه عليه⁹ .
و من الذين نقلوا عن ابن الجوزي الإمام السيوطي - رحمه الله - ، الذي جعل كتب

¹ انظر فتاوى ابن تيمية : 17 / 400 - و انظر زاد المسير : 8 / 330 .

² الإسراء : 32 .

³ انظر زاد المسير : 24/9 ، 211/4 ، و مجمع فتاوى ابن تيمية : 20 / 20 ، و لا حصة لإضافة لأب بالعين كاملين .

⁴ الخازن : هو علي بن محمد بن إبراهيم علاء الدين المشهور بالعلامة ، من فقهاء النجاشية ، و تفسروا عمدة ولد بغداد و سكن

دمشق كان خازن الكتب بالمدرسة الـ مسماطة فيها ، توفي نحو سنة 711 هـ . انظر ترجمته الأعلام : 9 / 9 .

⁵ - الرعد : 31 .

⁶ - الرعد : 43 .

⁷ - الرعد : 31 .

⁸ - الرعد : 11 لل 14 ، انظر لباب التأويل في معاني التنزيل : للخازن دار الفكر ، دت ، 3 / 48 ، و زاد المسير : 4 / 223 ،

و انظر ما نقله الخازن في تفسيره عن ابن الجوزي : 1 / 337 ، 273 ، 130 ، 143 - 2 / 48 ، 68 ، 266 ، 90 ، 198 - 2/3

94 ، 104 ، 406 - 4 / 206 ، 208 ، 311 .

⁹ - لأحكام القرآن : لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي . مج 2 ، 3 / 417 ، مج 4 ، 7 / 197 .

ابن الجوزي في التفسير وعلوم القرآن من مصادر كتابه الإتيقان في علوم القرآن " و قد صرح في مقدمته بكتب ابن الجوزي التي اعتمدها في كتابه و هي : " فنون الأفتان في علوم القرآن " و " النقيس " و " زاد المسير " و مما نقله عنه من " زاد المسير " ما قاله في الإتيقان في النوع التاسع و العشرين في بيان الموصول لفظا المفصول معنى : " و قال ابن الجوزي في كتابه " التفسير " : قد تأتي للعرب بكلمة إلى جانب كلمة أخرى كأنها معها ، و هي غير متصلة بها ، و في القرآن : (يريد أن يخرجكم من أرضكم) هذا قول الملاء ، فقال فرعون : (فلماذا تأمرؤن)¹ ، و هذا الذي ذكره السيوطي موجود في " زاد المسير " قال ابن الجوزي في تفسير قوله تعالى : (ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين)² ، و اختلفوا في القائل لهذا على ثلاثة أقوال أحدها : أنه يوسف — على نبينا و عليه الصلاة و السلام — و هو من أغمض ما يأتي من الكلام أن تحكى عن شخص شيئا ثم تصله بالحكاية عن آخر ، و نظير هذا قوله تعالى : (يريد أن يخرجكم من أرضكم)³ هذا قول الملاء (فلماذا تأمرؤن) قول فرعون ، و مثله : (و جعلوا أعزة أهلها أذلة) هذا قول بلقيس (و كذلك يغطون)⁴ قول الله تعالى ، و مثله : (من بعثنا من مرقدنا) هذا قول الكفار ، فقالت الملائكة : (هذا ما وعد الرحمن)⁵ ، و إنما يجوز مثل هذا في الكلام لظهور الدلالة على المعنى " .

و كما تأثر الإمام السفاريني بابن الجوزي في ميدان الوعظ ، فقد تأثر به من ناحية التفسير فنقل عنه الكثير من الآراء و الأقوال ، و من ذلك قوله في كتابه " غذاء الألباب " :⁷ " مطلب هل تغفر خطيئة من صحت توبته فقط أم تغفر و يعطى بدلها حسنة ؟ ظاهر الأدلة من الكتاب و السنة الأولى ، و هو حصول المغفرة خاصة ، و هذا ظاهر كلام أصحابنا و غيرهم . و أما قوله تعالى : (فأولئك يبذل الله سيناتهم حسنات)⁸ فقال ابن الجوزي :

¹ - هذه العبارة و التي سقتا من سورة الأعراف : 110 .

² - يوسف : 52 .

³ - الأعراف : 110 .

⁴ - فصل : 34 .

⁵ - هذه العبارة و التي قبلها من سورة يس : 52 .

⁶ - نظر زاد المسير : 4 / 181، 182 — الإتيقان في علوم القرآن : ج 1، ص 105، السيوطي ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، دار

المطبع ، عين شبة ، الجزائر 1 / 282 ، 283 .

⁷ - غذاء الألباب : السطرين ، 2 / 461 و النص كله في زاد المسير : ص 26 .

⁸ - الفرقان : 70 .

اختلغا في كيفية هذا التبديل ، و في زمان كونه ، فقال ابن عباس - رضي الله عنهما - :
يبدل الله تعالى شركهم إيماناً و قلبهم إمساكاً ، و زناهم احصاناً . قال و هذا يدل : أولاً على
أنه يكون في الدنيا ، و ممن ذهب إلى هذا المعنى سعيد بن جبير ، و مجاهد و قتادة و الضحاك
و ابن زيد . و الثاني : أن هذا يكون في الآخرة قاله سلمان - رضي الله عنه - و سعيد
بن المسيب ، و علي بن الحسين ، و قال عمرو بن مهران : يبدل الله - عز
و جل - سيئات المؤمن إذا غفرها له حسنات ، حتى إن العبد يتمنى أن تكون سيئاته أكثر
مما هي . و عن الحسن كالقولين ، قال ابن الجوزي : و يؤكد هذا القول حديث أبي ذر -
رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : إني لأعلم آخر أهل الجنة
يدخلوا الجنة و آخر أهل النار يخرج منها ، رجل يوتى به يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا
عليه صفار ذنوبه ، و لرفعوا عنه كبارها ، فتعرض عليه صفار ذنوبه ، فيقال عملت يوم
كذا و كذا ، كذا و كذا ، و عملت يوم كذا و كذا ، كذا و كذا ، فيقول : نعم . لا يستطيع أن
ينكر ، و هو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه ، فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة
حصلة ، فيقول رب قد عملت أشياء لا أراها هنا ، فلقد رأيت رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - ضحك حتى بدت نواجذه ¹ .

و من المتأخرين عن عصر ابن الجوزي الذين نقلوا من تفسيره، الإمام الألويسي²
- رحمه الله - ، الذي جمع في تفسيره زيادة تفاسير من سبقه من العلماء و من جملتهم
تفسير ابن الجوزي الذي نقل منه الكثير³ ، و كمل على نقله و استفادته من " زاد المسير " ما
ذكره في تفسير قوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى و زيادة)⁴ و " زيادة " و هي النظر
إلى وجه ربهم الكريم - جل جلاله - ، ثم سرد الأدلة على ذلك ، و صوب هذا القول
و رجحه و قال : " نعم جاء في تفسير ذلك غير ما ذكر ، لكن ليس في هذه الدرجة من
الصحة ، و لا رفع فيه صريحا " ثم سرد ما قبل من تلك الأقوال و جملتها خمسة :

¹ صحيح مسلم : 1 / 177 ، كتاب الإيمان : باب أدق أهل الجنة منزلة فيها رقم 100 .

² الألويسي : هو شهاب الدين ، محمد بن عبد الله الألويسي مفسر مشهور ، من أهل العراق . صاحب التفسير المشهور ، الذي

استغرق فيه 15 سنة ، و الألويسي نسبة إلى بلدة ألويس على الفرات . توفي سنة 1270 هـ . انظر الأعلام 7 / 176 .

³ روح المعاني في تفسير القرآن و السبع المثاني : الألويسي ، دبر الفكر ، بيروت ، 1403 هـ ، 1983 م ، انظر هذه القول في المجلد

4 ، 184/12 ، المجلد 5 ، 238،68/13 ، 141/14 ، 15، 15، 320، 130 / 4 ، تفسير سورة يوسف

الآية 5 ، 4 / 221 ، سورة يوسف الآية 109 ، 4 / 269 ، سورة إبراهيم الآية 36 ، 4 / 326 ، سورة النحل الآية 38 ، 5 / 5

سورة الإسراء الآية 2 ، سورة الكهف : 65 ، 5 / 118 .

⁴ - يونس : 27 .

الأول : الزيادة هي المغفرة و الرضوان ، و الثاني : تضعيف الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مائة ضعف . الثالث : لا يحاسبهم على ما أعطاهم في الدنيا ، الرابع : ما أخرج عن الحكم بن عتبة عن علي - كرم الله وجهه - : أنها غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب و تعقبه ابن الجوزي : بأنه لا يصح ، الخامس : و قيل إن الزيادة تمر السحابة بهم فتقول : ما تريدون أنا أمطركم فلا يريدون شيئا إلا أمطرتهم .

و قد جمع الإمام الألويسي بين هذه الأقوال مما تقدمت له قال : " لا مانع من أن يعن الله - تعالى - عليهم بكل ما ذكر و يصدق عليه أنه زيادة على ما من به عليهم من الجنة " 1 . و أورد الألويسي عند تفسيره قول الله - سبحانه - : (و أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا و لكن أكثر الناس لا يعلمون) 2 ما نقل عن ابن الجوزي و ابن أبي العالبي أن هذه الآية نزلت لأن رجلا من المسلمين تقاضى ديناً على رجل من المشركين ، فكان فيما تكلم به المسلد : و الذي أرجوه بعد الموت ، فقال المشرك : و إنك لتبعث بعد الموت ، و أقسم بالله : لا يبعث الله من يموت ، فقص الله - تعالى - ذلك ، و رده أبلغ رد 3 .

أما في الحديث و علومه فقد كان لابن الجوزي تأثيره الواضح على العلماء ، و ذلك لاستنهار مصنفاته في هذا الفن ، و سنحاول ذكر ما يبين هذا التأثير .
فمن حيث الاهتمام بكتبه فإن كتاب " الموضوعات " يعد المرجع الأكثر رواجاً بين مصنفات الأحاديث الموضوعية ، فقد أثار الكتاب جدلاً كبيراً بين العلماء و الدارسين منذ القرون الأولى من عهد تأليفه و العصور التي تلتها ، فمنهم من لخصه و منهم من شرحه و ذيل عليه ، و منهم من أضاف إليه ما فات المصنف من أحاديث ، و منهم من تعقبه بالنقد و التمحيص ، و يكفي هذا الكتاب و مؤلفه فخراً أنه كان سبباً في تأليف الكثير من المصنفات في هذا العلم ، حيث صنف الإمام الذهبي كتابه " تلخيص الموضوعات " 4 ، كما لخص كتاب " العلل المنتهية في الأحاديث الواهية " ، و قام الإمام السيوطي فعقب عليه بكتاب أسماه " النكت البديعات في الرد على الموضوعات " ، ثم لخصه في كتاب " اللآلئ المصنوعة في الأخبار الموضوعية "

1 - روح المعاني : شهاب الدين الألويسي ، مجلد 4 ، 11 / 102 ، 103 ، و في زاد المسير : 4 / 24 .

2 - العمل : 30 .

3 - روح المعاني : الألويسي ، مجلد 5 ، 14 / 141 ، و زاد المسير : 1 / 326 .

4 - تلخيص كتاب الموضوعات : الذهبي ، دراسة و تحقيق أبو نعيم ياسر بن إبراهيم بن محمد ، مكتبة الرشيد ، الرياض ط 1 .

أضاف إليه بعض الزيادات ، و على هذا الكتاب عقب الإمام أبو الحسن علي بن محمد
ابن عرق بكتاب أسماء " تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة " ¹ ثم
استدرك السيوطي على ما كتبه في اللائح فوضع ذيلا عليه أسماء " ذيل اللائح الموضوعة "
ذيل به مختصره و أضاف إليه بعض الزيادات ² . أما نصيب العلماء و الباحثين في يومنا
هذا فقد قام العديد منهم بتحقيق الكتاب و دراسة منهج صاحبه في الموضوع ³ .

و هكذا بدا لنا أن الكتاب كان له وزنه في هذا المجال و هذا بشهادة العلماء و إشاراتهم بمؤلفه
و بسبقه و مكانته على مر العصور .
و كما صنّف ابن الجوزي - رحمه الله - في الموضوعات صنّف في الجرح
و التعديل كتبا و لعل كتابه " المنتظم " - رغم كونه كتابا في التاريخ - خير شاهد على
تمرسه في هذا العلم و تضلّعه فيه ، و ذلك من خلال سرده لتراجم العديد من رجال الحديث
و رواته ؛ فتكلّم فيهم من حيث الحفظ و التوثيق و الضبط ، أما الكتاب الواضح المعالم الذي
ألّفه في هذا القسم من علوم الحديث فهو كتاب " الضعفاء و المتروكين " ، الذي اعتمد عليه
كثيرا الإمام الذهبي خاصة في كتابيه " ميزان الاعتدال " و " المغني في الضعفاء " ، و قد
أشاد به في مقدمة " ميزان الاعتدال " بقوله : " و صنّف أبو الفرج بن الجوزي كتابا كبيرا
في ذلك - أي في الضعفاء - كنت اختصرته أولا ، ثم ذيلت عليه ذيلا بعد ذيل " ⁴ ، كما
اعتمد على كتاب ابن الجوزي و عدّه من أهم مصانيره في كتابه المغني ، و قد صرح بذلك
في مقدمته ⁵ .

و لكن الذي بدا لنا أكثر وضوحا أن تأثير الإمام الذهبي بابن الجوزي ظهر بجلاء لا
ينكره أي باحث في هذا المجال ، و بخاصة في كتابه الجليل " ميزان الاعتدال " ، حيث
صرّح - رحمه الله - بجملة نقوله من كتاب ابن الجوزي " الضعفاء و المتروكين " و التي
بلغ عددها حوالي 170 مرة ، بين موافق مرة ، و معقب في أخرى ، و معترض عليه حينها
و مقر له شاكر إياه حينها آخر ، و إيمان ذلك لا يأتي من إيراد بعض الأمثلة على سبيل
التوضيح : أولها أن الذهبي في بعض الأحيان يذكر قول ابن الجوزي ثم يتعقبه مفندا إذا

¹ - انظر كتاب الموضوعات : ص 23 و انظر كذلك فصل آثار ابن الجوزي .

² - كتاب الموضوعات لابن الجوزي دراسة في المنهج و المصادر : أحمد عطا إبراهيم حسن ، ص 83 .

³ - لمعرفة هذه التحقيقات و الدراسات حول ابن الجوزي و آخيه انظر فصل آثار ابن الجوزي .

⁴ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال : الذهبي ، 2 / 1 .

⁵ - المغني في الضعفاء : الذهبي ، محمد أبو الزهراء حلوم القاضي ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط 1418هـ / 1997م / 10 .

تضع له من خلال القرائن أن ما قاله ليس صواباً قال الذهبي: أبان بن يزيد العطار أبو زيد البصري حافظ صدوق إمام، ثم ذكر قول ابن عدي فيه: هو حسن الحديث متماسك بكتب حديثه، و عامتها مستقيمة، و أرجو أنه من أهل الصدق، و عقب عليه بقوله: قلت بل هو ثقة حجة ناهيك أن أحمد بن حنبل ذكره فقال: كان ثبتاً في المشايخ، و قلل ابن معين و النسائي: ثقة وقد أوردته - أيضاً - العلامة أبو الفرج بن الجوزي في الضعفاء و لم يذكر فيه أقوال من وثقه، و هذا من عيوب كتابه، يسرد الجرح، و يسكت عن التوثيق، و لولا أن ابن عدي، و ابن الجوزي ذكرا أبان بن سعيد ما أوردته أصلاً¹.

و أحياناً يثنى على قول ابن الجوزي دون أن يورد مقالته، كقوله: " عفان بن مسلم الصغار الحافظ الثابت الذي يقول فيه يحيى القطان - و ما أتراك ما يحيى القطان - إذا وافقني عفان لا أبالي من خالفني، فأذى ابن عدي نفسه بذكره في كامله، و أجاد ابن الجوزي في حذفه"².

و في مكان آخر من كتابه نجد الذهبي يسوق كلام ابن الجوزي مساق المصدق المقر قال في الميزان: " إبراهيم بن أحمد العجلي، عن يحيى بن أبي طالب و غيره، ممن يضع الحديث، ذكره ابن الجوزي"³، و في بعض الأحيان يقرّ الذهبي ما ذهب إليه ابن الجوزي و لكنه لا يوافق على صنيعه، و من هذا القبيل قوله في الميزان: " سعيد بن عنبسة عن جعفر بن حيان، ذكره ابن الجوزي بأنه ما طعن فيه، فلا شيء ذكره"⁴.

كما اشتهر لابن الجوزي كتاب آخر جمع فيه بين الفقه و الحديث، حيث صنّف فيه الأحاديث على أبواب الفقه، و الكتاب هو " التحقيق في أحاديث الخلاف" و قد طبع مستقلاً كما طبع بحاشيته كتاب " تنقيح التحقيق" للحافظ ابن عبد الهادي، الذي نقحه و زاد عليه ثم قام الإمام إبراهيم بن علي بن عبد الحق الشهير ببرهان الدين الحنفي المتوفى سنة 744 هـ

¹ - ميزان الاعتدال: الذهبي، 16 / 1.

² - المصدر السابق: 81 / 3.

³ - نفس المصدر: 17 / 1 و كذلك 503 / 1.

⁴ - المصدر نفسه: 154 / 2 و الشواهد على هذا النحو كثيرة.

بوضع مختصر للكتاب كما ذكر صاحب كشف الظنون¹ ، كما استفاد منه الإمام الزيلعي² في نصب الراية ، حيث بلغت نقوله منه أكثر من مائتي مرة في مجلدين فقط³ .
 و ممن نقل عنه نقولا كثيرة في مجال الحديث ، ذكر جملة من العلماء ؛ منهم الإمام أحمد
 ابن أبي بكرين إسماعيل الكنانى في مصباح الزجاجة⁴ ، و العلامة أبو الطيب شمس الحق
 الأعظم إسماعيل في عون المعبود⁵ ، و الإمام محمد بن على الشوكانى في نيل الأوطار⁶
 و محمد بن عبد الرحمن المباركفورى في تحفة الأحودى⁷ .
 و لعل هذه الأمثلة كافية في إبراز مدى تأثير اعتماد باين الجوزي في علوم الحديث
 و مقدار استفادتهم من مؤلفاته في هذا المجال .

- 1 - كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفوائد ؛ ج 1 ، ص 137 .
- 2 - الزيلعي ؛ هـ ، المحدث الحافظ جمال الدين عبد الله بن يوسف الزيلعي من كبار علماء الحديث ، توفي سنة 762 هـ ، انظر مقدمة
 نصب الراية ؛ محمد يوسف البيورى ؛ دار الحديث مصر سنة 1357 هـ ، ص 17 .
- 3 - انظر نقوله عن ابن الجوزي ؛ 1 / 136 ، 1 / 203 ، 202 ، 213 ، 209 ، 261 ، 285 ، 287 ، 325 ، 317 ، 401 و 2 / 19 ، 27 ، 28 ، 32 ، 58 ، 78
 و 119 ، 116 ، 109 ، 78 و 3 / 32 ، 17 ، 65 ، 74 ، 99 ، 101 ، 128 و 4 / 17 ، 133 ، 37 ، 38 ، 40 ، 100 ، 122 ، ...
- 4 - انظر مصباح الزجاجة ؛ أحمد بن أبي بكر الكنانى ، تحقيق محمد شمس الحسنى ، دار العامة بيروت ط 2 ، 1403 هـ ، حيث
 بلغت نقوله أكثر من 90 مرة .
- 5 - عون المعبود ؛ محمد شمس الحق العظيم آبادى ، دار الكتب العلمية بيروت ط 2 ، 1415 هـ ، و بلغت نقوله حوالي 40 مرة .
- 6 - نيل الأوطار ؛ محمد بن على الشوكانى ، دار نجيل بيروت ، 1973 م . و قد بلغت نقوله حوالي 90 مرة .
- 7 - أنظر تحفة الأحودى ؛ محمد بن عبد الرحمن المباركفورى ، دار الكتب العلمية بيروت ، و قد بلغت نقوله حوالي 100 مرة .

المبحث الرابع

ما أخذ على ابن الجوزي

لما كان ابن الجوزي ممن ابتلى من الدعاة بإصلاح المجتمع و وعظ العامة ، زيادة على ما كان يقوم به من مهام التدريس والتأليف ، و لكثرة انشغاله في هذا المجال صار من المؤكد أنه ستكون له الكثير من المواقف و الآراء التي قد يخالفه فيها بعض العلماء أو هو الذي قد يختلف مع هذا البعض منهم ، إن هذا لا يعتبر في تقديري عيباً جوهرياً أو خطأ فاحشاً بل هو ظاهرة صحية ، فليس منا من تنزه عن الخطأ إلا المعصوم - صلى الله عليه وسلم - .

و من خلال رحلتنا الشاققة و الشيقة في رحاب العلم و الدعوة والإصلاح مع الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - تراعت لنا جملة من المآخذ أحيبنا ذكرها من باب الموضوعية و الإنصاف و إنزال الناس منازلهم و ليس من باب اتباع الهوى و كشف المثالب ، فكل شخص راد و مردود عليه ، و يؤخذ من كلامه و يردّ إلا صاحب هذا القبر - صلى الله عليه وسلم - كما قال الإمام مالك - رحمه الله - ، و روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : ما من أحد يؤخذ من علمه و يترك إلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - و الله يعلم أننا لن نتجلى عليه فيما سنقوله ، و إنما نذكر ما أخذه العلماء عليه من المآخذ ثم نتفحص هاته المآخذ و نتعقبها بالنقد و التمهيص ، كما ننقل عن الرجل ما نراه قد جانب فيه للصواب لنحلّه و فنقده و نرد عليه بما نظنه صواباً و منهجنا في ذلك هو ما قاله ابن الجوزي نفسه : " الله يعلم أننا لم نقصد ببيان غلط الغالط إلا تنزيه الشريعة و الغيرة عليها من الدخّل و ما علينا من القائل و الفاعل ، و إنما نودي بذلك أمانة العلم ، و ما زال العلماء يبيّن كل واحد منهم غلط صاحبه قصداً لبيان الحق لا لإظهار عيب الغالط " .!

و قد جعلنا هذه المآخذ على صنفين منها ما هو في مجال الدعوة و منها ما هو في مجال العلم ، و أبرز ما أخذ على ابن الجوزي في ميدان الدعوة ما يلي :

1 - الترفع و الثناء على نفسه :

و قد أخذ هذا المآخذ عليه جملة من العلماء القدامى و تابعهم في ذلك بعض

المحدثين¹ و منذر بعض الأدلة مما يدل على ذلك و نحلها و فرد عليه .
 و مما قاله مفتخرا بفصاحته و جميل وعظه : " واما لبحر فصاحتي حتى ما يدرك
 ساحله و ليبيد جز التي قد تعبت رواحله قتلت حسادي بلفظي ، و خير البر عاجله " ² ، و قوله
 أيضا : " يا لها من درر كذف بها بحر قلبي إلى ساحل فمي ، نفخت كبر الفصاحة فحمى
 فمي " ³ .

و مما قاله في إحدى مواعظه عن علماء بلده : " لو وضع علمهم في كفة القبان كان
 لفظي الرمانة " ⁴ ، و قال في خطبة له : " لقد غادرت فصاحتي كل ناطق عبايا ، و عند
 ارتجال الخطب تبين المزايا ، فيظهر الفرق بين التكلف و السجايا... قطعت فصاحتي الفيافي
 فتم حجي إلى القوافي و لم تقف المطايا " ⁵ ، و مما قاله : " ثم الشكر لمن غرس الفصاحة في
 أرض قلبي ، و قال أخصبي ، فكل ألفاظي ممرّع ليس فيها ربي ، و ذلك بفضل ربي ، لا
 بي ولا بأبي ، يا عين الناس انظري واعجبي ، و يا قلوب الحاضرين افهمي و اطربي ، لو
 قاومني كل الفصحاء غلبتهم إي و النبي " ⁶ ، و قال أيضا : " مواظبي شوافي و خطبي
 عوافي و أنا استخرج القوافي بمنقاش ، سلعي مطلوبة و ألفاظي محبوبة و نصبتي منصوبة
 يا لها من خطبة ، رتبها صانعها و زينها صانفها كما يزين المنقوش النقاش " ⁷ ، و يخبر
 عن نفسه أنه يأتي بأعجب الخطب فيقول : " كلماتي المبتكرة أحسن من حوليات زهير ، تعزّ
 هذه للفراند و لو تعب في طلبها ألف راند ، إذا خرجتم من المجلس فقولوا عما سمعتم رأينا
 في النوم ، فإن المخبر عن العجائب متهم " ⁸ ، و مما قاله في هذا المقام أيضا : " كلامي
 لطيب من تغريد الأطيّار على أفنان الأشجار ، و ألدّ من تجاوب الأوتار في أواخر الأسفار
 كلامي يسلب الماء رقته ، و النحل ريقته ، يخجل نظم العقود ، و يسكر و لا ابنة العنقود

¹ - حيث أورد الباحثون كلام ابن الحرزي و كلام القدماء دون نقد و تمحيص ، و من هؤلاء جمعة علي محمد الخولي في رسالته
 ابن الحرزي الراعظ ، و علي جميل مهنا في رسالته ابن الحرزي و مقاماته الأدبية ، و لطفى الصباغ في تحقيقه لكتاب القصص
 والمذكرين و عبد العزيز سيد هاشم في رسالته الآراء الأخلاقية عند ابن الحرزي .

² - رؤوس الثورائر : ص 32 .

³ - المصدر السابق : ص 33 .

⁴ - نفس المصدر : ص 36 .

⁵ - المصدر نفسه : ص 38 ، 39 .

⁶ - المصدر السابق : ص 18 .

⁷ - نفس المصدر : ص 28 .

⁸ - صبا نجد : ص 136 .

أحسن من الخمائل ، و أنفذ من سحر بابل ...¹ ، و كان - رحمه الله - يرى أنه أوتي من سحر البيان و روعة الصنعة اللفظية إحدى أعاجيب بغداد فقال : " كانوا يقولون عجائب بغداد ثلاثة : حكايات جعفر الخواص ، و إشارات الشبلي ، و نكت المرتعش ، و أنا قد دخلت الثلاثة للكبير فصارت في مجلسي سبيكة و زدت النقش " ² ، و مما قاله العلماء فيه : قال ابن رجب : و منها ما يوجد في كلامه من الثناء ، و الترفع و التعظيم ، و كثرة الدعاوى ، و لا ريب أنه كان عنده من ذلك طرف ، و الله يسامحه " ³ .

و قال ابن كثير : " كان فيه بهاء و ترفع في نفسه ، و إعجاب و سمو بنفسه أكثر من مقامه و ذلك ظاهر في كلامه ، في نثره و نظمه ، فمن ذلك قوله :

مازلت أدرك ما غلابل ما علا
أفضى بي التوفيق فيه إلى الذي
لو كان هذا العلم شخصاً ناطقاً
وسألته هل زار مثلي؟ قال: لا ⁴ .

و لكن ابن الجوزي يعتذر على ما قد يبدر منه أثناء وعظه ، و يرى أن هذا أقل من أن يبقى و عظه مستورا لا ينتفع به أحد ، فيطلب من المسلمين الدعاء له بالمغفرة فيقول : " فلو تسترت على نفسي لأبقيت وعظي مستورا و لكن كان أمر الله قدرا مقدورا ، و أنا أسأل من نظر في كتابي هذا و رأى فيه تقصيرا فليبسط لسان العذر فيه و ليأخذ منه ما حرك قلبه و يلهيه فما كل السماع مطرب و لا كل الشجر مثمر ، و أسأل من نظر فيه بحرمة الإسلام أن يدعو الله لي بالممات عليه " ⁵ .

٢ - نقل الأخبار المبالغ فيها دون تحييص :

لقد كان ابن الجوزي من المولعين بذكر الأخبار و النوادر التي فيها الكثير من المبالغة ، و لقد حاولت أن أجد لابن الجوزي مخرجا من ذلك لكنني وجدت من أكد ما ذكرت من نكر ابن الجوزي " بعض القصص العجيبة التي تخرج عن طبيعة اللامعقول دون أن ينقدها " ⁶ ، و حتى يتضح الكلام نذكر طائفة من هذه الأخبار التي أوردها الشيخ في

¹ - صبا نجد : ص 135 ، و انظر كذلك روح الأرواح ص 10 ، 30 ، 68 ، 86 .

² - رؤوس القولوب : ص 111 .

³ - اللؤلؤ على طبقات الخمائل : ابن رجب ، 1 / 414 .

⁴ - البداية و النهاية : ابن كثير ، 13 / 29 .

⁵ - روح الأرواح : ص 5 .

⁶ - تحقيق المتكلم : محمد الشيخ عبد الوهاب فضل ، رسالة دكتوراه عطرطة نوفنت سنة 1979 م ، بقسم التاريخ ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر .

بعض مؤلفاته قوله : " كان لويس القرني يأتي المزابل إذا جاع يلتمس منها قوته ، فاتاهما يوما فنبح عليه كلب فقال : يا كلب : لا تؤذي من لا يؤذيك أكل مما يليني و تأكل مما يلوك فإذا دخلت الجنة فأنا خير منك و إن دخلت النار فأنت خير مني " ¹ ، و مما رواه في مناقب معروف للكرخي عن أحمد بن عباس الشامي قال : " خرجت من بغداد حاجا ، فاستقبلني رجل في البلدية ، رأيت فيه أثر العبادة ، فقال : من أين أقبلت ؟ قلت من بغداد ، هاربا لما رأيت فيها من الفساد والفسق ما خفت أن يخسف بأهلها ، فخرجت هاربا ، فقال : لا تخف ! فإن فيها قبور أربعة من أولياء الله هم حصن لهم من جميع البلايا ، قلت : من هؤلاء الأربعة ؟ قال : أحمد بن حنبل ، و معروف الكرخي ، و بشر بن الحارث (الحافي) و منصور بن عمار ، قلت له : فأنت إلى أين تمضي ؟ قال : أمضي إلى ههنا ، قلت من الذي أريك ؟ قال : انظر خلفك ! فنظرت ، فلم أر شيئا ، ثم عدت ببصري فلم أره ، فرجعت و زرت هذه القبور ، و تركت الحج تلك السنة " ² ، و روى عن خليل الصياد قوله : " غاب عني ابني إلى الأنبار ، فوجدت أمه و جدا شديدا ، فأتيت معروفا ، فقلت له : يا أبا محفوظ غاب ابني فوجدت أمه و جدا شديدا ، قال : فما تشاء ؟ قلت : تدعو الله أن يرده عليها ! فقال : اللهم إن السماء سماوك ، و الأرض أرضك و ما بينهما لك ، فات به ! قال خليل : فأتيت باب الشام فإذا ابني محمد قائم منبهر ، فقلت : يا محمد ! فقال : يا أبت ! الساعة كنت بالأنبار " ³ ، و من ذلك ما يرويه عن ابن أخ معروف الكرخي أنه قال : " قال لي عمي معروف الكرخي : يا بني ! إذا كانت لك إلى الله حاجة فسله بي " ⁴ ، و من عجيب ما يذكره من روايات عن قبر معروف الكرخي و ينقل عن الرواة قولهم : " أن قبر معروف الكرخي مجرب لقضاء الحوائج ، و أنه من قرأ عنده مائة مرة ، قل هو الله أحد و سأل الله ما يريد ، قضى الله حاجته " ⁵ .

و الناظر في هذه الأخبار يرى كيف أن ابن الجوزي نقلها بأسانيد مجردة من أي تنبيه أو تعليق على الرغم مما فيها من مخالفات للعقيدة السليمة ، بل هي من الأخبار التي

¹ - روح الأرواح : ص 54 .

² - مناقب معروف الكرخي : ابن الجوزي ، تحقيق صادق محمود الجميلي ، مجلة المورد ، العدد 4 ، المجلد 9 ، سنة 1980 ص 658

و هذا الخبر يتعارض مع قواعد الشريعة ، إذ كيف يمر هذا الرجل من قضاء الله و تراجع عن حج الفريضة إلى زيارة القبور

و الشرك بها .

³ - المصدر السابق : ص 664 .

⁴ - نفس المصدر : ص 665 .

⁵ - المصدر نفسه : ص 678 .

هي أقرب إلى الخرافة و الأوهام منها إلى الحقيقة و الواقع ¹ ، و لقد كان حربيا بابن الجوزي - رحمه الله - و هو إمام أهل السنة و الجماعة أن يتجنب هذه المرويات و هو يعرف مدى تأثيرها السيئ على جمهور الأمة و خاصة العوام .

د - نكره مرويات غير معطولة عن الصحابة :

و لعلّ هذه أكبر من أختها فحبذا لو كانت هذه الأخبار عن غير الصحابة و أفضل العلماء لكان من الممكن أن يسهل علينا تقبلها كقوله في هذه الرواية : " كان عبد الله بن أبي بكر يحب جارية له سوداء و كانت قد شغلت قلبه فنهاء أبو بكر عنها فتجافى لها في قلبه منها شيء فقال :

أحب لحيّتها السودان حتى أحب لحيّتها سود الكلاب " ² .

و إن سلّمنا له فيما قاله هنا ، فإننا لا نسلم له فيما قاله عن بعض الصحابة في موضوع التمتع بالنساء سواء من الجوارى أو الحرائر و لا يمكن قبول ما ذكره و ذلك بحكم تربيتهم في رحاب الصحبة الطاهرة ، و انشغالهم بعظائم الأمور فلنستمع لما يقوله في باب النكاح و الترغيب فيه : " و إن أكثر من النكاح و السراري ، كان مدوحا لا ملوما ، فقد كان للنبي - صلى الله عليه و سلم - زوجات و سراري ، و جمهور الصحابة ، كانوا على الأكثر من ذلك ، و كان لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أربع حرائر ، و سبع عشرة أمة ، و تزوج ولده الحسن نحواً من أربعمئة " ³ ، و في نفس الموضوع يؤكد ما قاله سابقاً فيقول : " و كان لداود - عليه الصلاة و السلام - مائة امرأة ، و لسليمان - عليه الصلاة و السلام - ألف امرأة ، و قد علم حال نبيّنا - صلى الله عليه و سلم - و أصحابه و كان لأمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - أربع حرائر ، و سبع عشرة سرية ، و تزوج ابنه الحسن - رضي الله عنه - بنحو من أربعمئة " ⁴ .

و إنني لأتعجب كما تعجب غيري من الباحثين إذ كيف يمكن للصحابة الذين كان قرنهاً خير القرون و هم من حمل لواء هذا الدين ، و جاهد في سبيل تبليغه بالمال و النفس أن يكون هذا حالهم مع النساء ، قد يصدق على داود و سليمان - عليهما السلام - ما قاله

¹ - مطالب معروف الكرعي : ابن الجوزي ، مجلة المورد ص 611 .

² - نور الفيش في فضل السودان و الحبش : ابن الجوزي ، تحقيق مرزوق علي إبراهيم ، تقديم حكمت بشير ياسين ، ط 1

1419 ، 1998 م ، ص 233 .

³ - عهد الخاطر : ص 26 .

⁴ - الصدر السابق : ص 51 .

ابن الجوزي لأن شرعهم في ذلك الزمان غير شرعنا ، لكن أن يكون للسبط الشريف قد تزوج بأربعمائة امرأة ، و أن حبر الأمة عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - كان يطلا جارية له ، و ينزل في أخرى ¹ ، فإن هذا الكلام لا يقبل من الناحية الإنسانية أن يقال عن مسلم عادي فكيف يقال عن ابن عباس ² ، أضف إلى ذلك ما فيه من تشجيع لفتح أبواب الشهوات - كانت مؤصدة - أمام المترفين و أهل الغنى من هذه الأمة .

، - الإغراق في استخدام منهج الإشارة :

و إذا كان هذا من خصائص منهج ابن الجوزي فهو مما يؤخذ عليه في هذا المجال و ذلك لكثرة إفراطه في استعماله ، و كما هو معلوم فإن الإفراط في استخدام الشيء قد يصير ممجوجا حتى و لو كان ذلك الشيء حسنا ، و ليس هناك أحسن من منهج القسوان و السنة و قد جاءت فيهما الإشارة بقدر ما يفهم أهل الإشارة ، و ما أثار عن ابن الجوزي في هذا المجال بتقارب لفظه و تتكرر معانيه ، و ربما لم تتسق جملة ، و لم تسر في نمط واحد من القول ، فأحيانا نجدها تطول و أحيانا تقصر ، و لعل هذا مما يزيد في صعوبة إدراك معانيها و مراميها لدى السامعين ، فيكثر الحضور و تقل الفائدة و سنذكر أمثلة قليلة لكنها طويلة حتى تصدق على ما ذكرنا .

قال - رحمه الله - في موعظة " هبت عواصف الأقدار " : " هبت عواصف الأقدار في بيداء الأكون ، فنقلت الوجود و عمّ الخبر ، فلما ركبت الريح إذا أبو طالب غريق في لجة الهلاك ، و سلمان على ساحل السلامة ، قضيت في القدم سلامة سلمان ، فأقبل يناظر أباه في دين قد أباه ، فلم يكن لأبيه جواب إلا القيد ، فنزل به ضيف (و لنهلونكم) ³ فقال بإكرامه منزلة " سلمان منا أهل البيت " ⁴ سمع أن راكبا على نية السفر ، فسرق نفسه من حرز أبيه ، و لا قطع ، فوقف نفسه على خدمة الأذلاء و قوف الأذلاء ، فلما أحس للهربان بانقراض دولتهم ، سلموا له أعلام الإعلام على علامات نيتنا - عليه أفضل صلاة و أزكى سلام - و قالوا : إن زمنه قد أظلم ، فاحذر أن تضل ، و إنه يخرج بأرض العرب

¹ - صيد الخاطر : ص 27 .

² - ثرية و التحليم عند ابن الجوزي : عبد الباقع عبد العزيز الخولي ، ص 130 .

³ - الفقرة : 155 .

⁴ - للمستشرق : المحاكم ، 3 / 598 ، كتاب معرفة الصحابة ، ذكر سلمان ، قال الذهبي في التلخيص بذيل المستشرق : سنه

ضيف - مجمع الزوائد : المجلد ، 6 / 130 ، باب نخوة الخندق و تربطه و قال : رواه الطبراني و له كثير بن عبد الله المزني

و قد ضعفه الجمهور و حتى الترمذي حدثه ، و بنية رجاله ثقات .

ثم يهاجر إلى أرض بين حرتين ، فلو رأيتموه قد فلى الفلا و الليل شوقه ، و خلى الوطن
خلاء يزعه توفقه ¹ .

و قال في موعظة " الإيمان بالقدر " : " إذا أراد القدر نفع شخص ميا قلبه لقبول النصائح
و ساق إليه موعظة على فراغ الفكر ، سوق المطر إلى الأرض الجرز (فنخرج به زرعاً
مختلفاً ألوانه) ² فإذا أعرض القدر عن شخص ، ألقاه في بحر من الغفلة لحي ، فكما فتح
عينه رأى ظلمات بعضها فوق بعض . بجانب السلامة مهياة للمراد ، و أقدار للمطرود
موتقة بقيود الغفلة ، كم يتمنى المرود أن يصل ، و هيهات يأبى القدر ، كم محرم محروم
صد من قبل . المخلوق هدف ، و المقادير سهام ، و الرامي من تعلم فما الحيلة ؟ صوارم
لقد إذا هزت تقلقت رقاب المقربين ، إذا غضب على قوم فلم تنفعهم الحسنات ، و رضي
عن قوم فلم تضرهم السيئات . هبت عواصف الأقدار فخب بحر التكليف ، و تقلبت بيضاء
الوجود بساكني الأكوان ، فانقلعت أطناب الأنساب ، و وقعت خيم المتكبرين ، فانقلب قصور
" قيصر " ، و تبدد شمل " أبي طالب " ، و وهى عمل " أبي جهل " و انكسر جيش " كسرى "
و انبت جبل صاحب " تبت " ، فلما طلع الفجر ، و ركذ البحر ، " إذا أبو طالب " غريق في
لجة اليم ، و " سلمان " على ساحل السلامة ، و " الوليد بن المغيرة " يقدم قومه في التيه .
و " صهيب " قد قدم من قافلة الروم ، و " أبو جهل " في رقدة المخلفة ، و " بلال " ينادي :
للصلاة خير من النوم " ³ .

و انظر إليه كيف يعيد قصة سلمان - رضي الله عنه - في كتاب آخر حيث جعل
منها موضوعاً فيه للكثير من الإشارات و هذا ملخصه ، يقول : "سابقة الأزل قضت لقوم بدليل
(سبقت) ⁴ و على قوم بدليل (غلبت علينا شقوتنا) ⁵ فوا أسفا أين المفر ؟ توفيق (سبقت)
نور قلوب الجن (فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا) ⁶ و خذلان (غلبت) أعمى بصائر
قريش فقالوا (أساطير الأولين) ⁷ أمل الشمال في جانب جنون البعد ، و أهل اليمين في

¹ - التواضع و المجالس : ص 68 .

² - السحنة : 27 .

³ - اللطائف : ص 107 ، 108 .

⁴ - إشارة لقوله تعالى : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) الأنبياء : 111 .

⁵ - الفرقان : 5 .

مهب شمال القرب ، ما نفعت عبادة " إبليس " و " بلعام " ¹ ، و لا ضرر ضد السحرة . و حدّ " قس " ² و ما رأى الرسول ، و كفر " ابن أبي " ³ و قد صلى معه ، مع الضب ريّ يكفيه و لا ماء و السمكة غائصة في الماء و لا ريّ . دخل الرسول - عليه الصلاة و السلام - إلى بيت يهودي يعودُه فقال له : أسلم تسلم ، فنظر المريض إلى أبيه ، فقال له : أجب أبا القاسم ، فأسلم ⁴ ، كان في ذلك البيت غريباً مثل " سلمان منا " فصاحت أسنة المخالفين : ما لمحمد و لنا ؟ المناسبة تؤلف بين الأشخاص ، ما احتمل " موسى " مرارة الغربة في دار " فرعون " و إن كان في " أسية " ما يسلي غير أن حق الأم أحق . سبق العلم بنبوّة " موسى " و إيمان أسية " فسبق تابوته إلى بيتها ، فيه طفل منفرد عن أم إلى امرأة خالية عن زوج . لما قضيت في القدم سلامة " سلمان " حملته صبا الصبا نحو الدين ، كان أبوه على اعتقال المجوس ، فعزج به دليل التوفيق إلى دير النصارى ، فأقبل يناظر أباه فلم يكن لأبيه جواب إلا القيد ، و هذا للجواب المرئول قديم من يوم (أنا أحي و أميت) ⁵ (ثم نكمسوا) ⁶ (قللوا حرّوه) ⁷ فلزل في البداية ضيف (و لنبلونكم) ⁸ ، فسمع ركبا على نية السفر ، فسرق نفسه من حرز أبيه ... فلما أحس الرهبان بانقراض دولتهم ، زوده سفره إلى طلب علم الأعلام على علامات نبينا - عليه أفضل الصلاة و السلام - ، و قالوا قد أن زمانه و أظلم فأحذر أن تضلّ ، فإنه يخرج بأرض العرب ، ثم يهاجر إلى أرض بين حركتين ... رحل مع رفقة لم يرفقوا به (و شروه بثمن بخس) ⁹ فاشتراه يهودي بالمدينة ، فأنجبر انكسار رقه بإنعام " سلمان منا " و توقّد حرّ شوقه بروية الحرّتين ، و ما علم المنزل بوجد النازل فيبينما هو يكابد ساعات الانتظار جاء البشير بقدم الرسول ، و " سلمان " في رأس نخلة ، فكاد

1 - بلعام : و بلعام هو ابن باعوراء قال .الك بن دينار : كان من علماء بني إسرائيل و كان يحاب الدعوة بفدونه في الشداد
عنه بن الله موسى إلى ملك مدين بدعوه لل الله ، فأقطعه و أعطاه فتح دينه و نرك دين موسى عليه السلام " انظر تفسير
ابن كثير : دار الثقافة ، الجزائر ط 1 ، 1410 هـ 1990 م ، 3 / 158 ، 159 .

2 - قس : هو قس بن ساعدة الإباضي ، أحد حكماء العرب ، و من كبار خطباء الجاهلية ، كان أسقف بخران ، انظر الأعلام 196/5 .

3 - ابن أبي : هو عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق في المدينة ، الأعلام : 4 / 65 .

4 - المسند : للإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، دار الفكر ، د ت ، 3 / 280 و الحديث رواه عن أنس رضي الله عنه .

5 - القرآ : 258 .

6 - الأنبياء : 65 .

7 - (قللوا حرّوه و الصروا الحكم) الأنبياء : 68 .

8 - (و لنبلونكم حتى تعلموا المهادين منكم و الصابرين) محمد : 31 .

9 - يوسف : 20 .

لتلاق بلقيه لولا ان الحزم أمسكه ، كما جرى يوم (إن كانت لتبدي به)¹ ثم عجل النزول ليلقى ركب البشارة ، و أي ثبات بقي ليعقوب في حال (إنني لأجد)² .
فصاح به المالك : مالك و هذا ؟ لنصرف إلى شغلك ، كيف انصرفي و لي في داركم شغل ثم أخذ يضربه ، فأخذ لسان حال المشوق يترنم ، لو سمع الأطروش ؟!³ .
و - تخطه في جملة من القضايا :

و من هذه القضايا مثلا موضوع التفاضل بين البشر و الملائكة ، فنجده مرة يقر بتفضيل البشر على الملائكة كقوله : " ما أزال أتعجب ممن يرى تفضيل الملائكة على الأنبياء و الأولياء ، فإن كان التفضيل بالصور ، فصورة الأدمي أعجب من نوي أجنحة "⁴ و يواصل تقديم التبريرات على هذا التفضيل قائلا : " و إن تركت صورة الأدمي لأجل لوساخها للمنوطة بها ، فالصورة ليست الأدمي ، إنما هي قالب . ثم قد استحسن منها ما يستقبح في العادة ، مثل خلوف فم الصائم ، و دم الشهداء ، و النوم في الصلاة ، فبقيت صورة معمورة ، و صار الحكم للمعنى ، لماذا يزعم البعض أن الله فضل الملائكة على البشر ، ألهم مرتبة يحبهم بها ، أو فضيلة يباهي بهم غيرهم ، و كيف دار الأمر فقد سجدوا لنا ، و هو صريح في تفضيلنا عليهم "⁵ و مرة أخرى يصرح بتفضيل الملائكة على البشر كما جاء في قوله عندما تحدث عن طموح الإنسان و دفعه التقصير عن نفسه : " فلو كانت للنبوة مثلا تأتي بكسب لم يجز له أن يقنع بالولاية ، أو تصور أن يكون مثلا خليفة لم يحسن به أن يقنع بإمارة ، و لو صح له أن يكون ملكا لم يرض أن يكون بشرا "⁶ .

و نلاحظ منه بعض الاضطراب في مسألة زيارة المقابر حيث وجدناه يحثها و يوصي بزيارتها تارة قائلا : " فالأولى للمريد اليوم أن لا يزور إلا المقابر و لا يفاوض إلا الكتب ، التي قد حوت محاسن القوم "⁷ ، و تارة أخرى يتعجب ممن يجعل المقابر محلا للاعتبار و يخرج إليها للاتعاظ فيقول : " العجب ممن يقول : أخرج إلى المقابر فأعتبر بأهل

¹ - مفصم : 10 .

² - إشارة إل قوله - نعال - : (لئ لا أحد ربح يوسف لولا أن نقنن) يوسف : 94 .

³ - اللطائف : ص 34 ، 35 ، 36 ، 37 .

⁴ - عهد الخاطر : ص 73 .

⁵ - الصدر السابق : نفس الصفحة .

⁶ - المنى المصدر : ص 160 .

⁷ - الصدر نفسه : ص 359 .

اللبى ، و لو فطن علم أنه مقبرة يغنيه الاعتبار بما فيها عن غيرها ¹ ، رغم أنه أقر بذهابه إلى المقابر في فترة من فترات حياته عندما كان يعيش عيشة رغيدة و انبساط في العيش لكن نفسه أبت عليه ذلك ، ومما قاله شارحا حالته : " وكثر ضجيجي من مرضي ، وعجزت عن طب نفسي ، فلجأت إلى قبور الصالحين ، وتوسلت في صلاحى ، فاجتذبنى لطف مولاي بي إلى الخلوة " ² .

و قد سجل عليه الشيخ علي طنطاوي - رحمه الله - هذا المأخذ بصفة عامة دون أن يفصل في الموضوع عندما قال : " فرأيت المؤلف - رحمه الله - يتبع في كل خاطرة (وحي الساعة) كما يقولون ، يسجل ما يخطر على باله فيقع أحيانا في تناقض : يسوق للرأي قد ساق من قبل ضده ، و يذم شيئا كان قد وقع هو فيه ، و يأتي بآراء لا يسلم له بها و لا يجوز السكوت عنها ، فكنت أعلق على ذلك بما أتيتن به الصواب الذي أعرفه ، و إن كنت لا أصلح تلميذا لتلاميذ تلاميذه ، و أين أنا من ابن الجوزي ؟ و لكنه الواجب و الغلام إن عرف الحق في مسألة ردّها على شيخ الإسلام ، و قد تلقى أبو حنيفة علمه (الذي قاله هو و نسيه) من حجّام في مكة ، و ردت عجوز على عمر و هو على المنبر ، فقبل منها و رجع إلى رأيها " ³ .

، - نظرتة السوداوية للعوام :

و رغم كون ابن الجوزي الواعظ الشعبي الذي ابتلي بدعوة الجماهير و تربيتهم و إصلاح الفساد الخلقى الذي عمّ بينهم ، إلا أنه لم يكن مرتاحا مطمئن البال للمدعوين و خاصة العوام منهم ، فقد وصفهم بأحط الأوصاف و نعتهم بأقبح النعوت ، و مهما يكن لابن الجوزي من عنز ، و تحت أي مسوِّغ من المسوّغات فإن عنزه هذا ليس بالضرورة أن يصل به إلى حدّ وصف العوام بما وصفهم به ، فأين هي أخوة الدين و حرمة المسلم و حقوق المدعوين ، و كيف لداعية حصيف كابن الجوزي يبيع نفسه وصف مدعويه بالبلاهة و الحمق و يحشرهم في زمرة البهائم و البقر ، إلى غير ذلك من الألقاب و النعوت ⁴ و لو كان في نيّته أنهم يتبعون كلّ ناعق و يسرون خلف كلّ سائق و راع كالغنم و البقر يسوقها من لرد دون عناء .

¹ - عهد الخاطر : ص 366 .

² - المصدر السابق : ص 79 .

³ - عهد الخاطر : ابن الجوزي ، تحقّق علي طنطاوي ، ص 6 من المقدمة .

⁴ - تعرضنا لهذه المسألة في فصل أصناف المدعوين عند ابن الجوزي .

و مع ذلك نقول لقد كان حريا بابن الجوزي أن يترفع عن هذه الأشياء و أن يبتعد عن روح الاستعلاء التي - ربما - كانت تنتمصه عند الحديث عن العوام و جماهير المسلمين و لو من باب احترام الإنسان عموما و قد كرمه الله - عز و جل - فما بالك و أن هذا الإنسان مسلم ، و هذا حتى لا يجد من يجهل قدره أن يقول فيه ما قاله من " أن ابن الجوزي ارتبط وعظه بكبار القوم فهان عليه أمر العامة و الضعفاء مع أنهم الأولى بالتربية و الوعظ لثة حيلتهم و هوان شأنهم " ¹ ، زد على هذا فابن الجوزي و بصفته مورخا له اليد الطولى في هذا العلم ، بالإضافة إلى علم الوعظ كان من الجدير به في منهجه الدعوي أن يتخذ من الأحداث التاريخية مادة دسمة لدعوته و وعظه لأخذ العبرة و لتربية الجماهير و تضميد جراحها ، لكن هذا ما لم نلاحظه عند ابن الجوزي ، فمن خلال اطلاعي على كتابه " المنتظم " وجدت أنه بالقر الذي كان الكتاب فيه الكثير من جوانب الأصالة التاريخية عند مؤلفه ، إلا أنه كان يمر على كثير من الأحداث التاريخية الهامة التي تحتاج شيئا من التحليل أو التفسير نون أن تستوقفه هذه الأحداث ، و عند تعرضه لذكر حوادث كل سنة لم يصب اهتماماته على النواحي الاقتصادية و الاجتماعية بالقدر الذي اهتم فيه بسرد الأحداث السياسية و انتصارات السلاطين و هزائمهم ، كما كانت إشاراته إلى الأوضاع المالية و الاجتماعية المتدهورة قليلة و بسيطة و عابرة ² .

7 - نظرتة الدونية للمرأة :

رغم اهتمام ابن الجوزي بموضوع المرأة إلا أن هذا الموضوع لم يكن من قضايا الساعة في سلم فقه أولوياته الدعوية ، بل كان يهدف من وراء تناوله للموضوع من باب تقويم ما هو معوج و غير صالح و يسهل فساده و إفساده في المرأة و هو بذلك لم يتحدث إلا على الجانب السلبي للمرأة في عصره و لعل هذا كله بسبب ما كانت تحدثه النساء في ذلك الزمان ، و كلما حدثنا عن الجانب المشرق للمرأة إلا و رجع بنا إلى عهد الصحابة و التابعين ، و ما أظن ذلك إلا لسوء أحوال النساء و فساد أخلاقهن على عهده و ليس راجعا - حسب اعتقادي - لسوء خبرته بأحوال المرأة و خبايا عالم النساء و ما فيه من أسرار على حد تعبير بعض الدارسين ³ ، وذلك لكون ابن الجوزي يعيد أفكاره في كل مرة و يؤكد عليها بنفس الأسلوب و التعبير و هذا يدل دلالة واضحة أنه كان يعي تماما ما يقول

¹ - التوبة و التعلیم عند ابن الجوزي : عبد البديع عبد العزيز الخولي ، ص 131 .

² - المنتظم : ابن الجوزي ، تحقيق محمد الشيخ عبد الوهاب فضل ، رسالة دكتوراه مخطوطة ، ص 1037 .

³ - التربية و التعلیم عند ابن الجوزي : عبد البديع عبد العزيز الخولي ، ص 106 .

و يدرك أنّ الإبرك مسؤوليته على ما يدلي به من آراء ، بل لقد كان صريحا إلى أبعد الحدود في طرح هذا الموضوع الذي - ربما - لم يستطع غيره أن يطرحه بهذا الأسلوب و هذا في اعتقادي ليس مأخذا يواخذ عليه ابن الجوزي لأنه نظر في الأمر و عالجه وفق ظروف عصره و ملاماته ، و لمنا ندري لو كان ابن الجوزي يعيش بيننا اليوم و يرى ما عليه المرأة اليوم فماذا عساه أن يقول ! و نستمتع إليه في حديثه المفصل عن المرأة في عصره و الذي يبرز لنا بوضوح معرفته بعالم النساء و ما كنّ يقترفنه من معاصي و آثام يقول : " أما أفعالهن الظاهرة القبيحة فكثيرة ، و لهن مقابح يحقرنها و هي عظام كالصيرير في الخف و الخروج بغير إذن الزوج و سوء المعاشرة له ، و السرقة من ماله و التلبس في القطن بنق الخشن منه ليتوهم أنه ناعم و تنديه ، و الخروج إلى المقابر . فإن فلحن و تركن ذلك حضرن أوقات الصوفية المتضمنة للغناء و الطرب و الرقص و اللعب و تمزيق الثياب على الوجد ، و تفريقها بعد تخريقها ، و النظر إلى الشباب و غير ذلك من الأسباب المفسدة لقلوبهن على أزواجهن المغيرة لديهن ، فإذا حضرن مجالس القصاص فأكثرها يجري فيها المنكر من إنشاء القصاص أشعار الغزل و تلحين القراء القرآن و نحو ذلك مما يوجب الطرب ، يثبت في القلب الهوى و ربما أنشدوا الأشعار الواصفة للبلوى و أحوال الموتى فيهبجون قلوب السامعين و يخرجونهم من الصبر إلى الجزع و كل ذلك من القبايح المفسدة و ربما قالت المرأة أنا ألبس قميصا من يد الواعظ و أصير بنتا له ، و بلغنا أن قوما من المتزهدين يواخون النساء و يخلون بهن و يصفحونهن ، و كل هذا مخرّج إلى الفساد و القبيح " ¹.

و مع كلّ ما ذكرنا فقد كان بإمكان ابن الجوزي و هو داعية المسلمين جميعا - رجالا و نساء - أن ينتهج نهجا أكثر تربوية و إصلاحا مما جاء به من آراء يبدو فيها نوع من التسامي على النساء عموما و عدم إبراز دور الصالحات منهن ، حيث جعل للرجل مطلق الإرادة و السلطة أما المرأة فهي ظله الذي يتبعه ، و هي سفينة مأفونة العقل لا تؤتمن على دينار و لا على مر ².

للت قد كان بإمكان ابن الجوزي أن لا يطلق هذه الأحكام على عموها إذ ليس كلّ نساء بغداد بهذا الشكل الذي وصفه بالتاكيد ، أضف إلى ذلك فإن القواعد الإسلامية قد

¹ - أحكام النساء : ص 74 .

² - للزيادة في تفصيل انظر بحث المرأة عند ابن الجوزي ، من فصل عوار التربية و التعليم ، ر في مؤلفاته : صيد الخاطر : 261

342، 43، الطب الروحاني: ص، 56، أحكام النساء: ص 39.

جعلت الأصل في الحياة بين المرأة و الرجل أنها تقوم على الرحمة و المودة و ابن الجوزي اعلم بذلك فلماذا توجه في هذا الاتجاه .

و على العموم نقول أن ابن الجوزي لم يسلك هذا المسلك إلا تحت ضغط الفساد الذي كان موجودا في بغداد في القرن السادس و مع ذلك فإننا لا نسلم له في كل ما ذهب إليه في هذا الشأن .

٥ - اتخاذ موقفنا سلبيا من الحروب الصليبية في عصره :

لقد سجلت هذا المآخذ على ابن الجوزي - رحمه الله - كما سجله عدد من الباحثين و أخذوا فيه باللائمة عليه ، و هذا رغم كون ابن الجوزي عاش في عصر مليء بالقلق و الحروب المتكررة التي كانت تندلع هنا و هناك بين حكام المسلمين المتخاذلين حيناً و بين بعض الدول الإسلامية و النصارى حيناً آخر و ذلك فيما يعرف بالحروب الصليبية ، و على الرغم من تسجيله لكثير من هذه الحوادث و الحروب في كتابه " المنتظم " إلا أنه من الناحية الدعوية الوعظية لم يشر إلى ذلك مطلقاً، حيث خلّت مواضعه بالكلية من حث للمسلمين على الجهاد و خوض المعارك و الاستشهاد لتحرير الأوطان و تخليص بيت المقدس و المسجد الأقصى من براثن النصارى .

لقد كان بإمكان ابن الجوزي - و هو الواعظ و الداعية الذي ملأ الأسماع و القلوب بوعظه و خطبه - أن يلعب دوراً رئيساً في حث المسلمين و دعوتهم للجهاد ، لكنه لم يفعل أو لم يتفطن لذلك ، و الدليل على ذلك ما بين أيدينا من كتبه المطبوعة و المخطوطة التي تبين لنا موقفه الذي أثبتناه² و الذي كنا نود أن يسهم فيها بنصيبه كداعية من أجل تحرير أرض الإسلام و المسلمين .

٥ - جرأته في بعض القضايا :

و هذه من المسائل التي كان ينبغي على الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - ألا يخوض فيها ويذكرها أمام العامة في وعظه أو يدونها في مؤلفاته و من هذه المسائل ما قاله في باب بيان حق البدن في التمتع بالطيبات من الرزق ، حيث ضرب مثلاً بالسلف فقال :

¹ - انظر رأي الباحثين في المسألة : لطفى الصاغ في مقدمة كتاب القصاص و المذكرين ، و محمد الشيخ عبد الوهاب فضل في رسالته لعهد المنتظم ، و جملة على محمد الخولي في رسالته ابن الجوزي الواعظ و منهجه في الدعوة إلى الله ، و عبد البديع عبد العزيز الخولي في كتابه الترية و التعليم عند ابن الجوزي .

² - نظرتُ ابن الجوزي للموضوع باختصار شديد في كتابه : النفاة في مواضع الملوك و الخلفاء من 69 باب في فضل الجهاد في صفتين ذكر فيه جملة من الأحاديث و الآثار .

و إذا تأملت حال السرب الأول رأيت من هذا عجبا، فإن النبي - صلى الله عليه و سلم - اختار لنفسه عائشة - رضي الله عنها - و كانت مستحسنة . و رأى زينب فاستحسنها فزوجها ، و كذلك اختار صفية ، و كانت إذا وصفت له امرأة بعث يخطبها ¹ ، و قد قام الشيخ الغزالي - رحمه الله - بحذف هذا الكلام عند تحقيقه لكتاب "صيد الخاطر" ، و ذلك لبطان هذا الكلام و تهافته و إني لأعجب من ابن الجوزي كيف سوّغت له نفسه أن يدون مثل هذا الكلام عن سيّد الخلق - عليه الصلاة و السلام - كان باستطاعته أن يعبر عن ما قاله بأسلوب آخر و يقدّم الأدلة على ما ذكر ، فعائشة مثلا كان زواجه منها لمكانة أبي بكر عنده ، و زواجه من زينب طاعة لأمر الله ، و صفية لمصلحة سياسية و دينية ، و قس على ذلك بقية زوجاته الأخريات .

و اسمع إليه ماذا يقول عن آدم - عليه السلام - : " إياك و الذنوب فإنها أدلت أباك بعد عز (اسجدوا) ² و أخرجته من أقطار (اسكن) ³ مذ سبى الهوى آدم هوى ، دام حزنه فخرج أولاده العقلاء محزونين ، و أولاده السبايا أذلة ... و اعجبا لجبريل ! بالأمس يسجد له و اليوم يجرّ بناصيته ، و المذنب يقول ارفق بي " ⁴ .

و يقول عن داود - عليه السلام - : " أما سمعتم أن " داود " أعطى نعمة نعمة كلن يقف لها الماء فلا يسير ، و الطير مع ذلك و قوف الأسير ، فعمل مرض (لا تغف) ⁵ في حجاب (يفضوا) ⁶ فامتنت به يد البصر ، فقدّمت قميص " يوسف " العصمة ، فأثر زلّله حتى في تلاوته ، و قد كان معمار الوصال يتنفذ قديما آلات صوته ، فلما أقبل على الذنب عرض المعمار عن المراعاة ، فنتشعت منزل الصفاء " ⁷ .

و في مقارنته بين الملائكة و البشر في عبادتهم يقول : " أين مجاهدة الأدمي من تعبد الملائكة ، حال الأدمي أعجب ، تسبيح الملائكة يدور على أسنتهم بالطبع ، تعبدهم لا عن تعب ، ورد شجرهم خال من شوك الحب ، الأغلب على أوصافهم أنوثية السلامة ، لا

¹ - انظر صيد الخاطر : ابن الجوزي ، تحقيق علي ططاوي ط القاهرة ، سنة 1961 م ، الفصل 82 ، أما في طبعات صيد الخاطر الحديثة فهنا الكلام محذوف جزء منه راجع من 131 .

² - إشارة إلى قوله تعالى : (و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) البقرة : 34 .

³ - إشارة إلى قوله تعالى : (و قلنا يا آدم اسكن أنت و زوجك الجنة م البقرة : 35 .

⁴ - اللطائف : ص 27 .

⁵ - إشارة لقوله تعالى : (و لا تغف ما ليس لك به علم) الإسراء : 36 .

⁶ - إشارة إلى قوله تعالى : (قل للمؤمنين يفضوا من أهلهم) النور : 30 .

⁷ - اللطائف : ص 63 .

ذكورية الجهاد سبحانه تسبيحهم عقود ما نظمها التكليف ، ثمرات زرعهم نشأت لا عن كلف
فكثر في زكوات تعبدتهم قدر الواجب (و يستغفرون لمن في الأرض)¹ ظنت الملائكة أن
أيدي العصمة أصنع من نظم التسبيح ، و نسوا أن يبس الأشجار أيام الشتاء سبب لزهـ
النور في الربيع².

و خلاصة الأمر نقول أنه و مهما كانت المسوغات لدى ابن الجوزي فإن منزلة
الأنبياء و كرامتهم فوق هذه الأوصاف ، و كذلك الأمر بالنسبة للملائكة فكيف يثبت لنا أن
الأغلب على أوصافهم أنوثية السلامة لا ذكورية الجهاد ؟ و ماذا يقصد بهذا الكلام ؟
كما أخذ عليه العلماء بعض المآخذ جمعت بين العلم و الدعوة نذكرها على هذا النحو :

1 - استدلاله بالموضوع و الضعيف في مواضعه :

من المسائل الملفتة للانتباه التي انتقد العلماء ابن الجوزي فيها استدلاله بالأحاديث
الضعيفة و الموضوعة بل و الواهية في كتبه الوعظية و الحديثية ، دون أن ينبه عليها .
و من يطالع بعض كتبه الوعظية كذم الهوى ، و بستان الواعظين ، و اليواقيت
و تليس إبليس ، و عجيب الخطب ، و المواظ و المجالس يرى تساهله في إيراد الحديث
لموضوع و الضعيف ، و لا لثري كيف بداعية و محدث كابن الجوزي يجمع بين منهجين
متناقضين فتارة يتشدد في قبول الأحاديث و يعيب على العلماء تساهلهم في هذا الأمر
وتارة أخرى يتساهل إلى حد كبير ، و كدليل على ذلك نستمع إليه يحدثنا على ما قطعه على
نفسه في أحد كتبه ، حيث قال : " و لا أخلط الصحيح بالكذب كما يفعل من يقصد تكثير
روايته إذ في الصحيح غنية لمن قضى الله بهدايته "³ ، و قال في مصنف آخر عن هذا
العهد الذي قطعه على نفسه : " اعتمادي على السنة و القرآن و اعتقادي اعتقاد فقهاء البلدان
و أورد الصحيح في نقلي و أقلى البهتان "⁴ ، و في كتابه الياقوتة الذي اعتبره بمثابة نماذج
للوافظ ليلسج على منوالها⁵ ، لكنه بمجرد أن يبدأ في سرد هذه النماذج حتى تصادفك
الأخبار للموضوعة في أغلب النماذج تقريبا ، و قد رد عليه علماء الحديث كثيرا في هذا
المجال ، كالإمام الذهبي ، و ابن صلاح ، و ابن الأثير ، و لا نرى أي تعليل لابن الجوزي

1- الشورى : 5 .

2- الطائف : 74 .

3- الوفاء بأحوال المصطفى : ص 1 .

4- رؤوس القوارير : ص 28 .

5- الياقوتة: ص 41 .

في هذا الأمر إلا لكونه واعظاً لجماهير المدعويين من العوام ، لذلك كان يجد — رحمه الله — في رواية الأخبار و القصص الماضية ما يشبع به نهم المستمعين و يلفت انتباههم و يثير إعجابهم و يريح فضولهم ، وما حدث مثل هذا إلا لكون العوام ليسوا ممن لديهم دراية بالبحث العلمي و التدقيق الفقهي فتعجبهم القصص و الأعاجيب حتى و لو كانت موضوعة و باطلة كما أن هذا المنهج يبدو أن ابن الجوزي قد استخدمه في بداية حياته الوعظية ، أضف إلى ذلك كثرة تأليفه في فنون مختلفة و في وقت واحد ، كل هذه الأسباب هي التي جعلته — على أكثر تقدير — يفرط بعد ذلك في حكمه على الأحاديث بالوضع بل و كانت كرد فعل عفيف منه على ما وقع فيه في بداية حياته العلمية¹ ، و قد اعترف ابن الجوزي بروايته للموضوع حيث أنه بعد أن أورد حديثاً و حكم عليه بالوضع² قال : " كنت قد سمعت هذا الحديث في زمن للصبا نحواً من ثلاثين سنة لحس ظني بالرواية ، فلما علمت أنه موضوع تركته ، فقلل لي قائل : ليس هو استعمال خير ؟ قلت : استعمال الخير ينبغي أن يكون مشروعاً ، فإذا علمنا أنه كذب خرج عن المشروعية"³.

و هذا الاعتراف من ابن الجوزي هو ما يفستر لنا بوضوح سر استعماله للأحاديث الموضوعية في المجال الدعوي و الوعظي ، ثم رأيناها يتشدّد في جرح و تعديل الرواية بعد ذلك ، مما جعل الطريق سهلاً أمامه في الحكم على الأحاديث بالوضع ، كما أن اعترافه بأنه استعمل هذا الحديث نحواً من ثلاثين سنة ، ففي نظرنا تعتبر هذه الفترة الزمنية مدة كافية ليصنّف فيها ابن الجوزي عدداً لا بأس به من الكتب الدعوية و الوعظية ، و خاصة أنه بدأ التأليف في سن مبكرة و ملكته في الحديث و الرواية لم تصقل بعد ؛ زيادة على ذلك فقد كان يؤلف في اليوم تسعة كر لريس كما ذكر المترجمون له⁴ فلا غرو أن تشتمل هذه المصنفات على أحاديث من الموضوعات ، لكن بعد المدة الطويلة التي قضّاها في المطالعة و البحث و التدقيق فقد تمكن من هذا العلم و رسخت قدمه فيه و لعلّ هذا يبرر ما وقع فيه رحمه الله .

¹ - ابن الجوزي المحدث و منهجه في الموضوعات : أبو الملا علي أبو الملا ، ص 176 .

² - الحديث هو : " قال رسول الله — صلى الله عليه و سلم — : إن فاتحة الكتاب و آية الكرسي ، و آيتين من آل عمران (شهد الله .. و قل اللهم ملك الملك) مطفقات بالعرش بقل : يا رب هبطنا لى أرضك ، الى من بعصيك ؟ قال الله — عز و جل — : ان حلفت لا يترأكن أحد من عبادي دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة منواه ، و ألا أسكنته حظيرة القدس ، و ألا نظرت إليه بحيي المكون في كل يوم سمعت نظره ، و ألا قضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة ، و ألا نصرته من كل عدو ، و أعدته منه " أمرحه ابن الجوزي في كتاب العلم باب فريضة الفاتحة و آية الكرسي عقب الصلاة ، الموضوعات ، 1 / 245 .

³ - الموضوعات : 1 / 245 .

⁴ - أشرنا إلى ذلك في نصل حياة ابن الجوزي و فصل أساليب الدعوة و رسائلها .

لكن هناك بعض المرويات في كتب ابن الجوزي وقفت عندها مليا و لم أستطع أن أجد دليلا مقنعا واحدا يبيح لابن الجوزي رواية هذه الأخبار المتهافة التي هي أقرب إلى الخرافة منها إلى الأشياء المعقولة كقوله مثلا أثناء امتداحه للنبي - صلى الله عليه وسلم -: " هذا آدم - عليه السلام - يباح له الجنة سوى شجرة فلا يقع ذباب حرصه إلا على الفقر ... هذا الكليم موسى - عليه السلام - يستغيث عند عبادة قومه العجل و يتوكأ على القدر لثلاثا (إن هي إلا فتنتك) و يوجه إليه ملك الموت فيقطع عينه " ¹ و لسنا نرى هنا أي مبرر لابن الجوزي لكي يثني على الرسول - صلى الله عليه وسلم - و يذم الأنبياء السابقين أو يعرض بهم فلماذا سلك ابن الجوزي هذا السبيل بنقله هذه الإسرائيليات التي هو بكل تأكيد في غنى عنها. و في معرض حديثه عن سوء عاقبة المذنبين يسوق هذه الروايات بسندها و لا يعلق عليها بشيء و كأنها من صحيح البخاري ، رغم ما فيها من سذاجة و استخفاف بعقول السامعين - حسب ما بداني - ، فيقول : " قال عبد المجيد بن عبد العزيز : كان عندنا بخراسان ² رجل كتب المصحف في ثلاثة أيام فلقبه رجل فقال : في كم كتبت هذا ؟ و أوما بالسبابة و الوسطى و الإبهام و قال : في ثلاث (و ما مسنا من لغوب) فجفت أصابعه لثلاث ، فلم ينتفع بها فيما بعد ... قال عبد الحميد : و رأيت رجلا كان يأتي امرأته حائضا فحاض فلما كثر الأمر به تاب فانقطع عنه " ³ ، و لسنا ندري كيف حاض هذا الرجل الذي ارتكب هذا الذنب حتى كانت العقوبة من جنس العمل حبذا لو أن ابن الجوزي شرح لنا المسألة حتى نعرف متى كان الرجال يحبضون ؟!

و هذه قصة أخرى من العجائب التي رواها ابن الجوزي في تفسيره ، يقول في وصف القوم الجبارين الذين ذكرهم الله في سورة المائدة قال : " قال ابن عباس : لما نزل موسى و قومه بمدينة الجبارين بعث اثني عشر رجلا ، ليأتوه بخبرهم ، فلقبهم رجل من الجبارين ، فجعلهم في كسانه فأتى بهم المدينة ، و نادى في قومه فاجتمعوا فقالوا لهم من أين أنتم ؟ فقالوا : نحن قوم موسى بعثنا لنا نأتيه بخبركم فأعطوهم حبة عنب توقر الرجل و قالوا لهم : قولوا لموسى و قومه : اقدروا قدر فاكهتكم ، فلما رجعوا قالوا : يا موسى إن فيها قوما جبارين ، و قال مجاهد : لما رأى النقباء الجبارين وجدوهم يدخل في كم أحدهم اثنتان

¹ - صيد الخاطر : ص 296 ، و الآية من سورة الأعراف : 155 .

² - خراسان : بلاد واسعة أول حدودها ما يلي العراق و آخرها ما يلي الهند و تشتمل على العالمين من البلاد منها نيسابور و هرة و مرو و قد أصبحت أكثر هذه البلاد عبوة و صلحا أيام الخليفة عثمان - رضي الله عنه ، معجم البلدان : 2 / 350 .

³ - صيد الخاطر : ص 302 ، و الآية من سورة ق : 38 .

منهم ، و لا يحمل عقود أحدهم إلا خمسة أو أربعة أو يدخل في شطر الرمانة إذا نزع حبها
خمسة أو أربعة¹.

2 - الغلط في التصنيف :

كما أخذ العلماء على ابن الجوزي كثرة الغلط في التصنيف و لهم في ذلك أقوال
كثيرة كقول الإمام الذهبي - رحمه الله - : " له و هم كثير في توليفه يدخل عليه للداخل
من العجلة و التحويل إلى مصنف آخر ، و من أن جل علمه من كتب و صحف ما مارس
فيها لرباب العلم كما ينبغي " ² ، و قال عنه في مصنف آخر : " هكذا هو له أوهام و ألوان
من ترك للمراجعة ، و أخذ العلم من صحف ، و صنف شيئا لو عاش عمرا ثانيا لما لحق أن
يحرره و يتقنه " ³.

و قد أرجع العلماء و الباحثون سبب خطأ في التصنيف إلى جملة من الأسباب من
بينها : العجلة في التأليف و عدم مراجعة ما يكتبه ، و أخذه العلم من الصحف من غير أن
يكون متقنا من جهة الشيوخ و البحث ، كما أنه كان إذا رأى مصنفا و أعجبه صنف مثله في
الحال و إن لم يكن قد تقدم له في ذلك الفن عمل فربما أوقعه في تصنيف الشيء و نقبضه
زد على ذلك اشتغاله في كتابة أكثر من مصنف في وقت واحد⁴ ، مما جعل كثرة نقوله من
كتب غيره تذهب بمعالم شخصيته المتميزة فجانبه التعمق و فاتته الأصالة في كثير من
المصنفات⁵.

و لعل هذا الذي لوقع ابن الجوزي فيما وقع فيه هو إكثاره من التأليف ؛ لأن الذي
يؤلف في ميادين مختلفة يقع في أخطاء لأنه غير متمكن من صحة ما يكتب عنه و هذا ما
جعل ابن رجب يقول عنه : أنه كان ينقل في بعض الأحيان عن كتب غيره دون أن تكون
له دراية⁶.

و الذي يمكننا قوله في هذا المجال أن رجلا كابن الجوزي كتب الكثير من المصنفات
و نقد الكثير من أوضاع عصره كان لابد أن يكون له خصوم و أعداء ، كما أن من كانت له

¹ - زاد المسر : 1 / 325 .

² - تذكرة الحفاظ : الذهبي ، 4 / 1347 .

³ - سر أعلام النبلاء : الذهبي ، 21 / 278 .

⁴ - انظر في ذلك : الذيل على طبقات الحنابلة : ابن رجب 1 / 414 - سر أعلام النبلاء : الذهبي ، 21 / 378 - تذكرة

الحفاظ : الذهبي ، 4 / 1347 ، و لاهم الباحثون المحدثون في الأمر و كل الذين ترجموا له نقلوا عن بعضهم منا الكلام .

⁵ - أنظر القصاص والمذكرين : ص 41

⁶ - الذيل على طبقات الحنابلة : ابن رجب ، 1 / 414

أعداد هائلة من المؤلفات كابن الجوزي فلا بد أن يقع في السهو و الخطأ في بعض مؤلفاته
و لا بد أن هذا سيعرضه لبعض الانتقادات ¹ .
و - سننكه على الطماء :

و مما أخذ على ابن الجوزي - رحمه الله - حملته على الدعاة والعلماء وتشنده مع
جملة من أفاضل العلماء كالإمام الغزالي و الإمام الجويني ² و ابن عبد البر ³ و الإمام
الأشعري و قطب الصوفية عبد القادر الجيلالي ⁴ حتى وصفه ابن الأثير بقوله : " كان كثير
لواقعة في الناس لا سيما في العلماء المخالفين لمذهبه، أو الموافقين له " ⁵ و إن كان هذا يعتبر
من باب تنافس الأقران و لكن كان الأولى لابن الجوزي أن يئأى بنفسه عن هذه المطاعن
التي تسدل على عدم الترووي و التثبت في إطلاق الأحكام و سنذكر بعض ما قاله - رحمه
الله - في هؤلاء العلماء و أولهم الإمام الغزالي الذي قال عنه : " و رأيت في كتاب إحياء
علوم الدين للغزالي من هذا ما يدهش من التخليط في الأحاديث و التواريخ فجمعت من
أغاليطه في كتاب منهاج القاصدين " ⁶ .

ولنستمع إليه فيما يقوله عن ابن عبد البر : " ولقد عجبت لرجل أنلسي يقال له ابن عبد
البر صنف كتاب " التمهيد " فنكر فيه حديث النزول إلى السماء الدنيا فقال : هذا يدل
على أن الله - تعالى - على العرش لأنه لو لا ذلك لما كان لقوله ينزل معنى ، و هذا كلام
جاهل بمعرفة الله - عز و جل - لأن هذا استسلف من حسه ما يعرفه من نزول الأجسام
فماس صفة للحق عليه فأين هؤلاء و اتباع الأثر " ⁷ .

و مما قاله عن الإمام الجويني ما نقله عن ابن عقيل ⁸ : " و لقد حكى ابن عقيل عن
أبي المعالي الجويني أنه قال : إن الله - تعالى - يعلم جمل الأشياء و لا يعلم التفاصيل و لا
لري أي شبهة وقعت في وجه هذا المسكين حتى قال هذا ، و كذلك أبو حامد حين قال :

¹ - ابن الجوزي و مقاماته الأدبية : علي حمل منها ، ص 62 .

² - الجويني : إمام الحرمين أبو المعالي الجويني ولد سنة 419 هـ ، تفقه ببغداد ثم خرج إلى مكة فحاور فيها أربع سنين ، درس و وعظ
و خطب ببستانور ، رحل إليه الطلبة من الأمصار ، توفي سنة 478 هـ الكامل في التاريخ : 441/8 البداية و النهاية 128/12 .

³ - تلذمت ترجمته .

⁴ - تلذمت ترجمته .

⁵ - الكتل في التاريخ : ابن الأثير ، 276 / 10 ، و الغرب كذلك أن ابن الأثير لم يترجم لابن الجوزي سوى في ثلاثة أسطر .

⁶ - سيد الخاطر : ص 439 .

⁷ - المصدر السابق : ص 84 .

⁸ - تلذمت ترجمته .

النزول للتنقل ، و الاستواء معاسة و كيف أصف هذا بالفقه ، أو هذا بالزهد و هو لا يدري ما يجوز على الله مما لا يجوز ، و لو أنه ترك تعظيم نفسه لردّ صبيان الكتاب رأيه عليه فإن له صدقهم ¹ ، كما اتهمها في موضع آخر من كتابه "صيد الخاطر" بالتغفيل و الخلط ² .
 مما جعل الإمام السبكي - رحمه الله - يقول رداً هذه التهمة عن الجويني : "و قد كان لأذهبي لا يدري شرح البرهان و لا هذه الصناعة و لكنه يسمع خرافات من طلبة الحنابلة فيعتقدها حقاً و لا يودعها تصانيفه" ³ ، ثم يقول مستنكراً : "متى قال الإمام هذا و لا خلاف بين أئمتنا في تكفير من يعتقد هذه المقالة و قد نص الإمام في كتبه الكلامية بأسرها على كفر من ينكر الجزئيات" ⁴ و قد رجعت إلى قول الإمام الأذهبي ⁵ في الإمام الجويني فوجدته يعزو التهمة إلى الإمام المازري ⁶ .

و قد ردّ الشيخ الغزالي - رحمه الله - على مقالة ابن الجوزي هذه فقال : "ما صدق المؤلف نسبته إلى الجويني بعيد في نظرنا وكذلك ما تناول به الغزالي من عبارات ينقصها التثبت" ⁷ .
 و هكذا يتناقل علماءنا التهم و يكيلونها لبعضهم البعض دون أي تحر أو تمحيص و الدليل على ذلك أن الناظر لكتب الإمام الجويني يرى أنها بعيدة كل البعد عما نسب إليه ⁸ .
 كما وجدنا ابن الجوزي - رحمه الله - قد عاب الأشعري في مواضع كثيرة من كتبه ⁹ مردّ ذلك هو العداء التقليدي بين الحنابلة و الأشاعرة ، و قد كان حرباً بابين الجوزي أن يجنب نفسه حوائل هذه المحن التي ابتليت بها الأمة منذ عصور خلت و إلى اليوم .
 و نتيجة لما بدر من ابن الجوزي من ما أخذ و هتات كان هناك ردّ فعل من بعض علماء عصره الذين انتقدوه بشدّة و ردوا عليه جملة من أقواله و من هذا القبول الرسالة

¹ - صيد الخاطر : ص 111 ، 112 .

² - المصدر السابق : ص 439 .

³ - طبقات الشافعية : السبكي ، 5 / 188 .

⁴ - المصدر السابق : 5 / 188 .

⁵ - انظر سير أعلام النبلاء : الأذهبي ، 18 / 470 .

⁶ - المازري : محمد بن علي بن عمر من مازر مدينة في صقلية ، نسب إليها فقبه المالكية و محدثها نون سنة 536 هـ انظر وفيات

الأعيان لابن حنبلان 4 / 285 .

⁷ - صيد الخاطر : ص 112 .

⁸ - انظر مقالات إمام الحرمين كالمقدمة المنظمة ، و الإرشاد لتدرك عملاً ما قبل به .

⁹ - نجد في كتبه الكثير من الحوالات التي عكس من الأشعري و ملحقه في صيد الخاطر : ص 101 ، 181 ، و في المنتظم سنة 538 .

لطويلة التي وجهها إليه الشيخ إسحاق العثلي¹ و سنذكر جملة ما جاء فيها كخاتمة لهذا الموضوع ونصها كما يلي : " من عبىء الله إسحاق بن أحمد بن محمد بن غانم العثلي ، إلى عبد الرحمن ابن الجوزي حمانا الله و إياه من الاستكبار عن قبول النصائح ، و وفقنا وإياه لاتباع السلف الصالح ، و بصرنا بالسنة السنية ، و لا حرمنا الإهداء باللفظات النبوية و أعلننا من الإبتداع في الشريعة المحمدية . فلا حاجة إلى ذلك . فقد تركنا على بيضاء نقية و أكمل الله لنا الدين ، وأغنانا عن آراء المتنطعين ، ففي كتاب الله وسنة رسوله مقنع لكل من رغب أو رهب ، ورزقنا الله الاعتقاد السليم ، و لا حرمنا التوفيق فإذا حرمه العبد لم ينفع لتعلم . و عرفنا أقدار نفوسنا ، و هدايا الصراط المستقيم ، و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم ، و فوق ذي علم عليم . وبعد حمد الله سبحانه ، و الصلاة على رسوله : فلا يخفى أن " الدين النصيحة " خصوصا للمولى الكريم ، و الرب الرحيم . فكم قد زل قلم ، و عثر قدم و زلق متكلم ، و لا يحيطون به علما . قال - عز من قائل - : (و من الناس من يجادل في الله بغير علم و لا هدى و لا كتاب منير)² ، و أنت يا عبد الرحمن ما يزال يبلغ عنك و يسمع منك و يشاهد في كتبك المسموعة عليك ، تذكر كثيرا ممن كان قبلك من العلماء بالخطأ اعتقادا منك : أنك تصدع بالحق من غير محاباة ، و لا بد من الجريان في ميدان النصيح : إما لتنتفع إن هداك الله ، و إما لتركيب حجة الله عليك ، و يحذر الناس قولك الفاسد و لا يفرك كثرة اطلائك على العلوم ، فرب مبلغ أوعى من سامع ، و رب حامل فقه لا فقه له ، و رب بحر كدر و نهر صاف ، فلست بأعلم من الرسول ، حيث قال له الإمام عمر " أتصلي على ابن أبي ؟ فنزل القرآن (و لا تصل على أحد منهم)³ و لو كان لا ينكر من قل علمه على من كثر علمه إذا لتعطل الأمر بالمعروف ، و صرنا كبني إسرائيل حيث قلل تعالى : (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه)⁴ بل ينكر المفضول على الفاضل و ينكر للفاجر على الولي ... إلى أن قال : و اعلم أنه قد كثر النكير عليك من العلماء و الفضلاء و الأخيار في الآفاق بمقاتلتك الفاسدة في الصفات . و قد أبانوا وهاء مقاتلتك ، و حكوا عنك

¹ - العثلي : إسحاق بن أحمد ، الزاهد القلوة ، كان صلحا أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، لم يكن مثله في هذا الشأن حتى

حس عليه ، كان يكتب حتى للعلاء بنسبهم ، انظر لنبل على طبقات المناجاة لابن رجب : 205 / 2 .

² - الحج : ٥ .

³ - هرة : ٥٥ .

⁴ - المائدة : 79 .

لأنك لبيت النصيحة ، فعندك من الأقوال التي لا تليق بالسنة ما يضيق الوقت عن ذكرها فنكر عنك : أنك ذكرت في الملائكة المقربين ، الكرام الكاتبين فصلا زعمت أنه مواعظ وهو تشويق و تفهيق ، و تكلف بشع ، خلا أحاديث رسول الله - صلى الله عليه و سلم - و كلام السلف الصالح الذي لا يخالف سنة ، فعمدت و جعلتها مناظرة معهم ، فمن لئن لك في ذلك ؟ و هم مستغفرون للذين آمنوا ، و لا يستكبرون عن عبادة الله ، و قد قرن شهادته بشهادتهم ، قبل أولى العلم و ما علينا كان الأمل أفضل منهم أم لا فتلك مسألة أخرى .

فشرعت تقول : إذا ثارت نار الحسد فمن يطفئها ؟ و في الغيبة ما فيها ، مع كلام غث اليس منا فلان و منا فلان ؟ و منا الأنبياء و الأولياء ، من فعل هذا من السلف قبلك ؟ و لو قال لك قائل من الملائكة : أليس منكم فرعون و هامان ؟ أليس منكم من ادعى الربوبية ؟ .

فعمد أخذت هذه الأقوال المحيطة ، و العبارات المزوقة ، التي لا طائل تحتها و قد شغلت بها الناس عن الاشتغال بالعلم النافع أحدهم قد أنسى القرآن وهو يعيد فضل الملائكة و مناظرتهم و يتكلم به في الآفاق . فأين الوعظ و التذكير من هذه الأقوال الشليعة البشعة ؟ ثم تعرضت لصفات الخالق - تعالى - كأنها صدرت لا من صدر سكن فيه احتشام العلي العظيم ...

و زعمت أن طائفة من أهل السنة و الأخيار تلقوها و ما فهموا ، و حاشاهم من ذلك ، بل كفوا عن الثرثرة و التشنق ، لا عجزا - بحمد الله - عن الجدل و الخصام ، و لا جهلا بطرق الكلام ، و إنما أمسكوا عن الخوض في ذلك عن علم و دراية ، لا عن جهل و عمية . و العجب ممن ينتحل مذهب السلف ، و لا يرى الخوض في الكلام ، ثم يقدم على تفسير ما لم يره لولا ، و يقول : إذا قلنا كذا أدى إلى كذا ، و يقيس ما ثبت من صفات الخالق على ما لم يثبت عنده ، فهذا الذي نهيت عنه ، فكيف تنقض عهدك و قولك بقول فلان و فلان من المتأخرين ؟ فلا تشمت بنا المبتدعة فيقولون تنسبوننا إلى البدع و أنتم أكثر بدعا منا أفلا تنظرون إلى قول من اعتقدتم سلامة عقده و تثبتون معرفته و فضله فكيف يجوز أن تتبع المتكلمين في آرائهم ، و تخوض مع الخائضين فيما خاضوا فيه ، ثم تنكر عليهم ؟ هذا من العجب العجيب ...

ثم لك في الكتاب الذي أسميته " الكشف لمشكل الصحيحين " مقالات عجيبة ، تارة تحكيها عن الخطابي و غيره من المتأخرين ، أطلع هؤلاء على الغيب ؟ و أنتم تقولون : لا يجوز التقليد في هذا ، ثم ذكره فلان ، ذكره ابن حنبل ، فنريد الدليل من الذاكر أيضا ، فهو مجرد دعوى ، و ليس الكلام في الله و صفاته بالهين ليلقى إلى مجاري الظنون ... إلى أن

قال : إذا أردت : كان ابن عقيل العالم ، و إذا أردت : صار لا يفهم ، أو هيت مقالته لما أردت ... و نراك تتبنى شيئا ثم تلقضه و تقول : قد قال فلان و فلان ، و تنسب ذلك إلى إمامنا أحمد - رضي الله عنه - و مذهبه معروف في السكوت عن مثل هذا و لا يفسره بل صرح الحديث و منع تأويله . و كثير ممن أخذ عنك العلم إذا رجع إلى بيته علم بما في عيبه من العيب ، و نم مقالتك و أبطلها . و قد سمعنا عنك من أعيان أصحابك المحبوبين عندك الذين مدحتهم بالعلم ، و لا عرض لهم فيك ، بل أدوا النصيحة إلى عبد الله ، و لك القول و ضده منصوران ، و كل ذلك بناء على الواقعات و الخواطر .

و تدعي أن الأصحاب خلطوا في الصفات ، فقد قبحت أكثر منهم ، و ما وسعتك السنة ، فاتق الله - سبحانه - و لا تتكلم فيه برأيك فهذا خير غيب ، لا يسمع إلا من لرسول المعصوم ، فقد نصبت حربا للأحاديث الصحيحة و الذين نقلوها نقلوا شرانع الإسلام . لقد أدبت عبد الله و أضللتهم ، و صار سفك نقل الأقوال فحسب و ابن عقيل - سامحه الله - ، قد حكى عنه أنه تاب بمحضر من علماء وقته من مثل هذه الأقوال ، بمدينة السلام فهو بريء على هذا التقدير مما يوجد بخطه ، أو ينسب إليه من التأويلات و الأقوال المخالفة للكتاب و السنة ، و أنا و أقد الناس و العلماء و الحفاظ إليك ، فإما أن تنتهي عن هذه المقالات و تتوب التوبة النصوح ، كما تاب غيرك ، و إلا كشفوا للناس أمرك و سيروا ذلك في البلاد و بيتوا وجه الأقوال الغثة ، و هذا أمر تشوور فيه و قضي بليل ، و الأرض لا تخلو من قائم لله بحجة ، و الجرح لا شك مقدم على التعديل ، و الله على ما نقول وكيل ، و قد أعذر من أذرت ... و لقد سؤدت وجوهنا بمقالتك الفاسدة ، و انفرادك بنفسك ؛ كأنك جبار من الجبابة ، و لا كرامة لك و لا نعمى ، و لا نمكك من الجهر بمخالفة السنة ، و لو استقبل من رأى ما استنبر لم يحك منك كلام في السهل و لا في الجبل ، و لكن قدر الله ما شاء فعله بيننا و بينك كتاب الله و سنة رسوله قال الله تعالى : (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله و الرسول)¹ و لم يقل : إلى ابن الجوزي .

و ترى كل من أنكر عليك نسبته إلى الجهل ، فضل الله أوتيته و حدك ؟ و إذا جهلت الناس فمن يشهد لك أنك عالم ؟ و من أجهل منك ، حيث لا تصغي إلى نصيحة ناصح ؟ و تقول : من كان فلان ، و من كان فلان ؟ من الأئمة الذين وصل العلم إليك عنهم ، من أنت إذا ؟ فقد استراح من خاف مقام ربه ، و أحجم عن الخوض فيما لا يعلم ، لنلا يندم

فانته به يا مسكين قبل الممات ، و حسن القول و العمل ، فقد قرب الأجل ، لله الأمر من قبل
و من بعد و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم " ¹ .

و هذه الرسالة في جملتها لا تختلف في ماخذها عن ما قلناه بل جاءت تؤكد ، و إن
كانت تظهر زيادة على ذلك تغافل ابن الجوزي عما في مؤلفاته من أخطاء و كذلك
عنايه و عدم رجوعه عن ما رمى به العلماء من الجهل ، و كان الأجدر به — رحمه الله
— لو تريت و تمهل لكان مردوده العلمي و الدعوي أكثر انتشارا و نبوعا حتى بين العلماء
و الأكران .

ومهما يكن عند المرء من خطأ فإن له قسطا من الصواب حتما ، وكذلك ابن الجوزي
و إن كان له ما يؤخذ عليه و هو قليل ، فإن له ما يحمد عليه و هو كثير ، و إن من الحق
و الإنصاف معرفة لمدار الرجال و إنزالهم منازلهم التي تليق بهم ، و إذا كان قد بدر من
ابن الجوزي شيء من التناقض في طرح بعض الأفكار ، أو لركه و هن في رأي ما ، فإن
ذلك راجع في الغالب للمنهج الذي كان سائدا في عصره حيث كانوا يروون الخبر عن قائله
و يرون في ذلك إلقاء للتبعية على عاتق قائله ، أضف إلى ذلك أن علماء ذلك الزمان كانوا
يعتمدون في الغالب على الذاكرة و الحفظ ، فتناولهم لكثير من الموضوعات في وقت واحد
لوقعهم في جملة من الأخطاء ، لأن منهم من صبّ جل جهده على التصنيف و لم يلتفت
كثيرا إلى التنقيح و هذا ما وقع فيه تماما الإمام ابن الجوزي — رحمه الله — مما جعل الإمام
للذهبي يؤكد " أنه صنّف شيئا لو عاش عمرا ثانيا لما لحق أن يحرره و يتقنه " ² .

¹ - انظر عمري الرسالة كاملا في الدليل على طبقات الخبايا : ابن رجب ، 1 / 205 إلى 210 .

² - سر أعلام النبلاء : الذهبي ، 21 / 270 .

الخاتمة

إذا كان لكل بداية نهاية كما يقال ، فأنى و إن انتهت هذه الرسالة بالكتابة عن ابن الجوزي و منهجه الدعوي ، فإنه في حقيقة الأمر إن الرحلة لم تنته بعد مع هذه الشخصية المتعددة المشارب و المترامية الأطراف ، و هذا مما جعل — إلى غاية كتابة خاتمة الرسالة هذه — بعض المشاعر تتناوبني ، والتي منها الشعور بعظمة أسلافنا من العلماء و الدعاة ، و الشعور بالأسى و المرارة لما أصاب أمتنا و هي التي نجحت أمثال هؤلاء ، الذين كان الواحد منهم يكاد يكون بحراً من بحور العلم و المعرفة ، و رغم أن قعد الفكر الإسلامي كثير و لكن لم يخلد فيه إلا القليل ، حيث انتشر في ميدان الأدب و الحكمة نكرات و اختفت أعلام بارزة في الفقه و الدعوة و الفكر الإسلامي عموماً .

و لاشك أن الاحتفاء بالرواد من قادة الفكر و الدعوة و الإصلاح و التغيير هو احتفاء و إشادة بالمنهج الإلهي القويم الذي علموه الناس و سوهده إليه و ذلك لكونهم لم يعيشوا لأنفسهم بل جردوا حياتهم من أجل الدعوة و الفكرة التي عاشوا من أجلها .
و مما يمكن التسليم به في هذا المقادير هو وجود الكثير من القواسم المشتركة الشخصية و الفكرية بين هؤلاء الدعاة و لا غرابة في ذلك إذ نجد جميعاً ينهلون من المنبع الخالد و الأثر المعصوم .

و في طليعة هؤلاء الدعاة و العلماء الذين استهوا بانقاد و اللسان في ميدان الإصلاح الديني و الاجتماعي الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، هذا العالم الذي خدم أمتة خدمة يقصر عنها الكثير ممن تبوأ في هذا العصر مكان الصدارة في المحافل الفكرية و الأدبية و هذا ما حاولنا تجليته في رسالتنا هذه عن " ابن الجوزي و منهجه الدعوي الإصلاحى من خلال مؤلفاته " و التي تبين لي من خلالها ما يلي :

1 - أن ابن الجوزي كان ذا شخصية فذة من حيث تكوينه العلمي و الأخلاقى ، فقد كان على جانب كبير من حسن الخلق و المثابرة في طلب العلم ، فلم يكن يضيع من زمانه شيئاً و هو بذلك يعدّ مثالا يحتذى لطلبة العلم .

2 - أن مؤلفاته الكثيرة تجل على عبقريته في مجال التصنيف و سعة ثقافته ، و كثرة محصوله كما أن مؤلفاته هذه قد لاقت الكثير من القبول و الرضى بين العلماء و الباحثين في عصره و بعد عصره .

١- أن منهج ابن الجوزي الدعوي لم يخرج عن الأطار العاد للمناهج الدعوية التي أرشد إليها القرآن الكريم ، و سار عليها السلف الصالح ، و بذلك كان منهجه مناسباً لعصره باستخدامه شتى الوسائل و الأساليب المتوفرة في ذلك الحين .

٢- أنه كان يمزج في منهجه الدعوي بين دعوة الحكام و العوام و أهل الذمة ، لأنه كان يرى أن جميع هؤلاء الأصناف في حاجة إلى دعوة وذكور و إصلاح ، فالرعية لا تصلح إلا لإصلاح حكامها ، رغم كونه لذيكاً يسائر الحكام في أهوائهم و رغباتهم .

٣- أنه كان شديد المحاربة لتيار التصوف ، و الزندقة ، فقد حاول جاهداً في سعيه لتحرير الفكر الإسلامي من شوائب هذه التيارات بإرساء قواعد منهج أهل السنة و الجماعة في القول و العمل .

٤- أن ابن الجوزي كان شمولي النظر في منهجه الدعوي ، فكما تطرق لكبار قضايا عصره تطرق لصغارها ، مع شيء غير قليل من الجراءة و الإقدام .

٥- أن ما أخذ على ابن الجوزي قليل إذا قورن بحجم عطائه الفكري و الدعوي الذي لم يبلغه إلا القليل من العلماء الإقدام ، فكون الرجل بهذه السعة الثقافية و المحصول الفكري الذي لا يضاهي توجه إليه مجموعة قليلة من الماخذ لا يترك صفاء الجهود التي بذلها ، إذ لا تعكر صفو البحر قطرات مطر ملوث .

٦- أن تأثير ابن الجوزي في عصره و بعد عصره كان جلياً و واضحاً ، سواء في ميدان العلم أو الدعوة ، نجلى إذا ذلك من خلال أقواله و آرائه التي حفلت بها الكثير من مؤلفات العلماء المتقدمين و المتأخرين ، و لا يزال تأثيره مستمرا... بإذن الله

- التوصيات و المقترحات :

على الرغم من كل ما قيل فإن ابن الجوزي لا يزال في حاجة إلى المزيد من الإنصاف و التقدير ، و الإعتناء بترائه الفكري و الدعوي على وجه الخصوص و ذلك بـ :

١- القيام بطبع مؤلفاته و التي ضاع منها الكثير ، و منها ما هو في طريق الضياع من المخطوطات الموجودة في المكتبات العربية و العالمية ، فيعض ما عاينته من كتبه المخطوطة كان في وضعية سيئة .

٢- ضرورة اهتمام الباحثين بتراث ابن الجوزي ، من حيث التنقيح و التحقيق و إخراجها لإخراجاً طمياً منقى من الأخبار الإسرائيلية و الموضوعية .

- ١- دراج ابن الجوزي ضمن رواد الفكر و الدعوة هي انعالمه الإسلامى ، وصياغة فكره الدعوى و دراجه ضمن مدارس الفكر الإسلامى .
- ٢- الاستفادة من فكر ابن الجوزي الدعوى في مجال الإرشاد الدينى بالنسبة للوعاظ و الدعاة و مختلف أسلاك الشؤون الدينيه و إدارات التربية الوطنيه .
- ٣- إقامة ندوات علميه و ملتقيات فكرية حول شخصية ابن الجوزي و عطائه العلمى و الدعوى ، و ابراز مدى استفادة الأجيال من علمه و منهج دعوته .
- ٤- بناء مراكز و هيئات علمية تتكفل بجمع تراث هذا العلامة و فكره حتى لا يضيع منه أكثر مما ضاع فى الماضى ، و خاصة إذا علمنا أن تراث ابن الجوزي لا يزال أغلبه مخطوطا و أن ما طبع منه قد لا يصل إلى ربع مجموع ما ألفه رحمه الله .
- ٥- اطلاق اسم ابن الجوزي على مؤسسات التربية و التعليم و التكوين كرمز للحفاظ على تراث الأمة و ذاكرتها الثقافية ، و ابن الجوزي جدير بهذا ، أكثر .
- ٦- أخيرا فإننى لا أزعم أنى قد وفيت موضوع الدعوة عند ابن الجوزي حقه من الدراسة و البحث فهذا جهد المقل و قد يأتى بعدى من يتم ما اكون قد قصرت فيه و أسأل الله صاحب الإنعام و الكمال أن يوفقنا فهو نعم المولى و نعم النصير .

الفهارس العامة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأبات القرآنية

الصفحة	رقء الأفة	البقرة	السورة
132	9	لن الذفن كفر واسواء عفهم أنذرتهم أم	
150	10	فما ربحت نجارتهم و ما كانوا مهنتفن	
185	21	فا أفا الناس اعبءوا ربكم	
214	38	لا خوف عفهم و لا هم فحزنون	
76	61	بل فءاء مبسوطان	
500	71	إنها بقرة لا ذلول	
485	83	و فن فأنوكم أسارى	
76	117	فقم و فء الله	
563	123	و فذ ابنتى فبراهفم ربه بكلمات	
361	143	و كذلك فءاناكم أمة وسطا	
465	153	إن الله مع الصابرفن	
554	155	و لنبلونكم بشفء من الخوف	
244	159	إن الذفن فكنمون ما أنزلنا من الففئات	
884	178	و لفن مثل الذى عفهن	
378, 177	21	و قال لهم ففبهم فن انه فء بعث لكء	
444	21	فمن شرب منه فلفس منى	
52, 200, 556	259	فلم تر إلى الذى فءاج فبراهفم	
		ال عمران	
117	3	فشهد الله أنه لا إله إلا هو	
211	28	و فحذركم الله نفسه	
142	38	فذلك فءما فزكرفاء ربه	
251	62	إن فذا لفم الفقصم الفقى	

333	١٠١	قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة
485, 185	١٠٢	و لكن كونوا ربانيين
485	١٠٣	و من دخله كان آمنا
447 11641350336137	104	و لتكن منكم أمة يدعون إلى الخير
160	105	قل هذه سبيلي أدعو إلى الله
160	106	ثم أنزل عليك من بعد الغد أمة
485	107	قل يا أيها الناس إني رسول الله
334	108	إن الله فقير و نحن أغنياء
173011 6116	109	كل نفس ذائقة الموت

النساء

130	١١٠	و لا تؤتوا السفهاء أموالكم
187	١١١	و اتقوا إحداهن فتنطارا
571	١١٢	فإن تنازعتم في شئ
511	١١٣	و أنزلنا إليكم تورا مبينا

المائدة

143	١١٤	اليوم أكملت لكم دينكم
336	١١٥	نحن أبناء الله و أحببناه
206	١١٦	و اتل عليه نبأ بني آدم بالحق
188	١١٧	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله
217	١١٨	لكل جعلنا منكم شرعة و منهاجا
334	١١٩	و قالت اليهود يد الله مغلولة
569	١٢٠	كانوا لا يتناهون عن منكر
374 372	١٢١	و كلوا مما رزقكم الله حلالا
341	١٢٢	يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا
457	101	لا تصالوا عن أشياء إن تبد لكم

الأنعام

363	١٢٣	قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم
-----	-----	-----------------------------

243	90	— أولئك الذين اهتدوا فيهداهم اقتده
286	133	— و كذلك جعلنا في كل قرية
76	158	— هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة
		الأعراف
167	17	— أنا خير منه خلقتني من نار
373	31	— و كلوا و اشربوا و لا تسرفوا
178450	32	— قل من حرم زينة الله التي اخرج
501	31	— لهم من جهنم مهلك و من فوقهم
124	33	— و نزغنا ما في صدورهم من غل
363	4	— سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون
203	62	— أبلغكم رسالات ربي و أنصح لكم
203	63	— أبلغكم رسالة ربي و أنا لكم فاصح
787	75	— قال الملأ الذين استكبروا من قومه
203	70	— يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي
513	110	— يريد أن يخرجكم من أوطانكم
334	138	— اجعل لنا الهة كما لهم الهة
565	155	— إن هي إلا فتنتك
211	190	— و رحمتي وسعت كل شيء
231	197	— يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر
485	199	— و درسوا ما فيه
		الأطفال
212	9	— إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله
		التوبة
332	33	— هو الذي أرسل رسوله بالهدى
231	71	— و المؤمنون و المؤمنات بعضهم أولياء
569	81	— و لا تصل على أحد منهم
150	111	— إن الله الشاكر من المؤمنين أنفسهم

231	112	– الأمرين بالمعروف و الناهون عن المنكر
170	113	– يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و كونوا مع الصادقين
284	114	– و ما كان المؤمنون لينفروا كافة
450	115	– فقاتلوا الذين يلونكم من الكفار
404	116	– فلولوا نفر من كل فرقة

يونس

291	117	– هو الذي جعل الشمس ضياء
486	118	– و يعبدون من دون الله ما لا يضرهم
481/151	119	– فجعلناها حصيدا كأن له عين بالأمس
544	120	– للذين أحسنوا الحسنى و زيادة
450	121	– فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خاؤا

هود

200	122	– قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت
101	123	– إني أعظك أن تكون من الجاهلين

يوسف

291	124	– نحن نقص عليك أحسن القصص
207	125	– قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق
550	126	– و شرره بثمن بخس
158	127	– قال معاذ الله أنه ربي
513	128	– ذلك ليعلم أني لم أخذه بالغيث
350	129	– و ما أبرئ نفسي إن النفس لأماراة
207	130	– تا لله لقد اترك الله علينا
557	131	– إني لأجد ريح يوسف
160	132	– قل هذه سبيلي أدعو إلى الله
160	133	– لقد كان في قصصهم عبرة

الرعد

150..	134	– و قد خلقنا من قبلهم السموات
-------	-----	-------------------------------

٤١٢	١١	– هو الذي يرثكم البرق
٤٤٤	١١	– له دعوة الحق
٤١٢	١١	– و لا يزال الذين كفروا تصيبهم
٤١٢	١١	– و يقول الذين كفروا لست مرسلًا
		ابراهيم
٢٤٢	١١	– ثم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طغية
٢٨١	١١	– و تبين لكم كيف فعلنا بهم
		الحجر
٢١٩	١١	– و ما هد منها بمخرجين
١١٣	١١	– فاصدع بما تؤمر و أعرض عن المشركين
		الذحل
٢٠١	١١	– و لقد بعثنا في كل أمة رسولًا
٤١٥	١١	– و أقسم بالله جهد أيمانهم
٣٨١	١١	– ما عنكم ينفذ و ما عند الله باق
٣٨١	١١	– من عمل صالحا من ذكر أو أنثى
٣٤٤ / ٢٨٩ / ٢٠٤ / ١٤٩	١١	– ادع إلى سبيل ربك بالحكمة
		الاسراء
٣٤٤	١١	– و لا تقبلوا أولادكم خشية إملاق
٣٤٥	١١	– و لا تقف ما ليس لك به علم
٤٨٥	١١	– و إن من شيء إلا يسبح بحمده
٢١٨	١١	– أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم
٣١٥	١١	– قل الروح من أمر ربي
		الكهف
٧٥	١٨	– يريدون وجهه
٣٨٨	١٩	– المال و البنون زينة الحياة الدنيا
٢١٥	١٩	– و وضع للكتاب فتوى المجرمين
٢٠٠	٢١	– و كان الإنسان أكثر شيء جدلا

211	١٧٠	— بود نحشر المنقير الي الرحمن وفدا
		طه
150	١٧١	— بعد السر و أخفى
٤٧٠	١٧٢	— هذه عصاي أتوكأ عليها
182	١٧٣	— و احلل عقدة من لساني
191	١٧٤	— اذهبوا الي فرعون انه طغى
237	١٧٥	— فقولوا له فوالنا لينا
173	١٧٦	— فمن اتبع هداي فلا يضل و لا يسف
		الأنبياء
211	١٧٧	— و ما ارسلنا من قبلك من رسول
1184-387	١٧٨	— و لقد اتينا ابراهيم رشده
٤٤٦	١٧٩	— ثم نكسوا على رؤوسهم
٤٤٦	١٨٠	— قالوا حرقوه و انصروا الهتك
213	19٠	— و نتلقاهم الملائكة هذا يومكم
		الحج
٤6٠	١٩١	— و من الناس من يجادل في الله
212	١٩٢	— و الصابرين على ما أصابهم
		المؤمنون
151	١٩٣	— حتى إذا جاء أحدهم الموت
16٢	١٩٤	— إني جزيتهم اليوم بما صبروا
٤٤٤	١٩٥	— ربنا غلبت علينا شقوتنا
		النور
126	27	— لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنوا
181-150	30	— قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم
124	٤٨	— ليستأنكم الذين ملكت أيمانكم
124	٥٠	— و إذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأنوا

الفرقان

- 132 - تبارك الذي نزل الفرقان على عبده
555 - وقالوا أساطير الأولين
513 - فأولئك يبذل الله سيئاتهم حسرات

الذمل

- 543 - و كذلك يفعلون

القصص

- 557 - إن كادت لتقبذي به
182 - و أخي هارون هو أفصح مني لسانا
373 - و ابتغ فيما أتاك الله الدار الآخر
206 - فخشفنا به و بدلناه
446-76 - كل شيء هالك إلا وجهه

العنكبوت

- 281 - فكلنا أخذنا بذنبه
234 - إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر
332 - و لا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي

الزود

- 474 - خلق لكم من أنفسكم أزواجا

لقمان

- 388 - و إذ قال لقمان لابنه و هو يعظه

السجدة

- 556 - فنخرج به ذرعا مختلفا ألونه

الأحزاب

- 213 - لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
161-160... - يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا

سبا

- 285 - و ما أرسلناك إلا كافة للناس

150	15	و ما بلغوا معشار ما آتيناهم
281 (151)	7	و حيل بينهم و بين ما يشتهون
		فاطر
251	11	و ما كان الله ليعجزه من شيء
		يس
543	17	هذا ما وعد الرحمن
		الصفات
205	13	فراغ عليهم ضربا باليمين
308	113	قلو لا أنه كان من المسيحين
		ص
281	1	ولات حين مناص
341	71	إذ قال ربك للملائكة إني خالق
281	88	و لتعلمن نبأه بعد حين
		الزمر
165	17	انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب
357	22	أفمن شرح الله صدره للإسلام
446	30	إنك ميت و إنهم ميتون
417	30	قل هل يستوي الذين يعلمون
211	43	لا تقنطوا من رحمة الله
281	50	أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت
214	57	و فتحت أبوابها و قال لهم خزنتها
		غافر
200	5	و جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق
		و قال رجل مؤمن من آل فرعون 28 252
509	61	و للنهار مبصران إن الله لذو فضل
		فصلت
214	11	و لكم فيها ما تشتهي أنفسكم

4430	١١	– و من أحسن قولاً ممن دعا إلى الله
835	١١	– لرفع بالتي هي أحسن
		النورى
78	١١	– ليس كمثلها شيء و هو السميع البصير
		الزخرف
281	١١	– أفنضرب عنكم الذكر صفحاً
806	١١	– و نادى فرعون في قومه
		الذخائر
881	١٥	– كم تركوا من جنات و عيون
281	١٥	– فما بكت عليهم السماء
		الزخرف
16141604126556	١١	– يا قومنا أجيئوا داعي الله
		محمد
3611150	١	– فإما منا و إما فداء
		الفتح
160	20	– محمد رسول الله و الذين معه
		ق
215	٢٤	– و لدينا مزيد
485	٢٧	– إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب
565	٢٥	– و ما مسنا من لغوب
271	١٥	– فنكّر بالقران من يخاف و عيذ
		الذاريات
290	٤٠	– و ما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون
		الطور
507	١5	– أفسر هذا لم أتم لا تبصرون
		الرحمن
457	58	– كاتين الباقوت و المرجان

186	٥٤٥٨	— مدهامتان فبأي الإء ربكما تكذبان
		الحديد
1734-110	٥	— اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب
318	22	— لكيلا تأسوا على ما فاتكم
		المجادلة
417	11	— يرفع الله الذين آمنوا منكم
		الحشر
125	١٠	— و لا يجدون في صدورهم حاجة
		المدافعين
372	1	— و إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم
		التغابن
210	٥	— فامنوا بالله و رسوله و النور الذي انزلنا
		التحرير
388	٥	— يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم
211	8	— نورهم يسعى بين أيديهم
		الملك
377	١٤	— هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا
		نوح
209	1٥	— فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا
		الجن
555	1	— فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا
173	٥	— و لن لو استقاموا على الطريقة
		القيامة
351-350	2	— و لا أقسم باللفس اللوامة
212	13	— ينبتا الإنسان بما قدم و آخر
		الفرات
253	24	— لنا ربكم الأعلى فأخذ الله

211	الدروج	– لِرِ بَطْشِرْ رَنْكْ لَشَدِيدِ
189	الأعلى	– سَنَقْرَنْكَ فَلَآ تَلْسَى
3524750	الفجر	– يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ
211	الزَّلْزَلَةُ	– فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ
209	قربش	– فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ
911	الناس	– مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	الراوي	طرف الحديث
		(أ)
210	البخاري	— إذا أحسن أحدكم إسلامه
398	الترمذي و الطبراني	— احفظ الله بحفظك
314	العراقي	— أعدى عدوك نفسك
123	الترمذي	— أعمار أمي ما بين الستين إلى السبعين
121	الترمذي و ابن ماجة	— اقتدوا بالذين من بعدي
388	البخاري	— ألا كلكم راع
313	مسلم	— ألم تروا الإنسان إذا مات
628	البخاري	— أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا
104	البخاري	— أنا فرطكم على الحوض
405	ابن ماجة	— إن بني إسرائيل تفرقت
312	البخاري	— إن الدين يسر
210	البخاري	— إن الصدق يهدي إلى البر
		(ب)
405	الترمذي	— تفرقت اليهود على إحدى و سبعين فرقة
474	عبد الرزاق	— تناكحوا تناسلوا
		(ج)
372	البخاري	— حق في رقبة المسلم يجب أن يؤديه
376	مسلم	— حق لله على كل مسلم أن يغتسل
306	البخاري	— الحمد لله الذي أحياي
396	الحاكم	— الحمد لله الذي يمسك السماء
		(د)
203 + 145	البخاري	— الدين للصححة

(س)

- ٩٥٤ الحاكم - سلمان منا أهل البيت
208 البخاري - رأيت الفار فلم أر كاليوم منظرا

(ص)

- 477 العجلوني - صلاة النهار عجماء

(ع)

- 377 مسلم - عشر من الفطرة قص الشارب
117 البيهقي - العلماء ورثة الأنبياء
373 ابن ماجة - عليكم بما تطيقون فوالله

(ف)

- 541 مسلم - فلقد رأيت رسول الله "ص" ضحك حتى بدت

(ك)

- 339 و 285 البخاري - كان النبي يبعث إلى قومه خاصة
371 البخاري - كان الرسول "ص" يضحك حتى تبدو أواجذه

(ل)

- 493 مسلم - لا تزال طائفة من أمتي
203 مسلم - لا تزرموه " قالها للأعرابي الذي بال في المسجد
123 البخاري - لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله
336 البخاري - لا أغنى عنك من الله " قاله لفاطمة "
207 الترمذي - لا إله إلا الله وحده لا شريك له
452 البيهقي - لا تسبوا الدهر
473 ابن ماجة - للدنيا أهون على الله من شاة ميتة
397 ابن ماجة - اللهم إني أسألك بحق المسانلين
343 البخاري - لا يؤمن أحدكم حتى يحب
343 البخاري - لا يحل دم امرئ مسلم
168 الترمذي - لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال
493 الدارمي - لا يزال ناس من أمتي

- 173 الدار قطنى - لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر
 64 البخاري - لو لا حدثان قومك بالكفر لفضت البيت ثد
 146 البخاري - ليبلغ الشاهد الغائب

(ج)

- 73 البخاري و ابن حبان و الحاكم - ما أنزل الله داء إلا و له دواء فتداولوا
 388 الطبراني - ما ورث والد ولدا
 372 مسلم - المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف
 123 الحاكم - متعنا بنفسك
 25 البخاري - مثل ما بعثني الله به من الهدى
 124 البخاري و الترمذي - مروا أبابكر فالوصل بالناس
 494 البخاري - من أحدث في أمرنا
 376 مسلم - من أكل البصل و الثوم و الكرا
 143 مسلم - من دعا إلى هدى كان له من الأجر
 146 مسلم - من رأى منكم منكرا
 417 البيهقي - من طلب علما فأدرکه
 224 الطبراني - من سئل عن علم ناف
 417 البخاري - من يرد الله به خيرا يفقهه

(ن)

- 487 البيهقي - نهى "ص" عن لباس الشهرتين

(و)

- 152 ابن ماجة - و الذي نفسي بيده للذنيا أهون على الله
 211 مسلم - و الذي نفسي بيده لو لم تذبوا
 183 العرفي - و بسعني قلب عبدي المؤمن

(ي)

- 151 البخاري - يشيب ابن آدم و تشيب معه خصلتان
 151 البخاري - يرق الناس يوم القيامة

فهرس الأعلام

الصفحة	(أ)	اسم العلم
298		— إبراهيم الحربي
556		— ابن أبي
437		— الأحنف بن قيس
282		— أشعب بن جبیر
545 & 544		— الأومسي
437		— ياس بن قتادة
494		— يوب السختياني
(ب)		
35		— أبو بكر الحارمي
54		— أبو بكر الدينوري
556		— بلعام
(ث)		
282		— ثعلبة بن حاطب
413		— أبو ثور
(ج)		
567		— الجويلي
(ح)		
282		— حاتم الطائي
282		— حاطب بن أبي بلتعة
34		— أبو الحسن الزوزني
34		— أبو الحسن الصابي
31		— أبو الحسين العبادي
32		— أبو حكيم النهرواني
56		— الحميري

(خ)

542

- الخازن

(د)

674 58

- الديبئي

(ر)

4

- الراشد

79

- الركن عبد السلام بن عبد القادر الجيلي

(ز)

38

- الزبيدي

186

- الزجاج

548

- الزيلعي

(س)

470

- السري السقطي

543 6515 6514

- السفاريني

369

- ابن السماك

364 35

- السهروردي

(ص)

494

- صالح المري

(ط)

41

- أبو طاهر بن الليثي الواعظ

(ع)

196

- عامر بن أيمن

250

- صيد بن عامر بن قتادة

569

- الطائي

511

- ابن حربي

511

- عز الدين بن عبد السلام

- 154 ابن عقيل
 426 عاتمة بن أيمن
 41 علي بن الحسين الغزنوي

(ف)

- 32 أبو الفتح الحاجب
 261 الفضيل بن عياض

(ق)

- 19 القائم بأمر الله
 54 القاضي أبو يعلى الصغير
 29 أبو القاسم بن الجوزي
 596 قس بن ساعدة
 513651265116350 ابن القيم

(ك)

- 159 عبد الكريم القشيري
 282 الكسعي محارب بن نيس

(ل)

- 29 أبو عبد الله بن جرادة
 37 عبد الله بن محمد الشاشي
 494 الليث بن سعد

(م)

- 568 المازري
 438 مالك بن دينار
 56 أبو محمد الخشاب
 494 محمد بن سيرين
 158 محمد بن طاهر المتعسبي
 159 محمد بن علي الترمذي
 38 محمد بن الفضل الرازي

64544	المسترشد
498430943084307430642944241422541014864714194134744	المستضيء
194544	المستظهر
30648641944	المستجد
21	أبو المظفر الأبيوردي
35	أبو المعالي البزلي
344	ابن مسكويه
513	ابن مفلح
8545941644	المقني
304	منصور بن صمار

(ن)

3064864804794294744	الناصر
426	النخعي
35	أبو نصر الهمداني
31	نظام الملك
463	أبو نعيم الأصبهاني
282	نعمان بن عمرو الأنصاري
1784177	الوفلي

(و)

461	وهيب ابن الورد
-----	----------------

(ي)

34	باتوت الحموي
413	يحيى بن معين

فهرس الأماكن و البلدان

الصفحة

(أ)

المكان

٨٥٤	استنبول
٨٣٤	الإسكندرية
١٨	إصبيهان
٦	أمد
١٣٦ & ١٣٥ & ١٣١ & ١٥٥	أم القرى
٨٣٣	أنقرة
١	الأندلس

(ب)

٤١	باب الأزج
٣٢٨ & ٣٢٧	باب بدر
٥٥١	بابل
١٧	باب النصرية
١٣٣	باكستان
١٨	بخارى
٢٦٩ & ٤٥ & ٣٢ & ٢١ & ٢١	البصرة
٣٢ & ٣١ & ٣٠ & ٢٩ & ٢٦ & ٢٥ & ٢١ & ٢١ & ١٥ & ١٥ & ١٣ & ١١ & ٥ & ٥	بغداد
٨٠ & ٧١ & ٦٧ & ٥٥ & ٤٩ & ٤٥ & ١١ & ١١ & ٤٠ & ٣٩ & ٣٨ & ٣٧ & ٣٤ & ٣٣	
٥٥١ & ٥٥٢ & ٢٢٠ & ١٣٧ & ١٠١ & ٨٩ & ٨٥ & ٨١ & ٨٢	

٣٣	بلاد الشام
١٥	بلاد ما وراء النهر
١٣٣	البنجاب
٧٢	بيت المقدس
١٥٩ & ١٥٨ & ١٥٥ & ١٥١ & ١٥٣ & ١٥٥ & ١٥٧ & ١٥١	بيروت

(ت)

٣٧	التاجية
٨٣٣	تركيا

(ج)

461

- جبل الهند

434 و 105

- الجزائر

(ح)

17

- الحربية

536

- الحرّة

329 و 320

- الحلبه

102

- حلب

(د)

17

- دار الرقيق

330

- درب دينار

17

- درب الشعير

456 و 134 و 111 و 98 و 97 و 89 و 88 و 80

- دمشق

(ز)

0

- روما

101 و 103

- الرياض

(حـ)

245

- الساحل الإفريقي

408

- السعودية

402

- سوريا

(ط)

101 و 07 و 03

- طنطا

(ع)

136 و 46 و 17 و 15 و 0 و 0

- العراق

(غ)

39

- غرب إفريقيا

18

- غزة

(ق)

5 33 ٤ 137 ٤ 135 ٤ 107 ٤ 103 ٤ 106 ٤ 99 ٤ 98 ٤ 29 ٤ 18

القاهرة

156

القدس

131

قسنطينة

8٥8 ٤ 109 ٤ 110 ٤ 111 ٤ 131 ٤ 131 ٤ 33 ٤ 31 ٤ 18

قرطبة

21

القيروان

(ك)

109 ٤ 33

الكرخ

24 ٤ 22 ٤ 7

الكوفة

137

الكويت

(ل)

100

لبنان

133

لاهور

(م)

509 ٤ 556 ٤ 386 ٤ 113 ٤ 135 ٤ 131 ٤ 111 ٤ 106 ٤ 101 ٤ 103 ٤ 85 ٤ 61

المدينة

138 ٤ 135 ٤ 110 ٤ 106 ٤ 102 ٤ 101 ٤ 97 ٤ 93 ٤ 92 ٤ 67 ٤ 33 ٤ 1

مصر

٥09 ٤ 558 ٤ 386 ٤ 288 ٤ 85 ٤ 61

مكة

٥0

المنصورة

48

الموصل

136

ميرلاند

(ن)

30

نيسابور

(و)

161 ٤ 80 ٤ 67 ٤ 49 ٤ 18 ٤ 41 ٤ 5

واسط

135

الولايات المتحدة

(٥)

135

هرفلرد

فهرس الأجناس و الأعم

الصفحة	(أ)	الجنس و الأمة
6		الأتابكة
5 ، 4		الأترك
33		الأحناف
10		الأرمن
531 ، 26 ، 20 ، 16		الأشاعرة
10		الأكرلا
501 ، 500 ، 499 ، 497 ، 495 ، 492 ، 489 ، 486 ، 485 ، 482		أهل البدع
86 ، 39 ، 16		أهل بغداد
81		أهل التصوف
276		أهل الجاهلية
129		أهل الحربية
505 ، 27		أهل الذمة
501 ، 491 ، 492 ، 490 ، 483 ، 482 ، 477 ، 455 ، 20		أهل السنة
		570 ، 553 ، 531
464		أهل الصفة
460 ، 459 ، 337 ، 336 ، 333 ، 332 ، 288 ، 286 ، 276 ، 202		أهل الكتاب
		503 ، 461
556		أهل العراق
38 ، 30		أهل نيسابور
(ب)		
156 ، 25 ، 7		الباطنية
21 ، 10		البربر
495 ، 252		بلو إسرائيل
133		البنجاب
7		بلو ختلجة

بنو العباس

19

(ث)

89 و 10

التتار

21 و 10

الترك

(ج)

496

الجبرية

10

الجرس

207

جرهم

495

الجهمية

(ح)

495

الحرورية

77 و 75 و 73 و 71 و 69 و 12 و 10 و 33 و 27 و 26 و 20 و 6

الحنابلة

531 و 307 و 126 و 125

(خ)

537 و 497 و 496

الخوارج

250

الحنفية

(د)

276

الدهريين

(ز)

10

الرفيق

531 و 499 و 497 و 496 و 250 و 86 و 85 و 6

الروافض

(ز)

471 و 470 و 467 و 466 و 465 و 276 و 273 و 266 و 261 و 34

الزهاد

473 و 472

(د)

24 و 19 و 11 و 11 و 6 و 4 و 1

— السلاجقة

276

— السوفسطانيين

(ح)

250 و 33 و 32 و 26

— الشافعية

108 و 122 و 27 و 20 و 6

— الشيعة

(ص)

17

— الصليبيين

264 و 260 و 159 و 158 و 156 و 39 و 36 و 35 و 32 و 20

— الصوفية

472 و 471 و 470 و 469 و 465 و 461 و 463 و 276 و 273

483 و 482 و 481 و 480 و 479 و 478 و 476 و 474 و 473

560 و 531 و 530 و 529 و 524 و 488 و 487 و 486 و 484

(ع)

252

— علا

276

— عباد الأصنام

5

— العباسيين

288 و 30 و 10

— العرب

(ف)

21 و 10

— الفرس

(ق)

20

— القادرية

405

— القدرية

156

— القرامطة

289

— قریش

459 و 458 و 457 و 456 و 455 و 454 و 453 و 452 و 451

— القصاص

560 و 532

252

— قوم صالح

252

– قوم لوط

252

– قوم نوح

(د)

31 و 30

– المالكية

106

– المرجئة

289 و 288 و 286

– المشركين

30

– المغاربة

17

– المغول

535

– المعتزلة

(ز)

10

– النبط

495 و 336 و 335 و 333 و 288 و 286 و 276 و 27 و 11

– النصارى

556 و 501

(هـ)

495 و 336 و 335 و 333 و 288 و 286 و 276 و 27 و 11

– اليهود

109

فهرس المصادر و المراجع

— القرآن الكرى (روانه حفص)

(١)

— الابتلاء، والمدن فى الدعوات : محمد عبد الفار ابو فارس ، دار شباب ، باتنة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨ ، ص ١٩٨٦ م .

— الإتيان فى علوم القرآن : جلال الدين السيوطى ، تحقيق ، مصطفى ديب البغا، دار الهدى عين مليلة ، الجزائر

— أحكام القرآن : أبو بكر الحصاص ، دار الفكر للطباعة و النشر ، دون تاريخ .

— أحكام النساء : ابن الجوزى ، دار الشباب ، باتنة ، الجزائر ، دون تاريخ .

— إحياء علوم السدين : أبو حامد الغزالي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٧٩ ، ص ١٩٧٩ م .

— أخبار الحمقى والمغفلين ، ابن الجوزى ، تحقيق ، لجنة إحياء التراث العربى ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨١ ، ص ١٩٨١ م .

— أخبار الظراف و المتماجنين : ابن الجوزى ، مكتبة القدسى ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١ م .

— الأخلاق و السياسة عند ابن حزم : صلاح الدين بسبونى رسلان ، مكتبة النهضة ، جامعة القاهرة .

— الآداب الشرعية و المنح المرعية : شمس الدين أبى عبد الله محمد بن مفلح الحنبلى ، دار العلم للجميع ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٧ م .

— آراء ابن الجوزى التربوية : ليلى عبد الرشيد عطار ، منشورات أمانة للنشر ، ميرلاند الولايات المتحدة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧ .

— الآراء الأخلاقية عند ابن الجوزى : عبد العزيز هاشم الغزولى ، ماجستير مخطوطة نوقشت سنة ١٩٩٨ م ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة .

— أساس البلاغة : الزمخشري ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، دون تاريخ .

— أساليب نجاح الدعوة فى العهد المبنى : عبد الله بن محمود آل موسى ، عالم الكتب الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٩ ، ص ١٩٨٩ م .

— استمرارية الدعوة : محمد السيد الكيل ، دار المجتمع للنشر ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١ م .

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب : ابن عبد البر النمري ، تحقيق علي محمد معوض
عادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية بيروت ط 1 ، 1115 هـ ، 1995 م .
- لس الدعوة إلى الله تعالى في القرآن الكريم : عمر يوسف حمزة ، الدار المصرية
اللبنانية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1111 هـ ، 1991 م .
- الإسلام و الطاقات المعطلة : محمد الغزالي ، الزيتونة للإعلام و النشر ، باتنة ، الجزائر
دون تاريخ .
- أصناف المدعوين و كيفية دعوتهم : حمود بن أحمد الرحيلي ، دار العاصمة ، الرياض
السعودية ، الطبعة الأولى ، 1111 هـ .
- أصول التربية الإسلامية و أساليبها : عبد الرحمن النحلوي ، دار الفكر ، دمشق سوريا
الطبعة الثانية ، 1401 هـ ، 1981 م .
- أصول الدعوة : عبد الكريم زيدان ، مؤسسة الرسالة ، دار الوفاء ، المنصورة ، مصر
الطبعة الثالثة ، 1408 هـ ، 1987 م .
- الاعتصام : أبو إسحاق بن موسى الشاطبي ، ضبطه أحمد عبد الشافي ، دار الكتب
العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ، 1115 هـ ، 1995 م .
- الإعلام : خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، الطبعة الرابعة عشو
فبراير 1990 م .
- إغاثة اللفان من مصائد الشيطان : ابن قيم الجوزية ، تحقيق ، محمد حامد الفقي ، دار
المعرفة ، بيروت ، لبنان ، دون تاريخ .
- الإمام ابن الجوزي و كتابه الموضوعات : محمود أحمد القيسية البدوي ، شركة أبو ضبي
للطباعة و النشر ، 1403 هـ ، 1983 م .
- (ب)
- بحر الدعوى : ابن الجوزي ، تحقيق و نشر ، دار الصحافة للتراث ، بطنطا ، مصر
الطبعة الأولى ، 1412 هـ ، 1992 م .
- البحر المحيط : أبو حيان التوحيدي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، 1403 هـ
1983 م .
- البداية و النهاية : لأبي الغداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي ، مكتبة المعارف ببيروت لبنان

– بستان الواعظين و رياض السامعين : ابن الجوزي ، راجعه وقدم له ، السيد الجميلي
دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1981 .

(ت)

– تاريخ الإسلام السياسي : حسن إبراهيم حسن ، دار الجبل ، بيروت ، الطبعة الثالثة عشر
1991 م .

– لتاريخ الإسلامي : محمود شاكر ، المكتب الإسلامي ، سورية ، الطبعة الخامسة ، 1411 هـ .
1991 م .

– التبصرة : ابن الجوزي ، تحقيق ، مصطفى عبد الواحد ، دار الكتب العلمية ، بيروت
لبنان ، الطبعة الثانية ، 1991 ، 1992 .

– تحفة الواعظ ونزهة الملاحظ : ابن الجوزي ، تحقيق ، هلال ناجي ، مجلة المورد ، دار
دار الحرية للطباعة ، بغداد .

– تحقيق المنتظم : محمد الشيخ عبد الوهاب فضل ، رسالة دكتوراه مخطوطة ، نوقشت
سنة 1979 م ، بقسم التاريخ ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر .

– تذكرة الحفاظ : شمس الدين الذهبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، دون تاريخ .
– تذكرة للدعاة : البيهقي للخولي ، مكتبة الجديدة ، دون تاريخ .

– للتذكرة في الوعظ : ابن الجوزي ، تحقيق ، أبو عبد الله الأنصاري ، دار القلم للتراث
مطبعة العمرانية ، دون تاريخ .

– للتربية الإسلامية : محمد عطية الأبراشي ، دار القومية للطباعة و النشر ، دون تاريخ .
– التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة : عبد الرحمن نحلاوي ، المكتب الإسلامي

– التربية الترويقية في الإسلام : أحمد عبد العزيز أبو سمك ، دار النفائس ، الأردن
الطبعة الأولى ، 1120 هـ ، 2000 م .

– التربية والتعليم في الفكر الإسلامي : أحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة
الطبعة الثامنة ، 1987 م .

بيروت ، لبنان الطبعة الثانية ، 1408 هـ ، 1988 م .

– التربية و طم النفس الولد في الذات العربية : علي زيعور ، دار الأندلس للطباعة
و النشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1409 هـ .

– تسوير القرن العظيم : أبو الغداء إسماعيل بن كثير ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1972 م .

– تفسير القرآن العظيم : أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، دار الثقافة ، الجزائر ، الطبعة الأولى

1410 هـ ، 1990 م .

– تفسير الكشاف : محمود بن عمر الزمخشري ، ضبطه و صححه ، مصطفى حسين أحمد

دار الكتاب العربي ، الطبعة الثالثة ، 1407 هـ ، 1987 م .

– تفسير المنار : السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية .

– تقريب المنفعة إلى فقه المذاهب الأربعة : عبد السلام علوش ، دار المعرفة ، بيروت

لبنان ، الطبعة الأولى ، 1400 م .

– تلقين الدعوة : محمد السيد الوكيل ، دار المجتمع للنشر والتوزيع ، جدة ، الطبعة الأولى

1411 هـ ، 1991 م .

– تلبس إبليس : ابن الجوزي ، دار الجبل ، بيروت ، لبنان ، دون تاريخ .

– تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر : ابن الجوزي ، عرفة حلمي عباس ، دار الحديث

القاهرة ، دون تاريخ .

– تنوير الغبش في فضل السودان و الحبش : ابن الجوزي ، تحقيق ، مرزوق علي إبراهيم

تقديم ، حكمت بشير ياسين ، الطبعة الأولى ، 1410 هـ ، 1990 م ، دار التعريف للرياس

– تهذيب الأخلاق و تطهير الأعراق : أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه ، صححه و علق

عليه محمود إبراهيم ، المكتبة العباسية ، مصر ، سنة 1911 م .

– تهذيب التهذيب : ابن حجر العسقلاني ، دار الفكر ، الطبعة الأولى 1401 هـ ، 1981 م .

– تهذيب سير أعلام النبلاء : شمس الدين الذهبي ، هذبه أحمد فايز الحمصي ، أشرف

على تحقيقه ، شعيب أرنؤوط . مؤسسة الرسالة ط 3 ، 1413 م ، 1998 م .

(ث)

– الثبات عند الممات : ابن الجوزي ، تحقيق ، عبد اللطيف عاشور ، مكتبة القرآن للطبع

و للنشر والتوزيع ، القاهرة ، دون تاريخ .

– ثقافة لداوية ، يوسف القرضاوي ، دار البعث للطباعة والنشر ، قسنطينة ، الجزائر .

(ج)

– الجامع لأحكام القرآن : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الكتاب

العربي ، بيروت ، لبنان ، دون تاريخ .

– جامع بيان العلم و فضله : لابن عبد البر النمري ، تحقيق ، أبي الأشبال الزهيري ، دار

ابن الجوزي ، الطبعة الرابعة ، 1110 هـ ، 1998 م .

– جامع بيان العلم وفضله : ابن عبد البر النمري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان
دون تاريخ .

– الجامع الصحيح ، سنن الترمذي : لأبي عيسى الترمذي احمد محمد شاکر ، دار الكتب
العلمية ، بيروت ، لبنان .

– جامع العلوم و الحكم : ابن رجب الحنبلي ، تحقيق عبد الله المنشاوي ، مكتبة الإيمان
المنصورة ، مصر ، ط 1 ، 111 هـ ، 1998 م .

– الجانب العاطفي من الإسلام : محمد الغزالي ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، دون
تاريخ .

– الجرح والتعديل : محمد بن إبراهيم الرازي : مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية
بحيدرآباد الدکن الهند الطبعة الأولى ، 1381 هـ .

– جمهرة اللغة : أبو بكر محمد بن الحسين بن مرد الازهي ، تحقيق ، رمزي منير
البلعكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، 1987 م .

– ابن الجوزي بين التأويل والتفويض : أحمد عطية الزهراني ، مخطوطة ماجستير ، كلية
الشرعية ، جامعة الملك عبد العزيز ، السعودية ، 1416 هـ .

– ابن الجوزي المحدث ومنهجه في الموضوعات : أبو العلا علي أبو العلا ، مخطوطة
دكتوراه ، كلية أصول الدين ، جامعة الأزهر .

– ابن الجوزي ومنهجه في التفسير : عبد العزيز ثابت ، رسالة ماجستير مخطوطة في
التفسير ، نوقشت سنة 1991 م ، جامعة أمير عبد القادر بقسنطينة .

– ابن الجوزي ومقاماته الأدبية : علي جميل علي مهنا ، دكتوراه مخطوطة ، جامعة
الأزهر ، كلية اللغة العربية .

– ابن الجوزي للواعظ ومنهجه في الدعوة والموازنة بينه وبين منهج الإمام الغزالي :

جمعة علي محمد الخولي ، رسالة دكتوراه مخطوطة ، نوقشت سنة 1973 م ، بكلية
أصول الدين ، جامعة الأزهر .

(ح)

– البحث على خطا العلم وذكر كبار الحفاظ : ابن الجوزي ، تحقيق ، فواد عبد المنعم

مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ، الطبعة الثانية ، 111 ، 1981 م .

– الحقائق في علم الحديث و الزهديات : ابن الحوزي ، تحقيق ، مصطفى السبكي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، دون تاريخ .

– حسن المحاضرة : السيوطي ، وضع حواشيه ، خليل المنصور ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1987 م .

– حصلا الغرور : محمد الغزالي ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، دون تاريخ .

– الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : عبد مقرر ، ترجمة ، عبد الهادي أبو ريطة ط 1109 هـ 1989م دار التونسية للنشر و التوزيع ، تونس .

– الحق المر : محمد الغزالي ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، دون تاريخ .

– حلية الأولياء و طبقة الأصفياء : زكي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى 1118 هـ ، 1997 م .

– حلية الأولياء و طبقة الأصفياء : أبو نعيم الأصبهاني ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الثالثة ، 1100 هـ ، 1980 م .

– حياة الصحابة : محمد يوسف الكاندهلوي ، تحقيق ، محمد حامد الفقي ، دار الفكر بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، 1101 هـ ، 1981 م .

(خ)

– الخصائص العامة للإسلام : يوسف القرضاوي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان للطبعة الثانية ، 1405 هـ ، 1985 م .

(د)

– دائرة معارف للقرن العشرين : محمد فريد وجدي ، دار الفكر ، دون تاريخ .

– الدارس في تاريخ المدارس : عبد القادر بن محمد الدعيمي ، أحمد فهارسه إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1990 م .

– دراسة تراثية في التربية الإسلامية : محمود قنيز ، دار الثقافة ، الدوحة ، الطبعة الأولى 1407 هـ ، 1989 م .

– الدعوة الإسلامية أصولها و وسائلها : أحمد أحمد غاوش ، دار الكتاب المصري ، القاهرة للطبعة الثالثة ، 1987 م .

- الدعوة إلى الله على بصيرة : عبد المنعم محمد حسنين ، دار الكتاب المصري ، القاهرة
الطبعة الأولى ، 1011 هـ ، 1984 م .
- الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ، محمد الراوي ، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع ، الطبعة
الأولى ، الرياض ، 1991 م .
- الدعوة الإسلامية علما وعملا : إبراهيم الدسوقي مرعي ، سلسلة رسالة الإمام بوزارة
— دلائل النبوة : لأبي بكر الحسين البيهقي ، تحقيق ، عبد الرحمن محمد عثمان ، دار الفكر
الطبعة الثانية ، 1103 هـ ، 1981 م .
- الأوقاف المصرية ، العدد 18 ، 1987 م .
- دور المنهج الرباني في الدعوة الإسلامية : عدنان رضا النحوي ، دار الشهاب ، باتنة
الجزائر ، الطبعة الخامسة ، 1106 هـ ، 1980 م .
- (ذ)
- نم الهوى : ابن الجوزي ، صححه وضبطه ، أحمد عبد السلام عطا ، دار الكتب العلمية
بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية 1111 هـ .
- النيل على الروضتين : لأبي شامة المقدسي ، صححه ، محمد زاهد بن الحسن الكوثري
دار الجبل ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1981 م .
- النيل على طبقات الحنابلة : ابن رجب الحنبلي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، دون
تاريخ .
- (ر)
- رؤوس القوارير : ابن الجوزي ، تحقيق ، محمد نبيل سنبل ، دار الصحابة للتراث
طنطا ، مصر ، الطبعة الأولى ، 1110 هـ ، 1990 م .
- رحلة ابن جبير : لأبي الحسن محمد بن جبير ، تقديم ، محمد مصطفى زيادة ، الشركة
العالمية للكتاب ، دون تاريخ .
- رسالة إلى وادي : ابن الجوزي ، تحقيق ، عمرو عبد المنعم ، دار السلام للطباعة والنشر
الطبعة الأولى ، 1412 هـ ، 1991 م .
- رسالة المسجد قديما وحديثا : محمد المجنوب ، مجلة البحوث الإسلامية ، رابطة العالم
الإسلامي مكة المكرمة .
- الروح : شمس الدين بن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، 1399 هـ ، 1979 م

— روح الأرواح : ابن الجوزي ، دار القلم للتراث ، الهرم ، مصر ، دون تاريخ .
— روح المعاني في تفسير القرآن و السبع المثاني : الأتوسي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان
1103 ، 5 ، 1983 م .

— روضة المحبين و نزهة المشتاقين : ابن قدم الجوزية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،
لبنان ، دون تاريخ .

(ز)

— زاد المسير في علم التفسير : ابن الجوزي ، تحقيق ، محمد عبد الرحمن عبد الله
المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، 1983 م .

(س)

— سر تآخر العرب و المسلمين : محمد الغزالي ، دار الصحوة ، القاهرة ، الطبعة الأولى
1105 ، 5 ، 1985 م .

— سنن الدارمي : أبو محمد عبد الله بن بهزاد الدارمي ، دار الفكر بيروت ، دون تاريخ .

— السنن الكبرى : أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، دار الفكر ، دون تاريخ .

— السنن الكبرى : أحمد بن شعيب النسائي ، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد
كسوي حسن ، دار الكتب العلمية بيروت ط 1 ، 1111 ، 5 ، 1985 م .

— سنن ابن ماجة : لأبي عبد الله محمد يزيد بن ماجة ، تحقيق محمد فواد عبد الباقي
دار الحديث ، خلف الأزهر ، القاهرة ، دون تاريخ .

— السنة النبوية بين أهل الفقه و أهل الحديث : محمد الغزالي ، دار الصديقية للنشر ، حسين
داي ، الجزائر ، 1981 م .

— سير أعلام النبلاء : شمس الدين الذهبي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، 1981 م .

— السيرة النبوية : عبد الملك بن هشام ، تحقيق ، مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري

عبد الحفيظ شلبي ، دار إحياء التراث العربي ، دون تاريخ .

— سلسلة الأحاديث الضعيفة و الموضوعية و أثرها السيء في الأمة : محمد ناصر الدين
الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، دون تاريخ .

— ملك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر : للمراذي ، دار ابن حزم ، البشائر ، بيروت
الطبعة الثالثة ، 1988 م .

(ش)

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن العماد الحنبل ، دار الكتب العلمية ، بيروت
لبنان ، دون تاريخ .
- الشفاء في مواضع الملوك والخلفاء : ابن الجوزي ، تحقيق ، فؤاد عبد المنعم أحمد ، دار
الدعوة ، الإسكندرية ، الطبعة الثالثة ، 1985 م .

(ص)

- صبا نجد في المواضع والرقائق وأشعار الزهد : ابن الجوزي ، تحقيق . أم عبد الرحمن
بنت حامد عاشور دار الصحابة للتراث ، طنطا ، مصر ، الطبعة الأولى ، 1997 م .
- الصحاح : إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق ، أحمد عبد الغفور العطار ، دار العلم
للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1987 م .
- صحيح البخاري : محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق مصطفى أديب البغا ، دار ابن
كثير اليمامة ، بيروت ط 3 ، 1107 هـ ، 1987 م .
- صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج النيسابوري ، تحقيق ، محمد فؤاد عبد الباقي ، دار
الكتاب المصري ، القاهرة ، دون تاريخ .
- صحيح مسلم بشرح النووي : شرف الدين النووي ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان
1407 هـ ، 1987 م .
- صفات الدعاة : عبد الرب بن نواب الدين ، دار العاصمة ، السعودية ، الطبعة الأولى
1413 هـ .
- صيد الخاطر : ابن الجوزي ، مراجعة و تحقيق ، علي طنطاوي و ناجي طنطاوي ، دار
الفكر ، دمشق ، الطبعة الرابعة ، 1980 م .
- صيد الخاطر : ابن الجوزي ، تحقيق ، علي طنطاوي ، طبعة القاهرة ، سنة 1961 م .
- صيد الخاطر : ابن الجوزي ، تحقيق ، محمد الغزالي ، نشر ، مكتبة رحاب ، الجزائر
دون تاريخ .
- صيد الخاطر : ابن الجوزي ، المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان ، دون تاريخ .

(ض)

- ضحى الإسلام : أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة العاشرة
دون تاريخ .

– الضعفاء والمتروكين : ابن الجوزي ، عبد القادر عطا محمد سليمان ، رسالة دكتوراه
مخطوطة ، كلية أصول الدين ، جامعة الأزهر .

(ط)

– الطب الروحاني : ابن الجوزي ، تحقيق ، حسام الدين القسي ، مكتبة القدس ، القاهرة
الطبعة الأولى ، ١٩٧٧ .

– طبقات الصوفية : أبو عبد الرحمن السلمى ، تحقيق ، نور الدين شريفة ، مكتبة الخانجي
القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ .

– طبقات الشافعية الكبرى : عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ، تحقيق ، عبد
الفتاح محمد الحلو ، محمود محمد الطنجي ، محرر الطبعة و النشر و التوزيع
الجزيرة ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٧ .

– طريق الدعوة : مصطفى مشهور ، طبع الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية
السالمية ، الكويت ، دون تاريخ .

(ظ)

– ظهر الإسلام : أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة
دون تاريخ .

(ع)

– العلل المتناهية في الأحاديث الواهية : ابن الجوزي ، حقه و علق عليه ، إرشاد الحق
الأثري ، النشر ، إدارة ترجمان السنة ، لاهور .

(غ)

– غذاء الألباب شرح منظومة الآداب : شمس الدين محمد بن أحمد البغري ، تحقيق
محمد عبد العزيز الخالدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م .

– غريب الحديث : ابن الجوزي ، تحقيق ، عبد المعطي أمين قلججي ، دار الكتب العلمية
بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥ م .

– الغزو الثقافي يمتد في فراغنا : محمد الغزالي ، الزيتونة للنشر و الإعلام ، باتنة
الجزائر ، دون تاريخ

(ف)

- فتح الباري في شرح صحيح البخاري : ابن حجر العسقلاني ، دار المعرفة بيروت لبنان ، الطبعة الثالثة .
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير : محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، ضبطه و صححه ، أحمد عبد السلام عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، 1415 هـ ، 1994 م .
- أبو الفرج بن الجوزي و آراؤه الكلامية : د. مصطفى عبد الباسط سالم الرفاعي ، مخطوطة ماجستير ، كلية الدراسات الإسلامية ، جامعة الأزهر ، سنة 1996 م .
- أبو الفرج بن الجوزي و آراؤه الكلامية و الأخلاقية : د. محمد محمد نصير ، دار الشروق القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1987 م .
- فقه الدعوة و أساليبها : محمود محمد حمود ، محمد مطوق عساف ، مؤسسة الوراق للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن ، 2000 م .
- فقه الدعوة في إنكار المنكر : عبد الحميد الدلاتي ، قدم له ، سالم البيضاوي ، دار الوفاء للطباعة و النشر ، المنصورة ، مصر ، الطبعة الثالثة ، 1410 هـ ، 1989 م .
- الفقه الإسلامي و أدلته : وهبة الزحيلي ، دار تذكاة للنشر و التوزيع ، الحراش الجزائر ، الطبعة الأولى ، 1991 م .
- الفكر السياسي للإمام محمد عبده : محمد حسن عبد العاطي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1978 م .
- فلسفة التربية الإسلامية : عمر التومي الشيباني ، دار العربية للكتاب ، طرابلس ، ليبيا 1988 م .
- الفهرست : محمد بن إسحاق بن النديم ، المطبعة الرحمانية بمصر ، لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف
دون تاريخ .

(ق)

- قاموس المحيط : مجد الدين الفيروزآبادي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1403 هـ .
- لقوة الإسلامية ، فرضيتها ، ضرورتها ، السبيل إليها : الطبيب برغوث ، دار الشهاب للطباعة و النشر ، باتنة ، الطبعة الأولى ، 1401 هـ ، 1981 م .

– القرآن الكريم تفسير وبيان : محمد حسن الحمصي ، دار الرشيد ، دمشق ، دون تاريخ ،
– القصاص و المذكرين : ابن الجوزي ، تحقيق ، محمد السعد بسوني زغول ، الطبعة
الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٥ .

– القصاص و المذكرين : ابن الجوزي ، تحقيق محمد لطفي الصباغ ، المكتب الإسلامي
بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٧٧ م .

– قصصنا المرآة بين التقاليد التراكمة و الوافد : محمد العرالي ، دار الانتفاضة للنشر
و التوزيع ، الجزائر ، ١٩٨١ .

– فوارب النجاة في حياة الشعاع : فتحى يكن ، مؤسسة الرسالة ، دار الإيمان للطباعة
و النشر ، دون تاريخ .

(ث)

– الكامل في التاريخ : ابن الأثير الحزري ، مراجعة ، محمد يوسف القفاق ، دار الكتب
العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨١ .

– كتاب احكام النساء : ابن الجوزي ، تحقيق و دراسة ، علي بن محمد يوسف المحمدي
رسالة ماجستير مخطوطة ، كلية الشريعة ، جامعة الأزهر .

– كتاب الانكباء : ابن الجوزي ، دراسة و تحقيق ، محمد عبد الرحمن عوض ، دار الكتاب
العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠ .

– كتاب المنتظم دراسة في منهجه و موارده و اهميته : حسن عيسى علي الحكيم ، عالم
الكتب بيروت ، دون تاريخ .

– كتاب الموضوعات لابن الجوزي دراسة في النهج و المصادر : أحمد عطا ابراهيم حسن
رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة القاهرة كلية الآداب نوقشت سنة ١٩٨١ م .

– كتاب الموضوعات : ابن الجوزي ، ضبط و تقيد و تحقيق ، عبد الرحمن محمد عثمان
دار الفكر للطباعة و النشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ ، ١٩٨٠ .

– كشف الخفاء و مزيل الالباس على ما دور من الحديث على السنة الناس : اسماعيل بن
محمد العجلوني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، ط ٢ ، ١٣٩١ هـ .

– كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون : مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي

الحنفي ، المعروف بحاجي خليفة ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م .

– كنز العمال في السنن و الأقوال و الأفعال : علاء الدين بن حسام الدين الهندي البرهان

- فوزي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، 1983 ، ص 10 .
 - كشف نقبه الأسلاط : محمد الغزالي ، دار الكتب ، الجزائر ، دون تاريخ .

(ل)

- الألباني ، إيز الجوزي تحقيق هلال ناجي ، دار الفکر الإسلامي ، الطبعة الأولى 1991 م .
 - أدب القلوب في معاني التنزيه : علي بن محمد بن إبراهيم ، علماء الدين الخازن ، دار الفكر ، دون تاريخ .
 - لسان العرب : ابن منظور الإفريقي ، دار بيروت للطباعة و النشر ، دون تاريخ .
 - لسان العرب : ابن منظور الإفريقي ، تحقيق ، عبد الله طعيمة ، محمد أحمد حسب الله ، هاشم محمد الشاذلي ، دار المعارف بمصر ، دون تاريخ .
 - لسان السان : تهذيب لسان العرب : ابن منظور الإفريقي ، كتب بإشراف عبد الله مهنا دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1980 ، ص 1991 م .
 - لسان الميزان : ابن حجر العسقلاني ، تحقيق ، جمال أحمد عبد الموجود ، الشيخ علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1976 م .
 - اللطائف : ابن الجوزي تحقيق ، عبد الله بزاز ، مكتبة دار المحبة ، دمشق دون تاريخ .
 - لفظة الكبد : ابن الجوزي ، تحقيق ، أحمد الشحات الطحطاوي ، دار الكلمة للنشر و التوزيع المنصورة ، مصر ، الطبعة الأولى ، 1987 م .
 - لفظة الكبد إلى نصيحة الولد : ابن الجوزي ، تحقيق ، أبو العارث شرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، نشر ، دار المشهور ، ليبيا ، الجزائر ، سنة ، 1980 م .

(م)

- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : أبو الحسن السوي ، مكتبة رحاب ، الجزائر الطبعة السابعة عشر ، 1987 ، ص 198 .
 - مؤلفات ابن الجوزي : عبد الحميد العلوجي ، منشورات مركز المخطوطات و التراث و الثقافة ، الكويت ، الطبعة الأولى ، 1982 م .
 - المبدع في شرح المقنع : ابن مفلح الحنبلي ، تحقيق ، محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1997 م .
 - مثير الفرام الساكن : ابن الجوزي ، تحقيق ، حسن محمد حسن إسماعيل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1997 م .

- مجموعة رسائل ابن الجوزي : ابن الجوزي ، نشر ، دار ابن الجوزي تحقيق ، وليد حسر ، و هلال ناجي ، المملكة العربية السعودية .
- مجمع الزوائد و منبع الفوائد : أبو بكر الهيثمي ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- المجموع شرح المذهب : الإمام شرف الدين النووي ، دار الفكر للطباعة و النشر ، دون تاريخ .
- مجموع فتاوى ابن تيمية : لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، جمع و ترتيب ، عبد الرحمن ابن محمد بن قاسم ، مكتبة الرباط ، المغرب ، دون تاريخ .
- المحرر في الفقه على مذهب الإمام أحمد : مجد الدين أبي البركات ، تحقيق ، محمد حامد الفقي ، دار الكتاب العربي ، دون تاريخ .
- المحلى بالآثار : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأناسي ، تحقيق ، عبد الغفار سليمان للبنداري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1408 هـ ، 1988 م .
- مختار الصحاح : محمد بن أبي لكر الرازي ، رتبته ، محمود خاطر ، دار الحديث جوار إدارة الأزهر ، دون تاريخ .
- مختصر منهاج القاصدين : ابن قدامي المقدسي ، تحقيق ، زهير شاويش ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة ، 1403 هـ .
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين : ابن القيم ، تحقيق ، محمد حامد الفقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، 1402 هـ ، 1972 م .
- المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتوح البيانوني ، موسوعة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، 1995 م .
- مدخل إلى علم الدعوة : عبد الرب بن نواب الزين ، دار العاصمة ، السعودية ، الرياض ، الطبعة الأولى ، 1416 هـ .
- المدهش : ابن الجوزي ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، دون تاريخ .
- مرآة الجنان و عبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان : عبد الله بن علي بن سليمان اللبافعي ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1413 هـ ، 1993 م .
- مسار الدعوة في العهد المكي : محمد إبراهيم الجبوشي ، دار الطباعة المحمدية ، درب الأثرى بالأزهر ، الطبعة الثانية ، 1406 م .
- المستقرى على الصالحين : أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ، دار الكتاب العربي

بيروت ، لبنان ، دون تاريخ .

– المستدرك على مؤلفات ابن الحوزي : محمد باقر عنوان ، مجلة المورد ، وزارة الاعلام .

– المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة : عبد الكريم زيدان ، مؤسسة الرسالة

بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى .

– المسند : للإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، دار الفك ، دون تاريخ .

– مشكلات الدعوة و الداعية : فتحى يكن ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، دون تاريخ .

– مشيخة ابن الجوزي : ابن الجوزي ، تحقيق ، محمد محفوظ ، دار الغرب الإسلامي

اثينا ، اليونان ، الطبعة الثانية . 1400 ، 1980

– مشكلات في طريق الحياة الاسلامية : محمد الغزالي ، صدر ضمن سلسلة كتاب الأمة

رئاسة المحاكم الشرعية و الشؤون الدينية في دولة قطر ، سنة 1402هـ .

– المصباح المضيء في خلافة المستنصر ، دراسة و تحقيق ، ناجية عبد الله إبراهيم

مطبعة الأوقاف ، بغداد ، 1976م .

– المصباح المنير : الفيومي ، المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان ، دون تاريخ .

– المصنف : أبو بكر عبد الرزاق الصنعاني ، تحقيق حسب الرحمن الأعظمي منشورات

المجلس العلمي سورت الهند ، دون تاريخ .

– مع الله – محمد الغزالي ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1985 .

– معالم هادية على طريق الدعوة إلى الإسلام : الطيب برغوث ، دار الشهاب ، باتنة

الجزائر ، دون تاريخ .

– المعجم الأوسط : الحافظ الطبراني ، تحقيق ، محمود الطحان ، مكتبة المعارف ، الرياض

الطبعة الأولى ، 1335 هـ ، 1915 م .

– معجم البلدان : ياقوت الحموي ، تحقيق ، فريد عبد العزيز الجندي ، دار الكتب العلمية

بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1980 م .

– معجم الأدياء (إرشادات الأريب في معرفة الأديب) : ياقوت بن عبد الله الحموي ، دار

الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1381 هـ ، 1961 م .

– معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر : يسري عبد الغنى عبد الله ، دار

الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1411 هـ ، 1991 م .

– المعجم الوسيط : إبراهيم أنيس عطية الصوالحي ، عبد الحلیم منتصر ، محمد خلف الله

دار الفكر ، دون تاريخ .

— المعنى في الضعفاء : الذهبي ، تحقيق أبو الزهراء حازم القاضي ، دار الكتب العلمية

بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1418 هـ ، 1997 م .

— مفاتيح الغيب : فخر الدين الرازي ، دار الفكر ، الطبعة الثالثة ، 1989 م .

— مفردات القرآن تفسير وبيان : محمد حسن الحمصي ، دار الرشيد ، دمشق ، بيروت

دون تاريخ .

— مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، الطبعة السابعة

1400 هـ ، 1980 م .

— مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي : عبد الكريه بكار ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى

1410 هـ ، 1990 م .

— المعلق : ابن الجوزي ، تحقيق ، مجدي فتحى السيد ، دار الصحابة للتراث بطنطا مصر

الطبعة الأولى ، 1411 هـ ، 1991 م .

— مكانة المسجد ورسالته : منصور الرفاعي عبيد ، مطبعة العاصمة ، القاهرة ، الطبعة

الأولى 1078 م .

— الملل و النحل : عبد الكريه شهرستاني ، تحقيق ، محمد سيد الكيلاني دار المعرفة

بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، دون تاريخ .

— مناقب الإمام أحمد : ابن الجوزي ، طبع و توزيع ، الخانجي بمصر ، دون تاريخ .

— مناقب الحسن البصري : ابن الجوزي ، تقديم حسن السندولي ، نشر ، مكتبة الخانجي

القاهرة ، 1355 هـ ، 1931 م .

— مناقب معروف الكرخي : ابن الجوزي ، تحقيق ، صائق محمود الجميلي ، مجلة المورد

العدد الرابع ، المجلد التاسع ، سنة 1980 م

— مناهج الدعوة و أساليبها : علي جريشي ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، الطبعة الثانية

1400 هـ ، 1980 م .

— المنتظم : ابن الجوزي ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، راجعه ، نسيم زر زور ، دار

الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، 1999 م .

— المنتظم : ابن الجوزي ، تحقيق ، محمد الشيخ عبد الوهاب فضل ، رسالة دكتوراه مخطوطة .

— منهج ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير : عبد الرحيم بن أحمد طحان ، رسالة دكتوراه

مخطوطة ، كلية أصول الدين ، جامعة الأزهر .

- منهج ابن الجوزي في الدعوة الى الله : عبد الرحمن بن محمد الربيع المغذوي ، رسالة
دكتوراه مخطوطة ، نوقشت سنة 1110 هـ ، بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

- المنهج الدعوي في أصول المحاضرة الدعوية : هشام يوسف محمد بقلان ، دار المجتمع
للنشر والتوزيع ، جدة ، الطبعة الأولى ، 1405 هـ .

- منهج القصة في القرآن : محمد شديد ، شركة مكتبات عذظ للنشر والتوزيع ، المملكة
العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، 1405 هـ .

- منهج ابن القيم في الدعوة الى الله تعالى : احمد بن عبد الخلف ، مكتبة اضواء السلف
الرياض ، الطبعة الأولى ، 1405 هـ ، 1405 م .

- موازنة بين تفسير المحرر الوجيز لابن عطية و زاد المسير لابن الجوزي : رسالة
دكتوراه مخطوطة ، نوقشت ، بجامعة الأزهر ، عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة
سنة ، 1120 هـ ، 1990 م .

- موسوعة التاريخ الإسلامي : أحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة
الثامنة ، 1985 م .

- مواظ ابن الجوزي دراسة فنية تحليلية : عرفة حلمي عباس ، رسالة ماجستير مخطوطة
كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، نوقشت سنة ، 1405 هـ .

- للمواظ والمجالس : ابن الجوزي ، آراسه و ندهوه ، مجدي محمد الشهاوي ، مكتبة
الإيمان ، المنصورة ، أمام جامع الأزهر .

- المواظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار : نعم الدين المقرئزي ، الكتبة الثقافية
الدينية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1405 هـ .

- الموسوعة الصوفية : عبد المنعم الحفني ، دار الرشد ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1992 م .

- موسوعة المورد العربية : منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة
الأولى ، 1990 م .

- ميزان الاعتدال في نقد الرجال : شمس الدين الذهبي ، تحقيق ، علي محمد البجاوي
دار المعرفة ، دون تاريخ .

(ن)

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : جمال الدين يوسف ، بن ثغري بردي ، تحقيق

ابراهيم علي طر خان ، طبعه ، دارالكتب ، وزارة الثقافة ، المؤسسة المصرية
العامه للتأليف و النشر .

– نزهة الاعين النواظر في علم الوجود و النظائر : ابن الجوزي تحقيق ، محمد عبد الكريم
كاظم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، 1407 هـ ، 1987 م .

– بصوص دعوية من أحاديث خير البرية : حيدر بن أحمد الصافيح ، دار القلم ، دمشق
الطبعة الأولى ، 1420 هـ ، 2000 م .

– نواسخ القرآن : ابن الجوزي ، تحقيق ، حسين سليم أحمد الداربي ، دار الثقافة العربية
دمشق الطبعة الأولى ، 1990 م .

– نيل الأوطار : محمد بن علي الشوكاني ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 1973 م
(و)

– الوفا بأحوال المصطفى : ابن الجوزي ، تحقيق ، مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب
العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1988 .

– وفيات الأعيان و أنباء و أبناء الزمان : ابو بكر بن خلكان ، تحقيق ، إحسان عباس ، دار
صادر بيروت ، لبنان ، دون تاريخ .

(هـ)

– الياقوتة في الوعظ : ابن الجوزي ، تحقيق ، أحمد عبد التواب عوض ، دار الفضيلة
للنشر ، و التوزيع ، القاهرة ، دون تاريخ .

– اليواقيت الجوزية : ابن الجوزي ، تحقيق ، السيد عبد المقصود ، طبع مكتبة السنة
سنة 1480 هـ ، 1988 م .

المجلات و الدوريات

– مجلة الامة : جولة في المكتبة السليمانية في استانبول ، استطلاع للمجلة ، عدد 54 ، السنة
الخامسة ، جمادى الآخرة 1405 هـ ، مارس 1985 م .

– مجلة الباحث : السنة الحادية عشر ، عدد 56 ، تشرين الأول ، كانون الأول ، 1992 م

مقال : ابن الجوزي فاعلا و منفعلا في حياة بغداد السياسية في القرن السادس
الهجري ، مؤمنة حوف .